ايريك هوبزبوم

عصر مثير

رحلة عمر في القرن العشرين



ترجمة : معين الإمام



Author : Eric Hobsbawm	اسـم المـؤلـف :ايريك هوبزبوم
Title : Interesting Times	عنوان الكتاب :عصر مثير
A Twentieth-Century Life	رحلة عمر في القرن العشرين
Translator: Mouine Imam	المتـــــرجم :معين الإمام
Al- Mada P.C.	النـاشــــر :المدى
First Edition : 2007	الطبعة الأولى :٢٠٠٧
Arabic Copyright © Al- Mada	الحقوق العربية محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣

www.almadapaper.com

almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

ايريك هوبزبوم

عصر مثير

رحلة عمر في القرن العشرين

ترجمة: معين الإمام



المحتوى

مقدمة

ينبغي على كتّاب السير الذاتية أن يكونوا قراءً للسير الذاتية أيضا. فخلال مراحل تأليف هذا الكتاب فوجئت بعدد الرجال والنساء الذين عرفتهم ونشروا قصص حياتهم، ناهيك عن أولئك الأكثر شهرة أو إثارة للفضائح (عادة) والذين عهدوا بتدوينها إلى كتاب آخرين. وأنا هنا لا أدخل في حسابي العدد الكبير من السير الذاتية التي ألفها كتاب معاصرون وتنكرت بقناع القصص والروايات. لربما لا يوجد ما يبرر المفاجأة، فالأشخاص الذين تتضمن مهنتهم الكتابة والتواصل مع الآخرين ينزعون إلى التحرك حول أولئك الذين يفعلون الشيء ذاته. ومع ذلك، ها هي أمامنا: مقالات، ومقابلات، وكتب، وأشرطة تسجيل، وأشرطة فيديو، وأسفار، سطّر عددا كبيرا منها رجال ونساء أمضوا حياتهم المهنية في الجامعات. أنا لست الوحيد الفريد في هذا الأمر.

لكن السؤال الذي يفرض نفسه هو: لمَ يكتب شخص، مثلي، سيرة ذاتية؟ أو بصورة أدق: لمَ يجد هؤلاء الذين لم تجمعني بهم أية صلات خاصة، أو ربما لم يسمعوا حتى باسمي قبل رؤية غلاف الكتاب في واجهة المكتبة، أنه يستحق القراءة؟ أنا لا أنتمي إلى أولئك الذين يبدو أنهم مصنفون في خانة الفرع الخاص لقسم السير الذاتية في إحدى المكتبات اللندنية على الأقل، باعتبارهم من "الشخصيات المعروفة"، أو كما تسميهم اللغة الطنانة الدارجة هذه الأيام، "النجوم الشهيرة"، أي أولئك الذين ذاع صيتهم لسبب من الأسباب، بحيث يكفي مجرد ذكر أسمائهم لإثارة فضول القراء حول حياتهم. أنا لا أنتمي إلى الطبقة التي تستدعي حياة أفرادها (رجالا ونساء) أن يسموا سيرهم الذاتية "مذكرات"، بعد أن لعبوا أدوارا فاعلة على مسرح الحياة العامة الأوسع وارتأوا أن عليهم تسجيلها أو الدفاع عنها، أو الذين عاشوا قريبا من الأحداث الجسام

واتخذوا قرارات أثرت فيها. لم أكن واحدا منهم. ولربما يبرز اسمي على الأرجح في تاريخ واحد أو اثنين من الحقول التخصصية، مثل ماركسية وتأريخ القرن العشرين، وقد يظهر في بعض الكتب التي تتناول الثقافة الفكرية البريطانية في القرن العشرين. وفيما عدا ذلك، لن تتشكل فجوة يمكن تمييزها في رواية ما حدث في تاريخ القرن العشرين، في بريطانيا أو في أي مكان آخر في العالم، إذا ما غاب اسمي واختفى كليا عن النظر (مثلما اختفت شاهدة قبر والديّ في مقبرة فيينا المركزية، والتي بحثت عنها من دون طائل قبل خمس سنوات).

مرة أخرى، لم يكتب هذا المؤلف بأسلوب الاعتراف الذاتي الذي يحقق رواجا في مبيعات الكتب هذه الأيام، لأن المبرر الوحيد لمثل "رحلة الأنا" هذه هو النبوغ العبقري - أنا لست القديس أوغسطين ولا جان جاك روسو! هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لأنه لا يمكن لمؤلف سيرة ذاتية على قيد الحياة أن يقدم الحقيقة المحددة حول أمور تشمل أشخاصا آخرين على قيد الحياة - أيضا - دون جرح مشاعر بعضهم بصورة غير مبررة. لا أملك سببا وجيها لفعل ذلك. فهذا الحقل ينتمي إلى السير الحياتية لأشخاص فارقوا الحياة، وليس للسير الذاتية. وعلى أية حال، مهما بلغ حجم فضولنا حول هذه الأمور، فإن المؤرخين ليسوا من كتاب أعمدة الشائعات والأقاويل. والمزايا والحسنات العسكرية لجنرالات الجيش لا يحكم عليها تبعا لنجاح "أدائهم"، أو فشله، في الفراش! كما أن جميع المحاولات لاستخلاص مبادئ علم الاقتصاد الذي وضعه كينز أو شومبيتر من حياتهما الجنسية، الكاملة لكن المختلفة، محكوم عليها بالإخفاق. علاوة على كل ذلك، أظن أن القراء الذي يميلون إلى السير الحياتية التي "ترفع غطاء السرير" سيجدون سيرة حياتي مخيبة للآمال.

كما أن هذا الكتاب لم يكتب كاعتذار عن حياة مؤلفه. فإن كنتَ راغبا عن فهم القرن العشرين، اقرأ السير المبررة للذات، والخطط الموضوعة للدفاع عن المؤلفين الخطاة - التائبين، ونسختهم الخاصة عن الحقيقة. فكل هذه مجرد تحقيقات استجوابية تجري بعد الوفاة يأخذ فيها الجثمان دور المحقق الجنائي! إن السيرة الذاتية للمفكر تتناول بالضرورة أيضا أفكاره، ومواقفه، وأفعاله، لكن لا ينبغي أن تكون مرافعة دفاع. وأعتقد أن هذا الكتاب يحوي أجوبة عن أسئلة طرحت علي مرارا وتكرارا من قبل

الصحفيين وغيرهم من المهتمين بالحالة غير العادية التي يمثلها شخص ظل طيلة الحياة شيوعيا لكن غريب الأطوار نوعا ما: "هوبزبوم المؤرخ الماركسي"، لكن الإجابة عنها لم يكن هدفي. فالتاريخ يحكم على سياستي - وفي الحقيقة، حكم عليها بسخاء - والقراء يحكمون على كتبي. الفهم التاريخي هو ما أسعى إليه، لا الاتفاق، ولا القبول، ولا التعاطف.

لكن هناك بعض الأسباب التي تجعل الكتاب يستحق القراءة، بغض النظر عن فضول البشر حول حياة غيرهم من البشر. لقد عشت تقريبا معظم سنوات قرن يعتبر أكثر قرون التاريخ الإنساني روعة وترويعا. وأقمت في بعض البلاد ورأيت بعض الأشياء في عدة بلدان أخرى على امتداد ثلاث قارات. ولربما لم أترك علامة يمكن ملاحظتها على وجه العالم خلال مسيرة هذه الحياة الطويلة، رغم أنني تركت كمّا جيدا من الآثار المطبوعة على الورق، لكن مذ وعيت أنني مؤرخ في سن السادسة عشرة، راقبت وأصغيت لمعظم ما حدث وحاولت فهم تاريخ العصر الذي عشت فيه.

بعد أن كتبت تاريخ العالم في الفترة الممتدة بين أواخر القرن الثامن عشر وعام ١٩١٤، حاولت في نهاية المطاف أن أجرب كتابة تاريخ ما دعوته "عصر النهايات القصوى: موجز القرن العشرين"، وأعتقد أن الكتاب قد أفاد من حقيقة أنني لم أكتب عن التاريخ باعتباري باحثا أكاديميا بل بوصفي "مراقبا مشاركا" على حد تعبير الأنثروبولوجيين. وقد تم ذلك بطريقتين اثنتين. أولا، من الواضح أن ذكرياتي الشخصية عن الأحداث البعيدة في الزمان والمكان جعلت تاريخ القرن العشرين أكثر قربا إلى القراء الشباب، في حين أنها أيقظت من جديد ذكريات الشيوخ منهم. لقد ألفت هذا الكتاب بعاطفة وحماسة تنتميان إلى عصر النهايات القصوى، وهو يتجاوز باقي كتبي من هذه الناحية، مهما بلغت درجة الإكراه التي تفرضها التزامات الدراسة العلمية التاريخية. لقد أخبرني بهذا كلا النوعين من القراء. لكن فيما وراء ذلك، هنالك طريقة أعمق يساعد من خلالها التناسج بين حياة المرء وعصره، ومراقبة كل منهما، على تشكيل وصياغة تحليل تاريخي آمل أن يستقل بذاته عن الاثنين معا.

هذا ما يمكن للسيرة الذاتية أن تفعله. ففي معنى من المعاني، يعتبر هذا الكتاب بمثابة الوجه المقابل لـ"عصر النهايات القصوى": فهو لا يقدم تاريخ العالم مفسرا

بواسطة تجارب وخبرات أحد الأفراد، بل يعرض تاريخ العالم الذي يشكل تلك التجارب والخبرات، أو بالأحرى، التاريخ الذي يقدم جملة من الخيارات - المتغيرة لكن المحدودة دوما - التي "يصنع منها الرجال [حياتهم]، لكنهم لا يصنعونها كما يشتهون، ولا تحت ظروف اختاروها بأنفسهم، ولكن تحت ظروف تواجههم وتعرض لهم وتنقل من الماضي مباشرة " حسب عبارة كارل ماركس. ويمكن للمرء أن يضيف، أن كل ذلك يتم بواسطة العالم المحيط بهم.

بمعنى آخر، تعتبر السيرة الذاتية للمؤرخ (رجلا كان أم امرأة) جزءا هاما من بنية عمله. وإلى جانب الإيمان بالعقل والفارق المميز بين الحقيقة والخيال، فإن الوعي بالذات، أي الوقوف داخل الجسد وخارجه، يعتبر مهارة ضرورية للمشاركين في اللعبة في التاريخ والعلوم الاجتماعية كليهما، خصوصا بالنسبة لمؤرخ، مثلي، اختار موضوعاته بشكل غريزي واتفاقي، لكن انتهى به الأمر إلى جمعها معا في كلٍ متلاحم ومتسق. قد يركز مؤرخون آخرون اهتمامهم على هذه الجوانب الأكثر حرفية من كتابي. لكن آمل أن يقرأ غيرهم الكتاب كمدخل تمهيدي لأكثر القرون الاستثنائية روعة وفرادة في تاريخ الجنس البشري من خلال رحلة إنسان واحد لا يمكن لحياته أن تحدث في أي قرن آخر.

التاريخ يدور، كما قالت زميلتي الفيلسوفة اغنيس هيلر، "حول ما حدث منظورا إليه من خارج الذات، بينما تتناول المذكرات ما حدث منظورا إليه من داخل الذات". لا يستهدف هذا الكتاب الفوز بالاعتراف الأكاديمي، لكني سأقدم شكري لبعض الأشخاص واعتذاري لبعضهم الآخر. أقدم شكري قبل كل شيء إلى زوجتي مارلين التي شاركتني نصف سنوات حياتي، وقرأتْ ونقدت الفصول كافة (وأفرز ذلك نتائج إيجابية)، وتحملت كل الأعوام التي شاركت فيها زوجا مشتت الذهن، متعكر المزاج في أغلب الأحيان، ومحبطا في أحيان أخرى، عاش في ماض ناضل لترجمته على الورق أكثر مما عاش في الحاضر. أتوجه بالشكر أيضا إلى ستيورات بروفيت، "أمير" الناشرين. أما الذين استشرتهم طيلة السنين حول أسئلة تتعلق بهذه السيرة الذاتية فيفوق عددهم قدرتي على حصرهم والاعتراف بفضلهم، رغم أن بعضهم قد فارق الحياة منذ أن بدأت. وهم يعرفون سبب شكري لهم.

أقدم اعتذاري أيضا إلى مارلين وأفراد أسرتها. فهذه قد لا تكون السيرة الذاتية

التي يفضلونها. وبالرغم من أنهم كانوا حاضرين على الدوام، على الأقل منذ اللحظة التي دخلوا فيها حياتي واقتحمت فيها حياتهم، إلا أن هذا الكتاب يدور حول الحياة العامة أكثر من الخاصة. أعتذر أيضا من أولئك الأصدقاء، والزملاء، والطلاب وغيرهم من الذين غابت أسماؤهم عن هذه الصفحات، والذين توقعوا أن يجدوا من يتذكرهم هنا، أو يستحضرهم بشكل أكبر.

أخيرا، عملت على ترتيب هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء. فبعد التمهيد الوجيز، تغطي الفصول الشخصية ـ السياسية (١- ١٦) المرتبة ترتيبا زمنيا بصورة تقريبية، الفترة الممتدة من تاريخ بدء الذاكرة ـ في البدايات المبكرة من عشرينيات القرن ـ إلى أوائل التسعينيات. لكن ليس المقصود منها عرض الأحداث وفق تسلسلها الزمني. الفصلان ١٧ و ١٨ يتناولان مهنتي كمؤرخ محترف. في حين تدور الفصول ١٩ - ٢٢ حول البلاد أو المناطق (فيما عدا وسط أوروبا، مسقط رأسي، وإنكلترا) التي ارتبطت بها لفترات طويلة من سني حياتي: فرنسا، إسبانيا، إيطاليا، دول أمريكا اللاتينية وغيرها من بلدان العالم الثالث، والولايات المتحدة. ونظرا لأنها تغطي المدى الكامل لتعاملاتي وعلاقاتي مع هذه البلدان، فإنها لا تنطبق بسهولة على الخط السردي الرئيس المرتب زمانيا، رغم أنها تتداخل وتتشابك معه. ولذلك قررت إبقاءها منفصلة.

إيريك هوبزبوم

لندن، نيسان/أبريل ٢٠٠٢

-١-
تمهيد

في أحد أيام خريف عام ١٩٩٤، اتصلت بي زوجتي (التي تهتم بتسجيل مراسلاتي اللندنية أثناء قيامي بالتدريس في "نيو سكول" (New School) بنيويورك) لتقول بأن هناك رسالة من هامبورغ لم تتمكن من قراءتها لأنها مكتوبة بالألمانية. الرسالة بعثها شخص وقع باسم ميليتا. هل تستحق أن ترسل إلي؟ لا أعرف أحدا في هامبورغ، لكن عرفت بدون أي تردد مَن كتبها، رغم أن حوالي ثلاثة أرباع القرن قد مرت مذ رأيت صاحبة التوقيع آخر مرة. لا يمكن أن تكون سوى البنت الصغيرة ليتا - في الحقيقة كانت تكبرني بعام أو نحو ذلك - من فيلا سويتر في فيينا. كنت مصيبا. فهي التي كتبت الرسالة بعد أن رأت اسمي في مجلة "دي زايت" (Die Zeit) الليبرالية - السياسية الأسبوعية. واستنتجت على الفور أنني لا بد أن أكون إيريك، الذي لعب معها هي وأختيها قبل دهر طويل طويل. بحثتُ على عجل في "ألبومات صورها" وعثرت على صورة أرفقتها بالرسالة. في الصورة، وقف خمسة أطفال، مع فتاتين، على "سطيحة" صيفية لفيلا. البنات الصغيرات - وربما أنا أيضا - توجن رؤوسهن بأكاليل الزهر. ليتا كانت واقفة هناك مع شقيقتيها الأصغر عمرا روث وإيفا (لم تكن سوزي المعروفة دوما باسم بيتر، قد ولدت بعد)، وكنت أنا أقف مع شقيقتي نانسي. كتب والد ليتا تاريخا على الوجه الخلفي للصورة: ١٩٢٢ . سألتُ ليتا: كيف حال نانسي؟ كيف لها أن تعرف أن نانسي، التي تصغرني بثلاث سنين قد توفيت قبل سنتين؟ خلال زيارتي الأخيرة إلى فيينا ذهبت إلى البيوت التي عشنا فيها، وأرسلت صورها إلى نانسي. حسبت أنها الوحيدة التي مازالت تشاركني ذكرى فيلا سويتر. والآن عادت (الذكرى) إلى الحياة مجددا.

لدي تلك الصورة أيضا. ففي "ألبوم" صور العائلة التي أمثل آخر أفرادها، آخر الباقين من ذرية والدي وأقربائي، تشكل الصور الفوتوغرافية الملتقطة على سطيحة فيلا سويتر السجل الثاني الذي يثبت بالبينة وجودي، والأول بالنسبة لشقيقتي نانسي التي ولدت في فيينا عام ١٩٢٠ . أما السجل الأول بالنسبة لي فهو صورة تظهر على ما يبدو رضيعا في عربة أطفال خشبية كبيرة، ولا يوجد في الصورة أي شخص آخر. لا بد أن الصورة التقطت كما أفترض في الإسكندرية، حيث ولدت في حزيران/يونيو ١٩١٧، ليسجل ميلادي موظف في القنصلية البريطانية (أخطأ في تاريخ الميلاد وتهجئة اسم العائلة). الهيئات الديبلوماسية البريطانية هي التي أشرفت على قدومي إلى العالم حتى قبل أن أصبح جنينا في رحم أمي، فبالإضافة إلى تسجيل مولدي، تزوج أبي وأمي في قنصلية بريطانية أخرى (في زيوريخ)، بعقد رسمي موقع شخصيا من قبل السير إدوارد غري، وزير الخارجية، يسمح لأحد رعايا الملك جورج الخامس، ليوبولد بيرسي هوبزبوم، بالزواج من إحدى رعايا الإمبراطور فرانز جوزيف، نيللي غرون، في وقت كانت فيه الإمبراطوريتان تخوضان حربا ضارية ضد بعضهما البعض، وهي حرب سوف يستجيب لها والد المستقبل بما بقي لديه من مشاعر وطنية متحمسة لبريطانيا، في حين سوف تستنكرها والدة المستقبل. في عام ١٩١٥، لم يكن هناك تجنيد إلزامي في بريطانيا، لكن إذا أعلن فإن عليه، كما أخبرته الوالدة، أن يسجل اسمه كـ"معارض للخدمة في الجيش لاعتبارات أخلاقية يمليها ضميره" [1]. أحب أن أعتقد بأنهما تزوجا بواسطة قنصل يمثل الشخصية الرئيسية في مسرحية ستوبارد "صور زائفة". أحب أيضا أن أعتقد بأنهما حين كانا في انتظار السير إدوارد غري ليجد فسحة من الوقت في زحمة أموره العاجلة كي يلتفت إلى شأن زواجهما، قد عرفا المنفيين من أمثالهما في المدينة: لينين، وجيمس جويس، والدادائيين. لكنهما لم يعرفا هؤلاء كما يبدو واضحا، وفي حكم المؤكد تقريبا أنهم ما كانوا ليثيروا اهتمامهما آنئذ. فقد كانا أكثر انشغالا بشهر العسل القادم الذي سيقضيانه سويا في لوغانو.

كيف ستكون حياتي لو لم تقع الآنسة غرون، البالغة من العمر ثمانية عشر عاما

١- هذه الفقرة والتي تليها مستمدتان من رسائل والدتي إلى شقيقتها خلال شهر أيار/مايو من عام ١٩١٥ .

وإحدى البنات الثلاث لبائع مجوهرات من فيينا متوسط النجاح والثراء، في غرام رجل إنكليزي أكبر سنا، كان الابن الرابع لعائلة مؤلفة من ثمانية أبناء لمهاجر يهودي من لندن يعمل نجارا في الإسكندرية، عام ١٩١٣؟ كانت ستتزوج كما هو مفترض من شاب يهودي ينتمي إلى الطبقة الوسطى في وسط أوروبا، وسينشأ أولادهما كنمساويين. ونظرا لأن معظم الشباب النمساويين اليهود ينتهي بهم المطاف مهاجرين أو لاجئين، فإن حياتي لن تبدو بالتالي مختلفة كثيرا - العديد منهم يأتون إلى إنكلترا، يدرسون هنا ويصبحون أكاديميين. لكنني ما كنت لأنشأ/أو آتي إلى بريطانيا بجواز سفر بريطاني.

وحين لم يتمكن والداي من العيش في أي من الدولتين المتحاربتين، عادا عن طريق روما ونابولي إلى الإسكندرية، المدينة التي شهدت بالأصل لقاءهما وخطبتهما قبل الحرب، والتي يقيم فيها أقاربهما - عم والدتي ألبرت، الذي ما زلت أملك صورة لمتجره الضخم "نوفوتيه"، وشقيق والدي ايرنست الذي أحمل اسمه وكان يعمل في مصلحة البريد والبرق المصرية (نظرا لأن حياة الناس الخاصة تعتبر من المواد الخام للمؤرخين مثلما هي للروائيين، استخدمت الظروف التي جمعتها لتقديم التاريخ الذي كتبته عن "عصر الإمبراطوريات"). انتقل الاثنان إلى فيينا مع طفلهما البالغ من العمر سنتين حالما انتهت الحرب. ولهذا السبب لا تعتبر مصر، التي قيدتني بأغلال من التوثيق الرسمي طيلة الحياة، جزءا من حياتي. لا أتذكر عنها أي شيء على الإطلاق، فيما عدا قفصاً للعصافير الصغيرة في حديقة حيوانات نوجا، وجزء مشوش من أغنية يونانية للأطفال، تغنيها مربية يونانية كما هو مفروض. ليس هناك ما يلفت النظر فيما يتعلق بمسقط رأسي، ولا أذكر سوى الضاحية المعروفة باسم سبورتنغ كلوب، على طول خط الترام من مركز المدينة إلى الرملة، لكن لا يوجد الكثير مما يمكن ذكره حول ذلك، مثلما كتب إي. إم. فورستر الذي تزامنت إقامته في الإسكندرية تقريبا مع إقامة والدي. كل ما قاله حول محطة ترام سبورتنغ كلوب في كتابه "الإسكندرية، تاريخ ودليل" هو أنها :"قرب المنصة الكبرى لحلبة سباق الخيل. وهنالك شاطئ للسباحة إلى اليسار".

لهذا، ليس لمصر مكان في حياتي. لا أعرف متى تبدأ حياة الذاكرة، لكن لا يرجع

الكثير منها إلى عمر السنتين. فأنا لم أذهب إلى هناك أبدا منذ أن غادرت الباخرة "حلوان" ميناء الإسكندرية باتجاه تريستي، التي انتقلت لتوها من النمسا إلى إيطاليا. لا أتذكر أي شيء عن وصولنا إلى تريستي، نقطة التقاء اللغات والأجناس، مدينة المقاهي العديدة، وقباطنة البحار، ومقر شركة التأمين العملاقة "اسيكورازيوني جينرالي"، التي كانت إمبراطوريتها التجارية تحدد مفهوم "وسط أوروبا" بشكل أفضل من أي مؤسسة أخرى. بعد ثماني سنوات، اكتشفت ذلك في إحدى المناسبات بصحبة أصدقائي في المدينة، وخصوصا كلاوديو ماغريس، ذلك المدهش الذي أحيا ذكريات وسط أوروبا والركن الأدرياتيكي حيث تلتقي الثقافات الألمانية، والإيطالية، والسلافية، والهنغارية معا. اصطحبنا جدي الذي أتى لملاقاتنا إلى المحطة الجنوبية في فيينا وهنا بدأت حياتي الواعية، فقد عشنا مع جدي وجدتي لبضعة شهور، بينما كان والداي يبحثان عن شقة خاصة بنا.

شعر والدي بالثقة وبأنه غني نسبيا، بعد أن وصل ومعه مدخرات بالعملة الصعبة ـ ولم تكن هناك عملة أقوى من الجنيه الإسترليني في تلك الأيام ـ إلى بلد فقير تتجه عملته نحو الانهيار. بدت فيلا سويتر مكانا مثاليا. وهي أول مكان في حياتي فكرت به باعتباره "ملكا لنا".

كل من يأتي إلى فيينا بالقطار من جهة الغرب ما يزال يمر بها. وإذا نظرت من النافذة اليمنى حين يدخل القطار الضواحي الغربية من المدينة، عبر محطة "هوتيل دورف ـ هاكينغ"، يستحيل أن يفوتك ذلك المبنى البارز العريض المتوضع على قمة التلة، وترتكز قبته الرباعية الجوانب على برج خفيض. شيد البناء أحد الصناعيين الناجحين في أواخر أيام الإمبراطور فرانز جزيف (١٨٤٨-١٩١٦). أما الأرض المحيطة به فتصل حتى شارع اوهوف، الذي تحده من الغرب أسوار أراضي الصيد الإمبراطورية القديمة ("لينزر تيرغارتن")، التي يمكن الوصول إليها بواسطة شارع ضيق صاعد (أصبح اسمه الآن شارع سويتر)، وعند نهايته يقوم صف من الأكواخ المسقوفة بالقش.

فيلا سويتر التي أتذكرها من مرحلة الطفولة تتألف من القسم الذي سكنه الشباب والكهول من آل هوبزبوم حيث استأجروا الطابق الأول منها، والقسم الذي سكنه آل

غولد، الذين استأجروا شقة الطابق الأرضي تحتنا مباشرة. وهذه تتركز أساسا في سطيحة تقع على جانب المنزل، حيث مارست أجيال من كلتا الأسرتين حياتها الاجتماعية. ومن هذه السطيحة ينحدر (عميقا تبعا لذاكرتي) درب يؤدي إلى ملاعب التنس (شيدت فوقها أبنية الآن)، مارا بشجرة بدت عملاقة بالنسبة لصبي صغير، لكن لها أغصانا خفيضة تناسب التسلق. أتذكر أنني أفشيت أسرارها إلى صبي قدم إلى مدرستي من مكان يدعى "ريكلينغ هاوزن" في ألمانيا. وقد طُلب منا رعاية الصبي، بسبب الظروف الصعبة في المكان الذي أتى منه. لا أستطيع تذكر شيء يتعلق به فيما عدا الشجرة والبلدة التي ولد فيها في المنطقة التي تعرف الآن باسم "لاند نوردرهاين ويستفالن". وسرعان ما عاد إلى موطنه. وبالرغم من أنني لم أفكر بالأمر على هذا النحو، إلا أن ذلك كان أول اتصال لي مع الأحداث الكبرى في تاريخ القرن العشرين (أي الاحتلال الفرنسي لمنطقة الرور عام ١٩٢٣)، من خلال الأطفال الذين أرسلوا مؤقتا بعيدا عن الخطر إلى المحسنين وفاعلي الخير في النمسا (كافة النمساويين آنئذ كانوا يعتبرون أنفسهم من الألمان، ولولا اعتراض المشاركين في مؤتمر السلام بعد الحرب العالمية الأولى، لصوتوا لصالح الانضمام إلى ألمانيا). أتذكر بوضوح أيضا حين كنا نلعب في مخزن مليء بالتبن في مكان ما من الأراضي المحيطة، لكن عند زيارتي الأخيرة إلى فيينا مع مارلين بحثنا حول الفيلا ولم نعثر على المخزن. ومن الغريب أنني لا أتذكر شيئا عن داخل المنزل، فيما عدا انطباع مبهم يشير إلى أنه لم يكن مضيئا ولا مريحا. ولا أستطيع مثلا أن أتذكر شيئا حول الشقة التي كنا نسكنها ولا تلك التي أقام فيها آل غولد، باستثناء السقوف العالية.

وطد العلاقات المتبادلة بين الأسرتين خمسةُ أطفال (ازداد عددهم إلى ستة فيما بعد) في عمر ما قبل الذهاب إلى المدرسة، أو في السنوات الأولى من المرحلة الابتدائية على الأكثر، كانوا يلعبون في نفس الحديقة. انسجم آل هوبزبوم وآل غولد مع بعضهم البعض على الرغم من خلفيتهم المتباينة. ولم يكن يبدو على آل غولد أنهم يهود (برغم الاسم). وفي كافة الأحوال، بقوا/ وازدهرت أعمالهم في النمسا، أي في ألمانيا الكبرى بزعامة أدولف هتلر، بعد أن ضمها إليها. أتى السيد والسيدة غولد من قرية صغيرة ضائعة في جنوب النمسا، كان هو ابنا لمزارع ومالك النزل الوحيد في القرية، وكانت هي

ابنة صاحب المتجر الوحيد فيها (الذي يبيع كل شيء بدءا بالجوارب وانتهاء بالمعدات الزراعية). حافظ الاثنان على روابط قوية مع أسرتيهما هناك. وامتلكا ما يكفي من المال في عشرينات القرن لرسم لوحة لهما ـ هاهي أمامي النسخة منها بالأسود والأبيض أرسلت إلي بواسطة البنتين اللتين بقيتا على قيد الحياة من الأسرة قبل سنة أو نحوها. لكن صورة السيد غولد بملامحه الجادة وبذته الداكنة غير الرسمية وياقته المنشاة، لم تستحضر أية ذكرى، وفي الحقيقة لم يكن لي اتصال وثيق به حين كنت صبيا، رغم أنه أراني ذات مرة قبعته حين كان ضابطا قبل نهاية الإمبراطورية، وكان أول شخص عرفته يسافر فعلا إلى الولايات المتحدة، وقد ذهب إليها في رحلة عمل، وأحضر معه من هناك أسطوانة فوتوغراف ولا زلت أذكر اللحن الذي سجل عليها ("بائعة الفستق")، إضافة إلى معلومات حول صنع سيارة تدعى "بويك" وهو اسم وجدت من الصعب تصديقه لسبب مبهم.

ومن ناحية أخرى، فإن الصورة تظهر سيدة جميلة، بجيدها الطويل وشعرها القصير المتموج عند الجانبين، وهي تحدق من فوق كتفها العاري إلى العالم بنظرات جادة لكنها لا تنم عن ثقة كبيرة بالنفس، أعادتها إلى الحياة في ذهني على الفور. للأمهات وجود دائم أكثر حضورا في حياة الأطفال، وسرعان ما جمعت صداقة استمرت حتى النهاية بين والدتي، نيللي، المتعلمة، المثقفة، المتحررة من الأحقاد القومية والمحلية، وآنا (غولد) بتعليمها البسيط، ووعيها الدائم بأصولها الريفية. وفي الحقيقة، وتبعا لابنتها ميليتا، كانت نيللي صديقة آنا الحميمة الوحيدة. وهذا قد يفسر سبب بقاء صور آل هوبزبوم المجهولين في ألبومات أحفاد عائلة غولد الذين ظلوا مقيمين في فيينا. وتتذكر إحدى فتيات أسرة غولد، بوضوح يماثل وضوح ذكرياتي، ذهابها (مع أمها) لرؤية أمي في أواخر أيامها. وأخبرتها آنا نائحة: "لن نرى نيللي مرة أخرى".

وهكذا بدأ شخصان حياة طويلة بطول "القرن العشرين القصير" الرائع المريع من مكان مشترك، ثم تفرقت بهم السبل. ولهذا السبب بدأتُ الذكريات الراهنة حول الحياة المديدة بتذكار مفاجئ لصورة في ألبومات الأسرتين اللتين لا يوجد قاسم مشترك بينهما سوى حياتهما الوجيزة معا في فيينا في عشرينات القرن. لأن ذكريات بضع سنين من مرحلة الطفولة المبكرة التي يشترك فيها أستاذ جامعي متقاعد ومؤرخ متنقل من مكان

لآخر، مع ممثلة سابقة معتزلة، ومقدمة برامج تلفزيونية ومترجمة بين الحين والآخر ("مثل أمك!")، تعتبر أكثر قليلا من مجرد اهتمام خاص لكل منهما. وحتى بالنسبة لهما، فهي ليست أكثر من أوهى خيط من خيوط العنكبوت الواصل بين حافتي الفضاء الهائل الممتد على مدى سبعين سنة من حياتهما المنفصلة التي عاشاها دون أن يعرفا أو حتى يفكرا للحظة ببعضهما البعض. إنها التجربة الاستثنائية لأوروبيين عاشا خلال القرن العشرين الذي جمع حياتهما هذه معا. طفولة مشتركة أعيد اكتشافها، وعلاقة متجددة في أرذل العمر، تمسرحان الصورة الذهنية لعصرنا: الصورة العبثية، الساخرة، السوريالية، الوحشية. لم يخلق أي منهما هذا العصر. بعد عشر سنين من تحديق الأطفال الخمسة إلى عدسة الكاميرا، توفي والديّ، وكان المستر غولد، الذي سقط ضحية للكارثة الاقتصادية (في الواقع أفلست كافة بنوك وسط أوروبا عام ١٩٣١) يشد الرحال مع أسرته إلى إيران ليخدم النظام المصرفي هناك، حيث فضل الشاه أن يأتي العاملون في مصارفه من الإمبراطوريات البعيدة والمهزومة بدلا من المجاورة والخطرة. وبعد خمسة عشر عاما، حين كنت أدرس في جامعة إنكليزية، عادت بنات آل غولد من قصور شيراز، وبدأن جميعا العمل في مهنة التمثيل في البلد الذي يوشك أن يصبح جزءا من ألمانيا الكبرى بزعامة هتلر. وبعد عشرين سنة، كنت أرتدي اللباس العسكري للجيش البريطاني في إنكلترا، وشقيقتي نانسي تراقب الرسائل لصالح السلطات البريطانية في ترينيداد، في حين كانت ليتا تؤدي أدوارها تحت قصف قنابلنا في "كباريه دير كوميكير" في برلين زمن الحرب، أمام مشاهدين، ربما شارك بعضهم في القبض على أقاربي الذين ودعوا على الأرجح فتيات آل غولد وهم في طريقهم إلى معسكرات الاعتقال. بعد خمس سنوات، حين بدأت التدريس بين خرائب لندن المدمرة بالقنابل، توفي السيد غولد وزوجته ـ مات هو على الأرجح بسبب الجوع، بعيد الهزيمة والاحتلال مباشرة، وماتت هي نتيجة المرض بعد أن نقلت إلى منطقة الألب الغربي قبل النهاية.

الماضي "بلد" آخر، لكنه ترك وسمه على أولئك الذين عاشوا هناك ذات مرة. وخلفه أيضا على أولئك الأطفال الذين لا يؤهلهم عمرهم لمعرفته، إلا بواسطة الإشاعات، أو، حتى في حضارة مبنية بشكل لا تاريخي، للتعامل معه بوصفه "مسعى

تافها" حسب كلمات مسرحية شاعت لفترة وجيزة قرب نهاية القرن العشرين. لكن مهمة مؤرخ السيرة الذاتية لا تتمثل في مجرد زيارة الماضي مجددا، بل في سبره أيضا. فبدون عملية السبر هذه، كيف يمكننا اقتفاء سبل حياة ما من خلال مشاهدها المتغيرة، أو فهم لماذا ومتى نتردد ونتعثر، أو كيف عشنا مع أولئك الذين تناسجت حياتنا معهم واعتمدت عليهم؟ هذه الأشياء لا تلقي الضوء على حياة واحدة فقط بل على العالم برمته.

وهكذا، ربما يشكل كل ذلك نقطة انطلاق لمحاولة مؤرخ إعادة اقتفاء سبيل عبر الأرض الوعرة للقرن العشرين: خمسة أطفال صغار مع فتاتين يافعتين وقفوا أمام عدسة الكاميرا قبل ثمانين سنة على سطيحة بيت في فيينا، غير واعين (مثل آبائهم وأمهاتهم) أنهم مطوقون بحطام الهزيمة: إمبراطوريات مدمرة واقتصاد منهار؛ وغير مدركين (مثل آبائهم وأمهاتهم) أن عليهم أن يشقوا طريقهم عبر أصعب حقب التاريخ وأشدها فتكا وتدميرا وثورانا وتطرفا.

-٢-

طفل في فيينا

أمضيت طفولتي في العاصمة المفقرة لإمبراطورية عظمى، جرى ربطها بعد انهيارها (الإمبراطورية) بجمهورية ريفية صغيرة رائعة الجمال، لم تعتقد بإمكانية وجودها. ومع بعض الاستثناءات القليلة، آمن النمساويون بعد عام ١٩١٨ بوجوب أن يكونوا جزءا من ألمانيا الكبرى، ومنعتهم من ذلك القوى التي فرضت اتفاقية السلام على وسط أوروبا. لم تنجح المشكلات الاقتصادية خلال سنوات مرحلة طفولتي في تعزيز اعتقادهم بإمكانية قيام أول جمهورية اتحادية نمساوية. فقد شهدت لتوها ثورة، واستقرت مؤقتا تحت ظل حكومة من القساوسة الرجعيين برئاسة أسقف، اعتمادا على أصوات أهالي الريف المتدينين أو على الأقل المحافظين المتشددين. واجه هؤلاء معارضة شديدة من الاشتراكيين والماركسيين الثوريين الذين تلقوا دعما قويا في فيينا (لا العاصمة فقط بل الدولة المستقلة ذاتيا باسم الجمهورية الاتحادية) وتأييدا بالإجماع تقريبا من قبل كل الذين يعرّفون أنفسهم بوصفهم من "الشغيلة". وبالإضافة إلى الشرطة والجيش، اللذين كانا تحت سيطرة الحكومة، كان لدى كل من الطرفين ميليشيات شبه عسكرية اعتبرت اندلاع الحرب الأهلية مسألة وقت لا غير. لم تكن النمسا دولة غير راغبة بالوجود فقط، بل حالة مأزقية لا يمكن أن تستمر.

لم تستمر. لكن الاختلاجات الأخيرة لأول جمهورية نمساوية ـ دمار الاشتراكيين الديمقراطيين بعد الحرب الأهلية الوجيزة، واغتيال رئيس الوزراء الكاثوليكي على أيدي المتمردين النازيين، ودخول هتلر دخول الفاتحين إلى فيينا واستقباله بالترحيب والتهليل ـ حدثت بعد أن غادرت فيينا عام ١٩٣١ . ولم أعد إليها حتى عام ١٩٦٠، حين أصبحت نفس البلاد، تحت حكم ذات النظام الحزبي الثنائي المكون من الكاثوليك

والاشتراكيين، جمهورية صغيرة حيادية، مستقرة، ومزدهرة، وراضية تماما (وقد يقول البعض بأنها مبالغة في الرضا) بهويتها.

لكن ذلك ليس سوى استعادة مؤرخ للأحداث الماضية. كيف كانت تبدو طفولة طفل ينتمي إلى الطبقة الوسطى في فيينا عشرينات القرن؟ المشكلة تكمن في كيفية التمييز بين ما تعلمه المرء منذ ذلك الحين وبين ما عرفه المعاصرون أو فكروا به، والتفريق بين تجارب وردات فعل البالغين وبين أولئك الذين كانوا أطفالا آنذاك. إن ما عرفناه كأطفال ولدوا عام ١٩١٧ عن أحداث القرن العشرين (الذي كان ما يزال "فتيا")، والتي كانت مفعمة بالحياة في أذهان الأباء والأجداد ـ الحرب، الانهيار، الثورة، التضخم ـ هو ما أخبرنا به الكبار، أو على الأرجح ما سمعناه منهم عرضا وهم يتحدثون عنها. البينة المباشرة الوحيدة التي أثبتتها لنا هي الصور المتغيرة على الطوابع البريدية. فقد كان جمع الطوابع في عشرينات القرن، رغم أنه لا يفسر شيئا بحد بذاته، مدخلا تمهيديا مهما إلى التاريخ السياسي لأوروبا منذ عام ١٩١٤ . وبالنسبة لصبي بريطاني وافد، استطاع ذلك أن يمسرح التغاير بين الاستمرارية الثابتة لهامة الملك جورج الخامس على الطوابع البريطانية، وبين فوضى الإضافات على الطوابع البريدية، والأسماء والعملات الجديدة في القارة. الخط الآخر الوحيد الواصل إلى التاريخ أتى عبر العملات المعدنية والورقية المتغيرة لحقبة زمنية من الفوضى الاقتصادية. كنت واعيا بما فيه الكفاية لأدرك تغير العملة من الكرونه إلى الشيلنغ والغروشن، من العملة الورقية المتعددة الأصفار في قيمتها، إلى العملات الورقية والمعدنية، وعرفت بأنه قبل الكرونه كان هناك الغيلدن.

رغم أن إمبراطورية هابسبرغ قد انتهت، إلا أننا بقينا ـ إلى حد مدهش ـ نعيش على بنيتها التحتية، وتبعا للفرضيات التي سادت في وسط أوروبا في حقبة ما قبل عام ١٩١٤ . كان زوج واحدة من صديقات أمي، الدكتور الكسندر سزانا، يعيش في فيينا، ويعمل في صحيفة باللغة الألمانية (وهو أمر سبب القلق لزوجته) تقع مكاتبها على بعد ثلاثين ميلا إلى الجنوب على الدانوب، في منطقة نسميها الآن برسبورغ ويدعوها المجريون بوزوني، ثم أصبحت فيما بعد براتيسلافا، المدينة السلوفاكية الرئيسية في جمهورية تشيكوسلوفاكيا الجديدة (التي غدت الآن عاصمة جمهورية

سلوفاكيا المستقلة ذات السيادة). وباستثناء طرد المسؤولين الهنغاريين السابقين، فإن فترة ما بين الحربين لم تشهد بعد عمليات تطهير عرقي لسكانها الألمان، والهنغاريين، والتشيك، والسلوفاك المتعددي اللغات والثقافات طبعا، الذين استوعبوا يهود الكربات المؤمنين والمتغربنين، إضافة إلى الغجر وغيرهم. إذ لم تصبح بعد فعلا مدينة سلوفاكية لـ"البراتسلافيين"، وظل أولئك الذين يتذكرون ما كانت عليه الحال حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية، يميزون أنفسهم باعتبارهم من "البرسبورغيين". ذهب الرجل إلى هناك وعاد بواسطة ترام ينطلق من شارع في قلب فيينا إلى عقدة من الشوارع المركزية في برسبورغ. دشن الترام في ربيع عام ١٩١٤ حين كانت المدينتان تابعتين لنفس الإمبراطورية، واعتبر نصرا للتقانة الحديثة؛ على شاكلة "قطار الأوبرا" الشهير الذي استخدمه مثقفو برنو في مورافيا لقضاء أمسية في أوبرا فيينا التي تقع على بعد ساعتين. عمي ريتشارد عاش في فيينا ومارينباد كلتيهما، حيث كان يملك في هذه الأخيرة متجرا للسلع الفاخرة. لم تصبح الحدود بعد عصية على الاختراق، كحالها بعد أن دمرت الحرب جسر قطار برسبورغ عبر الدانوب. مازال بالإمكان رؤية بقايا الجسر المدمر حتى عام ١٩٩٦، حين ساعدت في تقديم برنامج تلفزيوني عنه.

كان عالم الطبقة الوسطى في فيينا، وعلى الأخص اليهود الذين شكلوا نسبة كبيرة منها، ما يزال عالم المنطقة الشاسعة للتعددية اللغوية التي حول المهاجرون منها، خلال الثمانين سنة الماضية، عاصمتها إلى مدينة يقطنها مليونا نسمة - وهي أكبر مدينة في القارة الأوروبية (باستثناء برلين) بين باريس ولينينغراد. أقرباؤنا أتوا من/أو ما زالوا يعيشون في أماكن مثل بيليتز (في بولندا الآن)، أو كاشاو (في تشيكوسلوفاكيا)، أو غروس فاردين (في رومانيا الآن) [1]. أصحاب متاجر البقالة وبوابو العمارات في الشقق التي نقطنها كانوا كلهم تقريبا من التشيك، كما لم تكن خادماتنا وجليسات أطفالنا من سكان فيينا الأصليين: ما أزال أذكر الحكايا عن "المستذئبين" التي كانت ترويها لنا واحدة من سلوفينيا. لم يشعر أي من هؤلاء أن جذوره قد اجتثت أو قطعت من "البلد القديم"، وذلك على العكس مثلا من الأوروبيين

١- استخدمت عمدا الأسماء الألمانية لهذه الأماكن نظرا لأنها هي التي استعملناها آنئذ ، رغم أن لكافة البلدات - من أي حجم كانت - في مختلف أصقاع الإمبراطورية اسمان أو ثلاثة .

المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لأن البحر المحيط بالنسبة للأوروبيين في القارة يمثل خطا فاصلا عظيما يقسم بين عالمين، في حين أن السفر بواسطة القطار، مهما بلغ طول المسافة، كان شيئا اعتاده الجميع. حتى جدتي "العصبية" لم تشعر بأن من الصعب عليها القيام برحلات قصيرة إلى برلين لزيارة ابنتها.

كان مجتمع فيينا متعدد الجنسيات، لكن ليس متعدد الثقافات. فاللغة الألمانية (بلهجتها المحلية) هي لغته السائدة، والثقافة الألمانية (مع لمسة محلية) هي ثقافته المهيمنة، ووسيلته للوصول إلى ثقافة العالم، قديمها وحديثها. ولسوف يشعر أقاربي بنفس مشاعر السخط والاستياء الحادة التي أحسها مؤرخ الفن الكبير ارنست غومبرتش، حين طلب منه، على غرار الأساليب الشائعة في نهاية القرن العشرين، أن يصف الثقافة السائدة في مدينته فيينا باعتبارها يهودية. كانت تلك ثقافة الطبقة الوسطى المدينية الخالصة في فيينا، ولم تتأثر بحقيقة أن العديد من ممارسيها البارزين كانوا من اليهود، وعرفوا أنفسهم (في مواجهة وباء معاداة السامية الذي انتشر في المنطقة) بأنهم يهودا، أكثر من تأثرها بحقيقة أن بعضهم قد أتى من مورافيا (فرويد ومالر)، وبعضهم الآخر من غاليسيا أو بوكوفينا (جوزيف روث)، أو من روس على الدانوب البلغاري (الياس كانيتي). ومن غير المجدي البحث عن العناصر والإشارات اليهودية الواعية في أغنيات ايرفينغ بيرلين، أو في الأفلام الهوليودية في حقبة الاستوديوهات الكبرى، التي كانت كلها بإدارة مهاجرين يهود: فهدف هؤلاء، وقد نجحوا في تحقيقه، كان بالضبط نظم أغنيات وصنع أفلام تعبر عن البيئة الأمريكية بنسبة مائة بالمئة.

وباعتبار الأطفال ناطقين بلغة الثقافة (kultur sprache) في عاصمة إمبراطورية سابقة، اشتركوا بشكل غريزي بشعور من التفوق الثقافي، وإن لم يعد سياسيا. فالطريقة التي يتحدث بها التشيك الألمانية كانت تصدمنا بوصفها وضيعة وبالتالي مضحكة، تماما مثل اللغة التشيكية غير المفهومة بتراكم أحرفها الصامتة الواضح. وبدون أن نعرف الطليان، أو يكون لدينا أي رأي حولهم، كنا نشير إليهم بنوع من الازدراء. فقد كان يهود فيينا المتحررون الذين يمثلهم المجتمع يتحدثون عن اليهود الشرقيين وكأنهم مخلوقات أخرى (أتذكر بوضوح أنني أحرجت شيخا طاعنا في السن

في العائلة بسؤالي عما إذا كان لليهود الشرقيين أسماء عائلية مثلنا، وإذا كانت لهم أسماء فما هي، لأنهم على ما يبدو بوضوح مختلفين تمام الاختلاف عنا). يبدو لي أن ذلك يفسر الحماس الذي أظهره النمساويون في ترحيبهم بضم بلادهم إلى ألمانيا الهتلرية: فقد أعاد إليهم شعورهم بالتفوق السياسي. وفي ذلك الوقت، لاحظت أن واحدا أو اثنين فقط من زملاء الصف في المدرسة الثانوية كانا من حملة الصليب المعقوف. ونظرا لأنني صبي إنكليزي، مهما بدوت غير متميز ثقافيا عن النمساويين، فإن ذلك لم يكن يعنيني مباشرة. لكنه دفعني إلى السياسة.

ولأن الهوى النمطي المميز للقرن العشرين، أي الالتزام السياسي، سوف يتملكني في وقت مبكر من العمر ولمدة طويلة من الزمن، يبدو من المنطقي أن أسأل عن عمق جذوره التي يمكن العثور عليها في طفولة أمضيتها في فيينا عشرينات القرن. من الصعب معرفة ذلك. لقد عشنا في حقبة غارقة بالسياسة، رغم أن شؤون وأحداث العالم الأوسع قد أتت إلينا بشكل رئيس، كما أشرت، من خلال سماع حديث البالغين عنها عرضا، والتي لم يفهم الأطفال معناها تمام الفهم. أتذكر مناسبتين اثنتين سمعت فيهما مثل هذه الأحاديث، تعودان إلى عام ١٩٢٥ أو نحوه. كانت الأولى في مصحة في جبال الألب حيث أرسلت إلى هناك للعلاج من مرض أصابني (على ما يبدو كنا نصاب دوما بالأمراض حين كنا صغارا) تحت إشراف خالتي غريتيل التي كانت تمضي فترة نقاهة هناك. سألتْ امرأة في منتصف العمر أتذكر، أو أتخيل، على نحو مبهم أنها كانت قريبة لي من ناحية الأم، لكن دون أن تغيب عنها لمسة من الرضا: "مَن تروتسكي هذا؟ مجرد فتى يهودي يدعى برونشتاين". علمنا بالثورة الروسية، لكن ما هي بالضبط؟ المناسبة الثانية كانت لقاء رياضيا أخذني إليه عمي (ووالدي كما يفترض)، وما جعله لا يغيب عن الذاكرة تجربتي الأولى مع لاعب قفز أسمر يدعى كاتور. قال أحدهم: "تقول بأنه لا توجد حرب في أي مكان من العالم الآن؟ ألا تعلم بأن هناك ثورة في سورية؟". ما الذي كان يعنيه ذلك - أو يمكن أن يعني - لنا؟ كنا نعرف بأن هناك حربا عالمية قد جرت، مثل أي طفل بريطاني ولد عام ١٩٤٤ وعرف بأن حربا كانت تجري. اثنان من أعمامي البريطانيين شاركا فيها، وجارنا المستر غولد أراني قبعته التي اعتمرها حين كان ضابطا في الجيش، وأعز أصدقائي أيضا يتمته

الحرب ـ واحتفظت أمه بسيف زوجها معلقا على الجدار. لكن لم أعرف أحدا، من الإنكليز أو النمساويين، اعتبر الحرب العظمى حدثا بطوليا، والمدارس النمساوية لزمت الصمت إزاءها، لأنها تهم بلدا آخر في زمان آخر ـ إمبراطورية هابسبرغ السابقة ـ من جهة، وربما لأن الجيوش النمسوية، من جهة أخرى، لم تحقق أمجادا تستحق الذكر خلالها. ظل الأمر على هذا النحو إلى أن ذهبت إلى برلين وعرفت أن مدير المدرسة كان ضابطا سابقا يفاخر بخدمته على خطوط الجبهة. أما قبل ذلك، فإن معظم الصورة الراسخة في ذهني عن الحرب العظمى قد تشكلت من كتاب كارل كراوس الوثائقي الدرامي المدهش "آخر أيام الإنسانية" (The Last Days of Humanity) الذي ابتاعته كل من أمي وخالتي غريتيل حالما صدر عام ١٩٢٢ . وما أزال أملك نسخة الوالدة منه وأعود إلى قراءته بين الحين والآخر حتى الآن.

ما الذي نعرفه أيضا عن العصر الذي عشنا فيه؟ اعتبر تلاميذ المدارس في فيينا إن من المسلم به أن يختار الناس واحدا من حزبين اثنين ـ الاشتراكيين المسيحيين والاشتراكيين الديمقراطيين أو الحمر. وكان افتراضنا الواقعي البسيط يشير إلى أنه إذا كنت مؤجرا فإنك تصوت لصالح الحزب الأول، أما إن كنت مستأجرا فإنك تصوت لصالح الثاني. ونظرا لأن معظم سكان فيينا هم من المستأجرين، فإن من الطبيعي أن يجعل ذلك من فيينا مدينة حمراء. وحتى بعد اندلاع الحرب الأهلية عام ١٩٣٤، لم يتمتع الشيوعيون بقدر كبير من الأهمية، بحيث أن عددا من أشد المتحمسين منهم اختاروا ممارسة نشاطهم في بلدان أخرى ـ ألمانيا بشكل رئيسي ـ حيث يتسع المدى والمجال أمامهم. ومن هؤلاء عائلة ايسلر الشهيرة: هانس، المؤلف الموسيقي؛ غيرهارد، عضو الشيوعية الدولية؛ الفريد، شقيقتهما المرعبة المعروفة باسم روث فيشر، التي أصبحت لفترة وجيزة زعيمة الحزب الشيوعي الألماني. وفي تشيكوسلوفاكيا أيضا، مثل ايغون ايروين كيش. (بعد سنوات عديدة أصبح جورغ ايسلر، ابن هانس، واحدا من أعز أصدقائي). أتذكر أنني أظهرت اهتماما بالشيوعي الوحيد في الحلقة المحيطة بالأخوات غرون، الذي كان يكتب باسم مستعار هو ليو لينيا، والذي كان حينذاك شابا يافعا أعلن أن كتاب زولا "العمل" هو كتابه المفضل، وأن يوجين اونيغين وسبارتاكوس هما بطلاه المفضلان في الأدب والتاريخ. عائلتنا بالطبع لم تكن مع السود ولا الحمر،

نظرا لأن السود كانوا معادين للسامية، ولأن الحمر يناصرون الشغيلة لا الطبقة التي ننتمي إليها. إضافة إلى أننا إنكليز، ولذلك لم يكن الأمر يعنينا.

ومع ذلك فإن الانتقال من المدرسة الابتدائية إلى الثانوية، ومن الطفولة إلى البلوغ في فيينا أواخر العشرينات، يكسب المرء وعيا سياسيا طبيعيا مثل الوعي الجنسي. في صيف عام ١٩٣٠، عقدت في فيير، وهي قرية في النمسا العليا حيث كان الأطباء يحاولون عبثا معالجة رئتي والدتي، أواصر الصداقة مع هالر بيتر، وهو صبي من العائلة التي استأجرنا منها مكان إقامتنا. (تبعا لتقاليد الدول البيروقراطية، يأتي اسم العائلة قبل الاسم الأول). قمنا بالصيد معا، وسرقنا الثمار من البساتين سويا، وحسبت أن ما قمنا به قد أمتع شقيقتي أيضا، لكن التجربة ـ كما اعترفت لي بعد العديد من السنين ـ قد أرعبتها. ونظرا لأن والده يعمل في السكك الحديدية، فإن العائلة كانت من الحمر: في النمسا، وخصوصا في الريف، لم يكن يخطر على بال أي عامل غير زراعي أن يكون شيئا آخر. ورغم أن بيتر، الذي كان في مثل عمري، لم يكن مهتما بشكل ظاهر بالشؤون العامة، إلا أنه اعتبر أن من الأمور المسلم بها أن يكون من الحمر؛ وحين كنا نقذف الحجارة على السمك ونسرق التفاح، قررت أنا أيضا بطريقة ما أن أكون واحدا منهم.

قبل ذلك بثلاث سنين، أذكر عطلة صيفية أخرى أمضيتها في قرية بجنوب النمسا تدعى ريتينيغ، وقعت خلالها حادثة توضعت في حياتي الخاصة بشكل مبهم، لكنها اتخذت مكانا راسخا في التاريخ. كالعادة، لم يذهب الوالد معنا وبقي في عمله في فيينا. في صيف عام ١٩٢٧، خرج العمال، الذين أغضبهم إطلاق سراح اليمينيين الذين قتلوا بعض الاشتراكيين في شجار جرى بينهم، إلى الشوارع في حشود كبيرة، وأحرقوا قصر العدل في شارع رينغ (الشارع العريض الدائري الذي يحيط بمركز فيينا القديمة)، لكن ذبح منهم خمسة وثمانون. ويبدو أن والدي قد حوصر وسط أعمال الشغب لكنه تمكن من النجاة. ليس لدي شك أن الكبار (وأمي من بينهم) قد ناقشوا الحادثة بشكل مكثف، لكنني لا أستطيع القول بأنها مارست أي تأثير فيّ، وذلك على العكس من الحكاية التي تقول: "كان يا ما كان في سالف العصر والأوان .. مرت سفينة أبي وهي في طريقها إلى مصر، قرب صقلية عندما حدث زلزال مسينا المدمر

عام ١٩٠٨". ما أذكره فعلا من تلك العطلة هو مراقبة العمال المهرة المحليين وهم يبنون قاربا خارج منزلنا المستأجر، وغابات الصنوبر في الجبل الذي قمت باستكشافه لوحدي، وصعدت منحدراته إلى أن وصلت إلى موقع العمال الذي يقطعون الأخشاب، حيث قدموا لي بعضا من طعامهم ("الستيرز"، وهو مزيج من الحبوب يعيشون عليه خلال عملهم في الغابات). في الطريق إلى هناك، رأيت للمرة الأولى في حياتي طائر نقار الخشب الضخم الأسود اللون، وبدا بطوله البالغ قدما ونصف القدم والريش الأحمر على هامته، وهو ينقر جذعا في فسحة وسط الغابة والأشجار الصامتة، كأنه ناسك مصغر يقف متوحدا في معتزله.

ومع ذلك قد يكون من المبالغة القول إن العطلة الصيفية في قرية فيير قد جعلت مني سياسيا. إذ لا يمكن رؤية طفولتي بمثابة عملية تسييس إلا الآن، من خلال الاستعادة التأملية لأحداث الماضي. في ذلك الوقت كانت العناصر المحددة لحياتي هي اللعب والدراسة، والأسرة والمدرسة، مثلما حددت حياة معظم أطفال فيينا في عشرينات القرن العشرين. وبالفعل، فإن كل ما خبرناه قد أتى إلينا عبر هذه الطرق، أو أدخل بشكل أو بآخر ضمن هذه الأطر.

من بين شبكتي العلاقات التي شكلت معظم العناصر الفاعلة في حياتي، كانت العائلة هي الأكثر ديمومة واستمرارية إلى حد بعيد. فقد تكونت من عشيرة كبيرة تعيش في فيينا، مؤلفة من أقارب جدي وجدتي، وجزء أصغر من الفرع الإنكليزي ـ النمساوي المكون من شقيقتين من آل غرون، أمي وأختها الصغرى غريتيل، متزوجتين من شقيقين من آل هوبزبوم (والدي وشقيقه الأصغر سيدني)، عاشوا جميعا في فيينا معظم سنوات عقد العشرينات. أما بالنسبة للمدرسة، فإن الصبي لا يذهب إليها قبل أن يبلغ من العمر ست سنين. بعد ذلك، ومع تغيير عناوين السكن، دخلت مدرستين ابتدائيتين وثلاث مدارس ثانوية، في حين دخلت شقيقتي ـ التي غادرت فيينا قبل أن تبلغ من العمر عشر سنين ـ مدرستين ابتدائيتين. في مثل هذه الظروف، تنزع الصداقات المدرسية لأن تكون مؤقتة. كل الذين سأعرفهم في المدارس الخمس في فيينا سيختفون كليا من حياتي اللاحقة باستثناء واحد فقط.

من ناحية أخرى، كانت الأسرة عبارة عن شبكة عملية وفعالة، لا تقتصر الصلات

الجامعة بين أفرادها (أمهات، وأطفال، وأحفاد، وأشقاء وشقيقات) على الروابط الوجدانية والعاطفية فقط، لكن تتعداها أيضا إلى الحاجة الاقتصادية. فما قدمته دولة الرعاية الاجتماعية الحديثة في العشرينات لم يلامس عائلات الطبقة الوسطى، لأن قلة قليلة من أفرادها يعملون بأجر. من أي مصدر آخر إذن يمكن للمرء أن يطلب العون والمساعدة؟ وكيف يمكن له ألا يمد يد العون إلى أقربائه المحتاجين، حتى وإن لم يكن يحبهم بشكل خاص؟ لا أعتقد أن ذلك سمة خاصة تميز العائلات اليهودية وحدها، رغم أن أسرة والدتي في فيينا امتلكت دون ريب شعورا بأن الأقرباء والقريبات الذين يعيشون في فيينا على الأقل يشكلون جماعة واحدة، اعتاد أفرادها اللقاء من فترة لأخرى - كانت الجلسات دائما، كما أتذكر، طويلة ومملة، حيث يجلس المشاركون على طاولات في مقهى في الهواء الطلق - لاتخاذ قرارات عائلية أو لمجرد تبادل الحديث. كانت تقدم لنا المثلجات، لكن المسرات القصيرة لا يمكن أن تعوض عن ساعات الضجر الطويلة. وإذا ما اتصفت هذه الاجتماعات بأية سمات يهودية خاصة، فقد تمثلت في الافتراض الذي يتبناه الجميع بأن العائلة عبارة عن شبكة ممتدة تخترق الدول والمحيطات، وأن الانتقال بين الدول هو جزء طبيعي من الحياة، وأنه بالنسبة للذين ينخرطون في عمليات البيع والشراء - كحال العديد من أفراد العائلات اليهودية - يعتبر كسب الرزق أمرا يكتنفه الغموض والمفاجآت غير المتوقعة، خصوصا في حقبة الكارثة التي اجتاحت وسط أوروبا منذ انهيار الحضارة في آب/أغسطس ١٩١٤ . وكما تبين لاحقا، لن يحتاج أي فرع من عائلة هوبزبوم - غرون إلى شبكة أمان النظام الأسري أكثر من والدي ووالدتي، خصوصا بعد أن غير موت والدي الحالة الاقتصادية من أزمة مستمرة إلى أزمة كارثية. لكن حتى ذلك الحين - أي بعد أن تجاوزت الحادية عشرة - لم نكن نحن الأطفال ندرك كل ذلك.

مازلنا نعيش في حقبة اعتبر فيها ركوب سيارة أجرة (تاكسي) بمثابة تبذير بحاجة إلى تبرير خاص، حتى بالنسبة للميسورين نسبيا. وكنا - أو على الأقل كنت أنا - نملك الأشياء العادية التي يملكها أصدقاؤنا، ونقوم بكل الأمور التي يقومون بها. أستطيع تذكر مناسبة واحدة فقط راودتني فيها فكرة غامضة عن صعوبة الحياة آنذاك. كنت قد دخلت لتوي المدرسة الثانوية. والأستاذ المسؤول أعطانا قائمة بالكتب التي يتوجب

علينا شراؤها. في الجغرافيا كنا بحاجة إلى أطلس ضخم وغالي الثمن نوعا ما. سألتني أمي: "إنه باهظ الثمن، هل من الضروري أن تشتريه؟". نقلت نبرتها إلي بكل وضوح إحساسا بالأزمة، ولو اقتصر السبب على وضوح الجواب عن سؤالها. الأطلس ضروري بالطبع. كيف لا تعرف "ماما" ذلك؟ تم شراء الكتاب، لكن ظل يراودني الإحساس بأن تضحية كبرى قد قدمت في هذه المناسبة على الأقل. ولربما يكون هذا هو السبب الذي جعلني أحتفظ بالأطلس حتى الآن على رف مكتبتي. ورغم أنه مهترئ قليلا ومليء بكتابات وهوامش طالب في السنة الأولى من المدرسة الثانوية، إلا أنه ما يزال مرجعا جيدا أعود إليه بين الحين والآخر.

ربما كان الأطفال الآخرون من أترابي أكثر وعيا بمشكلاتنا المادية. إذ لم أكن أدرك تماما في هذه المرحلة الوقائع العملية؛ ولم يشكل البالغون، طالما لم تتداخل أنشطتهم واهتماماتهم مع أنشطتي واهتماماتي، جزءا من الحقيقة الواقعية العملية بالنسبة لي. على أية حال، عشت معظم الوقت في عالم لا تفصل فيه حدود واضحة بين الحقيقة، والاكتشافات المستخلصة من القراءة، وإبداعات الخيال. وحتى بالنسبة لطفل لديه إحساس أكثر تشبثا بالحقيقة، مثل شقيقتي، فإنه لم يكن ليملك فكرة واضحة عن وضعنا. مثل هذه المعرفة لم يكن يفترض بها أن تشكل جزءا من عالم طفولتنا. على سبيل المثال، لم يكن لدي فكرة عن العمل الذي يقوم به والدي. ولم يكلف أحد نفسه عناء إخبار الأطفال بمثل هذه الأمور، وعلى أية حال، فإن الطرق التي يكسب فيها أمثال أبي وعمي رزقهم كانت بعيدة كل البعد عن الوضوح. لم يكن لديهم مهنة يمكن وصفها بشكل محدد، مثل مهنة الأطباء، والمحامين، والمهندسين، ورجال الشرطة، وأصحاب المتاجر. وحين يسألني أحدهم ماذا يعمل والدك، أجيب، أو أكتب بشكل مبهم "تاجر"، وأنا أعلم تمام العلم أن ذلك لا يعني شيئا، وأنه خاطئ بالتأكيد. لكن ما بوسع الصبي أن يقول غير ذلك؟

يعود جزء كبير من السبب وراء افتقارنا ـ أو على الأقل افتقاري ـ إلى المعرفة بحقيقة وضعنا المالي إلى إحجام، بل رفض، أسرتي الاعتراف به. لم يكن الأمر يتعلق بتمسكها بالملاذ الأخير للطبقة الوسطى التي تواجه أوقاتا صعبة، أي "الحفاظ على المظاهر". فقد كانت مدركة لحجم الصعوبة التي تواجهها. "إن رؤية ذلك يحدث في فترة

حياتنا المفقرة التي هبطت إلى المستوى البروليتاري لأمر يفرح القلب"، حسبما كتبت جدتي إلى ابنتها، وهي تعبر عن إعجابها بحفلة زفاف سخية لابن أخ لها، ملاحظة بمرارة أن العريس قد قدم لعروسه "خاتما رائع الجمال وغالي الثمن، صنعناه بأيدينا" في الأيام الخوالي التي كنا فيها أفضل حالا. أي قبل أن يعود جدي غرون وهو في أرذل العمر، وقد تقلصت قيمة مدخراته بسبب التضخم الهائل الذي حدث في أوائل العشرينات لتعادل ثمن فنجان من القهوة وقطعة من الكاتو في مقهى "اليون"، إلى مزاولة مهنة شبابه كتاجر متجول يبيع الحلى الصغيرة في البلدات الريفية وقرى الألب. شرائح عريضة من الطبقة الوسطى النمساوية كانت على نفس الحال، بعد أن أفقرتها الحرب وفترة ما بعد الحرب، وبدأت تعتاد شد الأحزمة على البطون وتتبع أسلوب حياة أكثر تواضعا بمراحل مقارنة بحالها "زمن السلم"، أي قبل عام ١٩١٤ (لم يعد أي وقت يعتبر فترة سلام بعد عام ١٩١٨). ووجدت أن الحياة بدون مال أمر صعب الاحتمال بالنسبة لها ـ أصعب عليها من العمال الذين اعتادوا، برغم كل شيء، شظف العيش حسب تفكيرها. (فيما بعد، حين أصبحت شيوعيا متحمسا في سن المراهقة، هزت خالتي غريتيل رأسها استياء بسبب رفضي القبول بما هو في رأيها عرضا بدهيا). لا يعني ذلك أن الأزواج الإنكليز لبنات غرون كانوا أفضل حالا. إذ فشل اثنان منهم فشلا ذريعا في التكيف مع قانون الغاب المهيمن على اقتصاد السوق: والدي، والسيد ولفريد براون، الشاب الوسيم الذي أسر خلال الحرب، وتزوج الشقيقة الكبرى، ميمي. وحتى عمي سيدني، الأخ الوحيد من بين أشقاء آل هوبزبوم الذي استطاع أن يكسب رزقه في التجارة، أمضى معظم سنوات العقد محاولات تخليص نفسه من خرائب مشروع تجاري فاشل ليغرق في آخر.

في الواقع، وجدت عائلتي أن أي أسلوب في الحياة يختلف عن ذاك الذي اتبعته قبل عام ١٩١٤ يعتبر أمرا لا يمكن تصوره، وتشبثت بقناعتها وهي تكافح عكس التيار الجارف. وهكذا، وظفت أمي الخادمات حتى حين لم تكن قادرة على دفع فواتير مواد البقالة، ناهيك عن أجرة المنزل وباقي الحاجات الضرورية الأخرى. وجسدت هؤلاء ـ ويقين يجسدن ـ رمزا لـ"مشكلة الشغالات" التي تعاني منها سيدات الطبقة الوسطى. فقد شكلن تيارا متدفقا من الشابات اللاتي يعملن شهرا أو اثنين، وتتراوح كفاءاتهن

بين "الجوهرة النادرة"، وبين المغفلة الساذجة القادمة مباشرة من الريف، التي لم تر في حياتها موقد الغاز، ناهيك عن جهاز الهاتف. حين زارت أمي إنكلترا عام ١٩٢٥، لترعى شقيقتها التي كانت مريضة آنذاك، كتبت إلى شقيقتها الثالثة تعرب عن تأثرها ليس فقط بكفاءة واتزان مدبرات المنازل والخادمات وقلة المشاكل التي يسببنها (على العكس من حال الأسر اليهودية في فيينا..)، ولكن أيضا لأن البيوت تدار "بدون خادمات": "تجدين هنا سيدات يقمن بكل شيء بأنفسهن، من رعاية الأطفال حتى غسل الثياب، ويبقين رغم ذلك سيدات" [1].

ومع ذلك لم تفكر بصورة جدية أبدا بالخيار البريطاني. "مثل شخص يملك سنوات من الخبرة في الإفلاس"، حسبما كتبت إلى شقيقتها التي اشتكت من المشكلات المالية في برلين:

دعيني أقدم لك نصيحة، أريدك أن تأخذيها على محمل الجد. حاولي ألا تعترفي بقدرتك على التصرف بدون خادمة!! فعلى المدى البعيد، لن تستطيعي تدبر أمرك بدونها على أية حال، ولذلك من الأفضل البدء بافتراض أن الخادمة ضرورية مثلها مثل الطعام، أو السقف الذي يظلك. ما توفرينه لا يقارن بما تخسرينه من صحة، وراحة، وأهم شيء حالة أعصابك: كلما ساءت الأمور كلما زادت الحاجة لهن. صحيح أنني فكرت مؤخرا بما إذا كان من الأفضل الاستغناء عن مارايان - لا أستطيع أن أفعل ذلك قبل عيد الميلاد، فالوقت سيكون متأخرا جدا، وهي جيدة على الدوام - لكن السبب الوحيد وراء ذلك هو أنني أخجل من أن تعرف بأنني لا أستطيع دفع فواتير البقال.. الخ. وفي أعماقي أعلم تمام العلم أن من الأفضل عدم التحسس تجاه هذه الأمور وإبقائها عندي [2].

من كل ذلك لم نعرف أو نفهم شيئا سوى أن الوالدين يتشاجران، وبوتيرة متزايدة على الأرجح - لكن أي زوجين لا يقع بينهما شجار؟ - وأن غرف المنزل باردة كالجليد في شتاء وسط أوروبا (لو عشنا في بريطانيا في حقبة المدافئ التي تعمل على الفحم، أسوأ أشكال التدفئة المنزلية التي اخترعت وأقلها كفاءة، فإن ذلك لن يكون بالضرورة نتيجة قلة المال لشراء وقود التدفئة في الشتاء).

١- نيللي هوبزبوم إلى شقيقتها غريتيل ، رسالة بتاريخ ١٩٢٥/٣/٢٢ .
٢- نيللي هوبزبوم إلى شقيقتها غريتيل ، رسالة بتاريخ ١٩٢٨/١٢/٥ .

الأسرة، برسوخها وتلاحمها (يرجع أحد الأسباب وراء هذا الرسوخ والتلاحم إلى عدم استقرار قاعدتها المالية) قسمت العالم، وبالتالي حياتي، إلى جزأين: داخلي وخارجي. في الواقع، وبقدر ما يتعلق الأمر بنا كأطفال، شكلت ـ أو حددت ـ العائلة وأصدقاؤها المقربون، عالم البالغين (الكبار) الذين أعرفهم باعتبارهم "أشخاصا"، وليس مجرد مقدمي خدمات، أو إذا جاز التعبير، كومبارس على مسرح حياتنا (كما حددت أيضا الأطفال الذين سيبقون جزءا دائما من حياتنا ونحن جزء من حياتهم، مثل بنات آل غولد أو ابنة آل سزانا). كان "الكبار" الذين أعرفهم هم جميعا تقريبا من الأقارب، أو من أصدقاء الوالدين وأقاربهم. ولهذا لا أتذكر كشخص طبيب الأسنان الذي أخذتني إليه والدتي، رغم أن تجربة الذهاب إلى عيادته لا تنسى أبدا، لأنه لم يكن شخصا "تعرفه". من ناحية أخرى، أتذكر الدكتور ستراسر كشخص حقيقي، ربما لأن الأسرة تعرفه وتعرف أسرته كما هو مفروض. ومن الغريب أن المدرسين لا ينتمون على ما يبدو إلى عالم الأفراد البالغين بالنسبة لي حتى عامي الأخير في فيينا، ولم يصبحوا أشخاصا أقمت معهم علاقات شخصية إلا في برلين.

المدرسة تنتمي بشكل صارم إلى الجزء الخارجي. و" الحيزالخارجي" الذي يغيب عنه الكبار كأشخاص حقيقيين، كان يتألف أساسا من الأطفال الآخرين. وعالم الأطفال، بغض النظر عما إذا كان "داخليا" أو "خارجيا"، هو العالم الذي لم يفهمه الكبار فهما حقيقيا، تماما مثلما لم نكن نفهم ما يفعلونه. في أفضل الحالات، قبل كل طرف من طرفي فجوة الأجيال ما يفعله الآخر على أساس أن "هذا ما يفعله الأطفال"، أو "هذا ما يفعله الكبار". سن النضج وحده، الذي بلغته في عامي الأخير في فيينا، هو الذي بدأ يقوض أركان الجدران الفاصلة بين هذين العالمين المنفصلين.

تشابك العالمان وتداخلا بالطبع. فقراءاتي، خصوصا الإنكليزية منها، كان يوفرها الكبار على الأغلب، رغم أن "جريدة الأطفال" (لآرثر مي) التي كان يرسلها الأقرباء من لندن، كانت بالنسبة لي مملة وغير مفهومة. من ناحية أخرى، بدأت منذ سن مبكرة "بالتهام" الكتب الألمانية عن حياة الطيور والحيوانات، والتي تلقيتها كهدية. وبعد المدرسة الابتدائية، غرقت حتى الأذنين في قراءة مطبوعات "الكون، جمعية أصدقاء الطبيعة" ("Kosmos, Gesellschaft der Naturfreunde")، وهي جمعية تهتم بتبسيط

ونشر العلوم الطبيعية ـ البيولوجية والتطورية منها بشكل رئيسي ـ التي كانت ترسل لي باعتباري مشتركا. كنا مولعين بالمسرح منذ سن مبكرة أيضا، وبمسرحيات نستمتع بها، ويستمتع بها الكبار، مثل "ويليام تيل" لشيللر (لكن ليس "فاوست" لغوته)، وبأعمال مسرحيي فيينا المشهورين في أوائل القرن التاسع عشر ـ المسرحيات السحرية العاطفية الأخاذة التي كتبها ريموند، والمسرحيات الكوميدية المضحكة والضارية التي كتبها المسرحي الكبير يوهان نستروي، الذي لم نكن نفهم آنذاك سخريته المريرة. لكن قد يرسلوننا أيضا مع غيرنا من تلاميذ المدارس الابتدائية إلى دار السينما المحلية (مكسيم ـ بو التي اختفت منذ زمن طويل) في الحفلات الصباحية، لنشاهد مقاطع من أفلام شابلن وكوغان، بل حتى ملحمة فريتز لانغ الأطول نسبيا "نيبيلونغين" (Nibelungen). تبعا لتجربتي في فيينا، لا يذهب الأطفال والكبار إلى السينما سويا. ومرة أخرى، سوف يختار الأطفال الأذكياء (و"المثقفون") بصورة طبيعية من بين الكتب الموضوعة على رفوف مكاتب الأهل والأقارب، متأثرين/ أو غير متأثرين ربما بما سمعوه في البيت. إلى هذا المدى كانت الأجيال تشترك في بعض الأذواق. من ناحية أخرى، لم يكن يفترض بمواد القراءة التي يختارها الكبار للأطفال أن تحظى باهتمام الكبار الجدي. وفي مقابل ذلك، كان المدرسون وحدهم، من بين كل البالغين الذين تعاملنا معهم، يعرفون (ولا يوافقون على) الاهتمام الحماسي الذي يبديه الأولاد في سن الثالثة عشرة تجاه كتب "الجيب" التي تتناول مغامرات المحققين الذين يحملون دائما أسماء إنكليزية، والتي كان يتداولها التلاميذ في صفوف الدراسة تحت عناوين مثل "شرلوك هولمز المحقق العالمي" (لا علاقة له بالأصل). لكن أشهر المحققين كان توم شارك المحقق "البرليني" ورفيقه بيت سترونغ، الذي يعمل انطلاقا من "شارع موتز"، المألوف لقراء كريستوفر ايشروود، لكنه بعيد عن صبيان فيينا كبعد "شارع بيكر" (اللندني) في روايات شرلوك هولمز.

في منتصف عشرينات القرن العشرين، كان تلاميذ مدارس فيينا ما يزالون يتعلمون كتابة الأحرف القوطية من خلال رسمها على لوح حجري مؤطر بالخشب، ومسحها بعد ذلك بواسطة اسفنجة. ونظرا لأن معظم الكتب المدرسية بعد عام ١٩١٨ طبعت بالخط الروماني الجديد، فقد تعلمنا على ما يبدو القراءة وفيما بعد الكتابة بذلك

الخط، لكن لا أستطيع أن أتذكر كيف. فبحلول الوقت الذي يدخل فيه الصبي مرحلة التعليم الإعدادي ـ الثانوي في عمر الحادية عشرة يتوقع منه على ما يبدو أن يكون قد تعلم القراءة والكتابة والحساب، لكن باقي ما تعلمناه في المدرسة الابتدائية كان أقل وضوحا. بصراحة، وجدت ذلك مشوقا، وفيما بعد كنت أنظر إلى أيام المدرسة الابتدائية والسرور يملأ كياني، متذكرا كل الحكايات عن فيينا والرحلات إلى الضواحي شبه الريفية بحثا عن الأشجار، والنباتات، والحيوانات. أحسب أن كل ذلك يقع تحت العنوان التعليمي (البيداغوجي) "الجغرافيا المحلية" (Heimatkunde)، الذي يعني بالألمانية "معرفة من أين أتينا". أستطيع أن أرى الآن أن ذلك لم يكن تجهيزا سيئا لمن سيصبح مؤرخا في المستقبل، نظرا لأن الأحداث الكبرى في التاريخ التقليدي في/وحول فيينا كانت مجرد جزء عرضي مما تعلمه أطفال المدينة عن محيطهم وبيئتهم. "اسبيرن"، على سبيل المثال، لم يكن فقط اسما للمعركة التي انتصر فيها النمساويون على نابليون (في حين أن "فاغرام" المجاورة التي خسروا فيها المعركة خسارة حاسمة غابت عن الذاكرة الجمعية)، لكنه مكان في المنطقة النائية وراء الدانوب، التي لم تصبح بعد جزءا من المدينة، حيث يذهب الناس إلى السباحة في برك الماء التي خلفها وراء المجرى القديم للنهر، ويستكشفون البراري التي يعيش فيها حيوان الخز وطيور الماء. حصار الأتراك لفيينا كان مهما أيضا لأنهم جلبوا معهم القهوة ودخلت المدينة كجزء من الغنائم التركية، ومن هنا أتت "مقاهينا". بالطبع كنا نملك ميزة هائلة تمثلت في غياب التاريخ الرسمي للنمسا الإمبراطورية القديمة عن النظر، فيما عدا تجسده في المباني والآثار والنصب التذكارية الباقية، علاوة على أن النمسا الجديدة بعد عام ١٩١٨ لم يكن لها تاريخ بعد. واستمراريتها السياسية هي التي نزعت إلى تقليص التاريخ المدرسي وحصره في سلسلة مقبولة ومتعاقبة من التواريخ، والملوك، والحروب. المناسبة التاريخية الأولى التي أتذكر الاحتفال بها في المدرسة في طفولتي في فيينا هي الذكرى المئوية لوفاة بيتهوفن. لقد عرف المدرسون أنفسهم أن المدرسة في الحقبة الجديدة ينبغي أن تكون مختلفة أيضا، لكنهم لم يفهموا بوضوح بعد الكيفية (مثلما عبر عن ذلك كتاب الأناشيد المدرسي ـ ١٩٢٥ ـ بالقول إن "مناهج التعليم الجديدة لم تتضح كلية بعد"). ولسوف أكتشف ما حدث "عام ١٠٦٦م" وكل ذلك النوع من

التاريخ في المدرسة الثانوية، التي لم تنعتق بعد من إسار البيداغوجيا القديمة. من الطبيعي أن ذلك لم يكن مثيرا. فاللغة الألمانية، والجغرافية، واللغة اللاتينية ثم اليونانية (التي اضطررت للتخلي عنها عند قدومي إلى إنكلترا) بدت أكثر تلاؤما مع ميولي، لكن ليس الرياضيات والعلوم الفيزيائية للأسف.

ولا التعاليم الدينية بالتأكيد. لا أظن أن ذلك قد ظهر في المدرسة الابتدائية، لكن يبدو أنني في المدرسة الثانوية قد تذكرت أن غير الكاثوليك من الأرثوذكس، واللوثريين، والبروتستانت، وعلى الأغلب اليهود، كانوا يعفون من حضور الدروس الدينية في الصف. أما البديل المخصص للأقليات، والمتمثل في دروس تقام بعد الظهر لليهود في جزء آخر من المدينة (بإشراف آنسة تدعى ميريام مورغن ستيرن ومن خلفها من المدرسات) فقد كان مملا ويفتقد الإثارة. إذ رويت لنا مرارا وتكرارا قصص الأسفار الخمسة الأولى من الكتاب المقدس (وسئلنا عنها). أتذكر الصدمة التي سببتها حين أجبت عن سؤال مكرر يتعلق باسم أهم أبناء يعقوب، حيث قلت بأنه يهوذا، وليس يوسف. فبرغم كل شيء، كما استنتجت، أما سمي اليهود باسمه؟ كان الجواب خاطئا. عرفت أيضا شيئا عن الأحرف العبرية المطبوعة التي نسيت كل شيء عنها منذ ذلك الحين، إضافة إلى الدعاء الأساسي لليهود، أو ما يعرف بـ"شيما يسرول" (كانت اللغة تلفظ على الدوام بأسلوب الأشكيناز وليس بلفظ السفارديم الذي فرضته الصهيونية)، وجزء من الـ"مانيشتانا". أو الأسئلة والأجوبة الشعائرية التي يفترض تلاوتها في عيد الفصح بواسطة أصغر الذكور عمرا. ونظرا لعدم احتفال العائلة بعيد الفصح، وعدم الالتزام بطقوس يوم السبت أو أي من الأعياد اليهودية، أو اتباع أية قواعد للصيام اليهودي، لم أجد أية مناسبة لاستخدام ما تعلمته. عرفت بأن من الواجب على المرء أن يرتدي غطاء الرأس في المعبد، لكنني لم ألبسه إلا في حفلات الزفاف ومراسم الدفن. راقبت أحد زملاء المدرسة الذي كان يمارس الطقس بتمامه حين يخاطب الرب ـ شال الصلاة، التعاويذ، وغيرها ـ بفضول المراقب الحيادي. علاوة على ذلك، لو كانت عائلتنا تمارس هذه الأمور، فإن ساعة في الأسبوع في المدرسة لم تكن ضرورية ولا كافية لتعلمها.

على الرغم من عدم التزامنا بالطقوس كلية، إلا أننا كنا نعلم بأننا من اليهود، ولا يمكن أن نهرب من هذه الحقيقة. فهنالك مائتا ألف منا في فيينا، يشكلون ما نسبته

١٠٪ من سكان المدينة. ومعظم يهود فيينا يحملون أسماء أولى مختلطة، لكنهم نادرا ما غيروا أسماء العائلة مهما سهل تمييزها بوصفها يهودية، وذلك على العكس من يهود العالم الأنكلو ـ ساكسوني. لم أعرف أحدا بالتأكيد تحول عن دينه. من حيث المبدأ، وتحت حكم أسرة هابسبرغ وأسرة هوهنزوليرن، كان التخلي عن شكل من أشكال الطقوس الدينية لصالح آخر يعتبر ثمنا تدفعه عن طيب خاطر الأسر اليهودية في سبيل المركز الاجتماعي أو الرسمي، لكن بعد انهيار المجتمع، اختفت مزايا تغيير الديانة حتى بالنسبة لمثل هذه الأسر (لم تطمح أسرة غرون لمثل هذا الهدف). ولا كان بمقدور يهود فيينا التفكير بأنفسهم باعتبارهم من الألمان الذين يتعبدون (أو لا يتعبدون) بطريقة خاصة. ولم يكن بإمكانهم ـ حتى في الحلم ـ الفرار من قدرهم كجماعة إثنية بين العديد من الجماعات. كما لم يعطهم أحد خيار الانتماء إلى "الأمة"، لأنه لم يكن لها وجود. فعلى العكس من النصف الهنغاري من إمبراطورية فرانز جوزيف، لم يكن في النصف النمساوي "وطن" يسكنه "شعب" واحد يمكن نظريا تحديد هويته به. تحت مثل هذه الظروف، فإن تحويل اليهود إلى "ألمان" لم يعتبر مشروعا سياسيا أو قوميا، بل هو مشروع ثقافي. وكان ذلك يعني أن يتركوا وراءهم التخلف والانعزال للانضمام إلى العالم الحديث. ومنذ عهد بعيد، قدم آباء بلدة برودي في غاليسيا، التي تصل نسبة اليهود إلى ثمانين بالمائة من سكانها، التماسا إلى الإمبراطور يطلبون فيه جعل الألمانية لغة التعليم في المدارس، ولم يكن السبب وراء ذلك أن مواطني برودي المتحررين قد أرادوا أن يكونوا مثل الجرمان المغرمين بشرب البيرة، بل لأنهم لم يرغبوا بأن يكونوا مثل "الهاسيديم" الأصوليين بحاخاماتهم الذين توارثوا اجتراح المعجزات، أو "الياشيفا ـ بوخرز" الذين فسروا التلمود باللغة البيدية (لهجة المانية تكثر فيها المفردات العبرية والسلافية). ولهذا السبب، عمل يهود الطبقة الوسطى في فيينا، الذين هاجر آباؤهم وأجدادهم من الأراضي النائية في بولندا، وتشيكيا، وهنغاريا، على تمييز أنفسهم على هذا الشكل الحاسم عن اليهود الشرقيين.

ليس من قبيل الصدفة أن يبتكر الصهيونية الحديثة صحافي من فيينا. فقد عرف كل يهود المدينة ـ على الأقل منذ تسعينات القرن التاسع عشر ـ أنهم يعيشون في عالم معاد للسامية، وحتى في خطر محتمل من الشارع المعادي للسامية. وكانت عبارة

"الحمد لله فهو ليس يهوديا" تمثل ردة الفعل المباشرة لعابر سبيل "يهودي" على صيحات بائعي الجرائد في أحد شوارع فيينا، وهم يعلنون اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند، في المشهد الافتتاحي لعمل كارل كراوس المدهش "آخر أيام الإنسانية". لا يوجد ما يدعو لمزيد من التفاؤل في عشرينات القرن العشرين من هذه الناحية. إذ لم يكن في أذهان الناس أي شك بأن الحزب الديمقراطي - المسيحي الحاكم بقي معاديا للسامية عداء مؤسسه، محافظ فيينا الشهير كارل لوغر. ولا زلت أتذكر لحظة الصدمة التي أصيب بها كبار السن في العائلة - لم يكد عمري آنذاك يتجاوز الثالثة عشرة - عند تلقي أخبار انتخابات الرايخستاغ الألماني، التي جعلت الحزب القومي الاشتراكي بزعامة هتلر ثاني أكبر الأحزاب في ألمانيا. فقد عرفوا ما عناه ذلك تمام المعرفة. باختصار، ليس هناك من سبيل لأن ينسى المرء حقيقة كونه يهوديا، حتى وإن كنت لا أتذكر أية حادثة شخصية تنم عن معاداة السامية حصلت معي، لأن جنسيتي الإنكليزية أعطتني، في المدرسة على أقل تقدير، هوية أبعدت الانتباه عن يهوديتي. كما زودتني الجنسية البريطانية على الأرجح بالمناعة ضد إغراءات القومية اليهودية لحسن الحظ، حتى وإن كانت الصهيونية قد سارت عموما بين الأجيال الشابة في وسط أوروبا جنبا إلى جنب مع الآراء الاشتراكية المعتدلة أو الثورية، وذلك باستثناء أتباع جابوتنسكي، الذين استمدوا إلهامهم من موسوليني، ويحكمون إسرائيل الآن باسم حزب الليكود. بالطبع، كان للصهيونية حضور أكبر في مدينة هرتزل مقارنة بحضورها بين اليهود المحليين في ألمانيا على سبيل المثال، حيث لم يجتذب، حتى ظهور هتلر، سوى الجماعات المتطرفة غير النمطية. ليس هناك من مجال لتجاهل وجود المعادين للسامية ولا فريق "هاكواه" لكرة القدم بلباسه الأبيض والأزرق، الذي جعل والدي وعمي سيدني يواجهان مشكلة الولاء المتعارض حين لعب مع فريق "بولتون واندررز" الإنكليزي الزائر. إلا أن الغالبية العظمى من اليهود المتحررين أو يهود الطبقة الوسطى في فيينا في مرحلة ما قبل هتلر، لم يكونوا، ولم يصبحوا أبدا، صهيونيين.

لم يكن لدينا أدنى فكرة عن المخاطر التي تتهدد اليهود. ما كان أحد ليفكر، أو يمكن أن يفكر بذلك. حتى في أقصى زوايا المناطق "الجاهلة" التي عمتها المذابح في الكريات أو السهول البولندية - الأوكرانية التي أتى منها الجيل الأول من المهاجرين إلى

فيينا، لم يتصور أحد إمكانية حدوث عمليات الإبادة الجماعية المنظمة. وفي حال وقوع مشكلة ما، فإن كبار السن والمحنكين الذين عركتهم السنون كانوا يحاججون لصالح الابتعاد عن دائرة الضوء وعدم جلب الانتباه، والتصرف بصورة مراوغة، والبقاء إلى جانب تلك السلطات التي تحتل موقعا يقدم لهم الحماية، أو لها مصلحة في ذلك، أو في إعادة ترسيخ القانون والنظام على أقل تقدير، وإن لم يطبق ذلك بصورة عادلة في مناطقهم. الشباب والمتطرفون الثوريون دعوا إلى المقاومة والدفاع الفاعل عن النفس. كبار السن عرفوا أنه، عاجلا أم آجلا، سوف تهدأ الأمور وتستقر من جديد؛ الشباب ربما حلموا بالنصر الكلي (أي الثورة العالمية) لكن كيف يمكنهم تخيل الدمار الكلي؟ في الواقع، لم يتوقع أي من الطرفين ظهور دولة حديثة تتخلص من كافة سكانها اليهود، وهو شيء لم يحدث منذ طرد اليهود من إسبانيا (الكاثوليكية) عام ١٤٩٢. وكان من الأبعد تصور إمكانية استئصال شأفتهم. علاوة على ذلك، لم يتخيل سوى الصهيونيون إمكانية حدوث هجرة جماعية منظمة لكافة اليهود إلى دولة ـ أمة أحادية الإثنية، بحيث يتركون أوطانهم السابقة ("judenrein" حسب التعبير النازي). حين كان الناس يتحدثون عن أخطار معاداة السامية قبل هتلر، وحتى خلال السنوات الأولى من صعوده، كانوا يعنون تكثيف ما كان يعاني منه اليهود على الدوام: الظلم، والتمييز والتحيز ضدهم، والتضحية بهم، علاوة على عمليات التهويل والتهديد القاسية والتحقيرية، وأحيانا المعاملة الوحشية التي تعرضت لها أقلية ضعيفة ووضيعة. لم تكن هذه الأخطار تعني بعدُ "أوشفيتز". فتعبير "الإبادة الجماعية" لم تتم صياغته إلا في عام ١٩٤٢.

ما الذي يمكن أن يعنيه بالضبط "كونك يهوديا" في عشرينات القرن بالنسبة لصبي أنكلو ـ نمساوي (من فيينا)، لم يتعرض لمضايقات العداء للسامية وكان بعيدا كل البعد عن ممارسات ومعتقدات الديانة اليهودية التقليدية، بحيث لم يعلم حتى بأنه مختون إلا بعد البلوغ؟ ربما ما يلي: تعلمت حين كنت في العاشرة من عمري تقريبا مبدأ بسيطا من والدتي (في مناسبة نسيتها الآن) بعد أن ذكرتُ، وربما حتى كررت، بعض المشاهدات السلبية لسلوك أحد أعمامي باعتباره "مسلكا يهوديا نمطيا". قالت لي بحزم: "إياك أن تفعل شيئا، أو تبدو وكأنك تفعل شيئا، قد يوحي بأنك تخجل من كونك يهوديا".

حاولت اتباع المبدأ منذ ذلك الحين، رغم أن عنت وإجهاد القيام به أمر لا يحتمل في بعض الأحيان، في ضوء سلوك حكومة إسرائيل. كان مبدأ والدتي كافيا بالنسبة لي كي امتنع، آسفا، عن إعلان نفسي رجلا "بدون دين" (Konfessionslos)، كما كان يتوجب على صبي في الثالثة عشرة فعله في النمسا. وأدى بي ذلك إلى أن أحمل طيلة العمر عبء لقب يصعب لفظه، والذي يبدو أنه يدعو بشكل عفوي إلى الانزلاق بسهولة نحو هوبزبون أو أوزبورن. كان هذا كافيا لتعريف يهوديتي منذ ذلك الحين، وتركي حرا في أن أعيش حياة "يهودي ليس يهوديا" حسب تعبير صديقي الراحل إيزاك دويتشر، لكن ليس ما دعته زمرة من خبراء الشؤون العامة المتدينين أو القوميين بـ"يهودي يكره الذات". ليس لدي التزام عاطفي وجداني بممارسة دين سلفي، ناهيك عن الالتزام بتأييد دولة ـ أمة، صغيرة، متشربة بالروح الحربية العسكرية، مخيبة للآمال ثقافيا وعدوانية سياسيا، تطالبني بأن أتضامن معها على أسس عرقية وعنصرية. كما أنني لست حتى مضطرا للتكيف مع الذهنية السائدة الدارجة في بداية القرن الجديد، والمتمثلة في التعاطف مع اليهودي ـ "الضحية"، الذي يؤكد، اعتمادا على قوة "الهولوكوست" (وفي حقبة تشهد إنجازات ونجاحات عالمية لليهود وقبولا للرأي العام بهم بشكل فريد وغير مسبوق)، مزاعم ودعاوى وحقوقا على ضمير العالم باعتباره ضحية للاضطهاد والقمع. إن قيم الخطأ والصواب، والعدالة والظلم، لا تحمل شعارات عرقية ولا تلوح برايات قومية. وبوصفي مؤرخا أقول بأنه إذا كان ثمة مبرر يثبت ما تزعمه نسبة ٢٥ . ٠٪ من سكان العالم في عام ٢٠٠٠ (التي تكّون القبيلة التي ولدت فيه) بأنها شعب "مختار" أو "خاص"، فإنه لا يعتمد على ما تم إنجازه في "حارات اليهود" (ghettos) أو الأراضي الخاصة، التي عاشوا فيها، طوعا أو قسرا، في الماضي أو الحاضر أو المستقبل. بل يعتمد على مساهمة اليهود المدهشة وإنجازاتهم التي لا تتناسب مع عددهم في الحضارة الإنسانية في العالم الأرحب، وبشكل رئيسي خلال القرنين الماضيين تقريبا حين سمح لليهود بمغادرة "الغيتوات"، واختاروا مغادرتها. نحن "شعب في الشتات"، باستعارة عنوان كتاب صديقي، ريتشارد مارينستراس، اليهودي البولندي،

الذي قاتل مع المقاومة الفرنسية، ودافع عن الثقافة "اليديية"، وأكبر المتخصصين في بلده بأدب شكسبير. ولسوف نبقى كذلك تبعا لكل الاحتمالات. وإذا فترضنا جدلا أن حلم هيرتزل قد تحقق وأن كافة اليهود سوف ينتهي بهم المطاف في دولة إقليمية صغيرة ومستقلة، تستثني وتقصي الآخر وتمنع حق المواطنة عن كل من لم يولد من أم يهودية، فسوف يكون يوما سيئا وحزينا لباقي البشر ـ ولليهود أنفسهم.

-٣-

أوقات صعبة

في وقت متأخر من أمسية يوم الجمعة الثامن من شباط/فبراير ١٩٢٩، عاد والدي من جولة أخرى من جولاته اليائسة في المدينة بحثا عن مال يكسبه أو يستدينه، وانهار أمام باب المنزل. سمعت والدتي الأنين عبر النوافذ العلوية، وحين فتحتها على الجو القارس في ذلك الشتاء الألبي المشهود، سمعته ينادي عليها. توفي خلال بضع دقائق، جراء نوبة قلبية على ما أعتقد. كان في الثامنة والأربعين من العمر. وبموته حكم بالموت أيضا على أمي، التي لم تتمكن من أن تسامح نفسها على الطريقة التي شعرت بأنها عاملته بها خلال ما تبين أنها الشهور المروعة الأخيرة، بل الأيام الأخيرة في الواقع، من عمره.

كتبت إلى شقيقتها تقول في الرسالة الأولى التي بعثتها بعد موته: "هنالك شيء انكسر في داخلي":

لا يمكنني حتى الآن الكتابة عنه. يمكنك تخيل كيف تجرحني في أعماقي كل كلمة قاسية وكل فكرة فظة كالسكين. "ذلك لن يعود مرة أخرى" يا غريتيل! ما الذي يمكن ألا أفعله الآن، وما فعلته من قبل، لو عرفت بأن هذا سيحدث.. لو مرض يوما واحد على الأقل لكنت رعيته وقدمت له الحب من جديد. على الأقل كنت هناك معه ولما مات وحيدا.

لم يكن في ذلك عزاء لها.

خلال سنتين ونصف ماتت هي أيضا في عمر السادسة والثلاثين. افترضتُ على الدوام أن زياراتها العديدة لقبره، التي برحتها وآذتها في أشهر الشتاء القارس، وهي تلبس ثيابها الخفيفة، قد فاقمت من حدة مرض رئتيها وسببت موتها.

ليس من المفاجئ أن تصاب قدرتها على تمالك نفسها بالوهن والانهيار في تلك الأشهر المروعة ـ لكن المفاجأة تكمن في حقيقة أنها استطاعت، بجهود تتجاوز طاقة البشر، إخفاء الوضع عن أولادها. لم يعرف الزوجان أوقاتا مريحة منذ وصولهما من مصر مع احتياطي مقبول من الجنيهات الإسترلينية بقيمتها المستقرة، إلى بلد تنهار عملته بفعل التضخم الهائل. كيف توقع والدي، أو أمل بكسب رزقه في بلد لم يتعلم أبدا التحدث بلغته بطلاقة، ليس لدي أدنى فكرة عن ذلك. وفي الحقيقة، لا أعرف كيف كان يكسب رزقه قبل ذهابه إلى مصر، حيث لا يصعب على شاب مثله في العشرينات من العمر، حسن الطلعة، عذب الحديث، ذكي لكن ليس مثقفا ثقافة رفيعة، مع سجل مؤثر باعتباره رياضيا، العثور على عمل في مكتب للشحن أو التجارة لدى الجالية الكبيرة من الوافدين البريطانيين. لربما توقع أن يجد عونا مشابها كإنكليزي في فيينا، رغم أن الجالية الإنكليزية هنا صغيرة الحجم (حتى وإن أسست عدة فرق لكرة القدم في فيينا). كل ما أنا متأكد منه أنه طلب طباعة صفحات مفكرة تحمل ترويسة "ل. بيرسي هوبزبوم، فيينا، برقيا: 'هوبي'. هاتف: ..". في عام ١٩٢٠، أرسلت والدتي إلى شقيقتها رسالة ذكرت فيها أن لديها "خدم" (بصيغة الجمع): هما طاه وخادمة (لكن اختفى أثر كل منهما فورا تقريبا).

منذ ذلك الحين، تدهورت الأمور على طول الخط. انتقلنا من فيلا سويتر إلى شقة أكثر تواضعا في ضاحية مجاورة (اوبر سنت فييت). وبدءا من منتصف العشرينات، لم تكن العائلة تملك سوى كفاف يومها على ما يبدو، وبالكاد تعرف من أين تحصل على المال اللازم لتغطية المصاريف اليومية. وهذا ما دفع أمي، حسب ظني، للبدء جديا بمحاولة كسب المال عن طريق كتاباتها، والعمل ساعات تزداد طولا وتركيزا باطراد. ومع ذلك، ومهما أسهمت كتاباتها الأدبية في دخل الأسرة، فإن الوضع قد تفاقم وأصبح خلال عام ١٩٢٨ كارثيا. في أواخر ذلك العام سلمنا مالك البيت إنذارا. وتوجب علينا التفاوض معه لتجنب قطع الغاز عنا. كتبت الوالدة إلى شقيقتها قبل يومين من عيد الميلاد تقول: "اليوم جمعة، ولم أشتر أية هدية بعد. وإذا لم يحضر بيرسي نقودا في الغد، فلا أعرف ماذا أفعل".

لم تفرج السنة الجديدة كربتنا. فقبل ثلاثة أيام من موت الوالد اشتكت أمي إلى

أختها من أن الحالة تسوء يوما بعد يوم، وفواتير الإيجار والهاتف لم تدفع، و"أنا لا أملك فلسا واحدا في المنزل"، ولا زالت لا تعرف كيف ستعيش الأسرة حين تنتهي مدة الإنذار بالإخلاء. تلك كانت الحال حين خرج والدي إلى المدينة للمرة الأخيرة. والآن، ها هو يرقد ميتا. دفن بعد بضعة أيام في الجزء اليهودي من مقبرة فيينا المركزية. كل ما أذكره عن وفاته أننا انتقلنا أنا وأختي، ونحن نصف نائمين في ليلة حالكة، من غرفتنا إلى غرفة نوم والديّ ليقال لنا بأسلوب مبهم أن أمرا مريعا قد حدث، وأتذكر لسع الريح الجليدية وهي تعصف فوقنا أمام القبر المفتوح.

لربما تكون هذه هي اللحظة المناسبة كي يواجه ابن مهمة الكتابة عن أبيه.

المهمة بالغة الصعوبة، لأنني لا أملك فعليا أية ذكريات عنه، أي أنني اخترت على ما يبدو نسيان معظم ما قد تذكرته. أعرف شكله، فهو مربوع، قوي البنية، يلبس نظارة أنفية بدون إطار، وشعره الأسود مفروق عند منتصف رأسه، في حين تخترق جبهته تجاعيد أفقية، لكن حتى هذا الانطباع ربما يرجع إلى الصورة الفوتوغرافية أكثر من الذاكرة. في "البوم" الصور الذهنية التي أحتفظ بها لعائلتي منذ مرحلة الطفولة، يظهر في عدد لا يتجاوز ست صور تقريبا، ترجع كلها على ما أعتقد إلى سنوات الإقامة في شقة "اوبر سنت فييت": والدي يرتدي بزة من "التويد" (وهو أمر غير عادي في فيينا)؛ والدي يأخذني لمشاهدة مباراة لكرة القدم للهواة؛ اليوم الذي كنت فيه أجلب كرات التنس الطائشة في مباراة للزوجي المختلط أقيمت في مكان ما على الطريق بين منزلنا والأراضي الإمبراطورية المخصصة للصيد قديما؛ والدي يغني بالإنكليزية في مسرح للمنوعات؛ ذكرى قصية لكن متألقة لنزهة قمت بها معه في التلال القريبة. ثم هناك صورة أو اثنتان أقل قبولا واستساغة: والدي يحاول - محاولة فاشلة على ما يبدو - تعليمي الملاكمة (لم يواظب على ذلك)؛ وصورة أكثر تحديدا له وقد تملكه غضب عارم في "اينسايدلي غاسي". لا بد أنني كنت آنذاك في السنوات الأخيرة من المدرسة الابتدائية، ولا يتجاوز عمري التاسعة أو العاشرة. فقد طلب مني أن أحضر مطرقة لدق مسمار، خرج على ما يبدو من مكانه في كرسي طويل. كنت مولعا آنذاك بحقبة ما قبل التاريخ، ربما لأنني كنت أقرأ الجزء الأول من ثلاثية "أطفال

الكهف" (Die Hohlenkinder) لكاتب يدعى سونليتنر، يروي فيها قصة طفلين يتيمين في واد منعزل في جبال الألب لاسترجاع مراحل تطور البشر في حقبة ما قبل التاريخ، من العصر الباليوليثي إلى عصر يشبه الحياة الريفية النمساوية. وحين كانا يعيشان مرة أخرى في العصر الحجري، صنعت أنا مطرقة "من العصر الحجري" ربطتها بإحكام بواسطة سير جلدي مع يدها الخشبية بطريقة مناسبة. أحضرتها له ودهشت لردة فعله الغاضبة. وقيل منذ ذلك الحين إنه كان سريع الغضب معي في كثير من الأحيان، لكن إذا كان الأمر كذلك، وهذا مرجح، فقد محوته من الذاكرة. هنالك صورة ذهنية له في ذاكرتي وهو يعمل. ففي أحد الأيام جلب معه إلى المنزل جهازا كان يحاول (كما جرت العادة مرارا) بيعه دون نجاح يذكر، وهو عبارة عن لوحة متجر تظهر فيها كلمة مضيئة - ربما كانت اسم منتج أو اسم بائع تجزئة - في الشارع كأنما تنعكس في المرآة. ولربما كان ذلك لمناقشة احتمالات بيعها مع زائر، كان شقيقه في حكم المؤكد؛ لأنه إذا عرف أصدقاء من فيينا فأنا لا أستطيع تذكرهم.

ولا أستطيع تذكره من خلال ذكريات الآخرين. هنالك حكايات تروى عنه خلال فترة شبابه في لندن، وفي مصر، تدور غالبيتها حول براعته الجسدية وجاذبيته للجنس الآخر (رغم أني لم أسمع أبدا ما يوحي بأنه لم يكن مخلصا لأمي). كل عائلة يهودية تعيش في شرق لندن كانت بحاجة إلى شقيق واحد على الأقل، يستطيع أن "يتدبر أمره"، كما كانوا يقولون، ويقف في وجه الايرلنديين المحليين. وكان هذا هو الدور الذي لعبه والدي في عائلة هوبزبوم؛ ونظرا لأن الحلبة مثلت خيارا مقبولا لفقراء شرق لندن، بمن فيهم الشبان اليهود من ذوي العضلات المفتولة وردات الفعل السريعة، فقد أصبح أكثر من مجرد ملاكم مفيد للأسرة. بقي هاويا، لكن السجل الظاهر لنجاحه يمثله الكأسان اللذان ربحهما كبطل مصر في الملاكمة للهواة في الوزن الخفيف عامي ١٩٠٧-١٩٠٨ أو نحو ذلك، ضد منافسين من قوات الاحتلال البريطاني كما هو مفترض. وضعا على رف في منزلنا (الغرف التي تنقصها المواقد في النمسا، تفتقد إلى رفوفها أيضا) وشقيقتي التي تتذكره بكل حب رغم أنها كانت في الثامنة حين توفي، احتفظت بهما في منزلها في وقت لاحق. قيل بأنه أنقذ أخاه ارنست الذي كاد يغرق وهو يسبح. أما الرواية التي كتبتها أمي، والتي تدور حول شابة تعيش في مصر

قبل عام ١٩١٤ ، فتصور رياضيا نصف إله يخوض مبارياته، وفي حكم المؤكد تقريبا أنها مستمدة من حياته.

لكن حكايا ونوادر العائلة خلال سنوات إقامتها في فيينا لم تتطرق إليه. ويبدو واضحا أنه لم يكن على علاقة طيبه مع أهل زوجته، وخصوصا الجدة غرون. وفيما عدا ذلك، لم تذكره الوالدة كثيرا في رسائلها إلى أختها ـ التي تناولت كل شيء ـ كما تحدثت عن سلفها سيدني. لا شيء عن خططه، وأنشطته، وإخفاقاته. لا شيء حول ما فعلاه معا أو عن الأماكن التي ذهبا إليها سوية. وبعد موتهما ، كان من النادر أن يذكر، أو على وجه الدقة أن تذكر سنواته التي عاشها في فيينا في أسرة سيدني وغريتيل. ويبدو أنه غاب عن النظر تماما.

الحقيقة أن سنواته في فيينا كانت كارثية. وحسبما قالت أمي: "عاش حياة فيها الكثير من القلق، والبؤس، الإحباط، ثم انتهت تلك النهاية". لو كان يكسب مرتبا منتظما من عمل منتظم، قليل المتطلبات، لكان إنسانا سعيدا ، ورفيقا فاتنا ، ومصدر قوة في أية بيئة تقدر الرياضة، وشيئا من الموسيقى والمرح. مثل هذه الأشياء كانت في متناول الرجال الذين يفتقدون الوسائل المناسبة أو المؤهلات الحرفية في الأماكن النائية، الرسمية وغير الرسمية، من الإمبراطورية البريطانية، لكن ليس في فيينا في فترة ما بعد الحرب. ولربما وجد، في عالم ما قبل عام ١٩١٤ ، البعيد القصي الذي لا يمكن استعادته، عملا ما من خلال شبكة عائلات أقرباء جدي وجدتي التي كانت مزدهرة حينذاك. فبرغم كل شيء، ينبغي على المرء أن يفعل شيئا من أجل زوج ابنته، حتى وإن كان "أفاقا" إلى حد ما. في عشرينات القرن، لم يعد ذلك ممكنا ، فعليه أن يعتمد على نفسه. لم أعرف سوى قلة من الناس الذين لم يكونوا مؤهلين لكسب رزقهم ـ مثل والدي ـ في عالم قاس لا يعرف الرحمة. لكن في النهاية لم يحتفظ بالكثير من الثقة بالنفس، لأنه لم يعد يجد من يضع ثقته به. بعد وفاته وجدت زوجته العزاء مؤقتا في الفكرة التي تقول بأن "الوضع لن يتحسن في المستقبل، بل سوف يسوء. وقد وفر عليه الموت ذلك".

لم يترك الكثير وراءه باستثناء كأسي الملاكمة، وبطاقة موسمية عليها صورته الشخصية استخدمها في شبكة المواصلات العامة في فيينا ، إضافة إلى عدد كبير من

الكتب الإنكليزية، معظمها ذات غلاف ورقي أصدرتها شركة ألمانية تدعى "توشنيتز" تباع حصرا خارج بريطانيا، وأحسب أنه ابتاعها في مصر. لا أستطيع أن أتذكر أنه أحضر أي كتاب من إصدار "توشنيتز" إلى المنزل في فيينا، لكن ربما يكون السبب وراء ذلك افتقاره إلى المال الكافي لشرائها. وكما أتذكر، كانت غالبيتها ذات عناوين ترجع إلى أواخر العصر الفيكتوري وأوائل العصر الإدواردي: عدد كبير من قصص كيبلنغ (لكن ليس كيم)، قرأتها بحماس شديد دون أن أفهمها، إضافة إلى بعض الكتب الأقل شأنا، من فترة ما قبل عام ١٩١٨، وأعمال عن الرحلات والمغامرات أتذكر من بينها ملحمة منسية الآن عن صيد الحيتان قديما (The Cruise of the Cachalot). هنالك أيضا بعض الكتب ذات الأغلفة السميكة، أتذكر منها كتابا لم أفتحه لويلز ("Mr Britling See it Through")، وكتابا مجلدا كبيرا يضم أشعار تينيسون، بدا كأنه هدية أو جائزة من المدرسة. ما أعطاني إياه أبي أتى من هذه الكتب، التي أعتقد أنه اختارها (مع/أو بدون والدتي) أو اختار الاحتفاظ بها. هل قرأ لي تلك القصائد التي تستعيدها ذاكرتي دون سواها من ديوان تينيسون ذاك؟ إذا كان الأمر كذلك، فهي تمثل الاتصال الفكري المباشر الوحيد معه حسب ما أذكر.

لكن ما زلت أملك واحدة من الوثائق القليلة الباقية عن حياته. وهي عبارة عن قائمة يعود تاريخها إلى عام ١٩٢١، موجودة في ألبوم شقيقة زوجته. تضم القائمة تلك المجموعة من الأجوبة عن أسئلة تدور حول الذات يعترف خلالها المجيب بكثير من الأمور المتعلقة بحياته وميوله ورغباته، ولا زالت شائعة بين الناس، على الأقل في دول وسط أوروبا. لربما تشكل تلك الأسئلة والأجوبة موجزا يلخص حياته:

الصفة المفضلة عند الرجل: القوة الجسدية.

الصفة المفضلة عند المرأة: الفضيلة.

فكرتك عن السعادة: تلبية كل الحاجات.

فكرتك عن التعاسة: سوء الحظ.

بأي الأمور تتفوق وبأيها تفشل: تفويت الفرص. واغتنامها.

ما هو العلم المفضل لديك: لا يوجد.

ما هي النزعة التي تعجبك في الفن: الحداثة.

ما هي الحياة الاجتماعية التي تفضلها: أسرتي.
ما هو أكثر شيء تكرهه: المجتمع الحديث.
الكاتب/المؤلف الموسيقي المفضل: ـــــ.
الكتاب المفضل والآلة الموسيقية المفضلة: البيانو.
البطل المفضل في القصة أو التاريخ: ايرل ورويك.
اللون المفضل والزهرة المفضلة: الوردة.
الطعام المفضل والشراب المفضل: ـــــ.
الاسم المفضل: ـــــ.
الرياضة المفضلة: الملاكمة.
لعبة التسلية المفضلة: البريدج.
كيف تعيش: بهدوء.
مزاجك وسمتك الرئيسية: مثالي مزيف. نزعة نحو الحلم.
شعارك: الحصول على كفاف يومي وربما أكثر بقليل.

لم يحقق حتى هذا المطمح المتواضع.

تركت وفاة والدي العائلة في فاقة وعوز لفترة مؤقتة. لم يكن لديها على ما يبدو ضمانة مادية. فحين احتجت حذاء جديدا بعد بضعة أيام، لأن حذائي القديم لم يكن يحمي قدمي من البرد القارس في ذلك الشتاء الرهيب (أذكر بكائي من الألم في الشارع) كان على والدتي الحصول عليه من جمعية خيرية يهودية. بذل الأقرباء ما يستطيعون لتقديم العون، لكن لم يكن هناك ما يكفي من المال ليستغنوا عنه. على أية حال، فإن النقود الوحيدة التي كانت والدتي تقبلها كهدية هي مبلغ العشرة جنيهات المرسلة من عمي هاري في لندن. لم يكن المبلغ زهيدا، وعند إضافة ما بقي من سلفة الناشر وأجر الكتب القليلة التي تراجعها، كانت والدتي تحسب أن بإمكاننا البقاء عليه لمدة شهرين تقريبا.

رغم مخاوف أمي المبررة من حدوث ما هو أسوأ، اضطررنا إلى الانتقال للسكن في شقة جدي. لم يكن هناك من مكان آخر نأوي إليه. نمنا نحن الثلاثة في غرفة

جانبية صغيرة من الشقة المكونة من ثلاث غرف، وتوجب على والدتي الشروع بكسب رزقها. في الوقت ذاته، حاولت صديقاتها الأكثرغنى إنقاذ ماء وجهها من خلال تغطية المساعدة التي يقدمنها لها بقناع الأجر مقابل دروس تعليم اللغة الإنكليزية (أنا متأكد تماما أن أول نقود كسبتها في حياتي، مقابل دروس أعطيتها خلال هذه الشهور لابنة واحدة من أعز صديقاتها لمساعدتها على دخول امتحان المدرسة الثانوية، كانت بمثابة وسيلة لبقة لتوفير مصروف الجيب على الوالدة). أتذكر فعلا أن أجر تدريس طالبة واحدة على الأقل (وكانت ابنة لأحد رجال الأعمال الأرمن) قد أسهم في دخل أسرتنا.

لحسن الحظ، تمكنت والدتي من توطيد صلاتها الأدبية. فمنذ عام ١٩٢٤، كانت لها علاقات مع "ريكولا ـ فيرلاغ" (أصبح الاسم فيما بعد "سبايدليش فيرلاغز بوشهاندلونغ")، وهي دار نشر صغيرة في فيينا، أصدرت ما ثبت فيما بعد أنه رواية والدتي الوحيدة. بذل الناشر (أتذكر بشكل مبهم أنه كان طويل القامة محدودب الظهر) كل ما بوسعه لمساعدتها. على أية حال، قدر موهبتها كمترجمة، بعد أن ترجمت رواية لكاتب اسكندنافي ـ أمريكي لم يعد يذكره أحد الآن، ووقع معها عقدا لترجمة أخرى، كما عمل على جعل علاقتها مع شركته مستمرة. إضافة إلى ذلك، كانت والدتي تبيع قصصا قصيرة في معارض الكتب الدورية، بعضها ترجمته عن الإنكليزية وبعضها الآخر كتبته بالإنكليزية والألمانية. كسبت من كل ذلك شيئا من المال، لكنه لم يكن كافيا ليشكل دخلا ثابتا يمكن العيش عليه (بعد وفاتها، عادت خالتي ميمي من لندن، في واحدة من حالات الضيق المالي المتكررة التي كانت تتعرض لها، وحاولت تسويق أعمال والدتي).

في النهاية اضطرت لقبول وظيفة في شركة الكسندر روزنبرغ، في فيينا وبودابست، التي كانت تمثل منتجي المنسوجات الإنكليزية، بسبب إتقانها اللغة الإنكليزية على ما أفترض. استمتعت بحياة المكاتب، بعد سنوات من عزلة العمل في البيت ـ تناغمت مع الناس بشكل جيد ـ علاوة على أن الوظيفة وفرت لها فرصة الابتعاد عن التوتر العصبي المستمر الناتج عن العيش مع والدتها في شقة مكتظة بساكنيها. كانت تجلس أحيانا في مقهى لمدة ساعة، لمجرد البقاء فترة لوحدها. أتذكر أنها أخذتني يوما إلى المكتب وقدمتني لزملائها.

بعد ذلك، في نهاية عام ١٩٢٩، بدأت تبصق دماً. بحلول نيسان/ أبريل، قال لها الأطباء بأن إحدى رئتيها قد أصيبت وتضررت. وظلت طيلة السنة والنصف الأخيرة من حياتها تموت ببطء متنقلة بين عدد من المشافي والمصحات. لم تتضح الطبيعة الدقيقة لمرض رئتيها، لأنني فهمت أن أعراضه لا تنطبق تماما على السل، الذي كان في تلك الأيام مرضا منتشرا وقاتلا. ولكن مهما كان مرضها، لم يتمكن الطب من فعل الكثير لإبطائه. لحسن الحظ، أهلتها الوظيفة المنتظمة الأجر للاستفادة من نظام الضمان الصحي، حيث اكتشفت فوائده ومزاياه الآن. فمن المستحيل تخيل كيف يمكن دفع نفقات الرعاية الطبية لولاه.

أدخل مرضها تغييرا على وضعها. ومنذ ذلك الحين لم يكن هنالك من سبيل يمكنها من رعاية صبي في الثانية عشرة وبنت في التاسعة. لكن من حسن حظهما، أنِ سيدني قد تمكن أخيرا من العثور على الثروة في ربيع عام ١٩٢٩ ـ على الأقل تبعا للمعايير المتواضعة لأسرتي هوبزبوم وغرون في عشرينات القرن. إذ وجد عملا، غير مضمون وغير محدد، لكن بأجر معقول ومدى مفتوح، لدى "يونيفرسال فيلمز" في برلين. ولم تكن الوظيفة تلبي مطمح عمره بالارتباط بعالم الإبداع الفني فحسب، بل زودته هو وغريتيل بالوسيلة المناسبة لتحمل مسؤولية الطفلين نصف اليتيمين لشقيقه وشقيقتها. ولهذا، ندين بتشكيل حياتنا المستقبلية إلى كارل ليميل، مؤسس "يونيفرسال فيلمز" ومخترع نظام نجوم السينما في هوليوود. انفصلنا الآن: ذهبت نانسي إلى برلين على الفور، وبقيت أنا في فيينا حتى وفاة والدتي في تموز/يوليو ١٩٣١.

لا أدري ما السبب. لربما شعر سيدني وغريتيل أن من غير الممكن لهما رعاية طفلين إضافيين على الفور، أو التغلب على مشكلة العثور في وقت قصير على مدرسة في برلين تناسب فتى مازال في منتصف سنته الثالثة في المدرسة الثانوية في فيينا. صحيح أن والدتي كانت ـ كما يبدو واضحا ـ أكثر ارتباطا بي من ارتباطها بأختي، لكنها اعتادت على فكرة اضطرارها للتخلي عن طفليها، نظرا لعدم قدرتها على رعايتهما بصورة دائمة. وعلى أية حال فقد فكرت منذ مدة طويلة بأن علي إذا أمكن الذهاب إلى إنكلترا لأكمل تعليمي هناك، وأتعلم مهنة كأي إنكليزي. كان معظم يهود

الطبقة الوسطى في وسط أوروبا يميلون إلى إضفاء صفات مثالية على بريطانيا، ولا غرابة في أن تتزوج بنات غرون جميعا، بكل ما يتميزن به من ثبات، وقوة، ودأب، وهدوء أعصاب، من رجال إنكليز. لكن بغض النظر عن الزواج، كانت والدتي مولعة بإنكلترا وتكن لها حبا جما واستثنائيا. وكما كتبت إلى شقيقتها، فإن مجرد التفكير بأن الرسالة التي كتبت مسودتها للسيد روزنبرغ سوف تذهب إلى هادرزفيلد يجعلها تشعر بالعاطفة الوجدانية تجاه إنكلترا. كانت هي التي تصر بإلحاح على وجوب التحدث بالإنكليزية فقط في بيتنا، ليس مع والدي فحسب، بل معها أيضا. كما عملت دوما على تصحيح لغتي وحاولت توسيعها لتشمل أكثر من مجرد المفردات الأساسية التي تستخدم للاتصال مع بعضنا البعض داخل المنزل. كانت تحلم بأن أصبح موظفا في حكومة الهند - أو بالأحرى في إدارة الغابات في حكومة الهند، نظرا لاهتمامي الواضح بالطيور، الأمر الذي يجعلني (ويجعلها هي) أكثر قربا من عالم "كتاب الأدغال" الذي أعجبها كثيرا.

كانت هذه كلها، حتى وفاة والدي، مجرد أحلام للمستقبل البعيد. الآن، سنحت فجأة الفرصة لإرسالي إلى إنكلترا، لأن شقيقتها ميمي وزوجها قد افتتحا للتو نُزُلا في لانكشاير، على حافة ساوثبورت. ذهبت إلى هناك بعد نهاية السنة الدراسية ١٩٢٨-١٩٢٩، وكانت تلك أول زيارة لي إلى إنكلترا، وفي الواقع أول رحلة أقوم بها بمفردي (أول شيء فعلته ميمي عند وصولي هو أخذ النقود التي حملتها معي، لأنها كانت تمر كالعادة بواحدة من فترات نقص السيولة). أملت والدتي لوهلة أن أتمكن من البقاء هناك دائما، وطلبت مني أن أعرف متى تفتح المدارس أبوابها، و"ما إذا كان عليك التعلم كثيرا لتكون بمستوى أترابك". كتبت إلي في رسالة أخرى: "أترقب سماع شيء عن خططك بالنسبة للخريف القادم - أو بالأحرى ما خططت له الخالة ميمي من أجلك. آمل أن تتمكن من البقاء هناك، وهذا لصالحك، وأنا متأكدة من أنك تأمل بذلك أيضا". من المستحيل معرفة مدى الجدية التي أخذت بها هذا الاحتمال، ومن الواضح أنه لم يكن هناك أي تخطيط فعلي في هذا المجال. على أية حال، لا يوجد بصيص أمل في أن تتمكن الخالة ميمي المترحلة دوما من مكان لآخر، المحتاجة دوما إلى السيولة النقدية، مع/أو بدون زوجها الوسيم لكن العقيم اقتصاديا، من توفير قاعدة دائمة لي في إنكلترا. وهكذا، عدت إلى فيينا في نهاية العطلة المدرسية.

لا أتذكر ما إذا أردت البقاء في بريطانيا، أو ما فكرت فيه آنذاك. لكن زيارة إنكلترا، والتجول في لندن، والتعرف إلى عمي هاري وزوجته بيلا، وخصوصا ابن عمي روني (الذي يكبرني بخمس سنين)، كان أمرا مثيرا، رغم أنني وجدت ساوثبورت مخيبة للآمال، والحياة مع النزلاء في وينترزغارث مضجرة. وبغض النظر عن ذكرى الشوارع الممتدة إلى ما لانهاية، ببيوتها الصغيرة المبنية بالطوب الرمادي المائل إلى الصفرة على الطريق إلى لندن، والمفاجأة عند اكتشاف أن أهل لانكشاير يلفظون الحروف الإنكليزية الصوتية بصورة مختلفة عنا، أحضرت معي من إنكلترا اكتشافين اثنين: أولهما أن المجلات الأسبوعية التي يقرؤها أولاد الطبقة العمالية البريطانية بشغف (..The Wizard, Adventure وغيرهما)، كانت مختلفة تمام الاختلاف عن تلك التي أرسلها الأقرباء إلينا في فيينا من حين آخر. قرأتها بتوق ولهفة وبمتعة خالصة، وأنفقت كل مصروف الجيب عليها، كما أخذت معي مجموعة منها إلى فيينا (لم تكن تكلف كثيرا - بنسان للنسخة على ما أذكر). لم أدرك الأمر آنذاك، لكن قراءة تلك الأعمدة الرمادية الكثيفة من المغامرات والأحلام الخيالية جعلتني للمرة الأولى بريطانيا حقيقيا، نظرا لأنها وضعتني، على الأقل للحظة، على نفس طول الموجة التي يتلقاها أترابي من الأولاد البريطانيين.

ثانيهما الكشافة. فقد ذهبت إلى المهرجان الدولي للكشافة، الذي أقيم آنذاك في مكان لا يبعد كثيرا عن ساوثبورت، وعدت منه نصيرا متحمسا وبصحبتي نسخة من كتاب بادن - باول "الكشافة للصبيان"، ومصمما على الانضمام إلى الحركة. فعلت الشيء ذاته في السنة التالية في فيينا، حيث التحقت بالكشافة (Pfadfinder) الذين كانوا يتنافسون مع "الصقور الحمر" من ذوي القمصان الزرقاء التابعين للحزب الاشتراكي الديمقراطي، بعد أن نصحتني أمي بالعدول عن الانضمام إلى "الصقور" على أساس أن حفلات السمر في مخيماتهم تستحق الإعجاب، لكنني مازلت صغيرا على الالتزام بالماركسية التي يتبنونها. وهكذا دخلت الحياة العامة في عمر الرابعة عشرة، لا تحت رعاية المنظمات الثورية بل عبر مسيرات مواكب الكشافة المكونة غالبا من الصبية اليهود المنتمين إلى الطبقة الوسطى في فيينا، التي كان يستعرضها رئيس النمسا، ويلهلم ميكلاس (١٩٢٨-١٩٣٨)، وهو سياسي كاثوليكي غير متميز ومعاد للسامية بدون أدنى شك.

كنت كشافا شديد الحماس، بل تمكنت من تجنيد بعض زملاء المدرسة، لكنني لم أكن نابغا في الأنشطة الميدانية أو الحياة الجماعية. بين الكشافة، وجدت أعز أصدقائي في الفترة الفاصلة بين وفاة أبي وأمي. وبقينا على اتصال معا حتى وفاته هو الآخر، فقد فر إلى إنكلترا بعد أن احتل هتلر النمسا، ووجد عملا كبواب في المفوضية الأفغانية في لندن، إلى أن أصبح تقنيا طبيا (رئيس فرقتي الكشفية انتهى به المطاف في أستراليا). لو تواجد كشافة بادن ـ باول في المانيا، لانضممت إليهم هناك أيضا، بعد وفاة والدتي، لكن لم يكن في المانيا كشافة آنذاك، ولا أي فريق الماني لكرة قدم لعب مباراة دولية (رغم صعوبة تصديق ذلك الآن). وإن كان هناك ما يشبه "الصقور الحمر" النمساوية، فهم ينتمون إلى حزب اشتراكي ديمقراطي أقل إثارة للاهتمام بكثير وليس ثوريا على الإطلاق. وهكذا لم يكن للماركسية منافسون.

خلال السنتين التاليتين لعودتي من إنكلترا، عشت حياة شبه مستقلة اعتمادا على مصادر تلفت النظر بغرابتها. فالبقاء مع جدة عصابية ونصف عاجزة بعد ذهاب والدتي إلى المستشفى كان مسألة غير واردة على الإطلاق. أخذني خال أمي فيكتور فريدمان وزوجته إلسا للعيش معهما في المنزل، حيث ما تزال تقيم بنت واحدة على الأقل من أولادهما، هيرتا، التي كانت تكبرني بعدة سنوات (أخوها أوتو كان يسكن مع سيدني وغريتيل في برلين، ولذلك اعتبر الأمر بمثابة التزام متبادل). ظللت طيلة ما تبقى من العام الدراسي اتنقل يوميا بين شقتهم في المنطقة السابعة، في الجانب الآخر من المدينة القديمة، وبين مدرستي الثانوية في المنطقة الثالثة، مقابل المنزل الذي بناه لنفسه الفيلسوف فيتغنشتاين (لم أعرف ذلك في حينها). في صيف عام ١٩٣٠، انضممت إلى غريتيل، ونانسي، وبيتر، في قرية في جبال الألب في النمسا العليا (فيير اندر انز) لأكون قريبا من والدتي التي أرسلت إلى مشفى/مصح هناك. ومثلما يعرف كل من قرأ كتاب توماس مان "الجبل السحري"، فإن هواء الجبال يوصف لمرضى السل. لكنه لم يحسن صحة أمي.

أمضيت سنتي الدراسية الأخيرة في فيينا لوحدي، أو بالأحرى عشت حياة تشبه "حياة الرجل المستقل". فقد قدمني أحدهم إلى أرملة كولونيل سابق (السيدة إيفنبرغر)، أتت من جنوب بوهيميا مثل العديد من أهل فيينا الصالحين، وكان لها ابنة

(تكبرني بسنتين أو ثلاث) ترغب بتعلم الإنكليزية. وفي مقابل ذلك، كانت مستعدة لرعايتي إضافة إلى إعانة مالية متواضعة جدا. ونظرا لأنها تسكن في ضاحية خارج فيينا (فاهرنغ)، توجب علي الانتقال مجددا إلى مدرسة أخرى (الثانوية الاتحادية الثامنة عشرة في كلوسترغاسه)، وهي المدرسة الثانوية الثالثة التي أنتسب إليها خلال ثلاث سنين. في هذا الوقت، انتقلت والدتي من فيير إلى مشفى آخر لا يبعد كثيرا عن فاهرنغ. كنت أزورها هناك كل أسبوع. دعاني سيدني وغريتيل للانضمام إليهما مع شقيقتي في برلين خلال عيد الميلاد، لكن البقاء إلى جانب والدتي المريضة كان الاتصال المنتظم الوحيد مع الأسرة. وبدوري، كنت أمثل كل ما بقي لديها من عمل وأمل في حياتها.

في وقت ما من صيف عام ١٩٣١، توضح للبالغين في العائلة أن النهاية باتت وشيكة. ينبغي على غريتيل القدوم إلى فيينا والبقاء هناك. نقلت أمي إلى مصحة في بيركرسدورف إلى الغرب من فيينا، حيث رأيتها للمرة الأخيرة قبيل أن أذهب إلى مخيم الكشافة. لا أذكر شيئا عن المناسبة سوى كم بدت نحيلة ومهزولة، وكيف نظرتُ من النافذة، وأنا لا أدري ما أفعل أو أقول (كان هناك أشخاص آخرون حاضرين في الغرفة)، لأرى البلبل الزيتوني، بحجمه الصغير ومنقاره القوي القادر على كسر بذرة حبة الكرز، والذي لم أره في حياتي من قبل وظللت أبحث عنه منذ مدة طويلة. ولذلك لم تكن ذكراها مرتبطة في خيالي بالحزن بل بالمتعة المتصلة بعالم الطيور.

توفيت في الثاني عشر من تموز/يوليو ١٩٣١ . أحضروني من المخيم لهذا السبب، وبعد الجنازة دفنت في نفس قبر والدي. تركت فيينا نهائيا وذهبت إلى برلين. ومنذ ذلك الحين عشنا أنا ونانسي سويا، وأصبح سيدني وغريتيل وابنهما بيتر (لم يتجاوز عمره آنذاك ست سنين) أهلنا وعائلتنا. ولم يكن موت أمي حادثة الوفاة الوحيدة في ذلك العقد.

ربما حان الآن وقت استرجاع بعض الذكريات عن والدتي.

كانت أصغر بنات غرون وأكثرهن ذكاء وموهبة ونبوغا، لكنها لم تكن تميل إلى الاستمتاع بمباهج الحياة. كانت أقل جمالا وعفوية من جميلة العائلة، غريتيل، وأقل

تمردا وحبا بالمغامرة من ميمي الأكبر سنا ، ولربما كانت أكثر البنات الثلاث تمسكا بالتقاليد. خطبت إلى بيرسي وهي في الثامنة عشرة، وتزوجت قبل شقيقتيها ، وعادت إلى فيينا بعد الحرب أما لطفل وحاملا بآخر. في هذه الأثناء، مرت شقيقتاها وصديقاتها عبر تلك الحقبة الصعبة من التغيير والتحرر، فترة الحرب والانهيار والثورة بعد انتهائها ، دون أن تتزوجا أو ترتبطا بأحد. لا يعني ذلك أن الحرب كلها قد فاتتها. فقد عملت لبضعة أشهر، حين كانت في انتظار الذهاب إلى سويسرا لتتزوج في القنصلية البريطانية في زيورخ، كممرضة متطوعة في أحد المشافي العسكرية. وهناك تعلمت أن الجرحى لا يتحملون الاستلقاء إلا على أكثر أغطية الأسرّة نعومة وترتيبا ـ علمتني فيما بعد كيفية عمل مثل هذه الأسرة ـ وحاولت التواصل مع أحد الجرحى المحتضرين من خلال انتقاء عبارات تقرؤها له من كتاب اكتشفت أنه عبارة عن ترجمات لحكايات خيالية المانية. ومع ذلك، فإن الحياة في المجتمع الكولونيالي في الاسكندرية كانت غريبة، لكنها نسخة مشابهة للحياة في أوروبا قبل عام ١٩١٤. ولم تكن الحياة كذلك في فيينا حين عادت إليها بعد غياب دام أربع سنين.

ظلت بطريقة ما امرأة تقليدية حسب منظور الطبقة الوسطى في فيينا ما قبل عام ١٩١٤ . وكما قلت آنفا ، وجدت من غير المعقول تقريبا العيش بدون خادمات، ودهشت حين اكتشفت أن بمقدور السيدات في إنكلترا الاستغناء عنهن في الطبخ وأعباء المنزل والبقاء مع ذلك سيدات. كما اعتبرت أن من المسلم به أن تضع المرأة المتزوجة اهتماماتها في المرتبة الثانية بعد اهتمامات ومصلحة الزوج والأولاد ، وصدمت وتضايقت حين رفضت شقيقتها ميمي هذا الأمر. صحيح أن ذلك لم يجعل منها أما ناجحة على نحو خاص، لكننا (كما اتفقنا أنا وشقيقتي بعد سنين عديدة حين كنا نقارن بين ملاحظاتنا حول فترة الشباب) لم نعرف أحدا من أهلنا أو ممن أصبحوا أهلنا قد ناسبتهم تلك المهمة نتيجة الموهبة أو التدريب. ليس هناك أحد عرفناه تفوق في أدائها ، ولا يوجد سبب يدعو إلى الاعتقاد بأنهم نجحوا فيها من قبل، ولم ينجح فيها آباؤهم وأمهاتهم أيضا. لم تندفع بتهور وراء الطرائق والأساليب الجديدة للعالم، رغم أنها اتبعتها في نهاية المطاف. على سبيل المثال، لم تقص شعرها حتى عام ١٩٢٤ أو ١٩٢٥ ، وشعرت بالإحباط حين لم يلحظ أحد ذلك على ما يبدو.

لم تقدم الحياة في فيينا سوى القليل من التنازلات إلى امرأة تزعم (أو "تعترف" كما تقول في كتاباتها) بأن السعادة بالنسبة لها هي "النظر إلى اللهب المتوهج في المدفأة، لانتفاء أية رغبات إضافية"، وأن كتابها المفضل هو "حكايا الجن" لأندرسون. لا أعتقد بأنها كانت ربة منزل مؤهلة أو متحمسة أو مدبرة جيدة، رغم أنها كانت تستمتع بالخياطة بل حتى بما تجريه من تعديلات لا تنتهي على الملابس القديمة لتناسب الاستخدامات الجديدة أو نمو أجسام الأطفال، وهو أمر جعلته الميزانية المتقشفة ضرورة لا بد منها. كانت هنالك أوقات تعلن فيها الإضراب عن العمل حين يشتد الكفاح المستمر من أجل تلبية الاحتياجات. "خرجت من المنزل وجلست في مقهى، وفكرت الأمور تعاكسني.."، كما كتبت يوما في موعد عودة الثياب من المغسلة دون أن تملك ما يكفي من النقود لدفع أجرها. أو قد تقرر ببساطة الذهاب إلى السينما بمفردها لتنسى همومها. أو تدفن نفسها في الكتابة كما أصبحت تفعل باطراد، وهو أمر يجد تبريره المادي على الأقل في كونه وسيلة للحصول على المال. أو تزور حفنة من الصديقات المقربات (بمن فيهن شقيقتها الصغرى) اللاتي كانت تتلقى منهن حتما الدعم المعنوي الرئيسي مع مرور الأيام، واللاتي كن بدورهن يعتمدن عليها، ويبدين لها الحب والإعجاب.

من الغريب أنها لم تكن قارئة متحمسة للأدب المعاصر. ففي منتصف العشرينات، طلبت منها شقيقتها التي كانت تمر بفترة نقاهة، كتبا لتقرأها، ردت بأنها لم تقرأ مؤخرا سوى شكسبير، ولم تكن أعماله موجودة في المكتبات منذ دهور.

متى بدأت تفكر بنفسها ككاتبة، وهي مهنة كانت آنذاك أقل شيوعا بكثير في وسط أوروبا مقارنة بالحال في إنكلترا حيث المشهد النسوي شديد البروز في القصة الإنكليزية؟ لم اختارت الاسم الأدبي "نيللي هولدن"؟ بحلول عام ١٩٢٤، كانت قد أرسلت المخطوطات إلى دار النشر (ريكولا - فيرلاغ) وكتبت، أو على الأقل، كتبت مسودة، رواية - مستمدة على ما أفترض من تجربتها الذاتية كفتاة في الاسكندرية ونشرتها "ريكولا" بعنوان "اليزابيث كريسانثيز" عام ١٩٢٦ . ثم كتبت رواية أخرى بعد موت والدي، إلا أنها فزعت حين وجدت أن الناشر لم يبد حماسا لها، بل استحثها على إعادة كتابتها ولم تنشر في نهاية المطاف أبدا. قد يكون ذلك أمرا مفهوما لو

استطاعت الاستمرار في العمل. لم يبق أثر للمخطوط، وليس هناك من سبيل لمعرفة مدى الجدية التي أخذت بها القصص القصيرة التي كتبتها للمجلات. من ناحية أخرى، فقد كانت الحرفية والنوعية الأدبية لترجماتها محل فخرها الكبير والمشروع.

هل كانت كاتبة جيدة؟ لم أقرأ روايتها إلا بعد سنين عديدة. وحين كنت شابا حرصت على تجاهلها، لا أدري لمَ. كانت تكتب بأسلوب جاد، ورشيق، وعاطفي، ومتناغم، وبلغة ألمانية منتقاة بعناية، ولربما كان ذلك أمرا طبيعيا بالنسبة لشابة مثقفة من فيينا واظبت بإخلاص على حضور أمسيات أدبية تتلى فيها قصص كارل كراوس العظيم، لكنني لا أستطيع الزعم بصدق بأنها كانت تبدو ككاتبة من الدرجة الأولى. كتبت أيضا قصائد شعرية لم أعثر عليها أبدا. صدمت خالتي غريتيل حين قلت بأنني لا أعتبر أعمالها إنجازا كبيرا، اعتقادا مني حتى في ذلك الوقت بأن على المرء ألا يخدع نفسه حتى بالأشخاص أو الأشياء التي تمثل أكبر اهتمام له في الحياة.

كل هذا مجرد إعادة بناء للأحداث من قبل رجل عجوز، ما زال يحاول الاهتداء بهذا المبدأ في مهنته وعواطفه وانفعالاته الخاصة. على أية حال، يعتبر كل ذلك غير ذي صلة بعلاقتي بالشخص الذي كان له أعمق الأثر في حياتي. لقد وصلت الآن إلى عمر يكفي لأكون جدا لامرأة توفيت في عمر السادسة والثلاثين. ومع ذلك، قد يبدو من العبث تخيل أن بالإمكان أن نلتقي مجددا وأراها وأعاملها كامرأة شابة. لسوف تبقى والدتي. لربما أتوقع أن تسألني عما فعلت في الحياة، وأجيبها بأنني استطعت تحقيق بعض آمالها فيّ، فقد قبلت على الأقل بعض العلامات الدالة على اعتراف الرأي العام بي لأنني اعتقدت بأن ذلك سيسعدها. وأظن بأنني لم أكن أكثر، أو أقل، صدقا من السير إيزايا برلين الذي اعتاد تسويغ قبوله باللقب برغبته في إدخال السرور على قلب والدته. ليس لدي أدنى شك في أن الدليل (القابل للقياس) على أن ابنها الصبي الذي بذلت ما بوسعها من أجل تحويله إلى رجل إنكليزي حقيقي قد أصبح في النهاية عضوا يحظى بالقبول في المؤسسة الثقافية البريطانية، كان سيترع كيانها بالبهجة والسرور أكثر من أي شيء آخر في السنوات العشر الأخيرة من حياتها القصيرة.

أعتقد أن تأثيرها فيّ كان معنويا قبل كل شيء، رغم أنني في أيام مرضها كنت مدفوعا أيضا برغبة عدم جرح مشاعرها ومخالفة رغباتها. كنت أهتم بها حتى حين

كانت تنتقد سلوكي. كنت آخذها على محمل الجد. أظن أن ما يدفع إلى الاقتناع بها هو صدقها إضافة إلى كبريائها. إذ لم تكن متدينة ولم تهتم بكونها تعتنق الديانة اليهودية بحد ذاتها، رغم أنها تزوجت بعقد ديني، إرضاء لوالدتها، وآخر مدني. لكنها، مثلما أتذكر، زودتني بالأساس الدائم لإحساسي بكوني يهوديا، وهذا ما يضايق أو يذهل أولئك الذين لا يؤمنون بأن مجرد النفي السلبي يمكن أن يشكل قاعدة كافية للهوية. لربما أجلتْ التزامي السياسي وذلك بإشارتها إلى أنه حتى الصبيان الأذكياء يحتاجون إلى وقت للتفكير والنمو الفكري، وعلمتني بأن هنالك كتابا عظاما لا يمكن أن نفهمهم إلا حين ننضج ونتقدم في العمر. ولأنها كانت صريحة وصادقة معي، جعلتني أصدقها.

لا يعني ذلك، بغض النظر عن العمر، أننا كنا على نفس طول الموجة. فحماستها مثلا لحركة أوروبا الكبرى، وهي حركة محافظة نوعا ما سعت إلى إقامة دولة أوروبية واحدة (باستثناء روسيا) روج لها أرستقراطي نمساوي (الكونت كودنهوف ـ كاليرجي) لم تؤثر بي أبدا. كانت تلك إحدى النزهات الترويحية في عالم السياسة لفكر ليبرالي لكنه غير مسيس أصلا. من ناحية أخرى، كانت تضجرها مقالات زوج صديقتها غريت سزانا، الكسندر سزانا المتجول من مكان آخر، التي كان يتحدث فيها عن رحلاته السياسية ـ الاجتماعية إلى روسيا (التي انتقدها بشدة)، وشمال أفريقيا وغير ذلك من الأماكن. كنت أصغي إليه بشغف وحماس، شجعتني على ذلك دون ريب هداياه السخية من الطوابع العالمية التي تصل إلى مكتب جريدته. بفضل هذه الذكريات سوف أختار لاحقا الذهاب إلى شمال أفريقيا، حين قدمت لي جامعة كامبريدج منحة سفر قبل التخرج عام ١٩٣٨ . وعلى ما يبدو كنت أستمد من أمي إعجابي بكارل كراوس، لكن إصرارها على أن أصغي إلى "شمشون ودليلة" من راديو جدي (لم يكن لدينا جهاز خاص بنا على ما أظن) أبعدني عن الموسيقى الكلاسيكية لعدة سنوات.

ما أزال أذكر جلوسي إلى جانب سريرها في المستشفى، حيث يصغي كل منا للآخر ونحن على مفترق الطرق: أستعد أنا لدخول مرحلة الشباب وتوشك هي على مغادرة الدنيا. أرادت أن تعيش. أتذكر أنها قالت لي مشيرة إلى كتاب ماري بيكر إيدي "كتاب العلم المسيحي المقدس" التي تركته لها إحدى الزائرات: "أود لو أصدقه. ربما لو

امتلكت ذلك الإيمان لكان أفضل لي من كل ما فعله الأطباء حتى الآن، لكنني لا أقدر على الإيمان به". قبل أن تموت بقليل تخيلت أن صحتها تتحسن، وأنها قد تشفى. وقيل لي إن ذلك يمثل على الدوام علامة موثوقة على دنو النهاية.

عند استعادة الأحداث الماضية، تبدو الأعوام الممتدة بين موت أبي وأمي فترة مأساوية، مفعمة بالألم، والضياع، والاضطراب، وانعدام الاستقرار، الأمر الذي سيخلف آثارا عميقة على حياة الطفلين اللذين مرا بها. وهذا صحيح بالتأكيد، حيث تطلب الأمر من أختي سنين طويلة للشفاء من صدمة فقدان والدها وما تبعه من طفولة لا تعي ما يحدث حولها وفتوة ساخطة ساءها استمرار حالة التمزق الوجداني وانعدام الاستقرار العاطفي. ليس لدي أدنى شك بأنني أحمل حتما الندوب العاطفية لتلك السنين الكئيبة في مكان ما من نفسي. ولكن لا أظن بأنني كنت واعيا بها بحد ذاتها. قد يكون ذلك بمثابة وهم تضليلي لشخص يمتلك، مثل الكمبيوتر، "سلة مهملات" لإلغاء وشطب المعطيات والمعلومات غير السارة وغير المقبولة، لكن بمقدور الآخرين استرجاعها منه. إلا أنني لا أعتقد بأن ذلك يمثل التفسير الوحيد للسبب الذي جعلني لا أعتبر تلك السنين محزنة وأليمة على نحو خاص، رغم أنني لم أكن سعيدا خلالها. ربما تكون حقائق الوضع قد فاتتني لأنني عشت معظم الوقت مبتعدا عن العالم الحقيقي - ليس في عالم الأحلام، بل في عالم من الفضول، والاستقصاء، والقراءة المتوحدة، والملاحظة والمراقبة، والمقارنة والتجريب - فتلك هي الفترة الوحيدة في حياتي التي صنعت فيها جهاز راديو. ورغم أنني عقدت صداقة دائمة مع صبي واحد على الأقل في السنة التي كنت فيها عضوا في الكشافة، إلا أنني عشت محروما من العلاقات الحميمة. وحين أفكر بحياتي في السنة الأخيرة السابقة على وفاة والدتي، فإن أول ما يخطر ببالي ثلاث ذكريات: أولا، أتذكر نفسي جالسا وحيدا على أرجوحة في حديقة السيدة ايفنبرغر، محاولا حفظ غناء طيور الشحرور عن ظهر قلب، بينما ألحظ الفوارق بينها؛ ثانيا، ذكرى استلام هدية عيد ميلادي من أمي - دراجة رخيصة الثمن ومستعملة - وقد تملكني الحرج الذي يصيب المراهقين، لأن الدراجة تبدو قديمة ومتهالكة؛ ثالثا، أتذكر مروري في أصيل أحد الأيام بواجهة متجر مؤطرة بالمرايا واكتشاف الصورة الجانبية لوجهي. هل أفتقد الوسامة حقا كما أبدو في المرآة؟ لم أجد العزاء ولا السلوان

حتى في حقيقة أنني أنتمي على ما يبدو إلى النوع النحيل من أنواع كريتشمير "السيكوسوماتية" الثلاثة (تعلمت ذلك من أحد أشهر الكتيبات العلمية الساحرة: "الكون، جمعية أصدقاء الطبيعة")، وأن شكلي سيتحسن، مثل فريدريك الكبير، عندما أتقدم في العمر. وعلى شاكلة العديد من الأمور الأخرى، آنذاك وفيما بعد، احتفظت بمشاعري لنفسي.

ولم أفكر كثيراً بهذه الأشياء في المراحل اللاحقة من حياتي. بعد مغادرة فيينا عام ١٩٣١، لم أر القبر مرة أخرى. في عام ١٩٦١، ذهبت للبحث عنه، كجزء من برنامج تلفزيوني حول تاريخ حقبة ما بين الحربين كما عاشها طفل في وسط أوروبا. لكن بعد مرور أكثر من ستين سنة من تاريخ العالم، لم أتمكن من العثور على القبر ولا على الشاهدة التي أمرت أمي بصنعها (بتكلفة بلغت ٤٠٠ شيللنغ). ظهرت في الفيلم وأنا أبحث عن الموقع. وحده بنك المعلومات الإلكتروني، الذي امتلكت سلطات القسم اليهودي في مقبرة فيينا المركزية البصيرة النافذة لإقامته (وعينها على السياح الأمريكيين)، سجل أن القبر كان يضم رفات ليوبولد بيرسي هوبزبوم، المتوفي بتاريخ ١٩٢٩/٢/٨، ونيللي هوبزبوم، المتوفاة في ١٩٣١/٧/١٢، وما فاجأني هو ورود اسم جدتي ارنشتين غرون، التي توفيت عام ١٩٣٤ .

-٤-

برلين: موت فايمار

لم ألحظ تغيرا جوهريا في فيينا حين عدت إليها لأول مرة عام ١٩٦٠، بعد غيبة دامت ثلاثين سنة تقريبا. البيوت التي عشنا فيها والمدارس التي ذهبنا إليها مازالت هناك (وإن لاحت لعيني أصغر حجما)، كما تمكنت من التعرف إلى الشوارع القديمة، بل إن عربات الترام ظلت تحمل نفس الأرقام وتسير على ذات الخطوط. الماضي مازال حاضرا في المدينة بشواهده المادية. لكن الأمور لم تكن كذلك في برلين. حين رجعت إليها للمرة الأولى ووقفت أمام موقع المنزل الذي كنا نعيش فيه جميعا (في شارع اشافينبيرغر) في فيلمرسدورف، وجدت أن كل شيء قد تغير. فالشارع، على الخريطة، مازال يمتد من ساحة براغر إلى ساحة بيرشتر، ومن المفترض على ما أذكر أن يؤدي شارع باربا روسا، الذي يتجه من أمام مدخل البناء الذي كنا نسكن فيه، إلى مدرسة أختي مباشرة. لكن لم يبق شيء من كل ذلك. انتصبت بيوت جديدة لم أتعرف عليها. ومثلما يحدث في الكوابيس التي تختلط فيها الأشياء وتنزاح عن مواضعها وتتغير معالمها، لم أتمكن من تمييز معالم المكان، بل لم أعرف حتى اتجاه الطريق الذي كنت أسلكه. البناء المتهالك لمدرستي القديمة مازال موجودا فعلا في شارع غرون فالد، لكن المدرسة ذاتها لم تستطع النجاة من الحرب. أما موقع مكتب عمي في مركز المدينة فلم أتمكن من تحديده حتى على الخريطة، نظرا لأن المنطقة المحيطة بساحة لايبزيغر كانت تشكل منطقة محرمة تفصل بين برلين الشرقية وبرلين الغربية وظلت تحمل آثار القنابل منذ الحرب. من الناحية المادية، أبادت قنابل الحرب العالمية الثانية معالم الماضي في برلين، ومن الناحية الأيديولوجية، لم تهتم الدولتان الألمانيتان خلال الحرب الباردة، ولا ألمانيا الموحدة في التسعينات بتجديد وإعادة إعمار المنطقة. فعاصمة "جمهورية برلين"

الجديدة تحفة معمارية، كبرلين الغربية في الحرب الباردة التي كانت واجهة تعيش على الإعانة وتستعرض قيم الثراء والحرية. جمهورية المانيا الديمقراطية لم تهتم كثيرا بأعمال البناء والإعمار والتجديد ـ تجسدت أعظم طموحاتها في مجال التشييد والإعمار، بغض النظر عن جادة ستالين، في بناء جدار برلين! ـ رغم أنها بذلت جهدها في منطقة مركز المدينة البروسي القديم والرائع من الناحية المعمارية، بعد أن وقع ضمن أراضيها. وهكذا، تبين لي أن المدينة التي أمضيت فيها أهم سنتين حاسمتين من عمري لا وجود لها إلا في الذاكرة.

لا يعني ذلك أن برلين في السنوات الأخيرة من عمر جمهورية فايمار كانت تلفت الأنظار من الناحية المعمارية بحيث أكتب عنها إلى الوطن. كانت مدينة مزدهرة من القرن التاسع عشر، أي مدينة تتبدى فيها بوضوح ملامح أواخر العصر الفيكتوري (عصر ويلهلم في المانيا)، لكنها تفتقد النمط الإمبراطوري واللحمة المدينية للتخطيط العمراني في فيينا أو بودابست. ورثت برلين ضواحي ممتدة جميلة نوعا ما يسيطر على بنائها الطراز الكلاسيكي الجديد، لكن معظمها يتألف، في جزأها الشرقي المكتظ بالطبقة العاملة ـ إذ كان مركزا صناعيا ـ من باحات "المساكن الشعبية" الضخمة (Mietskasernen) التي تمتد إلى ما لانهاية في شوارع خالية من الشجر. أما في الجزء الغربي الذي تسكنه الطبقة الوسطى فتزداد المساحات الخضراء وتظهر الزخارف على الأبنية وتصبح الشقق السكنية أكثر راحة على ما يبدو. برلين في عهد جمهورية فايمار ظلت في الجوهر برلين وليم الثاني، وكانت على الأرجح، بغض النظر عن حجمها، أقل عواصم أوروبا تميزا وذلك فيما عدا مدن البلقان والعاصمة الإسبانية مدريد. على أية حال، لم يكن من المرجح أن يتأثر مراهق متعلم بالجهود الإمبراطورية المنصبة على تشييد المعالم والنصب التذكارية، مثل الرايخستاغ، وجادة سيغه، وهي شارع يثير السخرية يضم اثنين وثلاثين تمثالا تخلد حكام أسرة هوهنزوليرن، كلهم من الرموز المعبرة عن الأمجاد العسكرية وكلهم بدون استثناء يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى (وهو أمر شكل مصدرا لا ينضب لنكات ودعابات سكان برلين). لكنها دمرت جميعا من قبل الحلفاء الذين انتصروا لكنهم افتقدوا روح الدعابة، كجزء من إزالة بروسيا من الوجود كما هو مفترض، وتغييب كل ما قد يبقى من ألمان بروسيا من الذاكرة في حقبة ما بعد عام

١٩٤٥ . لم يتبق سوى معلم أدبي على نفس القدر من التنافر. رودولف هيرنشتادت، رئيس التحرير السابق للصحيفة الرسمية الناطقة باسم حكومة جمهورية المانيا الشرقية، الذي طرد من قيادة حزب الوحدة الاشتراكي عام ١٩٥٣، وأدين بتهمة تأييد بيريا، رئيس الشرطة السرية السوفييتية (الذي أعدم)، ثم نفي إلى محفوظات الدولة البروسية (من العدل القول إن النظام الذي امتلك صحافة سيئة لها ما يبررها، لم ينفذ حكم الإعدام بأي متهم بالخيانة ضمن صفوفه، حتى في أسوأ سنوات الحقبة الستالينية). في قسم المحفوظات الوطنية، وجد هيرنشتادت ما يسليه في كتابة مقالة نقدية ساخرة وذكية بعنوان "أرجل هوهنزوليرن" اعتمادا على ملف وجده هناك. والملف عبارة عن مجموعة من المواضيع الإنشائية التي كتبها طلاب في المرحلة الثانوية، طلبها مدير مدرسة كان بأمس الحاجة إلى استخلاص مضمون بيداغوجي من رحلة مدرسية إلى النصب التذكاري الجديد (آنذاك) للوطنية البروسية. ما مدى تعبير وقفة التماثيل عن شخصيات أصحابها؟ ذلك كان العنوان الذي كتب حوله طلاب الصف موضوع الإنشاء؛ من الواضح أن ذلك قد تم على قدر من الولاء والنجاح بحيث أن القيصر نفسه طلب رؤية المقالات وعلق عليها بخط يده الإمبراطوري. كان ذلك ممارسة تشبه كثيرا الروح السائدة في برلين في سنوات جمهورية فايمار.

بالنسبة إلى شبان الطبقة الوسطى الذين عاشوا في برلين بين عامي ١٩٣١- ١٩٣٣، كانت المدينة مكانا صالحا للتنقل والتجول في الشوارع، وليس للجمود والكسل والتحديق إلى الأبنية ـ شارع موتز، وجادة قيصر في إشروود وايريك كاستنر. لكن بالنسبة لمعظمنا، كانت غالبية هذه الشوارع تؤدي إلى الجزء الذي لا ينسى حقا من المدينة، أي البحيرات والغابات التي كانت، ومازالت، تحيط بالمدينة إحاطة السوار بالمعصم: إلى غرونفالد، والبحيرات الضيقة التي تظللها الأشجار الكثيفة، شالكتينسي وكروم لانك التي كنا نمارس على سطح مياهها المتجمدة رياضة التزحلق على الجليد في الشتاء ـ برلين مدينة باردة جدا ـ وإلى زيهلندورف، بوابة بحيرات فانسي الرائعة في الغرب. البحيرات في شرق المدينة لم تكن تشكل جزءا منتظما من عالمنا. فالجزء الغربي هو الجزء الذي يسكنه الموسرون والأثرياء في بيوت كبيرة مبينة من الحجر الرمادي وسط الأشجار. ومن المفارقات التي تتميز بها برلين، أن "غرونفالد

فيرتيل" قد تطورت بالأصل بواسطة مليونير من عائلة يهودية محلية فاخرت بتراثها اليساري الذي يرجع إلى جد شغف بجمع الكتب الثقافية، وانضم إلى ثورة باريس عام ١٨٤٨ (ابتاع النسخة الأولى من "البيان الشيوعي" الذي كتبه ماركس وانجلز). كانت العائلة تتمثل خلال حياتي بأبناء وبنات ر. ر. كوزينسكي، وهو عالم متميز متخصص بالديموغرافيا، وجد ملاذا له بعد عام ١٩٣٣ في مدرسة لندن للاقتصاد. ظل أفراد العائلة جميعا شيوعيين ملتزمين مدى الحياة. أما أشهرهم فهما روث كوزينسكي، التي عملت في واحدة من المهمات العديدة التي تولتها خلال حياتها المهنية الطويلة والمغامِرة في المخابرات السوفييتية، كصلة وصل مع كلاوس فوكس في بريطانيا. ويورغن كوزينسكي، المؤرخ الاقتصادي الساحر والمترع بالآمال دائما، الذي كان مدافعا بارعا عما اعتبره أطروحة ماركس حول إفقار البروليتاريا، والذي أعاد مكتبة العائلة الضخمة إلى برلين الشرقية حيث توفي عن عمر يناهز الثالثة والتسعين، وكان أغزر إنتاجا من كل من عرفتهم، حتى بدون حساب كتابه المؤلف من اثنين وأربعين جزءا: "تاريخ أوضاع الطبقة العاملة". ببساطة، لم يستطع طيلة حياته منع نفسه من القراءة والكتابة. وبما أن العائلة ظلت تملك تلك "غرونفالد فيرتيل"، وكان على الأرجح أغنى مواطن في برلين الشرقية، فقد استطاع توسيع المكتبة وتقديم جائزة سنوية بلغت مائة ألف مارك (ماني شرقي) للأعمال الواعدة التي يؤلفها العلماء الشباب في مجال التاريخ الاقتصادي، العلم الذي ازدهر في المانيا الشرقية بفضل ما قدمه من دعم وتأييد. لم يتعرض له أحد في المانيا الديمقراطية، حيث كان يعبر عن آراء معارضة معتدلة تسامحت معها الدولة لأن إخلاصه في الولاء كان جليا لا لبس فيه. إضافة إلى أنه أقدم في المرتبة الحزبية من حكام الدولة أنفسهم.

برلين، مثل منهاتن (التي أولعت بتشبيه نفسها بها في سنوات جمهورية فايمار)، كانت مدينة يسار الوسط. إذ افتقدت طبقة النبلاء البرجوازية المحلية المتجذرة تاريخيا، وكانت لذلك أكثر ترحيبا باليهود (التراث الأرستقراطي للبلاط البروسي، والجيش، والدولة، كان ينظر بدونية إلى البرجوازية مهما تنوعت أطيافها). كانت برلين مدينة تشكك بدعاوى وحقوق التفوق الاجتماعي، وتشتبه بخطابات القومية المنمقة والعاطفية. وعلى الرغم من مساعي الدكتور غوبلز، الذي تجسدت مهمته في استئصال

شأفة الحمر منها نيابة عن هتلر، لم تصبح المدينة نازية في العمق. وعلى العكس من لهجة سكان فيينا، التي يتحدث بها الجميع بدءا بالإمبراطور في القصر وانتهاء بالكناس في الشارع، فإن اللهجة البرلينية، السريعة النبرة، التي تعتبر نسخة معدلة ومكيفة ببراعة وحذق عن لغة السهل الألماني الشمالي (plattdeutsch)، هي أساسا لهجة شعبية تفصل جمهور العامة عن علِية القوم المتأنقين، وإن كانت مفهومة من قبل الجميع. كما أن مجرد الإصرار على الصيغ النحوية البرلينية المحددة، الصحيحة في اللهجة، الخاطئة تبعا للغة المدارس، كان أمرا كافيا لفصلها عن لغة المثقفين. من الطبيعي أن يتحمس لها تلاميذ الطبقة الوسطى في مدرستي الثانوية الكلاسيكية، مثلما يولع تلاميذ المعاهد التعليمية الراقية في باريس باللهجة العامية المبتذلة في مدينتهم. وبعد نهاية دولة المانيا الديمقراطية، لم يتخل سكان برلين الشرقية السابقة عن فخرهم واعتزازهم بلهجتهم البرلينية رغم ما شعورا به من استياء وسخط، بل رغبوا بتمييز أنفسهم عن الحكام الغربيين للجزء الألماني الذي يعيشون فيه من خلال الإصرار على التحدث بها. كانت لغة واثقة، وجسورة، ومباشرة، شغفت بها حبا، مع أن تصريف الكلمات في لهجتي الألمانية مازالت تحمل ملامح لهجة سكان فيينا. إن مجرد سماعي بضع كلمات باللهجة البرلينية النقية، التي أصبح من النادر أن يتحدث بها أحد الآن، يكفي لأن يأخذني عائدا إلى تلك اللحظة التاريخية الحاسمة التي قررت مسار القرن العشرين وحددت مسيرة حياتي في آن معا.

أتيت إلى برلين في أواخر صيف عام ١٩٣١، مع انهيار الاقتصاد العالمي. وخلال أسابيع من وصولي، تخلت بريطانيا، التي كانت محور هذا الاقتصاد خلال القرن السابق، عن معيار الذهب والتجارة الحرة. في وسط أوروبا توقع الجميع الكارثة منذ أن استرد الأمريكيون قروضهم، وقد حدثت فعلا حين انهار مصرفان في وقت مبكر من ذلك الصيف. لم يكن للزلزال المالي تأثير مباشر على مراهق نازح من وطنه، لكن البطالة التي ارتفعت معدلاتها ارتفاعا حادا ـ بلغت ٤٤٪ من القوة العاملة الألمانية عام ١٩٣٢ـ وصلت إلى عائلتنا. إذ فقد ابن عمي أوتو، الذي عاش مع سيدني وغريتيل ومازال يزورهما من وقت آخر، وظيفته ورد على ذلك باعتناق الشيوعية. لم يكن الوحيد في ذلك: ففي عام ١٩٣٢، كانت نسبة ٨٥٪ من أعضاء الحزب الشيوعي

الألماني من العاطلين عن العمل. كنت أصغر عمرا منه، ومن الطبيعي أن أتأثر بشاب طويل القامة، وسيم الملامح، ناجح مع الجنس اللطيف، ويحمل الآن شارة عليها الحروف الروسية الأولى لمنظمة الشبيبة الشيوعية العالمية. أعتقد أنه أول شيوعي قابلته: لم أقابل في النمسا أحدا مثله، ولذلك لن تخطر فكرة الانضمام إلى الحزب الشيوعي بذهن الشباب حتى ما بعد انتهاء الحرب الأهلية عام ١٩٣٤ التي أضعفت الثقة بزعماء الحزب الاشتراكي الديمقراطي.

انهيار الاقتصاد العالمي كان أمرا يقرأ عنه شبان الطبقة الوسطى دون أن يختبروه مباشرة. لكن الأزمة الاقتصادية العالمية شابهت بركانا يطلق حمما سياسية. وهذا ما لم نستطع تفاديه، لأنه هيمن على أفق سمائنا، مثل قمم البراكين الحقيقية التي تلفظ سحب الدخان من حين لآخر وتنتصب شاهقة في سماء المدن ـ فيسوفيوس، إتنا، مون بيلي. السحب الدخانية كانت في الهواء الذي نتنفسه. ومنذ عام ١٩٣٠، كان رمزها مألوفا: صليب أسود معقوف ضمن دائرة بيضاء على خلفية حمراء.

يصعب على أولئك الذين لم يختبروا ويعانوا من "عصر الكارثة" في القرن العشرين في أوروبا الوسطى رؤية ما يعنيه العيش في عالم لم يكن من المتوقع أن يعمر، في عالم لم يكن في الحقيقة بالمستطاع إطلاق اسم عالم عليه، بل مجرد محطة مؤقتة بين ماض ميت ومستقبل لم يولد بعد، إلا إذا كنت في عمق روسيا الثورية. لم يبرز ذلك ويتضح في أي زمان مثل الأيام الأخيرة من جمهورية فايمار.

لم يكن أحد راغبا حقا بجمهورية فايمار في عام ١٩١٨، وحتى أولئك الذين قبلوها، أو دعموها بفاعلية، رأوا فيها تسوية تمثل ثاني أفضل خيار على أحسن تقدير: فهي أفضل من الثورة الاجتماعية، أو البولشفية، أو الفوضى (إذا كانوا من اليمين المعتدل)، ومن الإمبراطورية البروسية (إذا كانوا من اليسار المعتدل). وليس هناك من سبيل للتأكد من أنها ستصمد أمام الكوارث التي واجهتها خلال سنواتها الخمس الأولى: معاهدة سلام عقابية يعارضها تقريبا جميع الألمان من كافة الأطياف السياسية، انقلابات عسكرية فاشلة واغتيالات إرهابية من جانب اليمين المتطرف، جمهوريات سوفييتية محلية مخفقة وأعمال عصيان وتمرد من جانب اليسار المتطرف، الجيوش الفرنسية التي تحتل قلب مناطق الصناعة الألمانية، وفوق كل ذلك تفاقم ظاهرة

التضخم الخطير الذي أصاب ألمانيا عام ١٩٢٣، والتي كانت غير مفهومة، وما زالت حتى اليوم فريدة من نوعها ولا مثيل لها. لكن الجمهورية بدت لفترة وجيزة خلال السنوات القليلة في منتصف العشرينات، وكأنها ستنجح. إذ استقر المارك (بقي مستقرا حتى الحرب، ثم من عام ١٩٤٨ حتى استبداله باليورو) وتمكن أقوى اقتصاد في أوروبا، الذي استرد عافيته بعد الحرب، من استعادة ديناميته، ولأول مرة بدأ الاستقرار السياسي يلوح في الأفق. لكنه لم ينج، ولا كان بمقدوره أن ينجو، من انهيار البورصة في "وول ستريت"، وفترة الكساد الكبير. ففي عام ١٩٢٨، بدا أن اليمين المتطرف المهووس قد استؤصل فعليا. وفي الانتخابات التي أجريت تلك السنة حاز الحزب النازي بزعامة هتلر على ٢.٥٪ فقط من الأصوات، واثني عشر مقعدا في الرايخستاغ، أي أقل من الحزب الديمقراطي الذي يزداد ضعفا باطراد، ويمثل أعضاؤه أخلص المؤيدين لفايمار. بعد سنتين، عاد النازيون بقوة ليسيطروا على ١٠٧ مقاعد، محتلين بذلك المركز الثاني بعد الديمقراطيين الاجتماعيين. ما بقي من جمهورية فايمار حكم بقانون الطوارئ. في الفترة الممتدة بين صيف عام ١٩٣٠ وشباط/فبراير ١٩٣٢، انعقد الرايخستاغ لمدة عشرة أسابيع. ومع ارتفاع معدلات البطالة، تعاظمت بشكل يتعذر اجتنابه القوى المنادية بنوع من الحل الراديكالي - الثوري: الاشتراكية القومية على اليمين، والشيوعية على اليسار. تلك كانت الظروف والأوضاع السائدة حين أتيت إلى برلين في صيف عام ١٩٣١ .

شاركت نانسي وبيتر (٧ سنوات آنذاك) في شقة سيدني وغريتيل (في شارع اشافينبيرغر) المستأجرة من واحدة من العديد من الأرامل العجائز اللاتي أتين من عائلات محترمة و رزحن تحت ضغط الصعوبات المالية الشديدة. لا أستطيع تذكر الكثير عن هذه الشقة، سوى أنها مضيئة، وأن الأحاديث التي كانت تدور بين الكبار وضيوفهم في المساء يمكن سماعها من الغرفة التي كنت أنام فيها. كانت لسيدني وغريتيل علاقات اجتماعية معقولة مع المعارف من التجار، والأقرباء، وأصدقاء فيينا الزائرين أو المقيمين في برلين. وكانت النمسا الصغيرة والمفقرة في فترة ما بين الحربين لا تمثل مشهدا غنيا يناسب مثقفي فيينا. لم يكن عمرنا يسمح بالمشاركة في كل ذلك. كنا نقرأ إحدى الجرائد التي حظيت بإعجاب خالتي بسبب صفحاتها الثقافية التي

كانت تقصها وتحتفظ بها. لا زلت أذكر بوضوح دور السينما الكبرى، والسيارات الفارهة وهي تقف خارجها ـ ماي باكس، هيسبانو ـ سويزا، ايسوتا ـ فراتشيني، كورد.

خلال بضعة أيام من وصولي، وجد سيدني مكانا لي في مدرسة "برنز هاينريش الثانوية" في شونبيرغ، وهي قريبة من الشقة ومجاورة لمدرسة نانسي، لأنضم إلى الصف الثالث من المرحلة العليا. وعلى العكس من المدارس الثانوية النمساوية والبريطانية، فإن أرقام صفوف المدارس الألمانية تنازلية: إذ يبدأ الطالب من الصف السادس، ويتخرج وهو يحمل شهادة من الصف الأول في المرحلة العليا. ومن بين الثلاثة عشر عاما التي أمضيتها في سبع مؤسسات تعليمية قبل الذهاب إلى كامبريدج، تركت الأشهر الثلاثة عشر التي أمضيتها في ثانوية "برنز هاينريش" الانطباع الأعمق على حياتي. فقد جسدت الوسيلة التي خبرت من خلالها ما عرفته حتى آنئذ بأنه لحظة حاسمة في تاريخ القرن العشرين. علاوة على ذلك، لم أختبر تلك اللحظة كطفل من النمسا (حتى وإن بلغت الحلم في عامي الأخير في فيينا)، لكن كمراهق في لحظة استكشافية، أي حين تكتشف العاطفة والفكر والعالم للمرة الأولى، وتغدو كل تجربة في الحياة وشما لا يمكن نسيانه. بعد سنوات عديدة، جمعني صديق قديم مع السفير الألماني (آنذاك) في المملكة المتحدة، غونتر فون هاس، الذي تذكر فور سماعه باسمي أننا كنا سويا في نفس الصف الدراسي. وعرفت أنا بدوري فورا أن الاسم يحمله صاحب ذاك الوجه في الصف الذي جلسنا فيه سويا ـ لمدة بضعة أشهر فقط، لكن من المؤكد أن أحدنا لم يفكر بالآخر منذ عام ١٩٣٣ . كنا زميلين وحسب لا صديقين. إلا أننا كنا هناك معا في فترة من حياتنا ومن التاريخ لا يمكن لأحد نسيانها. الاسمان أحيا الذكرى. ففي مشهد سنوات دراستي وذكرياتها الباهتة، تقف مدرسة "برنز هاينريش" كقمم الجبال الشاهق. أما بالنسبة للسنوات الأولى بعد برلين فإن الحياة في إنكلترا لم تحتل موقعا يحظى باهتمام حقيقي.

هل كانت مدرستي في برلين مهمة حقا كما تبدو عند استعادة الأحداث الماضية؟ لقد قصفت مدفعية فايمار من كل حدب وصوب فتى في الرابعة عشرة مترعا بالآمال والتوقعات. المدرسة لم تعلمني الأغنيات التي مازالت تعني "برلين" بالنسبة لي. ولم تصلني الأحداث الكبرى في تلك الفترة ـ سقوط حكومة برونينغ، الانتخابات الوطنية

الثلاثة عام ١٩٣٢، حكومتا بابين وشليشر، استيلاء هتلر على السلطة، حريق الرايخستاغ ـ من خلالها، بل عبر الملصقات في الشوارع، والصحيفة اليومية والدوريات في البيت (من الغريب رغم ذلك أنني لا أتذكر سماع الأخبار من الراديو في برلين كما كنت أفعل في فيينا). تلك التذكارات والشواهد التي صممت خلال سنوات جمهورية فايمار واحتوت شعاراتها؛ أتذكر كتب مالك فيرلاغ على رفوف متجر "كا دي وي" الضخم والمتعدد الأقسام في شارع تاونتزين، الذي بقي يجسد واحدة من الذكريات المستمرة لبرلين فترة الشباب: كانت الرفوف متخمة بكتب مؤلفين من أمثال ب. ترافين، إليا ايرنبورغ، أرنولد زويغ، إضافة إلى توماس مان وليون فيوكتفاغنر.

معظم معلوماتي وصلتني على ما يبدو من البيت. فقد كان عمي سيدني يتمتع بواحدة من فترات حياته المشرقة من الناحية الاقتصادية وهو يعمل في شركة "يونيفرسال فيلمز"، التي حولت رواية لويس ميلستون الشهيرة المناهضة للحرب "كل شيء هادئ على الجبهة الغربية"، إلى فيلم لإريك ريمارك، وغدت بذلك بؤرة تركيز السياسة الثقافية لجمهورية فايمار. نظم النازيون مظاهرات ضدها وطالبوا بحظرها. أكثر من ذلك: كان رئيس الشركة، "العم" كارل ليمل ملك صناعة الأفلام الهوليودية، الوحيد الذي أتى من المانيا وامتلك معرفة شخصية بما يحدث فيها، لأنه اعتاد زيارتها سنويا ليبقى على اتصال بالأحداث الجارية هناك. لم يكن رفيع الثقافة، لكن بالنسبة للعين الخبيرة، كانت الأفلام التي اشتهرت بها شركة "يونيفرسال" ـ بغض النظر عن "كل شيء هادئ.." ـ أي أفلام الرعب مثل "فرانكشتاين" و"دراكيولا"، تظهر بوضوح تأثير رواد المدرسة الانطباعية الألمانية.

من يعرف كيف دخل سيدني مجال السينما؟ في وقت ما من عام ١٩٣٠، نجح في الحصول على وظيفة في شركة "يونيفرسال". كانت وظيفة غير مؤكدة ولا مضمونة. ولكن حين داوم على العمل فيها، نال الاعتراف بأهميتها ـ على الأقل من خلال الهدية الشخصية التي أرسلها العم كارل نفسه، وهي نسخة موقعة من سيرة حياته، كتبها له جون درينكووتر، وهو أديب وشاعر صغير منسي من الحقبة الجورجية، (اختاره ليمل بنفسه بعد أن رفضه اتش. جي. ويلز عندما قيل له بأن درينكووتر، الذي لم يسمع عنه طبعا، قد كتب سيرة حياة ابراهام لينكولن". باع الكتاب ١٦٤ نسخة أصلية في

إنكلترا [1]. أما نسختنا فقد ضاعت في غمرة تنقلات أسرة هوبزبوم في القرن العشرين.

لم أعرف أبدا ما هي مهماته في الشركة بالضبط. أرسلت جدتي رسالة تذكر فيها أن الشركة عرضت عليه وظيفة في مكتبها في باريس في خريف عام ١٩٣١، لكنه رفضها لأن غريتيل قالت إن الولدين (أنا وشقيقتي) بالكاد قد سنحت لهما الفرصة للتعود على مدارس برلين. المصير تحدد بمثل هذه القرارات العائلية قصيرة الأمد. ماذا سيكون شكل حياتنا لو انتقلنا إلى باريس عام ١٩٣١؟ إحدى المهمات التي كان يقوم بها هي تجهيز الحملة لتصوير فيلم "اس. او. اس. ايزبيرغ"، وهو عبارة عن مغامرة قطبية مع لويس ترينكر، الخبير في تصوير الأفلام في المناطق الثلجية والصخرية، والطيار البارع، ارنست اوديت، الذي كان يكسب رزقه من الاستعراضات الجوية البهلوانية الخطرة، إلى أن حظي بموقع متميز في القوة الجوية الهتلرية مع إعادة تسليح المانيا. المشورة التقنية أتت من أعضاء حملات الفريد فيغنير، حيث قدم أحدهم إلى البيت واخبرني عن نظرية الانجراف القارية، وكيف تجمدت كل أصابعه في شتاء غرينلاند. في مناسبة واحدة أخرى على أقل تقدير، روّج للأفلام الهوليودية الموزعة في أوروبا ـ بتحديد أكبر، فيلم "فرانكشتاين" في السوق البولندية. حملته التي كان فخورا بها شملت نشر إشاعة شفاهية (أمام الجمهور اليهودي الواسع آنذاك) بأن بوريس كارلوف (اسمه الحقيقي "برات" وهو اسم غير درامي!) هو من أصل غير يهودي وأن اسمه بوروك كارلوف. كان له بالتأكيد بعض الصلات مع بولندا، لأنه فكر مرة في صيف عام ١٩٣٢ بالعمل في وظيفة دائمة فيها، وحاول تحضير الأسرة للعيش حياة مختلفة جدا هناك. لسوف سنعيش في وارسو، فالبولنديون ـ كما أخبرني ـ شعب حساس يملك شعورا قويا بالشرف، وميلا كبيرا للمبارزة. لم تسنح لي الفرصة أبدا للتحقق من معلوماته.

١- انظر:

James V. Bryson, My Life with Laemmle (Facto Books, London, 1980), pp. 56-7.

لم يكن درينكووتر يعرف الكثير عن أساليب هوليود إلى حد أنه قام بالمهمة مقابل أقل من نصف المبلغ الذي خول وكيل أعمال ليميل بدفعه .

لكن البيت لم يكن راسخا في ذكريات برلين مثلما هي المدرسة. وكما هو واضح الآن، لم تكن أسرة هوبزبوم تعيش في برلين، بل في عالم يتخطى الحدود القومية، حيث كان الناس من أمثالنا يتنقلون من بلد لبلد بحثا عن لقمة العيش، رغم أن عقد الثلاثينات سيجعل ذلك أكثر صعوبة. لربما كانت لدينا جذور في إنكلترا أو فيينا، لكن برلين ظلت مجرد محطة على الطريق الوعرة المعقدة التي قد توصلنا إلى أي مكان في أوروبا إلى الغرب من الاتحاد السوفييتي. ولا كان للبيت في برلين ـ ثلاثة عناوين مختلفة وأسرتين مختلفتين في مدة ثمانية عشر شهرا ـ استمرارية المدرسة. لقد جسدت مدرسة "برنز هاينريش الثانوية"[١] نافذتي على العالم في لحظة أزمته. كانت مدرسة تقليدية بكل معنى الكلمة تبعا للتراث التقليدي البروسي، حيث أسست عام ١٨٩٠ لتلبية احتياجات منطقة تسكنها الطبقة الوسطى وتنمو بسرعة. "برنز هاينريش" (الأمير هنري) الذي حملت المدرسة اسمه، هو شقيق الإمبراطور ويلهلم الثاني، وكان مهتما بالشؤون البحرية، الأمر الذي قد يفسر السبب وراء فخر المدرسة ـ وهي محقة في ذلك ـ بنادي القوارب في "ليتل فانسي" (فاز النموذج الذي قدمته على شكل بيت ـ قارب بالميدالية الذهبية في معرض بروكسل الدولي لعام ١٩٠٨). كانت محقة في فخرها لأنها في الوقت الذي وفرت فيه التعليم الجيد، لم تركز اهتماما خاصا (على عكس مثيلاتها في إنكلترا) على السباقات التنافسية، كما قدمت فرصة مدهشة للطلاب الصغار والكبار على حد سواء للقاء مع بعضهم البعض. أحاط بالنادي مرج أخضر على بحيرة صيد محمية لا يمكن الوصول إليها إلا بإذن خاص عبر قنال مائي ضيق. وكانت جماعات من الأصدقاء تشكل فرقا للتجديف هناك، أو تلتقي في عطل نهاية الأسبوع، حيث يتسامرون، وينظرون إلى السماء الصيفية، ويسبحون في المياه الخضراء قبل العودة في المساء إلى المدينة. للمرة الأولى والوحيدة في حياتي استطعت رؤية الهدف الحقيقي من إقامة النوادي الرياضية. كان هناك طبيب يعمل في مستشفى سبانداو يدعى ولفغانغ اونغر، وهو من المتخرجين القدامى من المدرسة، يشرف على

١- معظم المعلومات عن المدرسة في الصفحات التالية مستمدة من :

Heinz Stallmann (ed.), Das Prinz-Heinrichs-Gymnasium zu Schoneberg, 1890-1945. Geschichte einer Schule (privately printed, Berlin, 1965?).

إضافة إلى ذكرياتي الخاصة وذكريات فريتز لوستيغ .

تدريب المنضمين الجدد إلى النادي (طرد من عمله في المستشفى لأسباب عرقية عام ١٩٣٤، ثم أقدم على الانتحار لأنه لم يكن راغبا بالرحيل عن بلده، المانيا).

من الطبيعي لمدرسة بروسية لها صلات عسكرية أن تكون محافظة النزعة تهيمن عليها الروح البروتستانتية، والمشاعر القومية العميقة. أما أولئك الطلاب الذين لا يلائمون هذا النمط ـ سواء أكانوا من الكاثوليك، أو اليهود، أو الأجانب، أو الرافضين للحرب، أو اليساريين، فقد شعروا بأنهم مجموعة من الأقلية، رغم أنهم لم يكونوا بأية حال من الأحوال أقلية منبوذة[١]. لكنها لم تكن مدرسة نازية (قلة من الطلاب الذين أعرفهم قد أظهروا كثيرا من الحماس لهتلر وذوي القمصان البنية، فيما عدا كوبه، الذي كان ابنا ـ على درجة كبيرة من البلاهة ـ لرجل كان مسؤولا سياسيا نازيا عن براندنبورغ، وجعل من همه العمل على طرد أستاذ للأدب من المدرسة على أساس أنه "يحابي" الطلاب اليهود الباقين ويدرس الأدب المنحط لجمهورية فايمار (سيصبح كوبه هذا القائد السيئ الذكر لبيلوروسيا المحتلة خلال الحرب، إلى أن اغتيل في النهاية على يد مدرّسة وطنية محلية). على العكس تماما. فأي تعاطف أبدته المدرسة تجاه حركة الإحياء القومي الذي وعد به هتلر، تلاشى بعد طرد مدير المدرسة الدكتور فالتر شونبرون، الذي حظي بشعبية واحترام كبيرين، وإن لم يكن مرغوبا به سياسيا من قبل النظام، وذلك بعد وقت قصير من مغادرتي برلين إلى إنكلترا. استبدل شونبرون بالمفوض (القوميسار) ليتر، الذي فرض على المدرسة فرضا وقوبل باستياء شديد. يصعب على المرء اعتبار مدرسة "برنز هاينريش" في الثلاثينات مركزا للمعارضة والخروج على النظام، لكن بعض التلاميذ أخرجوا من المستودع لوحة فرانز مارك "برج الأحصنة الزرقاء" (أتذكرها جيدا في رواق المدرسة) بعد أن منعت من قبل السلطات باعتبارها تمثل "فنا منحطا"، وعلقوها في غرفة صفهم. كما احتج التلاميذ على طرد البروفسور "سالي" برينبوم، مدرس الرياضيات والعلوم الذي تمتع بشعبية كبيرة: جمعت التواقيع في كل صفوف المدرسة لتقديم عريضة تطالب الإدارة بالاحتفاظ به. في شتاء ١٩٣٦-١٩٣٧، كان تلاميذ الصف الأول ما يزالون يقومون بزيارته في البيت (بقي

١- في عام ١٩٢٩، ضمت المدرسة ٣٨٨ تلميذا بروتستانتيا، و٨٤ كاثوليكيا، و٣٥ يهوديا، وستة آخرين. (Stallmann, op. cit., p. 47)

في برلين حتى عام ١٩٤٣، حين أرسل كما يعتقد إلى معسكر الإبادة في اوشفيتز).
في الحقيقة، هنالك ما يثبت بأن المدرسة بذلت ما بوسعها لمعاملة التلاميذ والأساتذة اليهود معاملة حسنة، على الأقل عندما بقوا فيها. ومع أنها لم تكن مقبولة سياسيا من جانب التلاميذ الذين سيصبحون شبانا ثوريين إلا أنها كانت مدرسة محترمة.

كان ذلك دون ريب نتيجة لما وجده نظام هتلر في شونبرون (المعروف عموما بلقب "الزعيم")، من روح متأثرة بأيام جمهورية فايمار في مناهضتها للتراتبية الهرمية، علاوة على الاشتباه بآرائه الاجتماعية. نادي القوارب كان أحد التعبيرات عن تلك الروح. والتشديد على قيام الطلاب بتصريف شؤونهم بأنفسهم والمشاركة في فرض الانضباط، تعبير آخر. المخيمات والرحلات التي لا تنسى تعبير ثالث (ليس من قبيل الصدفة أن ينشر الدكتور شونبرون، وهو أستاذ مؤهل أيضا لتدريس الألمانية، واللاتينية، واليونانية، والرياضيات، كتابا يدور حول "نضج الشباب ثقافيا من خلال الرحلات والنزهات"). شخصيا، لم أشعر بالمودة تجاه هذا الرجل الضئيل الجسم، بجبهته العريضة، وعينيه الحادتين وراء نظارة بعدستين من دون إطار، والذي اعتاد ارتداء سروال قصير واسع مزموم عند الركبتين عندما يشارك طلابه في الرحلات المدرسية (كانت تلك الفترة في أوروبا هي حقبة السراويل القصيرة الواسعة المزمومة عند الركبتين!). استنكر إعجابي بكارل كراوس ووصف مجلته "داي فاكل" بعبارة "متبجحة وثرثارة"، وهي عبارة - تبدو الآن عند استعادة الماضي - غير بعيدة عن الحقيقة بنسبة مائة بالمئة. كما انتقد أسلوبي النثري الذي اعتبره مبالغا في تكلفه.

لربما كنت لأعذره لو علمت بأنه معجب بنظرية فن العمارة الجديدة القائمة على "الاعتدال والرصانة"، وأنه يعتبر خطوطها المنتظمة و"البساطة الواعية للكتابة الإبداعية الحديثة.. بمثابة علامتين دالتين على العودة إلى الكلاسيكية الجديدة" (روح أبولونية تلقى الترحيب من أستاذ يدرس الأدب اليوناني القديم). اختار رواية الكاتب الشيوعي لودفيغ رين "كريغ" ("الحرب") كمثال نموذجي لهذه الكلاسيكية الجديدة (شارك طبعا، مثل معظم مدرسينا في الحرب العالمية الأولى). ومع ذلك، إذا لم أحبه تماما، فقد كنت أحترمه وأجله. كما أفدت دون ريب من مساعيه وجهوده التي نجحت في نهاية المطاف خلال السنة السابقة على قدومي إلى غرون فالد، "في ضم أعمال حديثة حقا إلى مكتبة المدرسة".

صاغ شكل حياتي عدد من هذه الأعمال الإبداعية. في الدليل الموسوعي الضخم للكتابة الألمانية المعاصرة اكتشفت قصائد الشعر (كشكل أدبي مختلف عن الأغنيات والمسرحيات) التي كتبها برتولد بريخت. ومكتبة المدرسة هي التي أشار إليها مدرس ساخط (لم أعد أذكر سوى أن اسمه ويللي بودش) حين أعلنت أمامه قناعاتي الشيوعية. قال لي بحزم (وكان صائبا): "من الواضح أنك لا تدري عما تتحدث. اذهب إلى المدرسة وابحث عن معلومات حول الموضوع". فعلت ذلك، واكتشفت "البيان الشيوعي"..

ما تعلمته في الدروس النظامية يظل أقل وضوحا. أستطيع أن أرى بأنها لم تكن تشكل جزءا محوريا محددا من تجربة المدرسة، باستثناء المناسبات التي أتاحت فرصة ملاحظة، ومراوغة، وحتى اختبار أعصاب وسلطة مجموعة من الرجال البالغين الذين كان يساء فهمهم. معظم هؤلاء بدوا لي شخوصا كاريكاتيرية منمطة لمعلمي المدارس الألمانية، بأجسادهم القوية، ونظاراتهم المدورة، وشعورهم الحليقة (حين لا تكون رؤوسهم صلعاء)، إضافة إلى أنهم كهول إلى حد ما - في أواخر الأربعينات أو أوائل الخمسينات من العمر. كانوا جميعا من الألمان المحافظين المتحمسين الذين تملؤهم المشاعر القومية والوطنية. وبدون شك، فإن هؤلاء كانوا من الذين جلبوا الانتباه لأنفسهم، لكن الغالبية العظمى منهم لم تكن كذلك. ولم يتفوق أحد في هذا المجال على شخصية الأستاذ اميل سيمون، الذي أصبحنا خبراء في حرف وجهة دروسه في الأدب الإغريقي عن هدفها، إما من خلال سؤاله عما سيفكر به فيلاموفيتز حول فقرة من فقرات النص المدروس (حيث يبقى لمدة عشر دقائق يطري الأدباء الكلاسيكيين الألمان)، أو بطريقة أضمن عبر إثارة ذكرياته عن الحرب العالمية. الأمر الذي يؤدي بشكل ثابت تقريبا إلى تحويل الدرس من تفسير "أوديسة" هوميروس إلى حديث طويل عن خبرة الجندي على الجبهة، وواجب الضابط، والحاجة للنظام بعد الحرب، والبربرية الروسية، وفظاعات ثورة أكتوبر، وحرس لينين، وما شابه. إضافة إلى تذكيرنا بأنه على العكس مما قد يظنه العمال الجهلة، لم يكن سبارتكوس من أصل بروليتاري، بل كان شخصا من مكانة اجتماعية رفيعة قبل أن يستعبد. مثّل ذلك، كما أدرك الآن بعد العديد من العقود، نسخة مبكرة من الأطروحة المستخدمة في الثمانينات للتخفيف من

وحشية الرايخ الثالث، أي تلك التي تقول إن من الضروري الدفاع عن المجتمع المنظم ضد البلشفية، وإن الفظاعات التي ارتكبت في الحقبة الهتلرية قد عجلت بها وألهمتها فظاعات روسيا الحمراء. على حد علمي، لم يكن اميل نازيا، بل مجرد الماني محافظ يذكر نفسه بالأيام الخوالي الأفضل حالا، تماما مثل الحكايات التي يسمعها المرء في حانات الطبقة الوسطى على موائد الزبائن "المداومين". وبغض النظر عن سياستنا، كنا نسخر منه ونرثي لحال ابنه، وكان هذا صبيا شاحب الوجه، ضعيف البنية، يجلس في أحد مقاعد الصف الأمامية ويرزح تحت عبء حمل ثلاثي الأبعاد: فهو ابن اميل، وتلميذه، وشاهد على هزئنا به.

على أية حال، كانت الحياة مشوقة إلى حد يبعد المرء عن التركيز جوهريا على الدراسة والمدرسة. لم أكن في هذه الفترة متفوقا بالدراسة على نحو خاص، والحقيقة أن المدرسين وهذا التلميذ على الأقل قد تبادلوا عدم الاهتمام تجاه بعضهم البعض. إذ لم أتعلم شيئا على الإطلاق من دروس التاريخ التي كان يلقيها أستاذ قصير بدين يدعى روبنسون (لقبه الطلاب بـ"البرميل الصغير")، فيما عدا أسماء وتواريخ كل الأباطرة الألمان (نسيتها جميعا منذ ذلك الحين). اعتاد روبنسون تلقينها لنا وهو ينطلق هاجما على تلاميذ الصف مشيرا بمسطرة موجهة إلى كل منا وهو يقول: "بسرعة، هنري الصياد ـ التواريخ". أعرف الآن بأن هذا التمرين كان يضجره كما يفعل بنا تماما. لكن في الحقيقة كان أكثر المدرسين ثقافة وتميزا في المدرسة، إذ قدم دراسة علمية عن الطوائف السرية في ايلوسيس وساموثريس اليونانيتين، أسهم فيها في الموسوعة الكبرى (باولي ـ فيسوفا) للعصور الكلاسيكية القديمة، إضافة لكونه خبيرا أركيولوجيا (في حضارة بحر إيجة وفي ورق البردي) حاز على اعتراف الأوساط العلمية قبل الحرب بفترة طويلة. لربما سأكتشفت ذلك في الصف السادس حيث لن يعتمد التعليم على الاستظهار الإجباري عن ظهر قلب. وحتى ذلك الحين، تمثل التأثير الرئيس لدروسه التعليمية في واقع الأمر في جعل مؤرخ مستقبلي واحد على الأقل يشعر بالضجر من الموضوع. وليس من المفاجئ أنني في برلين تعلمت عن طريق تمثل وفهم المعلومات لا عن طريق التلقين. لكنني تعلمت بالطبع.

الشهور التي أمضيتها في برلين جعلتني شيوعيا مدى الحياة، أو على الأقل رجلا

قد تفقد حياته طبيعتها وأهميتها من دون المشروع السياسي الذي التزم به مذ كان تلميذا في المدرسة، حتى وإن أخفق ذلك المشروع بشكل واضح، أو كما أعرف الآن، كان محكوما عليه بالإخفاق. مازال حلم ثورة أكتوبر يقبع في مكان ما في داخلي، مثلما تنتظر النصوص "المشطوبة" الخبراء لإخراجها من مكان ما من "القرص الصلب" في الكمبيوتر وإعادة اكتشافها من جديد. لقد تخليت عنه، لا بل رفضته، لكنه ما انطمس ولا امحى ولا اندثر. وإلى هذا اليوم ألاحظ بأنني أتعامل مع ذكرى وتراث الاتحاد السوفييتي بتسامح ورقة ومودة لا أشعر بها تجاه الصين الشيوعية، لأنني أنتمي إلى الجيل الذي تمثل ثورة أكتوبر بالنسبة له أمل العالم، في حين لم تمثل الصين ذلك أبدا. كان شعار المطرقة والمنجل السوفييتي رمزا له. لكن ما هي بالضبط الأسباب التي جعلت تلميذ مدرسة برلينية شيوعيا؟

كتابة سيرة ذاتية تعني بالنسبة لي تعرية ونزع الترسبات الجيولوجية التي تراكمت طيلة ثلاثة أرباع القرن، لاستعادة، أو اكتشاف وإعادة بناء غريب مدفون تحتها. وحين أنظر إلى الماضي وأحاول فهم هذا الطفل البعيد الغريب، أستنتج أنه لو عاش في ظروف تاريخية أخرى، لما تنبأ له أحد بمستقبل من الالتزام السياسي المتقد حماسة، رغم أن كل مراقب تقريبا كان سيتوقع له مستقبلا ذا علاقة بالفكر والثقافة. لم يكن البشر يثيرون اهتمامه كثيرا على ما يبدو، لا فرادى ولا جماعات؛ وبالتأكيد لم يبد نحوهم الاهتمام الذي أولاه للطيور. وفي الحقيقة، نأى بنفسه على نحو غير عادي عن شؤون العالم. لم يكن لديه أسباب شخصية تدعوه إلى رفض النظام الاجتماعي، ولم يشعر بأنه يعاني حتى من حالة معاداة السامية الشائعة في وسط أوروبا، ونظرا لكونه أشقر الشعر وأزرق العينين لم يحدد الناس هويته بوصفه "اليهودي" بل "الإنكليزي". وقد يكون من الصعب على طالب في المدارس الألمانية تحمل اللوم على معاهدة فرساي إلا أن ذلك لم يحط من قدره. أما الأنشطة التي انجذبت إليها عفويا في مدرسة ملأتني بسعادة لا شك فيها ولا علاقة لها بالسياسة فكانت: الجمعية الأدبية، نادي القوارب، التاريخ الطبيعي، الرحلات المدرسية الرائعة، التخييم أو المبيت في بيوت الشباب على فرش من قش، وتمضية الليل في تبادل الأحاديث وقد أترعت كياننا البهجة والحماس. حول أي موضوع؟ حول كل شيء، بدءا بطبيعة الحقيقة والسؤال المتعلق بمن نكون،

مـرورا بـالجنس والأدب والفن، وانـتـهـا ء بـالدعـابات والـنكات والمصـيـر المقـدر. لـكن لم نتطرق إلى السـيـاسـة في تلك الأيام، أو عـلى الأقل هكذا أتذكـر تلك الـليـالـي التي لا تنسى. بالتـأكـيـد لا أتذكـر النقـاشـات السـيـاسـيـة، ناهيك عـن الخلافـات، مع أقـرب صديقين لي، ارنست فـايمر، وهـانز- هاينز شرويدر شاعـر الصف (توفي في روسـيـا خلال الحـرب). مـا كـان يجـمـعني بهـمـا ليس واضـحـا لي الآن (لاحظت فـقط في الـصـورة الفـوتوغرافـيـة التي التـقطت لطلاب صـفي عند الـتـخـرج عـام ١٩٣٦، أنهـمـا مع اثنين آخرين كانوا الوحيدين من بين أربعة وعشرين طالبا سجلوا ذكرى تخرجهم من المدرسة الثانوية وهم يرتدون قمصانا بياقات مفتوحة). بالتأكيد لم تكن الرابطة سياسية. وفي حين أن أحدهما لم يكن قوميا بالفعل، حيث تجسد موضوع حديثنا المشترك في الشعر السـخيف لكريسـتيـان مورغينستيرن والعـالم عـموما، كمـا أنني لم أختلف مع مـا أبداه الآخر من إعجاب بروسي تقليـدي نحو فريدريك الأكبر، الذي قد يستحق الإعـجاب تبعا لأسس أخرى، إلا أنني بالتـأكيد لم أتفق معه في الآراء التي تجعله يجمع نماذج مصـغرة من جنود جيوشه.

باختصار، إذا ما كنت سأقوم بتجربة ذهنية افـتراضية أنقل فيها الصبي الذي كنته إلى زمـان أو مكـان آخر (أو زمـان ومكـان آخرين) - مثـلا، إنكلترا في الخمـسينات أو الولايات المتحدة في الـثـمـانينات - فـلا يمكنني بسـهـولة رؤيتـه مقـحـمـا، كـمـا كـنت، في الالتزام الحماسي بالثورة العالمية.

ومع ذلك فـإن مـجـرد حـقـيـقـة تـخـيل هذا الانـتـقـال تظهـر كم كـان ذلك بعـيـدا عن التـصـور في برلين خلال أعـوام ١٩٣١-١٩٣٣ . لكن جرى تخيل ذلك فعلا. فقد كتب فريد المان، الذي كان يكبرني ببضع سنين حين غادر ألمانيا وأصبح محاميا/لاجئا مولعا برسم المناظر الحـزينة في الـريف الـويلزي الكـئـيـب، كـتب قـصـة عـلى شكل سـيـرة ذاتيـة (تحولت إلى فيلم سـينمائي فـيمـا بعد باسم "لمّ الشـمـل") تناولت الـتـأثيـر الدرامي لنظام هتلر الجـديد عـلى الصـداقـة التي جـمـعت بين صـبي يهـودي لم يكن واعـيـا بـالكـارثة الوشيكة، وشـاب "آري" أرسـتقـراطي في مدرسة ثانوية (لـيـست بعيـدة الشـبه بمدرسـتنا) تقع في جنوب المانيـا. لربما كان ذلك "سيناريو" ممكن الحدوث في شتوتغـارت، لكن في جـو بـرلين المشـبـع والمشـحـون بـالأزمـة في أعـوام ١٩٣١- ١٩٣٣، لا يمكن تخـيـل هذه

الدرجة من البراءة السياسية. كنا على "التيتانيك"، وعرف كل واحد بأنها على وشك الاصطدام بجبل الجليد. المجهول الوحيد كان يتعلق بما قد يحدث عند الارتطام. من سيقدم سفينة جديدة؟ كان من المستحيل البقاء خارج معترك السياسة. لكن كيف يمكن للمرء دعم وتأييد أحزاب جمهورية فايمار التي لم تعد تعرف حتى كيف تركب زوارق النجاة؟ كانت غائبة كليا عن الانتخابات الرئاسية عام ١٩٣٢، التي خاضها كل من هتلر، والمرشح الشيوعي ارنست ثالمان، والفيلد مارشال العجوز من العصر الإمبراطوري هندنبورغ، الذي أيده كل الناخبين غير الشيوعيين باعتباره يمثل السبيل الوحيد لوقف صعود هتلر إلى السلطة (في خلال بضعة شهور سوف يستدعي هتلر لاستلام السلطة). لكن بالنسبة لشاب مثلي، لم يكن هناك في الواقع سوى خيار وحيد. القومية الألمانية لم تكن لتمثل خيارا مقبولا لـ"إنكليزي" ويهودي، بغض النظر عما إذا أخذت الصيغة التقليدية التي تبنتها "ثانوية برنز هاينريش"، أو صيغة القومية الاشتراكية لهتلر، وذلك على الرغم من أنني استطعت فهم سبب جاذبيتها لأولئك الذين لم يكونوا من الإنكليز ولا من اليهود. ما الذي تبقى سوى الشيوعية، خصوصا بالنسبة لصبي وصل إلى المانيا وهو منجذب وجدانيا وعاطفيا إلى اليسار؟

مع بدء العام الدراسي ١٩٣٠-١٩٣١، طغى علينا الشعور بأننا نعيش في نوع من الأزمة النهائية، أو على الأقل أزمة مقدر لها أن تصل إلى حل كارثي وعنيف. الانتخابات الرئاسية التي جرت في مايو/أيار من عام ١٩٣٢، وهي الأولى من بين عدة انتخابات جرت في تلك السنة المشؤومة، أقصت أحزاب جمهورية فايمار. إذ سقطت آخر حكوماتها، بزعامة برونينغ، بعد وقت قصير وأفسحت المجال لعصبة من الرجعيين الأرستقراطيين كي تحكم كليا بمرسوم رئاسي، لأن إدارة فرانز فون بابين لم تتمتع فعليا بأي تأييد من الرايخستاغ، ناهيك حتى عن تشكيل أغلبية. أرسلت الحكومة الجديدة فورا مفرزة صغيرة من الجنود لطرد أعضاء حكومة أكبر الدول الألمانية، بروسيا، حيث استطاع ائتلاف من حزب الوسط الاشتراكي - الديمقراطي المحافظة على نوع من الحكم الديمقراطي. اتسم الوزراء بوداعة الحملان، مع محاولة بابين ضم هتلر إلى حكومته، بعد أن ألغى قرارا صدر مؤخرا بحظر ارتداء بذاتهم الرسمية من قبل قوات العاصفة النازية. غدت الاستعراضات الاستفزازية المتعمدة لهذه القوات الآن جزءا من المشهد العادي

للشارع الألماني. وفي كل يوم تندلع المعارك بين فرق الحماية التي ترتدي الزي الرسمي وتتبع مختلف الأحزاب. في يوليو/تموز وحده، قتل ستة وثمانون رجلا، سقط معظمهم في الصدامات المسلحة التي دارت بين النازيين والشيوعيين، في حين بلغ عدد الذين أصيبوا بجراح خطيرة المئات. زاد هتلر الرهان، وفرض إجراء انتخابات عامة في تموز/يوليو. فاز النازيون بما يقارب الأربعة عشر مليون صوت (٥ . ٣٧٪) وبمائتين وثلاثين مقعدا - أي أقل بقليل من القوة المجتمعة لأحزاب فايمار (المكونة من الديمقراطيين الاجتماعيين، والكاثوليك، والآن الديمقراطيين الغائبين عن النظر فعليا)، والشيوعيين الذي فازوا بأكثر من خمسة ملايين صوت وبتسعة وثمانين مقعدا. فيما يتعلق بالغايات العملية، كانت حكومة فايمار في حكم الميتة، ولم يتبق سوى تحديد شكل جنازتها. لكن لن يدفن جثمانها قبل أن يتفق الرئيس، والجيش، والقوى الرجعية، وهتلر (الذي أصر على منصب المستشارية فقط ولا شيء سواها).

هذا هو الوضع العام الذي ابتدأت فيه السنة الدراسية. ولو كنت أتذكر سنتي الأولى في برلين بالألوان، لاتخذت ذكريات الأشهر الست الأخيرة لونا رماديا بظلال داكنة مع لمسات بالأحمر. ولم يكن التغيير سياسيا فقط بل شخصيا أيضا.

مع مرور أيام سنة ١٩٣٢، تقلصت إمكانية بقائنا في برلين. أصبحنا ضحايا لا لهتلر فقط، بل لـ"الأزمة الكبرى"، أو بتحديد أكبر، لقانون جديد حاول عبثا الحد من ارتفاع معدلات البطالة بواسطة إجبار شركات الأفلام الأجنبية (وغيرها من المشاريع الأجنبية دون ريب) على استخدام نسبة ٧٥٪ من المواطنين الألمان كحد أدنى. كان من الممكن الاستغناء عن خدمات سيدني، وهذا هو التفسير المعقول ظاهريا لما حدث. لم ينتج شيء عن العرض البولندي، لكن في خريف عام ١٩٣٢، عندما وصلت الوظيفة مع الشركة في برلين إلى نهايتها كما بدا واضحا، أخذ سيدني غريتيل وبيتر (وعمره آنذاك سبع سنين) إلى برشلونة - لا أدري إن كانت الرحلة عبارة عن مهمة يؤديها لصالح "يونيفرسال"، أم مشروعا في ذهنه لدراسة إمكانيات واحتمالات الإقامة هناك. أشك بوجود أية احتمالات راسخة في ذهنه للبقاء بصورة دائمة، إذ كانت العائلة برمتها سترافقه في هذه الحالة. وهكذا تركونا أنا ونانسي في برلين لمتابعة الدراسة مؤقتا، إلى أن تتضح الصورة. تلك كانت نهاية السكنى في البيت الجديد والحديقة في

ليكترفيلد الذي انتقلنا إليه من شارع اشافينبيرغر، بالقرب من بيت مؤلف موسيقي يضم بركة سباحة خاصة صغيرة. انتقلنا أنا ونانسي مع بنت غرون الثالثة، خالتنا المتنقلة على الدوام ميمي، التي أوصلتها حياتها عبر مختلف المشاريع المخفقة في البلدات الريفية الإنكليزية ("ليس علينا الكثير من الديون لنعلن إفلاسنا، ويتوجب علينا الاستمرار")[1] إلى شقة مستأجرة/ تؤجرها من الباطن، تقع على السكة الحديدية في هالينسي، وهي ضاحية برلينية على الطرف البعيد من كورفورستيندام. هناك، كعهدها أبدا، كانت تقبل الضيوف بأجر، وتعطي الإنكليز منهم دروسا لتعليمهم الألمانية. في هذا المكان أمضينا شهورنا الأخيرة في برلين وشهدنا صعود الرايخ الثالث.

تلك كانت على الأرجح المرة الوحيدة في حياتنا أنا ونانسي التي نعيش فيها سوية خارج إطار العائلة، لأن من الصعب اعتبار الحياة مع ميمي حياة عائلية، فقد كانت تعيش ليومها دائما وبأية طريقة، ولم تكن معتادة على الأطفال حيث أنها لم تنجب أبدا. أستطيع فقط أن أخمن كيف أثر غياب أية سلطة أبوية فاعلة في نانسي خلال هذه الأشهر الأخيرة في برلين، لكنني متأكد تماما أن أنشطتي السياسية ستكون أكثر تقييدا لو بقي سيدني وغريتيل في برلين. ولأنني أكبر من شقيقتي بثلاث سنين ونصف، شعرت بأنني مسؤول عنها. ليس هناك من أحد آخر الآن. لم أقلق من قبل حول كيفية ذهابها إلى المدرسة، وإنما انحصر همي الوحيد بما أعانيه من ألم وصدمة كل يوم حين أضطر لركوب الدراجة العتيقة من ليكترفيلد إلى المدرسة الثانوية، تلك الدراجة القديمة المستعملة التي كنت أخجل بها مثل المراهقين، والتي قدمتها لي أمي المحتضرة كهدية في عيد ميلادي (كنت أحاول الوصول إلى موقف الدراجات قبل نصف ساعة كي أركن الدراجة وآخذها من هناك خلسة في وقت متأخر خوفا من أن يراني أحد). لكن الآن أصبحنا أنا ونانسي نذهب إلى المدرسة ونعود منها سويا، لأن هالنسي بعيدة عن فيلمرسدورف (مدرستي ومدرسة أختي متجاورتان). كنا نفعل ذلك كما هو مفترض بواسطة الترام، لكنني لا أتذكر سوى المسافات الطويلة التي قطعناها سيرا

---

١ – ميمي براون إلى ارنستين غرون ، رسالة بتاريخ ٣/ ١٢/ ١٩٣١ ، تعلن فيها عن نيتها مغادرة إنكلترا ـ إلى راغوسا (دوبروفنيك) ؟ إلى برلين ؟

على الأقدام خلال إضراب وسائل النقل في برلين لمدة أربعة أيام في أوائل شهر تشرين الثاني/نوفمبر. كنا طفلين صغيرين وحيدين. وحين بلغت عيد ميلادها الثاني عشر، شعرت بأن من واجبي "تنويرها" (حسب التعبير الألماني)، أي إخبارها بحقائق الحياة التي زعمت بأنها لم تعرفها بعد. لربما منعها تهذيبها من إخباري بأنها تعرفها مسبقا، الأخص ذلك الجزء المتعلق بالدورة الشهرية، الذي يعتبر وثيق الصلة بفتاة بلغت الحلم. لا أستطيع القول بأن تلك الشهور قربت بيننا أكثر مما تقرب أي شخصين تجمعهما صلات القربى وعيران بنفس الظروف المؤلمة. لم يكن بيننا الكثير من الأمور المشتركة فيما عدا هذه الظروف القاسية، في حين وفر لي مذهبي العقلي ونقص اهتمامي بعالم البشر نوعا من الحماية التي تفتقدها. لم أدرك ذلك في حينها. إذ لم تشاركني اهتماماتي أو حياتي، التي ازدادت هيمنة السياسة عليها. لم أعرف حتى شكل حياتها في المدرسة، أو من هم أصدقاؤها إن كان لها أصدقاء. أعتقد بأننا كنا نثرثر حول ميمي والنزلاء، ونلعب الورق في الأمسيات، ونرسل الرسائل إلى إسبانيا. وكنت أؤلف حكايات أبعث بها إلى بيتر الصغير، مستمدة من توليفة تجمع قصة هوغ لوفتينغ "دكتور دوليتتل" وقصة كريستيان مورغينشتيرن "تاسوبيم"، الحيوان الذي يسير على أنفه.

يبدو أنني أتذكر شارع فريدريكس روهر تحت ضوء رمادي أو صناعي فقط، ربما لأننا كنا في تلك الشهور بعيدين عنه معظم الأوقات في النهار. في المساء، كنا نلتقي جميعا في غرفة الجلوس، التي كانت تحتوي على خزانة كتب المالك الأصلي، وهذا ما أتاح لي للمرة الأولى قراءة توماس مان ("تريستان") ورواية قصيرة لكوليت. كانت ميمي، التي ألفت مثل هذه الأوضاع، تظهر اهتماما حقيقيا بحياة نزلائها، وتلجأ على الدوام إلى ذخيرتها الاجتماعية المعتادة: قراءة الكف وغير ذلك من أشكال الكشف عن الشخصية والحظ، والحديث حول حقيقة الظاهرة النفسية مدعمة بالأمثلة. لقد حاولت - وهذا واحد من التفاصيل الملموسة القليلة التي بقيت عالقة بذاكرتي عن الحياة في هالنسي - توفير المال عبر شراء أكياس كبيرة من البطاطا، وكانت ترسلني إلى القبو من حين لآخر لأحضر لها الكمية الضرورية. وكعهدها أبدا من الناحية المالية، كانت تعيش على حد السكين. مع مرور الوقت، بدأت حبات البطاطا تبرعم، مما اضطرها لتقشيرها بعناية لإخفاء البراعم.

-٥-
برلين: البني والأحمر

في تلك الأثناء، بدأت ميولي الثورية تنتقل من النظرية إلى الممارسة. وأول من حاول إعطاء صيغة أكثر دقة وتحديدا لها، هو غيرهارد فيتنبيرغ، الطالب الذي يكبرني في العمر وينتمي إلى الديمقراطيين - الاجتماعيين. مع غيرهارد، تعمدت بالطقس الشعائري الذي لا بد منه للمثقف الاشتراكي النمطي في القرن العشرين، أي المحاولة الوجيزة لقراءة وفهم كتاب كارل ماركس "رأس المال"، بدءا من صفحته الأولى. لم تعمر المحاولة طويلا - في هذه المرحلة من عمري على أية حال - وفي حين بقينا أصدقاء، لكن لم تجتذبني لا الديمقراطية الاجتماعية الألمانية (كصيغة متميزة عن النمساوية)، ولا صهيونية غيرهارد، التي دفعته، بعد وصول هتلر إلى السلطة، إلى الهجرة إلى كيبوتز في فلسطين، ليقتل في نهاية المطاف - كما فهمت - في رحلة عاد فيها إلى المانيا في مهمة لإنقاذ اليهود (المقاتلون الصهيونيون في تلك الأيام كانوا بأغلبيتهم الساحقة من الاشتراكيين طبعا، ومن ذوي القناعات الماركسية المتنوعة).

أما الشخص الذي جندني في منظمة شيوعية فكان يكبرني بالعمر أيضا. لا أذكر كيف التقينا، لكن ليس من المستبعد أن الحديث قد دار في الصف الثاني حول الإنكليزي الذي أعلن عن معتقداته الشيوعية. أتذكره: رودولف (رولف) ليدر، كان داكن البشرة، كئيب المزاج، يميل إلى ارتداء الستر الجلدية، ويتخذ على ما يبدو من نسخة الحزب المثالية لكادر البولشفية السوفييتية نموذجا له. كان يعيش مع أبويه في فريدناو، وما زلت أرى بعين الخيال الرفين أو الثلاثة على الجانب الضيق من غرفته الصغيرة التي وضع عليها كتبه حول الشيوعية والاتحاد السوفييتي. لا بد أنه أعارني بعضا منها - فمن أي مصدر آخر سأستعير؟ - لأنني قرأت عدة روايات سوفييتية من

العشرينات. لم يقترح أي منها رأيا طوباويا محددا عن الحياة في روسيا الثورية. وكانت، في هذه النقطة، مثل كل القصص السوفييتية التي كتبت خلال الفترة السابقة على حقبة ستالين. لكن حين ذكرت أمام رولف ـ لا زلت أذكر ذلك الحديث ـ أن الشيوعية لا بد أن تعاني من المشاكل بسبب تخلف روسيا ، رد بخشونة: الاتحاد السوفييتي فوق النقد. بواسطته، اشتريت الطبعة الخاصة من كتاب وثائق وصور الاحتفال بالذكرى الخامسة عشرة لثورة أكتوبر ("خمسة عشر خطوة حديدية"). لا زلت أحتفظ به بغلافه السميك ولونه الرملي من تصميم جون هارتفيلد، وعلى الصفحة البيضاء في أوله شاهد بخط يدي (بالألمانية طبعا) من كتاب لينين "شيوعية اليسار، فوضى طفولية". إضافة إلى كتيب بليت أوراقه تقريبا "تحت الراية الحمراء: نشيد حماسي" (Under Roten Kampflieder) يضم نصوص الأغاني والأناشيد الثورية، وهو أقدم سجل عن التزامي السياسي.

كان رولف ليدر رجلا رأى نفسه في غير مكانه المناسب في البيئة البرجوازية لمدرستنا. فقد انضم، كما زعم في سيرته الذاتية، إلى الشبيبة الشيوعية في الشوارع قبل سنة تقريبا من تجنيدي، وفخر لأنه حاز القبول في محيط شباب الطبقة العاملة الشيوعية في الشارع البرليني من خلال "إثبات نفسه" في "فترة الحرب الأهلية المستترة" حين واجه الرفاقُ الشرطةَ ووحدات العاصفة النازية من ذوي القمصان البنية[1] لكنه لم يقترح علي الانضمام إلى الشيوعيين الشباب (KJV)، بل إلى منظمة أقل وضوح وتميزا في بروليتاريتها هي "رابطة الطلاب الاشتراكيين" (Sozialistischer Schulerbund) (SSB)، كانت مصممة خصيصا لطلاب المدارس الثانوية. فعلت ذلك، وذهب هو في طريقه، ولم أره مرة أخرى بعد أن غادرت برلين. ثم توفي عام ١٩٩٦ .

لكن حياتنا بقيت متداخلة بشكل غريب. بعد العديد من السنين، وفي عمل حول الكتّاب والشيوعية في المانيا الغربية، اكتشفت أن الاسم الحقيقي للشاعر ستيفان هيرملين، وهو عضو بارز نوعا ما في المؤسسة الأدبية الألمانية، كان رودولف ليدر. وكما اكتشفت لاحقا من سيرته الذاتية، فقد بقي في المانيا بصورة غير شرعية، رافضا عرض أسرته بإرساله إلى كامبريدج، ليعاني من شهور من السجن في معسكر

1 - Stephen Hermlin, Abendlicht (Leipzig, 1979), pp. 32, 35, 52.

للاعتقال. في عام ١٩٣٥، أقام في فرنسا، ثم حارب في إسبانيا ومن ثم مع المقاومة الفرنسية قبل أن يعود إلى المنطقة المحتلة من قبل السوفييت عام ١٩٤٩ ويحظى بمكانة أدبية متميزة في ما سيصبح لاحقا جمهورية المانيا الديمقراطية. وتبعا لما قرأته من كتابه، أعتقد بأن شعره جيد لكن ليس بالغ الروعة، وتركزت إجادته في الترجمات وفي تعديل أفكار غيره من الشعراء. أما مذكراته الوجيزة فقد حظيت بإعجاب واسع النطاق. من ناحية أخرى، وباعتباره شخصية بارزة في المشهد الثقافي تحت ظل نظام محافظ واستبدادي، تمكن من التصرف بقدر معقول من الحرية حيث احتج واعترض معتمدا على الحماية التي وفرتها صداقته مع ايريك هونيكر (رئيس جمهورية المانيا الديمقراطية) ضد جهاز الـ"ستاسي" (الشرطة السرية). هذا مثال على وجوب عدم قراءة العبارة المعروفة في اللغة الألمانية "رجل جيد، موسيقي سيئ"، بوصفها قدحا بالفنان، بل مدحا بالشخصية العامة. كتبت له رسالة، عن طريق اتحاد الكتاب كما هو مفترض، لأسأله عما إذا كان هو ليدر الذي أعرفه، وتلقيت ردا وجيزا، يقول بأنه هو لكنه لا يتذكرني. ولم يظهر أية ردة فعل فيما بعد حين ذكر اسمي أمامه أصدقاء لي في برلين. لكن الصلة القصيرة الأمد بين تلميذين درسا في برلين عام ١٩٣٢، وأصبح كل منهما شخصية معروفة - في بلدين مختلفين وبطرائق متباينة - قد فتنت على ما يبدو الصحفيين والقراء في المانيا الشرقية ما بعد عام ١٩٨٩ . في كل المناسبات التي حضرتها، شكلت هذه الصلة محور العديد من الأسئلة التي كانت توجه لي مرارا وتكرارا.

هنالك فقرة ختامية تتصل بقصة رودولف ليدر. فقبل وفاته بقليل، قام كارل كورينو، وهو أحد الأدباء المولعين بنبش أحداث الماضي والمعادين لستيفان هيرملين، بتتبع سيرة حياته العامة، ليكتشف أن معظمها من نسج الخيال ولا تتصل في بعض الأحيان بالحقيقة إلا بشكل عرضي [1]. إذ لم يتخل عن العائلة البرجوازية الأنكلو-ألمانية، الثرية، المثقفة، المولعة بالموسيقى وبجمع التحف الفنية، لصالح النضال في سبيل الطبقة العاملة. كان والده من رومانيا، وأصبح فيما بعد رجل أعمال لا وطن له، وتزوج من امرأة غالسية مهاجرة إلى بريطانيا (ولذلك حمل جواز سفر بريطانيا)، ومر

1 - Karl Corino, 'Dichtung in eigener Sache', Die Zeit, 4 October 1996, pp. 9-11.

بفترة وجيزة من النجاح المالي الكبير خلال سنوات التضخم قبل انهياره وإفلاسه. لم يشارك في الحرب العالمية الأولى، ولم يلق حتفه في معسكرات الإبادة الجماعية، بل هرب إلى بر الأمان في لندن عام ١٩٣٩ . بل إن هيرملين نفسه لم يدخل أي معسكر للاعتقال، ولا حتى لفترة وجيزة، كما لم يذهب إلى إسبانيا. وليس ثمة دليل يثبت انضمامه إلى حركة المقاومة الفرنسية.. أفرزت كل هذه المزاعم آثارا عميقة، وعلى الرغم من التحامل الواضح للكاتب وبعض مصادره، إلا أن اكتشافاته كانت مقنعة إلى حد بعيد.

بالطبع، لا يعتبر ليدر الكاتب الوحيد من بين كتاب السير الذاتية (رجالا ونساء) الذي يعزو لنفسه دورا أكثر رومانسية أو أشد أهمية في شؤون العالم، ويعدل سيناريو حياته تبعا لذلك. خصوصا إذا قبلنا قرينة المحقق التي تثبت أن معظم حياته الواقعية قبل عودته إلى برلين عام ١٩٤٦ ، بما في ذلك دراسته، كانت مخيبة للآمال. فبرغم كل شيء، لم يخترع أو يلفق في معظم الأحيان، بقدر ما زخرف أو راوغ الحقيقة. وفي الواقع، ترك عمله في تل أبيب (لم يركز هيرملين، المسؤول الرسمي، بإصرار على الهجرة الوجيزة إلى فلسطين)، معلنا أنه سيحارب مع الألوية في إسبانيا، ولربما ذهب إلى هناك لكن من أجل عملية كانت تبعاتها مهلكة تقريبا؛ وبحلول الوقت الذي غادر فيه فلسطين، كانت زوجته حاملا. أصبح والده مليونيرا لفترة وجيزة، استطاع خلالها جمع التحف الفنية، كما دفع النقود لماكس ليبرمان كي يرسم زوجته، وللويس كورينث كي يرسمه هو. علاوة على ذلك، فإن السيرة الحياتية لأي لاجئ يهودي ألماني يعبر الحدود في الثلاثينات والأربعينات، توفر العديد من الفرص لزيادة توضيح وإثبات الحقيقة من خلال الاستمارات التي يتوجب ملؤها والاستبيانات التي ينبغي الإجابة عنها، والعديد من الحوافز للقيام بذلك أيضا. وليس هنالك من شك بأنه كان شيوعيا لبعض الوقت قبل أن أتعرف إليه عام ١٩٣٢ ، وظل مخلصا للحزب حتى زال من الوجود مع نهاية جمهورية ألمانيا الديمقراطية، وأنه دفع ثمنا بسبب إيمانه والتزامه بالشيوعية. من الغريب أن ذلك قد جمع حياتنا مرة أخرى. فإن كان كورينو مصيبا، فقد طرد رسميا من المدرسة الثانوية بسبب مقالة تحريضية كتبها في عدد كانون الثاني/يناير ١٩٣٢ من الصحيفة التي تصدرها "رابطة الطلاب الاشتراكيين"، الذي

كان على وشك تجنيدي فيها، والتي حملت اسما مناسبا هو "الكفاح في المدرسة". وإذا حدث ذلك في مدرسة "برنز هاينريش الثانوية" خلال الفترة الممتدة بين عامي ١٩٣١-١٩٣٣، فمن غير المعقول ألا أكون قد سمعت بها. من المرجح أنه طرد من ثانوية أخرى، ولم ينتسب إلى مدرسة "برنز هاينريش" في العام الدراسي ١٩٣٢-١٩٣٣ إلا بعد ذلك. كان كل منا طيرا مهاجرا لم يبق مدة طويلة في المدرسة. ولا أعرف كيف ولم تركها [١]. وفي حكم المؤكد أنه لم يتخرج منها.

المنظمة التي التحقت بها لم تحتل سوى مكان مبهم في تاريخ الشيوعية في ألمانيا أو غيرها، وذلك على العكس من ملهمتها، اولغا بيناريو. فهذه الشابة الدينامية، ابنة إحدى العائلات البرجوازية الثرية في ميونيخ، اعتنقت الثورة بعد قيام جمهورية ميونيخ السوفييتية (١٩١٩) التي لم تعمر طويلا. سوف ترتبط اولغا لعدة سنين بمدرس شاب كان له دور في الجمهورية. في عام ١٩٢٨، ترأست فريقا من الشيوعيين الشبان واقتحمت قاعة المحكمة في برلين حيث يحاكم اوتو بتهمة الخيانة وأطلقت سراحه. عمل كلاهما سرا، وحين أصبحت إقامتهما غير شرعية، انضما إلى الكومنترن والخدمات العملياتية للجيش الأحمر. في موسكو، سوف تعمل بيناريو كمستشارة للويس كارلوس بريستيس، وهو ضابط برازيلي قاد جماعة من المتمردين العسكريين لعدة سنوات في مسيرة شهيرة طويلة عبر الغابات الداخلية في بلاده وكان على وشك الانضمام إلى/وقيادة الحزب الشيوعي البرازيلي. تزوجته وساعدته في التخطيط وشاركت معه في العصيان المسلح الذي انتهى بكارثة عام ١٩٣٥، حيث اعتقلت وأعيدت إلى المانيا الهتلرية من قبل الحكومة البرازيلية. في عام ١٩٤٢، قتلت في معسكر الإبادة "رافينسبروك". في هذه الأثناء، رحل اوتو شرقا ليصبح الأوروبي الوحيد الذي يشارك فعلا (رغم فتور حماسه الواضح تجاه ماو تسي تونغ) في "المسيرة الكبرى" للجيوش الصينية الحمراء. تقاعد في برلين الشرقية، لينشر مذكراته في الثمانينات. حين انضممت إلى "رابطة الطلاب الاشتراكيين" (SSB) لأخدم هدف الثورة

---

1 - Heinz Stallmann (ed.), Das Prinz-Heirichs-Gymnasium zu Schoneberg. 1890-1945. Geschichte einer Schul (privately printed, Berlin, 1965?).

الكتاب لا يوفر أية معلومات فيما عدا ذكر شخص باسم "ليدر" ضمن قائمة بأسماء التلاميذ في المدرسة بين عامي ١٩٢٦-١٩٣٥ اعتمادا على طالب تخرج عام ١٩٣٥ .

العالمية، لم أكن عارفا بالروابط التاريخية التي تجمع بين المنظمة وبين بعض من أكثر معاركها درامية، رغم عدم وجود أي شك لدي بأن أولئك الذين أصبحوا شيوعيين في برلين عام ١٩٣٢ واجهوا مستقبلا محفوفا بالخطر، والاضطهاد، والتمرد.

الجانب الأقل درامية في إخلاص بيناريو للثورة العالمية هو الرابطة ذاتها[١]. إذ يبدو أن المنظمة قد تأسست أصلا في نيوكولن، وهي ضاحية من أكثر ضواحي الطبقة العاملة في برلين تمسكا بالشيوعية، حيث كان التلاميذ منظمين سياسيا من قبل الحزب الاجتماعي الديمقراطي وشيوعيي الطبقة العاملة داخل المدارس الثانوية المدعومة من قبل الحكومة البروسية. وهنا، ينتقل التلامذة المختارون إلى الدراسة الثانوية الكاملة ومن ثم يتخرجون منها. حين وصلت بيناريو، كأحد كوادر الدعاية الجديدة إلى نيوكولن عام ١٩٢٦، ألهمت الشيوعيين الشباب في هذه المدارس لتشكيل "القسم الثانوي الشيوعي" على غرار "أقسام الطلاب" الموجودة قبلا. ونظرا لأن هذه المدارس ضمت طلابا من حزبي الطبقة العاملة، فقد تقرر تشكيل رابطة أوسع تغطيهما معا: "رابطة الطلاب الاشتراكيين" (SSB). وحين أصبح أتباع الحزب الاجتماعي الديمقراطي "فاشيين اجتماعيين" بالنسبة للشيوعية الدولية، لم يبق الكثير من روح الوحدة هذه. بحلول عام ١٩٢٨، توسعت أيضا خارج مناطق برلين الحمراء، حيث أصبح لها جماعات في زينتروم وويستين - أي في مدارس الطبقة الوسطى - كمدرستي - وفي أجزاء أخرى من المانيا. كما نشرت الصحيفة الجديدة "الكفاح في المدرسة".

بحلول الوقت الذي التحقت فيه بالمنظمة في خريف عام ١٩٣٢، كانت في أواخر أيامها، لأن تخفيضات الإعانات المالية خلال الأزمة الاقتصادية قد جعلت الحياة صعبة بالنسبة للمدارس المدعومة من قبل الحكومة. انفرط عقد عدة جماعات في النصف الثاني من عام ١٩٣٢، أو غدت اجتماعاتها غير منتظمة. ولم يعد من الممكن القيام بأي فعل جماعي منسق في هذا المجال. وحتى في المعاقل المدافعة عن القضية، مثل "مدرسة كارل ماركس" في نيوكولن، كانت تأثيرات الكساد عند نهاية عام ١٩٣٢

١- معلوماتي أتت من :
Felix Krolokowski, 'Erinnerungen: Kommunistische Schulerbewegung in der Weimarer Republik'.
وهو نص قدمه لي المؤلف على الأرجح خلال زيارة إلى لايبزغ عام ١٩٩٦ .

تخيم على الجو المشحون بمشاعر الكآبة والاستسلام. وقيل إن "الكفاح" قد توقفت عن الصدور بعد أيار/مايو ١٩٣٢، لكن أعتقد أن ذلك ينطبق على الشكل المطبوع، لأنني لا أزال أملك عددا صدر بعد هذا التاريخ، نسخة الرفاق الذين لم يكونوا يتمتعون بمهارة كبيرة في استخدام الآلة الناسخة. لكن خليتي الصغيرة التي انتميت إليها في برلين الغربية لم تظهر أية دلائل على الإحباط ووهن العزيمة.

التقينا أولا في شقة أهل أحد الأعضاء، ثم بشكل أكثر انتظاما في الغرفة الخلفية لحانة "شيوعية" تقع بالقرب من هالينسي. إن تاريخ القاعدة الشعبية لحركتي العمال في المانيا وفرنسا، اللتين لم تمتلكا أية مكونات من الأفكار المعتدلة، يمكن على الأغلب الكتابة عنها "بلغة الحانات"، حيث يرفع الرفاق في الصالات الأمامية كؤوس النبيذ أو الجعة (كما في برلين)، بينما تعقد اللقاءات الأكثر جدية وخطورة على موائد مستديرة في الغرف الخلفية. يمكن للشراب بالطبع أن يطلب في الصالة الأمامية ثم يقدم في الغرف الخلفية، لكن هذه الممارسة لم تلق التشجيع. وبوصفنا منظمة حقيقية، كان لنا قائد، وهو صبي يدعى ولفهايم ـ اسمه الأول فالتر على ما أظن ـ وزعيم سياسي أو قوميسار (اسمه بوهرر، واتذكر أنه كان بدينا). لقد فضلت المنظمات الشيوعية الألمانية والروسية الكلمات المختصرة ذات المقطع الصوتي الواحد على الأحرف الأولى، مثل كومنترن، وكولخوز، وغولاك، وكان استخدام الاسم الثاني (العائلي) يعطي اللقاءات بعض الشكلية الرسمية. العضو الوحيد الآخر في الخلية الذي بقي عالقا في ذاكرتي كان روسيا وسيما وأنيقا يدعى جينادي ("غودا") بوبريك، الذي أتى إلى الاجتماعات بقميص روسي، وكان أبوه يعمل في واحدة من الوكالات الروسية في برلين. من المفترض أننا قد ناقشنا الوضع في مدارسنا المختلفة والطلاب الذين يمكن تجنيدهم أو "صلات الوصل". لكن في نهايات عام ١٩٣٢، أصبحت السياسة الوطنية أكثر إلحاحا بشكل لا يقارن بالمشكلات المتعلقة بمدير مدرسة رجعي مثلا. وهكذا، هيمن الوضع السياسي دون ريب على جدول أعمالنا، في حين كان بوهرر يشير إلى "الخط" الذي يتوجب علينا اتباعه.

ما الذي فكرنا فيه؟ من المقبول عموما الآن اعتبار السياسة التي تبناها الحزب الشيوعي الألماني، تبعا لخط الشيوعية الدولية (الكومنترن)، في سنوات صعود هتلر

إلى السلطة، بمثابة حماقة انتحارية بالغة. فقد اعتمدت على الافتراض القائل بقرب بدء جولة جديدة من المجابهة الطبقية والثورات بعد انهيار الاستقرار المؤقت للرأسمالية في منتصف العشرينات، وأن العقبة الرئيسة أمام ضرورة إحداث تغيرات راديكالية في وضع العمال تحت القيادة الشيوعية كانت هيمنة الديمقراطية الاجتماعية المعتدلة على معظم الحركات العمالية. كانت هذه الافتراضات معقولة ومقبولة في حد ذاتها، لكن اعتبار الديمقراطية الاجتماعية، خصوصا بعد عام ١٩٣٠، أعظم خطرا من صعود هتلر إلى السلطة، قارب تخوم الجنون السياسي، حتى وإن أمكن في الواقع وصفها بـ"الاجتماعية الفاشية"(*). وفي الحقيقة فإن هذا الرأي يناقض الفطرة السليمة، والتفكير المنطقي الصائب، إضافة إلى التراث الاشتراكي للعمال (أو تلاميذ المدارس) الاشتراكيين والشيوعيين، الذين يعرفون تمام المعرفة أن القواسم المشتركة التي تجمع بينهم تتفوق بمراحل على تلك التي تجمعهم بالنازيين. أكثر من ذلك، اتضح بحلول الوقت الذي قدمت فيه إلى برلين، أن القضية السياسية الرئيسة في المانيا تمثلت في كيفية وقف صعود هتلر إلى السلطة. وفي الحقيقة، قدم حتى خط الحزب المتشدد تنازلات للواقع الفعلي رغم عدم أهميتها. لم نضع على صدورنا شعار المطرقة والمنجل، بل شارة "مناهضة الفاشية" - رمز الدعوة للعمل المشترك ضد الفاشية، لكن بالطبع مع العمال وحدهم وليس مع زعاماتهم التي أفسدتها السلطة وخانت طبقتها. ولربما فكر المحافظون، أو حتى عناصر الوسط، بوضع هتلر ضمن ائتلاف حاكم، حيث أملوا نتيجة التقليل من شأنه، بأن يسيطروا على هذا الائتلاف. لكن عرف الاشتراكيون والشيوعيون، من النموذج الإيطالي على أقل تقدير، أن دمارهم هو الهدف الرئيس للنظام الفاشستي، وأن التسوية والتعايش مع القومية الاشتراكية أمر مستحيل لهم ولها. أما أسلوبنا في التقليل من شأن الخطر النازي - وكنا في ذلك، مثل الجميع، نستخف به إلى حد كبير - فقد كان مختلفا. حسبنا أن النازيين إذا وصلوا إلى السلطة فسرعان ما تسقطهم الطبقة العمالية التي تحولت تحولا جذريا بزعامة الحزب الشيوعي

(*) المدى الذي وصلت إليه هذه الافتراضات في منافاتها للعقل السليم يؤكده مثال زعيم الحزب الشيوعي الإيطالي بالميرو تولياتي الذي تولى عام ١٩٢٣ مهمة "النقد الذاتي" لأنه لاحظ ، على الأقل في إيطاليا موسوليني ، أن من المستحيل القول إن الديمقراطية الاجتماعية هي "الخطر الرئيس" .

الألماني، الذي يضم جيشا من ثلاثمائة أو أربعمائة ألف عضو. ألم تتزايد أصوات الشيوعيين بنفس السرعة التي تزايدت فيها أصوات النازيين تقريبا منذ عام ١٩٢٨؟ ألم ترتفع النسبة ارتفاعا حادا في الأشهر الأخيرة من عام ١٩٣٢، مع انخفاضها بالنسبة للنازيين؟ لكن لم يكن لدينا شك بأن ذئاب النظام الفاشستي سوف تطلق للانقضاض علينا قبل ذلك. هذا ما حدث فعلا: فمعسكرات الاعتقال أقامها الرايخ الثالث أصلا لسجن الشيوعيين.

يمكن العثور دون ريب على العديد من الأعذار التبريرية للحماقات الكبرى التي ارتكبها خط الشيوعية الدولية (الكومنترن)، رغم وجود اشتراكيين وشيوعيين منشقين أو صامتين يعارضونه. بعد أكثر من سبعين سنة، ومع الإدراك المتأخر للمؤرخ المحترف، يبدو المرء أقل ثقة بإمكانية وقف صعود هتلر إلى السلطة عبر اتحاد كافة القوى المناهضة للفاشية مقارنة بحالنا في أواخر الثلاثينات. على أية حال، لم تعد الأغلبية البرلمانية ليسار الوسط ممكنة بحلول عام ١٩٣٢ حتى في حال رغبة الشيوعيين بالانضمام إليه (وهو أمر لم يكن مرجحا)، وموافقة الديمقراطيين الاجتماعيين، ناهيك عن حزب الوسط الكاثوليكي. ذهبت جمهورية فايمار مع برونينغ. وكان بالمستطاع فعلا وقف هتلر بواسطة الرئيس، وجيش الرايخ، وتوليفة القوى الرجعية المستبدة ورجال الأعمال التي تولت السلطة آنئذ، والتي لم ترغب بالتأكيد بما حصل لها بعد ٣٠ كانون الثاني/يناير ١٩٣٣ . وفي الحقيقة، فقد تمكنت من وقف هتلر وزخم صعود الصليب المعقوف بعد انتصار النازيين في انتخابات صيف عام ١٩٣٢ . لم يكن هنالك شيء محتوم فيما يتعلق بالأحداث التي أدت إلى تعيينه مستشارا. لكن بحلول ذلك الوقت لم يكن بمقدور الديمقراطيين الاجتماعيين ولا الشيوعيين فعل شيء إزاء ذلك.

مع ذلك، وعند استعادة أحداث الماضي، يتعذر فهم الخط الذي اتخذته الشيوعية الدولية. هل كنا ننتقده بأي معنى من المعاني؟ لا، لم نفعل ذلك بالتأكيد تقريبا. التغيير الجذري الحاسم والنهائي هو بغيتنا. النازيون والشيوعيون كانوا من الشباب، والشباب يصعب صدهم وتثبيط هممهم بمناورات السياسة، فقيم الولاء والإخلاص والتطرف لم تلوثها عندهم التسويات الوضيعة والخادعة لأولئك الذين يعتبرون السياسة فن الممكن (القومية الاشتراكية لم تترك الكثير من المساحة للنساء في المجال العام،

وفي هذه المرحلة للأسف لم يجتذب تأييد الحركة الشيوعية الحماسي لحقوق المرأة سوى أقلية استثنائية من النساء، فقد ظلت حركة ذكورية في أغلبيتها الساحقة). في الحقيقة، كانت عصبة الشبيبة الشيوعية المقاتلة رأس الحربة الرئيسي للشيوعية الدولية، وذلك في مهمة دفع قيادات الأحزاب المترددة في أغلب الأحوال باتجاه سياسة التطرف المتمثلة في شعار "الطبقة ضد الطبقة". كان النازيون بالتأكيد أعداءنا في الشارع، وكذلك الشرطة، أما قادة شرطة برلين، الذين قتل رجالهم حوالي ثلاثين شيوعيا في عيد الأول من أيار عام ١٩٢٩، فكانوا من الديمقراطيين الاجتماعيين. حول الحزب الشيوعي الألماني هذا الحادث إلى رمز للخيانة الطبقية من قبل الديمقراطيين الاجتماعيين. ومن ذا الذي يحترم مؤسسات قانون وحكومة جمهورية فايمار، التي كانت في الجوهر مؤسسات إمبراطورية بدون قيصر؟

لذلك كنا نشابه على نحو مميز المتطرفين الشباب الذي خرجوا إلى شوارع أوروبا عام ١٩٦٨، لكن مع وجود أربعة فوارق رئيسية. أولا، لم نكن أقلية من الراديكاليين المنشقين والخارجين على مجتمعات لم تكن أبدا أكثر ازدهارا ورخاء، وأنظمة سياسية أكثر استقرارا على نحو لا يرقى إليه الشك. ففي المانيا عام ١٩٣٢، التي كانت تجتاحها العاصفة الاقتصادية، وتعاني من ضعف وهشاشة النظام السياسي، شكل الراديكاليون الذين رفضوا الوضع القائم الأغلبية الساحقة. ثانيا، على العكس من الطلاب الراديكاليين عام ١٩٦٨، لم نكن - يمينيين ويساريين - مجرد محتجين ساخطين، بل انخرطنا في نضال ثوري في الجوهر من أجل السلطة السياسية؛ وعلى نحو أكثر دقة، كنا نشكل فرقا جماهيرية سياسية ومنضبطة تسعى للسلطة وحدها. وكل ما سيأتي بعد الاستيلاء على السلطة أولا سيكون خطوة لا مفر منها. ثالثا، لم يكن هناك سوى قلة قليلة نسبيا من المتعلمين في أقصى اليسار المتطرف، فحتى في بلد يمتلك نظاما تعليميا جيدا كألمانيا، بلغت نسبة الشباب الذين لم يحصلوا أبدا حتى على التعليم الثانوي ٩٠٪. ومن بين المتعلمين الشباب، كنا نحن اليساريون نشكل أقلية متواضعة. أما أغلبية طلاب المدارس الثانوية فقد كانوا بالتأكيد تقريبا من اليمين، رغم أن ذلك لا يعني بالضرورة اليمين الذي تمثله الاشتراكية القومية (مثلما هو الحال في مدرستي). لكن التأييد لهتلر كان قويا وشائعا بين طلاب الجامعات.

الفرق الرابع تجسد في أن المتعلمين الشيوعيين لم يكونوا منشقين ثقافيا. فمن الناحية الثقافية، لم يكن الانقسام الرئيسي ـ كما حدث في حقبة موسيقى الروك! ـ بين الأجيال، بل كان في الأساس صراعا سياسيا بين أولئك الذي قبلوا والذين عارضوا ما دعاه النازيون بـ"البولشفية الثقافية"، أي كل ما من شأنه أن يجعل السنوات الأربع عشرة لجمهورية فايمار حقبة استثنائية في تاريخ الفنون والعلوم. في برلين على الأقل، شاركنا هذه الثقافة مع أولئك الأكبر سنا، لأنه في حين كانت الشيوعية في المرحلة ما قبل الستالينية، تميز بشكل حاد بين الكتاب والفنانين الذين اتبعوا خطا "صائبا" وبين أولئك الذين اتخذوا خطا "خاطئا"، إلا أنها لم ترفض الرجال والنساء من الطليعة الثقافية التي رحبت بشكل واضح بثورة أكتوبر وشاركت الحزب الشيوعي الألماني اشمئزازه من جمهورية ايبرت وهندنبورغ. "الواقعية الاشتراكية" كانت ما تزال تحت خط الأفق. والإعجاب ببريخت، وباوهاوس، وجورج غورسز لم يفصل الآباء عن الأبناء، لكنه فرق اليمين عن نوع من الجبهة الشعبية الثقافية التي امتدت لتشمل سلطات الديمقراطيين الاجتماعيين في بروسيا وبرلين، والضواحي النائية لبوهيميا التي تعمها الفوضى. كما استطاعت توحيد الليبراليين مع اليسار. أما السبب الرئيس وراء تبني جمهورية ألمانيا الديمقراطية تشريعا قانونيا أكثر ليبرالية حول تحديد النسل والإجهاض مقارنة بجمهورية ألمانيا الاتحادية في الغرب، فيكمن في أن إباحة الإجهاض قانونيا، وهو محظور في القانون المدني الألماني، مثلت قضية رئيسية في حملة الحزب الشيوعي الألماني في أيام جمهورية فايمار. ولا زالت النسخة الباقية لدي من "كفاح المدرسة" تشهد على ذلك، إضافة إلى بيانات الاجتماعات التي عقدها الأطباء المرتبطون منذ أمد طويل بقضية التحرر الجنسي.

إن إعادة بناء تجربتي في الأشهر الأخيرة من جمهورية فايمار تجعلني أتساءل عن كيفية فصل الذاكرة عما أعرفه الآن كمؤرخ، وما أفكر به الآن بعد عمر من التأملات السياسية والمناقشات والمجادلات حول ما توجب على اليسار الألماني أن يفعله ولا يفعله. عندها، لم أعرف ما كان يحدث بين انتصار النازية في انتخابات الثلاثين من تموز/يوليو ١٩٣٠، وتعيين هتلر مستشارا في الثلاثين من يناير/كانون الثاني ١٩٣٣، أكثر مما قرأته في صحيفة "Vossische Zeitung". على أية حال، لم أتأثر

فعلا، لا سياسيا ولا نقديا، بالأخبار، لكن تأثرت كنصير رومانسي لحزب، أو كمشجع لفريق كرة قدم. إضراب وسائل المواصلات في برلين، الذي حدث قبل وقت قصير من آخر انتخابات ديمقراطية للجمهورية في وقت مبكر من تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٢، كان آنئذ، وظل منذئذ، موضوعا لجدل مرير. فقد دعا إليه بنجاح "اتحاد المعارضة الشيوعية" ضد الاتحادات الرسمية (الديمقراطية الاجتماعية)، وتلقى الدعم من منظمة الاتحاد النازي، لأن الاشتراكيين القوميين كانوا حريصين على عدم قطع الصلة بالعمال. ليس من المفاجئ أن هذه الجبهة المشتركة المؤقتة بين الأحمر والبني في الأسابيع الأخيرة من الجمهورية قد مارست ضغطا سيئا، ومازالت شاهدا يورد ضد الشيوعيين آنذاك. كما تظهر بالتأكيد لا عقلانية حزب، عرف أن دخول هتلر الحكومة أمر محتوم، واستمر مع ذلك في اعتبار الديمقراطيين الاجتماعيين أعداءه الرئيسيين. وكما جرى، ساعدت التبعات والعواقب المباشرة الرئيسية للإضراب على الأرجح على ارتفاع نسبة الأصوات التي حصل عليها الشيوعيون ارتفاعا حادا في انتخابات السادس من تشرين الثاني/نوفمبر، وأسهمت في التدهور الدرامي لأصوات النازيين في تلك الانتخابات. لكن سرعان ما سيختفي كل ذلك في غياهب النسيان. إلا أنني لا أستطيع أن أتذكر مناقشة القضية خلال الإضراب، ولا القلق حولها، أو حتى التفكير بها. كان هذا "إضرابنا". ولذلك كنا نؤيده. عرفنا بأننا العدو الحقيقي للنازيين وهدفهم الرئيسي. ولهذا تعتبر فكرة اتهامنا بمد يد العون إلى هتلر سخيفة وعبثية. أين كمنت المشكلة إذن؟

هنالك مشكلة بالتأكيد. وحتى باعتبارنا من الشباب المؤمنين بحتمية الثورة العالمية، عرفنا، أو لا بد أننا عرفنا في الشهور الأخيرة لعام ١٩٣٢، بأنها لن تحدث آنئذ. وكنا بالتأكيد غير مدركين لحقيقة أن الحركة الشيوعية الدولية قد تقلصت بحلول عام ١٩٣٢ إلى أدنى حجم لها منذ تأسيس الكومنترن، ، لكننا عرفنا أن الهزيمة هي ما سنواجهه في المدى القريب. كان هناك آخرون يحاولون الوصول إلى السلطة وليس نحن. في الحقيقة، لم يتصور الحزب الشيوعي الألماني، لا بخطاباته البلاغية ولا باستراتيجيته العملية، إمكانية الاستيلاء الوشيك على السلطة (بل على العكس، كان الحزب يجري استعدادات جدية لمواجهة استيلاء النازيين على السلطة بشكل غير مشروع، لكن تبين أنها لم تكن جدية بما يكفي: فقد اعتقل زعيمه، ارنست ثالمان، في

الأشهر الأولى من حكم النظام الجديد وسجن في أحد معسكرات الاعتقال الجديدة).
أكثر من ذلك، لم يعد هنالك مكان للوهم فور استلام هتلر للسلطة، فما الذي كان يفكر به مراهقون مثلي يمكن أن يتحولوا إلى محاربين؟

من المؤكد أن معرفتنا بأننا في الجوهر حركة عالمية قد شجعتنا وأراحت نفوسنا. فالنجاح الذي حققه الاتحاد السوفييتي في الخطة الخمسية الأولى كان يدعمنا. وفي مكان ما في الشرق الأقصى، كانت الثورة الصينية تتقدم في مسيرتها. وحقيقة أن هنالك "عاصفة فوق آسيا" (باستعارة عنوان فيلم بودوفكين العظيم) جعلت الشيوعيين في ذلك الوقت على الأرجح أكثر إدراكا ووعيا بما يحدث في آسيا مقارنة بأي مكان آخر. تلك هي الفترة التي أصبحت فيها الصين، بالنسبة لبرتولد بريخت وأندريه مالرو، الموقع - المثال للثورة، والاختبار الصحيح لما يعني أن تكون ثوريا. وليس من قبيل الصدفة أن يكون "مانشيت" الصحف الوحيد الذي أتذكره من تلك الأيام (بغض النظر عن إعلان تعيين هتلر مستشارا وأخبار حريق الرايخستاغ) هو الذي تطرق إلى تمرد البحارة على السفينة الهولندية "سفن بروفنسز" مقابل شاطئ جاوا الإندونيسية بعد أيام قليلة من استلام هتلر السلطة. لم يكن ذلك بمثابة دراما من العصيان المسلح الذي توقعنا أن نقوم به، بل دراما من الاضطهاد الذي سنتعرض له. ففي أذهاننا - أو على الأقل في ذهني - كانت الصورة أمامنا تشير إلى الخطر، والاعتقال، ومقاومة الاستجواب، وتحدي الهزيمة. وعلى نحو مثالي، تخيلنا أنفسنا نلعب الدور الذي لعبه جورجي ديمتروف في الحياة الواقعية بعد أقل من سنة، حين تحدى بجرأته غورينغ خلال محاكمة المتهمين بحريق الرايخستاغ. لكننا كنا دوما على ثقة مستمدة من الماركسية بأن نصرنا محتوم ومحفور في نصوص كتب التاريخ في المستقبل.

تلك كانت الصورة الذهنية، فماذا عن الصورة الحقيقية؟ لا أتذكر تولي القيام بأي نشاط شيوعي فعلي فيما عدا الذهاب إلى اجتماعات خلية "رابطة الشباب الاشتراكيين"، وذلك حتى الفترة التي سبقت تعيين هتلر بأيام قليلة. وبدون شك، ارتفعت روحي المعنوية، مثل رفاقي جميعا، بالنكسة القوية التي أصابت النازيين في انتخابات السادس من تشرين الثاني/نوفمبر، وبالتقدم المؤثر الذي حققناه، لكنني متأكد تماما من أنني لم أفهم مدلول سقوط حكومة بابين، ولا أنشطة الحكومة الجديدة

التي لم تعمر طويلاً برئاسة الجنرال شليشر، آخر مستشار قبل هتلر، ولا أزمة كانون الأول/ديسمبر داخل الحزب النازي، حين أقصى هتلر العضو الذي يحتل المرتبة الثانية في الأهمية، أو على الأقل العضو البارز، غريغور ستراسر. من ناحية أخرى، ليس هناك ما هو إشكالي في تفاقم عدوانية ذوي القمصان البنية وأساليبهم الاستفزازية المتعمدة، والتساهل الضمني الذي قابلتهم به السلطات. في الخامس والعشرين من يناير/ كانون الثاني ١٩٣٣، نظم الحزب الشيوعي الألماني مظاهرته القانونية الأخيرة، وكانت مسيرة جماهيرية تجمعت في المساء أمام مقر الحزب (في كارل ليبكنيكتهوس، في ساحة بولو الذي أصبح اسمها الآن ساحة روزا لوكسمبرغ)، ردا على استعراض استفزازي نظمته قوات الحزب النازي شبه العسكرية (SA) في نفس الساحة. شاركت في هذه المسيرة، مع سواي من الرفاق من "رابطة الشباب الاشتراكيين" كما هو مفترض، وإن كنت لا أذكر أحدا منهم.

بعد الجنس، تمثل المشاركة في المظاهرات الحاشدة خلال فترة شهدت قدرا عظيما من الحيوية في المجال العام، النشاط الذي يجمع الخبرة الجسدية والعاطفة المكثفة في أعلى درجاتها. فهو نشاط جمعي بطبيعته، وذلك على عكس الجنس، الذي يعتبر نشاطا فرديا بجوهره. وعلى عكس هزة الجماع الجنسي أيضا (بالنسبة للرجال على أية حال)، يمكن لنشوة المشاركة في المظاهرة أن تطول لساعات. من ناحية أخرى، يمكن لهذا النشاط، مثل الجنس، أن يتضمن فعلا جسديا - المسير، الهتاف وترديد الشعارات، الغناء - معبرا عن اندماج الفرد بالمجموع، الذي هو جوهر التجربة الجمعية. بقيت المناسبة عالقة في الذاكرة ولا يمكن نسيانها، رغم أنني لا أذكر تفاصيل هذه المظاهرة. أتذكر فقط ساعات لا نهاية لها من المسير، أو بالأحرى جر القدمين جرا ثم التوقف والانتظار في البرد القارس - شتاء برلين شديد البرودة - في ظلال المباني (ورجال الشرطة؟) على طول الشوارع الشتائية المظلمة. لا أتذكر الشعارات والرايات الحمراء، لكن إن كان المتظاهرون قد لوحوا بها - ولا بد أنهم فعلوا ذلك - فقد ضاعت وسط الكتلة الرمادية التي شكلوها. ما أتذكره هو ترديد الأناشيد والأغنيات، مع فواصل من الصمت المطبق. كنا نغني - ومازلت أحتفظ بالكتيب البالي الذي يضم نصوص الأغاني، وقد وضعت علامات تشير إلى تلك المفضلة لدي: "المنظمة الشيوعية

الدولية"؛ نشيد "حرب الفلاحين"؛ الأغنية العاطفية (Des kleine Trompeter) التي تغنى في الجنازات بشعرها الرديء، والتي قيل لي إن ايريك هونيكر، رئيس المانيا الديمقراطية، قد رغب بأن تنشد في جنازته؛ نشيد طياري الجيش الأحمر السوفيتي، وأغنية هانز ايسلر (Der rote Wedding)، والأغنية البطيئة الكهنوتية (Bruder zur Sonne zur Freiheit). كنا وحدة واحدة. عدت إلى المنزل في هالينسي كأنني في غشية. وحين فكرت بأسس العقيدة الشيوعية التي آمنت بها، وأنا في العزلة البريطانية بعد سنتين، كان هذا الإحساس بـ"النشوة الجماعية" (كما كتبت بالألمانية في مفكرتي) واحدا من مكوناتها الخمسة ـ إضافة إلى الإشفاق على المستغَلين، والجاذبية الجمالية لنظام فكري كامل وشامل، و"المادية الديالكتيكية"، وقليل من رؤية بليك للقدس الجديدة والكثير من العداء الفكري للنزعة المحافظة [1]. لكن في كانون الثاني/ يناير ١٩٣٣، لم أكن أخضع معتقداتي الراسخة للتحليل.

بعد خمسة أيام، عين هتلر مستشارا. وصفت آنفا تجربة قراءة عناوين الأخبار عند عودتي من المدرسة إلى البيت مع شقيقتي. مازال بمقدوري رؤيتها، كما في الحلم. أصبح من المعروف الآن أنه قاوم عرض المحافظين بحظر الحزب الشيوعي فورا، لأن ذلك، من ناحية، قد يستفز الحزب للقيام بمحاولة يائسة للمقاومة العلنية، ولأنه سيقوي حجة النازيين بأن قواتهم شبه العسكرية (SA) هي التي تحفظ البلاد من البلشفية، كما يضفي سمة وطنية قومية لا حزبية على مظاهرة النازيين الضخمة في يوم انتقال السلطة إليهم (يستحيل تخيل أن أحدا قد أخذ على محمل الجد الدعوة للإضراب العام التي زعمت قيادة الحزب الشيوعي أنها أصدرتها في الثلاثين من يناير/كانون الثاني، ليسجل التاريخ أنها لم تستسلم دون أن تبدي أية بادرة للمقاومة). في الواقع، سرعان ما ستمنح الوحدات النازية شبه العسكرية (AS)، وقوات الشرطة السرية (SS) (التي كانت أقل شهرة بكثير في تلك الآونة) سلطة العمل كقوات شرطة رديفة، وبدأت تقيم معسكرات الاعتقال الخاصة بها ـ ولم تكن تتمتع بعد بتفويض الدولة الرسمي.

تجنبت الحكومة الجديدة منح الرايخستاغ، أو أي عضو فيه، أية فرصة مهما كانت ضئيلة للتعبير عن الرأي، وذلك عبر القيام بحله فورا والدعوة لانتخابات جديدة في

---

١ - مفكرة يومية، ١٧/٣/١٩٣٥ .

أقرب فرصة دستورية ممكنة: الخامس من آذار/مارس. بخلال بضعة أيام صدر "قانون الطوارئ لحماية الشعب الألماني" الذي قيد حرية الصحافة ووفر الأرضية الملائمة لعمليات "الاعتقال الوقائي". في الرابع والعشرين من فبراير/شباط أدرجت الوحدات شبه العسكرية من ذوي القمصان البنية والسوداء التابعة للحزب النازي في جهاز الدولة الرسمي واعتبرت "قوات شرطة رديفة". في ذلك اليوم، داهمت الشرطة مقر الحزب، وادعت العثور على كميات ضخمة من المواد التي تدينه بالخيانة، رغم عدم اكتشاف شيء مهم بالفعل. تحت مثل هذه الظروف ستجرى آخر انتخابات حرة ظاهريا تتنافس فيها أحزاب متعددة في جمهورية فايمار. لكن قبل أقل من أسبوع على موعد التصويت، ظهر فجأة عامل جديد ضاعف من حدة الضغوط على المعارضة. ففي ليلة السابع والعشرين من فبراير/شباط احترق مبنى الرايخستاغ. وبغض النظر عن الطرف المسؤول عن ذلك، استغل النازيون المناسبة للتأثير في الرأي العام لدرجة أن معظم المعادين للفاشية اعتقدوا بأنهم قد خططوا لحرق المبنى (*). صدر قانون للطوارئ في اليوم التالي يعلق حرية التعبير، والتجمع، والصحافة، إضافة إلى سرية خدمات البريد والهاتف. كما أجاز القانون أيضا الاستقلال الذاتي لـ"لاندر" استنادا إلى حق حكومة الرايخ بالتدخل لاستعادة النظام. وبدأ غورنغ باعتقال الشيوعيين وسواهم من غير المرغوب فيهم. ليزج بهم في سجون مقامة على عجل، ويتعرضوا للضرب، والتعذيب، وحتى للقتل في بعض الحالات. وبحلول شهر نيسان/ أبريل بلغ عدد الذين وضعوا رهن "الاعتقال الوقائي" خمسة وعشرين ألفا في بروسيا وحدها.

تمثلت ردة الفعل الفورية لـ"رابطة الشباب الاشتراكي"، أو على الأقل دوري فيها، في إحضار آلة طابعة إلى شقة خالتي. أحب أن أفكر بأنها قد تكون نفس الآلة التي طبع بواسطتها العدد الأخير من "كفاح المدرسة". فقد توصل الرفاق إلى نتيجة مفادها أنني سأتعرض لمجازفة أقل خطرا نظرا لكوني من الرعايا البريطانيين؛ أو ربما لن يكون من المرجح أن تداهم الشرطة شقتنا. أخفيت الآلة تحت سريري لبضعة أسابيع، وكانت عبارة عن صندوق خشبي بني اللون كبير الحجم إلى حد ما من ذلك النوع الذي

(*) عند كتابة هذه الفقرة ، كان رأي المؤرخين عموما يشير إلى أن الحريق من عمل شاب الماني يساري أراد الاعتراض بشكل دراماتيكي مثير أملا بتنبيه العمال وحثهم على العمل ، وليس من تدبير النازيين .

أصبح بدائيا الآن، حيث ينبغي وضع الصفائح الرقيقة (الاستنسل) على سطح محبّر نفوذ، وتطبع كل صفحة ورق بمفردها. ثم أتى أحدهم لأخذها. لا أظن أن شيئا قد طبع بالآلة حين كانت بحوزتي، لأنه لو حدث ذلك لاعترضت خالتي، حتى وإن كانت لا تهتم بشؤون البيت، على تلوث غرفة نومي بالحبر السميك وهو أمر لا مفر منه إذا ما استخدمت الآلة.

لا بد أن مطبعة أكثر كفاءة قد استخدمت لطبع المنشورات التي يفترض أن نستخدمها في الحملة الانتخابية. وأحسب أن لعب دور في تلك الحملة كان أول عمل سياسي حقيقي قمت به. كما شكل أيضا مدخلا إلى تجربة مميزة للحركة الشيوعية: القيام بعمل يائس وخطر لأن الحزب أمرنا بذلك. على أية حال، لربما أردنا المساعدة في الحملة حقا، لكن نظرا للوضع السائد، فعلنا ذلك كعلامة دلالية تنبئ بإخلاصنا وولائنا للشيوعية، أي للحزب. في إحدى المرات وجدت نفسي في عربة ترام وحيدا مع اثنين من وحدات الـ"اس إيه" شبه العسكرية، ومع أنه كان هناك ما يبرر فزعي، إلا أنني رفضت إخفاء أو نزع شارتي. كنا نذهب إلى المباني السكنية ونبدأ من الطابق العلوي في دس المنشورات في كل شقة إلى أن نخرج من المدخل الأمامي لاهثين وباحثين عن أية علامة تنذر بالخطر. هنالك شيء في كل ذلك يشابه فيلما من أفلام الكاوبوي والغرب الأمريكي الضاري ـ لعبنا نحن دور الهنود الحمر وليس خيالة الجيش الأمريكي ـ لكن الخطر كان حقيقيا وماثلا بما يكفي ليجعلنا نشعر بخوف حقيقي إضافة إلى الإثارة المصاحبة لركوب المخاطرة. بعد سنة أو نحوها، وصفت ذلك في مفكرتي اليومية باعتباره "شعورا خفيفا وجافا بالانقباض، مثلما يحدث حين تقف منتظرا أمام رجل يستعد لتوجيه لكمة إليك". ما الذي كان سيحدث لو انفتح الباب وظهر وجه عدائي، إذا صعد رجل ببزته البنية إلى شقتنا، وسدت المنافذ إلى الشارع؟ توزيع المنشورات الانتخابية الدعائية للحزب الشيوعي ليس لعبة، خصوصا في الأيام التالية لحريق الرايخستاغ. كذلك التصويت لصالحه، رغم أن ١٣٪ من الناخبين قد فعلوا ذلك في انتخابات الخامس من آذار/ مارس. كان لنا الحق في أن نفزع لأننا كنا لا نجازف بجلودنا فقط بل بأهلنا أيضا.

حظر الحزب رسميا. معسكرات الاعتقال غير الرسمية أصبحت رسمية. أقيم أول

معسكر (داشاو) في نفس اليوم الذي وافق فيه الرايخستاغ الجديد (الذي طرد منه الشيوعيون الآن بعد حظر حزبهم) على قانون يسلم السلطة الكاملة لنظام هتلر قبل أن يحل نفسه. وفي أواخر آذار/مارس، سمعنا أنا وأختي أننا سنذهب إلى إنكلترا. كل مخططات العم سيدني في برشلونة لم تؤد إلى نتيجة. في أوائل نيسان/ أبريل، أعلن هتلر مقاطعة الأعمال والأنشطة التجارية اليهودية، وحين كنت أودع أصدقائي، رتبت مع أحدهم ـ ربما هو غيرهارد فيتنبورغ على الأرجح ـ أمر إرسال الأخبار إلي (أعطاني عنوان منظمة الكيبوتزات التي سينضم إليها عند الهجرة إلى فلسطين). بعد ذلك غادرنا برلين. الخالة ميمي قررت أيضا الهجرة مرة أخرى. فمغامرتها البرلينية لم تكن أكثر نجاحا من المعتاد، وألغى رحيلي مع أختي عنصرا حيويا من دخلها المالي. أتذكر بصورة مبهمة أنه كان من المفروض انضمام نانسي إلى غريتيل وبيتر الصغير ـ هل كان سيتم ذلك في برشلونة؟ ـ حيث سيذهبون من هناك إلى إنكلترا بعد وصولنا أنا وسيدني إليها. كان ذلك بمثابة انتقال آخر على غير هدى في حياة مقتلعة الجذور لطفل نازح. أتى سيدني إلي، ومع أن الهوى الرئيسي الذي تملكني عندئذ كان سياسيا، إلا أنني رتبت أمر التخلص من الدراجة العتيقة التي قدمتها لي أمي هدية في عيد ميلادي وسببت لي كل ذلك الإحراج والكرب، حين يحزم آل هوبزبوم ممتلكاتهم لوضعها في المخزن.

غبت عن برلين قرابة الثلاثين عاما، لكنها لم ولن تغيب عن بالي أبدا.

-٦-

على الجزيرة

I

أكثر ما يفاجئ القادم إلى بريطانيا حجم مدينة لندن، التي كانت آنذاك أكبر مدينة في العالم الغربي. بدت ككتلة لا شكل لها من الشوارع والمباني، تمد ضواحيها كمجسات الأخطبوط إلى الريف. ظلت العاصمة تدهشني بحجمها الهائل وافتقادها الفاضح للتناسق حتى بعد مرور سبعين عاما من الإقامة فيها. خلال سنواتي الأولى في بريطانيا لم أتوقف عن التعجب من مدى المسافات التي كنت أقطعها دون أن اعتبر ذلك أمرا غريبا: على الدراجة، نحو الشمال والجنوب، وباتجاه المدرسة في ماريلبون، ومن تلال كريستال بالاس، ثم انطلاقا من ادجوير؛ أو بالسيارة، باتجاه الشرق والغرب، مع عمي المتنقل بين الفورد وايلورث، دون أن تغيب صفوف المباني عن البصر.

في مكان ما من بين هذه "المائة ألف شارع تحت السماء" (كما وصف الكاتب الشيوعي المبدع، المدمن على الكحول، باتريك هاملتون مدينة لندن في الثلاثينات)، توجب على آل هوبزبوم العثور على موطئ قدم. كنا رعايا الملك جورج الخامس، أي لم نكن بأي معنى من المعاني لاجئين أو ضحايا للاشتراكية القومية، وهي حقيقة لازلت مضطرا للتذكير بها كل من يجري مقابلة معي أو يستقصي تاريخ حياتي. لكننا من كل النواحي الأخرى كنا مهاجرين من وسط أوروبا، بل حتى نازحين نزوحا مؤقتا ـ حيث لم نسترجع كافة ممتلكاتنا التي احتفظنا بها في برلين إلا عام ١٩٣٥ ـ إلى بلد مجهول بالنسبة لنا جميعا فيما عدا العم سيدني، لكن حتى هو غادر المدينة منذ الحرب العظمى. لم نكن نعرف أحدا سوى الأقارب. بل لم نكن مهاجرين سابقين يعودون إلى وطنهم الأم، لأن الوضع المستقبلي لآل هوبزبوم ظل غامضا وضبابيا كعهده حتى عام

١٩٣٣. أما المكان الأول ـ بعد برلين ـ الذي اجتمعت فيه العائلة كلها في صيف عام ١٩٣٣ فكان مركز انطلاقة إحدى المغامرات التجارية العديدة للخالة ميمي في مجال بيوت الضيافة، والذي وقع هذه المرة في فوكستون. يشابه المكان كافة مواقع التجميع والترحيل المؤقتة لهجرات ونزوح المقتلعين من جذورهم التي لا يحصى لها عدد في القرن. لاجئة ألمانية عبرت عرضا عن إعجابها بسحر وتناسق قوام فتى سويسري مراهق، على وشك الذهاب على ما يبدو إلى المدرسة في مكان ما من إنكلترا. نازح ألماني في مثل عمري، كان في طريقه إلى معسكر تدريبي يهودي على التقنيات الزراعية، حاول أن يعلمني بعض حركات الجودو. رجل كئيب المظهر، من منطقة الكربات في وسط أوروبا، اسمه سالو فلوهر، انقطعت به السبل هنا بسبب رفض اليخين قبول تحديه للمنافسة على لقب بطل العالم للشطرنج، كان يلعب مع العم سيدني في انتظار السفر إلى موسكو لمواجهة ميخائيل بوتغينيك. لم يصل فلوهر إلى القمة أبدا، لكنه سيصبح شخصية معروفة في رياضة الشطرنج السوفييتية، وكان من بين قلة قليلة من الناس الذين لم تعتبر هجرتهم إلى روسيا الستالينية في الثلاثينات بمثابة الكارثة. هناك، على المرج الأخضر في الصباحات المشرقة، اكتشفت الشعر الإنكليزي الغنائي من خلال "الكنز الذهبي"، وقرأت للمرة الأولى "عبر المرآة" للويس كارول. كنت منتسبا لمدرسة في لندن، حين أتيت للانضمام إلى الأسرة في فوكستون لبضعة أسابيع، وأنا أستعد لدخول امتحان في مواد دراسية مجهولة أو غريبة، أقدمها بلغة نادرا ما استخدمتها خارج نطاق الأسرة.

في الحقيقة، تبين لأسرة هوبزبوم ـ غرون (بغض النظر عني وعن الخالة ميمي) أن القدوم إلى إنكلترا في عام ١٩٣٣ كان مجرد محاولة أخرى من بين العديد من المحاولات الفاشلة للعثور على بر وسط أمواج البحار الهائجة التي اجتاحت العالم في فترة ما بين الحربين. توفيت غريتيل التي كانت تكبر أمي قليلا عام ١٩٣٦ وهي ما تزال شابة في الثلاثينات من العمر. في عام ١٩٣٩، وبعد بضع سنين من النجاح المتفاوت، تخلى سيدني وهو في الخمسين عن الكفاح في سبيل لقمة العيش في إنكلترا وهاجر إلى تشيلي، تصحبه نانسي وبيتر، وظل مقيما في سنتياغو حيث تزوج هناك مرة أخرى. نانسي التي بدأت حياتها الفعلية في أمريكا الجنوبية مع اندلاع

الحرب، عادت إلى بريطانيا مع زوجها، فيكتور مارشيسي، عام ١٩٤٦، لكن باعتبارها زوجة ضابط في البحرية استمرت في حياة التنقل والترحال لبضع سنين، وانتهى بها المطاف مقيمةً بريطانية متقاعدة في مينوركا. بيتر الذي أصبح مهندسا ميكانيكيا مؤهلا، أمضى معظم حياته كمدير تنفيذي لإحدى شركات النفط في كندا، وأنهاها في إسبانيا. مستقبلي وحده تحدد نهائيا في عام ١٩٣٥ بقرار يقضي باجتياز امتحان قبول لمنحة دراسية في كامبريدج. في حين سقطت الخالة ميمي بعد وقت قصير في شباك موقع ساحر ومحمي عند زاوية وادي ساوث داونز، قرب برايتون، لتحقق فيه طموح حياتها بامتلاك مكان خاص بها، حيث شيدت عليه "مقهى فيينا القديمة"، ثم توفيت هناك تاركة لي ولنانسي أمر إنهاء الإجراءات لبيع أملاكا المتواضعة. كانت النقود التي ورثناها عن ميمي هي الوحيدة التي يرثها أي منا من آل غرون أو هوبزبوم.

لا يعني ذلك أنني شعرت كمن يستعد لحياة طويلة من العمل الأكاديمي في بريطانيا كما تبين فيما بعد، رغم أنني أملت ـ حتى في سن السابعة عشرة ـ أن يكون "مستقبلي مع الماركسية، أو في التدريس أو في كليهما معا" (عرفت تماما أنه لن يكمن في الشعر، رغم أنني "مع الممارسة أستطيع تطوير أسلوب شعري مقبول إلى حد بعيد")[١]: من الناحية الروحية ـ النفسية، ما زلت أعيش في برلين: لقد كنت مراهقا عزلوه مؤخرا واجتثوا جذوره من بيئة أحس فيها بالسعادة وبأنه في وطنه، سياسيا وثقافيا. مفكرتي اليومية ظلت تشير إلى الأصدقاء والرفاق، وآراء مدير مدرستي القديمة، والتجارب السياسية الدراماتيكية التي خلفتها ورائي. كان ذلك دون ريب هو السبب الرئيس الذي جعلني أحافظ على كتابة مذكراتي بالألمانية. لم أكن راغبا بالنسيان. في منتصف عام ١٩٣٥، ذكرتني زيارة مهاجرة اشتراكية ألمانية وصلت حديثا وحاولت ضمي إلى أنشطة جماعتها ـ أظن بأنها سميت "بداية جديدة" ـ ذكرتني بمدى عزلتي الفعلية. كانت (باختصار "المرأة الحديثة" التي حلمت بها) "جزءا من عالم كنت أنتمي إليه ذات مرة لبضعة شهور، لكنني نسيت وجوده تقريبا[٢]، وأنا أعيش خلف ستار أفكاري".

١- المفكرة اليومية، ٨-١١/ ١١/ ١٩٣٤. يعتمد معظم هذا الفصل على معلومات وردت في هذه المفكرة، التي بدأت كتابتها من ١٠/ ٤/ ١٩٣٤ وحتى ٩/ ١/ ١٩٣٦.

٢- المفكرة اليومية، ١٦/ ٦/ ١٩٣٥، ١٧/ ٨/ ١٩٣٥.

بعد حياة الإثارة في برلين، بدت بريطانيا مخيبة للآمال بشكل يتعذر اجتنابه. إذ لا يوجد في لندن شيء يمتلك الشحنة العاطفية لتلك الأيام الخوالي، فيما عدا الموسيقى (وهذه أثارت مشاعري بطريقة مختلفة جدا) التي تعرفت عليها عن طريق ابن عمي دينيس الذي كان يدرس العزف على الكمان، حيث كنا نستمع إليها سويا عبر "غراموفون" يدوي في "سقيفة" منزل والدته في سيدنهام، وهو المكان الذي وجدت فيه العائلة أول ملاذ لها في لندن. تناقشنا هناك بكل حماس وحدة المراهقين حول موسيقى "الجاز" ونحن نشرب الحليب المكثف المحلى ("الذي لا يناسب الأطفال") ونرشف الشاي. لم تكن أسطوانات "الجاز" متوفرة بعد، وبالتأكيد لن تكون متاحة لنا في أي وقت نظرا لقلة ما نملكه من مال. فمن النادر بالنسبة للمراهقين أن يكونوا في موقع يؤهلهم لشراء أكثر من بضع أسطوانات قليلة، ناهيك عن تشكيل مجموعة منها[١]. ومع ذلك، صدر في بريطانيا ما يكفي منها لتغطية السوق المحلية: ارمسترونغ، الينغتون، فليتشر هندرسون، وتسجيلات جون هاموند الأخيرة لبيسي سميث. أكثر من ذلك، وقبل وقت قصير من تفجر النزاع التجاري الذي منع عازفي "الجاز" الأمريكيين من القدوم إلى بريطانيا لمدة تقارب العشرين عاما، تفوقت فرقة "ديوك الينغتون" (ما زلت أذكر أسماء أعضائها) على كافة الفرق الأخرى. وكان ذلك هو الموسم الذي غنى فيه ايفي اندرسون "الطقس العاصف". ذهبنا أنا ودينيس ـ بعد أن أخذنا النقود من الأسرة كما أفترض ـ إلى حفلة للفرقة استمرت طوال الليل على مسرح "باليه دي دانس" في ستريثهام، وشربنا البيرة في شرفة المسرح ونحن ننظر بازدراء إلى كتلة الراقصين القادمين من جنوب لندن في الأسفل، وهي تموج ببطء، حيث تركز انتباه كل منهم على شريكه وليس على الموسيقى المدهشة. صرفنا آخر بنس لدينا، وعدنا إلى المنزل سيرا على الأقدام في الظلام وطلع علينا الفجر وقد هام كل منا بخياله وانسحر من فرط النشوة إلى الأبد ونحن نسير على الرصيف الصلب. ومثلما كان الحال مع الكاتب التشيكي جوزيف سكفورسكي، الذي فاق الجميع في وصف هذه المسألة [٢]، خبرت هذا الوحي الموسيقي زمن الحب الأول، في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمري. لكن في حالتي الخاصة، حل الوحي محل الحب الأول، لأنني، وأنا خجل بمظهري

١- انظر التحليل الاجتماعي لمحبي موسيقا "الجاز" في كتابي "مشهد الجاز" (لندن ، ١٩٥٩ ؛ نيويورك ، ١٩٩٣) .
2 - Josef Skvorecky, The Bass Saxophone (London, 1978).

ومقتنع بافتقادي للوسامة، تعمدت كبت شهواتي الحسية ودوافعي الجنسية. لقد أدخلت موسيقى "الجاز" بعدا من العاطفة الجسدية الصامتة التي لا شك فيها إلى حياة احتكرتها لولا ذلك الكلمات وممارسات الفكر.

لم أتوقع حينذاك أن سمعتي - حين بلغت مبلغ الرجال - كمغرم بموسيقى "الجاز" سوف تفيدني بطرائق لم ينتظرها أحد. لقد ميز ولعي بـ"الجاز" - آنئذ وفي معظم سنوات العمر - الصلة بمجموعة قليلة العدد من الأفراد مستعدة للمعركة على الدوام حتى بين الأقلية من الأذواق الثقافية. كما ربط هذا الولع الذي تملكني معظم سنوات العمر (أو ثلثيها على الأقل) بين حفنة من الأشخاص الذين شاركوني فيه، حتى تحول الأمر إلى ما يشبه جماعة دولية شبه سرية كان أفرادها على أتم الاستعداد لتعريف بلادهم إلى أولئك الذين يأتون إليهم مسلحين بالعلامة الدلالية الصحيحة. لسوف يكون "الجاز" المفتاح الذي شرع لي الأبواب أمام معظم ما عرفت من حقائق عن الولايات المتحدة، وبدرجة أقل تشيكوسلوفاكيا السابقة، وإيطاليا، واليابان، والنمسا في فترة ما بعد الحرب، ناهيك عن الأماكن التي لم أكن أعرفها حتى ذلك الحين في بريطانيا.

ما أسهم في المبالغة في عقلنة سنواتي اللاحقة تجسد في حقيقة أنني عشت باستمرار في كنف "أبوين" (سيدني وغريتيل) مارسا نفوذا مؤثرا في حياتي، حيث رفضا رفضا قاطعا السماح لولدهما المراهق المتحمس البالغ من العمر ستة عشر عاما بالانغماس في معترك حياة سياسية - مقاتلة ملأت عليه فؤاده وفكره. ولاشك بأنهما تبنيا الرأي القائل بأن التركيز على دخول الجامعة بالرغبة الذاتية، لا بد أن يحتل قمة الأولويات بالنسبة لصبي ذكي على ما يبدو واضحا ولا يستطيع الاتكال على مصادر أسرته المالية. علاوة على إيمانهما الراسخ بأنه ما يزال صغيرا جدا على الانضمام إلى الحزب الشيوعي [1]. ولذات السبب، وعلى الرغم من تضامن أفراد الأسرة مع العم هاري، إلا أنهما عارضا أيضا مسألة انضمامي إلى حزب العمال، وهو أمر عزمت عليه من أجل تخريبه من الداخل - أي ما عرفته الأجيال السياسية التروتسكية اللاحقة

١- من حسن حظهما ، أن محاولتي الأولى للاتصال بفرع للحزب ، في مكان ما من ضواحي كرويدون ، الذي اكتشفته من دعاية في صحيفة "ديلي وركر" ، قد أجهضت . وحدث أنني تعرفت على مجموعة صغيرة من الرفاق الذين أصغوا باهتمام لروايتي عن مظاهرة الحزب الأخيرة في برلين ، لكنهم أصروا على أن انتصار هتلر قد أثبت أخطاء الحزب الشيوعي الألماني ، بل ربما الكومنترن أيضا . لم أستطع الإجابة ، لكن شعرت بأن الانضمام إلى وحدة تنتقد الجنرالات قد لا يمثل الطريقة المثلى للالتحاق بجيش الثورة العالمية . إذ لا يشكل الخمسة آلاف شيوعي بريطاني تقريبا جيشا مقارنة بعدد أعضاء الحزب الشيوعي الألماني عام ١٩٣٢ .

باعتباره "التسلل من أجل التخريب". أعرف الآن ما شعرت به الأسرة في مواجهة أفكاري المتزمتة والفجة. بل ترعدني إعادة قراءة العبارات اليائسة التي كتبتها عام ١٩٣٤ في مفكرتي خلال الأزمة التي كانت تجابه الأسرة. ومع أن الحظر كان يتراخى ببطء، إلا أنني عشت خلال الفترة التالية التي امتدت سنتين ونصف السنة حياة خلت من النشاط السياسي، وتركزت تبعا لذلك على نشاط فكري مكثف، علاوة على قراءات ومطالعات ثقافية ما زال حجمها يدهشني حتى الآن حين أسترجع أحداث الماضي. لا يعني ذلك أن "الثورة البريطانية" كانت تحقق الكثير من التقدم بي أو بدوني.

نظرا لأننا عشنا طيلة السنوات التالية ونحن على اتصال وثيق مع بعضنا البعض، لسوف أستعيد ذكرى الشخصين اللذين أصبحا بمثابة أبوين لي ولشقيقتي نانسي. لقد اتفقنا نحن الاثنان على أنهما عديما النفع في هذا المجال، لكن حين أراجع مفكرتي وما كتبته فيها عن عامي ١٩٣٤-١٩٣٥، أعتقد بأننا كنا نستخف بالمشكلات التي عانى منها "والدانا" سيدني وغريتيل حين اضطرا لمواجهة سلسلة من الهجرات إلى عدة دول، والقيود غير العادية التي كبلتهما عند التعامل الصعب مع يتيمين مزق حياتهما الاضطراب والفوضى دون أن يمتلكا أية فرصة حقيقية بالاستقرار، ناهيك عن وجود صبي صغير متنقل على الدوام ومعتل الصحة في أغلب الأحيان. لا بد أن تنشئة صبي وفتاة كانت بمثابة كابوس مزعج بالنسبة لهما. على أية حال، لم يحققا نجاحا أكبر في تربية ابنهما، رغم أن كل ذلك قد سبب لي ضررا أقل مقارنة بأختي نانسي، التي نما لديها تصميم أكيد على العيش عيشة البالغين بعد قطع العلاقة بسنوات حياتها الأسرية في مرحلة المراهقة في القارة الأوروبية، بكل جوانبها العاطفية، والوجدانية، والجدالية، والفكرية. وفي الحقيقة، بمقدوري تذكرها بكل اعتزاز كسيدة في بلاد بروتستانتية تقليدية، وناشطة في حزب المحافظين في منطقة ورسيسترشاير في الستينات.

على العكس من نانسي، لم يكن لدي سبب وجيه لإلقاء اللوم عليهما. ولم يفاجئني أي منهما بوصفه مستبدا، بل "مأساويا"، كما كتبت في مفكرتي قبل وقت قصير من عيد ميلادي الثامن عشر. كنت أراهما، خصوصا غريتيل، من ضحايا تدهور

وتفكك التقاليد العتيقة التي حددت العلاقات بين الأجيال. فقد اندثرت القواعد الفيكتورية الناظمة لتربية الأطفال، والتي طالبت بالشدة في التعامل معهم - رغم أن ذلك لم يكن أمرا غير مقبول بالنسبة لغالبية الناس - لكن مع كثير من الدعم والتأييد للأبوين. الآن، لم يعد بالإمكان ردم الهوة. ومن المفارقة أنني توصلت إلى نتائج مشابهة لتلك التي استخلصتها شقيقتي من منظور نقيض. إذ لا ينبغي على المستقبل أن يأتي بمجتمع من دون قواعد مقبولة وبنية راسخة من التوقعات والآمال. "لسوف تخلق الدولة الاشتراكية (ويتوجب عليها أن توجد) تقليدا اشتراكيا جديدا يتخلص من مثالب وعيوب التقاليد القديمة، بينما يحافظ على مزاياها وحسناتها"، كما كتبت في مفكرتي. بل بالمستطاع حتى القول إنني طورت الآراء الغريزية للشيوعي المحافظ، وذلك على العكس من المتمردين والثوريين الذين تشدهم قضيتهم من خلال الحلم بتحقيق التحرر الكامل للفرد، وإقامة مجتمع خال من القواعد والأنظمة.

كنت أحب خالتي غريتيل حبا جما، ونما لدي شعور بالاحترام العميق لحسها البدهي السليم. وعلى غير العادة المتبعة بين الأهل وأبنائهم المراهقين في الفترة الحساسة من العمر، كنت أحب الحديث معها عن مشاكل الحياة، وعن جزء مما قرأته في الكتب. علاوة على ذلك، كنت آخذ آراءها على محمل الجد، حتى حول مواضيع تتعلق بالجنس والحب، والتي لم أكن أعرف عنها شيئا. لكن كما بدا واضحا، لم يكن بمقدورها الحلول محل والدتي [1]. وحين كنت أرى الناس في الشارع، كنت أحيانا أحدق إلى وجوههم وأغلق عيني، قائلا لنفسي: "عينا هذه أو ذاك، تشبهان عيني أمي" [2]. كانت غريتيل أصغر بنات غرون سنا، وأكثرهن حسنا، ونجاحا في العلاقات الاجتماعية، كما تمتعت بمحبة وإعزاز شقيقتيها. وهي الوحيدة التي لم تضطر للعمل من أجل لقمة العيش. واجهت غريتيل مصائر حياتها وحياة أسرتها الصعبة، وجابهت العديد من المشكلات متسلحة بسحرها، وتعاطفها مع الآخرين، وتعقلها الأصيل، إضافة إلى افتقادها الواضح للإشفاق على الذات. "سيدني لن يصدق ذلك، فهو

١- المفكرة اليومية، ٤/٦/١٩٣٥ : "حدث اليوم وألقيت نظرة على رسائل أمي التي بعثتها إلي عام ١٩٢٩ . دعتني بـ'حبيبي' . دهشت وقلقت بصورة مبهمة، لأنه مر وقت طويل منذ أن دعاني أحد بهذا الاسم، وحاولت أن أتخيل الآن حالي إن استخدم أحد تلك اللفظة" .

٢- المفكرة اليومية، ١٢/٧/١٩٣٥ .

متفائل على الدوام"، حسبما كتبت في ملاحظة وجيزة لأختها، وهي في انتظار إجراء علمية جراحية لاستئصال ورم اكتشف فجأة في معدتها "بحجم قبضة اليد"، وذلك قبل بضعة شهور من موعد دخولي جامعة كامبريدج. لم تكن متفائلة ولا متشائمة، بل تأخذ الأمور كما هي. وأصابت حين علمت في هذا المثال بأن الموت ربما يأتي غدا.

أخذني سيدني لرؤية جثمانها في مستشفى هامستيد العام، الذي أصبح الآن موقفا للسيارات جانب مستشفى "رويال فري". في معظم الأيام كنت أمر بالموقع في طريقي من وإلى بيلسايز بارك. كان جثمان غريتيل أول جسد ميت أراه في حياتي.

لست متأكدا بأنني كنت "احترم" سيدني ولم أكن أريد أن أصبح مثله. وفي الحقيقة، كنت أشعر بالإحراج من/ والازدراء لرثائه لذاته، وعدم استقراره المزاجي، وذلك التأرجح المميز له بين نوبة الغضب المتفجرة والنزعة العاطفية المسرفة، التي عبرت إحداهما عن العجز وكانت الأخرى عبارة عن صرخة تطلب العون. ونظرا لأن كلا منا واقع تحت تأثير شعور متطور جدا يدفعه للمجابهة (أي التضاد والتعارض)، وهي سمة تتواجد في كثير من الأحوال داخل العائلات اليهودية، فإن أحاديثنا ومناقشاتنا في المنزل كانت تنزع لأن تكون صاخبة، ودرامية، وسخيفة. أعتقد أنه حول حياة نانسي إلى جحيم، خصوصا بعد أن حرمته وفاة غريتيل من صمام الأمان والتوازن. لحسن الحظ، كنت في ذلك الوقت أكبر سنا، وعرفت بأنني على وشك الاستقلال بحياتي. ومع ذلك، ما زلت أتذكره كثيرا. الذكرى تبهجني دائما. كنا نتحدث معا، خصوصا في باريس، وفي الرحلات الطويلة حين عملت كسائق له لأننا بعد سنة ازدهرت أحوالنا المادية بما يكفي لشراء سيارة، تعلمت أنا قيادتها في الوقت المناسب للنجاح في فحص السواقة الجديد.

كان يعرف الطرق التي يسير عليها العالم، وكنت آخذ ما يقوله عنها على محمل الجد، ليس أقلها ملاحظته بأن على الرجال التزام الصمت إزاء النساء اللاتي يمارسن الجنس معهم. أما معلوماته حول ما هو جيد في السينما الفرنسية في الثلاثينيات فقد أتت مباشرة من مصادرها الأصلية. لقد أعطاني ما لم آخذه من والدي البيولوجي، وأمل بدوره أن أعوضه عن آماله المحبطة على الدوام في حياته.

رغم أن سولومون سيدني بيركوود هوبزبوم، بقامته القصيرة، ونظارته الأنفية الموضوعة تحت جبهته التي غزتها التجاعيد عموديا (وذلك على العكس من والدي)،

هو الابن الوحيد من أبناء جدي ديفيد الذي سيصبح رجل أعمال "محترفا"، إلا أن كسب المال لم يكن حلمه الوحيد. كان يتمتع بقدرة البائع المتجول على الإيمان الحماسي بمنتج اللحظة، والجسد المدرع الذي يحميه من الصدمات الناتجة عن عدم رد العملاء على اتصالاته الهاتفية أو إلغاء طلبياتهم. بعد سنوات رأيت الكثير من صفاته في مسرحية أرثر ميلر المدهشة "موت بائع متجول"، وينطبق ذلك على الأبناء المثقفين للعديد من الآباء اليهود.

لكن برغم أن له طموحاته ـ نابليون كان شخصيته المفضلة في التاريخ، وشخصية ورودون كراولي في رواية ثاكيراي "فانتي فاير"، لكن لم يشكل المال مصدر إلهامه.

ما هي طموحاته حين كان شابا في شرق لندن؟ لو ولد في فترة لاحقة، حين أولع البريطانيون بلعبة الشطرنج وأصبحت تدر المال، لكان صنع شيئا بموهبته الطبيعية الفذة التي جعلته متفوقا فيها. اختارته فرنسا في الحرب العالمية الأولى عندما جندت لاعبي الشطرنج للقيام بمهمات خاصة، فانتقل من الجبهة الغربية للعمل في الاستخبارات (فك الشيفرة)، ويبدا أنه يعرف شيئا حول مثل هذه الأمور. لكن أي شخص في موقعه يتجول في بلدان وسط أوروبا بين عامي ١٩١٩-١٩٣٣، سيصادف على الأرجح أشخاصا مرتبطين بأجهزة المخابرات السرية. إلا أن سيدني ظل بعيدا عن معترك السياسة.

لم يكن مبدعا ولا نابغا في المجالات الأخرى، لكنه امتلك شغف اليهودي الفقير، الذي يعلم نفسه بنفسه، بالثقافة، كما أحب أن يكون في محيط الناس المبدعين ـ موسيقيين، وممثلي مسرح، وعاملين في صناعة السينما على وجه الخصوص. من "الفونوغراف" الذي يمتلكه هو وغريتيل في فيينا سمعت للمرة الأولى (والعديد من المرات لاحقا) مختارات ترجع إلى العصر"الفيكتوري"، تضم الأغنيات الكلاسيكية العظيمة التي سجلها الرعيل الأول من الفنانين على اسطوانات: كاروسو، وميلبا، وتيترا زيني ـ إضافة إلى ذخيرة من الألحان العظيمة (الإيطالية والفرنسية على الأغلب): فيردي، ميربير، غونو. في الممارسة العملية، كانت صلاته الموسيقية أكثر حداثة. روز بولي دريسن الشهيرة، "اليكترا" عصرها، التي ارتبط بحياتها المهنية في أواخر العشرينيات، كانت المغنية الدرامية الرئيسية (سوبرا نو) في "برلين كرولوبر"

لكليمبرر (عند النهاية القصوى من الموسيقى الشائعة في عهد جمهورية فايمار). كما حاول نيابة عنها أن يضم السيدة ايثيل سميث (١٨٥٨-١٩٤٤)، الناشطة النسوية في الحقبة الإدواردية وأشهر مؤلفة موسيقية في عصرها التي أقام معها نوعا من العلاقة حين كان شابا في مقتبل العمر. لكن السينما هي التي سحرت لبه إلى الأبد. لم يفتنه جو النجوم الكبار، أو المغامرون من المنتجين والمخادعون الذين يخونون الثقة، رغم أنه عرفهم حين عمل مع شركة "يونيفرسال". ما شغف به هو الجو المخيم على أرض الاستديو ـ "الهنغارات" الضخمة التي يعاد خلق العالم داخلها، واليهود المهاجرون الصغار الذين يعملون على المنصات الكبيرة، والكاميرات، والأضواء، والمكياج، والمشاهد، الغارقة جميعا في محيط تهيمن عليه التقانة، والأقاويل والشائعات، والفضائح، والتصرفات البوهيمية المتحررة من الرسميات. ذهبت معه بالسيارة في زياراته إلى ايلورن وايلستري.

بالنسبة له، كانت هذه هي المواقع التي يكون فيها المرء على اتصال بالإبداع الخلاق. نجح في شق طريقه عائدا إلى عالم السينما في إنكلترا من خلال إقناع شركة تصوير فوتوغرافي بريطانية بأن صلاته الشخصية في هذا الميدان تجعل منه الرجل المؤهل لبيع مخزونها من الأفلام ومنافسة شركتي كوداك وأكفا. وبعد بضع سنين من خوض المعركة الخاسرة مسلحا بمنتج غير قادر على المنافسة ("العم سيدني ذاهب إلى بودابست غدا. برقية غاضبة من جو باسترناك. يبدو أن "سيلوفيلم" رديء النوعية")، تخلى عن الكفاح، وهاجر مرة أخرى، (بواسطة من شقيقة بيرك) إلى تشيلي، حيث استثمر رأس ماله الصغير في حصة من مشروع تجاري لإنتاج أدوات المطبخ. عند نهاية الحرب، ترك عملا تجاريا يفتقد الإثارة لكنه آمن ومضمون، لمجرد تلميح من صديق قديم بأنه قد يجد مكانا له في عملية تصوير أفلام سوف تنطلق قريبا ولها صلة بالأمم المتحدة الحديثة العهد آنذاك. لا لم يحدث شيء. وانتهى الحلم بحياة الإبداع. لقد تخلى عن عمل معقول لكسب لقمة العيش في سبيل حلم خيالي وهو في منتصف العقد السادس من العمر، ولم ينجح أبدا في الحصول على عمل آخر.

ومع ذلك، استطاع لبضع سنين في الثلاثينيات أن يعيش حلمه الخيالي على شفا المأساة الأوروبية، وحصلت أنا على بعض الفائدة. فمن هم أولئك الذين سيمنحونه

الفرصة سوى العاملين على هامش عالم السينما من اللاجئين والراديكاليين؟ وهكذا وجد نفسه مشاركا في أفلام سينمائية سياسية مولها اليسار الفرنسي أيام الجبهة الشعبية، أشهرها فيلم جين رينوار "لا مارسييز"، وفي أفلام إخبارية قصيرة مكنتني من مشاهدة الاحتفالات الكبرى بذكرى سقوط الباستيل عام ١٩٣٦ من فوق شاحنة تحمل كاميرا الحزب الاشتراكي، وعلى صدري شارة ممثل الحزب. خلال الحرب الأهلية الإسبانية، قبل عرض أصدقائه الإسبان، أو الكاتالونيين بالأحرى، مرة أخرى. وعاد من زيارته إلى إسبانيا عام ١٩٣٧ وهو يروي أحاديث أجراها مع الزعيم الكاتالوني لويس كومبانيز (الذي أعدمه فرانكو فيما بعد)، ومع رجل إنكليزي من الطبقة الارستقراطية يدعى ايريك بلير. كانت تلك قضايا خاسرة. فبالرغم من تعاطف عمي مع اليسار مثل الأغلبية العظمى من اليهود المنتمين إلى عائلات الطبقة العاملة الفقيرة، إلا أنه لم يكن راغبا بشيء سوى الابتعاد عن السياسة الحزبية. لقد دفعه منطق التاريخ ليكسب عيشه من / ومع المناضلين المعادين للفاشية، طالما استطاع هو وهم أن يجدوا لذلك سبيلا، لكن هذا لن يستمر طويلا.

II

بريطانيا التي أتيت إليها عام ١٩٣٣ تختلف اختلافا تاما في كل مجال تقريبا عن البلاد التي أكتب فيها هذه الصفحات في بداية القرن الجديد. فتاريخ الجزيرة في القرن العشرين ينقسم انقساما حادا إلى نصفين اثنين، وبعبارة مختصرة "ما قبل وما بعد صدمتي السويس و'الروك اند رول'" المتزامنتين: فكل وصف تعميمي تقريبا للبلد الذي أتيت إليه سنة ١٩٣٣ لا يصح بعد عام ١٩٥٦، حتى نظام التدفئة المنزلية البريطاني المشهور بعدم كفاءته، وإحدى تبعاته المتمثلة في الضباب الكثيف الذي ظل حتى عام ١٩٥٣ يجبر الحياة اللندنية على التوقف بين الحين والآخر. لم تعد بريطانيا إمبراطورية كبرى أو قوة عالمية، وبعد حرب السويس لم يصدق أحد بأنها كانت كذلك. في عام ١٩٣٣ لم يفكر الناس بالحرب العظمى باعتبارها ملحمة بطولية، بل مقبرة جماعية! لكن عرف الكل أن هناك منطقة أكبر مساحة من أي وقت مضى تحمل على خريطة العالم اللون الوردي، وأننا الإمبراطورية العالمية الوحيدة، حتى ولو اعترف

الاستعماريون الأذكياء بأن قبضتنا مقيدة أكثر من سلطتنا وقوتنا. لكن بشرة البريطانيين كانت ما تزال بيضاء نقية. في عام ١٩٣٣، كان من الأسهل بكثير رؤية الوجوه السمراء في شوارع باريس منها في شوارع لندن، وفيما عدا فيرا سوامي في غرب لندن، غابت المطاعم الهندية فعلا عن لندن. وفي الحقيقة، كان الأجانب من أي جنس قلة نادرة، نظرا لأن بريطانيا لم تكن مركز السياحة العالمية، وعلى أية حال كان حجم السياحة صغيرا جدا بمعايير هذه الأيام.

هتلر والحرب وحدهما سيجلبان إلى بريطانيا عددا متواضعا من أوروبي القارة المنتمين إلى الطبقة الوسطى، الذين وصفت ردة فعلهم بكل حب وحنان في كتيب الهنغاري جورج مايكس "كيف تصبح غريبا". وعلى العكس من الأسطورة المحلية، بذلت البلاد ما بوسعها لمنع اللاجئين من الدخول، لكن (على النقيض من مايكس) لم يعد الجيل التالي من المهاجرين الهنغاريين ـ اللاجئين الذين قدموا بين عامي ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧، يفكرون بوصف بريطانيا بالبلد الذي تحل فيه "أكياس الماء الساخن" في الفراش محل الجنس. الخمسينيات هي التي "ثوّرت" عادات وأعراف جيل الشباب البريطاني الجنسية والاجتماعية.

في الثلاثينات، كانت الفكرة التي تقول بأن لندن مدينة عالمية، في الأسلوب، ووسائل اللهو، والإباحية (كما أصبحت في الستينات) أمرا لا يمكن تصديقه أو تصوره. لأن العلاقة الجنسية بين الرجال والنساء مكانها باريس، أو الريفيرا الفرنسية، أما العلاقة الجنسية المثلية فمكانها برلين ـ على الأقل حتى ظهور هتلر. وبالنسبة للنساء، بقي المدى في المجال العام مقيدا في كافة الأحوال.

ظلت بريطانيا عام ١٩٣٣، كعهدها، جزيرة مكتفية بذاتها، تسير فيها الحياة تبعا لقواعد، وطقوس، وتقاليد شفاهية ملفقة لكن قادرة على إخضاع الناس، معظمها قواعد طبقية أو "جندرية"، إلا أنها شمولية أيضا ترتبط عادة بالطبقة العليا. النشيد الوطني كان يعزف في نهاية كل مسرحية وفيلم سينمائي ويقف الناس احتراما له قبل أن يعودوا إلى منازلهم. في أي مكان تكون فيه، يجب أن تتوقف عن الكلام خلال "دقيقتي الصمت" في ذكرى "يوم الهدنة" في الحادي عشر من تشرين الثاني/نوفمبر. اللكنة "الصحيحة" تربط الطبقات العليا معا (وتقصي "حديثي النعمة" الذين يمكن

تميـيزهم مـن خلالهـا) وتضـمـن السـلـوك الذي يميزها عن أفراد الطبقات الدنيـا الواعين أو غير الواعين بطبقتهم، على الأقل في العلن.

كانت هذه الأمور واضحة لا لبس فيها في الثلاثينيات. لكن بالطبع لم نكن نتوقع أن تنطبق على الجانب الآخر من البحار التي تفصلنا عن الأجانب. كانت بريطانيا جزيرة منعـزلة بكل المعـانـي. فـحين طلب طبـيب يهـودي لاجئ من الشـريحـة العليـا للطبـقـة الوسطى الأذن بالدخول للعمل كخادم في المنازل (وهو الخيـار المتاح الوحيد) وعرض العمل كرئيس للخدم، رفض موظف الهجرة والجوازات في السفارة البريطانية بباريس إعطاءه الأذن دون أن يتـردد لحظة واحـدة، حـتى وإن كـانت هناك دوافع إنسـانيـة. فـقـد كتب يقول: "هذا سخف لأن كبير الخدم يحتاج إلى خبرة تمتد طيلة العمر" [1] إذ لم يكن ليتخيل كبير خدم من غير البريطانيين.

لكن تبعـا للمعـايير الأوروبيـة، ظلت بريطانيـا تعـتبر دولة غنيـة، ومـتقـدمـة تقنيـا واقتصاديا، ومجهزة تجهيزا جيدا، حتى وإن كانت باريس بالنسبة لمراهق يفتقر إلى المال الكافي أكثر بهجة وإمتاعا دون شك. فمقاعد القطارات ومترو الأنفاق منجدة ومريحة حتى في الدرجة الثـالثـة، والمطبات والحفر نادرة في شوارعـهـا المعـبدة، بل حـتى في طرقها الريفيـة الفرعيـة. والبيـوت الصغيرة الجديدة التي تسكنها العائلات البريطانيـة مجهزة بالحمامات ودورات الميـاه وتحيط بها حدائقها الخاصة، ويتضاعـف عددها ليصل إلى عـشرات الألوف في ضواحي المدن الكبيـرة، حيث لم يقر حتى الآن سوى قلة من الناس بأن ذلك يمثل ازدهارا رئيسيـا في البناء والإعمار. ولم يقتـصر الأمر أيضا على مجرد امتلاك معظم الأغنيـاء سيارات، وغالبيـة الفقراء أجهزة راديـو. من جهة أخرى، كانت التـوقعات والآمال المادية متدنية، ولم يمد معظم البريطانيين رؤوسهم خارج المجال الذي كان يصرف فيـه الدخل بشكل رئيسي على ضروريات الحيـاة المتواضعة، مثلما اكتشفت بنفسي حين عشنا لفترة وجيزة في حي الطبقة الوسطى التي يمتلك أفرادها السيـارات ويشربون "الكوكتيلات" في كـانون بارك في ادجوير. كانت بريطانيـا بعيدة كل البعد عن المجتمع الاستهلاكي الحديث، خصوصا بالنسبة للشباب من المراهقين. ولم

1 - Louise London, Whitehall and the Jews 1933-1948: British Immigration Policy and the Holocaust (Cambridge, 2001), cited in Neal Ascherson, 'The Remains of der Tag', New York Review of Books, 29 March 2001, p. 44.

يمتلك هؤلاء المال لإنفاقه إلا في الخمسينيات بعد أن دخلوا سوق العمل بصورة كاملة وأصبح بمقدور أهلهم الاستغناء عن مساهماتهم المالية في ميزانية الأسرة. لحسن الحظ، كانت أكثر الوسائل المترفة توفرا لطبقة المثقفين الناشئة رخيصة أيضا: الأفلام السينمائية، التي تقدم في دور عرض تزداد انتشارا واتساعا باطراد، والكتب، "المستعملة"، بأغلفتها الورقية ـ الإصدارات الجديدة من بنغوين بسعر ستة بنسات للنسخة ـ التي كانت أحيانا توزع مجانا مع الصحف الجماهيرية التي تنافست لتجاوز رقم المليوني عدد. ما زالت لدي نسخة من "مجموعة مسرحيات" برنارد شو، التي حصلت عليها من خلال شراء ستة أعداد من صحيفة حزب العمال "ديلي هيرالد" التي فازت لفترة وجيزة بالسبق (تحولت في مسار التاريخ البريطاني في القرن العشرين إلى صحيفة إثارة "صن"، ولا يرجح أن يزيد توزيعها من خلال تقديم الأدب الكلاسيكي للقارئ). حتى وسائل المواصلات التي تحررنا من قيود المكان كانت رخيصة، وإن التزمنا أو التزم أهلنا بالنصيحة التي قدمتها إحدى الملصقات الدعائية على الباصات ذات الطابقين في لندن: "انزل من هذا الباص. لن تملكه أبدا. فمبلغ بنسين في اليوم سوف تشتري دراجة". في الحقيقة لن تتمكن أبدا من شراء دراجة بالأقساط الأسبوعية، أما بالنسبة لحالتي، فقد كانت دراجة جديدة من طراز رودج ـ وايتورث تكلف مبلغا يتراوح بين خمسة وستة جنيهات. وإذا اعتبرنا الحركة الجسدية شرطا ضروريا للحرية، فقد كانت الدراجة على الأرجح أعظم آلة، للوصول إلى ما دعاه ماركس "التحقيق الكامل لاحتمالات الكينونة الإنسانية"، اخترعت منذ مطبعة غوتنبرغ، والوحيدة التي لا توقفها العوائق. ولأن الدراجين يسافرون بسرعة ردود الفعل البشرية، ولا تعزلهم ألواح الزجاج عن نور، وهواء، وصوت، ورائحة الطبيعة، لم يكن ثمة وسيلة أفضل في الثلاثينيات ـ قبل تفجر أزمة المرور في الشوارع ـ لاستكشاف بلد متوسط الحجم يتمتع بمشاهد ومناظر تدهش في روعتها وتنوعها. مع دراجة، وخيمة، وموقد محمول، وقطعة من الشوكولاته "مارس"، (التي يلفظها ابن عمي بالفرنسية "مار")، اكتشفت أنا وابن عمي روني أجزاء واسعة من الأماكن الجميلة المتمدنة في جنوب انكلترا، إضافة إلى تلك "الضارية" في شمال ويلز خلال إحدى الرحلات الشتائية التي لا تنسى، (بعد حوالي ستين سنة، عادت إلى الحياة ذكرى تلك الرحلات البعيدة

على الدراجات حين كانت زوادتنا عبارة عن قطع من شوكولا "مارس"، من خلال العرض المفاجئ الذي وصلني من الرجل ذاته في لاس فيغاس، فوريست. ب. مارس، صاحب أكبر شركة خاصة في العالم، الذي كان آنذاك في الثمانينيات من العمر، لمساعدته في شرح أفكاره المتعلقة بالعالم إلى الجمهور الأوسع. اعتذرت عن قبول العرض بأدب. ويبدو أن امرأة شابة مجدة من معارفه قد اقترحت عليه هذا التعاون الفريد بين صاحب مشروع تجاري خاص يعتبر نموذجا للقوة والثبات وبين مؤرخ ماركسي!).

كيف يمكن لمراهق مهاجر أن يتكيف عام ١٩٣٣ مع هذه البلاد الغريبة، التي كانت وطنه أيضا؟ لقد أتيت إليها بشكل يشابه بطريقة ما "أليس في بلاد العجائب"، عبر بضعة أبواب وممرات ضيقة فتحتها لي العائلة، وخصوصا أبناء العمومة الذين كانوا أيضا أصدقائي المقربين، والوحيدين.

بحلول ذلك الوقت تقلص عدد أفراد العائلة الإنكليزية، فقد توفي ديفيد وروز اوبزتبوم، اللذان قدما لأول مرة إلى لندن في سبعينيات القرن التاسع عشر، واكتسب الاسم العائلي لهما حرف "الهاء" من لهجة ضابط الهجرة اللندنية (الكوكنية) بدون شك، وكذلك ثلاثة من أبنائهما الثمانية: لو (ممثل جوال في القرى)، فيل (عمل في تجارة العائلة في مجال المصنوعات الخشبية)، ووالدي. (إحدى بنات ديفيد من زواجه الأول، عمتي ميلي غولدبيرغ، هاجرت منذ مدة طويلة إلى أمريكا، وهي زعيمة طائفة تتوزع الآن بين أمريكا وإسرائيل). الابن الرابع، عمي ارنست (ارون)، الذي اقنع بالأصل والدي بالانضمام إليه في مصر حيث عمل في مصلحة البريد والبرق، توفي بعد مدة قصيرة من وصولنا، وسط النياشين والتذكارات النحاسية والحكايا التي تذكر بحياته بالشرق. خلّف أرملة بلجيكية كاثوليكية، تفوقت عليه في كسب الرزق، وبنتين جميلتين جذبتا انتباه أبناء العمومة الذكور. العم بيركوود (ايك)، تزوج بامرأة ويلزية ورزق خمسة أبناء، واستقر في تشيلي منذ زمن طويل، لكن ظل على اتصال بالعائلة. بقيت العمة سيسي (سارا)، معلمة المدرسة المتزوجة من رجل غائب على الدوام "في رحلة عمل"، والعم هاري، دعامة الأسرة التي لا تتزعزع. ولو تمثل السبب في أنه الوحيد من بين أفرادها الذي يقبض راتبا ثابتا وإن كان متواضعا يبلغ أربعة جنيهات

في الأسبوع كمرسل للبرقيات في مكتب البريد، حيث بقي هناك طيلة حياته فيما عدا سنوات الحرب العظمى. خدم في خطوط الدفاع عن ايبرس، وثم في الجبهة الإيطالية، بعد أن ساعده الحظ على النجاة بحياته. بعد ذلك عمل مستشارا لحزب العمال في بادينغتون، وأصبح في النهاية أول محافظ عمالي لها. وصل آل هويزبوم كعائلة من الحرفيين الفقراء. وتجاوزت العائلة تخوم العناوين الأولى التي سجلت محل إقامتها في وايت شابل، سبتيال فيلد، وشورديتش، لكن ليس بمسافة بعيدة. فقد ظلت متمسكة بعناد بالسفوح الدنيا من الهرم الاجتماعي.

لكن العالم الاجتماعي الذي اشتغلت فيه غطى جزءا كبيرا ونمطيا من إنكلترا؛ بدءا بدروس تعليم الرقص التي تديرها ابنة عمتي روزالي (ابنة سيسي)، إضافة إلى "الخطابة"، أي تعليم التحدث بلكنة الطبقة البرجوازية لبنات الأمهات الطامحات في ضاحية سيدنهام، مرورا بالمحيط العمالي للمستشار هاري هويزبوم في شمال بادنغتون، وانتهاء بالمجال الاجتماعي المبتذل المشكّل ذاتيا للمثقفين وفناني المستقبل الذي تحرك داخله أبناء عمي، عالم اللقاءات في المقاهي ("ليونز"، "ايه.بي.سي")، والمناقشات الجماعية، والدروس المسائية، وتلك المؤسسة المدهشة المتمثلة في المكتبة العمومية المجانية وغرفة المطالعة. ذلك هو العالم الذي صمم له الان لين عام ١٩٣٦ السلسلة العظيمة من الكتب الزهيدة الثمن التي تعين المرء على تثقيف الذات، "بنغوين"، أو بالأحرى قسمها الفكري (سلسلة كتب "بليكان")، إضافة إلى "نادي الكتاب اليساري" لفيكتور غولانستش، الذي نشر فيه ابن عمي روبي (روبن اوزبورن ابن فيليب) أول مساهمة للأسرة في أدب اليسار: "فرويد وماركس".

من خلال هذا العالم، تعرفت على المشهد البريطاني خارج إطار الأسرة والمدرسة، جرى ذلك جزئيا عبر دينيس (ابن سيسي)، وهوشاب داكن البشرة، أنيق اللباس (ضمن حدود قدرته المالية)، اعتاد أن يقضم أظافره باستمرار. ترك دينيس المدرسة، وانخرط منذ أواسط الثلاثينات في عمل غير واضح المعالم في مجال الموسيقى، والمسرح، ووسائل الترفيه الشعبية الرخيصة. لكن الجزء الأكبر من معرفتي بالمشهد الثقافي البريطاني أتى من ابن عمي روني (ابن هاري)، الذي كان شابا نحيلا ضئيل الجسم لكن قوي البنية، يحمل ملامح اليهود النمطية، أقام حتى ذلك الحين مع والديه في

مايدا فيل، يدفعه الولع الذي تملكه طيلة عمره بالبحر، بعد أن خدم في البحرية خلال الحرب وعمل بحارا على سفن صغيرة. لكن عندما أتيت إلى إنكلترا كان يعمل في وظيفة وضيعة في متحف التاريخ الطبيعي، الذي كان آنئذ موئلا لخليط متنوع من المفكرين الشعبيين والبوهيميين، بينما كان يدرس في المساء في مدرسة تقنية تؤهله للنجاح في امتحان الثانوية العامة. تابع دراسته في مدرسة لندن للاقتصاد، الأمر الذي سيسمح له بترقي سلم الخدمة المدنية في الدولة ـ كموظف ـ للوصول إلى قمة الدرجة الإدارية في وزارة العمل.

رفضت إقامة صلات مع البرجوازية الصغيرة في الضواحي، وكان من الطبيعي أن أنظر إليها بازدراء. ونظرا لأنها تحت هيمنة الإصلاحيين من الديمقراطيين الاجتماعيين، كان من الطبيعي أيضا أن أجد الحركة العمالية، ممثلة في عمي هاري، وحتى في ابنه الذي يجنح نحو اليسار، مخيبة للآمال، لكن محيرة أيضا. فعلى عكس الديمقراطيين الاجتماعيين الألمان، لا يمكن ببساطة إدانتها على طول الخط. وبالرغم من أن هاري كان مؤيدا مخلصا لحزب العمال يدافع عنه ضد الهجمات القاسية من جانب المحافظين، إلا أنه يشارك الحركة العمالية البريطانية (ربما فيما عدا أولئك الذين يتأثرون بشكل مباشر بالكنيسة الكاثوليكية) في الافتراض القائل بأن روسيا السوفييتية، مهما قلت في معايبها، تظل دولة للعمال رغم كل شيء. وعلى شاكلة معظم الناشطين العماليين والنقابيين، أعلن رفضه للشيوعيين، لكن رأى أنهم بالأساس يشاركون العماليين نفس التوجه، علاوة على ذلك، لم يكن بمقدوري إنكار حقيقة أن قلة قليلة فقط من زعماء حزب العمال قد باعوا أنفسهم للبرجوازية عام ١٩٣١ (على العكس من الديمقراطيين الاجتماعيين الألمان)، حين انضم رئيس الوزراء العمالي رمزي مكدونالد واثنان من زملائه إلى المحافظين عام ١٩٢٩ فيما دعي آنذاك بـ "حكومة الوحدة الوطنية"، التي ظلت في الحكم حتى سقوط نيفيل تشمبرلين عام ١٩٤٠, كيف يمكن للمرء اعتبار غالبية الحزب المعادية بحماس لمكدونالد، التي تقلصت إلى أقلية لا يمثلها سوى خمسين نائبا تقريبا في مجلس العموم، باعتبارها قد خانت طبقتها بأي معنى من المعاني؟

من ناحية أخرى، وعلى ضوء الإضراب العام سنة ١٩٢٦، لم تناسب الحركة العمالية ببساطة رؤيتي المثالية لـ"البروليتاريا" (الثورية). كان الأمر محيرا، فالمشهد

البريطاني شابه آنذاك ما يحدث في المانيا، وهزته الزلازل الاقتصادية والسياسية التي أفرزتها أزمة عام ١٩٢٩، تزعزعت السياسة البريطانية أيضا وظهرت تغيرات راديكالية على اليمين واليسار كليهما، شملت بروز حركة القمصان السوداء الفاشية التي بدت أنها تمثل تهديدا وطنيا خطيرا في فترة ما. لكن بالرغم من أن البنية قد اهتزت قليلا، إلا أنها لم تبدُ، ولم تكن في الحقيقة، على وشك الانهيار. وعند الحكم من بريطانيا، فإن الثورة العالمية ستأخذ وقتا أطول بكثير مما يظنه المرء. ونظرا لأنني، تبعا لمذكراتي، لم أتوقع بلوغ الأربعين (في عمر السابعة عشرة تبدو حتى هذه السن بعيدة جدا)، فلربما لن أراها. لكن بحلول ذلك الوقت كان "الكومنترن" نفسه على وشك اكتشاف حقيقة أنه لن تكون هناك ثورة قبل الانتصار في المعركة ضد الفاشية والحرب العالمية.

III

قد يبدو من الغريب ألا أذكر شيئا حتى الآن عن المؤسسة التعليمية التي انتسبت إليها لحظة وصولي إلى إنكلترا حتى انتقالي منها إلى كامبريدج بعد ثلاث سنين، حيث بقيت فيها مدة أطول من أية مدرسة أخرى في أي بلد، وهي مدرسة "سنت ماريلبون"، على زاوية شارع ماريلبون وليسون غروف في وسط لندن. كانت أيضا مدرسة ابن عمي روني القديمة، وعلى شاكلة "ثانوية برنز هاينريش"، لم تعد موجودة الآن، لكنها لم تدمر بقنابل العدو، بل بالأيديولوجيا التي سادت في السبعينات، التي كانت حقبة سيئة بالنسبة للتعليم الثانوي. إذ رفضت إدارتها الخيار الذي قدم لها ـ بالتحول إلى مدرسة غير انتقائية تقبل كافة المتقدمين، أو أن تصبح مدرسة خاصة ـ وبالتالي أغلقت أبوابها. لقد قدمت أفضل تعليم متوفر في إنكلترا في الثلاثينات، وأدين بفضل كبير لمدرسيها. لكن لأسباب ما تزال تحيرني، لم تسهم كثيرا في فهمي لإنكلترا، اللهم فيما عدا اكتشافي أنه على العكس من المدرسين في برلين، تمتع كل مدرسي "سنت ماريلبون" بروح الدعابة (دونت في مفكرتي ملاحظة خاصة بذلك). وما أدهشني آنذاك هو أن المدرسين في المدارس الثانوية البريطانية قد ينتمون اجتماعيا، لكن ليس فكريا، إلى عالم الجامعات. وعلى العكس من أولئك الذين علموني أفضل تعليم في المدارس

الألمانية أو الفرنسية أو الإيطالية، لم يكن هؤلاء إلا في حالات نادرة جدا من الباحثين، والمتخصصين، والأكاديميين المستقبليين. لقد تواجدوا في عالم منعزل ضمن إطار التعليم المدرسي.

الأمر المفاجئ أكثر أنني لم أوطد أواصر أية صداقات جدية خلال السنوات الثلاث هناك، وفي حكم المؤكد تقريبا أن الهوة التاريخية التي تفصل بين بلدي القديم والجديد كانت شديدة الاتساع. فتبعا لمعايير برلين عام ١٩٣٢، بدت لندن انتكاسة وردة إلى الوراء. ولم يكن هناك من سبيل لمتابعة الأحاديث والمناقشات التي دارت في "ثانوية برنز هاينريش" بين عامي ١٩٣١-١٩٣٣، في شارع ماريلبون بين عامي ١٩٣٣-١٩٣٦ . وفيما عدا المناقشات مع ابن عمي روني الذي كان طالبا جامعيا، لم أتابع هذه المناقشات إلا بعد دخولي جامعة كامبريدج. لربما يكون ذلك أحد الأسباب التي جعلتني طيلة أول سنتين أقلل من شأن التغيرات الرديكالية المتواضعة، لكن الحقيقية، التي أصابت عددا من زملائي الطلاب. وتبعا لمفكرتي، تمثل السبب الآخر في مجرد الغرور والتكبر. فقد تصورت أنني على نفس المستوى الفكري للمدرسين ومتفوقا على البقية. ولم تجذبني الطموحات الاجتماعية للمدرسة، وهي عبارة عن نسخة كاريكاتورية عن "المدرسة العمومية" البرجوازية (غير الداخلية) - زي رسمي إجباري، قبعة مدرسية، تلاميذ مفوضون (بمساعدة المدرسين في حفظ النظام)، "بيوت" متنافسة، عبارات أخلاقية منمقة وخطابية، وسواها، وفعلت ما بوسعي لأؤكد معارضتي لكل ذلك. إدارة المدرسة من جانبها لم تكن تعرف ما تفعله بهذا الطالب غير المنضبط تماما والقادم من وسط أوروبا، الذي يجهل قواعد الكريكيت والرغبي، ولا يبدي أي اهتمام باللعبتين كلتيهما، لكنه كبير في العمر بحيث يصعب تجاهله عند تعيين الطلاب المفوضين آجلا أو عاجلا، وعلى درجة متقدمة من الثقافة والذكاء بحيث يصعب منعه من تحرير مجلة الحائط، "العالم اللغوي". في المجلة، ظهرت بين تقارير الأحداث الرياضية أولى كتاباتي المطبوعة، التي نسيتها جميعا فيما عدا مقالة نقدية مطولة عن "معرض لندن للفن السوريالي" عام ١٩٣٦، حيث أمضيت مع أحد العارضين فيه عدة أمسيات اجتماعية في باريس في وقت لاحق من تلك السنة. وسرعان ما تبين للمدرسة أن الامتحان كان سهلا جدا بالنسبة لي، وربما امتلك فرصة طيبة للحصول على منحة للدراسة في الجامعة.

ما جعلني أروض نفسي على طموحات المدرسة هذه ونوعية المدرسين، وخصوصا إخلاصهم لمهنتهم، بدءا من المدير فيليب واين (الذي ترجم فيما بعد "فاوست" لغوتة لصالح دار "بنغوين" للنشر)، والذي أعلن عند أول لقاء بيننا عن أسفه لأن المدرسة لن تعلمني سوى اللاتينية وليس اليونانية، ودس في يدي كتاب الفيلسوف إيمانويل كانط، ومجموعة مختارة من مقالات وليام هازليت، بدلا من ذلك.

مدرسة فقه اللغة تأسست في تسعينات القرن الثامن عشر لأبناء العائلات المتواضعة لكن الطامحة في حي ماريلبون، واستمرت (في نهاية المطاف أصبحت تحت إدارة مجلس لندن الإقليمي) كمدرسة ثانوية تركز على تدريس اللاتينية واليونانية، وتوفر نوعية من التعليم الذي تحتاجه الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى، التي لا يتوقع أبناؤها أبدا أن يتجاوزا التعليم الثانوي أو يتركوا أثرا لهم في العالم. ولحسن حظ جيل أبنائها الذين بدؤوا دخول الجامعات في الثلاثينات، لم يكن ذلك ثاني أفضل تعليم بأي معنى من المعاني، رغم أنه بدا في بعض الأحيان وكأنه يأتي إلينا كهدية طوعية معتمدة من أولئك الراسخين عند القمة إلى المستحقين من الطبقة الاجتماعية الأدنى منزلة.

هارولد لويلين- سميث، الوسيم، الأعزب، الواسع الصلات والمعارف، ودعامة حزب الأحرار، وابن مهندس سياسة حزب العمال في بريطانيا خلال الحقبتين الإدواردية والجورجية، وقسم كبير من سياسة دولة الرعاية الاجتماعية، والذي درسني التاريخ ووجهني نحو "اكسفورد وكامبريدج"، وأصبح في نهاية المطاف مدير المدرسة، عرف بأنه خرج من أفضل طبقات المجتمع ـ وينشستر ونيوكوليج، في اكسفورد ـ وحارب ضمن صفوف الحرس الاسكتلندي. وإذا اختار التدريس في مدرسة ثانوية غير متميزة وتابعة للدولة، ولم يعرف العالمُ الخارجي من "أولاده القدامى" سوى ذلك الشاعر جيروم ك. جيروم، الذي يكتب عن مغامرة الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى اللندنية، ومؤلف كتاب "ثلاثة رجال في مركب"، فإن ذلك يعود في حكم المؤكد تقريبا إلى نفس السبب الذي جعله يعمل في أحياء الفقر في جنوب لندن. وبغض النظر عن الإثارة المصاحبة للعمل مع التلاميذ، فإن ما يدفعه إلى ذلك هو الرغبة بمساعدة المحرومين والمحتاجين. أعارني كتبه وحشد صلاته ومعارفه لصالحي، وأعلمني (وكان مصيبا في ذلك) بكيفية

التعامل مع امتحانات المنحة الدراسية في "اكسفورد وكامبريدج"، التي تعتبر كلياتهما مناسبة لي (باليول في اكسفورد، وكينغ في كامبريدج)، وحذرني بأن علي العيش هناك كالأغنياء بين السادة والنبلاء. ومن الواضح أنه لم يعتبرني أبدا كفرد ينتمي إلى هذا العالم.

كانت هناك هوة اجتماعية مماثلة تفصلنا عن أكثر المدرسين إثارة للاهتمام: شاب متخرج من قسم الأدب الإنكليزي، أتى إلى ماريلبون من كامبريدج حاملا معه لأولئك الذين يرغبون بالاستماع إليه ـ وأنا منهم بالتأكيد ـ رسالة أي. أيه. رتشارد العظيمة "النقد العملي"، إضافة إلى .اف. ار. ليفيز. قرأت بشغف كتاب "اتجاهات جديدة في الشعر الإنكليزي" الذي أعاره لي، مع طبعات لدواوين أكثر من يعجب بهم من الشعراء والتي يملكها في أعداد الصحف الخاصة، ودفعني لتسمية كلية ليفيز، دوانغ، كثالث خيار لي في امتحان المنحة الدراسية (بعد كينغ، وترنيتي بسبب وجود موريس دوب). لم تتمكن سمعة ليفيز كناقد أدبي عظيم من الانتشار في القرن العشرين، وبحلول الوقت الذي دخلت فيه كامبريدج، هدأ شغفي به، لكن لم يمارس أي أستاذ جامعي في عصره تأثيرا أكبر من تأثير ليفيز في تدريس الأدب. كان يمتلك طاقة هائلة قادرة على إلهام أجيال من معلمي المدارس في المستقبل الذين ألهموا بدورهم تلاميذهم الأذكياء. كانت الإنكليزية، بالنسبة لمستر ماكلين، مهمة صعبة يجب القيام بها. وأنا متأكد بأنه كان سيبقى مدرسا لو لم يقتل خلال الحرب، وفي حكم المؤكد أيضا أن تدريسه قد ألهمني وأثر في، إذ شعرت بأن هناك الكثير من القواسم المشتركة بيننا ـ ليس أقلها وجهه القبيح، وأنفه الضخم، وعينياه البنيتان القلقتان تحت جبهته الناتئة، وجسده الضخم الذي يفتقد الرشاقة ولا يدري ما يفعل بذراعيه وساقيه، علاوة على روحه الحساسة. يا للأسف، أشك بأنه يمكن أن يكون ماركسيا.

ظلت ماريلبون مركزي الثقافي والفكري لمدة ثلاث سنين ـ لا المدرسة فقط، بل أيضا المكتبة العامة الرائعة على بعد بضعة أمتار في مبنى البلدية لما كان حينئذ منطقة إدارية تابعة للندن، حيث أمضيت معظم أوقات الاستراحة عند الظهر في قراءة نهمة للكتب واستعارتها (رغم أنني لم استخدم المكتبة منذ ذلك الحين، إلا أن المبنى الذي تقع فيه يضم "مكتب التسجيل" حيث سأعقد فيه قراني على زوجتي مارلين عام

١٩٦٢). من المؤكد أنني لم أحصل على تعليمي من المدرسة فقط. وفي الحقيقة، فإن سنتي الدراسية الأخيرة (١٩٣٥-١٩٣٦)، لم تكن أكثر من مكان أمارس فيه مطالعاتي وقراءاتي الخاصة. لكن الفضل الذي أدين به للمدرسة يظل حاسما، ولا يقتصر ذلك على مجرد تعريفي بالعجائب المدهشة للشعر والنثر الإنكليزيين. ولولا تعليمها وتوجيهها، لما كنت أعرف كيف سيتمكن صبي لم يتلق أي نوع من التعليم في المدارس الإنكليزية من قبل، ووصل إلى هذا البلد في السادسة عشرة من العمر تقريبا، أن يحصل بعد أكثر من سنتين بقليل، على منحة دراسية كبرى في كامبريدج، وحالما يصل إلى هناك، أن يملك خيار قراءة ثلاثة مواضيع على الأقل للحصول على الدرجة الجامعية. مدرسة سنت ماريلبون هي التي ساعدتني أيضا على الانتقال من "الأرض المحايدة" التي عشت فيها مع الأسرة منذ أن تركت برلين، إلى المنطقة الأساسية للشباب: حيث الأصدقاء، والرفاق، والعلاقة الحميمة الخاصة والجمعية.

IV

ما الذي حصل فعلا لتطور ثقافة وفكر ذلك الشاب في تلك السنوات الثلاث؟ أولا، كانت قراءاتي ومطالعاتي أوسع مدى وأكثر عمومية خلال تلك الفترة، خصوصا في الأدب، مقارنة بأية فترة قبلها أو بعدها. ونظرا لأن امتحانات المدرسة الثانوية تتطلب قدرا أقل بكثير من المعرفة المتخصصة مقارنة بالجامعة، ناهيك عن الأبحاث، فإنها تترك للتلاميذ المجدين المغامرين مزيدا من الوقت نسبيا للقيام باستكشافاتهم ومطالعاتهم الخاصة - وفي ذلك العمر كان كل شيء تقريبا بحاجة للاكتشاف. علاوة على ذلك، يتطلب الصف السادس في إنكلترا بذل جهد أقل مقارنة بما يتطلبه نفس الصف في مدارس القارة، ولو تمثل السبب فقط في أن عليهم الاختيار بين الآداب والعلوم، وبالتالي إسقاط نصف المقررات المطلوبة في مدارس القارة. وبعد دخول الجامعة، لا يملك من يهتم بالحصول على الشهادة جديا الوقت المتوفر للمراهق المجد ليقرأ عن كل شيء، بسرعة، ونهم، وفضول لا حدود له. لكن ما الذي فعلته مع كل هذه القراءات؟

الجواب المختصر هو: حاولت أن أعطيها تأويلا ماركسيا، أي تفسيرا تاريخيا في الجوهر. وفيما عدا ذلك، لا يوجد الكثير مما يمكن أن يفعله مراهق شيوعي متعلم، متقد

الحماس، لكن غير منظم وغير ناشط بالضرورة. ونظرا لأن قراءاتي حين غادرت برلين لم تتجاوز "البيان الشيوعي" كثيرا - الفعل أتى قبل الكلمات - كان علي الحصول على بعض المعرفة عن الماركسية. فقد كانت "ماركسيتي"، وظلت إلى حد ما، تلك التي اكتسبتها من النصوص الوحيدة التي كانت سهلة المنال خارج مكتبات الجامعة، أي الأعمال والمختارات "للكلاسيكيات" الموزعة بانتظام والمنشورة (والمترجمة في طبعات مدعمة بإعانات مالية حكومية ضخمة) برعاية معهد ماركس - إنجلز في موسكو. ومن الغريب أنه حتى صدور كتاب ستالين "تاريخ وجيز للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي" (١٩٣٩)، الذي ضم فصلا مركزيا عن "المادية الجدلية والتاريخية"، لم تكن هناك خلاصة وافية عن العقيدة الشيوعية السوفييتية القويمة فيما يتعلق بهذه الأمور. وحين ظهر هذا الفصل، قرأته بحماس، آخذا بالاعتبار تبسيطاته البيداغوجية. كان يتصل اتصالا وثيقا بما فهمته، وما فهمه معظم المثقفين البريطانيين الماركسيين في الثلاثينات، من الماركسية. فقد كنا نحب أن نفكر بها بوصفها "علمية" بالمعنى الدارج في القرن التاسع عشر إلى حد ما. ونظرا لأن الفلسفة لم تكن جزءا مركزيا من التعليم الثانوي الإنكليزي، وذلك على العكس من المعاهد والمدارس الثانوية في القارة، لم نقارب ماركس عبر الاهتمام الفلسفي الشائع لدى نظرائنا هناك، ناهيك عن معرفتهم الفلسفية. وهذا ما ساعد على "أنكلزة" طريقة تفكيري بسرعة كبيرة. إذ إن "الماركسية الغربية"، حسب تعبير بيري أندرسون، أي ماركسية لوكاتش، ومدرسة فرانكفورت، وكورش، لم تعبر القنال إلى بريطانيا قبل الخمسينات. وقنعنا آنذاك بمعرفة أن ماركس وإنجلز قد فسرا هيغل بالطريقة الصحيحة، دون أن نزعج أنفسنا باكتشاف الأساس الذي اعتمدا عليه في ذلك بالضبط. وما جعل الماركسية عقيدة لا يمكن لأحد مقاومتها كان شموليتها، فإذا لم تقدم "المادية الديالكتيكية" "نظرية حول كل شيء"، فقد وفرت على الأقل "إطارا لكل شيء"، بحيث ربطت الطبيعية اللاعضوية والعضوية بشؤون الإنسان، كفرد وكجماعة، كما وفرت دليلا هاديا لطبيعة كافة التفاعلات في عالم من التدفق المستمر.

حين أقرأ ما كتبته في مفكرتي خلال الفترة الممتدة بين عامي ١٩٣٤-١٩٣٥، يبدو واضحا تماما أن الكاتب يحضر نفسه ليكون مؤرخا. وما كنت أحاول فعله قبل كل

شيء آخر هو تطوير وتوسيع التفسيرات التاريخية الماركسية لقراءاتي. ولكن كنت أفعل ذلك بطريقة تأكدت تقريبا بأنني ما كنت لأستخدمها لو تابعت تعليمي في القارة، "فالمفهوم المادي للتاريخ" كان بالطبع مسألة محورية بالنسبة للماركسية. لكن بريطانيا في الثلاثينات كانت واحدة من الدول النادرة التي تطورت فيها مدرسة للمؤرخين الماركسيين، وأعتقد أن السبب يعود جزئيا إلى حقيقة أن الأدب يحتل الفراغ الذي خلفه غياب الفلسفة في القسم الأدبي من الصف السادس في المدارس البريطانية. وبدأ المؤرخون البريطانيون الماركسيون في أغلب الأحوال كمفكرين شبان انتقلوا إلى التحليل التاريخي انطلاقا من/أو مدفوعين بهوى حماسي تملكهم للأدب: كريستوفر هيل، فيكتور كيرنان، ليسلي مورتون، اي. بي. تومبسون، ريموند ويليامز، وأنا. وإلا فلربما يساعد ذلك على تفسير التأثير المدهش للكاتب المعادي للماركسية اف. ار. ليفيز في العديد من الذين أصبحوا شيوعيين. وكان شيوعيو كامبريدج الذين يقرؤون بالإنكليزية يثقون به ثقة كبيرة.

تطورت الماركسية التي أعتنقها باعتبارها محاولة لفهم الآداب. أما ما ملأ عقلي آنذاك فلم يكن يتمثل في المشكلات التاريخية الكلاسيكية الواسعة النطاق للجدل التاريخي الماركسي حول التطور التاريخي ـ أي تعاقب "أنماط الإنتاج"، بل في مكان وطبيعة الفنان والفنون(الأديب والأدب، في الحقيقة) في المجتمع، أو "كيف تتصل البنية الفوقية مع القاعدة؟" بالتعبير الماركسي. في وقت ما من خريف عام ١٩٣٤، بدأت إدراك ذلك بوصفه "المشكلة"، والقلق منها، مثل كلب صغير أمام عظمة هائلة الحجم، بمساعدة الكثير من القراءات غير المنهجية في مجالي علم النفس والأنثروبولوجيا، علاوة على أصداء مطالعاتي البيولوجية، والإيكولوجية، والارتقائية لمنشورات "الكون، جمعية أصدقاء الطبيعة" في سنوات وجودي في القارة. النظرية كانت طموحة. "تمكن ماركس من التنبؤ بالنظام الاشتراكي معتمدا على التحليل الدقيق للنظام الرأسمالي. ويتوجب على التحليل الدقيق للأدب الرأسمالي، الذي يأخذ في الاعتبار كل الظروف والشروط، وكافة الصلات والعلاقات، أن يتيح لنا استخلاص نتائج مشابهة حول ثقافة البروليتاريا في المستقبل". سرعان ما توقفت عن التفكير حول مثل هذه التوقعات والتنبؤات العالمية، لكن السؤال التاريخي الذي وجهته إلى

نفسي في عمر السابعة عشرة شكل إلى الأبد عملي كمؤرخ. فما زلت أحاول "تحليل التأثيرات (الاجتماعية) التي تحدد شكل ومضمون الشعر]والأفكار بعمومية أكبر[في العصور المختلفة". لكنني تعلمت من التاريخ أكثر قليلا مما كان ضروريا، إضافة إلى القليل من "فن الفوز بالمباراة بأسلوب مريب دون خرق القواعد" (وهو تعبير لم يكن معروفا آنذاك) للنجاح بامتحان الحصول على منحة جامعة كامبريدج.

V

في بداية عام ١٩٣٦، قررت (محاذرا ـ لأنني "أعيش في القرن العشرين و.. على أية حال لا أستسلم للتفاؤل") أن أنهي كتابة المذكرات في مفكرتي التي داومت عليها لمدة سنتين تقريبا. كتبت في الصفحة الأخيرة: "لم أعد بحاجة لها بعد الآن".

الله وحده يعلم السبب. ربما لأنني فزت بمنحة كامبريدج، وإذا ما سارت الأمور على الوجه الأمثل، فإن ثلاث سنوات من الاستقلالية تكمن في انتظاري. وربما لأن السيد س.]الذي سأتعرف عليه خلال امتحان المنحة، ويصبح صديقا مدى الحياة[هو أول الأصدقاء الذين تعرفت عليهم بنفسي، وليس عن طريق الآخرين.. وربما لأن لدي الآن سنة كاملة لا شيء فيها سوى ما أقوم به من عمل]أي: إلى أن أدخل الجامعة.[ربما لأن الأمور بدت وردية في ناظري. وربما لأنني سأعيش حياة جديدة إلى حد ما.

بدا الأمر وكأنه لحظة موازنة الاحتمالات، حسبما أملت متجردا عن العواطف وخداع الذات. فعلت ذلك كما يلي:

ايريك جون ارنست هوبزبوم، شاب طويل القامة، ناحل الجسم، قبيح الوجه، أشقر الشعر، في الثامنة عشرة من العمر، سريع الفهم، مع ذخيرة معرفية معتبرة وإن تكن سطحية عموما، والعديد من الأفكار الأصيلة، العامة والنظرية. يهاجم المواقف الراسخة بعنف، وهو أمر خطر ومؤثر في بعض الأحيان، حين يقنع نفسه بالإيمان بها. لم يقع في الحب، وقد نجح نجاحا باهرا على ما يبدو في التسامي بعواطفه وأهوائه، وهو أمر ـ لا يتكرر كثيرا ـ يجد التعبير عنه في نشوة الاستمتاع بالطبيعة والفن. لا يوجد في نظره أي معنى للمبادئ الأخلاقية، وهو شديد الأنانية. يجده بعضهم مقيتا جدا، ويراه بعضهم الآخر محببا، لكنه في نظر غيرهم (الأغلبية) مثير للسخرية. يرغب بأن يكون

ثوريا، لكنه لم يظهر - حتى الآن - أي نبوغ في التنظيم. كما يريد أن يكون كاتبا، لكن بدون الطاقة والقدرة على تشكيل المادة. لا يملك الإيمان الذي يحرك الجبال، بل الأمل فقط. مزهو، ومختال، وجبان. يحب الطبيعة حبا عميقا. ونسي اللغة الألمانية.

بهذه الروح، واجهت عام ١٩٣٥، وجامعة كامبريدج.

-٧-

كامبريدج

في مجتمع مثل المجتمع الإنكليزي في النصف الأول من القرن العشرين، كان الانتقال من محيط طبقة اجتماعية إلى أخرى يعتبر شكلا من أشكال "الهجرة". ولهذا، عنى الفوز بالمنحة الدراسية في كامبريدج عام ١٩٣٥ الانتقال إلى بلد جديد غريب - بل هو غريب أكثر لأنه غير مألوف مقارنة بالبلد الذي أقمت فيه من قبل، إنما باستثناء مجال واحد: فبعد توقف دام ثلاث سنين، عدت الآن إلى السياسة والنقاشات التي أجبرت على التخلي عنها حين غادرنا برلين. وصلت إلى كامبريدج عاقد العزم على الانضمام إلى الحزب الشيوعي أخيرا والانخراط في معترك السياسة. وكما تبين لاحقا، لم أكن الوحيد في ذلك. فقد كان جيلي هو الأكثر راديكالية وتمسكا بالشيوعية في تاريخ الجامعة، وكنت أنا في المعمعة. تصادف أيضا أنني وصلت في حمأة ما كانت على الأرجح الحقبة الأكثر تميزا في تاريخ جامعة، ظلت لبضعة عقود تترادف فعلا مع أهم المنجزات العلمية البريطانية، حين نأخذ بعين الاعتبار ماضيا يضم أسماء مثل نيوتن، وداروين، وكليرك ماكسويل. لم يكن الاثنان (الجيل والحقبة) منفصلين انفصالا كليا: فترة الثلاثينات كانت إحدى الفترات القليلة التي شهدت أيضا تحول نسبة غير عادية من علماء الطبيعة البارزين إلى تبني الراديكالية السياسية منهجا ومسارا. لكن أجد لزاما علي أن أضيف بأن المنجزات العلمية التي حققتها جامعة كامبريدج في الثلاثينات استطاعت البقاء مدة أطول من تلك المتصلة بالراديكالية السياسة لطلاب الجامعة. والقليل من هذه الأخيرة قد خلف الكثير من الآثار، حتى في ذاكرة الرأي العام، اللهم فيما عدا "جماعة ثانوية" من ناتج شيوعية الثلاثينات: "جواسيس كامبريدج".

نظرا لأنني أحد الطلاب الشيوعيين البارزين في كامبريدج في النصف الثاني من عقد الثلاثينات، سوف يسأل معظم قراء هذا الكتاب الذين ينتمون إلى أجيال الحرب الباردة عما أعرفه عنهم. سوف أجيب أيضا عن هذا السؤال منذ البداية. أجل، عرفت بعضهم. لا، لم أعرف بأنهم كانوا يعملون لصالح المخابرات السوفييتية إلا بعد أن أصبح ذلك أمرا معروفا لعامة الناس. "الخمسة الكبار" (بلانت، بيرغيس، كيرنكروس، مكلين، فيلبي) انتموا إلى جيل سابق على جيلي من الطلاب، ولم يربط المعاصرون لي أيا منهم مع الحزب فيما عدا بيرغيس، الذي اعتبرناه خائنا لأنه حرص على إعلان تبنيه المزعوم لآراء اليمين حالما سقط. لم أعرف أيا منهم معرفة شخصية قبل الحرب، بينما كانت لي علاقات عابرة مع بلانت وبيرغيس فقط بعد عام ١٩٤٥ . ما عرفته عنهم لم يأت من خلال السياسة بل عبر "الرسل" (انظر الفصل ١١)، أو الأصدقاء الشاذين جنسيا، أو الباقين من مؤسسة "اوكسبريدج" (كليات اكسفورد وكامبريدج) في فترة ما بين الحربين مثل إزايا برلين، الذي كان ولعه بالحديث والثرثرة عن الأشخاص الذين عرفهم لا يقاوم. أذكر بيرغيس فقط من خلال حفلتي عشاء سنويتين لـ"الرسل" - الأولى التي ترأسها عام ١٩٤٨ في نادي السيارات الملكي (موقع مناسب غريب!)، سجلت في مذكرات مايكل سترايت، الذي حاول بلانت تجنيده لصالح السوفييت[1]. والأخرى نظمتها أنا في أواخر الخمسينات في مطعم برتغالي أغلق أبوابه بعد فترة وجيزة (يقع في شارع فريث، في حي سوهو)، حيث أرسلت له دعوة لحضورها، وأنا أعرف حنينه إلى إنكلترا، موجهة إلى: "غاي بيرغيس، موسكو". أذكر المناسبة الأولى لأن بيرغيس طلب منا موافقته الرأي بأن عضوية "الرسل" لا تناسب الكاثوليك، لأن التزامهم بعقدية الكنيسة الدوغمائية يحول بينهم وبين الانفتاح الفكري وهو أمر جوهري بالنسبة للجماعة. وأتذكر الثانية لأنه أيقظني في الصباح الباكر في أحد الأيام حين اتصل هاتفيا من موسكو إلى بلومزبري، ليعلن أسفه لعدم قدرته على حضور الحفلة، وأفترض أن من المؤكد تماما أن هاتفي أصبح مراقبا منذ الآن فصاعدا. ساعدت رسالته على نجاح الحفلة نجاحا كبيرا. ولو أني عرفت أنتوني بلانت معرفة جيدة، لما ارتكبت تلك الغلطة الفظة التي مازلت نادما عليها. فحين وجدت نفسي أقف إلى

1 - Michael Straight, After Long Silence (London, 1938).

جانبه في الحانة في حفلة عشاء أخرى في سوهو، بعد وقت قصير من هرب بيرغيس ومكلين، وتفوهت ببعض الملاحظات اللاذعة والانتقادية، لم يكن لدي أدنى فكرة عن الروابط الوجدانية الوثيقة بينه وبين غاي بيرغيس. لا بد أن كلماتي جرحته، لكن كيف يمكن للمرء أن يعرف؟ فذاك الوجه النحيل، الوسيم، المتكبر قليلا، لم يعبر عن أية عاطفة لم يرغب بإظهارها. وتبعا للسوفييتي الذي كان يتعامل معه، كان من أقسى وأصلب أفراد المجموعة. وتمتع بقدرة لا ترحم على ضبط النفس، بحيث أمضى اليوم الذي افتضح فيه أمره في منزل صديق يصحح بكل هدوء البروفات الطباعية والصحفيون والمصورون يحاصرونه من كل حدب وصوب.

عرفت معظم أولئك المعاصرين لي في الجامعة الذين أصبحوا عملاء للسوفييت باعتبارهم من الأعضاء الناشطين في حزب الطلاب، الأمر الذي يجعله واثقا بنسبة ٩٩٪ بأنهم لم يجندوا بعد للعمل الذي كان حسب العرف العام منفصلا تماما عن الأنشطة العلنية لحزب سياسي مشروع، ولو اكتشف لاعتبر أنه مشين. علمنا بأن هذا العمل يسير على قدم وساق، وعرفنا بأنه لا يفترض بنا أن نطرح الأسئلة حوله، وكنا نحترم أولئك الذين يقومون به، ومعظمنا - وبالتأكيد أنا - سيتحملون مسؤوليته لو طلب منهم ذلك. فخطوط الولاء في الثلاثينات لم تكن تمر بين الدول بل عبرها (*).

بعد هذه الفاصل التمهيدي الوجيز، دعونا نعود إلى كامبريدج في الثلاثينات. من الضروري أولا فهم كيف اختلفت الجامعة آنئذ عن وضعها الحالي، بالرغم من كل مظاهر الاستمرارية الظاهرة.

ارتبطت بكامبريدج منذ أن ذهبت إليها أول مرة لأداء امتحان المنحة الدراسية عام ١٩٣٥، أو بالأحرى بكلية "كينغ"، لأن الجامعة صممت على وضعي على مبعدة مسافة منها (بغض النظر عن الترتيبات التي أعدتها لي لنيل درجتي البكالوريوس والدكتوراه). من ناحية أخرى، لم تنقطع صلاتي بكلية "كينغ". إذ لم يمض علي وقت،

(*) "الخطوط الفاصلة بين القوى المعادية والمؤيدة للفاشية تعبر كل مجتمع من المجتمعات .
لا توجد حقبة كان فيها الحماس الوطني ، بمعنى الولاء الآلي لحكومة المواطن الوطنية ، قليل الأهمية . فحين انتهت الحرب العالمية الثانية ، كانت حكومات عشر من الدول الأوروبية القديمة على أقل تقدير يترأسها رجال كانوا في بدايتها (أو في حالة إسبانيا ، في بدء الحرب الأهلية) من الثوار ، أو من المنفيين السياسيين ، أو على الأقل اعتبروا حكوماتهم لا أخلاقية ولا شرعية" ، ايريك هوبزبوم ، "عصر النهايات القصوى" (لندن ، ١٩٩٥) ، ص١٤٤ .

لا في آناء الليل ولا في أطراف النهار، ولم يمر فصل من فصول السنة، ولا مرحلة من حياتي منذ عام ١٩٣٥، دون أن أنظر من فوق الجسر المحدب على نهر كام، وعبر المدى الممتد للمرج الخلفي العظيم، إلى التوليفة الاستثنائية الغريبة للمشهد الخلفي الكئيب لمبنى الكاتدرائية المشيد على الطراز القوطي، والذي لا يقدم أية إشارة تلمح إلى الأعاجيب الكامنة داخله، إضافة إلى روعة مبنى غيبس الذي يعود إلى القرن الثامن عشر: ودائما مع نفس شهقة الاندهاش التي أطلقتها أول مرة. قلة من الناس كانت محظوظة مثلي.

بالنسبة للشبان الذين نجحوا في كل فصولهم الدراسية داخل الكلية، مثل طلاب كلية كينغ، كانت كامبريدج تشبه الاستمتاع بصحبة مستمرة ومحسودة مع النساء اللاتي يثرن الإعجاب عالميا - يمكنك القول إن الأمر يشبه الذهاب إلى الحفلات التي يقيمها المرء مع "بريمافيرا" بوتشيللي (جانب السكن من حياة الكلية في الثلاثينات - استخدام غرفة الخدم لقضاء الحاجة نظرا لبعد الحمامات ودورات المياه - قد يكون أقل إثارة وتأثيرا). لكن حتى غالبية الطلاب الذين أمضوا على الأقل جزءا من سنواتهم في مهاجع بعيدة داخل مساكن مشيدة على الطراز الفيكتوري، لا يمكنهم تفادي تأثير القوة المجردة لسبعة قرون من التدريس والتعليم في كامبريدج. كل شيء كان مصمما ليحولنا إلى أعمدة راسخة لتراث يرجع إلى القرن الثالث عشر، رغم أن بعضا من أقدم التعبيرات عنه على ما يبدو، مثل "مهرجان الدروس والترانيم" عشية عيد الميلاد في كنيسة كلية كينغ، قد ابتكرت في الحقيقة قبل بضع سنين من دخولي الكلية (بعد سنوات عديدة سوف يدفع ذلك إلى عقد مؤتمر وإصدار كتاب حول "ابتكار التراث")[1]. كان الطلاب يرتدون عباءاتهم السوداء القصيرة عند الذهاب للمحاضرات والالتقاء بالمشرفين، إضافة إلى موائد العشاء الجماعي الإلزامي في قاعات الكلية، مع اعتمار القبعة كلما خرجوا إلى الشارع بعد حلول الظلام، تحت إشراف مراقبين بالعباءات والقبعات أيضا، بمساعدة "مرافقيهم". أما المدرسون فيدخلون قاعات المحاضرات بعباءاتهم الطويلة الفضفاضة، في حين تربض القبعة المربعة على رؤوسهم بدقة

1 - E. Hobsbawm and T. H. Ranger (eds.), The Invention of Tradition (Cambridge University Press, in the 'Past & Present' series, 1938).

متناهية[1]. بعض الطلاب المختارين كانوا يرددون صلاة المائدة باللاتينية أمام حشد الطلاب الآخرين الواقفين قبل تناول العشاء وتلقي الدروس وتلاوة فصول الكتاب المقدس في الكنيسة القديمة (قرأت، دون أن آخذ ما أقول على محمل الجد، فقرة من كتاب "أموس" بناء على طلب من كاهن كنيسة كلية كينغ، وهو أقرب الأشياء إلى المبشر البولشفي المقاتل في العهد القديم). وعلى شاكلة ماضي الحياة العامة البريطانية بملابسه التنكرية الاحتفالية، لم يكن ماضي جامعة كامبريدج تعاقبا زمنيا مرتبا بالطبع، لكنه خلطة فوضوية متزامنة من آثاره التذكارية الباقية. وكان من المفروض بأمجاد ومفاخر واستمرارية سبعة قرون أن تؤثر فينا وتلهمنا، وتؤكد وتثبت لنا تفوقنا، وتحذرنا من مغبة إغراءات التغيير الذي يفتقد التروي والتفكير الصائب (في عام ١٩٣٥، فشلت الأمجاد والمفاخر والاستمرارية فشلا ذريعا في تلك المهمة). أما الإسهام الرئيس لجامعة كامبريدج في النظرية والممارسة السياسيتين، كما وصفه بذكاء لماح الكاتب الكلاسيكي اف. ام. كرونفورد في كتيبه النقدي الساخر "مايكروسوموغرافيا اكاديميكا" (١٩٠٨)، فكان "مبدأ الزمن غير المناسب". ومهما كان الاقتراح المقدم، فإن الوقت للتنفيذ لم يأزف بعد! وتعزز بقوة بمبدأ "الانحباس بين شقي الإسفين". بالطبع، كنا نحن الطلاب نعيش حياة أبعد ما تكون في مستواها عن حياة الأساتذة وأولئك الذين يعملون على تفعيل مثل هذه المبادئ، لكن الطلاب الذي أصبحوا أساتذة بعد التخرج سرعان ما اكتشفوا قوتها.

تغيرت كامبريدج تغيرا عميقا منذ الخمسينات بحيث يصعب فهم مدى انعزال ومحدودية الجامعة في الثلاثينات، حتى من الناحية الأكاديمية - وذلك بغض النظر عن تميزها الفذ على المستويين الوطني والعالمي في العلوم الطبيعية. وباستثناء علم الاقتصاد الذي وصل فيها إلى مرتبة عالمية، فقد رفضت الاعتراف بالعلوم الاجتماعية. أما موادها الأدبية فهي "مرقعة" ومكونة من أجزاء مختلطة ومتباينة في أفضل الأحوال. ومهما بدا الأمر بعيدا عن التصديق، فإن معظم كليات الجامعة، فيما عدا كليات العلوم الطبيعية، لم تبد اهتماما كبيرا بالبحث العلمي، ولا أي اهتمام على

١- أستشهد هنا بما كتبته عام ١٩٣٧ حول مدرس الأدب الإنكليزي الشهير جورج ("دادي") ريلاندز ("غرانتا"، ١٠/١١/١٩٣٧).

الإطلاق بالدرجات الجامعية العليا، مثل شهادات الدكتوراه، التي كانت تعتبر في أفضل الحالات خصوصية جرمانية، أو على الأرجح محلا لتفاخر الشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى. وحتى في الفترة التي سبقت اندلاع الحرب مباشرة، لم تكن كامبريدج تضم سوى أقل من ٤٠٠ طالب من الباحثين [١]. وبقيت في الجوهر مؤسسة تعليمية راقية للطلاب الأثرياء، ولعدد أقل من الطالبات، الذين يتبنون معيارا مزدوجا. صحيح أن الحصول على الشهادة الجامعية من الدرجة الأولى من كامبريدج، كان في الحقيقة أمرا بالغ الصعوبة، لكن كان من الأصعب عدم الحصول على أية شهادة على الإطلاق من هناك، حيث جرى عمليا منح "شهادات" تخرج، أو حتى المرتبة الدنيا من درجة الامتياز من الطبقة الثالثة لمن هب ودب من الطلاب. أتذكر مناقشة دارت في أوائل الخمسينات عند اجتماع الأساتذة الممتحنين في امتحان درجة الشرف في الاقتصاد - كنت أفحص الطلاب في مواد التاريخ الاقتصادي عندما عملت محاضرا لبضع سنين - حين قررنا، ونحن جادون تقريبا فيما نقول، أن أي طالب يعرف الفرق بين الإنتاج والاستهلاك يجب أن ينجح. هذا الانقسام كان نمطيا إلى حد أن مثل هذه الشهادات قد عرفت (بين الأساتذة) باعتبارها "ترنيتي الثالثة"، لأن "ترنيتي"، كلية اسحق نيوتن، ضمت العديد من الشبان الذين ينطبق عليهم هذا التوصيف، إضافة إلى عدد آخر من الطلاب الذين سيفوزون، أو سيطمحون في الفوز، بجائزة نوبل، وقد فاق عدد هؤلاء في تلك الفترة عددهم في أية مؤسسة تعليمية بحجمها في العالم. ففي الوقت الذي دخلت فيه كامبريدج، كان أحد الفائزين بجائزة نوبل في المستقبل (ار. اي. ام. سينغ) طالبا يجري أبحاثه في الكيمياء الحيوية، كما كان فائز آخر (جي. سي. كيندرو) على وشك أن يبدأ عامه الدراسي الأول.

السلطات الإدارية والتدريسية في الجامعة والكلية كانت ستدهش وتُروَّع بالتأكيد بكامبريدج عام ٢٠٠٠، المتخمة "بمواقف سيارات الأقسام العلمية"، والمفاوضات التجارية مع أصحاب المشاريع العالمية، و"أبراج كامبريدج (التي) لا تحلم بالمنجزات الأكاديمية حلمها بالأرباح المادية" [٢]. فالبلدة كانت آنذاك بلدة ريفية

1 - T. E. B. Howarth, Cambridge Between the Wars (London, 1978), p. 172.

2 - Financial Times, The Business weekend magazine, 4 March 2000, p. 18.

متواضعة ومنعزلة تقع على حافة إيست أنغليا. ولأنها كانت تفتقد المنشآت الصناعية، فقد هيمنت الجامعة على حياة سكانها، واعتمدت عليها بالطريقة القديمة المعروفة، أي من خلال تزويد الكليات بالحمالين، والخدم، إضافة إلى بيوت السكن بالنسبة لأغلبية الطلاب الذين لم تتوفر لهم أماكن إقامة داخل مبانيها، والعديد من الحوافز لحوالي خمسة آلاف طالب يفترض بأنهم من الأثرياء، لكي ينفقوا أكثر من مخصصاتهم المالية. لم يكن في كامبريدج سوى قلة قليلة من الأماكن التي يمكن الخروج إليها وتناول الطعام، بالرغم من أن "مسرح الفنون" كان قد افتتح أبوابه للتو، وشمل مطعما عصريا، إضافة إلى عشرة من دور السينما.

ما فاقم من ضيق أفق التفكير في كامبريدج هو أن المكان طوّق داخل أسوار الكليات حياة الأساتذة الذين عاشوا فيها باستمرار - على العكس من الطلاب الذين كانوا يمضون أربعة وعشرين أسبوعا فقط من السنة هناك - والعديد منهم من العزاب كما كان شائعا آنذاك. الحرب العالمية الثانية، التي أرسلت العديد منهم إلى العالم الأوسع - وإن لم تتجاوز المسافة في بعض الأحيان مركز "حل وتفكيك الشيفرة" في بليتشلي - كانت ما تزال حدثا مستقبليا. ولم يعرف بعضهم، كما قد يشعر المرء، العالم الواقع فيما وراء رويستون، على بعد عشرة أميال إلى الجنوب من كامبريدج، إلا من خلال الإشاعات وحكايات الناس فقط. وفي الحقيقة، وبالمقارنة مع اكسفورد، كانت جامعة كامبريدج بعيدة بشكل لافت عن مراكز الحياة الوطنية - الأمر الذي قد يفسر السبب وراء عدم احتلال أي من خريجي كامبريدج، على عكس اكسفورد، منصب رئيس وزراء بريطانيا. إذ إن نورفولك، حيث يمضي الأساتذة عطلاتهم، ناهيك عن نيوماركت، حيث يقع مضمار سباق الخيل المشهور، بدت أقرب بكثير من لندن.

ذلك هو المكان الذي أتيت إليه، من أسرة لم يدخل أحد من أفرادها الجامعة من قبل، ومن مدرسة لم ترسل أيا من طلابها إلى كامبريدج. لم يكن مثل الجامعة التي تخيلتها (سرعان ما اكتشفت في العطلات والإجازات، وداومت على زيارة المكان المطابق لفكرتي عن الجامعة "الحقيقية"، أي مدرسة لندن للاقتصاد). كانت كامبريدج مثيرة، ومدهشة، لكن يحتاج الأمر إلى وقت كي يتعود عليها غريب لا يعرف أحدا فيها، بينما كان كل طالب جديد يعرف بالتأكيد على ما يبدو أخا، أو قريبا، أو أحدا

دخلها من مدرسته من قبل. لم أعرف بأن كامبريدج هي مركز لشبكة من عائلات الأساتذة المرتبطة معا برباط الزواج والمصاهرة، حتى ظهرت مقالة "الأرستقراطية المفكرة" لصديقي ومعاصري في كامبريدج نويل انان، وهو أمر لعب دورا مركزيا في بريطانيا، بالرغم من أن أي طالب في كلية كينغ سرعان ما يكتشفه. فقد كان هناك العديد من العائلات المعروفة والمتكررة في الجامعة مثل ريكاردو، وداروين، وهكسلي، وستراتشي، وتريفيليان، بين الطلاب والأساتذة على حد سواء. من ناحية أخرى، لم تكن هناك حقيقة أكثر وضوحا من أن كامبريدج قد اخترقتها العادات "القبلية" للمدارس الداخلية البريطانية، التي مازال معظم طلاب أقسام الآداب يأتون منها، والتي كانت مألوفة بالنسبة لأمثالي من خلال مجلات الصبية المصممة لأولئك الذين لم يذهبوا إلى مثل هذه المؤسسات. على سبيل المثال، كانت الحياة الأكاديمية تتوقف، لدهشتي، لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات في كل أصيل، حين يفترض أن الفتيان يمارسون الألعاب والرياضة. وجدت الآن نفسي محاطا بطلاب إيتون (مازالت تربطهم صلة خاصة بكلية كينغ، منذ أن أنشأ الملك هنري السادس المؤسستين عام ١٤٤٠) وسواها من المدارس الرئيسية العامة وأحيانا المدارس الهامشية الصغيرة وغير المتميزة عمليا. لم يكن هناك طلاب مفوضون (بالمساعدة في حفظ النظام)، لكن المجلة الطلابية "غرانتا" كانت تنشر بانتظام لمحات موجزة عن شخصيات تعتبر مهمة، مثل رؤساء النوادي الرياضية الكبيرة، والجمعيات، تحت عنوان "في السلطة" (في حين تناولت حياة محرريها المتقاعدين تحت عنوان "في الظل").

لأغراض عملية، كانت الجامعة تعني بالنسبة للطلاب الجدد كليتهم. والانتساب إلى كلية كينغ يجعل الأمور أسهل. فالطلاب الذين كان لهم الحق في الإقامة في الكلية، وضعوا بالجملة في مبنى كئيب كان يعرف عموما بـ"البالوعة"، وبالتالي امتلكوا الفرصة للتعرف إلى بعضهم البعض، كما أن العرف المحلي السائد في كلية كينغ يفضل العلاقات غير الرسمية بين الأساتذة والطلاب، كباراً وصغاراً. لا أستطيع القول بأني كنت متميزا جدا كطالب في كلية كينغ - كانت الكلية في ذروة تألقها الاجتماعي ومركزا لنشاط جامعة كامبريدج المسرحي والموسيقي - أو أنني محل اهتمام مؤسستها. على سبيل المثال، لم أجد الفرصة أبدا للقاء أشهر أساتذتها، ماينارد

كينز. لكن الكلية تميزت بالليبرالية والتسامح، حتى تجاه المتحمسين للألعاب الجماعية، والمتدينين، والمحافظين، والثوريين، والمغرمين بالجنس الآخر، وحتى الذين يفتقدون الوسامة والقادمين من المدارس الثانوية العامة التي تركز على تدريس اللاتينية واليونانية.

لحسن الحظ، وبالرغم من رئيسها، فقد كانت الكلية تحترم المفكرين وتشعر بواجبها تجاه طلابها اللامعين. إذ حصلت، بعد الحرب، على وظيفة محاضر جامعي خلال سنة من تركي الخدمة في الجيش، معتمدا في ذلك اعتمادا كليا على قوة التنويه المكتوب الذي امتدح سجلي كطالب من قبل المشرف علي في فترة ما قبل الحرب، كريستوفر موريس، المعروف بأنه أستاذ بارع في هذا النوع من الإنشاء الأدبي. ونظرا لأنه هو من امتحنني عند الحصول على المنحة أصلا، أظن بأن توصيته هي التي جعلتني أحصل على الوظيفة في كلية كينغ. كان يكبرني ببضع سنين، وهو متزوج ورب أسرة - يعتبر ذلك أمرا غريبا نوعا ما بالنسبة للكلية - ويمثل النمط السائد القديم للمشرف الجامعي الذي كان بالأصل أستاذا، أو معلما خاصا. تمثلت دعوته في حصول الطلاب العاديين الذين أتوا من المدارس العامة على درجة الشرف من المرتبة الثانية. وفيما وراء ذلك، ركز على إجابة ما دعاه بـ"الأسئلة السقراطية"، أي إجبار تلاميذه على اكتشاف ما كتبوه أو عزموا على كتابته في مقالاتهم الأسبوعية. وقد نجح ذلك نجاحا كبيرا في حالتي الخاصة، حتى حين لم أقبل ملاحظاته الانتقادية حول أسلوبي النثري. لم أكن له احتراما كبيرا، ولم تكن العلاقة بيننا حميمة، لكن أدين له بفضل كبير.

كانت صلتي أقل بالمؤرخين الثلاثة الجديين في الكلية. فقد توقف اثنان منهم، كأساتذة، عن الإشراف على الطلاب: اف. ايه. ادوك، أستاذ التاريخ القديم، كان رجلا ضئيلا، ظريفا، متفوقا، ومحافظا إلى درجة لا تصدق؛ وجون كالفام، بشخصيته المؤثرة والصارمة، الذي تقاعد لتوه من تدريس التاريخ الاقتصادي، ومؤلف واحد من أندر كتب التاريخ التي أنتجتها كامبريدج في فترة ما بين الحربين، وكان ذلك عملا ضخما حول موضوع رئيسي مكون من ثلاثة أجزاء بعنوان "التاريخ الاقتصادي لبريطانيا الحديثة" (١٩٢٦-١٩٣٨). كان مغرما بتسلق الجبال، وهذا يتوافق مع المزاجية السائدة

في كلية كينغ؛ لكنه أيضا كان متزوجا وربا لأسرة ومرتبطا بشدة بجماعة المنشقين عن الكنسية في شمال إنكلترا التي أتى منها، وهذا يناقضها (لم يكن أحد ليخمن أن رئيس الكلية شيبارد وماينارد كينز أتو من المعمدانية الريفية). أتمنى لو عرفت المزيد عن الثالث، جون سالتمارش، الذي كان مشرفا علي، فهو لم ينشر شيئا بل اعتاد أن يصب علمه الهائل في المحاضرات التي لم أحضرها.

رئيس الكلية شيبارد هو الرجل الذي أدار ثروة الكلية بين عامي ١٩٣٣-١٩٥٤ (التي كانت تنمو - دون أن نعرف - بصورة مرضية بفضل فطنة مؤيده، وزميله في لعب القمار، ورفيقه في "الرسل" مايناردكينز). كان آنئذ في منتصف الخمسينات من العمر، ولكن لأن الشيب غزا شعره خلال الحرب العالمية الأولى، فقد تبنى شخصية السيد النبيل العجوز، حيث اعتاد التجول بخطواته الواهنة في الكلية مرتديا لباسه الرسمي الداكن وياقة قميصه المنشاة، قائلا "باركك الله، يا ولدي العزيز" إلى أي طالب (ويفضل أن يكون وسيما) يصادفه في طريقه. اعتاد أن يستقبل الطلاب في مكان إقامته في سكن المشرفين كل مساء أحد، وكان يجلس على الأرض وسط الشبان متظاهرا، أو محاولا فعلا، أن يشعل غليونه ليشجع على الحوار والنقاش. في واحدة من هذه المناسبات قابلت لأول مرة وزيرا في الحكومة، وهو رجل يتحدث بلغة جسدية مبتذلة ومتفاخرة، عينه نيفين تشامبرلين لتنسيق الشؤون الدفاعية في بريطانيا. وكما هو متوقع، فقد أكد كل أحكامي المسبقة ضد كل من يسترضي الحكومة على حساب المبادئ الأخلاقية.

استمتع الطلاب برئيس الكلية وكأنه نجم في مسرح للمنوعات، وخصوصا في قاعات المحاضرات التي تصرف فيها وكأنه على خشبة المسرح [1]. لم يكن يحظى باحترامهم، لكنهم نظروا إليه في أغلب الأحوال نظرة عاطفية، واستسلم هو بالتأكيد للعاطفة. وفي الحقيقة، ظل طيلة حياته طفلا مدللا يتصف بشخصية مروعة، لم يعد يخفف ترويعها مع تقدمه في العمر لا سحرها ولا ميلها للمرح والليبرالية كما كان الحال في أيام الشباب. مع مرور السنين أصبح أكثر حماسا في ولائه. كان كلاسيكيا،

١- توصيفي لإحدى محاضرت شيبرد عام ١٩٢٧ ورد في :

Howarh, op. cit., p. 162.

تخلى عن البحث العلمي منذ أمد طويل، ولم يعد الآخرون يأخذون آرائه على محل الجد. ولأنه فشل كعالم مثقف وكرئيس للكلية ـ لم يشغل أبدا منصب نائب رئيس الجامعة، وهو بمثابة مكافأة يتلقاها حتى أكثر المؤهلين تواضعا من بين رؤساء الأقسام ـ أصبح عدوا نشطا لكل مسعى وراء المعرفة. لربما كانت كلية كينغ مركز عالم جامعة كامبريدج الراقي في الثلاثينات، لكنها لم تكن كلية متميزة أكاديميا (في ما عدا الاقتصاد، الذي لم تكن له أية سيطرة عليه) . كان معاديا للعلم. في إحدى المناسبات، قال رئيس جامعة هارفارد: "كلية كينغ في جامعة كامبريدج؟ أليست المكان الذي تدان فيه العلوم الطبيعية من قبل الأساتذة؟". لم يكن لدينا، كطلاب، فكرة عما يكمن خلف قناع الخيرية الذي تختبئ خلفه زمرة الشيوخ من فساد وحقد وخبث. ومع ذلك، وبالرغم من أنه واحد من القلة الذين شعرت نحوهم بكره حقيقي في حياتي، إلا أنني لم أستطع منع نفسي من الشعور بالأسف والرثاء لحاله في سنواته الأخيرة، حين لم يعد رئيسا، ولم يتمكن من إدراك حقيقة أن الكلية ليست امتدادا لشخصه، واختار وهو في حالة من التدهور الذهني الواضح أن يلعب آخر أدواره على مسرح الكلية، دور "الملك لير" بشعره الأشعث وملابسه الرثة وهو واقف على بوابات الكلية، يدين ويشجب بصمت ما حاق به من ظلم.

الموجه دونالد بيفيز، والعميد باتريك ويلكنسون ، ومدرسو التاريخ هم الأشخاص الوحيدون الذين جمعتني بهم بعض الصلات. كان بيفيز رجلا ضخم الجثة، عريض المنكبين، هادئ الطبع، شغف بمسرح الهواة (اشتهر بلقب "فولستاف") ويجمع التحف الزجاجية من الحقبتين الستيوارتية والجورجية، التي كان يعرضها في شقته المريحة، حيث يتفحص مشكلات الشباب المتعلقة بالانضباط باهتمام متقطع يبديه تجاه التفاصيل الإدارية. كان متخصصا باللغة الفرنسية، وحافظ على صلة منتظمة بمجال اختصاصه من خلال زيارة المطاعم في فرنسا أيام العطل مع أصدقائه بسيارته الفارهة (رولز ـ بنتلي). لم ينشر أي كتاب عن اللغة أو الأدب الفرنسي. بعد العديد من السنين، ولأن اسمه العائلي مكون من خمسة أحرف تبدأ بالباء (مثل انتوني بلانت)، أخطأ أحد الصحفيين في تفسير بعض المعلومات المتسربة وأشار إلى أنه قد يكون "ثالث" أو "رابع" جماعة "جواسيس كامبريدج" الشهيرة. أما الفكرة التي تقول إن

دونالد بيفيز عميل سوفييتي فقد صدمت كل من قابله باعتبارها أكثر سخفا وعبثية من الاقتراح الذي ظهر على السطح لوهلة في أوج الهوس بالجاسوسية، والذي أشار إلى أن البولشفي السري الآخر هو الأستاذ المتميز حقا ايه. سي. بيغو، زميل كلية كينغ لمدة تزيد عن سبعة وخمسين عاما، ومؤسس علم اقتصاد الرعاية الاجتماعية، والمشهور (مع عالم الفيزياء الكبير جي. جي. تومبسون) بأن ذوقه في اختيار الثياب هو الأسوأ في كامبريدج! لكن بيغو، الذي لم يتزوج قط، كان على الأقل مناصرا للسلام، حين لا يفكر بالأمور الاقتصادية ولا يدعو الطلاب المتميزين بذكائهم، ووسامتهم، وأجسادهم الرياضية الرشيقة إلى تسلق المنحدرات الوعرة انطلاقا من الكوخ الذي يملكه في لايك ديستريكت.

في الواقع، وباستثناء حالة واحدة مزعومة، انحصرت روابط أساتذة كلية كينغ مع أجهزة الاستخبارات بالمخابرات البريطانية وليس السوفييتية. فقد أنشأ أساتذة كينغ، برئاسة اف. اي. ادوك، الرجل القصير البدين الذي أصبح فيما بعد أستاذا للتاريخ القديم، مؤسسة تفكيك الشيفرة البريطانية في الحرب العالمية الأولى، ثم جند ادوك سبعة عشر أستاذا على الأقل من كلية كينغ للعمل في المؤسسة الأكثر شهرة في بليتشلي خلال الحرب العالمية الثانية، بمن فيهم على الأرجح النابغة الوحيد في الكلية خلال سنوات دراستي، الزميل الشاب والعالم المتخصص بالمنطق الرياضي الان تورين، الذي أتذكر مظهره الموحي بالغباء، ووجهه الشاحب، وشغفه بما يدعى هذه الأيام برياضة الركض. أما الشخص الذي عرف عموما بأنه الموهبة (المحلية) الاستطلاعية لأجهزة المخابرات - معظم كليات "اوكسبريدج" لديها على الأقل واحد مثله - فكان العميد باتريك ويلكنسون، العالم الكلاسيكي المعروف بلطفه وكياسته ودماثته الاستثنائية (لا أدري لم يذكرني رأسه الطويل، وشعره القليل، وابتسامته الباهتة المرسومة على محياه باستمرار، بجون سيلفر في رواية "جزيرة الكنز"). فوجئ الجميع حين عاد بعد الحرب من بليتشلي متزوجا. وعلى العكس من الرئيس، كان مخلصا بشكل حقيقي، وعميق، وغيري، للكلية وأعضائها. كان مسؤولا لسنين عديدة عن التقرير السنوي للكلية الذي يقدم ترجمة كاملة، وإن كانت غير واضحة بشكل كامل أحيانا، لكل من يتوفى من كادر الكلية دون استثناء، وبالرغم من هذا الغموض إلا أنها كانت (وما تزال) وثيقة يماثل أسلوبها الرشيق قيمتها السيوسيولوجية التي لا تقدر بثمن.

لم تعد كامبريدج في الثلاثينات تركز الكثير من الانتباه على موضوع الجامعات القروسطية، أي تدريس المبادئ الضرورية للمهن التي تتطلب أشكالا معرفية خاصة - الدين، والقانون، والطب - رغم أنها جهزت كل ما هو ضروري للمراحل المبكرة منها. أما هدفها فلم يكن، على الأقل في الآداب، تدريب الخبراء المتخصصين، ولكن تشكيل أعضاء الطبقة الحاكمة. وكان ذلك يتم في الماضي على أساس تعليم الطلاب كلاسيكيات الأدب القديم اليوناني، والروماني على وجه الخصوص، من خلال تدريس الشبان الممارسات النخبوية مثل كتابة الشعر باليونانية واللاتينية. لم يندثر هذا التقليد أبدا. في عام ١٩٣٥، نجح حوالي خمسة وسبعين طالبا في امتحان الحصول على منح دراسية أو إعانات تعليمية لدراسة الكلاسيكيات (مقارنة بحوالي خمسين لكل من التاريخ والعلوم الطبيعية) أتى معظمهم بالطبع من المدارس العامة، نظرا لأن معظم المدارس التي تركز على الكلاسيكيات - كالتي تخرجت منها - لا تدرس اليونانية. لكن أصبح التاريخ (الذي يركز على التطور السياسي والدستوري في إنكلترا) على نحو متزايد منذ نهاية القرن التاسع عشر، وسيلة تستخدم لكافة أغراض "التعليم العام" في كامبريدج. ولذلك اختاره الطلاب بالمئات، لكن لم يتصور أي منهم إمكانية استخدامه لكسب لقمة العيش، فيما عدا العمل كمدراء للمدارس ربما. ولم يكن مادة تتطلب الكثير من الفكر والذكاء.

باستثناء العلوم الطبيعية، تمثلت العناصر الأساسية التي يقوم عليها التعليم في كامبريدج في كتابة الطالب لمقالة أسبوعية لمناقشتها في جلسة خاصة مع "المشرف"، وامتحان الشهادة المكون من جزأين: في نهاية مقرر تعليمي (كورس) يمتد لسنة واحدة، ثم لسنتين اثنتين. أما المحاضرات فكانت أقل أهمية، حيث استهدفت غالبا أولئك الذين يعتمدون على الملاحظات المكتوبة خلال ما كان يسمى بـ"المقررات الواقعية" التي تساعدهم في الحصول على الشهادة. وسرعان ما اكتشف الطلاب المتفوقون بأن الفائدة التي يجنونها من القراءة لمدة ساعة في المكتبات المدهشة الملحقة بالكلية والجامعة تفوق فائدة الاستماع للخطب العامة التي لا تقدم لهم الكثير. وباستثناء "المقرر الدراسي المحدد" الذي يأخذه الطالب في السنة الأخيرة، أشك بأنني حضرت أية محاضرات بشكل مستمر بعد فصلي الدراسي الأول، فيما عدا محاضرات ام. ام. بوستان في

التاريخ الاقتصادي، التي كانت مثيرة فكريا ـ في وقت كتبتُ فيه عن "ذلك الجو المخيم من الإحيائية" [1] ـ إلى درجة أنها دفعت ألمع طلاب التاريخ من جيلي لحضورها في التاسعة صباحا. ولربما انتهى الأمر بالطلاب المجدين إلى عدم حضور المحاضرات على الإطلاق، لكن لم يبد أن أحدا يهتم. لقد تعلمنا أكثر من المطالعة الخاصة والحديث مع غيرنا من الطلاب المجتهدين.

لا يعني ذلك أن الحصول على الشهادة، ناهيك عن الشهادة من الدرجة الرفيعة، هي الهدف الوحيد للشباب والشابات الذين وجدوا أنفسهم في مكان مثل كامبريدج مترع بالأشياء المثيرة التي يمكن فعلها، وتمتعوا بوقت فراغ كاف للقيام بها مقارنة بغيرهم من البالغين. فأنا مثلا لم أجد صعوبة تذكر في الجمع بين ما يكفي من العمل الأكاديمي للتفوق في الامتحانات، وبين الصحافة الطلابية الفاعلة وممارسة النشاط "بدوام كامل" في النادي الاشتراكي والحزب الشيوعي. وذلك دون حساب الوقت الإضافي الذي قضيته في تبادل الأحاديث مع العديد من الأشخاص، وفي الحياة الاجتماعية، وركوب القارب في نهر كام، وإقامة علاقات الصداقة والحب..الخ. فقد بدا أن هنالك متسعا من الوقت لكل شيء. ولربما كان النشاطان الوحيدان اللذان بدأت بهما لكن تخليت عنها فيما بعد هما حضور دورة تدريسية جامعية لتعلم اللغة الروسية للمدرسة المرعبة اليزابيث هيل ـ التي جعلتني أبقى داخل حدود الرجل الغربي النقي والمتحرر من الأحقاد القومية ـ و"اتحاد كامبريدج"، الذي اعتبرت المناقشات والمناظرات فيه بمثابة الأساس التدريبي لساسة المستقبل. لا أتذكر السبب الذي جعلني أقرر التخلي عن الاتحاد، رغم أن جهودي المبكرة لاقت التشجيع من رئيسه آنئذ، والذي اكتشفت فيما بعد أنه عضو سري في الحزب. لكن ذلك ساعدني على توفير بعض المال.

اكتُشفت ميولي السياسية حالما دخلت كامبريدج، ودعيت فورا للانضمام إلى فرع طلاب كامبريدج للحزب الشيوعي. وفي النهاية أصبحت عضوا في أمانة السر المكونة من ثلاثة أعضاء، وكان ذلك أعلى منصب سياسي شغلته في حياتي. وأخطأ أحد الكتاب المعاصرين في مذكرته حين قال إنني أصبحت سكرتيرا له عام ١٩٣٨، لكنه

---

1 - E. J. H., 'Professor Trevelyan Lectures', Granta, 27 October 1937.

أصاب في ملاحظة أنني لست شخصية قيادية بالطبيعة [1]. لكن الزعيمين اللذين تمتعا بأكبر قدر من الهيبة والاحترام قد غادرا البلاد: جون كورنفورد، الوسيم الأسمر، الذي يعلق كل التقدميين في كامبريدج صورته، رحل إلى إسبانيا ليقاتل ويموت هناك؛ وجيمس كلوغمان الذي سافر إلى باريس (انظر الفقرة التالية). أما أبرز مواقع احتضان حزب الطلاب للثورة فكان مجموعة من الغرف المكتظة بالملصقات والمنشورات في ويولز كورت، ترنيتي، تحت شقة لودفيغ فيتغنشتاين، حيث تشارك الإقامة فيها كل من الأمريكي مايكل ويتني سترايت، والعالم في الكيمياء الحيوية هوغ غوردون. لكن ترنيتي كانت مركزا للطلاب الشيوعيين المتخرجين أكثر من كونها مقرا للطلاب الذين لم يتخرجوا بعد. ومن المفاجئ إلى حد ما أن كلية بيمبروك قد آوت، بالإضافة إلى واحد من أندر الأساتذة الشيوعيين (العالم العظيم المتفوق في الأدب الألماني، روي باسكال) عددا من الرفاق، بمن فيهم اثنين من المنظمين الرئيسيين، دافيد سبنسر، وإيفرايم الفريد ("رام") ناحوم (ابن أحد تجار الأقمشة "السفارديم" الأثرياء في مانشستر) وكان عالما طبيعيا، لحيم الجسم، قصير القامة، داكن البشرة، ضخم الأنف، يتمتع بالقوة البدنية، والطاقة، والنفوذ والاحترام، وأجمع الكل على أنه الأقدر من بين كافة الزعماء الطلابيين الشيوعيين في جيلي. وباعتباره خريجا متخصصا في الفيزياء، بقي في كامبريدج خلال الحرب، وقتل عام ١٩٤١ بانفجار القنبلة الوحيدة التي أسقطها الألمان على المدينة. على العكس من "رام" ناحوم (الذي عرف فقط من اليسار)، كان بيتر كيوغمان، وهو رجل أنيق، وظريف، ووسيم بشكل لافت، أصله من جزيرة سيلان (لم تكن تسمى سيرلانكا بعد) وعاش في بيمبروك، شخصية لامعة في المجتمع الجامعي (عمل رئيسا للاتحاد مثلا)، ناهيك عن كونه العشيق المحظوظ للفاتنة النمساوية هيدي سايمون التي وقعت في غرامها من دون طائل (بعد التخرج، استأجرت أنا وبيتر منزلا صغيرا في شارع راوند تشيرش الذي لم يعد موجودا الآن على بعد بضعة أمتار من المنزل الذي سيقتل فيه "ناحوم"). وعلى الرغم من أن كليهما عضو مخلص في الحزب، لكن لا أعتقد بأن أحدا قد تنبأ لكيوغمان الدمث البارز في المجتمع،

---

1 - H. S. Ferns, Reading from Left to Right: One Man's Political History, Foreword by Malcolm Muggeridge (University of Toronto Press, 1983), p. 114.

الذي كان أول من عرفني على قصائد جون بيتجامين، أن يقضي معظم حياته اللاحقة أمينا عاما للحزب الشيوعي في سيرلانكا.

من ناحية أخرى، توقعنا جميعا لموهان كومارمانغالام، الرجل الأنيق الساحر، الآتي من مدراس في الهند، والذي درس في إيتون وكينغ، والصديق الذي حظي بإعجاب العديدين منا، وشغل أيضا منصب رئيس الاتحاد، أن يصبح شخصية مهمة في بلده الهند، وهذا ما حدث فعلا. وباعتباره هنديا، لم يكن موهان بالطبع عضوا رسميا في الحزب، مثل حال غيره من "طلاب المستعمرات" الذين أتت أغلبيتهم الساحقة من شبه القارة الهندية. وسرعان ما وجدت نفسي أعمل مع جماعتهم الخاصة "جماعة طلاب المستعمرات" التي ترأسها ضمن نظام شبيه بالوراثة المحلية عدد متتابع من المؤرخين في ترنيتي الذين يتميزون بنزعة نحو تاريخ "العالم الثالث". وعلى العكس من زعمائهم ومرشديهم، لم يتطلع الشبان من "شيوعيي المستعمرات" إلى الحياة الأكاديمية، وإن انتهى المطاف بواحد أو اثنين منهم إلى العمل فيها، بل تطلعوا إلى التحرير والثورة الاجتماعية في بلدانهم. والطالبان اللذان تخرجا من كلية كينغ من بينهم تفوقا في هذا الأمر، إذ إن معاصر موهان الأصغر سنا، اندراجيت ("سوني") غوبتا، الطالب الذي تميز بتواضعه وغيريته، انتهى به المطاف بعد سلسلة من المناصب التي شغلها كرئيس لنقابات العمال وكزعيم سياسي، ليصبح في شيخوخته أمينا عاما للحزب الشيوعي الهندي، كما غدا لفترة وجيزة وزيرا للداخلية في بلاده.

كان الحزب بالطبع يمثل مركز اهتمامي الرئيسي. لكن حتى بالنسبة للشيوعي مائة بالمئة هنالك الكثير من الأشياء التي يمكن أن يفعلها خارج إطار التحريض، والدعاية، والتنظيم، التي لم تكن ميزة أتفوق بها (في نهاية المطاف أدركت مترددا أن المهنة المرغوبة حقا هي "الثوري المحترف"، أي أن العمل كموظف حزبي لا يناسبني، ولذلك روضت نفسي على كسب عيشي بطريقة أقل تصلبا وعنادا). بالطبع، كان كل شيء سياسيا بمعنى من المعاني، رغم أن ذلك لا يشمل المعنى الشائع بعد عام ١٩٦٨ والقائل بأن "الشخصي هو سياسي". لقد شعرنا بأن ما نريده شخصيا لا يهم الحزب، طالما أنه لا يتناقض مع خطه السياسي. لكن كان من واجبنا ألا نكتفي فقط بالحصول على شهادات رفيعة، بل علينا أن ندمج الماركسية في عملنا، تماما مثلما تندمج السياسة

في أنشطة أولئك الذين يمارسون التمثيل أو يعملون في الصحافة خلال حياتهم الجامعية. ومع ذلك، لا أستطيع القول بصدق إن مساهمتي في المجلة الطلابية الأسبوعية "غرانتا"، وبعد ذلك تحريرها، كانت لأسباب سياسية وحسب؛ ولا كانت أبدا مجلة احتلت فيها السياسة المساحة الرئيسية. وحين أنظر إلى الأعداد القديمة الآن، أجد لزاما علي الاعتراف بأنها لم تكن جيدة كمجلة، رغم أن سلفي في رئاسة التحرير، تشارلز ونتور، استخدمها بنجاح للانضمام إلى صحيفة اللورد بيفربروك، الراسخة، "ايفننغ ستاندارد" ومن ثم رئاسة تحريرها. كانت في الحقيقة مجلة رديئة، لكننا أمضينا أوقاتا رائعة في مكتبها في ماركت سكوير، نرشف الشاي، ونثرثر، ونتبادل الدعابات، كما وفرت لنا فرصة ذهبية للحصول على بطاقات مجانية لدخول صالات السينما: بعد رئاسة تحرير "غرانتا"، كان منصب محررها السينمائي المطمح الرئيس للمساهمين. بل إن مراجعة الأفلام قد وفرت أرضا محايدة للقاء بالأصدقاء من مختلف التوجهات السياسية، مثل الشاب ارثر شليزنغر الابن، الذي قابلته هناك، وأصبح فيما بعد معاديا عنيدا للشيوعية في مجلة "نيو ديلر".

٨

ضد الفاشية والحرب

كل ما حدث في كامبريدج في تلك السنوات توشح بمعرفتنا بحقيقة أننا نعيش في عصر مأزوم. ففي حكم المؤكد تقريبا أن العوامل التي عجلت بالتحول "المعتدل" للطلاب نحو الراديكالية السياسية، قبل وصول هتلر إلى السلطة، قد شملت الأزمة الاقتصادية العالمية، والانهيار المخزي لحكومة حزب العمال (١٩٢٩-١٩٣١)، والتمظهرات الدراماتيكية لمقصد جماهير العاطلين والفقراء من "مسيرات الفقر" المنطلقة من المناطق الصناعية الصامتة والمتوقفة عن العمل. بعد عام ١٩٣٣، تبدى كل ذلك في حركة متنامية لمقاومة انبثاق الديكتاتوريات الفاشية والحرب العالمية اللاحقة التي ستندلع بالتأكيد نتيجة لذلك؛ أي أنها حركة موجهة ضد الجبن والتردد، إضافة إلى الحكومات البريطانية الرأسمالية والإمبريالية التي لم تفعل شيئا لوقف الانجراف نحو الفاشية والحرب. في النصف الثاني من الثلاثينات، وخصوصا بعد تفجر الحرب الأهلية الإسبانية، جسد ذلك بالتأكيد القوة الرئيسة وراء النمو اللافت للنادي الاشتراكي: تجسد تأثير ميونيخ في كامبريدج في تمكن نادي جامعة كامبريدج الاشتراكي (CUSC) من تجنيد ثلاثمائة عضو جديد بخلال أسبوع [1].

ظلت السحابة القاتمة للحرب القادمة تهيمن على آفاقنا طيلة الثلاثينات. هل يمكن تفاديها؟ وإذا لم يكن ممكنا، كيف يجب أن نتصرف؟ هل نحارب "في سبيل الملك والبلاد" أم نرفض كما فعل "اتحاد اكسفورد" عام ١٩٣٣؟ بالتأكيد لا، لكن هل نخوض الحرب؟ فكرة رفض خوض الحرب قسمت اليسار في كامبريدج، أو بالأحرى الحركة التي ضمت تنافر المناهضين للفاشية والرافضين للحرب، لأن رفض خوض الحرب

1 - Cambridge University Club Bulletin, 18 October 1938.

تجاوز نطاق أولئك المهتمين بسياسة الأحزاب والحركات، بل تجاوز مدى الدين المنظم. ومع اختفاء معظم أنصار هذا المعسكر المحايد سياسيا والرافض لخوض الحرب بعد سقوط فرنسا عام ١٩٤٠، ضاعت قوته المؤثرة التي امتلكها في الثلاثينات في غياهب النسيان على الأغلب. وفي الحقيقة فإن الحركة الرافضة للحرب مثلت القضية الهامة الوحيدة التي قسمت اليسار في كامبريدج، لأن خط الحزب الشيوعي فيما يتعلق بوحدة القوى المناهضة للفاشية داخل النادي الاشتراكي حاز فعليا على التأييد بالإجماع. عضو بارز فقط، هو سامي سيلكن من ترنيتي هول، أيد الموقف الرسمي لحكومة حزب العمال، وامتُدح ذلك بالتالي باعتباره دليلا يثبت الشمولية الأيديولوجية للنادي (في تميزه عن حزب العمال ذاته الذي يحظر أية منظمة تضم أعضاء شيوعيين).

على وجه العموم، كان "نادي جامعة كامبريدج الاشتراكي" يعني "كامبريدج الحمراء" في الثلاثينات. لكن ذلك غير صحيح بالمعنى الحرفي، لأنه لم يضم، حتى في أوج قوته في أوائل عام ١٩٣٩، أكثر من ألف عضو من بين حوالي خمسة آلاف طالب. وحين دخلت الجامعة في خريف عام ١٩٣٦، لم يكن العدد يتجاوز ٤٥٠ [1]. لم يضم الحزب أبدا أكثر من مائة عضو من الطلاب. ولكن حين نأخذ بالاعتبار الأصول العائلية، والبيئة الاجتماعية ـ السياسية، والعادات التقليدية للطلاب في الجامعات القديمة، إضافة إلى الميول السياسية اليمينية لطلاب جامعات غرب ووسط أوروبا في فترة ما بين الحربين، فإن هيمنة اليسار على جامعتي اكسفورد وكامبريدج خلال الثلاثينات كانت أمرا مدهشا. كما أن اليسار لم يكن قويا على نحو خاص في أي من مراكز التعليم العالي البريطانية الأخرى، باستثناء مدرسة لندن للاقتصاد (*).

١- "عدد أعضاء نادي جامعة كامبريدج الاشتراكي لم يكن يتجاوز آنئذ ٤٥٠" ، انظر :
Weekly Bulletin of the Cambridge University Socialist Club, No. 2, Autumn term 1936 (duplicated).

(*) أسس المدرسة عضوان بارزان من أعضاء الجمعية الفابية هما سيدني وبياتريس ويب ، وكرست حصريا للعلوم السياسية والاجتماعية ، برئاسة المهندس اللاحق لنظام الضمان الاجتماعي البريطاني ، وليام بيفريدج . ونظرا لأن أبرز مدرسيها وأكثرهم سحرا وتأثيرا هم من الاشتراكيين المعروفين على المستوى الوطني ، مثل هارولد لاسكي ، و ار . هـ . تاوني ، فقد وقفت على اليسار بحكم المنصب . وهذا ما جذب الأجانب من داخل وخارج الإمبراطورية . وإذا كان ذلك لم يجذب بالضرورة الطلاب البريطانيين ، وهم بأغلبيتهم الساحقة من نخبة الجيل الأول من الفتيان والفتيات الفائزين بالمنح الدراسية والمنتمين إلى العائلات اللندنية المتوضعة على الحدود الفاصلة بين الطبقة العاملة والشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى ، فإنه سيؤثر فيهم على الأرجح حال انتسابهم لها .

ما يمكن أن نضيفه عند هذه النقطة هو أن التحول السياسي لجامعة كامبريدج قد أتى من القاعدة وليس القمة. صحيح أن التوجه السياسي النمطي لأساتذتها يقع بدون شك ضمن تيار الوسط المعتدل ولم يكن مؤيدا للمحافظين (مثلما هي الحال في اكسفورد)، لكن المؤيدين البارزين لحزب العمال كانوا قلة نادرة، في حين لم يتجاوز عدد الأساتذة الشيوعيين عدد أصابع اليد الواحدة. وحتى القيام بحملة لا تثير الكثير من الجدل الخلافي مثل تلك التي نظمها اسميا "مجلس السلام في كامبريدج"، والتي نجحت في جمع ألف جنيه (وهو مبلغ ضخم آنذاك) لإطعام نساء وأطفال إسبانيا الجمهورية في خريف عام ١٩٣٨، لم تلق الدعم الرسمي إلا من اثنين من رؤساء الكليات (سنت جون، وكينغ) ، وستة من الأساتذة - واحد فقط (ام.ام. بوستان) متخصص في التاريخ - ومدرس بارز من رجال الدين المناهضين للحرب، إضافة إلى ماينارد كينز [1]. في أقسام العلوم الطبيعية، كان العلماء الشباب في الفيزياء والكيمياء الحيوية العاملين في مركزين تعليميين مؤثرين (مختبري كافنديش وبيوكيم) هم الذين "صبغوا" كامبريدج باللون الأحمر. لكن الأقسام العلمية في كامبريدج سلكت طرقها السياسية الخاصة، ونظمت حملاتها حول "جماعة علماء كامبريدج المناهضة للحرب"، التي دخلت في مرحلة أكثر وعيا في السنة التالية من خلال إظهار عدم كفاية الإجراءات التي اتخذتها الحكومة للدفاع عن البلاد ضد الغارات الجوية والغازات السامة. أما "جماعة علماء الكليات" في النادي الاشتراكي فلم تتأسس إلا في وقت متأخر من عام ١٩٣٨ . في حين أن تحول الطلاب إلى اليسار - خارج نطاق أقسام العلوم الطبيعية - هو الذي جعل من كامبريدج جامعة حمراء.

من هم الحمر في كامبريدج؟ الإجابة عن السؤال أكثر سهولة حين يتعلق بالشيوعيين الأقل عددا مقارنة بنادي جامعة كامبريدج الاشتراكي. فقبل حقبة مناهضة الفاشية والجبهة الشعبية، كان هناك بعض الأرستقراطيين (مثل ذاك الذي يحمل الاسم الفخيم ايه. ار. هوفل - ثورلو - كومينغ - بروس، والذي أصبح فيما بعد قاضيا رقيق الفؤاد)، لكن معظمهم أتوا من الشريحة العليا من الطبقة الوسطى العاملين في مهن مزدهرة أو في حالات نادرة في الأعمال التجارية (آل شليغل وليس آل ويلكوكس، إذا

---

1 - Spain Weekly Bulletin No. 1, n. d. (October 1938)

استخدمنا الفرق المميز السهل في رواية اي. ام. فورستر "هواردز اند"). مقالة نويل انان "الأرستقراطية المفكرة" تعبر عن نموذج موجود، كان أهم من يمثله صاحب الشخصية الآسرة جون كورنفورد، حفيد حفيد تشارلز داروين، لكنه ليس السائد. لقد كانت نسبة الأعضاء القادمين من المدارس العامة أقل بشكل واضح في الفترة التي كنت فيها هناك، أي بعد تفجر الحرب الأهلية الإسبانية، حين ارتفعت أسهم الحزب والنادي. وفي حكم المؤكد تقريبا أن الطلاب الذين أتوا من المدارس الثانوية اللغوية (التي تركز على اللاتينية واليونانية) في إنكلترا وويلز (لكن ليس مثيلاتها في سكوتلندا) انضموا إلى الحزب أكثر من سواهم من طلاب كامبريدج، كما تمثلوا في قيادته بالتأكيد. وكان المفوض (القوميسار) الرئيسي لحزب الطلاب آنذاك، جورج برنارد من كلية سنت جورج، عالما متخصصا بالرياضيات، مهزول الجسم عليه أمارات الجوع، ينتمي إلى أسرة من الطبقة العاملة، وأنهى حياته المهنية رئيسا لجمعية الإحصاء الملكية وأستاذا في جامعة اسكس (ستصبح شقيقته الصغرى، التي عرفتها بعد الحرب، وتبقى، صديقة حميمة لي ولزوجتي مارلين). بعد فترة قصير، برز أيضا رالف رسل، وهو طالب يدرس الكلاسيكيات وينتمي إلى الطبقة العاملة، كان يتصرف بأسلوب بولشفي صلب، إلى درجة أننا أطلقنا عليه اسم "جورجي" نسبة إلى جورجي ديمتروف، الأمين العام للكومنترن. "مراكز إنتاج" الطلاب التقدميين (بيدالز، دارينغتون..) كانت تتجه على الأرجح نحو اليسار، مثل شباب عائلات "الكويكرز". وكان قد أشير بأن اليهود تمثلوا في الحزب بشكل مبالغ فيه قليلا، لكن ذلك لا ينطبق على ما أتذكره. إذ لم تجتذب الشيوعية ـ اللادينية والمعادية للصهيونية ـ سوى قلة قليلة من الطلاب اليهود في كامبريدج، برغم تعاطفهم مع حزبي الأحرار والعمال. أما أبرز من اعتبر في زمني من الطلاب اليهود اليساريين فكان اليهودي الجنوب أفريقي اوبري ايبان (آبا ايبان)، الذي قدر له أن يلعب دورا بارزا في السياسة الإسرائيلية، والذي حصنه تمسكه بالصهيونية ضد إغراء الشيوعية. كما لم تفكر القلة القليلة من أعضاء الحزب اليهود بيهوديتهم حتى عام ١٩٣٧ على ما أعتقد، حين تقرر خلال الاجتماع في شارع كينغ تشكيل "جماعة يهودية" أو لجنة في لندن، حضرنا أنا وناحوم "رام" عددا قليلا من اجتماعاتها على مضض، قبل أن نستنتج سويا أنها غير ذات صلة بما كنا نفعله. أتذكر اللجنة

بسبب مواجهتي الأولى لشيوعيي الويست اند الذين لم يتوقفوا عن إطلاق النكات اليهودية (المضحكة جدا)، وهي ممارسة غير معتادة في اجتماعات الحزب في كامبريدج.

يلقي هذا التحليل الاجتماعي - الثقافي دون ريب بعض الضوء على الفرق المميز بين اليمين واليسار في كامبريدج، لكنه أقل توضيحا من ظاهرة أخرى، ما تزال بحاجة إلى تفسير. فلربما يتفق أكثر من مراقب مع هنري فيرنز، على أن "العامل المشترك الوحيد بين كل الشيوعيين الذي قابلتهم (في كامبريدج) هو الذكاء اللماح" [١]. في الثلاثينات، اجتذب اليسار ألمع وأذكى أفراد جيل الطلاب في نخبة جامعات البلاد.

بالرغم من أن أعضاء "نادي جامعة كامبريدج الاشتراكي" كانوا أكثر عددا، لكنهم تميزوا أيضا باهتماماتهم الفكرية، مع أن النادي كان مدركا بدرجة كافية للبعد الاجتماعي للحياة بحيث نظم دروسا في الرقص. كانت له ميزة جوهرية لم يتمتع بها العديد من الجمعيات الطلابية، تمثلت في وجود عدد كبير من الشابات في غيرتون ونيونهام، اللاتي كانت فكرتهن عن النشاط السياسي أقل تجهما وكآبة، رغم أنها على نفس درجة جدية فكرة الشبان (أول هدية في عيد الحب تلقيتها في حياتي كان مقدمة بشكل جماعي من جماعة نيونهام للحزب الشيوعي حيث كنت موجهها السياسي). كما أن الأعضاء كانوا مجدين وجديين في دراستهم. قالت النشرة الصادرة قبيل امتحان عام ١٩٣٧: "تتمنى اللجنة لكل أعضاء النادي النجاح في امتحاناتهم. ولنكن في المقدمة على الجبهة الأكاديمية كما السياسية" [٢]. وبدءا باللغويين والمؤرخين المحدثين، أنشأ النادي جماعات "الكليات" لمناقشة المشكلات المتصلة بموادها الدراسية، ووصل عددها إلى اثنتي عشرة جماعة في أواخر عام ١٩٣٨، شملت حتى المجالات غير الواعدة سياسيا، مثل الزراعة، والهندسة، والحقوق [٣]. من ناحية أخرى، مثل ازدراء الرياضات المنظمة (طبعا باستثناء الرياضات التقليدية في جامعة كامبريدج مثل النزهات الطويلة سيرا على الأقدام وتسلق الجبال) جزءا من الوعي السياسي لدى

---

1 - H. S. Ferns, Reading from Left to Right: One Man's Political History, Foreword by Malcolm Muggeridge (University of Toronto Press, 1983), p. 116.

2 - CUSC Weekly Bulletin, 25 May 1937.

3 - CUSC Faculty and Study Groups Bulletin, Lend Term, 1939.

النادي. لكنه ابتهج بالنجاحات (المتكررة) التي حققها الاشتراكيون أو الشيوعيون في الاتحاد، في مجالي الدراما والصحافة ـ في فترة من الفترات كان جميع رؤساء الاتحاد، وجمعية التمثيل الرئيسية، وتحرير مجلة "غرانتا"، أعضاء في الحزب ـ لكنني لم أكن على دراية بأنه اهتم كثيرا بضم أي من نجوم الرياضة المشهورين في الجامعة ـ أعترف بأنها مهمة صعبة ـ أو بمنجزات أعضائه في ميدان الرياضة أو تسلق الجبال.

تمثلت أنشطة النادي الأخرى في الحملات التي نظمها: باستمرار، وعناد، وحماس، وبروح من الشقة المفعمة بالأمل التي تدهشني الآن حين أتذكر وأنا في أرذل العمر سنوات دراستي في كامبريدج، حين كانت أوروبا تنزلق (قبل أن يبدأ العالم بالانحدار) نحو الكارثة.

من وجهة نظر اليسار، يظهر العنوان الوجيز لسياسات أوروبا في الثلاثينات أنها كانت بالفعل سلسلة غير منقطعة من الكوارث. ونحن نقر، كما تقول أغنية "غوديموس ايغتير"، بأن أيام الدراسة لم تمثل فترة من الوهن والفتور، لكن ألم نكن يائسين نوعا ما؟ لا لم نكن كذلك. فعلى العكس من الحركة المناهضة للأسلحة النووية في حقبة ما بعد عام ١٩٤٥، لم نكن نشعر بأننا نخوض معركة مقدر عليها أن تكون دفاعية كتلك التي تخوضها قوات المؤخرة في الجيش ضد أعداء لا مجال لمقارعتهم. كنا نعيش في أزمة تعقبها أزمة، وننظم أنفسنا مثل فرق كرة القدم لخوض المباريات واحدة إثر الأخرى، بحيث يستدعي كل منها بذل أقصى ما لدينا من جهد. فيما يتعلق بكامبريدج، كنا نفوز بمبارياتنا. كل موسم كان أفضل من الذي سبقه. وبطريقة ما، شارك اليسار الطلابي في ابتعاد الجامعة التقليدي عن المركز الوطني، ناهيك عن التوجه التقليدي المتمثل في الاهتمام في الشؤون الذاتية. في الممارسة اليومية، كان "الحزب" والنزعة العالمية يعنيان بالنسبة لرفاق كامبريدج حزب طلاب كامبريدج، لأن الصلة المنتظمة الوحيدة التي ربطتنا قبل الحرب بالقيادة على المستوى الوطني تمت من خلال المنظم الطلابي المشهور بأساليبه غير الاستبدادية، جاك كوهن، الذي كنا نقبل بصورة طبيعية قيادته السياسية دون مساءلة، وإن كان يدرك أن العامل المحروم من التعليم الرسمي ويأتي إلى الطلاب من المجموعات الحزبية العاملة في المناطق الصناعية في شمال شرق البلاد، يتوجب عليه أن يعرف الكثير عن الجامعات.

ومع ذلك، هل أمكننا نسيان حقيقة أن أعظم انتصار حققناه، "أسبوع إسبانيا"، قد تم في وقت كانت فيه الجمهورية الإسبانية تلفظ أنفاسها الأخيرة وقد فقدت أي أمل عمليا؟ علاوة على ذلك، وبالرغم من أننا رسمنا سيناريوهات تتعلق بكيفية تفادي الحرب من خلال المقاومة الجماعية العنيدة لهتلر، إلا أننا لم نؤمن حقا بها. فقد عرفنا في الصميم أن حربا عالمية ثانية آتية لا محالة، ولم نتوقع النجاة منها. أتذكر ليلة سوداء أمضيتها في غرفة أحد الفنادق، في ليون على ما أعتقد، في خضم أزمة ميونيخ عام ١٩٣٨ ـ كنت عائدا من رحلة دراسية طويلة في مناطق شمال أفريقيا التي تحتلها فرنسا ـ حين دهمتني فجأة فكرة أن الحرب قد تنشب بخلال أيام. كوابيس الغارات الجوية الواسعة النطاق وسحب الغازات السامة التي لا نملك حماية ضدها، كما حذرونا مرارا وتكرارا، سوف تصبح حقائق واقعة. ليس هناك ما يماثل الهيستريا التي سادت في أيلول/سبتمبر ١٩٣٩ . لقد سمحت لنا السنة الممتدة من ميونيخ وحتى غزو بولندا بالتعود على احتمال الحرب.

اعتقد بأننا بقينا مبتهجين لأسباب ثلاثة. أولا، كانت في مواجهتنا مجموعة واحدة من الأعداء ـ الفاشية وأولئك الذين لا يريدون مقاومتها (مثل الحكومة البريطانية). ثانيا، كانت هناك ساحة معركة فعلية ـ إسبانيا ـ تواجدنا فيها. أما بطلنا، صاحب الشخصية الآسرة جون كورنفورد، فقد سقط على جبهة قرطبة في عيد ميلاده الثامن والعشرين. صحيح أن كورنفورد الذي ذهب إلى هناك مع واحد أو اثنين آخرين في صيف عام ١٩٣٦سيكون المشارك الوحيد بيننا بشكل مباشر في الحرب، لكن من الغريب ـ وهذه حقيقة لم يلحظها الكثيرون ـ أن قرار الحزب على أعلى المستويات كان في الواقع لا يشجع على تجنيد الطلاب في الألوية الدولية، إلا إذا امتلكوا مؤهلات عسكرية خاصة، على أساس أن واجبهم الرئيسي تجاه الحزب هو التفوق في الدراسة والحصول على شهادات عليا أولا، وبذلك يكونون، كما افترض، أكثر نفعا للحزب. أخيرا، حسبنا أننا نعلم ما سيكون عليه العالم الجديد بعد نهاية العالم القديم. وكنا في هذه النقطة على خطأ، مثلنا في ذلك مثل كل الأجيال.

وهكذا، كانت سنوات الثلاثينات بالنسبة لنا بعيدة كل البعد عن وصف الشاعر اودين وإدانته لها بوصفها "عقدا وضيعا ومخادعا". فبالنسبة لنا كانت فترة قارعت

فيها قضية عادلة أعداءها. لقد استمتعنا بحمل لوائها، حتى حين لم تكن تشغل كل وقتنا (كما كان الحال بالنسبة لمعظم الطلبة الراديكاليين في كامبريدج). وعملنا ما بوسعنا لإنقاذ العالم باعتبار ذلك أمرا طبيعيا وعاديا، ولأنه الشيء الذي ينبغي فعله. "من ناحية أخرى، تفادينا ذلك الضغط من التعاسة التي تحبط اليوم من ينزعون إلى الشعور بشؤون العالم كما شعرنا، ويجدون أن من المستحيل ترجمة مشاعرهم إلى فعل، كما وجدنا" [1].

حين نفعل ذلك، "نوزع عواطفنا وطاقاتنا بالتساوي على المجالين العام والخاص من المشهد"،أو بالأحرى لا نحدد فرقا مميزا واضحا بين هذين المجالين. صحيح أننا كنا نعزف لحنا شبيها بلحن كول بروتر:

دعونا نتخلص من الحب
دعونا من الآن فصاعدا نقول
إن كل حبنا موجه
للشغيلة وحدهم
دعونا نتخلص من الحب.
إلى أن تأتي الثورة
سيظل الحب
شيئا لا بلشفيا

وأن العلاقة الوثيقة بين الرفاق من الرجال والنساء المتحررين كانت جزءا من القضية، إلا أننا لم نكن على مستوى هذا الطموح، حتى وإن كانت الحياة الخاصة لشيوعيي كامبريدج تبدو، على الأقل بين الساسة الأكثر تخصصا، أقل بهجة وحيوية من حياة طلاب اكسفورد. كانت المزاجية السائدة في النادي والحزب تشجع على العلاقة مع الجنس الآخر بالطبع، كما هي الحال بين الطلاب عموما، خارج الأوساط المسرحية وكلية كينغ. في الثلاثينات، تجاوز حتى "الرسل" حقبة "اللواط" الإدواردية. وبدون

1 - Eric Hobsbawm, 'In Defence of the Thirties', in Jim Philip, John Simpson and Nicholas Snowman (eds.), The Best of Granta 1889- 1966 (London, 196700, p. 119.

شك، فإن بعضا منا لم يكونوا سذجا مثل هنري فيرنز، الذي زعم أنه "لم يقابل أبدا ولو مرة واحدة أي شيوعي شاذ جنسيا في كامبردج"، لكن من الصحيح أن المرء داخل الكومنترن (وبدرجة أقل داخل النادي) لا يروج لعضوية الشواذ. لقد جرى التعامل مع المسألة من قبل الطرفين باعتبارها أمورا خاصة. ويمكنني أن أفكر باثنين على الأقل من الأصدقاء اللذين تعرفت عليهما في الحزب في فترة ما قبل الحرب، ولم أعرف بأنهما شاذان إلا بعد الحرب.

لم يكن هناك تقسيم حاد بين الفصل الدراسي والإجازة. إذ لم يكن الطلاب يعملون بأجر في العطل الدراسية بعد، باستثناء إرشاد السياح الأجانب. كان الحصول على منحة مالية أمرا متاحا ـ مولت من إحداها رحلتي الدراسية إلى تونس والجزائر عام ١٩٣٨ ـ كما مولت إجازتي الطويلة عام ١٩٣٩ بواسطة حصتي من أرباح تحرير مجلة "غرانتا"، التي بلغت حوالي خمسين جنيها (بفضل عدد "أسبوع أيار/مايو"، كان الفصل الدراسي الصيفي هو الوقت الذي عملت فيه محررا. وعند نهاية كل فصل يكسب المحرر الأرباح المتبقية بعد دفع تكاليف الطبع والتوزيع).

على وجه العموم، أمضيت إجازاتي بين مدرسة لندن للاقتصاد وفرنسا. بقيت المدرسة، أو على الأقل مبناها الرئيسي في شارع هوتون، بالدويتش، على حالها كما كانت قبل ستين سنة، بل بقي حتى مطعم الوجبات الخفيفة الواقع إلى يسار المدخل الرئيسي مباشرة، والذي كان في تلك الأيام يعرف باسم مقهى "ماري"، حيث اعتاد الناشطون من الطلاب مناقشة الأمور السياسية أو محاولة ضم أعضاء جدد، تحت مراقبة شاب صامت متوحد من وسط أوروبا كان أكبر منا في العمر بقليل، وهو على ما يبدو واحد من أولئك "الطلبة الدائمين" الذين يتسكعون حول بيوت الشباب في الأحياء الداخلية، لكنه كان مجهولا تماما ولم يثر انتباه أحد. وفي الحقيقة فإن هذا الشاب، نوربرت الياس، كان على وشك نشر عمله العظيم "العملية الحضارية في سويسرا". بريطانيا الأكاديمية في الثلاثينات عميت بشكل غريب عن رؤية بريق المثقفين اليهود اللاجئين من وسط أوروبا والمعادين للفاشية، إلا إذا اشتغلوا في ميادين معترف بها تقليديا مثل الكلاسيكيات والفيزياء. ولربما كانت مدرسة لندن للاقتصاد المكان الوحيد الذي قدم لهم مسكنا وملاذا. وحتى بعد انتهاء الحرب، ظلت مهنة

الياس الأكاديمية هامشية في هذه البلاد، ولم تقدر قيمة علماء باحثين مثل كارل بولاني إلا بعد أن عبروا الأطلسي.

وجدت الجو في المدرسة لطيفا، كما وجدت في مكتبتها، التي كانت ما تزال في المبنى الرئيسي، مكانا جيدا للعمل. غرف المطالعة غصت بالقراء القادمين من وسط أوروبا والمستعمرات، ولذلك ظلت أقل محلية وانعزالا بشكل واضح من كامبريدج، ولو تمثل ذلك في اهتمامها بالعلوم الاجتماعية مثل الديموغرافيا، والسوسيولوجيا، والانثروبولوجيا الاجتماعية، التي لم تهتم بها كامبريدج. ومن الغريب أن العلم الذي أعطى اسمه للمدرسة كان في ذلك الوقت - وظل على الدوام - أقل تميزا وأقل مغامرة مما هو في كامبريدج، رغم أنه اجتذب بعضا من ألمع المواهب الشابة، التي لم تجد للأسف مواقع دائمة في مبنى شارع هوتون.

لا بد أنني شعرت بطريقة ما براحة أكبر في جو المدرسة الطلابي، خصوصا مع الطالبات فيها، حيث أقمت مع اثنتين منهن صداقة دامت عمرا وتزوجت فيما بعد من ثالثة، وإن دامت العلاقة هذه المرة زمنا أقصر. كما أن ثلاثة من الشيوعيين الذين عاصرتهم في المدرسة أصبحوا أصدقاء مدى الحياة: المؤرخ جون سافيل (الذي كان معروفا آنذاك باسم ستاماتوبولوس أو "ستام")، ورفيقته وزوجته فيما بعد كونستانس سوندرز، وصاحب الشخصية المؤثرة جيمس بي. جيفري، الذي تحول خلال الحرب من بروفسور يحمل شهادة الدكتوراه في التاريخ الاقتصادي إلى منظم لاجتماعات موظفي المتاجر، وحين عاد إلى البحث العملي - بقدر أقل من النجاح - سقط ضحية للحظر الذي فرضته الحرب الباردة على الأكاديميين الشيوعيين. ومن خلال زميل آخر في مدرسة لندن للاقتصاد حافظت على، أو أعدت تأسيس، الروابط والصلات مع النمسا: تيدي بريجر صاحب الشعر الأشعث والشخصية الآسرة، الذي حصل فيما بعد على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد من كامبريدج تحت إشراف جون روبنسون، الذي كان أكثر انسجاما مع أفكاره من روبينز وهايك في مدرسة لندن للاقتصاد. أرسلته عائلته بعيدا عن فيينا خوفا عليه من الأذى بعد أن وقع في مشاكل جراء مقاومة النظام الفاشي في النمسا بعد الحرب الأهلية عام ١٩٣٤، لكنه تخلى عن مستقبل مهني واعد في بريطانيا وعاد إلى فيينا المهدمة بعد الحرب، مثله مثل كل الشيوعيين النمساويين الذين عادوا من المنفى البريطاني.

في العطلات الصيفية كان الأعضاء الناشطون في الحزب من طلاب كامبريدج يذهبون إلى فرنسا للعمل مع جيمس كلوغمان. وبالإضافة إلى مارغوت هاينمان، جسد جيمس حلقة الوصل التي ربطتني مع الحقبة الشيوعية البطولية في كامبريدج قبل انتسابي إليها (بقي الاثنان شيوعيين مدى الحياة). كانت مارغوت، وهي إحدى الشخصيات المثيرة التي لا تنسى في حياتي، أخر حب لكورنفورد، وكتب لها إحدى آخر قصائده من إسبانيا، حيث أصبحت فيما بعد من النصوص الشعرية المختارة، كما غدت مارغوت شريكة لبيرنال. وعبر عمر مديد جسدت خلاله الصداقة، والأسوة الحسنة، والمشورة الصادقة، كان لمارغوت تأثير في حياتي لم يمارسه أحد سواها.

كان جيمس هو زعيم الحزب الآخر المعترف به إلى جانب كورنفورد. وبالنسبة لمعظم أعضاء الحزب الناشطين من طلاب كامبريدج، كان/وظل لفترة طويلة شخصية نافذة لها مكانتها وهيبتها، بل كان بمثابة "المرشد الروحي" إلى حد ما. وأعتقد أنه الأوثق اتصالا بالشيوعية الدولية من بين كل الطلاب الشيوعيين في عصره، لأنه بعد التخرج تخلى عن مستقبله الأكاديمي وانتقل إلى باريس ليصبح سكرتيرا لـ"التجمع الدولي للطلاب"، وهو منظمة طلابية دولية عريضة لكنها خاضعة لسيطرة الحزب الشيوعي. أتذكر في إحدى المرات الذي ذهبت فيها إلى هناك للقائه، أنني مررت بشخص يدعى ريمون غويو، الذي شغل لعدة سنوات منصب الأمين العام لـ"منظمة الشبيبة الشيوعية الدولية". كانت المنظمة تدير نشاطها من واحد من تلك المكاتب الصغيرة المغبرة التي ميزت المراكز السياسية غير الرسمية في فترة ما قبل الحرب، داخل زقاق قديم مسدود في المنطقة العاشرة في باريس، قبل أن تنتقل إلى موقع أكثر طموحا على الضفة اليسرى للسين. أما أبرز أنشطتها العامة فكان تنظيم المؤتمرات الدولية الدورية، التي ساعدها في التحضير لها طلاب متطوعون من كامبريدج وغيرها. عملت كمترجم في مؤتمر عام ١٩٣٧، الذي تصادف انعقاده مع معرض باريس الدولي الكبير في آخر دوراته قبل الحرب العالمية الثانية، بعد استمراره المدهش منذ أن بدأ بمعرض الأمير البرت عام ١٨٥١ . لا أتذكر أنني عملت تحت قيادة جيمس عام ١٩٣٨ (أمضيت معظم ذلك الصيف في شمال أفريقيا) ولا أستطيع التأكيد على ما ذكر بأنني جندت لحضور لقاء بين الطلاب العرب واليهود نظمه جيمس في عطلة عيد الفصح عام

١٩٣٩، لتشكيل جبهة مشتركة ضد الفاشية، بعد أن احتل موسوليني البانيا المسلمة[1]. قضيت صيف عام ١٩٣٩ مشاركا في التحضيرات التقنية لانعقاد أكبر هذه المؤتمرات، الذي انتهى قبل أيام قليلة من غزو هتلر لبولندا.

كان جيمس مختلفا في كل شيء، فيما عدا الذكاء والولاء السياسي، عن شريكه في الزعامة، جون كورنفورد، الرومانسي والبطولي والمفعم بالحياة. كل من عرفه أثر فيه صوته الناعم، وظرفه الرزين، ونظارته، وقسماته اللطيفة التي تجعله يبدو دائما وكأنه على وشك الابتسام. عاش جيمس وحيدا في غرفة فندق قرب مسرح الاوديون. وعلى حد علمي، استمر في هذا النمط من الحياة المترهبنة والمنعزلة طيلة حياته، محاطا في المناسبات، بالمعجبين الشبان. وقيل لي إنه اعتاد ترديد الدعابات الجنسية في صحبة الأصدقاء المقربين ـ ولم أكن من ضمنهم أبدا ـ ولأنه تعلم في مدرسة غريشام، موطن أكثر من شخصية بارزة اتهمت بالشذوذ الجنسي خلال وجوده فيها، فلربما كان شاذا هو الآخر، لكن لا يمكن للمرء أن يربط بينه وبين أي نوع من النشاط الجنسي. ويبدو أن ولعه الوحيد كان جمع الكتب، على الأقل خلال إقامته في بريطانيا في فترة ما قبل الحرب حين تعددت لقاءاتنا بشكل أكبر. كما أضاف نزوعه للابتعاد والعزلة إلى رصيد الاحترام الذي كنا نشعر به تجاهه، يشاركنا في ذلك كل من خالطه. ما الذي يعرفه المرء عنه؟ لم يبح بما في سريرته أبدا. والشيء الوحيد الواضح عنه هو قدرته المشهودة على التوضيح والتبسيط، وهالة الاحترام والنفوذ التي تحيط به، إلى أن دمره الشقاق بين ستالين وتيتو. لا يمكنني تذكر الكثير من الأحاديث السياسية مع جيمس في فترات الراحة من العمل عندما كنا في باريس خلال الفترة السابقة على الحرب، وحين كنا نجلس في المقاهي للعب الشطرنج ـ كان بارعا في شرح السبب الذي يجعله يغلبنا ـ أو حين نأخذ فترة استراحة من اللقاءات وآلات النسخ في الحانات لنلعب كرة القدم المصغرة، حيث كان اليهود يبارون الآسيويين.

في حكم المؤكد تقريبا أن "التجمع العالمي للطلاب" هو الذي وضع حجر الأساس لمهنة جيمس الغريبة خلال الحرب كشخصية مفتاحية في العلاقات البريطانية مع "الأنصار" المقاتلين تحت إمرة تيتو. كانت الحركات الطلابية اليسارية المهمة نادرة في

1 - H. S. Ferns, op. cit., p. 113.

وسط أوروبا، حيث كان الموقف النمطي للطلاب في الثلاثينات (لكن ليس بالضرورة للأساتذة) يتبنى القومية اليمينية التي تحولت إلى الفاشية. أما الاستثناء المهم فيمثله الطلاب الشيوعيون في يوغسلافيا، وخصوصا في جامعة بلغراد، حيث تكرر حضور أحد زعمائهم، إيفو (لولو) ريبار، الشخصية المحورية في حركة الأنصار فيما بعد، مؤتمرات التجمع العالمي للطلاب. وعلى الأرجح لا يوجد أحد في أي مكان يقع إلى الغرب من موسكو، ولا في القاهرة حتما، يفوقه في معرفة الشخصيات الشيوعية الفاعلة في يوغسلافيا وكيفية الاتصال بها.

بعد تفجر الخلاف وتفاقم الشقاق بين ستالين وتيتو، أجبر جيمس بضغط مباشر من موسكو كما هو مؤكد تقريبا، على قطع صلاته إلى الأبد مع الشيوعيين اليوغسلاف، من خلال تأليف كتاب يفتقد المنطق والصدق: "من تروتسكي إلى تيتو". ولم يتمكن أبدا من استعادة سمعته باعتباره المفكر الوحيد من الدرجة الأولى (باستثناء بالم دوت) الذي يصل إلى قيادة الحزب. ومنذ ذلك الحين، لم يركب أية مخاطرة ولا اتخذ أية مبادرة ولا قال شيئا، ولم يعد يمثل قوة جدية حتى ضمن نطاق الحزب الشيوعي البريطاني الصغير. فوضه الحزب بحمل مسؤولية التعليم (يساعده في ذلك صديقنا القديم الطالب الذي عمل في شؤون الحزب التنظيمية جاك كوهن)، وهي مهمة أداها بذكاء ونجاح، لأنه مدرس بالفطرة. كان على قدر كبير من الذكاء والإدراك بحيث حال بينه وبين تجاهل الإحساس بالمرارة والإحباط، علاوة على أسف المعجبين من الثلاثينات لرجل توقعوا منه الكثير. ثم ازداد ضعفا وعجزا، إلى أن ظهرت آخر ومضة تشير إلى جيمس كلوغمان القديم عام ١٩٧٥، حين اقترحت المخابرات البريطانية، التي حاولت رشوته بشكل دوري منذ أن هرب بيرغس ومكلين إلى موسكو عام ١٩٥١، أن يستعد على الأقل لتقديم العون إلى العملاء البريطانيين السريين كما فعل غيره، ولربما عرضت عليه بعض الإغراءات [1]. جرحت مشاعره فكرة أن تظن المخابرات البريطانية، التي عرفها معرفة جدية - إذ عمل فيها خلال الحرب - بأنه قادر على خيانة قضيته. رفض رفضا قاطعا. توفي بعد وقت قصير في بيت ينأى عن الوصف ويغتص بالكتب في جنوب لندن.

---

1 - Yuri Modin, My Five Cambridge Friends (London, 1994), pp. 100-101.

كان فصلي الدراسي الأخير (أيار/مايو - حزيران/يونيو ١٩٣٩) جيدا. عملت محررا لمجلة "غرانتا"، وانتخبت في عضوية "الرسل"، وحصلت على المرتبة الأولى في امتحان درجة الشرف، الأمر الذي منحني زمالة كلية كينغ. لم أواجه سوى نكسة واحدة. ففي ربيع عام ١٩٣٩، قرر عمي سيدني، الذي منعه عمره من تقديم أي نوع من الخدمة الحربية، التخلي عن الكفاح الطويل في سبيل كسب الرزق في بريطانيا والهجرة إلى تشيلي مع نانسي، وبيتر، وبحوزته بضع مئات من الجنيهات التي استطاع ادخارها للبدء بحياة جديدة. ولم تكن مسألة ذهابي معهم قبل بضعة أسابيع من الامتحان أمرا واردا أبدا، وعلى أية حال لم أكن لأغادر البلاد والحرب على الأبواب. في تلك الأيام كانت تشيلي بلدا قصيا ونائيا عن أوروبا. ودعتهم وهم يبحرون على مركب من ليفربول، وأخذت القطار عائدا إلى ادجوير، لأنام ليلة أخيرة على أرضية منزل عار من الأثاث تماما في هاندل كلوس، حيث تركت حقيبتي. زجاجة النبيذ (الحلو) التي احتفظت بها من المنزل القديم اختفت خلال فترة غيابي. في الصباح رجعت عائدا إلى كامبريدج.

أمضيت الصيف في فندق باريسي كئيب لكن في موقع جيد في شارع كوياس على حساب الأرباح التي حصلت عليها من تحرير "غرانتا"، مشاركا في التحضير للمؤتمر الكبير الذي ينظمه جيمس. ها هي صورة للمؤتمر أمامي: خليط من البيض (معظمهم من كامبريدج) والهنود، والإندونيسيين، ومبعوثين من الشرقين الأوسط والأقصى، مع أفريقي وحيد. أتذكر تلك الفتاة النبيلة من امستردام - قتلت فيما بعد وهي تحارب في صفوف المقاومة الهولندية. هنا، بين حشد الوجوه الشابة المنسية، يبدو ساتياديت سويغونو، الجاوي الوسيم، الذي أصبح زعيما نقابيا كبيرا في إندونيسيا بعد الحرب وقتل عام ١٩٤٨ خلال التمرد الشيوعي المسلح في ماديون. هناك، بجانب جيمس، يقف بيتر كيونيمان، الأمين العام المستقبلي للحزب الشيوعي في سريلانكا، وب. ن. هاكسار، كبير مساعدي السيدة غاندي. ها هم اللاجئون الإسبان - ميغي رويلز، الذي بذل جهدا كبيرا في العمل على آلة النسخ مع بابلو ازكارات من الحزب الشيوعي الإسباني. ومن إحدى الزوايا يطل الوجه البنغالي الصغير والعاطفي لآرون بوس. كان مؤتمرا ناجحا، باستثناء أمر واحد: سوف تندلع الحرب قبل مرور أسبوعين على انتهاء أعماله.

كنت بحاجة إلى الراحة والتجول لبضعة أيام في بريتاني. عدت في الأول من أيلول/ سبتمبر. امرأة فرنسية أنيقة لكن مشغولة الفكر على ما يبدو، تقود سيارة رياضية نقلتني معها من مكان ما من أنغرس. هل سمعت الخبر؟ هتلر اجتاح بولندا. ركبت معها حتى باريس، وتوقفنا على الطريق لسماع آخر الأخبار من الراديو، والأحاديث العرضية عن الحرب القادمة. وبما أننا في فرنسا، لم يكن من اللائق ألا نتوقف لتناول الغداء، لكن في مثل ذلك اليوم لم يتذكر أحد هذا التقليد. كان بعض سكان باريس يسيرون بالاتجاه المعاكس في سيارات مثقلة بالأحمال. تمنى كل منا للآخر حظا سعيدا عندما نزلت من سيارتها. اتجهت نحو مصرف ويستمنستر في ساحة الفاندوم ووقفت في الطابور مع غيري من البريطانيين. كان يقف قبلي رجل نكد المزاج غار فكه الأسفل، وأظهر جواز سفره بأنه الكاتب والرسام ويندهام لويس. ليس هناك الكثير مما يمكن الحديث عنه ونحن في الطريق إلى سانت لازار للحصول على التذاكر، إذا استطعت، لركوب القطار الليلي إلى لندن. كان قطارا طويلا ومكتظا بشقراوات فارعات القد: راقصات إنكليزيات من "الفولي بيرجير" و"كازينو باريس" عائدات إلى بيوتهن في موركامب أو نوتنغهام. نزلت من القطار على ما اذكر في محطة فيكتوريا بعد أن غفوت قليلا في آخر صباحات السلام، لكن لأجد اليوم مشرقا في لندن. لم يعد لي منزل هناك، لكن أعتقد بأنني قضيت آخر ليلة من ليالي السلام في شقة لورنا هاي، وهي طالبة اسكتلندية من خريجات نيونهام كانت تبحث عن عمل لها في الصحافة اللندنية. وكان موهان كومارامانغالام، الذي عاد إلى الهند، قد أخبرها بأن مستقبله كثوري محترف يجعل من المستحيل عليه اصطحابها معه.

هكذا انتهت سنوات عقد الثلاثينات بالنسبة لي.

-٩-

حياتي كشيوعي

I

أصبحت شيوعيا في عام ١٩٣٢، رغم أنني لم أنضم إلى الحزب حتى انتسابي إلى كامبريدج في خريف عام ١٩٣٦ . بقيت عضوا فيه طيلة خمسين سنة تقريبا. ومن الواضح أن السبب الذي جعلني أبقى كل هذه المدة يناسب السيرة الذاتية، لكن لا يتمتع بأهمية تاريخية عمومية. من ناحية أخرى، فإن السؤال المتعلق بالسبب الذي جعل الشيوعية تجتذب العديد من أفضل الرجال والنساء من جيلي، وما الذي كان يعنيه أن نكون شيوعيين، يجب أن يشكل موضوعا مركزيا في تاريخ القرن العشرين. إذ لا شيء يميز ذلك القرن أكثر مما دعاه صديقي أنتونيو بوليتو "واحدا من أعظم شياطين القرن العشرين: الولع بالسياسة". وكانت الشيوعية بمثابة التعبير المثالي عنه.

الآن، ماتت الشيوعية. وانهار الاتحاد السوفييتي ومعظم الدول والمجتمعات التي انبنت على نموذجه، سقطت "ثمرات" ثورة أكتوبر ١٩١٧ التي شكلت مصدر الوحي الملهم لنا، مخلفة ورائها مشهدا من الخرائب المادية والمعنوية والأخلاقية، بحيث اتضح أن الفشل متأصل في صميم هذا المشروع منذ البدء. لكن المنجزات التي حققها أولئك الذين استمدوا إلهامهم من هذه العقيدة، وما ارتبط بها من إيمان بأنه "لا توجد قلاع يستعصي فتحها على البلاشفة"، تعتبر استثنائية بكل المعايير. ففي خلال أقل من ثلاثين سنة من وصول لينين إلى المحطة الفنلندية، عاش ثلث البشر وكل الحكومات الواقعة بين إلبه وبحار الصين تحت حكم الأحزاب الشيوعية. ونفس الاتحاد السوفييتي، الذي سحق روسيا القيصرية، خرج من أتون الحرب العالمية الثانية كإحدى القوتين العظميين. ولم تتواجد أيديولوجية مماثلة قابلة للمقارنة بالشيوعية منذ عصر الفتوحات الإسلامية (التي كانت أبطأ سرعة وأقل انتشارا) في القرنين السابع والثامن الميلاديين.

لقد تحقق كل ذلك بواسطة "أحزاب طليعية"، صغيرة (نسبيا أو مطلقا) وقائمة على الاختيار الذاتي، لأن الشيوعية، على العكس من أحزاب الطبقة العاملة التي ظهرت عند نهاية القرن التاسع عشر واستلهمت غالبيتها أيضا الوحي والشجاعة من أفكار كارل ماركس، لم تكن مصممة كحركة جماهيرية بالأساس، ولم تصبح كذلك إلا بالصدفة التاريخية، إذا جاز التعبير. بهذا المعنى، تتناقض الشيوعية مع، بل ترفض في الحقيقة، المقاربة الكلاسيكية للديمقراطية الاجتماعية الماركسية، التي كانت تتوقع من كل من يعرفوا أنفسهم باعتبارهم من "العمال" التماهي مع الأحزاب التي هي في الجوهر، كما يعبر عن ذلك اسمها ذاته (الأحزاب العمالية)، أحزاب للعمال. وبدا لهؤلاء أن دعم حزب العمال لا يمثل خيارا سياسيا فرديا بل اكتشافا لكينونة الشخص الاجتماعية، التي تملك بالضرورة بعض المضامين العامة. وبالمقابل، كانت أقل أنشطتهم السياسية متشربة بالمعنى الذي يحدد كينونة الشخص الاجتماعية، بحيث أن أعضاء النوادي الذين كانوا يجتمعون في الغرف الخلفية من الحانات "في فيينا الحمراء" (أتذكر رؤية مثل هذه الملاحظات هناك حتى في السبعينات) مارسوا هواياتهم ليس كجامعي طوابع بل كعمال في جمع الطوابع، أو كعمال في هواية تربية الحمام. يمكن العثور على مثل هذه الأحزاب أيضا ضمن الحركة الشيوعية، كما تبدى ذلك بوضوح في إيطاليا في فترة ما بعد الحرب. فالحزب هناك، بعد أن تجذر في الأسرة والمجتمع المحلي، جمع تراث الحركة الاشتراكية القديمة مع الكفاءة التنظيمية اللينينية والسلطة المعنوية للكنيسة الكاثوليكية كمؤسسة دنيوية. (كما عبر عن ذلك باليرمو تولياتي عام ١٩٤٥بالقول : "في بيت كل أسرة هنالك صورة لماركس معلقة إلى جانب صورة يسوع المسيح"). كان الحزب نوعا من التنظيم الذي تطلب فيه مثلا عضوة شابة من مدينة مودينا بصورة طبيعية تماما من منظمة حزبها إجراء التحريات عن منظمة الحزب في بادوفا، لاكتشاف ما إذا كان "حبيبها" المسلح في تلك المدينة "جادا" في مغازلتها (للأسف، تبين أنه متزوج في بادوفا) [1]. هنا، يتداخل العام والخاص (حين تتحسن حال الفرد يتحسن وضع العالم) بحيث يتعذر الفصل بينهما.

الأحزاب الشيوعية في حقبة "الكومنترن" كانت من نوع مختلف تماما، حتى حين

1 - Alessandro Bellassai, 'Il Caffe Dell' Unita. Pubblico e Privato nella Famiglia Comunista degli Anni 50', Societa e Storia XXII, No. 84, 1999, pp. 327-8.

زعمت (بصورة صادقة أحيانا) أنها متجذرة في صميم الطبقة العاملة ومعبرة عن مصالحها ومطامحها. كانت تمثل "الثوريين المحترفين" على حد تعبير لينين، أي أنها كانت بالضرورة عبارة عن جماعات صغيرة مختارة، نسبيا أو مطلقا. إن الانضمام إلى مثل هذه التنظيمات كان في الجوهر قرارا فرديا، يؤدي إلى تغيير مهم في الحياة بالنسبة لأولئك الذي يدعون "صلة الوصل" للانضمام إلى الحزب، وللرجل ـ أو المرأة ـ الذي انضم إليه. كان القرار مزدوجا، لأن البقاء في الحزب (على الأقل خارج نطاق الدول الخاضعة للحكم الشيوعي) تضمن الخيار المستمر بعدم الخروج منه، وهو أمر ممكن بسهولة في أي وقت. وبالنسبة لمعظم أولئك الذين انضموا إلى الحزب، كانت عضويتهم فيه حدثا مؤقتا في حياتهم السياسية. ومع ذلك، وعلى العكس من جيل عام ١٩٦٨، لم تشارك سوى أقلية قليلة من الشيوعيين في فترة ما بين الحربين في الثورة مقارنة بأولئك الذين انضموا إلى النادي السياسي (بالمناسبة، تأسس هذا بوصفه تنظيما يوتوبيا صغيرا بواسطة شاب من المقاومين السابقين بعد الحرب العالمية الثانية).

جيورجيو اميندولا، وهو أحد أفراد جيل ما قبل الحرب من القادة الشيوعيين الطليان، كتب الجزء الأول من سيرته الذاتية المكتوبة بأسلوب جميل تحت عنوان "حياة اخترتها". وبالنسبة لأولئك الذين أصبحوا منا شيوعيين قبل الحرب، خصوصا قبل عام ١٩٣٥، كانت قضية الشيوعية هي القضية التي عقدنا العزم على تكريس حياتنا لها، وهكذا فعل بعضنا حقا. وتبين أن الفرق الحاسم كان بين الشيوعيين الذين قضوا عمرهم في المعارضة وبين الذين استلمت أحزابهم السلطة، ولذلك أصبحوا بطريقة مباشرة أو غير مباشرة مسؤولين عما يحدث في أنظمتهم السياسية. السلطة لا تفسد بالضرورة الناس كأفراد، رغم صعوبة مقاومة فسادها. ما تفعله السلطة، خصوصا في فترات الأزمات والحروب، هو أنها تجعلنا نسعى إلى تبرير (بل نبرر) التصرفات غير المقبولة حين يقوم بها الأفراد. وبالنسبة للشيوعيين الذين لم تستلم أحزابهم السلطة أبدا ـ كما هي الحال معي ـ أو انخرطوا في أوضاع استدعت اتخاذ قرارات مصيرية تتعلق بحياة الناس أو موتهم (المقاومة، معسكرات الإبادة) كان الأمر أسهل عليهم.

لذلك، كانت العضوية في تلك "الأحزاب الطليعية" اللينينية خيارا شخصيا عميقا، لكنه لم يكن نظريا أو تجريديا. فبالنسبة لمعظم الشيوعيين في فترة ما بين

الحربين كان الانضمام إلى الحزب خطوة إضافية على الطريق لمن هم بالأصل "يساريون"، أو "معادون للإمبرياليين" في مناطق العالم الأخرى التي ينطبق عليها ذلك التوصيف. كان الأمر أسهل بالطبع على أولئك الذين أتوا من بيئات يمينية متجانسة سياسيا ـ مثل نيويورك مثلا، حيث سمعت أحد كتاب صحيفة "نيويوركر" يقول مفكرا لزميل له: "لا يصادف المرء فعلا جمهوريين" خارج مدينة دالاس في تكساس. بل يصبح الخيار أكثر سهولة بالنسبة لأولئك الذين أتوا من مجتمعات محلية، همشتهم أوضاعها ضمن المجتمع الأوسع، ووضعتهم الظروف خارج الإجماع السياسي الوطني. بالمقابل، لم يكن من الشائع أن تقابل بين العدد الكبير من الشيوعيين السابقين من أبناء جيلي من تحولوا إلى اليمين السياسي المتطرف. فطريق الخروج بالنسبة للشيوعي الذي تحرر من الوهم السياسي كان يؤدي به، إذا كان شابا في مقتبل العمر، إما إلى فرع آخر من اليسار السياسي أو إلى الليبرالية المعادية عموما بدرجات متفاوتة للشيوعية في حقبة الحرب الباردة. وحتى في الولايات المتحدة، توجب مرور جيل كامل قبل أن يتخلى المفكرون والمثقفون اليساريون (المعادون للستالينية) في نيويورك عن الولاءات الأسرية القديمة والإعلان بشكل صريح أنهم من "المحافظين الجدد".

توضح كل ذلك على وجه الخصوص بين المثقفين والمفكرين، لأن التقاليد السائدة للتفكير العقلاني حول المجتمع تعود في جذورها إلى عصر التنوير الأوروبي في القرن الثامن عشر. ونظرا لأن اليمين السياسي لم يتوقف أبدا عن الشكوى، فإن ذلك قد جعل المثقفين والمفكرين ينزعون إلى التعاطف مع قضايا مثل الحرية، والمساواة، والإخاء. وحتى صديقي ايزايا برلين، بكل التزامه الداخلي العميق بالهوية اليهودية غير القابلة للمناقشة، التي جعلته يدافع عن، أو على الأقل يحاول فهم، نقاد عصر التنوير، وجد من المستحيل عدم التصرف مثل الليبرالي التنويري. فخارج المانيا، لا يكاد يوجد تراث عقلاني علماني مناسب لليمين. في النصف الأول من القرن العشرين، استطاع اليسار اجتذاب عدد أكبر من المثقفين والمفكرين مقارنة باليمين. وسادت معادة الفاشية حتى في مجال الفنون الإبداعية الرئيسة، حيث التفكير القومي أقل حضورا. أما القول الفصل في هذه المسألة فأوجزه بأسلوب مثير للإعجاب عالم بلجيكي بارز متخصص بالأدب الصيني ويتمتع بسجل لا يقارن في مجال تفكيك الأساطير الماوية

(يحمل اسما مستعارا هو "سايمون ليس"): "كلنا في العالم الثقافي نعرف أشخاصا كانوا شيوعيين وغيروا فكرهم. كم عدد من قابل منا فاشيين سابقين؟". الحقيقة هي أنهم قلة قليلة بغض النظر عما إذا غيروا فكرهم أم لا بعد الحرب.

لا يعني ذلك أن الشيوعية اجتذبت نمطا أو أنماطا خاصة من الشخصيات الميالة إلى التطرف، والاستبداد، وغيرها من النزعات "اللاديمقراطية"، رغم أن ذلك قدم كحجة في حقبة الحرب الباردة من قبل كتاب تلهفوا لإظهار التشابه بين الشيوعية والفاشية، لكن لا ينبغي للسيكولوجيا الاجتماعية المغرضة سياسيا أن تعيقنا وتقيد تفكيرنا. على أية حال، ليس هناك من أساس للاعتقاد الليبرالي بالصلة الجوهرية بين "المتطرفين" اليساريين واليمينيين، الأمر الذي يجعل من السهل القفز من تطرف إلى آخر. ونظرا لأن الحزب الشيوعي البريطاني كان صغيرا، فإن العمال والطلاب الشيوعيين كانوا استثناء، على الأقل في أواخر الثلاثينات، لكنهم لم يكونوا نمطا فريدا. إذ لم أتمكن من استكشاف نزعات شخصية لدى أترابي الطلاب في كامبريدج الذين انضموا إلى الحزب الشيوعي تميزهم عن أولئك الذين لم ينضموا إليه، اللهم فيما عدا تمتعهم بدرجة أكبر من الحيوية الفكرية. في الحقيقة، حينما قابلت في السنوات اللاحقة أحد رفاقي القدامى وهو يعيش مرحلة حياته التالية على اعتناقه للشيوعية كمهني محترم من الطبقة الوسطى ـ دون أن يكون محافظا ـ كنت أقول لنفسي أحيانا: "كيف جندته هو وأمثاله في الحزب؟!". ليس من المفاجئ كثيرا أن العمال الذين انضموا إلى الحزب كانوا، في بريطانيا على الأقل، أكثر شبابا وحيوية من غيرهم، لكنهم يمثلون نموذجا شائعا لطبقتهم ومهنتهم ـ معظمهم من المهندسين، وعمال البناء، وحتى عمال المناجم في بعض المناطق. في الفترة الممتدة بين الثلاثينات والخمسينات، وقبل أن يغدو الحصول على الشهادات العليا في متناول طبقتهم، كان السبيل الوحيد المفتوح أمام الشبان اللامعين المبتدئين أو الحرفين الممتلئين بالقوة والنشاط والفاعلية للحصول على تثقيفهم السياسي والفكري إنما يمر من خلال الحزب. فهو الذي كوّن الزعماء المستقبليين للنقابات العمالية البريطانية، وهو الذي زود نفسه طبعا بكوادر الطبقة العاملة القادرة والمؤهلة، وهذا أمر يصر عليه كل حزب "بروليتاري" واع. وعلى العكس من الرأي الشائع، فإن المفكرين والمثقفين أنفسهم لم يلعبوا دورا مهما في قيادة الحزب، إلى أن نقلت الثورة

التعليمية الشباب القادرين على النجاح في الامتحانات الدراسية من الورشة إلى الكلية، الأمر الذي أصبح يجسد السبيل لدخول السياسة أو الحصول على عمل أفضل - ليس فقط ضمن الأحزاب الشيوعية.

لذلك لم تكن الشيوعية أداة وطريقة لانتقاء "المتطرفين" من بين الأشخاص "غير المتطرفين"، رغم أن قطبي الطيف السياسي كليهما قد اجتذبا في بعض الأحيان نفس "الزبائن"، أي أفرادا، في مقتبل العمر عادة، لديهم ميل طبيعي للعمليات المغامرة أو العنف السياسي، الذين يجتذبهم إغراء الإرهاب أو العمل المباشر. ولربما يكون نموذج "رامبو" أكثر جاذبية بالنسبة لليسار المتطرف نظرا لارتفاع حدة المواجهة في الشوارع وانبثاق جماعات صغيرة مسلحة في أعقاب الثورة الطلابية عام ١٩٦٨، مع خطابها البلاغي حول "الرجال المقاتلين في الشوارع". لكن الحياة المكرسة لصنع الثورات ليست مماثلة للحياة التي تستمد إثارتها من حرب العصابات أو المغامرة.

حين نأخذ بالاعتبار تراث وأهمية الأنشطة السرية في الأحزاب الشيوعية، التي كانت غير مشروعة (باستثناء الحزب في بريطانيا) على الأقل لفترة من تاريخها، نجد مجالا مفتوحا لحياة المغامرة في الحركة الشيوعية الدولية في عصري، لكن البلشفية الذي تمثل شعارها في الكفاءة والأهلية بدلا من الرومانسية، لم تحبذ ثقافة لصوص البنوك أو هجمات الفدائيين. فقد ابتكرت المكانة السامية "للمفوض السياسي" (المدني) لأنها ارتابت بدوافع الجنود. كانت معادية نظريا للإرهاب الفردي، وردة فعل لينين على مثل هذه التلميحات كانت نموذجية تماما، حين لم يستطع فهم السبب الذي جعل الديمقراطي الاجتماعي فريدريك أدلر يطلق النار عام ١٩١٦ على رئيس الوزراء في إمبراطورية هابسبرغ ويرديه قتيلا كاحتجاج على الحرب العالمية الأولى. "ألم يكن من المؤثر أكثر بالنسبة له، كسكرتير للحزب، أن يوزع على الفروع دعوة للإضراب؟".

عرفت عددا من الشيوعيين الذين قد تثير حياتهم المهنية، أو أثارت بالفعل، اهتمام كتاب قصص الإثارة، لكن مثالهم النموذجي عن النشاط السري ككل، مهما كان خطرا، لم يكن يتجسد في المغامرة أو "مسرحة" الذات. دعونا الآن نعقد مقارنة بين شخصية الكسندر رادو، رئيس شبكة التجسس السوفييتية البالغة الأهمية في سويسرا خلال الحرب، وهو الجاسوس البارع الوحيد الذي أمضيت معه ليلة عيد ميلاد غريبة

نوعا ما في بودابست، وبين شخصية عامل الراديو لديه الكسندر فوت، وهو على ما يبدو عميل بريطاني مزدوج، كما وصف كل منهما في أدب الجاسوسية. فوت "لم يصبح عميلا سريا بالأساس بسبب الأيديولوجيا، أو المال، أو الشعور الوطني. فهو لا يكسب سوى القليل من المال من التجسس، كما أن الأفكار السياسية المجردة تصيبه بالملل، وجهاز مكافحة الجاسوسية البريطاني (إم أي ٥) لم يعتبره وطنيا حين عاد إلى بريطانيا. لكنه مغامر بالفطرة.." [1]. أما رادو فلم يكن يبدو كرجل متلهف للنشاط والحركة، لكنه يشبه رجل أعمال كهلا يميل إلى حياة الراحة والكسل، وتجسد موائد المقاهي في مدن وسط أوروبا بيئته الطبيعية لتزجية أوقات الفراغ. حين قابلته عام ١٩٦٠، وقد عاد لتوه للتدريس في جامعة كارل ماركس للاقتصاد في بودابست، بعد أن أمضى عدة سنوات في معسكرات الاعتقال التي أقامها ستالين، كان كما أراد على الدوام، عالما جغرافيا ورسام خرائط. أمضى حياته السياسية برمتها منذ عام ١٩١٨ ممارسا، أو متوقفا عن ممارسة، النشاط السري، ليعود دوما إلى مهنته. لم يكن يلهيه لا القتال - هو الذي شكل لواء العمال المسلح الذي قدر له أن يقود الثورة الألمانية (المجهضة) عام ١٩٢٣ - ولا إدارة شبكات الجاسوسية. لا شك بأنه استمتع أيضا بالإثارة المصاحبة لهذا النمط من الحياة، لكنه لم يفاجئني باعتباره رجلا اختاره لهذا السبب. لقد قام بما ينبغي القيام به. قال لي: "اعتاد راكوسي]الزعيم الشيوعي الهنغاري والديكتاتور الأسبق، والذي تقاعد في المنفى في الاتحاد السوفيتي عند إجراء هذه اللقاء مع رادو [أن يقول لي: 'لم لا تصبح ثوريا محترفا بدوام كامل؟' حسنا، انظر أين هو وأين أنا. لحسن الحظ أنني أمتهن عملا مناسبا لم أتخل عنه أبدا". ومما لا شك فيه أن الأحزاب الشيوعية لم تكن مكانا مناسبا للقيام بالمغامرات الرومانسية على الإطلاق.

على العكس من ذلك، كانت مركزا للتنظيم والروتين. ولربما هذا هو السبب الذي مكن جماعات تضم بضعة آلاف من الأعضاء - كما هو الحال في الحزب الشيوعي الفيتنامي عند نهاية الحرب العالمية الثانية - من أن تصبح، حين تسنح الفرصة، قادرة

---

1 - Anthony Read and David Fisher, Operation Lucy: Most Secret Spy Ring of the Second World War (London, 1980), pp. 204-5.

على إقامة وتأسيس الدول. إن سر الحزب اللينيني لا يكمن لا في الحلم بالوقوف خلف المتاريس ولا حتى في النظرية الماركسية. بل يمكن إيجازه بعبارتين اثنتين: "ضرورة التحقق من القرارات" و"الانضباط الحزبي". أما جاذبية الحزب فتتمثل في أنه ينجز الأمور حين يعجز الآخرون عن إنجازها. الحياة داخل الحزب كانت في العمق تقريبا معادية للبلاغة الخطابية، الأمر الذي ربما ساعد على إنتاج تلك الثقافة المكونة من "تقارير" طويلة إلى ما لا نهاية ومملة إلى حد لا يطاق ويتعذر قراءتها حين يعاد طبعها في منشورات الحزب، والتي ورثتها الأحزاب الأجنبية من الممارسة السوفييتية. وحتى في إيطاليا "الأوبرالية" كان المثقفون الشيوعيون الشبان في فترة ما بعد الحرب يسخرون من الأسلوب التقليدي للخطب في الاجتماعات العامة الكبرى الذي ظل المخلصون للحزب يصرون عليه. لا يعني ذلك إننا لم نكن نتأثر بالخطب المفوهة، بل اعترفنا بأهميتها في المناسبات العامة وفي "العمل الجماهيري". ومع ذلك، لم تكن الخطب النارية جزءا رئيسيا من ذكرياتي "الشيوعية"، باستثناء مناسبة واحدة جرت في باريس خلال الأشهر الأولى من الحرب الأهلية الإسبانية، حيث ألقت امرأة ضخمة الجثة ترتدي ثياب الحداد السود، خطبة حماسية في قاعة مكتظة بالناس ومشحونة بالعواطف ران عليها صمت ثقيل في فيل ديف. ومع أن أحدا من الحضور لم يكن يفهم الإسبانية، إلا أننا عرفنا بالضبط ما كانت تقوله لنا. لا أزال أذكر كلماتها (".. والأمهات وأبناؤهن..") وهي تحوم ببطء من الميكروفونات الموضوعة فوقنا كأنها طيور القطرس الداكنة.

كان "الحزب الطليعي" اللينيني توليفة تجمع الانضباط، والكفاءة، والانحياز العاطفي المطلق، إضافة إلى شعور بالإخلاص والتفاني الكلي. دعوني أشرح ذلك. في عام ١٩٤١، عندما أسقطت الطائرات الألمانية القنبلة الوحيدة على كامبريدج خلال الحرب العالمية الثانية، انهارت عارضة خشبية فوق رفيقتنا فريدي ومنعتها من الحركة. ظنت فريدي أنها ميتة لا محالة نتيجة الحريق الذي سببه الانفجار، وحاول صديقي تيدي برايجر عبثا إنقاذها إلى حين وصول فرق الإطفاء (كان يقيم في كوخي القديم في شارع راوند تشيرش على بعد أمتار من موقع الانفجار). قال فيما بعد يروي الحكاية:

صاحت، قدمي.. النار تحرق قدمي، وتابعت أنا محاولا قطع العارضة بالفأس،

لكنها لم تتزحزح. مسكينة فريدي.. كانت تصرخ قائلة، لا فائدة، لقد انتهيت. وحين بكيت من فرط اليأس وكثافة الدخان، وأنهكني التعب بحيث لم أعد أستطيع رفع الفأس، صاحت بأعلى صوتها: عاش الحزب، عاش ستالين.. عاش ستالين، وداعا يا شباب، وداعا يا تيدي (١).

لم تمت فريدي، ولكن أمضت بقية عمرها بساقين مبتورتين من تحت الركبتين. في ذلك الوقت لم يفاجئ أيا منا أن تكون الكلمات الأخيرة لعضو محتضر في الحزب عبارة عن تحية مهداة للحزب، ولستالين، وللرفاق (في تلك الأيام، كان الحب لستالين بين الشيوعيين الأجانب صادقا، وعفويا، ونقيا، وشموليا، مثله مثل الحزن الصادق الذي شعرت به غالبيتنا عام ١٩٥٣ حين توفي الرجل الذي لم يرغب أي مواطن سوفييتي/أو يجرؤ على مناداته باسم "الدلع"، مثل "العم جو" الذي كان يطلق عليه في بريطانيا، أو "أبو الشوارب" في إيطاليا). كان الحزب محور حياتنا كلها. أعطيناه كل ما نملك. وفي المقابل، أخذنا منه الثقة بنصرنا وتجربة الإخاء بيننا.

الحزب (بألف ولا التعريف) كان له الحق الأول، أو بدقة أكبر، الحق الوحيد الفعلي علينا. مطالبه لها الأولية المطلقة في حياتنا. قبلنا تراتبيته وقواعده الناظمة للسلوك والعمل. قبلنا الالتزام المطلق باتباع "النهج" الذي اقترحه علينا، حتى حين لا نتفق معه، رغم أننا بذلنا جهودا بطولية لإقناع أنفسنا بـ"صوابية" خطه الفكري والسياسي في سبيل "الدفاع عنه"، كما كان يُنتظر منا. لأن الحزب، على عكس الفاشية، التي تطالب بالخضوع الآلي وخدمة رغبات ونزوات الزعيم ("موسوليني دائما على حق")، وقبول الواجب غير المشروط بطاعة الأوامر العسكرية، كان يعتمد في سلطته - حتى في أوج حكم ستالين الاستبدادي - على قوة الإقناع بالعقل والمنطق و"الاشتراكية العلمية"، من الناحية النظرية على أقل تقدير. فبرغم كل شيء، يفترض فيه أن يتأسس على "التحليل الماركسي للأوضاع"، وهو أمر تعلم كل ماركسي كيف يقوم به. كما يتوجب تبرير "النهج"، مهما كان محددا مسبقا وغير قابل للتغير، على ضوء هذا التحليل، و"مناقشته" والمصادقة عليه على كافة مستويات الحزب، وذلك باستثناء الحالات التي

---

1 - Theodor Prager, Zwischen London und Moskau: Bekenntnisse eines Revisionisten (Vienna, 1975), pp. 56-7.

تجعل فيها الظروف ذلك أمرا مستحيلا من الناحية المادية. في الأحزاب الشيوعية التي لا تتربع على السلطة، حيث لا يخاف الأعضاء كثيرا من اتباع التراث اليساري القديم في المحاججة، توجب على القيادة المرور في عملية تكرار ذكر قضيتها إزاء الخط الرسمي للحزب حتى لا يبقى مجال للشك بما كان يُنتظر منا أن نؤيده ونصوت لصالحه (التعبير التقني لهذه العملية كان "التفسير الحليم"). بعد التصويت، كانت "المركزانية الديمقراطية" تتطلب استبدال المحاججة والنقاش بالإجماع على اتخاذ الفعل.

فعلنا ما أمرنا به. في دول مثل بريطانيا، لم يطلب منا القيام بمهمات دراماتيكية جدا. وفي الحقيقة، شعر الشيوعيون بالملل من أنشطة حزبهم الروتينية، التي كانت تؤدى ضمن الطقوس المعتادة للحركة العمالية البريطانية (الرفيق الرئيس، محضر اجتماعات الفرع، تقرير أمين الصندوق، القرارات، الاتصالات، بيع المطبوعات والمنشورات، وغير ذلك..) في بيوت الأعضاء أو في أماكن لا ترحب بهم، وذلك لولا إيمانهم بأن ما يفعلونه كان في سبيل إنقاذ العالم. لكننا كنا نطيع كل ما يأمرنا به. فبرغم كل شيء، أطاع معظم كوادر السوفييت والكومنترن في حقبة الإرهاب الستاليني الأوامر بالعودة إلى موسكو وهم يعلمون بما قد ينتظرهم هناك. وإذا ما أمرك الحزب بالتخلي عن عشيقتك أو زوجتك، فإنك تطيع وتنفذ الأمر. بعد عام ١٩٣٣، أصدر الحزب الألماني في المنفى أمرا إلى مارغريت مينات (التي شكلت فيما بعد مصدر إلهام "مجموعة أعمال ماركس وإنجلز"]بالإنكليزية)[بالعودة إلى إنكلترا من باريس، لأنهم احتاجوا في لندن إلى رفيق يملك وثائق سفر بريطانية صالحة، حيث لم يكن يسمح للشيوعيين الألمان المعروفين بدخول بريطانيا. أطاعت مارغريت الأمر دون أن تتردد لحظة واحدة وتخلت عن حب حياتها (كما أخبرتني فيما بعد). لم تر حبيبها مرة أخرى. رسوم الحزب كانت تدفع داخل معتقل أوشفيتز بعملة السجائر التي لا تقدر بثمن، كما أخبرني أحد الناجين من هناك بعد الحرب، وهو أمر يشير بدلالته إلى قدرة الحزب على المقاومة الجماعية وعلى تمكنه من تحصيلها.

إقامة علاقة جادة مع شخص خارج الحزب، أو حتى في مرحلة الاستعداد للانضمام إليه (أو الانضمام إليه مجددا) كانت أمرا غير وارد على الإطلاق. صحيح أنه لا يفترض بكافة الأعضاء الناشطين والمقاتلين تحاشي العلاقات الجنسية المحايدة سياسيا

بصورة كلية، نظرا لأنهم كانوا أيضا يميلون إلى التحرر في موقفهم تجاه الجنس، لكن حتى بالنسبة لعميل الكومنترن في قصيدة بريخت الرائعة "إلى الذين سيولدون لاحقا"، كانت العلاقة الجنسية العابرة دليلا آخر يثبت أن الواجب تجاه الحزب يأتي قبل كل ما هو شخصي. أعترف بأن اللحظة التي تخيلت فيها إمكانية إقامة علاقة حقيقية مع فتاة يصعب تجنيدها في صفوف الحزب، هي اللحظة التي أدركت فيها أنني لم أعد شيوعيا بالمعنى الكامل الذي عرفته في شبابي.

من السهولة بمكان، عند استعادة الأحداث الماضية، وصف ما شعرت به وما فعلته كعضو في الحزب قبل نصف قرن من الزمان، لكن من الأصعب بكثير تفسير ذلك. لا أستطيع إعادة خلق الشخص الذي كنته. فمشهد تلك الأيام يرقد مدفونا تحت ركام تاريخ العالم. حتى الصورة الذهنية - إن كانت هناك صورة - للآمال المدهشة التي راودتنا للحياة الإنسانية قد غشتها طبقات متسلسلة من السلع، والخدمات، والتوقعات، والاحتمالات، والخيارات الشخصية المتوفرة الآن لغالبية الرجال والنساء في الدول الغربية الغنية والمتقدمة تكنولوجيا بشكل لا يصدق. لقد أحجم ماركس وانجلز (وفي ذلك حكمة كبيرة) عن وصف الشكل الذي سيأخذه المجتمع الشيوعي، لكن معظم القليل الذي قالاه عن الحياة الفردية فيه، يبدو الآن(بدون الشيوعية) نتيجة لذلك الإنتاج الاجتماعي للوفرة غير المحدودة تقريبا، وذلك التقدم التقني المدهش، اللذين توقعا حدوثهما في زمن مستقبلي غير محدد، واللذين يعتبران اليوم قضية مسلما بها.

بدلا من قيامي وأنا في العقد التاسع من العمر بإعادة بناء الأسباب التي جعلتنا شيوعيين، دعوني استشهد بما كتبته بعد وقت قصير من أزمة عام ١٩٥٦، حين كنت أقرب عهدا بقناعات مرحلة الشباب. كتبت أقول إنه حتى أكثر الثوريين تطورا وثقافة يشاركون "بتلك اليوتوبيا، أو 'الاستحالة' التي تجعل حتى أكثر الأشخاص عصرية وحداثة يشعرون بإحساس من الألم الجسدي تقريبا حين يدركون أن قدوم الاشتراكية لن يجتث كل الحزن والكآبة، أو يوقف قصص الحب التعسة، أو يستأصل التفجع والكرب، ولن يحل كل المشكلات أو يجعلها قابلة للحل". ولاحظت أن "الحركات الثورية.. تثبت على ما يبدو أنه لا يوجد تغيير تقريبا غير قادرة على إحداثه":

قيم الحرية، والمساواة، وفوق كل شيء الإخاء، ربما أصبحت حقيقية لوهلة في مراحل الثورات الاجتماعية الكبرى، التي وصفها الثوريون الذين عايشوها بلغة تستخدم عادة في علاقات الحب الرومانسي. فالثوريون لم يحددوا لأنفسهم فقط معيارا أخلاقيا يسمو على كافة المعايير فيما عدا تلك التي وضعها القديسون، بل وضعوها أيضا في تلك اللحظات موضع الممارسة العملية. كان معيارهم نسخة مصغرة عن المجتمع المثالي، حيث كل البشر أخوة يضحون بكل شيء في سبيل الصالح العام دون التخلي عن فردانيتهم. وإذا كان ذلك ممكنا داخل الحركة، فلم لا يكون كذلك في كل مكان؟

بحلول ذلك الوقت أدركت، مع ميلوفان ديلاس الذي كتب بأسلوب مبدع عن سيكولوجية الثوريين، أن "تلك هي التعاليم الأخلاقية للطوائف (الدينية)"، لكن ذلك بالضبط ما أعطاها القوة الدافعة كمحرك للتغيير السياسي [1].

كان من السهولة بمكان في أوروبا في فترة ما بين الحربين العالميتين وخلالهما استخلاص نتيجة مفادها أن الثورة وحدها يمكن أن تعطي للعالم مستقبلا. فالعالم القديم محكوم عليه بالهلاك على أية حال. لكن هناك ثلاثة عوامل إضافية ميزت اليوتوبيا الشيوعية عن سواها من الطموحات بإقامة مجتمع جديد. أولا، إن الشيوعية، التي أثبتت بمنهجيات العلم حتمية انتصارنا، هي تنبؤ تم اختباره والتحقق منه عبر انتصار الثورة البروليتارية في سدس مساحة الكرة الأرضية، علاوة على التقدم الذي حققته الثورة في الأربعينات. لقد أظهر ماركس السبب الذي جعل من ذلك أمرا لا يمكن حدوثه أبدا في تاريخ الجنس البشري من قبل، والسبب الذي يمكن أن يحتم، بل حتم، حدوثه الآن، كما حصل فعلا. اليوم، انهارت القواعد المؤسسة لهذه الثقة التي عرفنا بها اتجاه التاريخ، وخصوصا الاعتقاد بأن الطبقة العاملة الصناعية ستكون القوة الدافعة للتغيير. لكن في "عصر الكارثة" كانت تبدو راسخة ثابتة.

ثانيا، كانت هناك النزعة العالمية. فحركتنا كانت حركة لكل البشر وليس لأي قسم أو طائفة أو عرق محدد منهم. إذ جسدت المثال الأعلى المتسامي فوق الأنانية، فردية كانت أم جمعية. أكرر القول مرة أخرى إن اليهود الشبان الذين بدؤوا كصهيونيين

---

1 - E. J. Hobsbawm, Primitive Rebels (Manchester, 1959), pp. 60-62.

(نظرا لمعاناة اليهود) قد أصبحوا شيوعيين لأنهم كانوا جزءا واحدا فقط من المضطهدين في العالم. كتب جوليوس براونثال، واصفا اعتناقه للاشتراكية في فيينا عند بداية القرن: "شعرت بالأسف لأصدقائي الصهيونيين الذين تخليت عنهم؛ لكنني آمل أن أتمكن من إقناعهم يوما ما بأن يفهموا أن الهدف الأصغر يجب أن يفسح الطريق للهدف الأكبر" (١). أما زميلتي في نيويورك الفيلسوفة اغنيس هيلر، فقد وصفت بمرارة مقنعة بقناع السخرية اعتناقها للشيوعية وهي في الثامنة عشرة من العمر في معسكر "صهيوني" أقيم في هنغاريا عام ١٩٤٧، كالتالي:

عشنا في طائفة مترابطة، وشعرنا بأننا ننتمي إليها معا. لم نكن بحاجة لا للثراء ولا للأثرياء.. لم أحب الأثرياء، واليوم أشعر بالخجل من الغنى. بغضت المتعاملين في السوق السوداء، والمضاربين في البورصة، والطماعين، والجشعين. ليس ثمة مشكلة! لسوف أبقى مخلصة للفقراء إلى الأبد. كنت شابة مجنونة إلى درجة أنني انضممت إلى الحزب الشيوعي لأكون مع الفقراء (٢).

في الممارسة العملية، كانت الهويات القومية أو غيرها من الهويات الجمعية أو التاريخية أكثر أهمية بمراحل مما اعتقدنا آنئذ. وفي الحقيقة، فإن الشيوعية قد مارست على الأرجح أعظم تأثير لها خارج أوروبا، حيث لم يكن لها منافس فاعل في الكفاح ضد القمع الداخلي أو الاستعماري. هوشي منه محرر فيتنام مثلا، اختار اسما حركيا في الكومنترن هو "نغوين الوطني". شين بينغ، الذي قاد التمرد الشيوعي وحرب العصابات في أدغال الملايو (وإن كان بدرجة أقل من النجاح)، بدأ نضاله كشاب وطني متحمس تحول إلى الشيوعية حين تخلى عن الأمل بقدرة حزب الكومنتانغ على تحرير الصين. قال لي ذلك بنفسه، وهو يجلس مسترخيا في أحد المقاهي، وقد أصبح رجلا صينيا عجوزا له اهتمامات فكرية ويختلف اختلافا بيّنا عن زعيم حرب العصابات الذي قاتل سابقا في الأدغال. ومع ذلك، وحتى بالنسبة لأولئك الذين بدؤوا بأهداف محدودة، وأولئك الذين تخلوا عن الأمل الأوسع حين أصابهم الأضيق بالإحباط، كالعديد من الشيوعيين اليهود الذين تركوا الحزب تحت ضغط حملات

---

1 - Julius Brauthnal, In Search of the Millennium (London, 1945), p. 39.

2 - Agnes Heller, Der Affe auf dem Fahrrad (Berlin-Vienna, 1999), pp. 91-2.

ستالين المعادية للسامية، جسدت الشيوعية المثل الأعلى للتسامي فوق الأنوية وخدمة كل البشر دون استثناء.

لكن هناك عاملا ثالثا في القناعات الثورية لشيوعيي الحزب: ما كان ينتظرهم على الطريق إلى الألفية الجديدة هو المأساة. ففي الحرب العالمية الثانية، كان الشيوعيون يمثلون غالبية أعضاء حركات المقاومة، ولم يقتصر السبب على تمتعهم بالكفاءة والبسالة، ولكن لأنهم ظلوا على الدوام مستعدين للأسوأ: للتجسس، والعمل السري، والاستجواب، والعمليات المسلحة. لقد ولد حزب لينين الطليعي في الاضطهاد، والثورة الروسية في الحرب العالمية، والاتحاد السوفييتي في الحرب الأهلية والمجاعة. وإلى أن تندلع الثورة لن يكون بمقدور الشيوعيين توقع الحصول على أية مكافآت وجوائز من مجتمعاتهم. فما يكمن في انتظار الثوريين المحترفين هو السجن، والنفي، وحتى الموت في كثير من الأحوال. وعلى عكس الفوضويين، وأعضاء الجيش الجمهوري الإيرلندي، والاستشهاديين الإسلاميين، لم يشكل الكومنترن طائفة من الشهداء الأفراد، رغم أن الحزب الشيوعي الفرنسي بعد التحرير قدر عاليا جاذبية الحقيقة (الصادقة) التي تشير إلى أنه خلال المقاومة كان "حزب أولئك الذين أعدموا رميا بالرصاص". فقد جسد الشيوعيون دون ريب العدو الأساسي لكل حكومة تقريبا، بما في ذلك حتى القلة التي سمحت لأحزابهم بالوجود الشرعي، كما جرى تذكيرنا باستمرار بالمعاملة التي تنتظرهم في السجون ومعسكرات الاعتقال. ومع ذلك لم نكن نرى أنفسنا بمثابة معذبين معانين أو ضحايا محتملين، بل مقاتلين في حرب مستمرة دائما وأبدا. ومثلما كتب بريخت في مرثاته العظيمة في الثلاثينات للشيوعيين المحترفين في الكومنترن:

آكل طعامي وسط المعارك
وأستلقي لأنام بين القتلة

الصلابة هي معدن الجندي الحقيقي، بل ظهرت في شعارنا السياسي ("العناد"، "الصلابة"، "قسوة الفولاذ"، "وحدة متراصة"). الصلابة، أو القسوة التي لا ترحم في الحقيقة، والتي فعلت ما توجب فعله، قبل وخلال وبعد الثورة، كانت جوهر البلشفية. فهي الاستجابة اللزومية للعصر، كما كتب بريخت:

أنت، ستبزغ من الطوفان
الذي ردينا فيه
تذكر أيضا
حين تُحدّث عن ضعفنا
الزمن الأسود
فقد نجوت

لكن النقطة المهمة في قصيدة بريخت، التي تخاطب شيوعيي جيلي كما لم تفعل غيرها، تتمثل في أن الصلابة مفروضة على الثوريين:
نحن، الذين أردنا تحضير الأرض للحنو والرقة
لا يمكن أن نكون لطفاء

بالطبع لم نتصور/وما أمكننا أن نتصور حجم العبء الذي كان يثقل كاهل الشعوب السوفييتية تحت حكم ستالين، حينما أعلنا انحيازنا إليه وإلى الكومنترن، وأحجمنا عن تصديق القلة التي أخبرتنا عما عرفته أو ظنته [1]. لم يكن أحد ليتوقع حجم المعاناة الإنسانية في الحرب العالمية الثانية إلى أن اندلعت. لكن، من المفارقة التاريخية الافتراض أن الجهل الحقيقي أو المتعمد وحده هو الذي حال بيننا وبين إدانة وشجب الأعمال الوحشية التي ارتكبت من جانبنا. وعلى أية حال، لم نكن ليبراليين. فالليبرالية هي التي أخفقت. وفي الحرب الشاملة التي خضناها، لا يسأل المرء نفسه عما إذا توجب وضع حد للتضحيات المفروضة على الآخرين يتجاوز ما هو مفروض علينا. ونظرا لأننا لم نكن في السلطة، ولا كان من المرجح أن نصل إليها، فإن ما توقعناه هو أن نكون سجناء لا سجانيين.

هنالك أحزاب شيوعية وأعضاء ناشطون، مثل أندريه مارتي، ظهروا في رواية همنغواي "لمن تقرع الأجراس"، وهؤلاء فخروا ببولشفيتهم التي تمتلك "قسوة الفولاذ"

١ - يمكن التعرف إلى مدى ندرة المعلومات الحقيقية في هذه الميادين قبل الحرب الباردة ، ومدى الريبة التي تلقاها بها العالم البارز المتخصص بدراسة القطع النقدية والميداليات من القرون الوسطى الذي جمعها ، في :
Philip Grierson, Books on Soviet Russia 1917-1942: A Bibliography and a Guide to Reading (London, 1943).

الضرورية، ناهيك عن الحزب الشيوعي السوفييتي، حيث اجتمع مع التراث الاستبدادي للسلطة المطلقة التي لا تحدها قيود، وقسوة الحياة اليومية الروسية لإنتاج الحقبة الستالينية بكل المجازر التي ارتكبت خلالها. لكن الحزب الشيوعي البريطاني لم يكن واحدا منها، بل تبدى مرض الحزب بأشكال أكثر مازوخية وميلا للسلام. أندور روثستاين (١٨٩٨-١٩٩٤) مثال يثبت ذلك. كان أندرو شخصا مملا نوعا ما، ينتمي إلى البرجوازية الصغيرة، دافع عن كل ما يحتاج إلى الدفاع عنه في الاتحاد السوفييتي، وهو ابن لرجل روسي بولشفي أكثر دراماتيكية، تيودور روثستاين، كان ذات مرة ديبلوماسيا سوفييتيا وألف كتابا رياديا عن تاريخ الحركة العمالية الماركسية. شاركته الإقامة في غرفة باردة عند انعقاد مؤتمر رابطة أساتذة الجامعة، وما أزال أذكر كيف أفرغ بعناية محتويات حقيبة الزينة التي أحضرها معه إضافة إلى خفّيه. من المحتمل أنني فوضت بمهمة الاحتجاج ضد امتناع كلية الدراسات السلافية التابعة لجامعة لندن، حيث كان يدّرس المؤسسات السوفييتية، عن تجديد عقده المحدد المدة كمحاضر. كان أندرو من الأعضاء المؤسسين للحزب الشيوعي البريطاني، وتمتع على ما يبدو بصلات جيدة مع الروس، وأصبح شخصية قيادية في الحزب في العشرينات. لكن معارضته للخط اليساري المتطرف الذي تبناه الكومنترن، ناهيك عن طبعه الحاد ونقده اللاذع وافتقاره إلى الجذور البروليتارية الأصيلة، أدت إلى سقوطه بين عامي ١٩٢٩-١٩٣٠ . نفي إلى موسكو (بدون زوجته وأولاده)، ونقلت عضويته في الحزب إلى الحزب الشيوعي السوفييتي. ومن حسن حظه أنه سمح له بعد فترة وجيزة بالعودة إلى بريطانيا وإلى الحزب الشيوعي البريطاني بشرط أن يشغل طيلة المدة الباقية من حياته الحزبية وظائف محلية فقط. ومع ذلك ظل متمسكا بإخلاصه وولائه الكاملين للحزب، وبقي شيوعيا ملتزما التزاما كليا. في الحقيقة، كان لدي انطباع بأن اختبار الإخلاص للقضية بالنسبة له، كما بالنسبة لأمثاله، هو الاستعداد والجاهزية للدفاع عما لا يمكن الدفاع عنه. لم يكن الأمر مشابها للرأي المسيحي المعروف "أؤمن به لأنه عبثي"، لكنه التحدي المستمر: "مزيدا من الاختبار لصلابتي: إذ ليس لدي كبولشفي نقطة أصاب بالانهيار عندها". وحين ألغي الحزب الشيوعي البريطاني عام ١٩٩١، أصبح أندرو وهو في عمر الثالثة والتسعين أول عضو في حزب شيوعي صغير متشدد في بريطانيا خلف حزبها الرسمي المنحل.

أشك بأن أي شيوعي من جيلي قد استمد إلهامه لدى الانضمام إلى الحزب، أو البقاء عضوا فيه، من حياة روثستاين الحزبية. فقد كان لدينا أبطالنا ونماذجنا المثالية التي تحتذى: جورجي ديتمروف، الذي واجه لوحده المحكمة النازية في قضية حريق الرايخستاغ، وتحدى هيرمان غورنغ، ودافع عن سمعة الشيوعية، إضافة إلى الأمة البلغارية الصغيرة والفخورة التي كان ينتمي إليها. وإذا تمسكت بالبقاء عضوا في الحزب عام ١٩٥٦، فلم يكن ذلك أبدا نتيجة أن الحركة قد أفرزت مثل هؤلاء الرجال والنساء. فأنا أفكر بصورة رئيسية بواحد من هؤلاء الأشخاص الذي لم يكن يعرفه أحد خلال حياته، ولم يتذكره سوى الرفاق والأصدقاء اليوم. لا زلت أتذكره، بجسده الضئيل، وعينيه الحادتين، وروحه الساخرة، ونحن نتمشى سويا في صباح يوم أحد عبر الدروب التي تغمرها أشعة الشمس المشرقة في تلال فاينرفالد، نصادف بين الفينة والأخرى بعض المعارف وهم يمارسون رياضة التنزه سيرا على الأقدام، أو رجالا ونساء شيبتهم السنون، وهم في الطريق إلى الاجتماعات واللقاءات المحظورة للحزب أو التنظيمات الاشتراكية الأخرى في الأركان النائية من تلك الغابات قبل أن يسجنوا في معسكرات الاعتقال والإبادة الجماعية. كان الهواء الطلق على الدوام صفة تسم البيئة المحيطة بالثوريين النمساويين. لم أعجب على الأرجح بأي إنسان مثلما أعجبت بهذا الرجل.

في منتصف شهر آب/أغسطس ١٩٤٤، كتب كلماته الأخيرة في الزنزانة رقم ١٥٥ من المبنى رقم ٢، والزنزانة ٩٠، المبنى ١ في سجن فريسنس بباريس:

فرانز فيورليك، شيوعي

فرانز فيورليك، نمسوي

سوف يعدم في الخامس عشر من آب ١٩٤٤

عشية التحرير؟ [١].

لكن الحظ حالف إفرايم فيورليك (١٩١٣-١٩٧٩)، الذي عرفناه جميعا باسمه الحزبي فرانز ماريك. إذ أنقذ حياته تحرير باريس. وكان واحدا من الشخصيات القيادية

١- وردت في :

P. Malvezzi and G. Pirelli (eds), Lettere di Condannati a Morte della Resistenza Europea (Turin, 1945), p. 250.

في منظمة "القوة العاملة المهاجرة" التابعة للحزب الشيوعي الفرنسي، بزعامة التشيكي ارتور لندن (الذي سقط ضحية فيما بعد لمحاكم ستالين)، بعد أن لعب الأعضاء الإسبان، واليهود، والطليان، والبولنديون وغيرهم دورا كبيرا وبطوليا في المقاومة المسلحة في فرنسا (على أولئك الذين بقيت في أذهانهم صورة اليهود تحت حكم الفاشيست كضحايا أبدية مستسلمة، أن يتذكروا السجل النضالي لليهود الاشتراكيين والشيوعيين، بدءا بالسبعة آلاف الذين قاتلوا في الألوية الدولية، وصولا إلى منظمة "القوة العاملة المهاجرة" ومثيلاتها في الدول المحتلة الأخرى). ومن بين الأنشطة الأخرى التي قام بها، كان فرانز مسؤولا عن العمل مع القوات الألمانية نفسها. لم يكن يتحدث عن تلك الأيام، فيما عدا مرة واحدة روى فيها ذكرياته لابني اندي، الذي كان آنئذ في العاشرة من العمر، حين أراد معرفة الأعمال التي قام بها ضمن حركة المقاومة. قال بأن عليك في معظم الأحيان الابتعاد عن طريق أولئك الذين يريدون اعتقالك، كما ذكر أنه نجا بصعوبة في عدد من المرات. ولد فرانز في اوكرانيا (الحالية)، ونشأ فقيرا معدما في فيينا خلال فترة ما بين الحربين (زعم أنه لم يلبس أبدا سترة وسروالا جديدين حتى أصبح ثوريا محترفا) وتسيس باعتناق الصهيونية في عمر الخامسة عشرة، لكنه تحول إلى الشيوعية، رغم أنه لم ينضم إلى الحزب الشيوعي حتى اندلاع الحرب الأهلية النمساوية عام ١٩٣٤ . وليس من المفاجئ أن يحدث ذلك كنتيجة مباشرة من نتائج رحلة جال فيها لبضعة أشهر في المانيا ما قبل هتلر بين عامي ١٩٣١-١٩٣٢ . أصبح ثوريا محترفا منذ البداية تقريبا، بعد أن أظهر قدرات استثنائية واضحة على العمل السري أمام رفيق أرسل لتعليم النمساويين كيفية التصرف في حالة الوضع غير المشروع للتنظيم، وهو أمر لم يكونوا معتادين عليه. وبالرغم من إصراره على أن مفتاح هذا العمل هو الدقة والاهتمام بالتفاصيل، أي باختصار "قواعد المؤامرة" البلشفية الصارمة، إلا أنه كشاب في أوائل العشرينات من العمر، تمتع بالجانب الرومانسي من النشاط الحزبي. أحب تذكر أنه شغل ما كان ذات مرة مكتب ديمتروف في المنطقة التاسعة ـ ظلت فيينا على الدوام المركز الدولي للمهاجرين من البلقان. سرعان ما أسس مكتب فيينا للحزب الشيوعي الروماني (الذي ضم كافة الأعضاء الثلاثمائة) ونظم أمر اشتراكه في المؤتمر الدولي السابع الذي كان

على وشك الانعقاد، قبل أن يترقى لرئاسة "عمليات" الحزب النمساوي المحظور ـ الاتصالات، توفير المنازل الآمنة، قطع الحدود، وتوزيع المنشورات والمطبوعات ـ ومن ثم أنشطته الدعائية برمتها. ومما لا شك فيه أن ذلك ما أحضره إلى باريس بعد ضم النمسا إلى المانيا الهتلرية.

عاد إلى فيينا بعد الحرب كعضو في المكتب السياسي للحزب الشيوعي النمساوي، وألف كتابا وجيزا وذكيا عن فرنسا، كما حرر مجلة الحزب الفكرية. في عام ١٩٦٨، نجح لفترة وجيزة في إبعاد الحزب الشيوعي النمساوي عن الاتحاد السوفييتي بعد إدانة اجتياحه لتشيكوسلوفاكيا، لكن موسكو سرعان ما أعادت توكيد نفسها. طرد ماريك، لكنه استمر كمحرر لمجلة شهرية يسارية مستقلة، إضافة إلى تحرير وتصميم مشروع جويليو اينودي الطموح "تاريخ الماركسية" (Storia del Marxismo)، (شاركت فيه مع بعض الرفاق الآخرين) ومنه حصل على دخله المنتظم الوحيد آنئذ. أصيب بأزمة قلبية طال توقعها في صيف عام ١٩٧٩، وتوفي شيوعيا ملتزما. أرسل الحزب الشيوعي الإيطالي ممثلين عنه لحضور جنازته، وكان كل ما خلفه بعد موته عبارة عن مجموعة من الكتب يمكن وضعها في حقيبتي سفر.

تمتع فرانز بذكاء لماح، وثقافة واسعة، وكان بمقدوره أن يصبح مفكرا، أو كاتبا، أو باحثا أكاديميا بارزا. لكنه اختار عدم تفسير العالم بل تغييره. ولو عاش في بلد أكبر وزمن آخر، لأصبح شخصية سياسية رئيسية في الشيوعية "المؤنسنة". تابع طريقه إلى النهاية، مقاوما إغراءات الالتجاء إلى الأدب أو التدريس بعد ابتعاده عن السياسة. كان بطلا بطريقته لزمننا، الذي كان وما يزال زمنا رديئا.

II

تحدثت حتى الآن عن الشيوعيين الذين كانوا خارج السلطة. لكن ماذا عن أعضاء الحزب الشيوعي الذين عرفتهم وواجهوا حالة مختلفة تماما الاختلاف داخل الأنظمة الشيوعية، حيث لم يتعرضوا للاضطهاد بل تمتعوا بالمزايا؟ هؤلاء لم يكونوا غرباء لا منتمين إلى السلطة، بل تربعوا في مركزها، ولا كانوا معارضين بل موالون وحكام، ولم تكن الشرطة عدوتهم، بل أداتهم ووسيلتهم، في بلاد بغضتهم غالبية سكانها في كثير

من الأحوال. بالنسبة لهم، ما كان المستقبل العظيم الذي يربض منتظرا قيام الثورة حلما بعيد المنال بل واقعا معاشا في الحاضر.

لم تكن لديهم الميزة التي حافظت على روحنا المعنوية والمتمثلة في وجود أعداء يمكن محاربتهم بالإيمان الراسخ والضمير الحي: الرأسمالية، الإمبريالية، الأسلحة النووية. على العكس منا، لم يتمكنوا من تجنب مسؤولية ما كان يرتكب باسم الشيوعية في بلادهم، بما في ذلك حالات الظلم والقهر. هذا ما جعل تقرير خروتشوف عام ١٩٥٦ يشكل على نحو خاص صدمة بالنسبة لهم. كتب شيوعي تشيكي إصلاحي عرفته في المنفى يقول: "إذا [لم تعد] قوانين التاريخ تتحمل مسؤولية هذه الفظاعات، باستثناء ستالين كشخص، فماذا عن مسؤوليتنا المشتركة" [١]. وكان قد حكم عليه بتأدية الخدمة العامة كعقوبة له في الخمسينات.

في حياتي، كانت هنالك ثلاثة أجيال من هؤلاء الشيوعيين الذي عبروا هذه العتبة للوصول إلى السلطة: "البلشفيون القدامى" في فترة ما قبل ستالين، الذين بقوا حتى الثلاثينات، والذين لم أعرف أحدا منهم؛ أولئك الذين صنعوا أو خبروا التغيير الكبير - أجيال الشيوعيين المنخرطين في المقاومة خلال فترة ما بين الحربين؛ أولئك الذين نشأوا في ظل الأنظمة التي انهارت عام ١٩٨٩ . ليس هناك ما يقال عن الفئة الثالثة. فبحلول الوقت الذي انضموا فيه إلى النخبة العامة، عرفوا قواعد اللعبة التي تعيش بلادهم تبعا لها. وليس لدي ما أقوله عن الاتحاد السوفييتي. فليس لي معرفة شخصية إلا بواحد من الجيل السوفييتي، رغم أنه ليس روسيا، ولكنه شيوعي أجنبي من الجيل الثاني تربى في الاتحاد السوفييتي قبل أن يعود إلى وطنه الأم، وهو الراحل تيبور زامويلي من هنغاريا.

كان مؤرخا لامعا وظريفا، قصير القامة، مكتنز الجسم، قبيح الوجه، وابن أخ واحد من أبرز الشخصيات في جمهورية هنغاريا السوفييتية عام ١٩١٩ . نشأ في الاتحاد السوفييتي، حيث أعدم والده ونفيت أمه. وزعم أيضا، بعد أن كاد يموت جوعا أثناء حصار لينينغراد، أنه أمضى فترة في معسكر اعتقال خلال آخر الحماقات التي ارتكبها

---

1 - Zdenek Maynar, Postscript to Leopold Spira, Kommunismus Adieu: Eine ideologische Autobiographie (Vienna, 1992), p. 158.

الديكتاتور. عاد إلى هنغاريا بعد موت ستالين، مفعما بالسخرية والشك لكن شيوعيا من الناحية الرسمية، وسكرتيرا للحزب في كلية التاريخ في الجامعة، حيث اتسم الخط الذي تبناه بالتشدد، إنما لم يؤد إلى طرد أو معاقبة أي من الطلاب أو الزملاء. لكن حين قابلته لأول مرة في لندن حوالي عام ١٩٥٩، أقام خط اتصال مباشر مع معظم المعادين للشيوعية. وعلى شاكلة العديد من يهود وسط أوروبا، كان محبا متحمسا للإنكليز. ولربما كان يستعد للقفز من السفينة (الغارقة) باعتباره محبا للحرية، وهذا ما فعله بعد بضع سنين، حين أصبح وكيلا مناهضا الشيوعية يقوم بالدعاية لمنشورات حزب المحافظين وصديقا مقربا من الكاتب السكير كينغسلي اميس، المعروف بميوله الرجعية، وإن كان أكثر غرابة وهزلا وأقل ذكاء منه. بالرغم مما اعتبره بمثابة أوهام لدي، فقد أحب كل منا الآخر وسارت الأمور بيننا على خير ما يرام. عن طريقه ذهبت لأول مرة إلى هنغاريا عام ١٩٦٠، ومع أنه مسؤول رفيع المستوى - أعتقد بأنه كان نائب رئيس الجامعة - إلا أنه لم يسر لإصراري على زيارة الفيلسوف الماركسي الكبير جورج لوكاتش، الذي سمح له الروس مؤخرا بالعودة إلى هنغاريا. وكان لوكاتش قد اعتقل ونفي بعد ثورة عام ١٩٥٦، وهو يجلس الآن في شقته المطلة على الدانوب مرة أخرى مثل كاهن عجوز بملابس مدنية، يدخن السيجار الكوبي. في شقة تيبور، تناولت ذلك العشاء الذي لا ينسى مع الجاسوس البارع عشية عيد الميلاد. واختار هو أن يأتي من المطار مباشرة إلى شقتنا في بلومزبري مع زوجته وأولاده حين رتب أمر إخراج كل أفراد العائلة (عن طريق غانا) من العالم الاشتراكي إلى الأبد.

لم تكن فظاعات الاشتراكية هي التي دفعته في نهاية المطاف إلى الرحيل، بل الإفراط في الشك والسخرية. وبالرغم من أنه استقبل في بريطانيا كأحد ضحايا القمع السوفييتي، إلا أنه في الحقيقة لم يلعب أي دور في ثورة عام ١٩٥٦ . وفي الواقع، أعاد تأسيس وحدة الحزب في الجامعة بعد اندحار الثورة، ولذلك تقدمت حياته المهنية بسرعة في السنوات التالية. لسوء الحظ، أعاد المتعاطفون مع ثورة عام ١٩٥٦، أي مجموعة المثقفين والأكاديميين الشيوعيين، ترسيخ مواقعهم بصمت، وذلك في مسار تلك السنين وتحت أنظار حكومة كادار المتسامحة. في حين تدهورت أحوال المتواطئين مع السوفييت الذين ارتفعت أسهمهم ارتفاعا حادا بعيد الثورة. لكنه بالطبع ظل ينظر

بازدراء إلى أوهام ثوار عام ١٩٥٦، مثلما يزدري النظام السوفييتي. اتخذت خطوة إضافية في إبعاد نفسي عن عالم الحزب الذي عشته في فترة الشباب، حيث قاومت في السنوات اللاحقة إغراء إبداء الرأي علنا حول سجل محب الحرية العظيم في عام ١٩٥٦ . كان الأمر أكثر من مجرد تردد في تسجيل ما كان يعتبر رغم كل شيء نقطة لصالحي في جدال سياسي عابر على حساب إحراج شخص تربطني به صداقة شخصية. ثم أدركنا أنا ومارلين أن القضية قضية مبدأ هنا: يتوجب أحيانا رسم خط فاصل بين العلاقات الشخصية والآراء السياسية. ومع ذلك، وبرغم الصحبة الممتازة، وسحر وظرف تيبور، أخذنا نبتعد عن آل زاموبلي. لربما لم تكن الحياة الخاصة قابلة للانفصال عن الحياة العامة كما حسبنا.

أعضاء الحزب من التشيك، والألمان الشرقيين، والهنغاريين في الكتلة السوفييتية هم الذين التقيت بهم أكثر من سواهم. ومن بين الشخصيات السياسية الرئيسية في الأنظمة الشيوعية، لم ألتق سوى بواحد أو اثنين، لاسيما أندراس هيغيدوس، آخر رئيس وزراء في حكم راكوسي، الذي عاود العمل كعالم اجتماع أكاديمي بعد عام ١٩٥٦، وسافر، ووفر الحماية للمنشقين، لكنه لم يعلن سوى القليل من الآراء، رغم أنه سمح لها بأن تشير ضمنا إلى أن نوعية قيادة الحزب قد تدهورت من بعده. لم يكن أحد من أصدقائي شخصيات قيادية في الحزب، رغم أن ايفان بيريند رفض عرضا بقبول منصب وزير التعليم في بلاده (هنغاريا). كان مؤرخا عظيما، ورئيسا لأكاديمية العلوم الهنغارية خلال الحكم الشيوعي، بل تم الاعتراف بميزاته المتفوقة بعد نهاية الشيوعية عبر انتخابه رئيسا للجنة الدولية للعلوم التاريخية. كل التشيك الذين عرفتهم تقريبا، وبعضهم من المهاجرين إلى إنكلترا في فترة ما قبل الحرب، أصبحوا مؤيدين لـ"ربيع براغ" عام ١٩٦٨، وبعضهم الآخر، مثل صديقي انتونين ليهام، لعب دورا بارزا في الأحداث كمحرر للمجلة الثقافية السياسية الرئيسية آنذاك "ليتراري ليست". لم يكن لقاؤنا الأول من خلال السياسة، بل كعاشقين لموسيقى الجاز في مهرجان أقيم في براغ. لكن الجاز، مثل رد الاعتبار إلى كافكا، كان نشاطا من أنشطة المعارضة في الفترة المؤدية إلى أحداث عام ١٩٦٨، رغم أنه لا علم لي بوجود أية خلفية سياسية وراء نشر كتابي "مشهد الجاز"، وهو الكتاب الوحيد الذي ترجم لي إلى اللغة التشيكية خلال

الحكم الشيوعي. بعد عام ١٩٦٨، أجبر الإصلاحيون في الحزب إما إلى الهجرة، أو إلى تنظيف النوافذ، أو العمل في مناجم الفحم، أو سوى ذلك من الأنشطة المشابهة، إذا لم يلقوا في غياهب السجون. بعضهم سجن أصلا لسنين طويلة خلال حملات ستالين القمعية في أوائل الخمسينات، مثل ادوارد غولدستوكر، أحد الشخصيات المهمة في أحداث ربيع براغ، حيث شغل منصب رئيس اتحاد الكتاب (رأيناه عام ١٩٩٦ في براغ قبل وقت قصير من وفاته: رفضت السلطات في تشيكوسلوفاكيا الجديدة منحه صفة أحد الذين تعرضوا لاضطهاد الشيوعية). لقد فقدوا أوطانهم إلى الأبد حيث لم يعد أحد بحاجة إليهم بعد نهاية الشيوعية.

الهنغاريون الذين عرفتهم معرفة وثيقة، ولم يسمح لهم عمرهم الصغير بالمشاركة في السياسة أو المقاومة في فترة ما قبل الحرب - مثل ايفان بيريند وشريكه ردحا طويلا من الزمن جورج رانكي، اللذين عادا من معسكرات الاعتقال النازية عام ١٩٤٥ إلى إحدى المدارس الثانوية - كانوا من الشيوعيين الإصلاحيين، باستثناء بيتر هاناك، الشاب اللامع ونجم التاريخ الماركسي الهنغاري عام ١٩٥٥، والمشارك في ثورة عام ١٩٥٦، والمناهض القوي للشيوعية فيما بعد. لكن المزاج السائد في هنغاريا ما بعد عام ١٩٥٦، تميز بالنزعة الإصلاحية المعتدلة والمتسامحة، حتى تجاه بعض المنشقين. ومن بين كافة الأنظمة الشيوعية، كانت هنغاريا هي الأقرب على الأرجح إلى البيئة الفكرية العادية في ظل الشيوعية، ولربما يعود الفضل في ذلك على الأغلب إلى ثروتها من المواهب الفكرية، التي تعززت بالعلاقات الطيبة مع المهاجرين منها إلى الغرب. لقد رفض بعض من أكثر عقولها البارزة غير السياسية الهجرة حتى في أسوأ الأوقات، مثل العالم الرياضي الموهوب ايرودوس، الذي أصر على الاحتفاظ بجنسيته الهنغارية في نفس الوقت الذي ألح فيه على زيارة أقسام الرياضات في مختلف جامعات العالم، وعدم البقاء في أي مكان لأكثر من بضعة أشهر، حاملا معه كل ممتلكاته الدنيوية في حقيبة سفر. وتمكن من تحقيق هذا الإنجاز الاستثنائي وربما الفريد في ذروة الحرب الباردة بفضل الدعم الجماعي المقدم من "مافيا" علماء الرياضيات الدولية. وحين سألته في أمسية لطيفة في كامبريدج عن السبب الذي يجعله يرغب بالحق الدائم في العودة إلى بودابست، قال: "لأنها بيئة جيدة للرياضيات". كانت هنغاريا بالطبع الجزء الوحيد من أوروبا الشرقية التي لم تفقد معظم سكانها اليهود.

في بعض دول "الاشتراكية الحقيقية"، كبولندا على سبيل المثال، كان من الممكن تجنب الحزب عند تعامل المرء مع الزملاء والأصدقاء. وليس الأمر كذلك في جمهورية المانيا الديمقراطية، حيث يشرف الحزب على كل شيء، وخصوصا اتصالات المواطنين مع الشيوعيين الأجانب. علاوة على ذلك، لم يكن ثمة مجال للخروج على/أو حتى الشك بالخط الآتي من الذرى القيادية. ولذلك وجدت بطريقة من الطرق، ليس أقلها الأسباب اللغوية، أن من الأسهل اكتشاف ما كانت تعني عضوية الحزب هناك تحت الحكم الاشتراكي.

الشيوعيون في المانيا الشرقية، أو على الأقل أولئك الذين عرفتهم منهم، ظلوا مؤمنين مخلصين في غالبيتهم العظمى، بغض النظر عما إذا كانوا من الكوادر القديمة في الحزب الشيوعي الألماني قبل عام ١٩٣٣؛ أو من الشبان المتحمسين الذين انضموا إلى الحزب عندما تحولت المانيا إلى مشهد من الخراب والدمار عام ١٩٤٥، من أجل بناء مستقبل جديد، مثل فريتز كلاين، رئيس تحرير واحدة من أكثر صحف جمهورية فايمار المحافظة احتراما؛ أو الجيل الثاني من الشيوعيين مثل صديقي سيغفريد بونغر، ابن عامل من أرياف ميكلينبورغ؛ أو غيرهارد شيلفيرت، الذي اعتنق الشيوعية عندما كان أسير حرب لدى السوفييت، والذي لم يستطع إلا أن يكون مقتنعا اقتناعا صادقا بالسلطة ومخلصا وواليا لها، قديمة كانت أم جديدة (كل هؤلاء هم من المؤرخين). لقد اختاروا أنفسهم بطريقة ما. أما أولئك الذين لم يتحملوا شدة الحرارة فقد خرجوا من "المطبخ"، وهو أمر كان سهلا حتى بناء جدار برلين عام ١٩٦١ .

لم تكن لي علاقات مباشرة كثيرة مع الحرس القديم، فيما عدا آل كوزينسكي، وهانس ايسلر (عن طريق ابنه، صديقي الرسام جورج ايسلر)، شريك بريخت والمؤلف الموسيقي الرسمي للدولة في المانيا الديمقراطية الذي حظيت شخصيته بكثير من الإعجاب. قابلت هانس في فندق "والدورف" (لا علاقة للجو فيه بالبروليتاريا!)، بعد أن تخلى عن زوجته وابنه، اللذين أعادهما المنفى إلى فيينا عن طريق موسكو ومانشستر. خسر هانس زوجته الأخرى ، لو، لصالح شيوعي آخر من المحاربين القدماء في موسكو، ارنست فيشر، صاحب الشخصية اللامعة والآسرة والرومانسية، وابن جنرال من عهد هابسبرغ، والنجم الساطع في الثقافة النمساوية والحزب الشيوعي

النمساوي في فترة ما بعد الحرب، إلى أن طرد منه بعد ربيع براغ ١٩٦٨ . أدين بالكثير من الفضل "الفكري" إلى فيشر، اعترفت به في كتابي "عصر الثورة". ظلت علاقات الصداقة تربطني بهم جميعا. مثلما استمرت العلاقة الوثيقة بين فيشر وزوجته الأولى، وهي امرأة أرستقراطية جميلة من بوهيميا، أصبحت عميلة سوفييتية تعود وثائقها الثبوتية الثورية إلى التمرد الشيوعي في المانيا عام ١٩٢١ . كان آل ايسلر في فيينا ولايبزغ مثالا نموذجيا للعائلة الشيوعية "الدولية". فالعمة إلفريد (المعروفة في التاريخ باسم روث فيشر) كانت هي الشيوعية الشابة المؤمنة بالحب المتحرر التي دفعت لينين إلى انتقاد العلاقات الجنسية العابرة ("نظرية كأس الماء"). بعد بضعة سنين، برزت كعضو من جماعة اليسار المتطرف في قيادة الحزب الشيوعي الألماني، قبل أن تطرد وتختفي في المنفى نتيجة اختيارها الجانب الخطأ في السياسة السوفييتية والكومنترن. عادت إلى الظهور بعد الحرب في الولايات المتحدة الأمريكية. ومن بين النشاطات التي قامت بها هناك إدانتها لشقيقها غيرهارد ايسلر، الذي كان هو أيضا زعيما (مهزوما، لكن أكثر اعتدالا) للحزب الشيوعي الألماني، ثم أصبح عميلا مهما للكومنترن في الصين، والولايات المتحدة وغيرهما. طرد من الولايات المتحدة، وقفز من سفينة في الطريق إلى بريطانيا، وعاد إلى المانيا الشرقية، حيث اعتبر - أو هكذا زعم - خلال مرحلة الهوس في أواخر الستالينية، خائنا محتملا، وبعد فترة وجيزة خائنا معترفا بجرمه، خلال محاكمة صورية استعراضية. لحسن الحظ، لم يتبع النظام في المانيا الشرقية، رغم أنها محتلة من قبل القوات السوفييتية، الأسلوب الستاليني الإجرامي أبدا، رغم أن أحدا لم ينوه بهذا التحفظ إلا فيما ندر. أمضى غيرهارد ايسلر ما تبقى من عمره في وظائف سياسية ثانوية في المانيا الديمقراطية، مثل رئاسة هيئة الإذاعة، متجاهلا أسئلة ابن اخته المتعلقة بماضيه. لو كتب مذكراته (وهو أمر رفضه دائما)، لكانت عديمة المغزى والجدوى مثل مذكرات معظم الديبلوماسيين: فجيله قد التزم الصمت. لكن هوليوود، حيث أمضى سنوات نفيه، ناسبت هانس، الموسيقي، البدين، الظريف، الساخر، وحقق فيها نجاحا فاق ذاك الذي حققه شريكه بريخت، ومع ذلك فقد عاد وكتب كلمات النشيد الوطني للدولة الجديدة. يصعب على المرء اتهام الاثنين بالوقوع تحت هيمنة العديد من الأوهام المتعلقة بحقيقة الشيوعية الدولية،

والاتحاد السوفييتي، ناهيك عن المانيا الديمقراطية. إذ بقيا تحت سيطرة وقيود تراتبية سياسية كان بعض المنافسين والطامحين الصغار يعملون على الوشاية بهما إليها من وقت لآخر، كما ظلا تحت المراقبة المستمرة، حتى وإن عوملا بإجلال واحترام في العلن، من قبل أضخم الأجهزة البوليسية السرية الدائمة التي عملت في أية دولة حديثة: "ستاسي". لكن بقي كل منهما هناك.

من ناحية من النواحي، جعلت الحالة الاستثنائية لجمهورية المانيا الديمقراطية الأمر أكثر سهولة. إذ كان النظام هناك يعاني من الحقيقة الواضحة المتمثلة بافتقاده للشرعية، والافتقار لأي دعم وتأييد تقريبا في البداية، وعدم إمكانية فوزه بأية انتخابات حرة في حياته أبدا. ومن المرجح أن خليفته "حزب الوحدة الاشتراكي" يتمتع اليوم بتأييد شعبي أكبر مقارنة بذلك الوقت الذي كان فيه النظام القديم يعلن فوزه بنسبة الـ٩٨٪ المعهودة من الأصوات. من المنظور العالمي، ظل شيوعيو المانيا الديمقراطية متحصنين إلى هذا الحد في موقعهم، خصوصا أمام تهديد وإغراء الجمهورية الاتحادية المجاورة المتفوقة إلى حد بعيد من حيث القوة والمساحة. هذه الإجراءات المبررة التي قد ترعب لولا ذلك الشيوعيين، سمحت لحزبهم حتى برفض الديمقراطية الليبرالية. ويمكن للمرء تذكر ملاحظات بريخت البارعة والذكية حول الحكومة التي تحل الشعب وتنتخب آخر! في تلك المناسبة بالذات (١٩٥٣/٦/١٧)، أيد صديقي فريتز كلاين، الشيوعي المخلص الذي كان في التاسعة والعشرين من العمر، أيد التدخل السوفييتي بعد ثورة العمال الكبرى، لأنه اعتقد بأن النظام أكثر عدالة من الناحية الاجتماعية، كما يمكن الاعتماد عليه أكثر في مناهضة الفاشية من الناحية السياسية، مقارنة بالجمهورية الاتحادية. وعلى نحو مشابه، أيد بناء جدار برلين عام ١٩٦١ . كتب يقول: "رأيي آنذاك يتلخص في وجوب قبوله باعتباره أهون الشرين، في مواجهة البديل الذي لا مفر منه: التخلي عن التجربة التي ما زالت شرعية لبناء مجتمع جديد" (١). تمثل أعظم الآمال في أن المجتمع الاشتراكي الذي كانوا يبنونه سوف يعمل ويكسب تأييد الشعب في نهاية المطاف. وبدون أدنى شك، انتقد أفضل وألمع المفكرين من أعضاء

---

1 - Fritz Klein, Drinnen und Draussen: Ein Historiker in der DDR Erinnerungen (Frankfurt-am-Main, 2000), pp. 169, 213.

الحزب النظام، لكنهم ظلوا مؤمنين بإمكانية إصلاحه حتى النهاية، وإن كانوا عاجزين لا حول لهم ولا قوة. كان من الأسهل بالطبع بالنسبة لأعضاء الحزب التخلي عن أحكامهم وطلب النصيحة من موسكو، أو الاكتفاء بالتصرف وفق ما يمليه الحزب. كان الحزب يدار من قبل المتشددين من حقبة ما قبل عام ١٩٣٣، أو خلفائهم من الجيل التالي.

لقد صورت أهواء الحرب الباردة الأنظمة الشيوعية الحاكمة في أوروبا الشرقية كأنظمة عملاقة تمارس الرعب والترويع والإرهاب. وفي الحقيقة، بعد سنوات الدم والحديد تحت حكم ستالين (الذي تردد حول الرغبة بوجود المانيا الشرقية بالأساس)، فإن نظام المانيا الشرقية "العادل المستبد"، بغض النظر عن ضحايا حائط برلين، شابه الوصف الدقيق لمؤرخ من جامعة هارفارد باعتباره "جائرا باستمرار لكنه غير دموي نسبيا" [1]. كان عبارة عن بيروقراطية متوحشة مهيمنة، لم تروع المواطنين، لكنها أزعجتهم، وطاردتهم، وعاقبتهم، وكافأتهم بصورة مستمرة. لم يكن المجتمع الذي كان يجري بناؤه سيئا: لم يكن ثمة فوراق طبقية. العمل متاح ومن حق الجميع، التعليم الجامعي متوفر لكافة الشرائح والمستويات، مثله مثل التأمين الصحي، والضمان الاجتماعي، والمعاشات التقاعدية، والعطلات والإجازات. كان مجتمعا مبنيا بشكل صارم للمواطنين الصالحين الأخيار الذين يؤدون أعمالهم اليومية بكل أمانة. أفضل ما في الثقافة السامية متاح للشعب، الذي يستمتع أفراده بأوقات الراحة وممارسة الرياضة في الهواء الطلق. في أفضل الحالات، استقر النظام في حالة تقع (حسب تعبير تشارلز مائير مرة أخرى) بين "الاشتراكية والجمعية" (Gemutlichkeit)[2]. أما العقبة، إن لم تكن الحقيقة، التي لم يقدر على إخفائها عن مواطنيه، فهي أن المانيا الديمقراطية أسوأ بكثير من المانيا الغربية، وأنها دولة مفروضة على المواطنين بواسطة نظام سلطوي بطركي، يشابه النظام المفروض في القرن التاسع عشر من قبل الأبوين الصارمين على أولادهما القاصرين المتمردين أو العنيدين على أقل تقدير. ليس للمواطنين سيطرة على حياتهم. وليسوا أحرارا. ونظرا لأن برامج تلفزيون المانيا الغربية يتابعها الناس على نطاق واسع، فقد كانت عمليات الرقابة والإجبار والإكراه واضحة وتقابل بالاستياء والسخط. ومع ذلك، قدر الناس على احتمال النظام طالما بدا مستمرا ودائما.

---

1 - Charles S. Maier, Dissolution: The Crisis of Communism and the End of East Germany (Princeton, 1997), p. 20.

2 - Ibid., pp. 128-9.

طال تأثير كل ذلك أعضاء الحزب مثل باقي المواطنين وربما أكثر. فأحاديثهم لم يتم تسجيلها فقط بواسطة المنافسين، أو مخبري جهاز "ستاسي" الحاضرين في كل مكان، بل قد تؤدي، إن اعتبرت غير مقبولة، إلى مطالبتهم بالنقد الذاتي العلني أو إلى تنزيل رتبتهم بواسطة موظفين صارمين يفتقدون القدرة على الإقناع ويتبعون "غيتو" الحكام الوطنيين المكتفي ذاتيا. كان المنشقون يتعرضون للمضايقة والإزعاج لكنهم لم يجبروا بالقوة على الإذعان والامتثال. في أسوأ الحالات كانوا يطردون إلى الغرب، مثل ولف بيرمان الذي أذكر أننا قمنا بزيارته بصحبة جورج ايسلر في غرفته في برلين الشرقية حيث كان يغني أناشيد الاحتجاج التي جعلت منه شخصية شهيرة.

آمن معظم أعضاء الحزب في جمهورية المانيا الديمقراطية، وبالتأكيد غالبية مفكريه، بنوع محدد من الاشتراكية حتى النهاية. ومن الصعب العثور بينهم، مثلما هو الحال بين المهاجرين السوفييت، على شيوعيين إصلاحيين أصبحوا من المحاربين المؤيدين للأمريكان بنسبة مائة بالمائة في حقبة الحرب الباردة. لكنهم أصبحوا أكثر اكتئابا باطراد. متى بدأ الشيوعيون يظنون ـ أو يؤمنون ـ بأن الاقتصاد الاشتراكي "الموجود فعلا"، والمتخلف بشكل واضح عن الاقتصاد الرأسمالي، لم يكن يعمل على الإطلاق؟

ماركوس وولف، رئيس دائرة التجسس في جمهورية المانيا الديمقراطية، والرجل الذي تمتع بقدرة مؤثرة وواضحة، والذي عرفته حين أجرت إحدى المحطات التلفزيونية الألمانية لقاء مشتركا بيني وبينه حول الحرب الباردة، أخبرني بأنه توصل في أواخر السبعينات إلى نتيجة مفادها أن نظام جمهورية المانيا الديمقراطية غير قادر على العمل. ومع ذلك، وفي اللحظات الأخيرة من عمر الدولة، ظهر على الملأ كإصلاحي شيوعي ـ وهو موقف غير عادي يتخذه مسؤول رسمي يعمل مديرا في الاستخبارات. في عام ١٩٨٠، وفر كتاب يانوس كوراني "اقتصاد العجز" التحليل الكلاسيكي لعمليات التشغيل في الاقتصادات التي تتبنى الأسلوب السوفييتي بكل ما يميزها من تناقض ذاتي. وفي عقد الثمانينات الذي شهد تدهورا واضحا في حال هذه الاقتصادات (على العكس من الاقتصاد الصيني في حقبة ما بعد ماو تسي تونغ)، كان الشيوعيون في كتلة دول أوروبا الشرقية ـ مع زيادة في حرية الحركة في بولندا وهنغاريا ـ يستعدون لحدوث تغيير وشيك على ما بدا واضحا. ولم يكن لدى النظامين المتشددين في براغ

وبرلين ما يمكن الاعتماد عليه سوى احتمال تدخل الجيش السوفييتي، وهو أمر لم يعد مرجحا منذ وصول غورباتشوف إلى السلطة في الاتحاد السوفييتي. في شرق أوروبا كما في غربها، كانت الأحزاب الشيوعية تتفكك. وسرعان ما سيتفكك الاتحاد السوفييتي ذاته. حقبة تاريخية كانت في طور الانتهاء. وكل ما بقي من الحركة الشيوعية العالمية القديمة رقد دون حراك مثل حوت جنح على شاطئ مطل على بحر جفت منه المياه.

في أواخر الثمانينات، والنهاية الوشيكة على الأبواب، كتب مسرحي الماني شرقي مسرحية بعنوان "فرسان المائدة المستديرة". سأل لانسلوت متعجبا: ما هو مستقبلهم؟ "الناس في الخارج لا يريدون معرفة المزيد عن الكأس المقدسة والمائدة المستديرة.. لم يعودوا يؤمنون بعدالتنا وبحلمنا.. فالنسبة لهم، ليس فرسان المائدة المستديرة سوى عصبة من الحمقى، والمعتوهين، والمجرمين". هل ما زال هو نفسه يؤمن بوجود الكأس المقدسة؟ يقول لانسلوت: "لا أعرف. لا أستطيع الإجابة عن السؤال. لا أستطيع الإجابة بنعم أو لا..". لا، قد لا يجدون الكأس المقدسة أبدا. لكن هل أصاب الملك آرثر حين قال بأن المهم ليس الكأس ذاتها بل البحث عنها؟ "إذا تخلينا عن الأمل بالعثور على الكأس، تخلينا عن الأمل بأنفسنا". الأمل بذواتنا فقط؟ هل تستطيع الإنسانية العيش بدون مثل الحرية والعدالة، أو بدون أولئك الذين يهبون حياتهم من أجلها؟ أو ربما حتى بدون ذكرى الذين فعلوا ذلك في القرن العشرين؟

-١٠-
الحرب

I

عدت إلى إنكلترا قبيل نشوب الحرب بقليل. كنا نتوقعها. بل نخشاها، أو على الأقل كان هذا شعوري، رغم توقفنا عن ذلك في عام ١٩٣٩. هذه المرة عرفنا بأننا في أتونها. بخلال دقيقة من إعلان رئيس الوزراء الحرب، بصوته الهرم ونبرته الجافة، سمعنا زعيق صفارات الإنذار، الذي ما زال حتى اليوم يستحضر في مخيلة كل إنسان عاش في مدن الدول المتحاربة خلال الحرب العالمية الثانية ذكرى القنابل التي تسقطها الطائرات المغيرة في الليل. كنا محاصرين بمنظر الحرب الجوية الواضح: الملاجئ المدعمة بألواح الحديد، المناطيد المتأرجحة في السماء والمشدودة بحبال إلى الأرض كأنها قطعان من الأبقار الفضية. لقد فات الوقت على الخوف. لكن ما عناه اندلاع الحرب بالنسبة لمعظم الشبان من جيلي هو توقف المستقبل فجأة. شردنا لبضعة أسابيع أو بضعة شهور بين مخططات واحتمالات حياتنا في فترة ما قبل الحرب، وبين مصير مجهول بالبزة العسكرية. في تلك اللحظة توجب على الحياة أن تكون مؤقتة، أو مرتجلة. ولم يكن ذلك أكثر وضوحا منه في حياتي.

حتى عودتي إلى إنكلترا، لم أتمكن من التعود فعلا على مضامين وتبعات هجرة أفراد الأسرة. اكتشفت الآن أنني لست فقط بدون مستقبل معلوم لفترة يتعذر التنبؤ بطولها، بل أيضا بدون حاضر يمكن تمييز ملامحه بوضوح، كنت وحيدا، لا ملجأ لي ولا ملاذ. ذهب بيت الأسرة مثل سكانه. ليس لي مكان ألوذ به خارج كامبريدج، رغم أنني لم أكن أعاني من نقص في بيوت الرفاق والأصدقاء التي تؤويني، وكنت على الدوام ألقى الترحيب في بيت الأقرباء الوحيد المتاح في لندن، بيت عمي هاري الذي ظل دائما

وأبدا موئلا أعتمد عليه. لم يكن لدي صديقة حميمة. في الحقيقة، وطيلة السنوات الثلاث التالية، عشت حياة تنقل وترحال حين أتيت إلى لندن، أنام في الأسرّة الإضافية، أو على الأرض في مختلف الشقق السكنية في منطقة بيلسايز بارك، أو بلومزبري، أو كيلبورن. من اللحظة التي استدعيت فيها للخدمة العسكرية، كانت قاعدتي الدائمة الوحيدة عبارة عن بضعة صناديق من الكتب، والأوراق، والممتلكات الأخرى التي سمح لي رئيس المستخدمين في كلية كينغ بتخزينها في سقيفة منعزلة. حزمتها بعد استدعائي للجيش. حسبت أنها ستعاود الظهور بعد الحرب، مع شيء من الحظ، مثل ريب فان وينكل الذي توقفت حياته عام ١٩٣٩ ، والذي اضطر الآن للتعود على عالم جديد. أي عالم؟

بدأت الحرب تفرغ كامبريدج من طلابها. ومع تفرق كادر العاملين في "غرانتا"، طلبت من الزملاء المسؤولين عن طبعها إغلاق المجلة لفترة، وبذلك دفن رسميا مكوّن جوهري من مكونات عالم ما قبل الحرب في كامبريدج. الدراسة البحثية حول موضوعي المقترح المتعلق برحلتي إلى شمال أفريقيا "الفرنسية" أصبحت الآن لا قيمة لها، رغم أنني تابعت العمل عليها بدون اهتمام، وقرأت الكثير من المراجع عن خلفية الموضوع، وزرت مرارا المتحف البريطاني كلما دعت الحاجة وتمكنت من الخروج في زمهرير الشتاء الثلجي الذي لم نعهد مثله في تلك السنة.

علاوة على ذلك، ومنذ تغير الخط السياسي في خريف عام ١٩٣٩ ، لم تكن الحرب هي الحرب التي توقعناها، ولا القضية التي جهزنا الحزبُ من أجلها. إذ عكست موسكو الخط الذي اتبعه الكومنترن وكافة الأحزاب الأوروبية منذ عام ١٩٣٥ ، واستمرت في اتباعه بعد اندلاع الحرب، إلى أن جاءت الرسالة من موسكو. أظهر رفض هاري بوليت قبول التغيير أن قيادة الحزب في بريطانيا قد انشقت علنا حول القضية. إضافة إلى أن الخط الذي يقول إن الحرب لم تعد مناهضة للفاشية بأي معنى من المعاني، وأن بريطانيا وفرنسا والمانيا النازية على نفس الدرجة من السوء، لم يعد له معنى، وجدانيا وفكريا. قبلنا الخط الجديد بالطبع. أليس من جوهر "المركزانية الديمقراطية" وقف الجدال حالما يتخذ القرار، بغض النظر عن موافقتك الشخصية أو عدمها؟ والقرار الأعلى قد اتخذ على ما يبدو. وعلى العكس من أزمة عام ١٩٥٦

(انظر الفصل ١٢)، لم يتأثر معظم أعضاء الحزب ـ حتى المثقفون من الطلاب ـ بقرار موسكو على ما يبدو، رغم أن عددا منهم انجرف معه في السنتين التاليتين. لا أستطيع تذكر أو إعادة بناء ما فكرت فيه آنئذ، لكن المفكرة اليومية التي احتفظت بها خلال الشهور القليلة الأولى من خدمتي العسكرية عام ١٩٤٠، أوضحت بجلاء عدم وجود أية تحفظات لدي على الخط الجديد. لحسن الحظ، فإن الحرب الزائفة، ومسلك الحكومة الفرنسية التي حظرت الحزب الشيوعي فورا، وسلوك الحكومتين الفرنسية والبريطانية بعد اندلاع حرب الشتاء التي خاضها السوفييت ضد فنلندا، جعلت من الأسهل بكثير بالنسبة لنا قبول الخط الذي يقول إن القوى الغربية باعتبارها دولا إمبريالية، هي أكثر اهتماما بإلحاق الهزيمة بالشيوعية منها بقتال هتلر. أتذكر المحاججة حول هذه النقطة، وأنا أسير على المرج الأخضر في حديقة رئيس كلية كينغ مع المتعاطف النزاع إلى الشك، العالم الاقتصادي الرياضي دافيد تشامبرنون. فبرغم كل شيء، وبينما كل شيء هادئ على ما يبدو، إن لم يكن نائما مخدرا، على الجبهة الغربية، لم تتصور الحكومة البريطانية من خطة للتحرك سوى إرسال القوات الغربية عبر اسكندنافيا لمد يد العون إلى الفنلنديين. في الحقيقة، كان أحد الرفاق، ج. او. ان. فيكرز (الفتى المتحمس الذي كان يدرس في إحدى المدارس الثانوية ويهوى الملاكمة، والمشهور باسم "الجرذ" ـ كان في الواقع يبدو أشبه بابن عرس وليس بالجرذ، بسبب سرعته، ونحافته، وقدرته الكبيرة على الحركة)، على وشك أن يرسل إلى هناك مع وحدته حين انتهت الحرب الروسية ـ الفنلندية. فالنسبة للمثقفين الشيوعيين كانت فنلندا "حبل السلامة". ألفت كتيبا حول الموضوع مع ريموند ويليامز، الذي كان مجندا جديدا ومقاتلا واسع الطموح في حزب الطلاب على ما بدا آنذاك، والذي سيصبح في المستقبل كاتبا، وناقدا، ومرشدا روحيا لليسار. لكن الكتيب ضاع للأسف في زحمة التنقلات والرحلات والأخطار في مسار القرن العشرين. ولم أتمكن من العثور على أية نسخة منه. أخيرا، دعيت للخدمة العسكرية في شباط/ فبراير ١٩٤٠ .

أفضل طريقة لتلخيص تجربتي الشخصية في الحرب العالمية الثانية هي في القول إنها أخذت ست سنوات ونصف السنة من عمري، ست منها في الجيش البريطاني. لم تكن الحرب بالنسبة لي حربا "جيدة" ولا "سيئة"، بل كانت حربا فارغة. لم أفعل فيها

شيئا مهما، ولم يطلب مني أداء أية مهمة. كانت سنواتها هي السنوات التي شعرت فيها بأقل قدر من الرضا والارتياح في حياتي.

بالرغم من أنني لم أكن من النوع العسكري، ولم أتمتع بشخصية قيادية، فإن السبب الرئيس الذي جعل خدمتي الإلزامية مضيعة لوقتي ووقت الوطن خلال معظم سنوات العقد الثالث من عمري كان في حكم المؤكد تقريبا سياسيا. وبرغم كل شيء، تمتعت ببعض المؤهلات المتصلة بالحرب ضد المانيا النازية؛ ليس أقلها التحدث بالألمانية مثل الناطقين الأصليين بها. علاوة على ذلك، وباعتباري طالبا لامعا في التاريخ في كلية كينغ، التي أوكلت لمحاربيها القدماء الذين عملوا خلال الحرب العالمية الأولى في الاستخبارات مهمة تجنيد كادر العاملين في بليتشلي، حيث أرسلت سبعة عشر من أساتذتها إلى هناك، بدا من غير المفهوم ألا يخطر اسمي ببال أحدهم. صحيح أنني كنت أفتقد واحدا على الأقل من المؤهلات التقليدية المقبولة للعمل في الاستخبارات، أي حل أحجية الكلمات المتقاطعة في صحيفة "التايمز"؛ لأنني كطالب نشأ في وسط أوروبا لم أعتد عليها ولا أثارت اهتمامي. وصحيح أيضا أنني لم أبرع في المؤهل التقليدي الآخر، الذي أوصل عمي سيدني إلى العمل في قسم حل الشيفرة خلال الحرب العالمية الأولى، أي الشطرنج. إذ كنت متحمسا للعبة لكنني لم أكن لاعبا متميزا بها. ومع ذلك، لو لم أكن معروفا ومشهورا إلى هذه الدرجة بوصفي طالبا بلشفيا، فأنا أعتقد بأنهم ما كانوا ليتركوني في كامبردج في انتظار قرارات سلطات ايست انجليكان المتعلقة باستدعائي إلى الخدمة العسكرية.

من ناحية أخرى، لربما لعب دورا في الأمر ذلك الرأي الرسمي القائل إن شخصا بمثل هذا الأصل والخلفية "القارية" لا يمكن أن يصبح إنكليزيا حقيقيا بنسبة مائة بالمائة، على الرغم من جواز سفر أبيه (مثل هذا الرأي لم يكن غير شائع في كامبريدج في الثلاثينات، ولربما شارك فيه بعض المشرفين علي). هنالك العديد من أعضاء الحزب الذين خدموا فعلا في الاستخبارات خلال الحرب، بمن فيهم بعض الذين لم يخفوا عضويتهم. وفي حكم المؤكد أن محاولة ترشيحي بعد بضعة أسابيع من استدعائي للخدمة في ما تبين أنها دورة تدريبية على حل الشيفرة في إحدى الفرق العسكرية (اثنان من الضباط، وسبعة من ضباط الصف، وثلاثة من رتب أخرى)، قد أجهضت

لهذا السبب. قال لي النقيب، وهو يأمرني بركوب القطار التالي المتجه من نوريتش إلى كامبريدج: "ليس ثمة شيء شخصي في الأمر، لكن أمك ليست بريطانية. أنت بالطبع ضد النظام الآن، لكن لابد من وجود قدر من التعاطف الطبيعي مع البلد الذي تنتمي إليه أمك. هذا أمر طبيعي. أنت تعرف، أليس كذلك؟". قلت موافقا: "أجل يا سيدي. أعني ليس لدي أحكام قومية متحيزة. كل ما تفعله الأمم سواء بالنسبة لي طالما تلزم جادة الصواب، وهو أمر لا يفعله الألمان حاليا". وعدني بأن يوصي بي للعمل كمترجم. لم أسمع أي خبر عن ذلك فيما بعد. ومن الغريب أن ذاكرتي قد محت تماما هذه الحادثة، رغم أنني دونتها آنئذ.

هل كان لي ملف لدى المخابرات حين كنت في كامبريدج؟ ليس ثمة طريقة لمعرفة ذلك. لكن بالتأكيد أصبح لي واحد بحلول منتصف عام ١٩٤٢، حين أخبرني صديق برتبة رقيب في جهاز الأمن الميداني أنني موضوع كما هو مفترض تحت المراقبة. من المحتمل أنه قد أصبح لي ملف عام ١٩٤٠ بعد وقت قصير من استدعائي للخدمة، لأنني كشيوعي صادق الولاء رتبت أمر بقائي على اتصال بالحزب، عبر الاجتماع حين أكون في لندن مع روبي (ار. او. روبسون)، وهو من كوادر الحزب المحترفة منذ العشرينات. كان روبي رجلا شاحبا متغضن الوجه، يدخن بشراهة، وينتمي إلى الطبقة العاملة، قابلته في واحد من تلك المكاتب الصغيرة العتيقة المكسوة بالغبار التي تصعد إليها بواسطة سلم معتم، والتي يمكن العثور فيها دائما على أمثاله. من المرجح جدا أن تكون أجهزة الأمن راقبت هذه اللقاءات.

من الواضح أن الأجهزة الأمنية قد اعتبرتني شخصا مثيرا للشبهة، يجب إبعاده عن الأماكن الحساسة (بما في ذلك منعه من مغادرة البلاد)، حتى بعد أن أصبح الاتحاد السوفييتي حليفا لبريطانيا وكرس الحزب نفسه لربح الحرب. لم أغادر أبدا الأراضي البريطانية طيلة الحرب (وبالتحديد خلال الفترة الواقعة بين ١٩٣٩/٩/٢ وزيارتي الأولى إلى باريس بعد الحرب في عام ١٩٤٦)، وهي أطول مدة متواصلة أقضيها في حياتي دون أن عبر أية حدود بحرية أو برية. لم يكن أحد يهتم على ما يبدو بمعرفتي باللغات بعد أيار/ مايو ١٩٤٠ . في إحدى المراحل وصل الأمر إلى حد إجراء مقابلة معي حول الموضوع من قبل مكتب للاستخبارات في "وايتهول" (وزارة الخارجية) كما

تبين لي فيما بعد، لكن لم يؤد ذلك إلى أية نتيجة. واضطررت على مضض للتعود على فكرة أنني لن ألعب أي دور في سقوط هتلر.

ما الذي يمكن للضباط فعله حين يجدون أنفسهم متعثرين بشخص غريب الأطوار، متفوق في مؤهلاته الفكرية والثقافية، ومتخلف في مؤهلاته العملية ومواهبه الضرورية للحياة العسكرية؟ نظرا لأنني أجيد قيادة السيارة، استدعيت للخدمة كسائق، لكنني لم أنجح في اختبار قيادة الشاحنات الثقيلة أو الدراجات النارية، وسرعان ما أصبحت سائقا يفتقد البراعة المطلوبة. ما الذي يمكن فعله مع مثل هذا الشخص. لقد اعتبروني كما هو مفترض غير قابل للترقي والتطور. في النهاية، وجدت السرية الميدانية ٥٦٠ من سلاح المهندسين الملكي طريقة مناسبة للتخلص مني. إذ أوصت بنقلي إلى فيلق التثقيف العسكري الذي كان يتوسع بسرعة ـ نظرا لأن الحرب حرب شعبية. تم إرسالي إلى دورة تدريبية في مبنى يقع خلف السجن في ويكفيلد، وحملت معي (لمَ أتذكر ذلك بمثل هذا الوضوح؟) كتاب توماس مان "Lotte in Weimar". اكتشفت هناك التفوق الهائل لمنطقة الشمال في تحضير وجبة السمك وشرائح البطاطا المقلية مقارنة بكل ما عرفته سابقا، وذلك بصحبة مؤرخ آخر سيصبح في المستقبل مساعد مستشار جامعة لندن.

تم نقلي لاحقا، وذلك في وقت مبكر من خريف عام ١٩٤١، بعد بضعة أيام من انتقالنا إلى هاي اون واي، على حدود ويلز، وهي المنطقة التي وجدت نفسي بعد خمسين سنة تماما ابتاع كوخا بالقرب منها (في بريكونشاير) حيث أكتب منه هذه السطور. قد يكون ذلك قد أنقذ حياتي، لأن وحدتي قد أمرت بالتوجه إلى خارج بريطانيا، في حين أخذنا نحن إجازة، قضيتها كالمعتاد بين القنابل المتساقطة على لندن. لم يخبرنا أحد عن وجهتنا، رغم أن الشرق الأوسط كان هو المكان المرجح. لكن فرقة إيست انجليان الخامسة عشرة، التي ضمت السرية الميدانية ٥٦٠، لم تبحر باتجاه الشرق الأوسط، بل إلى سنغافورة عن طريق كيب تاون وممباسا، حيث أسر أفرادها من قبل اليابانيين في شباط/فبراير ١٩٤٢ . أما أولئك الذين نجوا من الأسر فقد أمضوا السنوات الثلاث التالية في بناء سكة حديد بورما. ثلثهم لم يتمكن من النجاة، ولم أر أحدا من زملائي مرة أخرى. هل كنت سأنجو؟ الله وحده يعلم. على أية حال، لم أعرف كم كنت محظوظا إلا بعد وقت طويل.

II

وهكذا، انقسمت حياتي العسكرية إلى قسمين متميزين تميزا حادا. أولهما تجسده الفترة التي قضيتها مع سلاح المهندسين الملكي، وكانت أشد إثارة إلى حد بعيد. ومثلما هو متوقع، كانت السرية الميدانية المؤلفة من خبراء الألغام تنتمي حصرا إلى الطبقة العاملة، باستثناء بعض الضباط. كنت المثقف الوحيد بينهم، أو الوحيد الذي يقرأ في الواقع صفحات الأخبار في الجرائد اليومية قبل ـ أو بدلا من ـ صفحات سباق الخيل. هذه العادة غير المتبعة أعطتني لقب "سام الديبلوماسي" خلال الأسابيع التي سقطت فيها فرنسا. للمرة الأولى في حياتي وجدت نفسي واحدا من البروليتاريا التي سيؤدي انعتاقها إلى تحرير العالم، رغم أنها لم تكن متميزة. وبشكل أكثر دقة، وجدت نفسي أعيش في الريف الذي تمضي فيه غالبية أفراد الشعب البريطاني حياتهم، والذي ليس لديهم فيه سوى اتصال هامشي مع عالم الطبقات المتوضعة فوقهم. ونظرا لأنني كنت أستدعى إلى كامبريدج، فقد تبدى التغاير بشكل درامي سافر، لأنني عشت في العالمين معا لمدة شهرين أو ثلاثة. بعد تأدية الواجب (الذي يتمثل غالبا في ممارسة التدريب العسكري على مرج أخضر)، كنت أنتقل من عالم لآخر مشيا على الأقدام، أي بين مركز جامعة كامبريدج وبين شارع الطبقة العاملة حيث جهزت السلطات العسكرية مسكنا لي في بيت أرملة عجوز، مع مساعد حلاق وحمال سابق في أحد الفنادق يدعى بيرت ثيرتل، كنا ننام فيه على سرير واحد (كان واسعا لحسن الحظ). لم يمثل ذلك مدخلا مثاليا للتعرف على عالم البروليتاريا، لأن ثيرتل كان يفتقد القدرة على الاستجابة السريعة التي وجدتها لافتة بشكل مدهش لدى الزملاء الذين سببوا لي الإحباط السياسي لولاها، والتي تفسر الكثير من الأمور في النقابات العمالية البريطانية. رأى معظم الزملاء أنفسهم مدنيين في الجوهر وضعوا على أجسادهم البزات العسكرية مثلما فعل آباؤهم بين عامي ١٩١٤-١٩١٨ . ولم يروا أية فضيلة خاصة في المظهر أو الحياة العسكرية: الشارع "المدني" هو المكان الذي أملوا بالعودة إليه بأسرع ما يمكن. لكن ثيرتل حلم على الدوام في سره بارتداء البزة العسكرية، رغم أنها لم تسعفه مع الفتيات (كل فتاة كانت تدعى "مومسا" في لغتنا الاصطلاحية المستخدمة) اللاتي كان يلتقطهن في بيتي كوري. أما خطيبته، وهي فتاة في السابعة

عشرة تعمل في أحد المطابخ، فقد اعتادت أن تكتب له رسائل يومية وتبعث إليه بطرود تحتوي على الصحف المحلية ("ويزارد"، "كوميك كوتس"، والمسلسلات الهزلية الكارتونية الأمريكية).

عند استعادة أحداث الماضي، يدهشني مدى قوة الشعور الفطري، أو تراث الفعل الجماعي لدى هؤلاء العمال الشبان الذين اشتغلوا في حياتهم المهنية كعمال عاديين يفتقدون المهارة، أو كتجار مبتدئين، أو غير ذلك من المهن، لكن معظمهم كانوا من عمال البناء. تجمع كل هذا الخليط من الشبان في نفس المقصف الملحق بالمعسكر أو غرفة الألعاب من خلال الصدفة حين جندوا في الجيش. لم أفاجأ بذلك آنئذ مثلما فوجئت بما يتملكهم من مشاعر الشك والريبة والالتباس - مثلي تماما - حول ما يجب علينا جميعا فعله عندما تأتي لحظات الحقيقة التي تستدعي منا التصرف والعمل، علاوة على الإحساس بالعجز في وجه السلطة. ومع ذلك، حين أقرأ الملاحظات التي كتبتها في مفكرتي، فإن ما يؤثر في نفسي هو التآلف مع إجراءات الفعل الجماعي، مع الاحتمال الكامن الملح، والغريزي تقريبا، للقتال في المعركة. كان زملائي الشباب يشعرون بالراحة والحرية التامة في "الحيز العام" للطبقة العاملة البريطانية. ألم يقترح أحدهم، خلال أحد الاحتجاجات، أن علينا تنظيم اجتماع مناسب في "اللوكوموتيف" مثل نقابة عمالية حقيقية، مع طاولة وجرس وكأس من الماء؟

التجربة البروليتارية كانت جديدة من نواحي أخرى. أظن بأنه لا يوجد خلاف على حقيقة أن قلة قليلة من طلاب كلية كينغ قد سنحت لهم فرصة الخضوع للتدريب العسكري والنظام المنضم عام ١٩٤٠، ووجدت أنا التجربة متعبة لكن منعشة. كان خبراء الألغام في الجوهر تشكيلة من العمال المهرة والأقل مهارة، ومعظمهم من العاملين في ميدان التصنيع العام ومهن البناء (لأن العديد من عمال المصنوعات الحديدية كانوا في مهن احتياطية وأولئك الذين احتاجهم الجيش خدموا في فيالق أخرى أكثر تخصصا) الذين أتوا من مختلف أنحاء بريطانيا (بلاك كنتري، لندن، نوتنغهام، والقليل من الشمال الشرقي وسكوتلندا)، لكن غالبيتهم كانوا من المناطق الشرقية (اسم فرقتنا هو ايست انجليان). قلة شاذة من طلاب كامبريدج المجندين وجدوا أنفسهم بين صفوف الفرقة - أنا، وأصدقاء ومعارف أكبر قليلا في العمر مثل ايان وات، الذي

أصبح فيما بعد أستاذا متميزا للأدب، والذي كان الطلاب الماركسيون يناقشون عمله حول أصول القصة الإنكليزية، أو أصغر قليلا مثل الرسام الكاريكاتوري الساخر في مجلة "غرانتا" رونالد سيرل. وكلاهما عاد من معتقلات الأسر اليابانية يحمل الذكرى طيلة حياته. اكتشفتْ رونالد، الذي كنت أراه من حين لآخر في الفرقة، محررة كانت تحظى بالإعجاب والتقدير من شباب جيلنا وتدير مجلة "ليليبوت"، هي كاي ويب. المجلة كانت بحجم "الجيب"، وحديثة جدا أسسها مهاجر من وسط أوروبا. في نهاية المطاف تزوجت كاي من رونالد. (قبلت مني أيضا بعض المقالات خلال وبعد الحرب، إلى أن اختفت المجلة). في هذه الأثناء، أصبح واحدا من أنجح رسامي الكاريكاتير في عصره، وذلك بفضل ابتكاره لـ "سنت ترينيان"، وهي مدرسة بنات يسكنها أشد التلاميذ ترويعا ورعبا، ولا بد أن الفكرة مستمدة من اليابانيين الذين روعوه في معسكرات الاعتقال خلال الحرب.

على وجه العموم، عشت أيامي كخبير ألغام بين العمال ـ عمال إنكليز في أغلبيتهم الساحقة ـ والعشرة جعلتني أكن إعجابا كبيرا، وإن كان ساخطا في أحيان كثيرة، باستقامتهم، وعدم ثقتهم بالكلام الفارغ، وشعورهم الطبقي، وإيمانهم بالصداقة والمعونة المتبادلة. كانوا قوما طيبين. أنا أعرف بأن من المفترض بالشيوعيين الاعتقاد بفضائل البروليتاريا، لكنني شعرت بالارتياح حين وجدت نفسي أطبق ذلك عمليا مثلما هو نظريا.

ثم غزا هتلر النرويج والدانمرك، وبدأت الحرب فعلا. وحالما بدأ الألمان باجتياح البلاد المنخفضة ـ وهو أمر صعب علينا تصديقه ـ وجدت السرية الميدانية ٥٦٠ شيئا حقيقيا تفعله. إذ عملنا لمدة أربع عشرة ساعة في اليوم، ونحن في عزلة فعلية عن الحياة المدنية حولنا في نورفولك، في إنشاء الدفاعات بشكل ارتجالي تحسبا لغزو محتمل يجتاح ايست انجليا. نقلنا أكياس الرمل، وقمنا بتدعيم جدران الخنادق الضخمة المضادة للدبابات التي حفرها المدنيون حول البلدة. نفذنا المهمة بطريقة خرقاء، فقد كنا نفتقد الخبرة، وفوق كل شيء لم نكن مقتنعين مطلقا بأن الخندق سيوقف أية دبابة، خصوصا في غياب المدافع المضادة للدروع أو أية أسلحة أخرى، لكن عملنا الرئيس تمثل في زرع الألغام وتلغيم الجسور، تمهيدا لتفجيرها وقت الحاجة. ومع بداية

فصل الصيف، كان الجو رائعا لأداء هذه المهمة. لا أزال أشعر بالتيه والبهجة المدهشة (مع شيء من التوتر) وأنا أتسلق عوارض الجسر الكبير فوق بريدون ووتر، كي أنجز المهمة على الدعامات العالية وأنا معلق بين السماء الزرقاء والمياه المالحة، ذلك الشعور (المخادع) بالقوة التي أتت من التعامل الروتيني مع المتفجرات، وفتيل التفجير. أستطيع تذكر عطلات الكسل والتبطل وأنا ضمن مفرزة صغيرة من ثلاثة أو أربعة أفراد وقد تمركزنا، بانتظار الغزاة، قرب هويس أو جسر ناء داخل خيمة وبحوزتنا مائة كيلو غرام من المتفجرات. ماذا كنا سنفعل لو أتوا فعلا؟ كنا أغرارا، نفتقد الخبرة العسكرية أو المعرفة بالسلاح: إضافة إلى بنادقنا العتيقة، كان لدى السرية ستة مدافع مضادة للطائرات المعادية. بالطبع، لم نكن نشكل خط دفاع أول سيكون له أي تأثير ضد الجيش الألماني .

كانت ردة فعل زملائي المجندين على الغزو الألماني للدانمرك والنرويج مفعمة بالسخط والنقمة. وخيم عليهم جو من الغم والكآبة، بل انتشرت بينهم روح انهزامية عند اجتياح البلاد المنخفضة، وذلك في خضم الأزمة السياسية التي أسقطت في النهاية نيفين تشمبرلين من الحكم. قال أحد أفراد السرية الايرلنديين، مايك فلانيغان: "أي نوع من الجنود الإنكليز أنتم؟"، وهو يجلس في الثكنة ويتحدث عن تفوق الجيش الألماني الواضح على جيشنا، وكيف تبدو الأمور في ظل الحكومة الألمانية. لكن سقوط تشمبرلين أنعشهم مرة أخرى، لأنه كان على ما يبدو السبب الرئيس وراء حالة الكآبة العامة المسيطرة عليهم. ومن الواضح أن حكومة تشرشل الجديدة قد لقيت الترحيب من قبل أفراد سريتنا (لاحظت آنذاك مدى غرابة أن يكون الأبطال في نظر العمال البريطانيين هم تشرشل، ودوف كوبر، وإيدن: "الأرستقراطيون الذين لم يكونوا حتى ديماغوجيين").

مشاعر الإحباط تفاقمت مجددا في الأسابيع القليلة التالية التي انهمكنا خلالها في أداء أعمال جسدية وجهود عضلية تكسر الظهر، إضافة إلى العزلة الفعلية الكاملة لمعسكراتنا. ومهما كان تأثير الخطب التي ألقاها تشرشل عبر الإذاعة على المدنيين، بما في ذلك سكان نورفولك كما هو مفترض، خصوصا تلك التي تحدثت عن "أننا سوف نقاتل على الشواطئ"، إلا أنها أتت في وقت لم يكن بمقدورنا فيه أن نسمعها. وفي

الحقيقة، كان ذلك هو الوقت الذي وصفت فيه الحالة المزاجية للزملاء المجندين بأنها "مروعة". فقد كنا نعمل كل ساعات النهار والليل، ونحن محاصرون فعلا بين الثكنة وموقع العمل (كتبت في مفكرتي: "تسليتنا الوحيدة هي الذهاب للاغتسال مرة في الأسبوع")، دون أن يقدم لنا تفسير، أو اعتراف، أو ننال أي تقدير، وفوق كل شيء دون أن نتلقى أوامر. بقي وجودنا مجهولا ودونيا. حلم المجندون من الطبقة الوسطى بالذهاب إلى الجبهة حيث "ينسون تلميع الشارات الموضوعة على القبعات ونكون جميعا معا". واستخلص معظم رفاقي النتيجة التالية: "هذه حياة لا تناسب البشر. إذا انتهت الحرب فلا بأس. لسوف أخرج من كل هذا وأعود إلى الحياة المدنية". هل كانوا يعنون ما يقولون؟ بصراحة، لا ، كما تشهد على ذلك ردة فعلهم على سقوط فرنسا في السابع عشر من حزيران/يونيو.

سمعت الخبر في حانة قريبة بعد رحلة من موقعي قرب جسر صغير كنا نقوم بحمايته على الطريق إلى غريت يارماوث. لم يكن لدى أحد منا أي شك بمعناه. بريطانيا لوحدها الآن. دعوني أنقل ما كتبته في مفكرتي بعد بضع ساعات:

"من هو المسؤول؟". بعد نصف ساعة من الإعلان في الراديو كان الإنكليز يطرحون السؤال في كل مكان. في الحانة التي سمعت فيها الخبر، في السيارة التي أعادتني إلى الجسر، في الخيمة مع الرفيقين. هنالك جواب واحد فقط: إنه تشمبرلين العجوز. الرأي المجمع عليه هو: كل من أذنب يجب أن يدفع الثمن. ذلك شيء مهم، حتى وإن تبين أنه مجرد دافع عابر..

توقفت سيارة عند جسرنا. حزرت هوية السائق، بنظارته وطقم أسنانه. إنه تاجر متجول. قلت: "هل سمعت الخبر من الراديو؟". قال الرجل وهو يهز رأسه: "أجل سمعنا. إنه أمر سيئ، سيئ. مروع وملعون". ثم تابع طريقه. صرخنا في إثره: "شكرا". وعدنا إلى الاستلقاء على الضفة بين الحشائش الطويلة ونحن نتبادل الحديث، ببطء ورعب".

لم يقتصر الأمر على عدم فهم زملائي لحقيقة ما حدث، بل لم يعتبروا ولا تخيلوا أن هذا قد يعني انتهاء الحرب، أو توقيع اتفاقية سلام مع هتلر (في الحقيقة، كنت مثلهم أيضا، حسبما استنتج حين أقرأ ردة فعلي المباشرة على سقوط فرنسا، وذلك

بالرغم من الخط الرسمي الذي تبناه الحزب منذ سبتمبر/أيلول ١٩٣٩ . فكرة انتصار هتلر لم تخطر ببالنا). يمكنهم تصور الهزيمة عند نهاية حرب يخوضون غمارها - لم يكن هنالك ما هو أسهل من ذلك في حزيران/يونيو ١٩٤٠ . كان من الواضح أيضا لكل المقيمين قرب شاطئ ايست انجليان أنه في حالة غزو يقوم به هتلر، كما توقع الجميع آنئذ، فلن يجد ما يعترض سبيله. لكن ما استحال عليهم تصوره هو عدم متابعة الحرب، حتى وإن تبين للجميع بوضوح اعتمادا على حقائق الواقع السياسي (وإن اقتصرت ثقافة المرء على مجرد نظرة عابرة من حين لآخر على صحيفة "ديلي تلغراف" وهو جالس على ضفة مستنقع في ايست انجليا)، أن بريطانيا في وضع يائس. هذا الإحساس بأن بريطانيا لم تهزم بعد، وأن من الطبيعي الاستمرار في القتال، قد عبر عنه ونستون تشرشل بالكلمات لهم، رغم أن ذلك قد جرى بنبرة من التحدي البطولي لم يشعر به أي من زملائي بالتأكيد. كان يوجه كلامه إلى الناس العاديين من الشعب البريطاني، مثل أفراد السرية الميدانية ٥٦٠، الذين لم يتخيلوا ببساطة (على العكس من أولئك الأكثر ثقافة ومعرفة) أن بريطانيا قد تستسلم.

وكما تبين لنا الآن (بالاستشهاد بكلمات رئيس الأركان العامة لهتلر، الجنرال هالدر)، فقد "حير الفوهرر كثيرا إصرارُ بريطانيا على رفض السلام]معه"[، لأنه اعتقد بأنه يعرض عليها شروطا "معقولة" [1]. عند هذه النقطة، لم يكن يرى أية مصلحة لألمانيا في غزو واحتلال بريطانيا التي "لم تكن تمثل أية فائدة لألمانيا. فالدم الألماني سوف يراق عندئذ لتحقيق شيء يفيد فقط اليابان، والولايات المتحدة، وغيرهما"، حسب تعبير هالدر. في واقع الأمر، عرض هتلر على بريطانيا الاحتفاظ بإمبراطوريتها، لكنها ستكون "دولة تابعة لهتلر" [2]، كما كتب تشرشل وقد أصاب في وصف العرض لروزفلت. في التسعينات، حاججت مدرسة من المؤرخين الشباب المحافظين بالقول إن على بريطانيا قبول هذه الشروط آنذاك. ولو ساد توجه اللورد هاليفاكس وحزب السلام القوي عام ١٩٤٠ لما كان من المستحيل - وفي الحقيقة ما كان من المستبعد - أن تؤيده أغلبية البريطانيين، مثلما أيدت غالبية الفرنسيين توجه

---

1 - Ian Kershaw, Hitler (London, 2001), vol. II, p. 302.

2 - Ibid., p. 298.

المارشال بيتان. لكن لم يعتقد أحد من الذين يتذكرون الآن تلك اللحظة الاستثنائية في تاريخنا بإمكانية وجود أية فرصة حقيقية لسيطرة فكر الانهزاميين. إذ لم يعتبروا رجال سلام بل "مذنبين" أوصلوا البلاد إلى هذا الوضع المأزقي. واعتمادا على هذا الدعم الشعبي الهائل، تمكن تشرشل ووزراء حزب العمال من التشبث بموقفهم.

لم نكن نعرف شيئا عن كل ذلك ـ لا عن حزب السلام داخل حكومة تشرشل (رغم شك اليسار بوجوده أصلا)، ولا عن عروض هتلر وتردده وإحجامه. ومن حسن الحظ أنه بدأ في آب/أغسطس من عام ١٩٤٠ بشن الغارات الجوية الواسعة النطاق على بريطانيا، تحولت إلى قصف ليلي على لندن في أوائل ايلول/سبتمبر. وتحولنا بدورنا من شعب أراد متابعة الحرب لأننا لم نفكر بشيء آخر نفعله، لنصبح شعبا واعيا ببطولته. كنا جميعا، حتى أولئك الذين لم يتأثروا بشكل مباشر، قادرين على التماهي مع الرجال والنساء الذين تابعوا حياتهم اليومية تحت قصف القنابل. لم نكن لنعبر عن ذلك بتعابير تشرشل الطنانة ("هذه هي اللحظة الحاسمة في حياتهم")، إنما كان ثمة شعور عام بالرضا في الوقوف في وجه هتلر لوحدنا.

لكن كيف كنا سنستمر في الحرب؟ لم تكن هناك أية فرصة مهما ضؤلت في العودة إلى القارة في المستقبل المنظور، ناهيك عن كسب الحرب. وخلال الفترة الممتدة بين معركة بريطانيا والوقت الذي أرسلت فيه فرقة ايست انجليان العسكرية لتلاقي قدرها المحتوم، تنقلنا عبر مناطق شاسعة في بريطانيا، من نورفولك إلى بيرثشاير، ومن الحدود الاسكتلندية إلى المستنقعات الويلزية. لكن خلال هذه الفترة برمتها لم يكن يبدو أن أي شيء تفعله السرية الميدانية ٥٦٠ يمارس أي تأثير على القتال ضد المانيا في نظر أفرادها، باستثناء تلك الفترة من عام ١٩٤١ التي وجدنا أنفسنا خلالها نتمركز في ميرسيسايد حيث تعرضت ليفربول لغارات جوية ضخمة، وبالتالي جرت تعبئتنا لرفع الأنقاض في صباح الأيام التالية للغارات (هنالك صورة لي معتمرا خوذة معدنية أمام مطعم مؤقت في أحد شوارع ليفربول وقد قدمت لي مجموعة من السيدات الودودات قدحا من الشاي، وهي أول صورة تظهر لي في صحيفة). من ناحية أخرى، لم يكن هناك من طريقة يمكن فيها لهتلر إخراج بريطانيا من الحرب، ولا كان بمقدوره ببساطة ترك الأمور كما هي. في الحقيقة، وكما نعرف الآن، فإن إخفاقه في إنزال

الهزيمة ببريطانيا في الغرب دفعته لاتخاذ القرار بالتحول شرقا ومهاجمة الاتحاد السوفييتي، وبالتالي جعل بريطانيا قادرة على كسب الحرب.

في كافة الأحوال، توضح أمر واحد بجلاء حتى بالنسبة لأعضاء الحزب المتحمسين والمخلصين من أمثالي، وذلك بدءا من صيف عام ١٩٤٠: لن يلتفت أحد في الجيش إلى خط الحزب الرسمي المناهض للحرب. إذ أخذ ذلك الخط يفقد معناه على نحو مطرد، ولم يعد له معنى على الإطلاق منذ اللحظة التي اجتاح فيها الألمان البلقان في ربيع عام ١٩٤٢ . نعرف الآن أن ستالين أصبح الضحية الرئيسية لابتعاد الخط عن الواقعية، بعد أن رفض بصورة عنيدة ومنهجية قبول الأدلة المفصلة والموثوقة تماما التي تثبت خطة هتلر للهجوم على الاتحاد السوفييتي، حتى بعد أن عبر الألمان حدوده. لقد كان احتمال هجوم هتلر على الاتحاد السوفييتي مرجحا إلى درجة كبيرة بحيث بدا أن الحزب الشيوعي البريطاني نفسه قد توقع حدوثه في أوائل شهر حزيران/يونيو، ولم تقلقه إلا ردة فعل ونستون تشرشل عليه [١].

لهذا شعر الشيوعيون وغير الشيوعيين بنفس الإحساس بالارتياح والأمل حين غزا هتلر الاتحاد السوفييتي في الثاني والعشرين من حزيران/يونيو ١٩٤١ . وفي وحدات عسكرية مؤلفة من عناصر تنتمي جوهريا إلى الطبقة العمالية، ساد أكثر من مجرد شعور بالارتياح. الأجيال التي تربت في حقبة الحرب الباردة لن تعرف مدى ترسخ وذيوع النظرة السائدة قبل الحرب بين العمال البريطانيين وحتى قيادات حزب العمال التي تعتبر روسيا السوفييتية "دولة للعمال" بمعنى من المعاني، إضافة لكونها إحدى القوى العظمى الملتزمة بمناهضة الفاشية، بحكم مركزها. وعرف الجميع بالطبع أن دعمها وتأييدها ضد هتلر أمر لا مفر منه. لم يغب طبعا المنتقدون والمعادون، لكن الصورة السائدة عن الاتحاد السوفييتي لدى الحركة العمالية البريطانية ظلت حتى حقبة الحرب الباردة لم تشمل اعتباره دولة توتاليتارية تمارس الإرهاب الجماعي، دولة الرعب و"الغولاك". ولهذا عاد أعضاء الحزب في حزيران/يونيو ١٩٤١، وقد تنهدوا ارتياحا، إلى ما كانوا يقولونه قبل الحرب، وعاودوا الانضمام إلى جماهير الشعب البريطاني. وبناء على اقتراح قدمته، حصلت على تواقيع كافة عناصر السرية ٥٦٠ ، بدءا بقائدها

1 - Theodor Prager, Zwischen London und Moskau: Bekenntnisse eines Revisionisten (Vienna, 1975), p. 59.

(على كرة قدم) وأرسلتها إلى السفارة السوفييتية في لندن لنقلها إلى وحدة مهندسين مماثلة في الجيش الأحمر. أعتقد أن صحيفة "ديلي ميرور"، التي أصبحت جريدة القوات المسلحة، نشرت صورة الكرة. بعد ٢٢ حزيران/ يونيو، حققت الدعاية الشيوعية شيئا من النجاح.

III

مهما كانت ضآلة مساهمتي في سقوط هتلر، أو في الثورة العالمية، فإن هنالك الكثير مما يمكن قوله عن الخدمة في سلاح المهندسين الملكي مقارنة بالخدمة في فيلق التثقيف العسكري. كان الغموض يحيط بفكرة الجيش التقليدي حول كتيبة تدعي تثقيف الجنود وتعليمهم أشياء لم يكونوا بحاجة لمعرفتها كجنود، ومناقشة الأمور غير العسكرية أو سواها. وقد أجيز هذا الفيلق لأن قائده، الكولونيل ارتشي وايت، كان جنديا محترفا حاز على صليب فكتوريا تكريما لخدماته، ولأن معظم الجنود المشاركين في الحرب هم بلا شك من المدنيين ماضيا ومستقبلا، والذين تطلب رفع روحهم المعنوية أكثر من مجرد غرس الولاء للباس العسكري والفخر به. لم يحبذ الجيش صلة "فيلق التثقيف العسكري" بـ"مكتب الجيش لبحث الشؤون الراهنة" الجديد، الذي كان يصدر كتيبات شهرية تناقش المواضيع السياسية، نظرا لأنها لم تكتب بواسطة أفراد متعاطفين مع حزب العمال. ولسوف يسيطر السياسيون المحافظون على المكتب الذي حمل مسؤولية تحديث القوات المسلحة بصورة راديكالية. ومن الجدير بالذكر أن الغالبية الساحقة من أفراد القوات المسلحة قد صوتت لصالح حزب العمال عام ١٩٤٥ .

لكن ذلك سوف يبالغ في تقدير اهتمام أغلبية العاملين في القوات المسلحة ـ رجالا ونساء ـ بالكتابات السياسية بشكل محدد. لقد ناشد المكتب/واستهدف النخب القارئة منهم، لكنه لم يقدر على إثارة اهتمام عامتهم من غير المثقفين. وإذا ما تمكنت مطبوعة من تشكيل سياسة الجنود، داخل أو ضمن حدود ما تصل إليه بريطانيا، فهي الـ"ديلي ميرور"، وهي صحيفة لامعة ومتعاطفة مع حزب العمال كانت منتشرة ومقروءة من الجنود إلى درجة لم ينافسها في ذلك منافس. ولا أقدر أيضا على الادعاء بأن مساهمتي في عملية التغيير الراديكالية في القيادة الجنوبية للجيش البريطاني كانت

أعظم من مساهمتي في هزيمة هتلر. بعد حزيران/يونيو من عام ١٩٤١، كان خط الحزب يكسب الحرب، وهذا ما جعل الشيوعيين يرصون الصفوف مع غيرهم، رغم أنه ضاعف من إحجامهم عن انتقاد الحكومة مقارنة باليساريين الأقل تحالفا وانضباطا، وذلك باستثناء ما يتعلق بالقضايا التي اقترحها الاتحاد السوفييتي، مثل مطالبته بغزو أوروبا الغربية في وقت مبكر يسبق الموعد الذي أراده روزفلت وتشرشل الأكثر ترددا. لم يكن الرأي العام بحاجة للحزب كي يثير إعجابه بالجيش الأحمر وستالين وتحمسه الشديد لهما. خلال الحرب كان والد زوجتي، وهو ضابط صف متقاعد لا يهتم بالسياسة خدم في "حراس غولدستريم" (رغم أنه صوت لصالح حزب العمال عام ١٩٤٥)، يحب أن يذكّر زواره متفاخرا بأنه يشبه فيشنسكي، المدعي العام الشهير في محاكمات ستالين الصورية في الثلاثينات.

نظرا لأن الجيش لم يكن يعرف بالضبط ماذا يفعل بعناصر فيلق التثقيف العسكري من الرقباء/المدرسين - من أمثالي - (الذين يحملون أدنى المراتب العسكرية بين ضباطه)، فقد وجدوا أنفسهم في حالة غريبة ضائعة بين الإهمال والنسيان من قبله، كأنهم قساوسة عسكريون، فيما عدا النجمتين الدالتين على الرتبة الصغيرة والمناسبات الطقسية التي يكون فيها حضور "القسيس" إجباريا. تم توزيعهم أفرادا وجماعات (مؤلفة من عنصرين) على مختلف معسكرات التدريب أو معسكرات القواعد، أو إلحاقهم بالتشكيلات العاملة دون أي تحديد واضح لوظيفتهم. لم نكن ننتمي فعلا إلى الفرق والألوية العسكرية التي كانت مسؤولة تقنيا عن جراياتنا، وأماكن مبيتنا، ورواتبنا؛ لم يتدخل أحد في حياتنا. كانت لدينا أسلحة، لكنها عتيقة وعقيمة بحيث أنني حين سرحت من الجيش في نهاية المطاف لم أجد آلية متوفرة لتسليم بندقيتي. من ناحية أخرى، لم أجد أية صعوبة، مهما كان الموقع الذي تمركزت فيه، في العثور على مكان مناسب للآلة الكاتبة والكتب القليلة التي أملكها. لا أتذكر أحدا في فرقة الحرس المدرعة، التي التحقت بها لفترة، قد علق على مظهر رقيب لم يكن في لباسه ومسلكه ما يدل على أية محاولة جادة للوصول إلى مستوى المتطلبات الصارمة الشهيرة للواء الحرس الملكي. لم يتمكن أحد من الإفلات من قيودها سوى هذا الرقيب/المدرس. لقد سمح الجيش لنا، على الأقل حتى موعد المغادرة إلى الخارج،

بالعيش حياة شبه منفصلة عنه. لا أتذكر عدد المرات التي ذهبت فيها إلى لندن من مختلف الأماكن التي وضعني فيها فيلق التثقيف العسكري في جنوب إنكلترا، لكن بعد ذلك - وخصوصا بعد أن تزوجت في صيف عام ١٩٤٣ - كنت أمضي عمليا عطلة نهاية كل أسبوع هناك.

وهكذا، ولأسباب عملية، وجدت نفسي أعيش على نحو مطرد حياة مدني يسافر كل أسبوع لقضاء يوم العطلة. وفي الواقع، مرت على حياتي اليومية أوقات صعب فيها تمييزها عن حياة المدنيين، باستثناء حقيقة كوني أرتدي الزي العسكري. وهكذا عشت الشهور الثمانية عشرة الأخيرة في غلوسيستر، بعد أن خصص الجيش لي مكانا آوي إليه في بيت السيدة ادواردز، وهي سيدة لطيفة المعشر تنتمي إلى الطبقة الوسطى، كانت صديقة ومؤيدة لنواب حزب العمال في المنطقة، والتي تحتوي غرفة الجلوس فيه لوحة متوسطة الجودة لماتيس، أقنعها مستشارها المالي - وهو خبير بارع على ما يبدو - بشرائها على سبيل الاستثمار بمبلغ ٩٠٠ جنيه عام ١٩٣٩ (في الحملة الانتخابية لعام ١٩٤٥، تجولت في المنطقة التماسا لأصوات الناخبين المؤيدين لحزب العمال، وأذهلني مثل الكثيرين، التأييد الضخم المفاجئ الذي لقيته. بل وجدت نفسي، وأنا أمثل الجيش، ألقي خطابا أمام القوة العاملة في واحد من مصانع الطائرات الكبرى على الطريق المؤدي من غلوسيستر إلى شيلتنهام، التي كانت معقلا للحزب الشيوعي محليا. وتوصلت إلى نتيجة مفادها أنني لا أملك المؤهلات الطبيعية التي تجعلني خطيبا مفوها يلهب حماس الجماهير).

لكن لندن هي المكان الذي عشت فيه فعلا كرجل بالغ. في رحابها أمضيت إجازاتي أيام الحرب الألمانية الصاعقة بين عامي ١٩٤٠-١٩٤١، لأكتشف خلال إحدى النزهات الليلية أن الإيمان بالقدر المحتوم الذي لا يعرف العاطفة ("لن تصيبك]القنبلة[إلا إذا كان اسمك محفورا عليها") هو وحده الذي يجعل من الممكن تأدية الأنشطة الحياتية المعتادة تحت القصف. هناك أيضا، حيث أمكنني الآن الذهاب بشكل متكرر، أصبح من الممكن بدء نوع من الحياة الخاصة الأقل شذوذا وارتباكا وعرضة للمفاجئات غير المتوقعة. في أيار/مايو ١٩٤٣، تزوجت من موريل سيمان، التي عرفتها بشكل مبهم من قبل حين كانت طالبة شيوعية جذابة جدا في مدرسة لندن للاقتصاد، وتعمل

الآن في هيئة التجارة. وهذا مكنني من القول إنني تزوجت ذات مرة فتاة من القلة المثقفة التي يتحدث أفرادها باللهجة اللندنية (كوكني)، لأنها ولدت في "برج لندن"، وأمها ابنة أحد أفراد الحرس الملكي (آمرو البرج)، وأبوها رقيب في مفرزة "حرس غولدستريم" المكلفة بحراسة خزائنه. كما ساعد ذلك على توضيح مستقبلي لما بعد الحرب. ومثلما يحدث لمن يتزوج من موظفة رفيعة المستوى بدوام كامل في الدولة، توجب علي تغيير ميدان أبحاثي في فترة ما بعد الحرب، أو مواجهة احتمال ترك الزوجة في لندن بينما أمضي سنتين اثنتين في دول شمال أفريقيا الخاضعة للحكم الفرنسي. وبعد استشارة مدرسي القديم مونيا بوستان الذي يعمل الآن أيضا موظفا مؤقتا في لندن، اكتشفت تاريخ الجمعية الفابية، التي كانت كافة مصادرها متوفرة عمليا في المدينة. تبين أن الموضوع مخيب للآمال، مثله مثل زواجي. وهذا ما حصل لعدد من الزيجات التي تمت في زمن الحرب، رغم أنني لم أعتقد بذلك آنذاك. لحسن الحظ لم نرزق بأولاد.

قابلت مورييل مرة أخرى من خلال أقرب صديقين لي في لندن: مارجوري، وهي امرأة عزيزة علي عرفتها منذ أيام مدرسة لندن للاقتصاد، وشريكها العالم الاقتصادي الساحر تيدي بريجر، وهو زميل شيوعي آخر من المدرسة، وقد عاد من المنفى المؤقت (ايل اوف مان، كندا) الذي أرسلت إليه الحكومة البريطانية بشكل آلي تقريبا العديد من الشباب النمساويين والألمان المناهضين بكل حماس للنازية واللاجئين إلى أراضيها. بعد حصوله على شهادة الدكتوراه من جامعة كامبريدج، عمل ضمن ما يمكن أن ندعوه اليوم لجنة المتخصصين في شؤون التخطيط السياسي والاقتصادي، قبل أن يعود إلى النمسا عام ١٩٤٥ كعضو مخلص للحزب؛ وكان عندها متزوجا بامرأة أخرى. من منظور حياته المهنية، أو الحرفية، أو ربما حتى السياسية، كان من الأفضل له البقاء. كان الاثنان من بين قلة قليلة من أفراد جيلي (أو المنتمين إلى ذات الشريحة العمرية) من الطلاب المتزوجين الذين عاشوا وعملوا بشكل دائم في لندن خلال فترة الحرب - ابن عمي دينيس وزوجته يمثلان حالة مماثلة - لأن معظم الشباب المؤهلين جسديا كانوا في الخدمة العسكرية، ولم يتمركز في المدن سوى حفنة من المجندين، خدم معظمهم في الأركان والاستخبارات. من ناحية أخرى، كان المكان مكتظا بالنساء اللاتي عرفتهن

في أيام الدراسة، لأن الحرب وفرت فرص عمل أكبر وأكثر أهمية للمرأة مقارنة بما كانت عليه الحال قبل الحرب. لهذا شكل الأصدقاء والأتراب في لندن، تبعا للعمر والصحة الجسدية والجنس، مجتمعا محليا متنافرا بصورة غريبة. كان الشبان يصلون ويغادرون فجأة، أو يزورونها مثلي. أما السكان المقيمون بانتظام فكانوا من النساء، أو من غير المؤهلين جسديا، أو من الذين فاتهم سن التجديد في الجيش. لكن برز مشهد أكثر حضورا وإلحاحا: الأجانب، الذين كانوا يعنون بالنسبة لي أولئك الناطقين باللغة الألمانية. لذلك كان من الطبيعي أن يدخلني تيدي بيرجر ضمن المدى الأوسع للحركة النمساوية الحرة، حيث شارك في أنشطتها بشكل فاعل كشيوعي بالطبع.

توقعت مع زياراتي المتكررة إلى لندن، أن أجد طريقي - عاجلا أم آجلا - إلى داخل مجتمع اللاجئين. وفي الحقيقة، صادفتهم منذ البداية خلال أداء واجباتي العسكرية في ساليزبوري بلين، لأنك لابد أن تجد على الأرجح في المقاهي والمكتبات تشكيلة متنوعة من الموسيقيين، والناشطين السابقين، والمخرجين المسرحيين، والاقتصاديين الطامحين الذين أتوا من وسط أوروبا واستخدمتهم بريطانيا كعمال عاديين في "فيلق الطليعة" (في الوقت المناسب استخدم العديد منهم بصورة أكثر عقلانية في القوات المسلحة). ورغم انقطاع أية صلة وجدانية تربطني بألمانيا، وضعف الصلة الرابطة بالنمسا، إلا أن الألمانية كانت لغتي، ومنذ مغادرتي برلين عام ١٩٣٣، بذلت جهودا جبارة كي لا أنساها في بلد لم أعد بحاجة فيه لاستعمالها. وظلت لغتي الخاصة في سري. فقد كتبت بها يوميات حافلة في عهد المراهقة، وحتى في فترة الحرب كنت أكتب بها يومياتي من حين لآخر. وفي حين أن الإنكليزية كانت لغتي الأدبية النظامية، إلا أن حقيقة رفض وطني الاستفادة من معرفتي باللغتين في الحرب ضد هتلر جعلتني أرغب بإثبات قدرتي على الكتابة بالألمانية. في الواقع، أصبحت في عام ١٩٤٤ محررا "مستقلا" أسهم بمقالات أدبية متنوعة بين الحين والآخر في مجلة أسبوعية رديئة الطباعة اسمها "داي زيتونغ"، تصدر بالألمانية وتمولها وزارة الإعلام. ومهما كان الهدف السياسي أو الدعائي لهذه المجلة، فقد فشلت في تحقيقه، ولهذا قام أصحابها وممولوها المحبطون بإغلاقها فور انتهاء الحرب. عارض المجلة الديمقراطيون الاجتماعيون والاشتراكيون الألمان في المنفى، إضافة إلى الشيوعيين المهاجرين. ذكرني ذلك بأنني لم

أستشر الحزب حولها، أو بكلمات أخرى، أنني لم أعتبرها مجلة "سياسية" على الإطلاق. كتبت فجأة إلى محرر المجلة الأدبي (تبين أن اسمه ليس "بيتر برات" بل ولفغانغ فون اينسايدل)، وكان رجلا مثقفا بشكل مدهش، رقيق الوجه، له ميول مثلية، ويتصل بقرابة مع بسمارك والعديد من الجنرالات البروسيين، كما عمل محررا في مجلة المانية قبل عام ١٩٣٣ . عاملني بلطف نموذجي، وأظهر تفهما وصداقة عميقين، علاوة على تصحيح لغتي الألمانية دون ريب. اعتدنا الالتقاء والتحدث معا في حانات سوهو خلال الحرب. لكن صلتي به انقطعت بعد أن انتقل إلى ميونيخ، ولربما يشكل هذا الكتاب مكانا مناسبا لتقديم شكري لواحد من الأشخاص القلائل الذين عرفتهم وأدين لهم بفضل شخصي، وذلك خارج نطاق الأسرة والحزب.

الحركة النمساوية الحرة، التي أدخلني إليها تيدي بريجر، تميزت بالجدية على الصعيدين السياسي والثقافي. ورغم أنها منظمة من قبل الشيوعيين من خلف الكواليس (ولهذا تمت إدارتها بكفاءة عظيمة)، إلا أنها نجحت في حشد الأغلبية العظمى من أفراد الجالية النمساوية المهاجرة التي لم تكن مسيسة كثيرا (بمن فيهم والد زوجتي في مانشستر)، اعتمادا على شعار بسيط وقوي التأثير: "النمساويون ليسوا من الألمان". ومثل ذلك خروجا دراميا على تراث الجمهورية النمساوية الأولى (١٩١٨-١٩٣٨)، حيث كانت كافة الأحزاب، فيما عدا حفنة من الأحزاب الموالية لإمبراطورية هابسبرغ، والشوعيين منذ عام ١٩٣٦ تقريبا، تفترض العكس وتؤكد أن بلادها هي النمسا الألمانية، وتطلعت (حتى قدوم هتلر) إلى اتحاد نهائي مع المانيا. لهذا، عملت الحكومة التي تعتنق الأيديولوجية الهتلرية على نزع سلاح خصومها: بل إن الزعيم الاشتراكي القديم كارل رينر (الذي سيصبح أول رئيس للجمهورية النمساوية الثانية عام ١٩٤٥) قد رحب بذلك. تمكن الشيوعيون لبعض الوقت من تطوير حجة مثيرة لصالح انفصال النمسا التاريخي وحتى الثقافي عن المانيا، والتي جندت في نهاية المطاف لتبنيها والدفاع عنها، كوني شيوعيا ومؤرخا مؤهلا متوفرا (بين نيسان/أبريل ١٩٤٥ وحتى تسريحي من الجيش عام ١٩٤٦، كتبت سلسلة من المقالات التاريخية على طول هذه الخطوط في مجلات الحركة النمساوية الحرة، لتكون بمثابة أول أعمالي التاريخية على الأرجح). خط الانفصال عن المانيا كان يروق بالطبع

للأغلبية الساحقة من الجالية النمساوية اليهودية المهاجرة، التي وجدت على ما يبدو، رغم كل ما شعرت به من امتنان لبريطانيا وإعجاب بها، أن من الأصعب عليها الاندماج في المجتمع المحلي مقارنة بالاندماج بالمهاجرين الألمان. كما توافقت مع السياسة التي اتبعها الحلفاء بعد الحرب، التي أكدت بأن الحركة النمساوية الحرة ـ التي كانت على وجه العموم أفضل شرائح مهاجري القارة تنظيما ـ تتمتع بشيء من الاحترام الرسمي، وكانت متحررة في أغلب الأحيان من النزاعات والمشاحنات العلنية التي مثلت أسلوبا نمطيا ميز سياسة المهاجرين. كما نجحت نجاحا غير عادي في إعطاء اللاجئين النمساويين الأطفال والمراهقين بين عامي ١٩٣٨-١٩٣٩ شعورا بالتوحد والمستقبل في جمعية "النمسا الفتاة" التابعة لها. في كافة الأحوال، عاد أعضاؤها إلى النمسا يحملون أرق الذكريات عن منفاهم البريطاني. العديد من أصدقائي اللاحقين، وأبرزهم الشاعر والمترجم ايريك فريد، والرسام جورج ايسلر، قد أتوا من هذه البيئة.

لهذا، كانت الحياة شبه المستقلة عن الجيش مقبولة بما فيه الكفاية، حتى وإن كانت كثيرة المطالب. كانت لي زوجة، وأصدقاء، وموئل ثقافي في لندن، إضافة إلى تعرفي إلى/ وتعلمي من المجموعة الصغيرة من محبي موسيقى الجاز والبلوز المتحمسين داخل وخارج لندن (والفضل يعود إلى ابن عمي دينيس الذي ارتبط بدورية مخصصة للمفكرين ومحبي الموسيقى اليساريين في غالبيتهم، تدعى "موسيقى الجاز"). وفي الحقيقة، تمثل أحد أكثر مشاريعي التعليمية نجاحا في الجيش في دروس موسيقى الجاز التي نظمتها لما كان يسمى بـ"وحدة تدريب الجنود الشبان" في دورسيت، حيث سافرت بانتظام من أجلها إلى بورنماوث لاستعارة الاسطوانات، كما حسنت إحداها ـ وهي لتشارلز فوكس ـ من ثقافتي الموسيقية الخاصة. علاوة على ذلك، ورغم أنني لم أكن منظما بشكل رسمي في أي فرع للحزب الشيوعي، على قدر ما أذكر، دخلت العديد من النقاشات السياسية، لأن موسكو بدت عام ١٩٤٣ وكأنها تضع مستقبل الحركة الشيوعية برمته على المحك. فقد حلت منظمة الأحزاب الشيوعية الدولية (الكومنترن)، ودفع اجتماع طهران الذي عقد في ذات السنة بين ستالين وروزفلت وتشرشل، دفع ستالين إلى إعلان احتمال التعاون في فترة ما بعد الحرب بين الرأسمالية والاشتراكية. ونتيجة لذلك، حل الحزب الشيوعي الأمريكي نفسه، أما زعيمه ايرل

براودر فقد أعلن أن "الرأسمالية والاشتراكية بدأتا العثور على سبيل للتعايش والتعاون السلمي في نفس العالم" [1] - وهذا اقتراح لا يمكن لشيوعي التأكيد عليه في العلن دون موافقة ستالين المسبقة - كما أسس الحزب الشيوعي البريطاني خططه المستقبلية على الافتراض بأن هذا ما قصده "خط طهران". في الحقيقة، طلب أحدهم - ولابد أن يكون كما أعتقد اميل بيرنز، المفوض الثقافي في الحزب آنذاك - أن أحضر مذكرة لمناقشة الاحتمالات الاقتصادية للتطور الرأسمالي - الشيوعي. وبرغم ما كنا عليه من ولاء وانضباط، لم يجد كافة الثوريين سهولة في قبول هذه "الاحتمالات الجديدة"، حتى وإن لم نشكك بحقيقة أن الاشتراكية لن تأتي إلى الولايات المتحدة خلال فسحة العمر المتوقعة لأي منا.

ومع ذلك، لم يكن من المفاجئ أن يذكرني كل يوم من حياتي في تلك الفترة بأنني لا أسهم بشيء في كسب الحرب، وأنه لم يتح لي أحد أية فرصة عمل، مهما كان متواضعا، تساعد فيه مؤهلاتي ومواهبي - بما هي عليه - على تحقيق مثل هذا الغرض. فالفرقة التي أنتمي إليها كانت تستعد لمغادرة البلاد، لكن دون أن أرافقها. ومن على الجرف العالية لجزيرة وايت تمكنت من رؤية ما كان واضحا أنه حشد أسطول غزو فرنسا، في حين لم يكن لدي ما أفعل سوى لعب دور السائح - باللباس العسكري - في مقاطعة كوين فكتوريا، وقراءة نسخة مستعملة من كتاب هازليت "روح العصر" ابتعته من إحدى المكتبات. تطوعت للسفر إلى الخارج، لكن لم يقبل ذلك أحد. أرسلوني إلى غلوسستر. ويبدو أنني لن أكون حيث تقع أعظم الأزمات وأكثرها حسما في تاريخ العالم الحديث.

ومع ذلك، ورغم أنني لم أدرك الأمر آنئذ، لسوف أرى شيئا من الحرب بصورة غير مباشرة. فقد نقلت إلى الجناح العسكري من مستشفى المدينة العام في غلوسستر، حيث عملت كضابط يؤدي مهام الرعاية الاجتماعية أو كضابط ارتباط مع الهيئات المدنية التي تعرض تقديم المساعدات. كان المستشفى متخصصا في معالجة الإصابات الخطيرة، حيث تزايد عدد الجنود المصابين بحروق بليغة على وجه الخصوص في المعارك التي دارت على شاطئ النورماندي (في فرنسا). استخدم الأطباء هنا العلاج

1 - Joseph R. Starobin, American Communism in Crisis, 1943-1957 (Cambridge, MA, 1972), p. 55.

بالبنسلين، وقاموا بعمليات نقل الدم وترقيع الجلد. اكتظ المكان بالجرحى، وكان بعضهم يسيرون وقد لفت أطرافهم بضمادات السيلوفان، وتدلت من وجوه بعضهم الآخر نتوءات تشبه لفائف "السجق"، مرتدين ثياب "المستشفى الزرقاء" التي تصدر صريرا حادا عند المشي، والربطات الحمراء التي تدل على أنهم من الجرحى العسكريين. في المستشفى مصابون من جنسيات عديدة، منهم الألمان (قال لي أحد الضباط بأنه ليس نازيا، لكنه أقسم يمين الولاء الشخصي للفوهرر)، والطليان (كان أحدهم يجلس في السرير ويقرأ ستريندبرغ مترجما إلى الإيطالية، واعتاد أن يتحدث طويلا معي ويمنعني من الذهاب، رغم أنني لم أكن أفهم الإيطالية كثيرا: حول الضباط الطليان، وبريطانيا وإيطاليا، ومستقبل إيطاليا، والحرب، وغير ذلك). من الطبيعي أن نفخر بـ"حلفائنا" الذين كتبت عنهم مقالا في نشرة نصف شهرية: البولندي القادم من تورون، الذي حارب في الجيشين، وانشق عن الألمان في النورماندي وعاد إلى هناك مرة أخرى مع البولنديين بعد ليلة قضاها في ادنبره؛ ونجم "الجناح"، المغربي الضئيل، ذي الوجه النحيل والوجنات البارزة والملامح البربرية، وهو يسير مرتديا ثوب المستشفى منوها (تبعا لمرجع مجهول) بمثال الشجاعة الذي يجسده ذلك "السباهي الشاب" عمر بن محمد في الحمامات، والذي اعتاد التواصل معنا باللغة الفرنسية، بعد أن حارب في صفوف جيش فرنسا الحرة.

كان المكان مفجعا، يذكر بالدماء والأشلاء. ومع ذلك، فإن أغرب ما ميزه هو أن الموت فاجأنا فيه. فهو يملأ النفس بالأمل، ولا يذكر بالمأساة. دعوني استشهد بما كتبته آنذاك:

انقضى الآن زمن المفاجأة التي تصيب المرء عند رؤية الجرحى الذين أصيب بعضهم في الوجه، أو الذين تم إنقاذهم في اللحظة الأخيرة من الدبابات المحترقة. بين الحين والآخر يأتي جريح يدفعنا منظره المشوه المروع إلى حبس أنفاسنا حين نلتفت إليه خوفا من أن تفضح تعابير وجوهنا صدمة التقزز التي نشعر بها في داخلنا. يمكننا الآن أن نفكر بارتياح بأن هذا ما بدا عليه مارسياس حين انتهى منه أبولو؛ أو مدى تقلقل توازن الجمال البشري في غياب الفك الأسفل عن الوجه بعد انفصاله عنه.

السبب الكامن وراء هذه الصلابة هو أن التشويه لم يعد مأساة يتعذر تجاوزها وإصلاح ما أفسدته. فهؤلاء الذين يأتون إلى هنا يعرفون - عموما - أنهم سيغادرون في

نهاية المطاف في شكل بشري مقبول تقريبا. ولربما ـ أو في الحقيقة، سوف يستغرق ذلك بضعة أشهر أو بضع سنين. إن عملية معالجة هذه الأجساد الحية الرقيقة سوف تتطلب عشرات العمليات الجراحية، ولسوف تمر عبر مراحل مختلفة ستبدو خلالها سخيفة وهزلية، وهذا يذكرنا بأن شر البلية ما يضحك. لكن الأمل لم يبرح هؤلاء. ولم يعد ما يواجههم متمثلا في عزلة أبدية بين الجدران، بل حياة إنسانية. كانوا يرقدون داخل أحواض مليئة بسوائل ملحية لأن جلودهم قد احترقت، ويتبادلون الدعابات فيما بينهم لأنهم يعرفون بأنهم سيحصلون على أخرى جديدة. تجولوا في جناح المستشفى بوجوه مقلمة بالضمادات كجلود الحمر الوحشية، ونتوءات متدلية من وجناتهم كأنها لفائف السجق.

لا يبدأ المرء بإدراك معنى الأمل إلا في مستشفى كهذا.

ولم يكن الأمل متصلا بالأجساد فقط. فمع نهاية الحرب، واقتراب النصر المؤكد، كان الجو مترعا بالأمل بالمستقبل. ولسوف أورد هنا خبرين من النشرة التي أصدرتها للجناح العسكري.

اعتدت العمل في الزراعة، لكن بترت قدماي ولم يعد بإمكاني ممارسة مهنتي مرة أخرى. سألني السيد بتس حول ما أردت أن أفعله أو أقوله، بعد أن عملت كميكانيكي محركات في الجيش. لسوف أذهب إلى معهد تدريبي في بريستول .. لصقل مهارتي.. أعتقد أن هذه الخطة التي تساعد الجنود المعاقين على بدء حياة مهنية جديدة هي خطة جيدة..

ومرة أخرى: "سوف يفتتح الرقيب اوين نقاش المكتب العسكري للشؤون الراهنة يوم الجمعة، ويعطي رأيه حول 'كيفية الشروع بعملية إعادة البناء'". وكان الرقيب اوين، وهو عامل بناء سابق وممثل نقابي، يتساءل عما إذا كان "لأي من الرجال العاملين في البناء أفكار تساعد على المضي قدما في العملية". نهاية الحرب كان وشيكة، وسوف تجرى انتخابات عامة (بعض المقيمين في أجنحة المستشفى قد طالبوا باستمارات التصويت قبل البدء بتوزيعها) وتتغير الأحوال. لم نشارك في هذا الاعتقاد في عامي ١٩٤٤ و ١٩٤٥، حتى وإن كان من الطبيعي أن يتركز قلقنا بعد الحرب على موعد تسريحنا من الجيش.

أقلقني ذلك أيضـا. وطالما استمرت الحرب، كانت خدمتي العسكرية عادية وضرورية، رغم تفاهة المهام التي أديتها خلالها. لم أكن أشتكي. لكن حالما انتهت الحرب، كان كل يوم يمر علي وأنا في الجيش يعتبر يوما ضائعا برأيي. ومع حلول خريف عام ١٩٤٥، ومن ثم الشتاء، كنت أقترب من نهاية السنة السادسة من الخدمة العسكرية، لكن الجيش لم يظهر أية علامة دالة على رغبته بالتخلص مني. بل على العكس تماما. ففي وقت مبكر من عام ١٩٤٦، عرض - لدهشتي - إرسالي مع وحدة محمولة جوا (من بين كل الوحدات!) إلى فلسطين (من بين كل الأماكن!). وبدا أن الجيش يفكر في إرسالي لمقاتلة اليهود أو العرب هناك ليعوض عن عدم إرسالي لمحاربة الألمان.

في نهاية الأمر، كان ذلك بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير. فقد كان اليهود الشيوعيون بالطبع معادين للصهيونية من حيث المبدأ. ومع ذلك، وبغض النظر عن تعاطفي، أو كرهي، أو ولائي، فإن وضع جندي يهودي يقذفون به في خضم نزاع ثلاثي الأطراف بين اليهود والعرب والبريطانيين، كان متخما بالكثير من التعقيدات بالنسبة لي. لهذا، استخدمت صلاتي ومعارفي. خابرت دونالد بيفيز، المدرس في كلية كينغ، وقلت له إنني أريد الخروج من الجيش لمتابعة منحتي البحثية التي بدأتها عام ١٩٣٩ . كتب بيفيز بدوره الرسائل الضرورية التي أكد فيها على أهمية عودتي إلى كامبريدج، ونجح في مسعاه. في الثامن من شهر شباط/فبراير ١٩٤٦، قمت بتسليم الزي العسكري، رغم احتفاظي بحقيبة قناع الغاز، التي تبين أنها حقيبة مفيدة تعلق على الكتف، وأعادوا لي ثيابي المدنية، إضافة إلى إعطائي إجازة تسريح لمدة ستة وخمسين يوما. بعد أن تجاوزت الثامنة والعشرين بنصف سنة، عدت إلى لندن وإلى الحياة الإنسانية الطبيعية.

-١١-

الحرب الباردة

I

في عام ١٩٤٨، أصبحت الحدود الفاصلة بين الشرق والغرب في المانيا خط الجبهة في الحرب الباردة. فخلال "أزمة برلين"، التي تفجرت حين قطع الروس المواصلات البرية مع المدينة في أوائل نيسان/أبريل، وبداية الجسر الجوي خلال الأشهر الطويلة اللاحقة، حوصر الشرق والغرب في مواجهة خطرة تحطم الأعصاب بين القوتين العظميين، كان فيها الشيوعيون في الغرب، بغض النظر عن ضآلة تأثيرهم، في "الجانب الآخر". لذلك، بدأت الحرب الباردة بالنسبة لي في أيار/مايو ١٩٤٨، حين أعلمتني وزارة الخارجية بأنها لن تتمكن لسوء الحظ من تأكيد دعوتي للمساهمة مرة أخرى في الدورة التدريبية التي أقامتها هيئة الإدارة البريطانية لـ"تثقيف وتعليم" الألمان. أما الأسباب الحقيقية فكانت محض سياسية كما بدا جليا. إذ بدأت في تلك الفترة الجهود الصامتة ـ لكن الشاملة ـ لطرد عناصر الحزب المعروفة من أي موقع يتصل بالحياة العامة في بريطانيا. وبالرغم من أن هذه الحملة لم تكن على نفس القدر من الهيستيريا والشمول الذي عرفته الولايات المتحدة، حيث غاب الشيوعيون، أو حتى الذين يصفون أنفسهم بأنهم ماركسيون، عن مناصب التدريس في الكليات والجامعات فعليا في منتصف الخمسينات. كان الزمن غير مناسب للشيوعي في المهن الأكاديمية، حيث شجعت السياسة العامة على التحيز ضدنا ومعاملتنا كخونة فعليين أو محتملين، وكنا محل شبهة من قبل المستخدمين والزملاء. لم تكن الليبرالية المعادية للشيوعية شيئا جديدا، لكن خلال الحرب الباردة، وبمساعدة الدعاية المسهبة الممولة من قبل السلطات الأمريكية والبريطانية، أضفت عليها مشاعر الكره للستالينية، والاعتقاد (الذي لم تشارك به

الحكومة البريطانية) [1] القائل بأن الاتحاد السوفييتي ينزع إلى الهيمنة الفورية على العالم، بعدا هيستيريا متطرفا.

لم تكن الحرارة السياسية حتى ذلك الوقت - في بريطانيا على أقل تقدير - مرتفعة جدا. فحزب العمال يحكم البلاد الآن، ولم يقم أحد بشكل جدي - خصوصا حزب المحافظين المهزوم في الانتخابات - بتحدي الإصلاحات بعيدة المدى التي أعلنتها الحكومة الجديدة. وتبعا للإجماع العام، لم يكن من الوارد على الإطلاق العودة إلى الثلاثينات، أو على الأقل لم يذكر أحد ذلك؛ وتمتعت الحكومة التي شكلت عام ١٩٤٥ بشرعية انتخابية وأخلاقية لا مجال للتشكيك بها. ولم يعد هناك، على أية حال، ما يتفوق على "ثورية" الجهود الحربية التي وجهتها الدولة خلال السنوات الست السابقة، مما أعطى الشعب البريطاني نصرا شعر في العمق بأنه "نصره" هو. على الصعيد الدولي، ربح الحرب التحالف العظيم بين بريطانيا والاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة، وبغض النظر عن الديبلوماسية وأجهزة الاستخبارات، لم تتمكن الخلافات والاحتكاكات بين حلفاء الحرب من إلغاء وتغييب الوعي بذلك النضال المشترك حتى ذلك الحين [2]. بين عامي ١٩٤٥-١٩٤٧، كانت الأحزاب الشيوعية تمثل بوزراء في حكومات معظم الدول المتحاربة والدول المحتلة في غرب أوروبا، علاوة على تلك الدول غير الشيوعية في شرق أوروبا.

عاد الرجال والنساء من الحرب، أو من المهن التي عملوا فيها خلال الحرب، إلى الحياة المدنية - لاستعادة وظائفهم أو خططهم القديمة، أو للتفكير بخطوتهم التالية. تقابل الأصدقاء مجددا بعد فرقة دامت أعواما. معظمهم عادوا أحياء، فقد خاض البريطانيون حربا سهلة نسبيا مقارنة بالروس، والبولنديين، واليوغسلاف، والألمان بالطبع. وظلت الحرب العالمية الأولى تعرف - ولأسباب وجيهة - بكونها "الحرب العظمى"، حيث قتل ربع عدد الذين شاركوا فيها من طلاب اكسفورد وكامبريدج مثلا، لكنني لم أسمع عن/أو أعرف سوى خمسة أو ستة طلاب لم يعودوا من الحرب العالمية

---

1 - Peter Hennessy, The Secret State: Whitehall and the Cold War (London, 2002), chapter I.

٢- على أية حال، إذا كانت ثمة مشكلة يمكن تخيلها في السياسة البريطانية، فلم تكن تتمثل في السلوك السوفييتي بل الأمريكي، أو الشروط القاسية التي اعتمد عليها قرضها إلى بريطانيا عام ١٩٤٦. انظر:
R. Skidelsky, Keynes, vol. III.

الثانية من بين مائتين من أترابي من طلاب اكسفورد الذين شاركوا فيها. كان الوقت وقت مقارنة الملاحظات والمذكرات والإشارات، حيث سأل شيوعيو فترة ما قبل الحرب بعضهم بعضا: "هل ما زلت شيوعيا؟". إذ ترك العديد من هؤلاء الحزب.

عدت من الجيش، وبقيت في البداية لمدة تقارب السنة أعيش حياة مزدوجة بشكل غريب في لندن. حيث كنت طالبا/باحثا لعدة أيام في الأسبوع في كامبريدج، ثم أصبحت مقيما دائما في المدينة اعتبارا من شباط/فبراير ١٩٤٧ وحتى أيلول/سبتمبر ١٩٥٠. كنا نسكن في حي غلوسستر كريست، الذي تقطنه الطبقة الوسطى على حافة كامدن تاون في أقصى الطرف الغربي من منطقة واسعة تعرضت للقصف في لندن وبقيت حتى ذلك الحين منطقة لا تسكنها الطبقة الأرستقراطية أبدا (ايست اند)، حيث اجتذبت المثقفين والمفكرين بسبب رخص أسعارها الاستثنائي من جهة، وسهولة الوصول إليها من جهة أخرى: إذ لا تبعد أكثر من عشر دقائق بالمواصلات العامة عن الجامعة والمتحف البريطاني (لم أعرف أحدا آنذاك يمتلك سيارة خاصة). ولم تصبح بعد مركزا لزمرة المثقفين اللامعين من طلاب جامعتي اكسفورد وكامبريدج السابقين في الخمسينات (في الحقيقية، كان عدد خريجي كامبريدج يفوق عدد خريجي اكسفورد) الذين أصبحوا هدفا للهجاء الرقيق من الرسوم الكاريكاتيرية في الصحف حين غدا مثقفو الطبقة الوسطى هم من يرسمون أسلوب الحياة في الستينات. العديد منهم كانوا من الأصدقاء الذين تعرفت عليهم في كامبريدج خلال سنوات الحرب الباردة. في عام ١٩٤٦ لم يكن حي غلوسستر كريست حيا راقيا، لكن، كما كتبت في مقالة أرسلتها إلى مجلة "ليليبوت" (صاحبتها السيدة كاي ويب زوجة رسام الكاريكاتير رونالد سيرل الذي عاد للتو من الأسر الياباني)، يمكن للمرء الزعم بأنه كان يسمع زئير الأسود من حديقة الحيوان في ريجنت بارك. في عام ١٩٤٧ انتقلنا إلى شقة أكثر فخامة في مبنى يعود إلى أوائل القرن الثامن عشر في الجانب الشمالي من كالفام كومون مقابل كنيسة كالفام. مازلت أذكر في رؤية زميلي الجديد في كلية بيركبيك، نيكولاس بيفزنر، وهو يطوف في المنطقة بحثا عن "أبنية إنكلترا" العظيمة وكأنه يفحص أوابد الماضي. بذلت جهدا مضنيا - توج بالنجاح - لإكمال أطروحة المنحة الدراسية والدكتوراه، لكنني فشلت في حل ما لم أدرك تماما آنذاك بأنها مشكلات زواجي الأول. وكما حصل، لسوف

أنتقل بعد خمسة عشر عاما إلى بيت مشيد على الطراز الفيكتوري على بعد بضع دقائق، وهو البيت الأول الذي عشت فيه مع مارلين كمالك لا كمستأجر.

المثقفون الشيوعيون، أو الزملاء المسافرون، لم يتم تهميشهم بعد. وفي الحقيقة، حين بدأت هيئة الإذاعة البريطانية بث "برنامجها الثالث"، قدمني بيتر لاسليت، وهو مؤرخ (غير شيوعي) من كامبريدج خلال فترة ما قبل الحرب، عمل كمكتشف للمواهب الملائمة للإذاعة، إلى آنا ("نيوتا") كالين، وهي امرأة مثقفة ومتقدمة في السن، تمتلك خبرة واسعة بأمور الحياة، وتعمل منتجة لبرامج الإذاعة الموجهة باللغة الروسية. قدمت لي آنا المساعدة في خطواتي الأولى - المتعثرة في البداية - في عالم الميكروفونات (بالطبع لم يكن الأمر مهما جدا: إذ لا يتحدث المذيع إلا لبضعة آلاف من المستمعين). قدمت عدة مقالات لها في عام ١٩٤٧، بما فيها أول حديث إذاعي بالإنكليزية عن كارل كراوس.

لم يكن أعضاء الحزب يواجهون صعوبة بعد في الحصول على الوظائف الأكاديمية، وتمكن عدد من المؤرخين (وأنا من ضمنهم) من الحصول على مثل هذه الوظائف، أو كان بمقدورهم ذلك. أصبحت محاضرا في كلية بيركبيك عام ١٩٤٧ رغم أن رئيس القسم كان على علم بتوجهاتي السياسية (طمأنه الطلاب حين سألهم هل كنت أحاول غرس العقيدة الماركسية في أذهانهم). ذهبت إلى مهرجان الشباب العالمي في براغ مع زوجتي آنئذ، بعد أن حصلت على إجازة من عملها كمديرة في هيئة التجارة، أي كعضو في نخبة صغيرة تتخذ القرار المتعلق بسياسات الخدمة المدنية في الدولة. بالطبع كانت شيوعية، بعد أن عاودت الانضمام للحزب حين تزوجنا - في تلك الأيام، كنت أرى من غير الملائم الزواج من امرأة غير منتسبة للحزب - وكان فرع الخدمة المدنية الرفيع المستوى يلتقي في شقتنا في كالفام [1]. بقدر ما أذكر، لم تكن تشير في ذلك الوقت إلى أن من الأفضل لعملها عدم الذهاب إلى براغ. وبعد حوالي عشر سنين، عندما

١ - ضم المجتمعون بيرنارد فلاود ، الذي دفع فيما بعد إلى الانتحار من قبل المخابرات البريطانية بسبب الاشتباه بأنه جاسوس أو مجند للجواسيس السوفييت (وجده ميتا ابنه رودريك فلاود ، وهو مؤرخ اقتصادي أصبح فيما بعد زميلا لي في كلية بيركبيك ، ويرأس اليوم جامعة غيلدهول في لندن) . من المفارقة ، كما أخبرني ، أن المسؤول في الحزب الشيوعي ديفيد سبرينغهول قد حاول ذات مرة تجنيده كعميل ، وقال له إنه لا يملك الصلاحية للقيام بذلك . على أية حال ، من المستبعد أن ينخرط رجل حضر اجتماعات فرع الحزب بعد الحرب في هذا النوع من النشاط الذي كان يتضمن عادة قطع الصلات مع الحزب .

عرضت تأجير نصف شقتي في بلومزبري (من الباطن) إلى صديق انتقل من كامبريدج إلى وزارة الخزانة، أخبرني بحزن وهو يعرف بتوجهاتي السياسية، أنه لا يستطيع أن يقبل المخاطرة.

بالنسبة لي، أفرزت الحرب نوعا من الاسترخاء الوجيز من معاداة الشيوعية. فالحكومة البريطانية، بعد أن رفضت رفضا قاطعا استغلال معرفتي باللغة الألمانية لأي غرض مهما كان خلال السنوات الست من خدمتي في الجيش، تجد الآن أنها مفيدة. في عام ١٩٤٧، طلب مني بواسطة أحد المعارف في كامبريدج في فترة ما قبل الحرب كما أفترض، والذي يعمل في وزارة الخارجية، المساعدة في "إعادة تثقيف وتعليم" الألمان في كوخ بني أصلا للصيد خلال العهد الإمبراطوري في شمال ألمانيا على بعد بضعة كيلومترات من المنطقة الحدودية مع الشرق، حيث تحمل القطارات منها وإليها عدة آلاف من المسافرين والمهربين كل يوم، تحت سمع وبصر السلطات البريطانية والروسية[1]. فريق "الدقرطة" لا يمكن وصفه باعتباره "فريقا سليما" من الناحية السياسية، أو حتى الاقتصادية. كان الطلاب خليطا من الألمان الذين قدموا من الغرب والشرق (كان ذلك أمرا ممكنا آنئذ): لا شك بأنها كانت تجربتي الأولى مع الألمان الذين بقوا في المانيا. ألاحظ الآن، عند استعادة الماضي، أن أغلبية "المدرسين" البريطانيين كانوا من اليهود ـ في الواقع، فإن فكرة قدومنا عبر القنال من أجل "تعليم" هؤلاء الناس المثقفين حاملين صيغة مسجلة للديمقراطية المستقبلية كانت محرجة نوعا ما ـ لكنهم لم يشعروا بأي نوع من ردة الفعل العنيفة المعادية للألمان، بعد أن ذاعت المعلومات عن أوشفيتز ومعسكرات الإبادة، والتي لا بد أن تستفزها بينهم كما نعتقد اليوم. لم نكن نشعر بذلك، أو على الأقل لم يكن يراودني أنا هذا الشعور.

من المؤكد أن المرء لا يستطيع منع نفسه من التساؤل طيلة الوقت (كما كتبت في مفكرتي) "عما فعله هؤلاء الناس المسالمون ـ كما يبدو عليهم ـ بين عامي ١٩٣٣-١٩٤٥؟". لقد فقد كل يهودي أشكنازي قريبا في معسكرات الإبادة: في حالتي

١- في اليوم الذي ذهبت فيها إلى هناك في شهر آب/ أغسطس ، قدرت عدد المسافرين إلى "الحدود الخضراء" بحوالي خمسمائة ، وعدد المسافرين في الاتجاه المعاكس بحوالي ٧٠٠-٨٠٠ . كانت هنالك ثلاثة قطارات في اليوم .

الخاصة، نقل إلى هذه المعسكرات عمي فيكتور فريدمان مع العمة اليسا، وهي عجوز مهزولة من السيفارديم، من مكان ما في فرنسا؛ وعمي ريتشارد فريدمان مع العمة جولي، اللذان رفضا ترك متجر سلع الزينة الذي يملكانه في مارينباد؛ والعمة هيدفيغ ليشتنشتيرن (كما حدث في أغلب الأحيان للنمساويين والألمان ـ لكن ليس ليهود وسط أوروبا ـ مات كبار السن، في حين نجا الشبان من هذه المعسكرات). نقشت أسماؤهم على النصب التذكاري الوحيد الذي أعرفه مستحقا لتخليد ذكرى الإبادة الجماعية التي تعرض لها اليهود، أي الجدران البيضاء للكنيس القديم في براغ ("التنيوسكول"). هذه الجدران المحيطة بمساحة خاوية من الأرض، امتلأت كلها بأسماء كافة اليهود التشيك الذين أبادهم هتلر. سطور تحت سطور من الأسماء، والتواريخ، والأماكن، مكتوبة بخط مرتب وبحسب حروف الأبجدية من القمة إلى القاعدة. لا شيء هناك سوى أسماء القتلى التي تنأى عن الحصر. هناك قرأت اسمي العم ريتشارد والعمة جولي بعينين دامعتين، قبل مدة وجيزة من تفجر أحداث ربيع براغ عام ١٩٦٨ . في وقت ما من السبعينات، اتخذ النظام الحاكم في تشيكوسلوفاكيا القرار المفاجئ بانتهاك حرمة النصب ومحو كافة الأسماء المنقوشة عليه. أما الذريعة الرسمية فكانت القول إنه لا يجب الاقتصار على جماعة معينة من بين العديد من ضحايا الفاشية وانتقاء أسماء أعضائها لتخليد ذكراهم على نحو خاص. لكن النصب أعيد مع بعض التأخير بعد سقوط الشيوعية.

لم أقابل حتى ذلك الحين أيا من الناجين من معسكري بوشينفالد وأوشفيتز. ولسوف يصبح بعضهم زملاء وأصدقاء، لم يتأثروا بتجاربهم السابقة على ما يبدو، بل كانوا على استعداد في مرحلة لاحقة للحديث عن تلك الفترة التي اعتمدت فيها الحياة اليومية لكل منهم على موت الآخر. لكن بعضهم، على شاكلة بريكو ليفي، لم يكونوا منيعين على التأثر. فواحد منهم على الأقل، وهو الروماني العزيز الظريف جورج هوبيت، الذي دخل أوشفيتز وهو تلميذ في المدرسة، قد انهار فجأة وتوفي حين بلغ الخمسين. ومع ذلك، فقد أنقذنا المعتقد والواقعية من قلب المبدأ النازي العرقي المعادي للسامية إلى نقيضه/ معادله المناهض للجرمان. وبعد ذلك، لم نضع (وبالتأكيد لم أضع أنا شخصيا) اللوم على الألمان أنفسهم بل على الاشتراكية القومية، سيما وأن

أول وصف وتحليل جديين لـ"عالم معسكرات الإبادة" أقرأهما كانا في كتاب يوجين كوغون "Der SS-Staat" ("دولة الـ اس اس" (فرانكفورت: ١٩٤٦)) الذي ألفه الماني حول أحد معسكرات الإبادة (بوشنفالد) الذي جرد المعتقلين من صفاتهم الإنسانية، وعذبهم، وقتل الكثير منهم، لكنه لم يستهدف اليهود بشكل رئيسي. علاوة على ذلك، حين ينظر المرء إلى مدن المانيا الغربية، والميادين الضخمة المملوءة بالركام الذي لم يرفع بعد، والانهيار الكامل للاقتصاد في الفترة السابقة على الإصلاحات التي أدخلت على العملة، ووجوه الناس الشاحبة وهم يعيشون على المقايضة ويخيمون على أرصفة المحطات مع أكياس البطاطا، كل ذلك يوحي بأن المواطن الألماني العادي، كان في عام ١٩٤٧ يدفع ثمن ما ارتكب/أو ارتكب من جرائم باسمه تحت حكم هتلر.

وكما كتبت آنئذ، لم يكن من الصعب "فهم ما مر به هؤلاء الرجال والنساء والأطفال خلال السنوات الثماني الماضية.. وما تعرضوا له من غارات، وترحيل، ونفي، وجوع..". كل من عاد من المعسكرات الروسية لأسرى الحرب، أو حتى عانى من "الصدمات المروعة لتصرفات الروس في الأسابيع الأولى بعد التحرير" يمكنه الحديث عن الأوقات الصعبة. ليس بالضرورة لأن الروس قد نفسوا عن غضبهم بإيذاء الألمان، بالرغم من أن الجنود العاديين في الجيش الأحمر كان لهم دون شك أسبابهم الوجيهة لذلك وقد قاموا به فعلا ("لم يظهروا أي خوف مهما كان، بل إن رؤيتهم للمستقبل انحصرت في اغتصاب وسلب ونهب برلين") [١]. وكما شرح لي أحد طلابي [٢] الذي عاد من الأسر وأصبح منذ ذلك الحين أحد أبرز المؤرخين الألمان: "لم يعاملونا بطريقة أسوأ من معاملتهم لبعضهم البعض. فهم ببساطة أقسى منا جسديا. حيث يتمتعون بقدرة أكبر على احتمال البرد القارس. ذلك ما أدخل الخوف في نفوسنا حين كنا على الجبهة، وما عانينا منه حين كنا أسرى. كانوا يلقون بنا في أحد سهول آسيا الوسطى في الشتاء ويقولون: 'ابنوا هنا معسكرا. ابدؤوا الحفر'".

لم يكن من المفاجئ أن يخيم جو الكراهية للروس والخوف منهم في المانيا، وينتشر

١- كلمات أسير حرب بريطاني، نجا من معسكر في بولندا، وحارب مع الجيش الأحمر الزاحف. أدين بالشاهد إلى جورج بارنسبي من ولفرهامبتون.

٢- البروفسور راينهارد كوسيليك.

بين السكان الأصليين والأعداد الضخمة من اللاجئين على حد سواء - خصوصا بين الأعداد الكبيرة منهم في سكسونيا السفلى - الذين حملوا الروس مسؤولية فرارهم الجماعي أو طردهم من ديارهم. في عام ١٩٤٧، كانت المشاعر السائدة مزيجا غريبا، وأحيانا شيزوفرانيا، من الاشمئزاز، والإحساس بالتفوق، إضافة إلى مشاعر الاحترام للمنتصر، والتغاير بين صورة التفكك الاجتماعي الخارج عن السيطرة في الغرب، وبين الإحساس الغامض بأن الانضباط "هناك" (في المنطقة السوفييتية) دفع الناس للقيام بعملهم اليومي، وسيطر على السوق السوداء.. الخ. كان مشروع مارشال وإصلاح العملة على وشك تغيير كل ذلك، لكن حتى عام ١٩٤٧ ظل الرأي العام في المنطقة البريطانية تحت هيمنة إحساس بالعجز التام والمستقبل المظلم. "لن تتم إعادة إعمار المانيا بدون حرب عالمية ثالثة"، كما كان المرء يسمع في هامبورغ. شعرت أنا بهذا العجز، وكتبت في مفكرتي: "بصراحة، كلما طالت مدة إقامتي هنا كلما أحسست بمزيد من الكآبة. الأمل؟ لا أرى بارقة منه". ذلك بالطبع تقييم خاطئ تماما للاحتمالات المفتوحة أمام المانيا الغربية، لكن الحالة في المانيا لم تكن مشجعة عام ١٩٤٧ .

لكن ما هو شعور الشيوعي الغربي تجاه الاتحاد السوفييتي، الذي خيم بظله القاتم على المشهد الألماني؟ لم تستطع الأوهام النجاة من الاحتكاك، المباشر أو غير المباشر، مع الاحتلال السوفييتي فور انتهاء الحرب، تماما مثلما مرت آمال التفاهم والصداقة الدولية (التي لم تقتصر على الشيوعيين فقط) في فترة ما بعد الحرب بأوقات عصيبة خلال الخلافات والمشاحنات بين المسؤولين العسكريين والمدنيين الغربيين والشرقيين على أرض الواقع. اللاجئون النمساويون الشباب الذي نزحوا إلى لندن خلال الحرب، والذين اتبعوا تعليمات الحزب بعد الحرب بالعودة لإعادة بناء بلدهم، توقعوا مواجهة الصعوبات المادية/الجسدية بين مواطنيهم الجياع والمشردين، لكن لم يتوقع سوى القليل منهم أن يجد المزاج العام المعادي للروس على مثل هذه الدرجة من الانتشار. وبالنسبة لأولئك الذين عاشوا في ظل الوقائع الفعلية للاحتلال السوفييتي لوسط أوروبا، أو كانوا على احتكاك مباشر بها، لم يعد اعتناق الشيوعية مثل حالته البسيطة التي كان عليها قبل الحرب. صحيح أننا لم نفقد إيماننا وثقتنا بالتفوق النهائي للاشتراكية على الرأسمالية، ولا اعتقادنا بالاحتمالات العالمية المتغيرة للالتزام بالحزب الشيوعي، إلا

أن آمالنا (أو آمالي على الأقل) اقتربت الآن من ذلك الإحساس بالمأساة المحتومة التي عبر عنها والتر بنجامين في "ملاك التاريخ" [١]. من المفارقة أن ما جعل من الأسهل - أو من الممكن بالنسبة للكثيرين - الحفاظ على المعتقد القديم هو الحملة العالمية الشعواء التي شنها الغرب ضد الشيوعية خلال سنوات الحرب الباردة.

II

لكن دعونا نعود إلى زمن الجسر الجوي إلى برلين. فمثلما انفصمت عرى التحالف بين الدول المنتصرة في الحرب، كذلك بهت الأمل بالتعاون بين القوتين العظميين في فترة ما بعد الحرب. في عام ١٩٤٧، بدأت الحكومات الغربية بطرد الوزراء الشيوعيين من مناصبهم، والأمر نفسه حصل للوزراء غير الشيوعيين في البلاد الخاضعة للحكم الشيوعي. ولأهداف محض أوروبية تم إنشاء هيئة شيوعية عالمية (أو ما سمي بمكتب المعلومات الشيوعي "كومينفورم")، ليصدر مجلة اعتبرت حتى بالمعايير الصارمة للحقبة السوفييتية، أكثر المطبوعات فشلا في تاريخ الشيوعية [٢]. أما أنظمة الحكم في أوروبا الشرقية التي اختارت عمدا عدم وصف نفسها بالشيوعية، بل بالديمقراطيات "الجديدة" أو "الشعبية" ذات التعددية الحزبية، فقد أصبحت الآن تشابه "ديكتاتورية البروليتاريا"، أي ديكتاتوريات الحزب الشيوعي المعيارية. في حين أن الشيوعيين في الغرب، ومع اتخاذ المواجهة شكلا سافرا، اعتبروا طابورا خامسا.

بدأت الأمور بالتغير في بريطانيا، لكن على نحو مكبوت نسبيا، وبطريقة مهذبة. لم تحدث عملية تطهير علنية لأعضاء الحزب من الوظائف الحكومية، رغم أنهم نقلوا حين اكتشف أمرهم من الوظائف التي يسهل فيها الوصول إلى المعلومات الحساسة. وجرى سرا إعلام أولئك الذين شغلوا مناصب "إدارية" حساسة سياسيا، بأنه لا يوجد مستقبل لهم في الخدمة، لكن لن تتخذ ضدهم أية إجراءات علنية إذا ما اختاروا تركها بإرادتهم الحرة. أما الذين اختاروا البقاء فقد خدموا بقية حياتهم المهنية في المواقع

١- انظر :

Eric Hobsbawm, The Age of Extremes (paperback), p. 189.

٢ - عنوانها "من أجل سلام دائم وديمقراطية شعبية" (حرفيا) .اختفت نهائيا عام ١٩٥٦ .

النائية التي احتفظت بها البيروقراطيات الضخمة لمن لا يمكن طرده ولا إعطاؤه وظيفة تتمتع بأي قدر من الأهمية.

لم تحدث عمليات تطهير فعلية في الجامعات. لكن كلية بيركبيك، التي بدأت للتو التدريس فيها، كانت تمثل استثناء - على الأقل حتى وصول عميد جديد طموح عام ١٩٥٠ - من حيث عدم إظهار أية إشارات ملحوظة تدل على مناهضة الشيوعية بين الأساتذة أو الطلاب. فقد كان طلابها يكسبون رزقهم خلال النهار، والتراث السياسي السائد فيها كان يتجه نحو اليسار. في حين أن المزاج العام السائد في الغرفة المكتظة للمجموعة الصغيرة من الأساتذة الودودين يوحي بأنها تتكون في أغلبيتها الساحقة من أنصار حزب العمال. أما المحافظون - وأفترض أن زميلي ورئيسي فيما بعد، دوغلاس داكين كان واحدا منهم - فلم يكونوا من الأنصار النمطيين. فقد كان مدرسا، وسكرتيرا للفرع المحلي من النقابة، "جمعية مدرسي الجامعات"، ومديرا لشؤون طلاب الكلية (بدوام جزئي)، كما اعتاد ممارسة رياضة الكريكيت في أوقات الفراغ، لكنه حول إلي عمل النقابة حال وصولي إلى الكلية. علاوة على ذلك، كان أكثر أعضاء هيئة التدريس تمتعا بالاحترام شيوعيا، ويستخدم في قسمه أعضاء الحزب، وله صلات وثيقة بالاتحاد السوفييتي. كان آر. جي. بيرنال عالما بالبلوريات وعبقريا شموليا (لكنه على جهل مطبق بالموسيقا) بحيث لم يتمكن من التركيز على أي موضوع فترة تكفي للفوز بجائزة نوبل، رغم أنه شكل مصدر إلهام لعدة علماء فازوا بها. وحتى بالنسبة لأولئك الذين راودتهم الشكوك حول ولائه لموسكو، لم يستطيعوا منع أنفسهم من الإعجاب بهذا الرجل القصير القامة، ذي الشعر الأشعث، الذي شابه شخصية العالم النمطي في أفلام الكرتون، وهو يمشي كبحار على الشط، أو كما قال: "مثل فقاعة بدون قدمين". كان يسلي الحاضرين في غرفة الأساتذة بنوادره البليغة عن فترة عمله المميز الغريب كمستشار علمي للعمليات المشتركة خلال الحرب. بيكاسو نفسه، بعد أن منعته السلطات من حضور لقاء برعاية السوفييت في شيفيلد، رسم لوحة جدارية في شقة بيرنال في تورينغتون بلايس، حيث أصبحت بعد سنين شعارا لكلية بيركبيك. لم يشترك الفنان العظيم مع بيرنال في الإيمان بالعقيدة الشيوعية فقط، بل في اتباع مبدأ تعدد الزوجات أيضا؛ مع وجود فارق وحيد تمثل في أن بيرنال قد عامل النساء اللاتي انجذبن إليه كشريكات حقيقيات، جنسيا وفكريا. هذه السمعة التي اكتسبها بسبب المساواة "الجندرية" هي التي اجتذبت روزاليند

فرانكلين الشهيرة إلى بيركبيك من كلية كينغ في لندن، بعد أن استاءت من معاملة زملائها (الذكور) ـ أولئك الذي فازوا بجائزة نوبل. ورغم أنها اشتهرت بحساسيتها تجاه ادعاءات ومظاهر الذكورة بين زملائها، وهو أمر يمكن تفهمه، إلا أنها كانت، على الأقل حين تحدثنا معا، معجبة أيما إعجاب ببيرنال كرجل وكعالم، حتى حين سخرت من الموالين لخط الحزب في القسم الذي ترأسه.

كنت محظوظا في التدريس في كلية وفرت حماية داخلية قوية وغير متكلفة من ضغوط الحرب الباردة خارج أسوارها. ومع ذلك، لم يكن الوضع الأكاديمي العام جيدا. وعلى حد علمي، بقي كافة الشيوعيين الذين جرى تعيينهم في مناصب أكاديمية قبل صيف عام ١٩٤٨، في وظائفهم، ولم تجر أية محاولة لطردهم، وذلك باستثناء طريقة عدم تجديد عقود العمل قصيرة الأمد، التي كانت نادرة إلى حد بعيد في تلك الأيام. من ناحية أخرى، وعلى حد علمي أيضا، لم يتم تعيين أي شيوعي في المناصب الجامعية لمدة عشر سنوات أو نحوها اعتبارا من عام ١٩٤٨، ولا تلقى الشيوعيون الذين شغلوا مناصب تدريس في الجامعات أية ترقية. وخلال سنوات ذلك العقد على سبيل المثال، رفض طلبي لشغل عدة مناصب لتدريس التاريخ الاقتصادي في كامبريدج ـ أشرفت/ وامتحنت الطلاب في هذه المادة في امتحانات درجة الشرف في علم الاقتصاد ـ ولم أتلق أية ترقية لمنصب أستاذ ذي كرسي في لندن حتى عام ١٩٥٩ . وحتى أولئك الذين لم تكن لديهم سوى صلة عابرة استمرت بضعة أشهر بالحزب، مثل المؤرخ الاقتصادي سيدني بولارد، قد حرموا من الترقية. صحيح أن كل ذلك قد سبب كثيرا من الإحباط، إلا أنه لم يكن يقارن بالحملة الشعواء التي شنت على الشيوعيين في الولايات المتحدة (لم يكن شغل أي منصب أكاديمي بريطاني، على حد علمي، مشروطا بالتخلي الرسمي عن "ذنوب" الماضي، مثلما حدث حين عرضت جامعة بيركلي بعد عدة سنوات كرسي التدريس على بولارد ـ وقد رفض قبول الشرط). من الغريب أنه قد جرت عمليات تطهير سياسية في أقسام من تعليم الكبار، وهو ميدان اجتذب عددا كبيرا من الحمر وغيرهم من الراديكاليين لأسباب أيديولوجية، خصوصا في اللجنة الخارجية لجامعة اكسفورد، التي ظلت لعدة سنين تحت إدارة توماس هودجكين، وهو أحد أفراد الأرستقراطية الفكرية البريطانية (فرع "الكويكر")، الذي تمتع بشخصية ساحرة، وطرد من فلسطين بسبب انضمامه إلى الحزب الشيوعي خلال عمله كمعاون

للمندوب السامي البريطاني هناك؛ كان الحزب هو المكان الوحيد الذي يختلط فيه اليهود والعرب كأصدقاء وأنداد. لكن لسوء الحظ، اتهم ايرنست بيفن المرعب، وزير الخارجية ورئيس النقابة العامة لعمال النقل، اللجنة بإيواء النشطاء الحمر الذين أثاروا الإضرابات داخل ما كان آنئذ مصنعا ضخما لإنتاج سيارات "موريس" في كاولي - تلك هي الأيام التي كان من الممكن وصف اكسفورد باعتبارها "الحي اللاتيني ضمن كاولي" [١]. لكن حتى هنا لم تكن تجري عمليات تطهير عامة للشيوعيين.

قبلنا مقولة أن "هذا التحيز الضمني، وشبه المتعمد في كثير من الأحوال، يماثل، وإن لم يتخذ شكلا نظاميا ممنهجا، إقصاء الديمقراطيين الاجتماعيين عن المناصب الجامعية في المانيا في الفترة السابقة على عام ١٩١٤" [٢]، لكنه يظل تحيزا معتدلا نسبيا، ولذلك ركزنا على إدانة وشجب المكارثية الأكاديمية الأمريكية - في تلك الأيام رفضت الحكومة الأمريكية منح تأشيرة الدخول حتى إلى عالم الفيزياء العظيم بي. ايه. ام. ديراك - وحذرنا من مغبة الأخطار الناتجة عن انتشار النموذج الأمريكي في بريطانيا. ومع ذلك، فقد قيل إن المؤرخ أي. هـ. كار، قد فكر - وكان مصيبا في تفكيره - بأنه "قد غدا من الصعب جدا على المرء.. الحديث بنزاهة عن روسيا بغير 'أساليب المتصوفة الغامضة'، وإلا فإنه لن يعرض للخطر لقمة عيشه وحسب، بل آماله المشروعة في التقدم والترقي". على أية حال، لم يكن ثمة شك بأن مبدأ حرية التعبير لا ينطبق على الآراء الشيوعية والماركسية، على الأقل في وسائل الإعلام الرسمية [٣].

---

1 - R. W. Johnson, 'Do they eat people here much still? Rarement. Tres rerement', London Review of books, 14 December 2000, pp. 30-31.

تخلى هودجكين ، الذي كان قلبه في العالم الثالث ، عن المهمة خلال رحلاته في أفريقيا ، ولم يعد قادرا على توسيع عمله . عاد إلى اكسفورد في الستينات كزميل لكلية باليول ، التي انتخبت أيضا عميد المؤرخين الماركسيين ، كريستوفر هيل ، رئيسا لها . أما أرملته ، دوروثي هودجكين (التي فازت بجائزة نوبل للكيمياء) فقد تابعت تراث الأسرة ، لأنني وجدت نفسي معها عام ١٩٨٤ في زيارة تضامن مع جامعة بير زيت في الضفة الغربية التي تحتلها إسرائيل .

2 - Academic Freedom' in University Newsletter, Cambridge, November 1953, p. 2.'

حررت وكتبت معظم الأعداد العشرة لهذه الرسالة الإخبارية ، "التي نشرت باسم مجموعة من الخريجين الشيوعيين بواسطة الحزب الشيوعي لكلية كامبريدج" (أي ، فرع الخريجين من الحزب الشيوعي) ، التي ظهرت خلال الفترة الممتدة بين تشرين الأول/اكتوبر ١٩٥١ و تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٥٤ .

٣- أدين بالشكر إلى نينا فيشمان على الوثائق ذات الصلة من محفوظات هيئة الإذاعة البريطانية . "يبدو أن المخرج قد اعتبر العالم الفيزيائي الشهير ، بي . ام . اس . بلاكيت (الذي فاز فيما بعد بجائزة نوبل وترأس الجمعية الملكية) شيوعيا ، بسبب مناهضته للحرب النووية"

لم يكن السبب الذي جعل المفكرين والمثقفين الماركسيين يشعرون بأنهم أفراد من أقلية معرضة للمضايقات متمثلا في ظلمهم ومضايقتهم على الصعيد الرسمي أو شبه الرسمي، بقدر ما تمثل في إقصائهم وتهميشهم. طبعا كنا مقتنعين، وامتلكنا الدليل أحيانا على أن رسائلنا يتم فتحها، وهواتفنا تخضع للمراقبة، وأننا سنجد أنفسنا في حالة نشوب حرب فعلية سجناء (أملنا بأن نملك ما يكفي من الوقت للقراءة والكتابة) على جزيرة صغيرة مناسبة من الأرخبيل البريطاني. شعرنا بالاستياء والامتعاض لكل ذلك، حتى وإن لم ننكر أن من المنطقي أن تتبنى الحكومة هذا السلوك، نظرا لظروف الحرب الباردة. فنحن أعداء حلف الناتو برغم كل شيء. أما ما جعل خطاب الليبراليين في الحرب الباردة أمرا لا يحتمل فهو اقتناعهم الراسخ بأن كافة الشيوعيين هم مجرد عملاء للعدو السوفييتي، وإنكارهم لإمكانية أن يصبح أي شيوعي عضوا في الطبقة المثقفة وقادرا على تبني موقف جيد.

لربما استطاعت الصداقة النجاة من أحابيل السياسة ـ فقد بقيت برغم كل شيء على علاقات طيبة مع مونيا بوستان، مع أنني عرفت بأن كل إشارة من عمله كانت بمثابة سهم مسموم موجه لي ـ لكن تطلب الأمر أكثر من مجرد تغيير طفيف في الحياة الاجتماعية. وحتى طعم الصداقة الحقيقية قد يأخذ مرارة الريبة المخيمة على أجواء الحرب الباردة. حين تلقيت أول دعوة إلى الولايات المتحدة، سألت زميلا وصديقا لي (وكان من المؤيدين المعتدلين لحزب العمال) وأنا أتوقع حدوث العديد من المشاكل، هل هو مستعد لكتابة رسالة يشهد فيها على مكانتي الأكاديمية، قال: "بالطبع سأفعل". ولا زلت أذكر الإحساس الخاطف بالحماسة حين أضاف: "لكن هل تستطيع أن تخبرني، وليس لهذا علاقة بالأمر، أعني ليس ذلك مهما، هل ما زلت في الحزب الشيوعي؟".

لهذا، فإن معظم ذكرياتي ومشاعر الاستياء التي احتفظت بها عن الحرب الباردة لم تكن متعلقة بالوظائف الضائعة، أو الرسائل التي فتحها الرقباء كما بدا واضحا، ولكن بكتابي الأول. وكان عبارة عن مؤلف مقارن صغير بعنوان "نهوض العامل المأجور"، عرضته عام ١٩٥٣ على دار النشر "هاتشينستونز" (التي غابت منذ أمد بعيد في صفقة اندماجية مع دور النشر الأمريكية)، من أجل مكتبتها الجامعية، وهي سلسلة من النصوص الموجزة مخصصة للطلاب. قبلت الدار العرض، لكن حين قدمت

المخطوط النهائي رفضته اعتمادا على نصيحة قارئ مجهول (أو قراء مجهولين) يتمتع على ما يفترض بمرجعية سلطوية قوية. وادعت أنه مغال في تحيزه، ولذلك فهو غير مقبول تبعا للعقد. كما لم تتقدم بأية اقتراحات لتعديله. اعترضت، واعترفت الدار بأنني بذلت جهدا كبيرا في العمل، وعرضت علي مبلغ خمسة وعشرين جنيها تعبيرا عن رضاها المعنوي عن الكتاب [1]. ما حز في نفسي ليس تفاهة المبلغ فقط - رغم أنه كان يعادل في منتصف الخمسينات أجر مراجعة كتابين أو ثلاثة - بل معرفتي الأكيدة بأن الكتاب قد رفض بناء على نصيحة زميل كبير، كان على الأرجح - نظرا لنوعية الموضوع - من مؤيدي حزب العمال. لم يكن بيدي حيلة. تملكني الغضب لدرجة دفعتني لاستشارة محامي الداهية جاك غاستر، حول مقاضاة دار النشر. قال بأن علي ألا أفكر بالأمر: "فقد تجد أشخاصا يشهدون على مكانتك الأكاديمية، لكنهم سيجدون عددا أكبر من الأشخاص المستعدين لإثبات أنك متحيز". كان محقا. لم أنشر الكتاب أبدا، رغم أنني استخدمت أجزاء منه في كتب ومقالات أخرى. أما ما جعل من تلك الحادثة مثالا نمطيا على ذلك الطور البائس من الحرب الباردة فهو أن الناشر الجديد (جورج ويدنفيلد) الذي تعاملت معه بعد بضع سنوات قد نشر (عقب طلب مشورتي) كتابا بنفس الحجم وبنفس الموضوع تماما، وكان - برأيي - أكثر إثارة للجدل من الناحية لأيديولوجية، وذلك كجزء من تلك السلاسل العالمية المشتركة التي كان يروج لها.

في مثل هذه الظروف، وحتى بعد أن أصبحت الحرارة الأيديولوجية للحرب الباردة أقل برودة نسبيا عام ١٩٥٨، كان قرار جورج وينفيلد (الذي أصبح الآن لورد وينفيلد) بتكليفي بكتابة جزء من مؤلف ضخم لم يكتمل بعد حول تاريخ الحضارة كان يخطط لإصداره (ودفع لي مبلغ خمسمائة جنيه كمقدم أتعاب)، قرارا يثير الإعجاب ولا تنقصه الجرأة. تبين أن الجزء هو "عصر الثورة ١٧٨٩-١٨٤٨"، أي الجزء الأول من أربعة أجزاء تتناول تاريخ القرنين التاسع عشر والعشرين. كنت معروفا تماما بارتباطي بالحزب الشيوعي، كان هو ناشرا تجاريا وشخصية لا تهتم بإقامة علاقات جيدة مع

١- كان الجنيه ، وهو وحدة نقدية تساوي ١,٠٥ جنيها استرلينيا (٢١ شلنا) استخدمت بشكل رئيس لتحديد الأجور المهنية وأسعار المزادات ، وسيلة سهلة يستخدمها أصحاب المتاجر لفرض سعر أعلى ، وذلك قبل اختفائه نتيجة تبني النظام العشري .

المؤسسة الاجتماعية والسياسية. أدين له بفضل كبير. لكن من أوصاه بي؟ لست متأكدا، وحتى اللورد وينفيلد ذاته يدعي بأنه لا يتذكر. أشك بأنه جي. أي. تالمون من الجامعة العبرية في القدس، الذي مثل خيار وينفيلد الأول لكتابة الجزء المعني من الكتاب، لكنه لم يرغب بمتابعة العمل. وجدت نفسي أنا وتالمون نتجادل حول طبيعة الديمقراطية واليعاقبة في الثورة الفرنسية. كان كل منا يحترم الآخر رغم اختلافنا على معظم القضايا الأخرى، وأبرزها الصهيونية.

III

أكثر الفترات ظلاما في عداء الرأي العام العلني للشيوعية، أي سنوات الحرب الكورية، والحلقة الافتتاحية من مسلسل "جاسوس كامبريدج" (هروب بيرغيس ومكلين عام ١٩٥٠) تزامنت بالصدفة مع لحظة قاتمة في حياتي. ففي صيف عام ١٩٥٠، انهار زواجي الأول الذي ظل متزعزع الأركان لبعض الوقت، في ظروف سببت لي جرحا غائرا وتركتني في حالة من التعاسة والشقاء لبضع سنين. وبعد أن تركت شقتنا في كالفام كومون، لم ألتق بموريل إلا عند الطلاق. ولحسن الحظ، فزت بزمالة في كلية كينغ قبل ذلك بسنة، وبمجرد إعلام المسؤولين فيها، وجدوا لي شقة ـ وكان ذلك ممكنا في تلك الأيام ـ في مبنى جيبس الرائع المجاور للكنيسة الصغيرة. كانت كلية كينغ القاعدة الدائمة لي خلال السنوات الخمس التالية، رغم أنني تابعت التدريس في بيركبيك، وتمكنت من ذلك إما بالعودة إلى كامبريدج بالقطار الليلي، أو المبيت لمدة ليلة أو اثنتين في الغرفة التي استأجرتها في منزل أصدقاء لي في جزء آخر من كالفام. كانت أوقاتا سوداء كئيبة، على الصعيدين السياسي والشخصي على حد سواء. ما الذي سبب ألما أكثر تبريحا: طلاقي أم إعدام آل روزنبيرغ، الذي اعتبره العديد من الشيوعيين هزيمة شخصية ومأساة شخصية؟ يصعب فصل النزعتين اللتين اندمجتا في حالة مزاجية مشتركة من التصميم العنيد على تجاوزهما: من خلال الانهماك في العمل، والسفر، وحتى التحدي السياسي، كما حدث حين دعوت عالم الفيزياء الان نون ماي، الذي أطلق سراحه للتو من السجن بتهمة التجسس النووي، إلى عيد كلية كينغ. ولربما أضيف أن الكلية تصرفت، كعهدها في أغلب الأحوال، بشكل صحيح في هذه

المناسبة: تماما مثلما فعلت كامبريدج حين طالب محافظ سابق وصاحب جريدة محلية بطرد مساعدة مدير الشؤون الطبية، اللاجئة النمساوية هيلدا برودا، بسبب زواجها من الان نون ماي بعد أن استلمت وظيفتها. لكن الطلب رفض بالإجماع. فبريطانيا ليست الولايات المتحدة.

عندما أنظر إلى سنوات حياتي في فترة ما بعد الحرب، تنتابني مشاعر مختلطة. فمن جهة، لم أتعود على العيش في الريف ـ حتى في قرية يسكنها أساتذة الجامعات ـ حيث مدى العلاقات الاجتماعية مقيد وإلزامي إلى حد ما. فغرائزي الفطرية كانت وما تزال مدينية، وفي كامبريدج لم يكن هناك لا سرية ولا خصوصية، فيما عدا الحيز الذي يشغله المرء داخل غرفته خلف الأبواب المغلقة (في تلك الأيام، كانت كافة الأبواب المؤدية إلى أقسام مبيت الطلاب أو الأساتذة غير مقفلة، إلا إذا لم يكن من بداخلها في كامبريدج، أو كان راغبا بالتأكيد على أنه لا يريد لأحد أن يزعجه). علاوة على ذلك، كان كل يوم أمضيه هناك يذكرني بحقيقة أن الجامعة لا تريدني. المناصب التي تقدمت بطلبات لشغلها، آنذاك وفيما بعد، ذهبت إلى غيري. ولم أتقدم بهذه الطلبات في الواقع إلا بدافع الكبرياء والغرور. إذ لم أكن أرغب لا أنا ولا مارلين، بعد زواجنا، بالعيش في كامبريدج بصورة دائمة، أو في أي جامعة تهيمن عليها بلدة صغيرة. أما المناصب التي شغلتها كأستاذ زائر لفترات أطول واستمتعت بها فكانت في المدن الكبرى: باريس، ونيويورك (لاسيما منهاتن). باختصار، حين عدت بعد ست سنوات من المنحة الجامعية إلى لندن، شعرت بأنني أعود إلى بيئتي الملائمة.

من ناحية أخرى، وباعتباري "عازبا" أعيش دون زوجة في الكلية، منحتني كامبريدج فرصة أخرى لأن أعيش حياة الطلاب. لم تكن بالطبع نفس الحياة التي عشتها في الثلاثينات: لسبب وحيد يتمثل في أن أولئك الذين أصبحوا أساتذة من بين أترابي قد غيروا آراءهم، كما أن ابتعاد الطلاب عموما عن السياسة كان أمرا يوقع الكآبة في النفس بشكل حاد. أما نوع الطالب السياسي الذي أتذكره، وشعرت بالراحة معه، فلا يمكن أن أجده الآن إلا بين الطلاب القادمين من جنوب آسيا والصين ـ وأعترف بأنهم لم يكونوا قلة نادرة في كلية الاقتصاد التي أشرفت على التدريس والامتحانات فيها: طلاب مثل ايه. كي. سين، الذي أتى إلى ترنيتي بعد أن تخرج من كلية

بريزيدنسي في كالكوتا، ليجلس مع موريس دوب وبييرو سترافا، الذي بدا يظهر ألمعيته. بالطبع، يرى المرء حياة الطلبة مختلفة حين يكون زميلا مشرفا، كما يعامل بصورة مختلفة من قبل الطلاب، حتى في كلية متحررة من الشكليات مثل كينغ (جو المثلية المثقفة الذي ساد قبل الحرب مازال قويا في الكلية، رغم أن الميول الجنسية الطبيعية أصبحت واضحة بدءا من عام ١٩٥٢، خصوصا مع دخول طلاب مثل نيل اشيرسون الذي أصبح صحفيا وكاتبا معروفا، ومارك بوكسر المصمم الإعلامي الشهير). لكنني كنت أملك مصدر قوة قربني من حياة ومزاج الطلاب الذكور في الخمسينات، أكثر من اقترابي من الطالبات (رغم أن إشرافي على أولئك اللاتي يدرسن التاريخ والاقتصاد في نيوهام قد ساعد قليلا). فأنا من "الرسل"، ولذلك كنت على علاقة أقرب مع بعضهم. لربما تكون هذه هي اللحظة المناسبة للحديث حول هذه المؤسسة الغريبة في كامبريدج: التي مازالت موجودة ومزدهرة، وتحتفظ بكل ما يتعلق بأعضائها الناشطين وراء جدار من السرية، رغم أن معظم تاريخها السابق على عام ١٩٣٩ أصبح الآن مسألة تتصل بالسجلات العامة، وقلة قليلة من أعضائها المتقاعدين قد التزموا الصمت والسرية ولم يترددوا في الحديث عن عضويتهم فيها. كانت المؤسسة وما زالت تمثل جماعة صغيرة العدد، تتألف أساسا من الطلاب اللامعين، أو المتخرجين حديثا، يختارون الأعضاء الجدد للحفاظ على وجودها. أما هدفها فيتمثل في قراءة ومناقشة الأوراق التي كتبها أعضاؤها في لقاءات أسبوعية. يمثل الطلاب (غير المتخرجين) جوهر "الرسل". وفي الواقع، يجسد هؤلاء "الجمعية"، نظرا لأن الذين تركوا "العالم الحقيقي" للقاءاتها من أجل "عالم الظواهر" في الخارج، من خلال التخرج أو ترك الجامعة ("صار لهم أجنحة" ولذلك يعرفون بـ"الملائكة") يتوجب عليهم بالضرورة الإذعان لإخوانهم الناشطين.

انتخبت عضوا في جمعية كامبريدج الأدبية في آخر فصل دراسي لي عام ١٩٣٩، مع زميل آخر من كلية كنغ، هو والتر واليش، ابن مدير "دوتش بانك"، وسليل مؤسسه الذي عمل فيما بعد في هيئة الإذاعة البريطانية. وكان قد ركب القطار من برلين إلى كولون في عام ١٩٣٨، بعد أن أرسل زوجته وأطفاله خارج البلاد في الوقت المناسب، وقفز من فوق الجسر إلى الراين. كانت دعوة يصعب على أي طالب في كامبريدج أن

يرفضها، فحتى الثوريين يريدون أن يعيشوا تبعا للتقليد المناسب. من ذا الذي لا يرغب بأن يرتبط اسمه بشخصيات "الرسل" السابقة، التي ضمت أسماء العظماء المتخرجين من جامعة كامبريدج في القرن التاسع عشر: الشاعر الكبير تينيسون، والعالم الفيزيائي المبدع كليرك ماكسويل، وأشهر مؤرخي كامبريدج فريدريك مايتلاند، وبرترند رسل، إضافة إلى الأسماء الشهيرة من العصر الإدواردي، مثل كينز، وفيتغنشتاين، ومور، ووايتهيد، إضافة إلى الأديبين البارزين إي. إم. فورستر، وروبرت بروك. ولم يغب عن مؤسسة "رسل" كامبريدج سوى أعظم علماء القرن التاسع عشر تشارلز داروين الذي درس في كلية كرايست. في الواقع، لم تكن الأغلبية الساحقة من "الرسل" في الحقبتين الفيكتورية والإدواردية (الذين تناولهم أستاذ أمريكي بالتحليل بشكل شمولي ومتبصر) [1]، تنتمي إلى تلك الطبقة، ونظرا لأن العظمة الفكرية (أو سواها) تتطلب في أحوال كثيرة المخاطرة بإدخال السأم في نفوس الأصدقاء الذين قد لا تتفق اهتماماتهم بشكل كامل مع اهتماماتك - ولم يكن أي من "الرسل" راغبا بإدخال الملل في نفوس إخوانه - فإن العديد منهم قد عانى في مراحل لاحقة في الحياة من عدم القدرة على الحفاظ على المعايير النموذجية لتراثهم العظيم.

من الجدير بالملاحظة أن الشيوعية لم يكن لها أية علاقة بانتخابي، رغم أن الصورة الشهيرة لـ"الرسل" الستة التي ظهرت في كل كتاب تناول موضوع جواسيس كامبريدج قد احتوت أربعة شيوعيين. وليس من المفاجئ أن الحزب كان ممثلا بشدة في الجمعية خلال سنوات الحرب الأهلية الإسبانية. لكن لا جون كورنفورد، ولا جيمس كلوغمان، ولا أي من زعماء الحزب في زمني، ولا أي من الأساتذة الماركسيين في الثلاثينات (باستثناء واحد منهم) كانوا من "الرسل". أما معيار الانتخاب لعضوية الجمعية فكان، ويفترض أنه مازال، غير مرتبط بالمجال الإبداعي أو المعتقد السياسي، أو حتى بالتميز الفكري، بل بأن يكون المرشح "رسوليا" مهما عنى ذلك - وهو أمر كان، واستمر دون ريب، محلا لنقاش لا ينتهي بين الإخوان. ولهذا، لم يتم تجنيد جواسيس كامبريدج بشكل رئيسي من خلال "الرسل" (إلا عبر أنتوني بلانت): ومن بين جواسيس كامبريدج الخمسة لم يكن لثلاثة منهم أية علاقة مهما كانت بالجمعية (فيلبي، مكلين، كايرنكروس).

1 - W. C. Lubenow, The Cambridge Apostles 1820-1914: Imagination and Friendship in British Intellectual and Professional Life (Cambridge, 1998).

أوقفت الحرب "العالم الحقيقي" في كامبريدج، رغم استمرار "الملائكة" الكبار في الإقامة فيه بشكل متقطع على الأقل باعتبارهم أساتذة. وإذا لم أكن مخطئا فإن اثنين فقط من الإخوان الناشطين في فترة ما قبل الحرب قد عادا إلى كامبريدج كطالبين باحثين، أنا وزميلي الراحل ماثيو هودجارت، وهو اسكتلندي أسود الشعر، جميل الوجه، مدمن على الشراب، ربما كان واحدا من ألمع أصدقائي الطلاب، ولم يعد آنئذ شيوعيا. عهد إلينا تجمع "الملائكة"، أو بالأحرى عهد إلي لأنه لم يكن حاضرا، خلال حفلة العشاء الأولى التي أقيمت بعد الحرب، بمهمة إحياء الجمعية. قمنا بالمهمة عبر تجنيد الأعضاء من بين مجموعة أصدقاء فترة ما قبل الحرب الذين عادوا إلى كامبريدج، إضافة إلى الطلاب الذين وضعوا تحت إشرافي في كلية كينغ. وحين أصبحت عضوا في هيئتها التدريسية نجحت في تجنيد زميل لي هو الاقتصادي الكندي هاري جونسون. ونظرا لأنني مشرف أيضا على طلاب قسم الاقتصاد في مقرر التاريخ الاقتصادي، وجد "الرسل" أنفسهم ضمن تراث ماينارد كينز. لكن نزع طلاب كليات الآداب، مثل التاريخ والأدب الإنكليزي، إلى الدخول في عضوية الجمعية باطراد في الخمسينات - إضافة إلى جوناثان ميلر المتعدد المواهب والذي كان يدرس العلوم الطبيعية. لولا اندلاع الحرب عام ١٩٣٩، لشغل الكثير منهم وظائف حكومية، لكن عمل الآن غير الاقتصاديين منهم في نوعين من المهن المتوسعة: "وسائل الإعلام"، والتدريس في الجامعات (على التوالي في بعض الأحيان). ولم يبدأ انتخاب النساء إلا في الستينات.

بعد الحرب، انتقل أشهر "الرسل" الباقين، الروائي إي. إم. فورستر، إلى كلية كينغ. ولأنه ظل على ولائه المعهود للجمعية، حول شقته إلى مكان لعقد لقاءاتها الدورية مساء كل يوم أحد، حيث اعتاد أن يجلس صامتا في أحد الأركان - وعلى الأرجح، لم يكن يقول الكثير حتى في أيام شبابه - مصغيا إلى الإخوان الشباب يتناقشون ويتحدثون (حرفيا، وتبعا للغة الجمعية الخاصة "على السجادة الموضوعة قرب المدفأة"، لأن المدافئ التي تلقم بواسطة الدلاء المملوءة بالفحم كانت تمثل الخط الرئيس لدفاع كامبريدج ضد المناخ الشرقي المزعج). في هذا الوقت توقف فورستر عن الكتابة عمليا، رغم أنه بذل جهدا هائلا لتجنب أي تلميح للكليشيهات أو الملاحظات

المبتذلة في النصوص القليلة التي مازال ينظمها. لم يكن لديه أسرة، فيما عدا صديقه الشرطي العجوز. ولا أعتقد أنه شعر بما يصبو إليه من راحة واطمئنان في عالم ما بعد الحرب، لكنه وجد السلوان في الطبيعة التي لم تتغير للشبان المحيطين به. في أوائل الستينات، حاولت مرة أن أعرفه على عالم أواخر القرن العشرين، حين أخذته لرؤية ليني بروس، الممثل الأمريكي الذي اشتهر بأدوار مناجاة النفس على المسرح (والذي لم يعد بالإمكان وصفه بالممثل الكوميدي). كان فورستر، كعهده أبدا، لطيفا دمثا مراعيا لمشاعر الآخرين إلى أقصى الحدود، لكن السهرة لم تعجبه.

قال أحد المراقبين الذين يتسمون بالتبصر وحدة الملاحظة في معرض إشارته إلى القرن الأول للجمعية: "لقد كرس 'الرسل' أنفسهم لغرضين اثنين قبل كل شيء آخر، وفعلوا ذلك بتركيز شديد قد يبدو لأي عين فظة أمرا عبثيا، في حين تعجب أصحاب النظرة المتروية الودودة، ألا وهما الصداقة من جهة، والأمانة الفكرية من جهة أخرى"[1]. ظل كلاهما هدفا محوريا لـ"الرسل" في زمني، رغم أن الأساتذة الذين شاركوا في هذه الجلسات، كونهم أكبر سنا، قد حقنوا "الأمانة الفكرية" التي أدخلوها في علاقاتهم الشخصية على الأرجح بجرعة من الديبلوماسية. ومع ذلك، عبر كل من هذين الغرضين حدود الشريحة العمرية والحالة المزاجية، وأدين أنا، إضافة إلى أسرتي، إلى الطلاب من "الرسل" (وإلى الشباب والشابات الذين قابلتهم معهم ومن خلالهم) بعدد من الصداقات الدائمة.

IV

لا أستطيع القول إن سنوات النصف الأول من عقد الخمسينات كانت فترة سعيدة في حياتي الشخصية. فقد ملأتها بالعمل، والكتابة، والتفكير، والتدريس، إضافة إلى العديد من الرحلات التي قمت بها خلال العطلات الجامعية، وواجباتي تجاه الحزب. لحسن الحظ، أبعدني انتقالي من لندن عن نطاق عمل فرع لندن المحلي - التنظيم، والطواف في المدينة لتأمين الاشتراكات في صحيفة "دايلي وركر" ثم بيعها (أصبح اسمها بعد عام ١٩٥٦ "مورننغ ستار") - وهو عمل لم يكن لدي ميل طبيعي له ولم

1 - Alan Ryan, 'The Voice from the Hearth-Rug', London Review of Books, 28 October 1999, p. 19.

يناسب مزاجي. ومنذ ذلك الحين، عملت في واقع الأمر ضمن جماعات فكرية أو أكاديمية بشكل كلي.

لكن على الصعيد الفكري، كانت تلك السنوات جيدة حقا. فالحالة الذهنية ـ العقلية لمعظم الناس تكون في أقصى درجات الحدة والتيقظ وحب المغامرة حين يكونون في العقد الثالث من العمر. إلا أنني عدت من الخدمة في الجيش وأنا عاقد العزم بكل حماس على اللحاق بالأفكار التي ظهرت في سنوات الحرب الضائعة من حياتي، وامتلكت ما يكفي من قوة واندفاع الشباب لتحقيق ذلك. لا ريب أن تثقيف الذات بالنسبة للأكاديمي ليس له أفضل من الحاجة إلى تحضير المحاضرات، ونظرا لضرورة قيامنا (نحن الأربعة أو الخمسة مدرسين العاملين في قسم التاريخ بجامعة بيركبيك) بتغطية كافة فصول التاريخ منذ عصوره الموغلة في القدم، توجب علي امتلاك معرفة موسوعية كمحاضر، حتى بدون المتطلبات الإضافية المفروضة علي كمشرف في كامبريدج. صحيح أن من الممكن تقييد المهنة الأكاديمية، لكن يستحيل تطبيق ذلك على العالم التاريخي.

سيكون عالم المؤرخين الأرحب في تلك السنوات موضوعا لفصل آخر من فصول هذا الكتاب، أما بالنسبة للأهداف الراهنة فسأكتفي بملاحظة أنني بدأت نشر المقالات في المجلات الأكاديمية المتخصصة منذ عام ١٩٤٩، كما بدأت بلعب دور نشط في المؤتمرات الدولية، وفي "جمعية التاريخ الاقتصادي" (التي انتخبت إلى مجلسها عام ١٩٥٢). الأهم من كل ذلك أننا عملنا (كمجموعة من الرفاق والأصدقاء) بين عامي ١٩٤٦-١٩٥٦على إقامة دورات تثقيفية لأنفسنا ضمن جماعة المؤرخين في الحزب الشيوعي، وذلك عبر أوراق بحث ونقاش لا نهاية لهما، إضافة إلى اللقاءات المنتظمة التي عقدت غالبا في الطابق العلوي من مطعم غاريبالدي في ستفرون هيل، وأحيانا في "بيت ماركس" الخرب في كليركنويل غرين. لا يمكن لأولئك الذين يعرفون منطقة كليركنويل الفخمة التي تعج بالحركة عام ٢٠٠٠ تخيل شوارعها المقفرة، والباردة، والرمادية، والرطبة في عطلات نهاية الأسبوع قبل خمسين عاما، حين كان الضباب (الذي اختفى بعد عام ١٩٥٣) يخيم على لندن كقناع هائل رمادي اللون ومائل إلى الصفرة. لربما أصبحنا هنا مؤرخين حقيقيين. تحدث بعض المراقبين عن "التأثير المدهش

]لهـذا [الجـيل من المؤرخين الماركسـيين" الذين لولاهم "لأصـبح التـأثيـر العـالمي للعلم التـاريخي البريطاني أمرا لا يمكن تصوره" [1]. ومن بين العـديد من الأشيـاء الأخرى، أدى ذلك إلى صدور مجلة تاريخيـة ناجحة عـام ١٩٥٢، غـدت نافذة ومؤثرة في نهـاية المطاف. لكن مجلة "باست اند برزنت" ("الماضي والحاضر") لم تولد في كليركنويل، بل في بيئة أكثر تناغما وانسجاما في "كلية الجامعة" بشارع غوير.

انفرط عقد جماعـة المؤرخين في عام الأزمـة التي عصفت بـالشيـوعيـة (١٩٥٦). وحتى ذلك الحين، بقينا (في حكم المؤكد، بقيت أنا) على إخلاصنا وولائنا كـأعضـاء منضبطين وموالين لسياسـة الحزب الشيـوعي، ساعـدنا في ذلك دون ريب جموح وتطرف الخطاب الذي تبنته الحملة المعادية للشيـوعيـة في "العـالم الحر". لكن الأمر كان أبعـد ما يكون عن السهولة واليسر.

الاتحـاد السـوفـيـيـتي جعـل الوضـع يزداد صـعـوبة باطراد. فـقـد تعـرض المثـقـفـون والمفكرون بالطبع لضغـوط خاصة، نظرا لأن المعـتقدات التي التـزموا بها تقلصت اعـتبـارا من عام ١٩٤٧ إلى مجرد تعاليم شفهية متزمتة، لم يرتبط بعضها بالماركسية إلا بصلة واهية، في حين كان العديد منها ـ خصوصا في مجال العلوم الطبيعية ـ سخيفا وعبثيا. وبعـد الانتـصـار الرسـمي لـ "الليـسنكوية" (Lysenkoism) (نسبـة إلى العـالم الروسي المتـخصص في الأحيـاء والزراعة تروفيم ليسنكو) في الاتحـاد السوفـيـيتي، أصبح ذلك مشكلة رئيسيـة في فرع خريجي جامعة كامبريدج، نظرا لأن العديد منهم، بل معظمهم، كـانوا من العلمـاء الطبيـعيين. فهل سينسـحب هؤلاء، مـثل عـالم الوراثة الشـهيـر جي. بي. إس. هالدين، من الحـزب، نتـيـجـة عـدم القـدرة على قـبـول الحـقـيـقـة المزيفـة؟ أم سيـقـومـون، مـثل العـالـم جي. دي. بيـرنـال، بتـدمـيـر مكانتـهـم وسـمـعـتـهـم من خـلال محاولة/أو تدبر أمر الدفاع عن السوفييت؟ أم سيغـمضون عيونهم، ويغلقون أفواههم، ويتابعون العـمل كالمعتاد؟ المميزات الخاصة للعلم الستاليني لم تكن مدمرة في الميادين الأخرى. فـعلى سبيـل المثـال، وجد الأطبـاء الشيـوعيـون المتـخـصـصـون في علم النفس إصرار موسكو على العالم الروسي بافلوف ("الأفعال المنعكسة الشرطية") أقل تقييدا،

1 - Hans-Ulrich Wehler, Historisches Denken am End des 20. Jahrhunderts (1845-2000) (Gottingen, 2001) pp. 29-30.

ويعود جزء من السبب إلى التوجه التجريبي، والوضعي، والسلوكي، المعادي لنزعة التحليل النفسي لدى أقسام علم النفس في الجامعات البريطانية. لكن هذه هي المشكلات الخاصة بالمفكرين، ولأسباب متنوعة لم تؤثر بشكل خطير على المؤرخين الشيوعيين البريطانيين الذين نأوا بأنفسهم عن التاريخ الروسي وتاريخ الحزب الشيوعي. ومن الواضح أننا لم نؤمن بنسخة تاريخ الحزب السوفييتي المتضمنة في النص الستاليني التعليمي اللامع حول "تاريخ الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي: المسار الوجيز". لكن ظهرت مشكلات أكثر عمومية، حتى وإن تجاهلنا أهوال المعسكرات السوفييتية، التي لم يتعرف الشيوعيون على حجم ترويعها آنذاك.

بمَ سيفكر الشيوعيون البريطانيون - خصوصا شيوعيو كامبريدج - الذين ارتبطوا بعلاقات وثيقة مع الأنصار اليوغوسلاف خلال سنوات الحرب، حين يواجهون القطيعة التي حدثت بين ستالين وتيتو عام ١٩٤٨؟ كنا أكثر قربا إلى الشيوعية اليوغسلافية. فقد تدفق المئات من الشباب البريطانيين إلى البلاد لبناء ما سمي بـ"سكة حديد الشباب"، وقد شمل هؤلاء إدوارد تومسبون الشهير (الذي لم يصبح مؤرخا بعد)، والذي كان لأخيه فرانك قاعدة بين الأنصار المكدونيين، إلى أن ذهب للقتال والموت مع الأنصار البلغاريين. كيف يمكن للمرء أن يصدق الخط السوفييتي الرسمي الذي قال بوجوب طرد تيتو من الحزب لأنه استعد منذ مدة طويلة لخيانة مصالح البروليتاريا الدولية لصالح المخابرات الأجنبية؟ نستطيع تفهم أن يجبر جيمس كلوغمان على التبرؤ من تيتو، لكننا لم نصدقه، ونظرا لأنه ظل حتى وقت قريب يقول العكس - وكذلك منظمة "الكومينفورم" المشكلة حديثا، التي كان مقرها في البداية في بلغراد - فقد عرفنا بأنه هو نفسه لم يؤمن بذلك. باختصار، بقينا موالين لموسكو، لأن قضية الاشتراكية الدولية يمكن أن تستغني عن دعم دولة صغيرة وإن كانت بطولية تثير الإعجاب، لكنها لا تستغني عن دولة ستالين العظمى.

على عكس ما حدث في الثلاثينات، لا أتذكر أية جهود جدية بذلت لإجبار أعضاء الحزب على تبرير سلسلة المحاكمات الصورية التي شوهت فترة السنوات الأخيرة من حكم ستالين، لكن ذلك ربما كان يعني أن المفكرين، من أمثالي، قد تخلوا عن المساعي لإقناع أنفسهم. لم يعرف سوى قلة منا شيئا عن بلغاريا، لذلك أصابتني

المحاكمات الأولى لترايشو كوستوف (أعدم عام ١٩٤٩) بالتعاسة، لكنها لم تنزع الشك من صدري. أما محاكمة لازلو رايك في هنغاريا (خريف عام ١٩٤٩) فكانت مسألة أخرى. فمن بين "عملاء المخابرات البريطانية" الذين زعم أنهم يسعون لإضعاف الشيوعية، حدد الاتهام (وأكدته الاعترافات المناسبة دون شك) رجلا أعرفه شخصيا: الصحافي باسيل دافيدسون. لم أصدق ذلك. كان دافيدسون رجلا ضخم الجثة، حاد الذهن، ميالا إلى النساء، له زوجة جذابة جدا، خاض ما دعاه الناس حربا "جيدة" لكن غير متزمتة. فقد قاتل مع الأنصار اليوغسلاف قرب الحدود الهنغارية (في منطقة مرعبة لحرب العصابات)، ثم مع الأنصار الطليان في جبال ليغوريا، وألف كتابا مهما عن الحربين بعنوان "صورة الأنصار" (زوده ذلك بالتدريب الضروري للمشاركة في حرب التحرير التي خاضها المقاتلون الأفارقة في المناطق الداخلية من غينيا وأنغولا ضد المستعمرين البرتغاليين). أصبحنا، وبقينا، صديقين. لم تكن التهمة الهنغارية غير قابلة للتصديق في حد ذاتها. في الحقيقة، ورغم أني لم أعرف ذلك آنئذ، تم تجنيد دافيدسون وقتها، مثله مثل غيره من الصحفيين البريطانيين في القارة، بواسطة المخابرات البريطانية، وأرسل إلى هنغاريا. ولم يكن من المفاجئ لي أنه عرف رايك في ذلك الوقت. ما ملأ نفسي بالشك، بغض النظر عن حكمي الشخصي على الرجل، هو حقيقة أن مهنته كصحافي قد اتخذت انعطافة حادة نحو الأسوأ مع الحرب الباردة. فبعد أن غادر صحيفة "التايمز" (اللندنية)، أبعد في الواقع عن صحيفة "نيو ستيتمان اند نيشن"، التي كانت في ذروة نجاحها تمثل لسان حال اليسار المعتدل (المهذب)، بسبب تعاطفه مع الحزب الشيوعي. لم يكن أحد يريده. وكان على وشك أن يرسخ نفسه كصحافي مستقل نظرا لكونه مؤرخا رائدا مسموع الكلمة في الشؤون الإفريقية، وخبيرا بحركات التحرير المناهضة للاستعمار في مناطق جنوب الصحراء الكبرى. الاتهام ببساطة لم يكن له معنى.

آخر وأكبر مسلسلات المحاكمات الصورية في شرق أوروبا جرت في تشيكوسلوفاكيا، وكانت أقل قدرة على الإقناع بعدالتها؛ وبعيدة كل البعد عن مسحة معاداة السامية الواضحة التي اشتركت فيها مع "مؤامرة الدكاترة" الشهيرة ضد ستالين عام ١٩٥٢ في الاتحاد السوفييتي ذاته. لقد عرف جيل طلابي العديد من الشباب

التشيك المهاجرين إلى بريطانيا. عرفنا على الأقل واحدا من "الخونة" الذين نفذ بهم حكم الإعدام: اوتو سلينغ، الذي تزوج امرأة جديرة بالثقة، تنتمي إلى حركة الشباب للسلام التي ظهرت في فترة ما قبل الحرب. عاد سلينغ إلى وطنه ليصبح رئيس الحزب في برنو، ثاني أكبر مدن تشيكوسلوفاكيا. بحلول هذه الوقت، بدا حتى دفاع الحزب الرسمي ـ المتوقع ـ عن المحاكمات التشيكية يفتقد الاقتناع إلى حد ما.

لم يبق الأعضاء الملتزمون، مثلي أنا، في الحزب الشيوعي لأنهم سقطوا فريسة للعديد من الأوهام حول الاتحاد السوفييتي، رغم سيطرة بعضها عليهم. على سبيل المثال، أسأنا تقدير هول الأحداث المروعة التي جرت في الاتحاد السوفييتي تحت حكم ستالين، إلى أن أدانها خروشوف عام ١٩٥٦ . ونظرا لتوفر قدر كبير من المعلومات حول المعسكرات السوفييتية، وهي معلومات لا يمكن إنكارها، لم يكن من المبرر الإشارة إلى أن المنتقدين الغربيين أنفسهم لم يوثقوا المدى الكامل الذي وصل إليه النظام حتى عام ١٩٥٦ [١]. علاوة على ذلك، قام العديد من الأعضاء بترك الحزب بعد عام ١٩٥٦ . لمَ إذن بقينا؟

لربما تتمثل أفضل طريقة في استعادة الحالة المزاجية السائدة في أوج سنوات الحرب الباردة ـ أي الفترة الممتدة أساسا بين هيروشيما وبانمون جوم (القرية التي عقدت فيها محادثات الهدنة في الحرب الكورية عام ١٩٥١) ـ في رواية مأخوذة من حياة برتراند رسل، رواية لم يرغب الفيلسوف الكبير في استعادتها خلال سنواته اللاحقة حين أصبح ناشطا مناهضا للأسلحة النووية. فبعد وقت قصير من إلقاء القنبلتين الذريتين على هيروشيما وناغازاكي، استنتج رسل أن الاحتكار الأمريكي للسلاح النووي سوف يكون مؤقتا. وخلال هذه الفترة، يتوجب برأيه على الولايات المتحدة استخدامه، حتى لو احتاج الأمر إلى هجوم نووي استباقي ضد موسكو. وهذا سيمنع الاتحاد السوفييتي من الانطلاق الحتمي في مسار احتلال العالم والهيمنة عليه، وهو مسار آمن بأنه ملتزم به، وبالتالي أمل بهذه الطريقة بتدمير نظام اعتبره مرعبا بكل ما في الكلمة من معنى. باختصار، وفيما يتعلق بشعوب الاتحاد السوفييتي، كان رسل يؤمن بشعار الحرب الباردة المألوف في الغرب آنئذ وهو "من الأفضل أن يكونوا من الأموات على أن

١- كتاب روبرت كونكويست الرائد "الإرهاب الكبير" لم ينشر حتى عام ١٩٦٨ .

يكونوا من الحمر". في الممارسة العملية، لم ينطبق هذا الشعار الفارغ إلا على "الآخر". فإن تضمن أي معنى فإنه لا يشير فقط إلى وجوب أن ينتحر الكوبيون أو الفيتناميون، أو حتى الطليان، بدلا من العيش في ظل حكومة شيوعية، بل ينبغي إبادتهم بسلاح العالم الحر لمنع وقوع مثل هذا الاحتمال المروع (بالطبع، لم يتوقع أي عاقل بصورة جدية حدوث عمليات انتحار جماعي في بريطانيا أو الولايات المتحدة).

على الرغم من أن احتمال حدوث ضربات نووية استباقية قد أقلق وزارة الخارجية البريطانية [1]، إلا أنه لحسن الحظ لم يصغ أحد لرسل، الذي غير رأيه على كل حال حين امتلكت القوتان العظميان القدرة على تدمير بعضهما البعض، وبالتالي تحولت الحرب العالمية إلى انتحار جماعي للجنس البشري برمته. لكن قبل ذلك، تحدث بعض الناس دون ريب، بمن فيهم حتى بعض السياسيين الجادين، بتعابير تقترب من حد الإشارة إلى حرب طبقية عالمية كارثية. القضايا كانت هائلة. وبغض النظر عن الجانب الذي تقف معه، لم يكن ثمة حدود للثمن الذي يتوجب دفعه. فالحرب، خصوصا منذ هيروشيما وناغازاكي، قد جعلت العالم يعتاد على التضحيات البشرية التي تبلغ مئات الآلاف، بل حتى الملايين. أما أولئك الذين عارضوا الأسلحة النووية فقد اتهموا بتجريد الغرب من سلاح ضروري لا غنى عنه. نحن أيضا وأقول ذلك آسفا عند استعادة ذكريات الماضي - لم نعرف حدا للثمن الذي كنا على استعداد لنطلب من الآخرين دفعه. ولا يخفف من أثر ذلك القول إننا كنا نحن مستعدين لدفعه.

لقد رأى الشيوعيون في الولايات المتحدة والدول الحليفة لها تهديدا بالدمار الشامل للاتحاد السوفييتي الذي مازال محاصرا ومعرضا للخطر، وذلك بهدف وقف تقدم قوى الثورة العالمية منذ هزيمة هتلر وهيروهيتو. وظلوا يعتبرون الاتحاد السوفييتي ضمانا لا يمكنهم الاستغناء عنه. ومن ناحية أخرى، مثل الاتحاد السوفييتي بالنسبة للولايات المتحدة وحلفائها تهديدا للعالم ونظاما ينبغي رفضه كلياً. كل شيء سيكون سهلا لو لم يكن قوة عظمى. كل شيء سيكون أكثر سهولة لو يكن موجودا بالأصل. وتوضح بالنسبة لنا أن الاتحاد السوفييتي ليس في موقع يؤهله لفتح العالم أمام

١- انظر :

Hennessy, op. cit., p. 30.

الشيوعية. بل إن بعضنا أصيب بالإحباط نتيجة عدم رغبته بذلك. فقد كان ـ على الأقل كما فكر المثقفون الشيوعيون الغربيون، حتى وإن لم يصرحوا بذلك ـ نظاما يعاني من عيوب ونواقص خطيرة، لكنه حقق منجزات عملاقة، وامتلك بالاشتراكية إمكانيات غير محدودة (رغم أن الأمر لا يصدق الآن، لم يكن الاتحاد السوفييتي في الخمسينات ـ حتى بنظر غير المتعاطفين معه ـ يبدو كدولة عملاقة عرجاء وفاشلة اقتصاديا، بل قوة اقتصادية قادرة على التفوق في الإنتاج على الغرب). بالنسبة لمعظم دول العالم، لم يكن يعتبر أسوأ نظام ممكن، بل كان حليفا يناضل في سبيل التحرر من الاستعمار الغربي، قديمه وحديثه، ونموذجا للتطور الاقتصادي والاجتماعي اللاأوروبي. كما اعتمد عليه وجود ومستقبل الشيوعيين، والأنظمة التقدمية، وحركات التحرر من الاستعمار، والشعوب المناضلة في سبيل الاستقلال، والدول المستقلة. وبالنسبة للشيوعيين، ظلت مسألة دعم وتأييد الاتحاد السوفييتي تحتل قمة الأولويات على الصعيد العالمي.

وهكذا تناسينا شكوكنا وتجاهلنا تحفظاتنا الفكرية، ودافعنا عنه. أو بالأحرى لأن ذلك كان أسهل علينا: فقد هاجمنا المعسكر الرأسمالي لأنه فضل أن تحكم ألمانيا بواسطة النازيين القدامى، ولن يمر وقت طويل ـ برأينا ـ قبل أن يعاد تسليحها لمواجهة الاتحاد السوفييتي، واجتياح ألمانيا الشرقية التي يحكمها الآن السجناء الناجون من معسكرات الإبادة الجماعية النازية؛ ولأنه فضل أيضا الاستعمار القديم على حركات التحرر المناهضة للاستعمار؛ ولأن الولايات المتحدة جعلت من إسبانيا فرانكو قاعدة عسكرية ضد أولئك الذين أيدوا الجمهورية.

وحتى برغم كل ذلك، لم يكن الأمر سهلا. فليس ثمة مشكلة في أن تكون شيوعيا في الغرب. المشكلة تكمن في أن تجرب الشيوعية في الشرق! ولسوف أرى ذلك رأي العين. في عام ١٩٥٢، ظهرت أولى البوادر على حدوث دفء بسيط على الحواف المتجمدة للاتحاد السوفييتي تحت حكم ستالين. في تلك السنة، وحتى قبل وفاة العجوز المخيف، سمح للمؤرخ إي. ايه. كوسمنسكي بزيارة بريطانيا لمدة وجيزة بصحبة زوجته، وهي الأولى من نوعها منذ العشرينات. اشتغل المؤرخ في لندن على مشكلات تاريخ الوحدات الإدارية الإنكليزية في العصور الوسطى، الأمر الذي جعل منه عالما ذائع الصيت في الدراسات التاريخية. أخذته إلى المتحف البريطاني، وكانت تلك لحظة

عاطفية لا تنسى بالنسبة له. بعد موت ستالين ببضعة شهور، لكن قبل بدء حقبة ما بعد الستالينية، رتب كوسمنسكي للأكاديمية السوفييتية للعلوم أمر دعوة مجموعة من المؤرخين البريطانيين الماركسيين لزيارة الاتحاد السوفييتي. كانت تلك تجربتي الأولى، لكن ليست الوحيدة، في بلد ثورة أكتوبر. لم أرغب بالذهاب إلى هناك مرة أخرى. لقد ساعدتني تلك الزيارة على الاستعداد لنقطة التحول الحاسمة في حياة كافة الشيوعيين، ومسيرة كل الحركات الشيوعية العالمية. هذا المنعطف التاريخي، أي أزمة عام ١٩٥٦، سيمثل الموضوع الرئيس في الفصل التالي من هذا الكتاب.

-١٢-

ستالين وما بعده

I

أنا من بين القلة القليلة من سكان العالم، الواقع خارج ما كان يسمى بالاتحاد السوفييتي، الذين شاهدوا ستالين فعلا؛ لكنه لم يكن حيا، بل مسجى في تابوت زجاجي داخل الضريح الضخم في الساحة الحمراء: بدا رجلا ضئيلا مربوعا، بل أقصر من طوله الفعلي (حوالي ١٦٠سم)، مقارنة بالهالة الهائلة للسلطة الديكتاتورية التي توقع الرهبة في النفوس وتحيط به حتى وهو جثة هامدة. وعلى العكس من لينين، الذي يمكن مشاهدته حتى الآن (٢٠٠٢م)، بعد أن قاوم إحدى عشرة محاولة لنقله خلال السنوات التالية للحقبة السوفييتية، لم "يعرض" جثمان ستالين إلا لفترة وجيزة امتدت بين وفاته عام ١٩٥٣ وعام ١٩٦١ . حين رأيته في كانون الأول/ديسمبر من عام ١٩٥٤، كان ظله ما يزال محوما فوق بلاده ومخيما على الحركة الشيوعية الدولية. لم يظهر له خليفة حتى ذلك الحين، رغم أن نيكيتا خروشوف، الذي دشن مرحلة "إزالة آثار الستالينية" بعد بضعة شهور، كان يشغل منصب السكرتير العام للحزب ويستعد لإزاحة خصومه ومنافسيه. لكن لم نكن نعرف شيئا عما يدور خلف الكواليس في موسكو.

تلقينا نحن الأعضاء الأربعة من مجموعة المؤرخين في الحزب الشيوعي البريطاني، دعوة من قبل الأكاديمية السوفييتية للعلوم لزيارة الاتحاد السوفييتي خلال العطلة الجامعية في أعياد الميلاد مع نهاية عام ١٩٥٤ وبداية عام ١٩٥٥، وذلك كجزء من عملية بطيئة وموجعة لانتشال الحياة الفكرية السوفييتية من عزلتها: أنا، وكريستوفر هيل، الذي اشتهر كمؤرخ للثورة الإنكليزية؛ وروبرت براونينغ المتخصص بالتاريخ

البيزنطي؛ وليسلي مورتون، العالمة المستقلة التي حاز مؤلفها (الماركسي) "تاريخ الشعب في إنكلترا" على موافقة وقبول السلطات الرسمية السوفييتية. لربما كان براونينغ، وهو اسكتلندي يتمتع بكفاءة لغوية رفيعة ومعرفة موسوعية مدهشة، والذي قدم ورقة بحث حول حل شيفرة الرموز والنقوش الخطية للحرف "B" (اللاتيني) في كريت، قد أدرك لوحده مدى الهوة التي تفصل العلماء السوفييت عن الأدب المكتوب بالإنكليزية وجهلهم المطبق به (لم تكن الصلات مع فرنسا أبدا على مثل هذه الدرجة من الضعف). ونظرا لعدم وجود متخصص بالتاريخ الروسي بين الزائرين، وهو الحقل الذي مثل مكمن القوة الطبيعية لمضيفينا، فقد استفادوا من حديثنا على الأرجح أكثر مما استفدنا منهم، وذلك حين نأخذ كل الأمور بعين الاعتبار.

ما الذي توقعنا أن نجده في الاتحاد السوفييتي؟ لم نكن نعتمد كلية على المترجمين/المرشدين الرسميين الذين خصصتهم لنا الأكاديمية، لأن اثنين منا كانا يعرفان الروسية ـ كريستوفر هيل، الذي أمضى سنة في الاتحاد السوفييتي في منتصف الثلاثينات وكون صداقات هناك، وروبرت براونينغ الذي يتحدث الروسية بلكنة أجنبية ظاهرة. لكن الاتحاد السوفييتي بعد سنتين من موت ستالين، ولعدة سنوات قادمة في الواقع، لم يكن المكان المناسب لتبادل الأحاديث غير الرسمية مع الأجانب حتى بالروسية. لا يعني ذلك أن "الوفد" الرسمي الذي دعته الأكاديمية، وهي هيئة تتمتع بمكانة معتبرة وسلطة نافذة في المجتمع السوفييتي في ذلك الحين، قد أفسح له المجال لإقامة صلات غير رسمية أو تمضية الوقت حيث شاء. فحتى برامج الترفيه والزيارات الثقافية كانت موجهة لإظهار أهمية المنظمة المضيفة، وبالاستنتاج الاستقرائي، أهمية ضيوفها الأجانب. أما خارج المباني الحكومية، فلم يسمح لأقدامنا تقريبا بأن تلمس الأرض.

باختصار، وبوصفنا مثقفين ومفكرين مهمين ـ وهو أمر غير مألوف لدينا ـ تلقينا معاملة (ثقافية) خاصة لا يحظى بها غيرنا من الزوار الأجانب، إضافة إلى نصيب (محرج) من المنتجات والامتيازات في بلد مفقر كما بدا جليا. فعلى سبيل المثال، أخذونا فورا من القطار الشهير الذي يربط موسكو بلينينغراد، لحضور عرض لـ"بحيرة البجع" يؤديه الأطفال في كيروف، حيث جلسنا في مقصورة المخرج، وبعد انتهاء

العرض أتت راقصة الباليه الأولى ـ وأظنها آلا شيليست ـ من المسرح إلينا مباشرة والعرق ما يزال يتصبب منها، "كي نتعرف عليها"، نحن الأجانب الأربعة الذين لا نتمتع بأية أهمية لكن وجدنا أنفسنا لوهلة في موقع السلطة. وما زلت بعد مرور نصف قرن من الزمان أخجل من نفسي حين أتذكر لطفها معنا، ومجاملتها لنا مع استعداد الأطفال لمغادرة المسرح، وخروج أفراد الفرقة الموسيقية ـ وجلهم من اليهود ـ من الجزء المخصص للأوركسترا. لم يكن ذلك دعاية جيدة للشيوعية. لكننا لم نعرف شيئا عن روسيا والحياة الروسية، باستثناء رؤيتنا لبعض النساء في منتصف العمر، من أرامل الحرب على ما يبدو، وهن ينقلن الحجارة وينظفن الركام في الشوارع الباردة.

علاوة على ذلك، لم يكن يتوفر للمفكرين والمثقفين والعلماء حتى المصدر الأساسي للمعلومات. فلا يوجد دليل للهاتف، ولا خرائط، ولا جداول عامة للمواعيد، ولا وسائل مرجعية وأساسية للحياة اليومية. ومما يصدم المرء افتقاد المجتمع هناك للقدرات العملية والتطبيقية، بعد أن حول الخوف الذي وصل إلى حد الرهاب تقريبا، المعلومات الضرورية للحياة اليومية إلى سر من أسرار الدولة. باختصار، لا تقدم زيارة روسيا عام ١٩٥٤ معلومات تفوق ما يعرفه الناس خارجها.

ومع ذلك كان هناك شيء ما يلوح في الأفق. إذ يتضح للزائر بصورة جلية وجود اعتباطية في التنظيم وفشل ذريع في التخطيط للمستقبل. فشبكة مترو الأنفاق في موسكو مثلا، تعتبر إنجازا مدهشا تحقق في الحقبة الحديدية في الثلاثينات تحت إشراف لازار كاغانوفيتش، أحد أشهر أنصار الستالينية وأشدهم تزمتا. جسد المشروع أملا لمدينة تحلم بتشييد القصور في المستقبل لإيواء الجياع والمعوزين الذين يملؤون شوارعها في الحاضر (لكن قطارات الأنفاق في موسكو كانت ـ وما تزال كما قيل لي ـ تعمل بدقة وانضباط الساعة). هنالك أيضا الفارق الأساسي بين الروس الذين يمتلكون سلطة اتخاذ القرارات وأولئك الذين يطيعونها ـ الدعابة التي كنا نتبادلها تقول بأن من الممكن التمييز بين المجموعتين من خلال شعر الرأس. فالذي يتخذ القرار الفعلي "يقف" شعر رأسه، أو يسقط عنه بسبب ما يبذله من جهد، في حين يعرف المحروم من السلطة من شعره السبط. هنالك أيضا وأيضا المشهد الغريب للمجتمع المثقف الحديث الذي لا يكاد يفصله جيل واحد عن المجتمع الفلاحي المتخلف القديم. أتذكر أننا حضرنا حفلة

بمناسبة رأس السنة الجديدة في نادي العلماء في موسكو. وفي زحمة الأنخاب التي تبادلها المدعوون لتعزيز أواصر الصداقة بينهم، اقترح أحدهم إجراء مسابقة في تذكر الأمثال والحكم المأثورة المتعلقة بالأشياء والأدوات الحادة، مثل "الغرزة في وقتها توفر تسعا" (الإبر). بعد وقت قصير نفذت ذخيرة البريطانيين المشتركة من الحكم والأمثال في هذا المجال، لكن المنافسين الروس، وكلهم من العلماء المعروفين والباحثين الراسخين في العلم، استمروا في مواجهة بعضهم بعضا بالأمثال والحكم القروية المتعلقة بالسكاكين، والفؤوس، والمناجل، والأدوات الحادة والقاطعة وكيفية استخدامها، حتى صار من الضروري وقف المسابقة. ذلك هو، برغم كل شيء، ما أحضروه معهم من القرى الضائعة في مجاهل الريف التي ولد العديد منهم فيها.

كانت الرحلة ممتعة، لكنها تثبط الهمة وتوقع الكآبة في النفس بالنسبة لنا كمثقفين شيوعيين أجانب،لأننا لم نقابل أحدا على شاكلتنا هناك. وعلى العكس من "الديمقراطيات الشعبية"، و"الاشتراكيات الموجودة فعلا" في باقي دول أوروبا (الشرقية)، حيث انتقل الشيوعيون المناضلون ضد القمع من ضحايا للاضطهاد إلى سدة الحكم، وجدنا أنفسنا في بلد يحكمه الحزب الشيوعي السوفييتي منذ أمد بعيد، حيث لا يمكن للمواطن احتراف أية مهنة دون أن يعني ذلك لزوما عضويته في الحزب، أو على الأقل إذعانه لمطالبه وقبوله بإعلاناته الرسمية. من المحتمل أن بعض من قابلناهم كانوا شيوعيين موالين للحزب فعلا ومقتنعين بمبادئه حقا، لكن هذا الاقتناع يظل محصورا في الإطار السوفييتي الداخلي ولا يرقى لمصاف الوحدة العالمية، وذلك رغم امتلاكنا لعدة عوامل مشتركة على الأرجح مع أولئك الذين طلبنا مقابلتهم لكن "لسوء الحظ، منعتهم مشكلاتهم الصحية من القدوم إلى موسكو"، أو لأنهم "غائبون لفترة مؤقتة في غوركي"، أو لم يعودا بعد من المعسكرات النائية. كان من الأسهل إلى حد بعيد إدراك ما تعنيه "الحرب الوطنية الكبرى"، على الصعيدين الشخصي والوجداني، بالنسبة للمواطنين الذين رأيناهم ـ خصوصا في لينينغراد، بعد نجاتهم من الحصار الرهيب خلال الحرب ـ مقارنة بما تعنيه الشيوعية. في كافة الأحوال، تأكدت بأن فكرتنا عن ثورة أكتوبر تختلف اختلافا بينا عن فكرة مرافقينا وأدلائنا من فرع أكاديمية العلوم في لينينغراد عنها (تذكرت ذلك وأنا أقف في محطة فنلندا تحت

الضوء الشتائي المذهل في تلك المدينة العجائبية البديعة التي لن أتمكن من تعويد نفسي على تسميتها بسان بطرسبورغ!).

عدت من موسكو متمسكا بقناعاتي السياسية، لكنني مثقل بحمل من الكآبة وشعور بعدم الرغبة في العودة إليها مرة أخرى. ومع هذا، رجعت إلى هناك في زيارات خاطفة: في عام ١٩٧٠، للمشاركة في المؤتمر التاريخي الدولي، إضافة إلى عدة زيارات قمت بها خلال السنوات الأخيرة من عمر الاتحاد السوفييتي وذلك ضمن سلسة من الرحلات الترفيهية القصيرة انطلاقا من هيلسنكي، حيث أمضيت عدة سنوات (في أشهر الصيف) في معهد الأبحاث التابع للأمم المتحدة (*).

كانت الرحلة إلى الاتحاد السوفييتي في أواخر عام ١٩٥٤ وبداية عام ١٩٥٥ بمثابة الاتصال الأول لي مع الدول التي دعيت لاحقا بدول "الاشتراكية الموجودة فعلا"، لأن زيارتي إلى براغ عام ١٩٤٧ لحضور مهرجان الشباب العالمي حدثت قبل أن يمسك الحزب بزمام السلطة الفعلية في إحدى دول "الديمقراطيات الشعبية" الجديدة. في الواقع، فاز الحزب الشيوعي الذي برز لتوه بأربعين بالمائة من الأصوات، وأصبح بذلك أكبر الأحزاب في انتخابات حزبية تعددية حقيقية. وبغض النظر عن حقيقة أنني سأتعرف على العديد من مؤرخي الدول الاشتراكية الأخرى، إلا أنني لم أقم صلات مباشرة معهم إلا بعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي الذين دشن بداية الأزمة العالمية للحركة الشيوعية، رغم أن زيارتي الأولى إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية في نيسان/ أبريل من عام ١٩٥٦ قد حدثت قبل هجوم خروشوف السافر على ستالين. لكن بحلول ذلك الوقت، تغير كل شيء.

II

"الأيام العشرة التي هزت العالم" في تاريخ الحركة الثورية في القرن الماضي حدثت مرتين: أيام ثورة أكتوبر التي وصفها جون ريد في كتابه الذي حمل ذات العنوان، وأيام

---

* بالمناسبة ، قد تجدر الإشارة إلى أن أيا من كتبي لم يترجم إلى الروسية ، أو إلى أية لغة سوفييتية خلال الحقبة الشيوعية . ومع ذلك ، فإن اللغتين "الاشتراكيتين الحقيقيتين" اللتين ترجمت إليهما بعض كتبي قبل سقوط جدار برلين هما الهنغارية والسلوفينية (بغض النظر عن كتابي عن الجاز الذي ترجم إلى اللغة التشيكية) .

انعقاد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي (١٤-٢٥ شباط/ فبراير ١٩٥٦). قسمت كلتا المناسبتين التاريخ إلى "ما قبل" و"ما بعد". ولا أظن أن هناك حدثا آخر في تاريخ أية حركة أيديولوجية أو سياسية كبرى يمكن مقارنته بأي منهما. بعبارة موجزة، خلقت ثورة أكتوبر حركة شيوعية عالمية، في حين دمرها المؤتمر العشرون!

جرى بناء الحركة الشيوعية العالمية، تبعا للخط اللينيني، كجيش منضبط واحد كرس جهده لتغيير العالم تحت قيادة مركزية وشبه عسكرية اتخذت مقرا لها في الدولة الوحيدة التي استلمت فيها "البروليتاريا" (= الحزب الشيوعي) زمام السلطة. ثم أصبحت حركة تحظى بأهمية عالمية لأنها مرتبطة بالاتحاد السوفييتي، الذي غدا بدوره بلدا دحر المانيا النازية وخرج من أتون الحرب قوة عظمى. لقد حولت البلشفية نظاما ضعيفا عاجزا، في بلاد شاسعة لكن متخلفة، إلى دولة عظمى. أما انتصار القضية في البلاد الأخرى، وتحرر الشعوب المستعمرة وشبه المستعمرة، فقد اعتمدا على دعم هذه الدولة الكبرى، وعلى حمايتها التي كانت أحيانا خجولة ومترددة لكنها حقيقية وفاعلة على الدوام. وبغض النظر عن الضعف الذي عانت منه، فإن وجودها في حد ذاته قد أثبت أن الاشتراكية أكثر من مجرد حلم طوباوي. في حين شكلت حماسة الحملات الشعواء المناهضة للشيوعية خلال حقبة الحرب الباردة، التي اعتبرت الشيوعيين عملاء لموسكو حصرا، شكلت عاملاً إضافياً زاد من لحمتهم وولائهم للاتحاد السوفييتي.

مع مرور الوقت، وخصوصا خلال سنوات المعارك النضالية ضد الفاشية، أصبح اليسار المنظم والمؤثر مرتبطا فعليا مع الأحزاب الشيوعية. حيث امتصت أو ألغت الأنواع الأخرى من الأحزاب الثورية الاجتماعية. لكن "الكنيسة" الشيوعية الدولية أعطت الفرصة الملائمة لظهور مجموعة إثر أخرى من المنشقين والهراطقة، وإن لم تنجح أية مجموعة من العصاة والمتمردين الذين أقصتهم، أو نبذتهم، أو طردتهم، أو قتلتهم، في ترسيخ وتثبيت ذاتها كمنافس أو خصم مؤثر إلا على الصعيد المحلي، حتى جاء تيتو وحقق ذلك في عام ١٩٤٨- لكن مع هذا، وعلى العكس من الكثيرين غيره، كان تيتو رئيسا لدولة ثورية. مع بداية عام ١٩٥٦، كان عديد القوة المشتركة للجماعات التروتسكية الثلاث المتنافسة في بريطانيا لا يتجاوز المائة شخص [1]. في الممارسة العملية، احتكرت الأحزاب الشيوعية منذ عام ١٩٣٣ النظرية الماركسية فعليا، من

1 - Ken Coats, 'How not to Reappraise the New Left' in Ralph Miliband and John Saville (eds), The Socialist Register (Merlin Press, London, 1976), p. 112.

خلال حماسة السوفييت لتوزيع أعمال "الكلاسيكيين" في أغلب الأحوال. وبدا واضحا بالنسبة للماركسيين باطراد أن "الحزب" ـ بغض النظر عن المكان الذي يعيشون فيه، وبرغم كل تحفظاتهم المحتملة ـ يمثل اللعبة السياسية الوحيدة المتاحة لهم. الكلاسيكي الفرنسي العظيم سي. بي. فيرنان، وهو شيوعي مخضرم منذ ما قبل الحرب، انفصل مثلا عن الحزب وانضم إلى المقاومة الديغولية منذ البداية ضد الخط السياسي للحزب آنذاك، ثم خاض حربا متميزة باسم "الكولونيل بيرثييه" و"رفيق التحرير"، لكنه عاود الانضمام إلى صفوفه بعد الحرب، لأنه ظل مناضلا ثوريا. إذ لم يكن لديه مكان آخر يلتجئ إليه. أما الأديب الراحل وكاتب سيرة تروتسكي، اسحق دويتشر (الذي كان في سره زعيما سياسيا محبطا)، فقد قال لي حين قابلته أول مرة في ذروة الأزمة الشيوعية (١٩٥٦-١٩٥٧): "افعل ما بدا لك، لكن إياك أن تترك الحزب الشيوعي. لقد سمحت لنفسي بأن أطرد من الحزب عام ١٩٣٢، وأنا نادم على ذلك حتى الآن". لكنه على العكس مني، لم يتمكن من مصالحة نفسه مع حقيقة أن أهميته السياسية تنبع من كونه كاتبا. أليست مهمة الشيوعيين، برغم كل شيء، هي تغيير العالم لا تفسيره؟

III

لمَ أدت إدانة خروشوف المتشددة لستالين إلى تدمير أسس تضامن الشيوعيين الدولي مع موسكو؟ برغم كل شيء، كانت هذه الإدانة استمرارا لعملية إزالة آثار الستالينية التي ظلت تتقدم بثبات طيلة أكثر من عامين، حتى برغم استياء الأحزاب الشيوعية من العادة السوفييتية المألوفة والمتمثلة في مواجهتها بشكل مفاجئ ودون مقدمات أو معلومات مسبقة، بالحاجة إلى تبرير الانقلاب غير المتوقع في الخط السياسي (على سبيل المثال، أغضبت مصالحة خروتشوف مع تيتو عام ١٩٥٥ الرفاق الحزبيين الذين أجبروا قبل سبع سنوات، وضد إرادتهم تقريبا، على الترحيب بإسقاط عضوية الحزب عنه). في الحقيقة، بدا المؤتمر العشرون كغيره من المؤتمرات، وإن كان أكثر شمولا وأبعد بخطوة عن مؤتمرات الحقبة الستالينية، إلى أن تسربت أخبار تصريحات خروشوف إلى الرأي العام، ومن ضمنه الأحزاب الشيوعية.

أعتقد أن علينا التمييز هنا بين تأثير الإدانة في زعامة الأحزاب الشيوعية،

خصوصا تلك التي تمسك بزمام السلطة، وبين تأثيرها في الأعضاء الحزبيين على مستوى القاعدة. بالطبع، قبل الطرفان كلاهما بالالتزام الإجباري بـ"المركزانية الديمقراطية"، التي أسقطت بهدوء وصمت كافة المعايير التي تضمنتها الديمقراطية أصلا[1]. كما قبلت كل الأحزاب، ربما باستثناء الحزب الشيوعي الصيني الذي اعترف مع ذلك بسلطة وأهمية ستالين، بقيادة موسكو لجيش الشيوعية الدولية المنضبط والملتزم في حقبة الحرب الباردة. واشترك الفريقان كلاهما في مشاعر الإعجاب الاستثنائي والحقيقي والطوعي بستالين بوصفه زعيما وتجسيدا للقضية، علاوة على الإحساس المشترك والصادق بالحزن والخسارة الشخصية التي أصابت الشيوعيين دون ريب بوفاته عام ١٩٥٣ . وفي حين أن ذلك يعتبر أمرا طبيعيا بالنسبة للأعضاء على مستوى القاعدة، حيث رأوا فيه صورة تجسد انتصار الشعوب الفقيرة وتحررها - "أبو الشوارب"، الذي سيأتي يوما ويخلص العالم من الأغنياء مرة واحدة وإلى الأبد - لكنه شعور شاركهم فيه دون شك زعماء عانوا من ستالين الأمرين، مثل بالميرو تولياتي، الذي عرف الديكتاتور الرهيب عن قرب، بل حتى ضحاياه الحقيقيون أو المحتملون. لقد بقي مولوتوف مخلصا لستالين مدة تربو على الثلاثين عاما بعد وفاته، بالرغم من أن ستالين في سنواته الأخيرة التي سيطر عليه خلالها جنون الشك والارتياب بالآخرين، أجبره على تطليق زوجته، وأمر باعتقالها، واستجوابها، ونفيها، وكان يستعد لإجراء محاكمة صورية لمولوتوف ذاته. آنا بوكر، الرومانية المنتمية إلى الشيوعية الدولية، بكت حين سمعت بموت ستالين، رغم أنها لم تكن تحبه، بل تخافه، وكانت على وشك أن تلقى للذئاب في ذلك الوقت بزعم أنها برجوازية قومية، وعميلة لترومان والصهيونية (قال لها المحقق الذي استجوبها: "لا تبك! فلو كان ستالين حيا لكنت أنت ميتة")[2]. لا عجب إذن أن يؤدي الهجوم "البارد" على سجله، وعلى "عبادة الشخصية" من قبل خروشوف، إلى حدوث صدمات زلزالية زعزعت الحركة الشيوعية الدولية.

من ناحية أخرى، كان زعماء الأحزاب الشيوعية يبدون إعجابهم بستالين، ويعلنون

١- وهكذا ، تغير حق الأعضاء - تبعا لمبادئ الحزب - بالمشاركة في "صياغة السياسة" إلى مجرد الحق بـ"مناقشتها" .

2 - Aldo Agosti, Palmiro Togliatti (Milan, 1996); Felix Tchouev, Conversations avec Molotov; 140 Entretiens avec le Bras Droit de Staline (Paris, 1995); Robert Levy, Anna Pauker: The Rise and Fall of a Jewish Communist (Berkeley, 2000); K. Morgan, Harry Pollitt (Manchester, 1993).

قبولهم بـ"الدور التوجيهي" للحزب الشيوعي السوفييتي، إلا أن هذه الأحزاب، داخل وخارج السلطة، لم تكن تمثل "وحدة متراصة وممركزة" (بالصيغة الستالينية)، ولا كانت مجرد تنظيمات عميلة وتابعة تنفذ سياسة السوفييت. ومنذ عام ١٩٤٧ على أقل تقدير، كانت تتلقى الأوامر المتحيزة والمجحفة سياسيا من موسكو في أغلب الأحوال، وذلك للقيام بأفعال وتصرفات ومهام ما كانت هي، أو على الأقل ما كانت أقسام مهمة من قياداتها، لتقوم بها من تلقاء نفسها. وطالما كان ستالين حيا، وبقي نظام القيادة والسلطة في موسكو "مركزيا وصلبا"، فإن ذلك ينهي الأمر. لقد أعادت عملية إزالة آثار الستالينية فتح الخيارات المغلقة، سيما وأن المسؤولين في الكرملين قد افتقدوا بصورة جلية السلطة القديمة، وواجهوا معارضة قوية من الحرس الستاليني القديم. لأن موسكو لم تعد (الفترة وجيزة) ترزح تحت حكم ديكتاتوري مركزي. باختصار، يمكن للتصدعات أن تهدم عمارة المنطقة الخاضعة للسيطرة السوفييتية. وبخلال بضعة شهور من انتهاء أعمال المؤتمر العشرين حدث ذلك بشكل واضح للعيان في بولندا والمجر. الأمر الذي فاقم بدوره من حدة الأزمة داخل الأحزاب الشيوعية التي تتربع على سدة الحكم في بلادها. ما أزعج جماهير أعضاء هذه الأحزاب هو أن قسوة الإدانة العنيفة لجرائم وشرور ستالين لم تأت من "الصحافة البرجوازية"، التي يمكن رفض روايتها مسبقا (إن قرأها أحد) باعتبارها افتراءات وأكاذيب لا أساس لها من الصحة، ولكنها أتت من موسكو ذاتها. كان من المستحيل عدم ملاحظة ذلك، ولكن من المحال أيضا معرفة ما يتوجب على المؤمنين المخلصين عمله إزاءها. وحتى أولئك الذين كانت لديهم "شكوك قوية.. [حول الحقائق التي انكشفت] بحيث بلغت حد التأكد المعنوي/الأخلاقي [مما كان يجري] قبل سنين عديدة من تصريحات خروشوف"(١)، قد صدموا بحجم الجرائم الجماعية (وإن لم يعرف مداها تماما حتى ذلك الحين) التي ارتكبها ستالين بحق الشيوعيين (التزم خروشوف الصمت إزاء الضحايا الأخرى). ولم يكن بمقدور أي مفكر شيوعي ألا يطرح على نفسه العديد من الأسئلة الخطيرة.

١- رسالة من اريك هوبزبوم

(World News, 26 January 1957, p. 62).

مع ذلك، أعتقد أن بالإمكان القول بكل ثقة إنه ما من قيادة لأي حزب شيوعي خارج السلطة قد فكرت بجدية في بداية عام ١٩٥٦ بأن إزالة آثار الستالينية تتضمن تعديلا جوهريا لدور، وأهداف، وتاريخ مثل هذه الأحزاب. ولا توقعت حدوث أية مشكلات كبرى يثيرها أعضاؤها، نظرا لأن الذين بقوا منهم في الحزب هم نفس الذين قاوموا الدعاية المناهضة للشيوعية لمدة عشر سنين منذ بداية الحرب الباردة. لكن نتيجة هذه الثقة بالذات، فشلت في إقناع الأعضاء بتأييد ما حدث هذه المرة.

عند استعادة الماضي يبدو السبب واضحا. إذ لم تكشف لنا (في الحزب الشيوعي البريطاني) الحقيقة المتعلقة بأي شيء يمكن أن يؤثر في جوهر معتقد الشيوعي. علاوة على ذلك، استطعنا التأكد من أن القيادة تفضل ألا نعرف الحقيقة ـ فقد غيبتها طويلا إلى أن تسرب حديث خروشوف غير الرسمي إلى الصحافة غير الشيوعية ـ بل أرادت بكل وضوح أن تغلق أي نقاش حولها بأسرع وقت ممكن. وحين تفجرت الأزمة في كل من بولندا والمجر، استمرت في إخفاء ما أورده الصحفيون التابعون لنا. ويمكن للمرء تفهم السبب الذي دفع القيادة، باعتبارها المسؤولة عن التنظيم في الحزب، لأن تجد في ذلك تكتيكا ملائما، لكن هذا الأسلوب لا علاقة له في واقع الأمر لا بالماركسية ولا بالسياسة الحقيقية. وعندما فشلت الدعوة المألوفة للولاء المطلق وعدم الانحراف عن خط الحزب، دفعتها الغريزة فورا لإلقاء اللوم على التردد المؤسف الذي تعاني منه عناصر الضعف وعدم الاستقرار المعروفة، إضافة إلى مفكري البرجوازية الصغيرة. تطلب الأمر من سلطات الحزب فترة امتدت من آذار/مارس وحتى تشرين الثاني/نوفمبر كي تدرك الحقيقة التي عرفتها "مجموعة المؤرخين" في الحزب الشيوعي بشكل فوري تقريبا، أي أن ما يحدث يمثل "أخطر الأوضاع التي يمر بها الحزب منذ تأسيسه وأكثرها حسما" [1]. في الواقع، وبعد الثورة في المجر والتدخل السوفييتي المسلح في وقت لاحق من تلك السنة، لم يعد بمقدور أشد الموالين للحزب تزمتا وتصلبا إنكار وتجاهل هذه الأزمة. وحين أعادت القيادة تأسيس نفسها في عام ١٩٥٧، بعد تجاهل تفجر المعارضة السافرة الذي لم يعرف الحزب الشيوعي البريطاني له مثيلا من

١- انظر :

Eric Hobsbawm, 'The Historians' Group of the Communist Party' in M. Cornforth (ed.), Rebels and Their Causes: Essays in Honour of A. L. Morton (London, 1978), p. 42.

قبل، خسر ربع أعضائه، وثلث كادر العاملين في صحيفته ("ديلي وركر")، ومعظم من بقي من المفكرين الماركسيين من جيل الثلاثينات والأربعينات. لكن برغم خسارته لعدد من القيادات النقابية، استعاد بسرعة تأثيره في المجال الصناعي على المستوى الوطني، حيث وصل إلى ذروته في السبعينات وأوائل الثمانينات.

ليس من الصعب فقط إعادة تركيب الحالة المزاجية السائدة في تلك السنة العصيبة بكل ما سببته من أضرار وجراح، بل حتى استعادة الذكريات المصاحبة لها أيضا، حيث تصاعدت الأحداث عبر سلسلة متتابعة من الأزمات الأقل شأنا، لتبلغ ذروتها المرعبة في اجتياح الجيش السوفييتي للمجر، ليتورط بعد ذلك متعثرا في صراع عنيف انتهى بهزيمة منهكة، في خضم جدال محموم ونزاع محكوم عليه بالفشل امتدا لعدة شهور (مسرحية ارنولد ويسكر "شوربة الدجاج والشعير"، التي تتناول حياة عائلة يهودية تنتمي إلى الطبقة العاملة وتكافح في سبيل معتقدها الشيوعي، تقدم فكرة جيدة عما كان يدعى آنئذ بـ"ألم فقده، ووجع التشبث به" [1]. وحتى بعد مضي نصف قرن من الزمان، مازلت أشعر بغصة في الحلق كلما تذكرت التوتر الهائل الذي صعب علينا احتماله، وعانينا من وطأته شهرا بعد شهر؛ واللحظات الطويلة الممتدة إلى ما لا نهاية التي صاحبت محاولتنا لاتخاذ القرار المتعلق بما نقول وما نفعل والذي بدت حياتنا القادمة معتمدة عليه؛ والأصدقاء الذين يوحدون جهودهم معا كحلفاء، أو يجابهون بعضهم البعض كأعداء ألداء؛ والإحساس بالهزيمة المرة الذي كرهناه لكن تعذر علينا التخلص منه. رغم كل ذلك، توجب علينا جميعا، باستثناء قلة من العاملين (بدوام كامل) في الحزب، أن نستمر في حياتنا وأعمالنا وكأن شيئا لم يكن، وهو أمر بدا لفترة مؤقتة كأنه عملية إلهاء غير مرغوب بها تشتت انتباهنا وتبعد تركيزنا عن الحدث الجلل الذي هيمن بظله على أيامنا ولياليا. يعلم الله بأن سنة ١٩٥٦ كانت سنة درامية مؤثرة في السياسة البريطانية، لكن بهت كل شيء آخر في ذاكرة الشيوعيين آنئذ. بالطبع قمنا بتعبئة الجهود ضد كذب حكومة أنتوني إيدن في أزمة السويس، جنبا إلى جنب اليسار في حزبي العمال والأحرار الذي توحد تماما في ذلك الحين (لمرة وحيدة). لكن أزمة السويس لم تكن تؤرق وتسرق النوم من الجفون. أما أبسط الطرق

1 - Francis Becket, Enemy Within: The Rise and Fall of the British Communist Party (London, 1995), p. 139.

في وصف الحالة السائدة حينذاك فهي أن الشيوعيين البريطانيين قد عاشوا لمدة تربو على العام على شفا المعادل السياسي للانهيار العصبي الجماعي.

ما زاد الطين بلة حقيقة أن الحزب الشيوعي البريطاني بعدد أعضائه القليل كان يعتبر من عدة نواح حزب عائلة "من الأصدقاء الأوفياء"، حسب تعبير أحد النقاد الذي استشهد به "الكومنترن" دون أن يذكر اسمه. وعلى العكس من الأحزاب الأخرى، لم يشهد تاريخه عمليات صاخبة جرى فيها طرد الأعضاء أو عزلهم أو إقصاؤهم. كان الحزب يفتقد النسخة "البلشفية" من القيادة التي أوجدت زعماء قساة مستأسدين مثل أندريه مارتي في الحزب الشيوعي الفرنسي. فقد كنا نتقابل مع زعمائنا، ونحاورهم/ ونحب معظمهم، بل استطاع بعضنا على الأقل تفهم ما يتعرضون له من ضغوط. لم يرغب أحد من المنتقدين بترك الحزب، ولم يكن الحزب يريد أن يخسرهم. ومهما كانت الوجهة التي سيأخذنا إليها مستقبلنا السياسي، فقد عشنا جميعا أزمة عام ١٩٥٦ كشيوعيين ملتزمين ومقتنعين - حتى أولئك الذين تركوا/ أو أبعدوا من الحزب ظلوا بأغلبيتهم الساحقة على اليسار.

لم أكن أعيش فقط في خضم الأزمة، بل كنت قريبا من بؤرتها أيضا، لأنني ترأست عام ١٩٥٦ "مجموعة المؤرخين" في الحزب الشيوعي (وهي إحدى المرات القليلة التي أصبحت فيها رئيسا لأية منظمة)، وبرزت المجموعة بشكل فوري تقريبا كمركز للمعارضة الصريحة لخط الحزب، حين عرضه علينا ناطق باسمه في الثامن من نيسان/أبريل، بعد وقت قصير من تصريح خروشوف، أو بالأحرى بعد مؤتمر الحزب الشيوعي البريطاني اللاحق الذي حاول (عبثا) تجاوز القضية/ الأزمة برمتها. تمردنا، وقامت المجموعة بأكبر عمليتي تحد للحزب في تاريخه. في الأولى، لعب كريستوفر هيل، أحد قيادي المجموعة، دور الناطق باسم "تقرير لجنة الأقلية حول الديمقراطية داخل الحزب"، أي دور الرئيس الفعلي للمعارضة في مؤتمر الحزب الذي انعقد في أيار/ مايو عام ١٩٥٧ . في منتصف شهر تموز/ يوليو، أصدر كل من جون سافيل من جامعة هل، إضافة إلى أي. بي. تومبسون المحاضر آنذاك في جامعة ليدز، في حادثة لا سابقة لها وتعتبر في تقاليد الحزب عملا يفتقد الشرعية كليا، نشرة للمعارضة داخل الحزب باسم "ريزنر" (Reasoner) (بعد أن ترك كل منهما الحزب، أعيد إحياء النشرة باسم "ذا نيو

ريزنر" The New Reasoner عام ١٩٥٧، حيث ضمت مساهمات لمختلف الكتاب المتعاطفين، وأنا من بينهم). لقد دفع التدخل السوفييتي في ثورة المجر عدة أعضاء منا إلى إحداث خرق آخر أكثر خطورة أصاب الانضباط الحزبي، عقوبته الطرد من الناحية التقنية، وذلك حين وقع معظم المؤرخين المعروفين (بمن فيهم الموالي الصامت عادة لخط الحزب، موريس دوب) رسالة احتجاج جماعية، لكن صحيفة الحزب رفضتها واضطررنا لنشرها بصورة بارزة في الصحافة غير الحزبية [1]. ولن يستطيع سوى أعضاء الحزب من ذلك الجيل تقدير حجم هذا الخرق الذي لا يمكن الصفح عنه لانضباطية الحزب. بعد بضع سنين أتاحت لي هذه الرسالة، في أمسية عاطفية في إحدى الحانات النمساوية، أن أنزل هزيمة ساحقة بآرثر كويستلر الذي كان ثملا ومعتل المزاج، حيث أراد أن يعرف هل عارض أشخاص مثلي تدخل الروس في ثورة المجر.

جسد المؤرخون أكثر "المجموعات الثقافية" في الحزب ازدهارا ونشاطا ونجاحا، وكانوا عموما من أبرز الموالين له سياسيا. لمَ كنا نحن ـ أكثر من الكتاب والعلماء المتأثرين بسخف وعبثية ليسينكو والأيديولوجية السوفييتية الرسمية ـ الذين وجدنا أنفسنا على خط المواجهة الأمامي للمعارضة منذ البداية؟ لأنه توجب علينا أساسا

١- قد يكون من المفيد ذكر الجزء الرئيسي من هذه الوثيقة، وهي كالتالي:

جميعنا نادينا طيلة العديد من السنين بالأفكار الماركسية، في حقولنا الخاصة، وفي النقاش السياسي داخل الحركة العمالية. ولذلك فنحن نشعر بأننا نحمل مسؤولية التعبير عن آرائنا كماركسيين في الأزمة الحالية للاشتراكية الدولية.

نشعر أن التأييد غير المشروط التي تبديه اللجنة التنفيذية للحزب الشيوعي تجاه التصرف السوفييتي في هنغاريا يعتبر تتويجا غير مرغوب فيه لسنوات من تشويه الحقائق، وفشلا من جانب الشيوعيين البريطانيين في التفكير بكافة جوانب المشكلات السياسية. لقد أملنا بأن كشف الحقائق في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي سوف يجعل قيادتنا وصحافتنا تدرك أن الأفكار الماركسية لن تكون مقبولة في الحركة العمالية البريطانية إلا إذا انبثقت من الحقيقة حول العالم الذي نعيش فيه.

إن افتضاح الجرائم والانتهاكات الخطيرة في الاتحاد السوفييتي، وثورة العمال والمثقفين ضد البيروقراطيات الشيوعية المزيفة والأنظمة البوليسية في بولندا والمجر، قد أظهرا أننا أسسنا تحليلاتنا السياسية خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية على توصيف مزور للحقائق. المنهج الماركسي ليس نظرية عفا عليها الزمن، لأننا ما زلنا نعتبره صحيحا وصالحا.

إذا ما أرادت التوجهات والميول اليسارية في حركتنا العمالية أن تفوز بالدعم والتأييد، وهو أمر ضروري لتحقيق الاشتراكية، يتوجب التنصل من ذلك الماضي كليا. وهذا يشمل رفض آخر نتائج هذا الماضي الشرير متمثلة في الموافقة على الأخطاء الحالية للسياسة السوفييتية.

أرسلت إلى صحيفة "ديلي وركر" بتاريخ ١٨/١١/١٩٥٦؛ ونشرت في صحيفتي "نيوستيتمن" و"تريبيون" في ١/١٢/١٩٥٦.

مـجابهـة الوضع لا كأفـراد وناشطين ومناضلين شـيـوعـيين فـقط، بل كمـؤرخين مـحـتـرفين أيضـا. فـالقـضـيـة المتـعلقـة بالأخطاء التي ارتكبت تحت حكم سـتالين، والسـبب الكامن وراء إخفائهـا، كانت ببساطة مسألة تتصل بالتاريخ. مثلما كانت الأسئلة المفتوحة لكن المسكوت عنهـا والممنوعـة من النقـاش وذلك حـول كـل مـا يتـعلق بالأحـداث فـي تـاريخ حزبنا ذاته والتي ارتبطت مباشرة بقـرارات مـوسكو في حقـبة سـتـالين، وأبرزها التـخلي عن سـيـاسـة مناهضـة الفـاشـيـة بين عـامي ١٩٣٩-١٩٤١ . هكذا كـان في واقع الأمـر موقـفنا السـيـاسي. وكمـا قال أحدهم في اليوم الأول لتـمردنا: "لمَ يتـوجب علينا الموافـقة ببساطة على خروشوف؟ فنحن لا نعلم، ولا يمكننا سوى المصادقة على السـيـاسـة ـ لكن المؤرخين لا يؤمنون إلا بالبينات والأدلة" [١].

كل ذلك يفسر تدخلنا المشـترك (كـمجـمـوعـة) في شـؤون الحزب عـام ١٩٥٦ . فـقد طالبنا بإجراء دراسة جادة لتـاريخ الحزب الشـيـوعي البريطاني، الذي كـان (كمـا أستطيع أن أرى الآن وأنا أسـتـعـيـد أحـداث الماضي) مـتلهـفـا بشـدة لعـقـد مـصـالحـة مع زمـرة المفكرين المثـيرين للمشـاكل، الذين اعـتـبرهم برغم ذلك بمثـابة مـصدر قـوة ونفع له، حـيث وافق على إنشـاء لجنة لمناقشة المسألة. مثل القيادة هاري بوليت، رئيس وزعيم الحزب الذي لم يرق إليه الشك طيلة فـترة حيـاتنا في الحزب، وبالـم دوت، المرشـد الأيديولوجي، وجيـمس كلوغـمـان، ومثلت أنا رئاسة المجموعة، ومـثل بريان بيـرس المؤرخين (بعد أن كان مـتـخـصـصـا بتـاريخ العـصر التيـودوري، أصبح بريان الآن مـترجمـا متـفوقا في اللغـتين الفرنسـية والروسـية، وظل لمدة طويلة ينتقد بشدة الخرافات والصمت في تاريخ الحزب الشيوعي البريطاني. ولسـوف يترك الحزب لاحقا لينضم إلى إحدى الجماعات التروتسكية).

أتذكـر الإحـبـاط الذي خـيم على اللقـاءات. لا يعـني ذلك أن المؤرخين قـد جـوبهـوا بخط واحـد منسق. كـان هاري مـعـجـبـا بسـتـالين، وعلى شـاكلة مـعظم زعـمـاء الحـزب القدمـاء، لم يكن يحـترم خروشـوف، ولم يوافق على سيـاسـتـه. كـان زعـيـمـا ينـتـمي إلى الطبـقة العـاملة ويتـمتع بمكانـة كبـيرة وشـخصـيـة آسرة تفوق بهـمـا على كل زعـمـاء حـزب العمـال، فيما عدا بيفن. لكن بزه في معرفة الاتجاهات السائدة لدى نقابات العمـال نظرا لكونه عـاملا اشـتـغل في تصنيع سـخانات الميـاه في الماضي. لقد جعلتـه غرائزه الفطرية

---

1 - Eric Hobsbawm, 'The Historians' Group of the Communist Party' in Cornforth, op. cit., p. 41.

وخبرته الطويلة يشكك بجدوى الباحثين والمنقبين في تاريخ الحزب. وباعتباره سياسيا، عرف بأن استقصاءات المحققين في الخلافات القديمة، خصوصا بين الرفاق الأحياء، سوف تؤدي إلى تفجر المشاكل. وبوصفه عضوا قديما في "الكومنترن"، أدرك بأن من الأفضل عدم الخوض في العديد من الأمور وإبقائها في خانة المسكوت عنه. لم يكن لأحد منا أن يعرف أن بوليت قد تدخل لدى موسكو عام ١٩٣٧ ليدافع عن ممثل "الكومنترن" السابق في بريطانيا وزوجته، والذي جرى اعتقاله للتو - وربما وصل حتى إلى ستالين. سببت له هذه الخطوة الشجاعة إلى حد استثنائي مشكلة خطيرة في تلك الأيام التي ساد فيها الرعب وجنون الشك والارتياب. وفكر "الكومنترن" باستبداله وإزاحته عن زعامة الحزب، كما وضع السيناريو الضروري لإجراء محاكمة صورية له. لكن أنقذه من الأسوأ ديمتروف، إضافة إلى جواز سفره البريطاني، ولربما بسبب ما أبداه الرئيس التنظيمي السابق لـ"الكومنترن"، اوسيب بياتنيتسكي وهو تحت التعذيب، من رفض عنيد للإدلاء بـ"الاعتراف" المطلوب لتوريط الضحية المستهدفة [1].

هل كان من المفيد للحركة الشيوعية قيام أحدهم بنشر هذه الحادثة في تاريخ الحزب، حتى وإن أضافت دون شك مفخرة أخرى إلى سجله عموما، وزادت من رصيد بوليت نفسه على وجه الخصوص؟ لقد أوضح دون لبس أن النوع الوحيد المقبول من التاريخ الذي يساعد الحزب في رأيه هو النوع الخاضع للنظام والانضباط - سجل المعارك النضالية التي خاضها الحزب، الأعمال البطولية، التضحيات في سبيل القضية، الرايات الحمراء الخفاقة - النوع الذي يترع نفوس الرفاق بالفخر والاعتزاز والأمل.

المفكر المثقف بالمه دوت، ذو الأصول الهندية - السكندنافية، كان ينتمي إلى أفراد الطبقة العليا الذين يقابلهم المرء من حين لآخر بين البنغاليين. أمه سويدية من أسرة بارزة - ينتمي إليها أيضا أولف بالمه، رئيس الوزراء الاشتراكي الذي اغتيل عام ١٩٨٦ (**). وعلى العكس من هاري، كان دوت مفكرا بالطبيعة، إضافة لكونه متصلبا ومتشددا بالغريزة. الليلة التي باتها في منزلي الصغير في كامبريدج في

1- Andrew Thorpe, The British Communist Party and Moscow 1920-1943 (Manchester, 2000), pp. 238-41.

** كذلك البروفسور سفين اولريك بالمه من جامعة ستوكهولم، الذي اقترح اسمي للحصول على أولى درجات الشرف التي نلتها، حيث وضع على رأسي إكليل غار حقيقي، لكن مدبرة منزلنا في كالفام ألقت به في سلة المهملات فيما بعد! (الوسط الأكاديمي السويدي يأخذ نفسه على محمل الجد إلى حد يجعله عاجزا عن رؤية أي شيء شاذ في تجمع للعلماء والمفكرين الكهول بذواتهم الرسمية الداكنة، على رؤوسهم أكاليل الغار، وفي أيديهم أقداح الشمبانيا، يتبادلون الحديث كأنهم في مسرحية "يوليوس قيصر" لكن بأزياء معاصرة.

أعقاب أحد الاجتماعات التي عقدت قبل سنين بعيدة، خلفت لدي إعجابا دائما بحده ذهنه، واقتناعا مستمرا بأنه غير مهتم بالحقيقة، لكنه استخدم ذكاءه اللماح بشكل حصري لتبرير وتفسير سياسة اللحظة، مهما كانت. أعتقد الآن بأنني لم أكن منصفا تجاه الغرائز الفكرية التي مازالت دفينة في أعماقه، أو ربما تجاه أمله بالاعتراف به بعد الممات كشخص أكثر من مجرد سفسطائي موهوب في خدمة السلطة. لقد سلم بأن التاريخ الحقيقي للحزب الشيوعي هو في الجوهر تاريخ سياساته، أي تاريخ التغيرات التي طرأت على خطه السياسي. وهذا يجب أن يشمل بالطبع التفكير الانتقادي والحكم السلبي كلما دعت الضرورة. لكن هل أزفت اللحظة المناسبة لذلك؟ يشكك دوت بأن الأوان قد أزف.

وماذا عن بطلنا جيمس كلوغمان؟ جلس عند أقصى الزاوية اليمنى من طاولة الاجتماع والتزم الصمت - لقد عرف بأننا على حق. فإذا لم نقدم صيغة صحيحة لتاريخ حزبنا، تشمل الأجزاء والنتف الإشكالية، فسوف تظل عالقة به. وسيكتب تاريخه مفكرون مناهضون للشيوعية - وهذا ما حصل في الواقع بخلال سنتين اثنتين[1]. لكن كلوغمان كان يفتقد ما دعاه بسمارك العظيم ذات مره بـ"الشجاعة المدنية"، كمفهوم متميز عن الشجاعة العسكرية. كان يعلم الحق، لكنه ينفر من التصريح به على الملأ (يشبه في ذلك إيزايا برلين، الشخصية السياسية المختلفة نوعا ما، وذلك حين يتناول سياسات دولة إسرائيل). لم ينبس بحرف، ووافق على أن يتولى بنفسه مهمة كتابة تاريخ رسمي مقبول للحزب الشيوعي البريطاني، وهو أمر عرف باستحالة تحقيقه. بعد اثني عشر عاما، نشر الجزء الأول الذي تناول هذا التاريخ حتى عام ١٩٢٤ . أسلوبي الفظ في التأكيد على أنه يضيع وقته سدى لم يفسد العلاقات بيننا[٢]، وقبيل وفاته أصدر الجزء الثاني الذي غطى الفترة الممتدة حتى عام ١٩٢٧، أي قبل أن يتوجب عليه مواجهة أكثر الأحداث إثارة للنزاع والخلاف. ما كان بمقدوره أبدا أن يكتب المزيد. في تلك الأثناء، كان يحرر مجلة "الماركسية اليوم" (Marxism Today،) التي كان تأسيسها بمثابة استرضاء للمنتقدين الذين بقوا في الحزب عام ١٩٥٧، والتي لم تكن تشجع النقاش المفتوح تماما، وإن لم تكن تثبطه أيضا.

1 - Henry Pelling, the British Communist Party: A Historical Profile (London, 1958).

٢- انظر الفصل الأول، "مشكلات التاريخ الماركسي"، من كتابي "ثوار" (لندن، ١٩٧٣).

IV

حين أفكر بالتأثير الذي خلفه المؤتمر العشرون على المشهد التاريخي الأوسع، لا أشعر إلا بقليل من الحرج حين أؤكد على أنه كان مجرد "زوبعة في فنجاننا البريطاني". ففي أعقاب إضرابات العمال ومظاهرات الكاثوليك في بولندا (كان الطرفان يشكلان قوة معتبرة حتى في ذلك الحين)، استلمت السلطة هناك زعامة شيوعية جديدة برئاسة فلاديسلاف غومولكا، الذي طالته حملة التطهير عام ١٩٤٩، ولم يطلق سراحه من السجن إلا مؤخرا (لحسن الحظ، تمكن البولنديون من تجنب تنظيم المحاكمات والإعدامات المرتبة سلفا والتي شوهت أنظمة الحكم في بلغاريا، وهنغاريا، وتشيكوسلوفاكيا، واستطاعوا نتيجة ذلك "إعادة تأهيل" الأشخاص الأحياء بدل تحويلهم إلى جثث هامدة). أما الصينيون، الذين كانوا آنئذ جزءا من الحركة الشيوعية الدولية، فقد اقنعوا الروس بعد إلحاح شديد بتجنب اللجوء إلى قوة السلاح. لكن الثورة المجرية التي أعقبت ذلك مباشرة كانت أقل حظا، وفي حكم المؤكد تقريبا أن السبب يكمن في تجاوز الزعامة المجرية الحدود المتوقعة لاحتمال السوفييت، وذلك حين أعلنت خروجها من حلف وارسو، وحيادها في الحرب الباردة. لم يؤثر أي من الأزمتين، ناهيك عما فعله خروشوف نفسه، في الصينيين الذين بدأت علاقاتهم تتدهور حينذاك بشكل حاد مع الاتحاد السوفييتي. وبخلال سنة أو اثنتين، حدث الانشقاق بين العملاقين الشيوعيين، وأصبحا الآن يمثلان حركتين شيوعيتين متنافستين، رغم حقيقة أن كافة الأحزاب الشيوعية تقريبا بقيت على ولائها للمركز السوفييتي. أما ما دعي بـ"الماوية" في الستينات، فلم تتمكن من خلق وإيجاد أحزاب حقيقية، بل مجرد طوائف وجماعات صغيرة ومتنازعة من الناشطين. وحتى أهم الجماعات المؤيدة للصين، أي حزب الهند الشيوعي (الماركسي) الذي انشق عن الحزب الشيوعي الهندي، لم يكن "ماويا" بالفعل. فقد حمل معه التأييد الجماهيري الذي تتمتع به الشيوعية في الهند، خصوصا في ولاية كيرلا، حيث ما يزال من الممكن مشاهدة الشاحنات المزينة بصور ستالين وهي تجوب الطرقات الريفية. أما في ولاية البنغال الغربية، التي يبلغ عدد سكانها ثمانية وستين مليونا، فإن الحزب الشيوعي (حتى عام ٢٠٠٢) أمضى في الحكم عقودا طويلة وهو يحظى بدعم شعبي راسخ.

في بريطانيا، تمثل تأثير زلزال عام ١٩٥٦ المدمر في إصابة حوالي ثلاثين ألف عضو في الحزب الشيوعي بقلق فظيع، إضافة إلى تفتيت وتشتيت شمل قوى اليسار المتطرف الصغير الحجم. معظم الذين تركوا الحزب على الأرجح تخلوا بهدوء عن ممارسة النشاط السياسي (مثل حال بعض الأعضاء الذين بقوا مقتنعين، مثلي، بأن الحزب إذا لم يجر عملية إصلاح ذاتي، فلن يكون له مستقبل سياسي في البلاد على المدى البعيد). بعضهم انضم إلى الجماعات التروتسكية الرئيسية الثلاث، رغم أن هذه لم تتوسع وتنمو نتيجة انتقال الأعضاء من الحزب الشيوعي إليها، بقدر ما تنامت نتيجة التصدع العام الذي أصاب الكتلة الشيوعية المتراصة، وخسارة الحزب الشيوعي لاحتكاره الفعلي للماركسية. كما انفتح أمام المناضلين الشباب الآن خيار الانضمام إلى اليسار، لأن معظم المنتقدين من مجموعة المؤرخين الذين لم يتمكنوا من النجاة من الأزمة، تجمعوا من أجل، أو بالأحرى حاولوا، تأسيس نوع من "اليسار الجديد" الذي لم تلوثه الذكريات السيئة للحقبة الستالينية.

غدت صحيفة سافيل وتومبسون (The New Reasoner) (1957-1959) موئلا لمعظم المفكرين من أعضاء الحزب الشيوعي السابقين. في نهاية المطاف، اندمجت مع "مجلة الجامعات واليسار" (Universities and Left Review) التي أسسها رفائيل صمويل، أصغر الأعضاء السابقين في مجموعة المؤرخين سنا، مع شيوعي سابق هو غابرييل بيرسون، واثنين من الراديكاليين الشباب في جامعة اكسفورد، هما المنظر الثقافي الجمايكي ستيوارت هول، والفيلسوف الكندي تشارلز تيلور، وبلغ متوسط عمر المحررين فيها أربعة وعشرين عاما. لكن منذ بداية الستينات، تولى إدارة المجلة فريق جديد من شباب اكسفورد الماركسيين، أتى معظمهم من بيئة انغلو - ايرلندية قديمة في جمهورية ايرلندا. أما رئيسهم فكان شخصا يتمتع بقدرات مشهودة هو بيري اندرسون (٢٢ عاما) الذي قام أيضا بتمويل المجلة. وعلى العكس من البريطانيين من جماعة "اليسار الجديد" القديمة، تحولت اهتمامات الصحيفة بشكل واضح إلى العالمية، وتركزت على التنظير بشكل أكبر، كما كانت أقل ارتباطا بالحركة العمالية أو السياسة الاشتراكية. وبالرغم من أنها دارت في فلك "الدولية الرابعة"، إلا أنها نجحت في ترسيخ نفسها كدورية رئيسية للجيل الجديد من الماركسيين الانغلوساكسون.

على الصعيد العملي، لم يتمتع هؤلاء "اليساريون الجدد" بأية أهمية، وذلك على الرغم من إنتاجهم الفكري. إذ لم يدخلوا أية إصلاحات على حزب العمال (بقيت مواقفهم متناقضة تجاهه)، أو الحزب الشيوعي (كما حدث في السويد)، ولم يؤسسوا أحزابا يسارية جديدة (كما حدث في الدنمرك)، ولا منظمات دائمة جديدة لها أهميتها، كما لم يظهر منهم زعماء على المستوى الوطني.

تومبسون نفسه أصبح في نهاية المطاف مشهورا على الصعيد الوطني كناطق باسم "حملة نزع الأسلحة النووية"، وهي أهم الحركات اليسارية التي ظهرت في بريطانيا بعد عام ١٩٤٥ . وبرغم أن الحركة قد تأسست في ذات الوقت تقريبا (١٩٥٨)، لكن لم يكن لها أية علاقة بالأزمة داخل الحزب الشيوعي.

في بعض النواحي، يرمز إنشاء "مقهى البارتيزان" إلى التركيبة التي توالفت فيها الأيديولوجيا، وانعدام القدرة العملية، والأمل العاطفي الرومانسي لدى "اليساريين الجدد" في تلك الأيام المبكرة من مرحلة ما بعد عام ١٩٥٦ . ويعتبر المشروع، من بين العديد من المشاريع الأخرى، من بنات أفكار رفائيل صمويل، والرومانسي الكبير الآخر (بالطبيعة) ادوارد تومبسون، اللذين ظهرا كأبرز مفكرين مارسا تأثيرا نافذا من بين أعضاء الحزب السابقين. كل الذين عرفوا رفائيل خلال حياته العاطفية المتقدة التي انتهت بالسرطان قبل الأوان، احتفظوا بنفس الذكريات عنه: وجهه النحيل، وحماسته المشبوبة، وعيناه اللطيفتان اللتان تمتلئان بالدموع فجأة، وشعره اللامع المتدفق كالشلال، وهو ينطلق سريعا من مكان لآخر، وحيدا، حاملا معه مجموعة واسعة من الدفاتر والملفات التي يجاهد كي يخرج منها الورقة المناسبة. كافة الأعمال التي نشرها كانت جزءا من مشروع شامل لانهائي يتقدم باطراد. وجد رفائيل أن من المستحيل الاختيار بين العديد من أعاجيب الماضي (البريطاني في غالبيته الساحقة)، الأمر الذي منعه من إكمال أطروحة الدكتوراه التي كان من المفترض أن أشرف عليها ـ أعتقد بأنها كانت حول العمال الإيرلنديين في لندن الفيكتورية ـ أو أي مشروع آخر. لم يكن من غير الطبيعي بالنسبة لناشط متحمس وراسخ مثله، أن يجد المكان المناسب له في كلية رسكين، حيث درّس أعضاء نقابات العمال على مرمى حجر من أساتذة جامعة اكسفورد الذين كانت غالبيتهم العظمى لا تبدي أي اهتمام واكتراث بهم. لم يكن لتاريخه قوام

أو بنية أو حدود. فقد كان طوافا معرفيا مذهلا لا نهاية له، حوم خلاله فوق المشاهد والمناظر الخلابة، وذكريات وحياة الناس العاديين، ليقطعه بين الفينة والأخرى انقضاض "فكري" سريع يستدعيه منظر ساحر على نحو خاص وهو في طريقه.

هذا المتشرد المتحمس دائما وأبدا، الذي مثل النقيض المطلق للكفاءة الإدارية والتنفيذية، حمل في داخله شحنة متفجرة من الطاقة، وقدرة لا حد لها على توليد وإنتاج الأفكار والمبادرات، وفوق كل شيء مقدرة مدهشة على إقناع الآخرين بإدراكها والاعتراف بها. "مجلة الجامعات واليسار" مثلت واحدا من منجزات هذه القدرات الاستثنائية، "ورشة العمل التاريخية"، التي انبثقت عنها "مجلة ورشة عمل التاريخ" (الملتقى الذي مارس أعظم التأثير والنفوذ من بين مجموعات المؤرخين الماركسيين الذين تركوا الحزب وانضموا إلى اليسار)، كانت إنجازا آخر. "مقهى البارتيزان" جسد إنجازا ثالثا. ومع وقوف جيلين من الثوريين الماركسيين اليهود من شرق أوروبا خلفه، حلم باستبدال الاستبداد الستاليني بالحزب بعقول سياسية نيرة تتمتع بالإبداع والقدرة على الحركة، وأي مكان أفضل للقيام بذلك من المقهى؟ لن يكون واحدا من المقاهي العديدة التي أعيدت زخرفتها وغصت بها الشوارع الجانبية من منطقة الويست اند، بعد أن تجهزت بآلات حديثة لصنع قهوة "الاسبريسو"، لا أبدا.. بل مقهى حقيقي من مقاهي حي سوهو اللندني، حيث يمكن لرواده مناقشة القضايا النظرية، ولعب الشطرنج، وتناول "الستردل" (معجنات تشتمل على فاكهة أو جبن)، وعقد لقاءات سياسية مهمة في الغرفة الخلفية منه، تماما مثلما كانت عليه الحال في القارة قبل أن تفقد براءتها. أما مرابح المقهى فسوف تمول "المجلة" نفسها، التي ستقع مكاتبها فوقه مباشرة. "البارتيزان" سيكون تعبيرا عن الروح الجديدة في السياسة، والروح الجديدة في الفن. ولسوف يصمم "ديكوراته" أمهر وأبرع مهندسي العمارة الشباب في ذلك العصر، الذين سيتم اختيارهم دون ريب من بين المتعاطفين مع الهدف الكامن وراء المشروع. لا أستطيع أن أتذكر هل كانت حفلات الجاز جزءا من الحلم. ربما كانت الموسيقى الشعبية على الأرجح. وفي سبيل ضمان أن يتميز المقهى بالأصالة (للفوز ربما بدعم الأجيال الأكبر سنا)، سوف تترأس المشروع بعض الشخصيات اليسارية المناسبة. سمحت لنفسي أن أكون واحدا منها، وذلك على الضد من قناعاتي. كما جرى التفكير

بشخصية يسارية بارزة أخرى من الأعضاء السابقين في الحزب الشيوعي. لا أستطيع تذكر أي مرشحين آخرين، لكن رفائيل على أية حال لم يأبه لأي منا.

عند استعادة أحداث الماضي، يبدو من الأمور التي لا تصدق أن يتجاوز هذا المشروع الأرعن مرحلة التخطيط الأولي. لكنه سار قدما بالفعل على عكس كل التوقعات. وحتى عبقرية رفائيل التجارية (كبائع شاطر) ما كان لها أن تجمع المبلغ المالي الضخم الذي يحتاجه المشروع دون أن يؤدي ذلك إلى انهيار ما كان يسمى بـ"الفرع التجاري" للحزب الشيوعي، الذي وفر في السابق معظم مداخيله. حتى عام ١٩٥٦، كانت هذه الفروع تمثل معقلا قويا للولاء المتشدد للحزب، كما اعتادت أن تطلب من خطباء الحزب الزائرين (طلب ذلك مني في إحدى المناسبات) أن يحاضروا في مواضيع مثل "كومونة باريس عام ١٨٧١". ازدهرت هذه الفروع الآن، واغتنى بعضها إلى حد كبير، فافتضاح ما حدث لليهود السوفييت في السنوات الأخيرة من حكم ستالين، تجاوز قدرة احتمال سكان الويست اند، وجلهم من اليهود الذين جندهم الحزب خلال حقبة مناهضة الفاشية. وكل من قدم الدعم لـ"البارتيزان" لا بد وأنه قد عرف أن المشروع ليس عرضا تجاريا جديا، بل هو مشروع متعلق بالشباب، والثقة الطوباوية الخالصة برفائيل لا بد أنها اجتذبت الكهول الذين وجدوا عالمهم الأخلاقي يتحول إلى خرائب من حولهم. بطريقة ما، حصل رفائيل على المال الضروري للمشروع، وتم شراء/ أو استئجار المنزل في شارع كارليل في حي سوهو، على مرمى حجم من بيت ماركس القديم في شارع دين، وافتتح مقهى "البارتيزان".

كان المشروع كارثيا. فـ"الموضة" السائدة بين المهندسين المعماريين آنئذ تفضل الديكورات الداخلية المتقشفة بحيث يبدو المكان وكأنه غرفة انتظار في إحدى المحطات. الأمر الذي اجتذب المتبطلين والمشردين والطفيليين في سوهو، الذين لم يلقوا الترحيب ولا اجتذبتهم المقاهي والحانات الأكثر فخامة، خصوصا في الليل، إضافة إلى رجال الشرطة الباحثين عن مدمني المخدرات. أما المناضد الثمينة الكبيرة، والمقاعد القصيرة المربعة الشكل فقد صممت لتشجيع رواد المقهى على تحضير فصول أطروحاتهم البحثية وتبادل الحوار ومناقشة التكتيكات، في حين جرى تقليص الحيز الضروري للزبائن المستهلكين الذي يمثلون مصدر الدخل الرئيس. على أية حال، افتقدت إدارة

"البارتيزان" الكفاءة المالية والمحاسبية، وفشل المقهى تجاريا بخلال سنتين، وذلك على الرغم من أن رفائيل قد حاول أن يجد العذر للمدراء الذين ازدادوا اكتئابا باطراد. وحده الحنين إلى الماضي، علاوة على الحاجة إلى الحفاظ على الصلة بين جيلي ما قبل وما بعد عام ١٩٥٦، يمكنهما تفسير السبب الذي دفعني إلى التورط في هذا المشروع الجنوني. ومع ذلك، لم يكن الإخفاق الذريع الذي حل بالمشروع محتوما أكثر من الإخفاقات التي أصابت المشاريع السياسية الأخرى التي غامر بها الأعضاء السابقون الذين تركوا الحزب ين عامي ١٩٥٦-١٩٥٧ . وعلى شاكلة "مقهى البارتيزان"، فإن المشاريع السياسية لـ"اليساريين الجدد" عام ١٩٥٦ ليست الآن سوى هامش شبه منسي لا يكاد يتذكره أحد.

على الصعيد الفكري، ترك يسار عام ١٩٥٦ منجزات أكبر ـ دون ذكر التأثير المشهود لتومبسون، الذي سيسجل اسمه في "فهرس شواهد الفنون والإنسانيات" (١٩٧٦-١٩٨٣) باعتباره واحدا من بين مائة من أكثر المؤلفين الذين جرى الاستشهاد بهم في القرن العشرين في أي حقل معرفي يغطيه "الفهرس". قبل عام ١٩٥٦، لم يكن معروفا على نطاق واسع خارج إطار الحزب، الذي أمضى فيه فترة من حياته امتدت منذ عودته من الحرب ناشطا لامعا ومتحمسا، وخطيبا مفوها في يوركشير. وصفه طلابه "بالرجل الطويل القامة المغرم بالتجوال"، وكانت دروسه متخمة بالطاقة العصبية وهو يشرح بحماس قصائد وليام بليك [١]. ولأن حماسته كانت متجهة بالأساس إلى الأدب لا التاريخ، لم يشارك إلا بشكل هامشي في مجموعة المؤرخين. لكن عام ١٩٥٦ هو الذي حوله إلى مؤرخ. أما شهرته اللاحقة فقد اعتمدت اعتمادا جوهريا على "تكوين الطبقة العاملة الإنكليزية" (١٩٦٣)، وكان الكتاب بمثابة بركان تاريخي متفجر مؤلف من ٨٤٨ صفحة، وحاز من فوره على القبول والاعتراف باعتباره عملا كبيرا حتى من قبل عالم المؤرخين المحترفين، واقتنص القراء الراديكاليين الشباب على جانبي الأطلسي بين عشية وضحاها، إضافة إلى علماء الاجتماع والمؤرخين الاجتماعيين الأوروبيين في القارة بعد مدة قصيرة. كل ذلك بالرغم من الفترة الكرونولوجية الوجيزة

١- انظر مذكراتي عنه في :

Proceedings of the British Academy 90 (1995), pp. 524-5.

والعدائية التي غطاها، والموضوع البحثي المقتصر على إنكلترا - دون أن يشمل حتى بريطانيا. لا بد أن نجاته من قفص التزمت الحزبي القديم قد أتاح له الفرصة أيضا للمشاركة في الجدل الجماعي الدائر مع غيره من المفكرين اليساريين المعزولين حتى ذلك الحين، قدماء ومحدثين، الذين تجذروا في حركة تعليم كبار السن، وأبرزهم الأديب والباحث ريموند وليامز، الشخصية الرئيسية الأخرى في "اليسار الجديد".

في الحقيقة، كان تومبسون يتمتع بمواهب استثنائية، ليس أقلها هالة "النجومية" الواضحة التي لفتت العيون إلى وسامته الأخاذة أينما حل. لقد جمعت "أعماله العاطفة والعقل معا، ووالفت بين مواهب الشاعر، والروائي، والمحلل. فهو المؤرخ الوحيد الذي لم يمتلك النبوغ، والألمعية، والمعرفة، وموهبة الكتابة فقط، ولكن أيضا .. 'العبقرية بالمعنى التقليدي للكلمة'" [1]. وتوضح ذلك أكثر منذ أضاف الصورة الرومانسية للعبقرية إلى المظهر، والحياة، والعمل - خصوصا مع المنظر المناسب للتلال الويلزية في الخلفية.

باختصار، كان تومبسون رجلا "أمطرته" الحكايات الخرافية عند مولده بكافة المواهب الفطرية الممكنة خلا اثنتين: فقد أغفلت الطبيعة تزويده بالبوصلة وبالقدرة على كتابة العناوين وتحرير وتصحيح الأصول. الأمر الذي تركه، مع كل دفئه الإنساني، وسحره، وروح الدعابة لديه، ونوبات الغضب الذي تنتابه، مكشوفا وضعيفا وفاقدا الإحساس بالأمان بطريقة ما. وعلى شاكلة العديد من أعماله، استهل كتابه "تكوين الطبقة العاملة.." بفصل أول يشبه كتابا مدرسيا وجيزا حول تاريخ العمال البريطانيين في الفترة الممتدة بين عامي ١٧٩٠-١٩٤٥، ومن ثم دخل إلى الموضوع مباشرة. وفي خلال بضع سنين، أوقف دراساته المثيرة عن مجتمع القرن الثامن عشر، بعد أن حوله كتابه المذكور بصورة مؤقتة إلى أكاديمي متشدد، وهو أمر لم يكن يناسب أسلوبه، ليخوض صراعا نظريا طويلا ضد تأثير المفكر الفرنسي الماركسي لويس التوسير، الذي شكل مصدر إلهام لبعض من ألمع اليساريين الشباب المعاصرين في ذلك الوقت. في نهاية السبعينات، تحولت كل طاقته إلى حركة مناهضة الأسلحة النووية، حيث أصبح فيها بطلا قوميا. لم يعد أبدا إلى التاريخ إلا بعد أن أقعده المرض العضال عن إكمال مشاريعه. وتوفي عام ١٩٩٣ في حديقته في ورسيسترشير.

---

1 - Ibid., p. 539.

لا يمكن للمرء أن يعيب على الباحث تخليه عن الكتابة لصالح حملة مناهضة الأسلحة النووية في البدايات المبكرة من الثمانينات، لكن صراعه الفكري مع التوسير يفتقد هذا التبرير. قلت له آنذاك إن من الحمق التخلي عن عمله التاريخي الذي يحتمل أن يصنع عهدا جديدا من أجل تفنيد ومجادلة مفكر يمكن أن ينتهي تأثيره بخلال عشر سنين. في الحقيقة كان التوسير يقترب من موعد النهاية في البيئة الماركسية الفرنسية حينذاك. رغم أنه ساعد على فتح جدل نقدي في أوساط اليسار، واستطاع تأثيره البقاء حتى اليوم لا كفيلسوف، بل بفضل مسار حياته الشخصية المأساوي بصورة رئيسية. فقد كان مصابا بالاكتئاب وبمس جنوني دفعاه إلى قتل زوجته. لكن ذلك لم يكن متوقعا آنئذ، رغم أن التعامل مع التوسير في مراحل اهتياجه المرضي كان تجربة مزعجة وقلقة إلى حد ما. فقبل المأساة بقليل أتى إلى لندن، بدعوة رسمية من منتدى عقد في "كوليج يونيفيرسيتي"، وبشكل غير رسمي من أجل حشد الدعم والتأييد لمبادرة ساذجة تتعلق بالغلاف الجوي، وأراد انضمام "الماركسية اليوم" ومشاركتي الشخصية في الحملة. بعثه مضيفه إلينا بعد أن أكرم وفادته طيلة الليل، واعتنت مارلين به في الصباح، حين أصر على شراء بيانو ضخم وإرساله إلى باريس. وعندما استقبله مضيفه التالي، عبر عن رغبته الفورية بشراء سيارة "رولز رويس" (أو ربما "جاكوار") من معرض للسيارات في ماي فير، حيث أصر على زيارته. وبدا واضحا أن عقله الألمعي كان يسرع الخطى باتجاه النهاية المحتومة.

في الحقيقة، عانى تومبسون معاناة مريرة من إخفاق "اليسار الجديد" الذي ظهر إلى حيز الوجود عام ١٩٥٦ . إذ لم يتوقع أحد من جيل الشيوعيين السابقين الكثير من حزب العمال. فالجيل الجديد الشاب من المفكرين والمثقفين، الذي حرص تومبسون بلهف على عدم قطع الصلة معه، كان يتحرك باتجاهات جديدة لم ترق له. فهل امتلك هؤلاء الشباب مثل إحساسه (وإحساس ريموند وليامز) بالقوة المعنوية للطبقة العاملة البريطانية؟ الماركسية الجديدة الملونة بالفكر النظري في القارة لم تكن تعجبه، حيث اكتشف وجود "برجوازية مغثية" و"لاعقلانية" خلف حركة الطلاب الدولية الجديدة. كان في الواقع يقف على هامش التخوم الخارجية للسياسة، الأمر الذي جرح مشاعره. وأعتقد أن ذلك هو أحد الأسباب التي دفعته للانغماس في حركة مناهضة الأسلحة النووية بمثل هذا الحماس.

مع أنني بقيت عضوا في الحزب الشيوعي على العكس من معظم أصدقائي في جماعة المؤرخين، غير أن وضعي، كرجل انقطع حبل أمانه السياسي، لم يختلف عن أوضاعهم اختلافا جوهريا. على أية حال، بقيت علاقاتي معهم كما هي. وطلب مني الحزب أن أقطع صلتي بهم لكنني رفضت. واختار بحكمة عدم طردي من عضويته، لكن ذلك كان خياره هو وليس خياري أنا. إذ إن عضوية الحزب لم تعد تعني بالنسبة لي ما كانت تعنيه منذ عام ١٩٣٣ . في الممارسة العملية، حولت نفسي من ناشط إلى متعاطف، أو بمعنى آخر، تحولت من العضوية الفاعلة في الحزب الشيوعي البريطاني إلى حالة تشبه العضوية الروحية في الحزب الشيوعي الإيطالي، الذي تناسبت تفسيراته وأفكاره بشكل أفضل مع أفكاري عن الشيوعي والشيوعية (وبادلني الحزب الشيوعي الإيطالي نفس الشعور).

في كل الأحوال، لم تعد الأنشطة السياسية الفردية تهم أيا منا. كان لنا تأثيرنا الفاعل كأساتذة، وباحثين، وكتاب سياسيين، أو في أفضل الحالات كـ"مفكرين عموميين"، ولذلك كانت عضويتنا في الحزب أو في أي تنظيم آخر ـ على الأقل في بريطانيا ـ غير ذات صلة، وذلك باستثناء الأشخاص الذين كانت لديهم مشاعر قبْلية قوية تجاه الحزب الشيوعي.

إذا تمكنا من التمتع بالتأثير والنفوذ، أو الحفاظ عليهما في أوساط الشباب اليساري، فإن السبب يرجع إلى ماضينا اليساري وحاضرنا الماركسي، أو إلى التزامنا بالمعرفة الراديكالية. كل ذلك منحنا ما يسمى اليوم بـ"تعاطف وقبول الشارع"، لأننا كتبنا حول الأمور المهمة، ولأن الناس العاديين أحبوا ما نكتب. من وجهة نظر هؤلاء القراء العاديين، شيبا وشبانا، كانت الفوارق السياسية والأيديولوجية بين تومبسون، وريموند، وهوبزبوم، أقل أهمية من كون الثلاثة ينتمون إلى أقلية صغيرة من "الأسماء" (أي من المفكرين والكتاب) التي يشار إليها بالبنان باعتبارها تنتمي إلى اليسار.

مع ذلك يبقى السؤال: لمَ بقيت في الحزب، على عكس العديد من الأصدقاء، وبرغم الخلاف في الرأي معه؟ لقد بقيت في الحزب. وتوجب علي بمرور السنين الإجابة عن هذا السؤال مرارا وتكرارا. فما من صحفي أجرى لقاء معي إلا وطرحه علي، لأن أسرع طريقة لتحديد الهوية الشخصية في مجتمعنا الخاضع لهيمنة وسائل الإعلام هي

تميزه بخصيصة أو اثنتين: أستاذ جامعي أحب موسيقى الجاز وبقي في الحزب الشيوعي فترة أطول من الآخرين. أعطيت في الجوهر نفس الجواب دائما مع إضافة تنويع على طوله [1]. ومثلت الإجابة على الدوام ذريعتي التبريرية في العقود التالية لبقائي في الحزب، وإن لم تبين في الواقع حقيقة شعوري آنذاك. فمن المستحيل إعادة صياغة وتركيب تلك المشاعر الآن، بالرغم من أني نفرت بشدة، حينذاك وفيما بعد، من فكرة أن أكون بصحبة أولئك الشيوعيين السابقين الذين تحولوا إلى متشددين في معاداتهم للشيوعية، لأنهم تمكنوا من تحرير أنفسهم من ربقة "الإله الذي أخفق" عبر تحويله إلى شيطان رجيم. وفي الواقع، كان العديد منهم حولي في حقبة الحرب الباردة.

عندما أستعيد أحداث الماضي، كمؤرخ لا ككاتب سيرة ذاتية، وأرى الشخص الذي كنته عام ١٩٥٦، أعتقد بوجود عاملين اثنين يفسران سبب بقائي في الحزب، رغم أنني، كما هو واضح، قد فكرت بتركه. لم أعتنق الشيوعية بوصفي شابا بريطانيا عاش في بريطانيا، بل فتى من وسط أوروبا نشأ في جمهورية فايمار وهي في طور الانهيار. لقد اعتنقتها حين كان الشيوعي لا يستهدف محاربة الفاشية بل النضال من أجل الثورة العالمية. ما زلت أنتمي إلى نهاية جيل الرعيل الأول من الشيوعيين، الذين جسدت ثورة أكتوبر بالنسبة لهم النقطة المرجعية المركزية في العالم السياسي.

الفارق في الخلفية (الجغرافية، الاجتماعية، الاقتصادية..)، وفي تاريخ الحياة الشخصية، فارق حقيقي. وكان هذا واضحا بالنسبة لي ولغيري حتى داخل الحزب. ولن يصبح مفكر ترعرع في بريطانيا شيوعيا بنفس المعنى الذي يصبح فيه شيوعيا من تربى في وسط أوروبا، بعد أن خبر:

اليوم الذي هوت فيه السماء
والساعة التي زلزلت فيها أركان الأرض

لأن ما حدث هناك في الثلاثينات لم تشهد بريطانيا له مثيلا، برغم جميع مشكلاتها. لكن بطريقة ما، فإن من الأمور التي لها أهميتها الدلالية أن تصبح

١ - يمكن العثور على نسخة في كتابي (مع انتونيو بوليتو):
The New Century (London, 2000), pp. 158-61.

شيوعيا قبل عام ١٩٣٥ . على الصعيد السياسي، أنا أنتمي إلى حقبة مناهضة الفاشية، والجبهة الشعبية، لأنني انضممت فعلا إلى الحزب عام ١٩٣٦ . واستمر ذلك في تحديد تفكيري الاستراتيجي بالسياسة حتى اليوم. لكن على الصعيد الوجداني/ العاطفي، وباعتباري اعتنقت الشيوعية حين كنت مراهقا في برلين عام ١٩٣٢، أنا أنتمي إلى الجيل المرتبط بحبل سري لا ينقطع تقريبا مع الأمل بالثورة العالمية، وموئلها الأصيل ثورة أكتوبر، بغض النظر عن مدى شكوكي وانتقاداتي للاتحاد السوفييتي. ولذلك كان من الأصعب علي، كشخص انضم إلى الحركة الشيوعية في المكان الذي أتيت منه، والزمان الذي عشت فيه، الخروج من الحزب، مقارنة بأولئك الذين أتوا من مكان آخر وعاشوا في زمان لاحق. في التحليل النهائي، أظن أن ذلك هو السبب الذي جعلني أسمح لنفسي بالبقاء في الحزب. لم يجبرني أحد على الخروج منه، ولم تكن الأسباب الدافعة لذلك قوية بما يكفي.

لكن، وهنا أتحدث ككاتب سيرة ذاتية لا كمؤرخ، دعونا لا ننسى العوامل الذاتية: الكبرياء والاعتداد بالنفس. إن التخلص من عضوية الحزب كان سيضاعف الإمكانيات المتاحة أمام حياتي المهنية، خصوصا في الولايات المتحدة. كان من السهل علي التسلل خارج الحزب بهدوء. لكنني أردت أن أثبت ذاتي لذاتي عبر تحقيق النجاح وأنا شيوعي معروف - مهما عنى هذا "النجاح" - بالرغم من تلك العقبة المعيقة، وفي خضم الحرب الباردة. أنا هنا لا أدافع عن هذا النمط من الأنوية، لكنني لا أستطيع إنكار قوته المؤثرة. لذلك بقيت.

-١٣-
الحد الفاصل

بعض اللحظات في التاريخ - كاندلاع الحربين العالميتين - تعتبر كارثية بكل المعايير، مثلها مثل تفجر البراكين والزلازل. وثمة لحظات مشابهة في حياة المرء الخاصة، أو على أية حال، خبرت في حياتي لحظات كهذه، كما أظهرت الفصول السابقة. لكن إن أردنا استخدام الاستعارات التشبيهية الجيولوجية، نجد أن هناك لحظات أخرى يمكن مقارنتها بالحدود الفاصلة. لا يبدو أن شيئا واضحا أو دراميا يحدث، لكن بعد أن تعبر مساحة صغيرة من الأرض لا يمكن وصفها لولا ذلك، تلاحظ أنك خلفت وراءك فترة هامة من التاريخ، أو من حياتك الخاصة. السنوات القليلة التي سبقت وتلت عام ١٩٦٠ - أي بداية ومنتصف العقد الخامس من عمري - شكلت مثل هذا الحد الفاصل في حياتي، وربما في التاريخ الاجتماعي والثقافي للعالم الغربي أيضا، وبالتأكيد في بريطانيا [١]. ويبدو أن هذه هي اللحظة المناسبة لأقطع مسيرة العمر الطويلة عبر القرن العشرين "القصير" من أجل وقفة أعاين فيها المشهد.

تشكل سنوات النصف الثاني من عقد الخمسينات فترة انتقالية غريبة في حياتي. فبعد نهاية زمالتي في كلية كينغ، انتقلت للإقامة في قاعدة دائمة اتخذتها في بلومزبري، كانت عبارة عن شقة سكنية واسعة، معتمة في جزء منها، تغص بالكتب والاسطوانات، وتطل على ميدان تورينغتون. بقيت حتى زواجي عام ١٩٦٢، أشارك الإقامة في الشقة عددا من الأصدقاء الشيوعيين أو أعضاء الحزب السابقين على التوالي: لويس ماركس، وهنري كولينز من "جماعة المؤرخين"، الناقد الأدبي الماركسي

1 - Tony Gould, Insider Outsider: The Life and Times of Colin MacInnes (London, 1983), p. 183.

العجوز اليك ويست، واللاجئ الإسباني فينسنت غيرياو. ونظرا لرحابتها ووقوعها في مركز المدينة، فقد اجتذبت أيضا الزوار القادمين من الضواحي والأطراف للمبيت ليلة وإنهاء ما لديهم من أعمال وارتباطات. العيش في تلك الشقة كان أكثر بهجة من الإقامة في كامبريدج، رغم أنني أمضيت فيها أسوأ فترات الأزمة الشيوعية واقتلاع الجذور السياسية. تمتعت الشقة بميزة إضافية تمثلت في قربها من بيركبيك، بحيث أمكنني العودة إلى المنزل بين المحاضرات إذا دعت الضرورة. كانت لندن مكانا جيدا للإقامة آنذاك. ذلك هو المستقر الذي سكنته خلال سنوات الحد الفاصل.

من الواضح تماما أن حياتي الشخصية والمهنية قد تغيرت في تلك السنين. التقيت بفتاة من فيينا، كانت غارقة في معترك السياسة الدولية حتى الأذنين. أغرمنا ببعضنا البعض. كانت قد عادت لتوها من الكونغو بعد محاولة الأمم المتحدة الفاشلة للتدخل هناك، وكنت على وشك السفر إلى هافانا كاسترو. تزوجنا أنا ومارلين خلال أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢، أي بعد ثلاث سنوات من نشر كتابي الأول، وقبل بضعة أسابيع من نشر الثاني، "عصر الثورة، ١٧٨٩-١٨٤٨". من الناحية المهنية، بدأت أكتسب بعض الشهرة على المستوى الدولي، وأسافر خارج نطاق البلاد التي اعتدت زيارتها: فرنسا، شبه الجزيرة الايبيرية، إيطاليا. بدأت رحلاتي الأكاديمية في الستينات بزيارة إلى الولايات المتحدة وكوبا. اكتشفت أمريكا اللاتينية، ووجدت نفسي أيضا في إسرائيل والهند، كما عدت إلى وسط أوروبا التي لم أرها منذ كنت طفلا. أكثر من ذلك، بدأت ملاحظة أنني لم أعد أعيش في حالة من الترقب المستمر للكارثة الزلزالية الوشيكة كما كان حال سكان وسط أوروبا أيام شبابي. ولاحظت أيضا - لا أتذكر متى بالضبط - أنني أعمل في إطار زمني يمتد عقودا، لا سنوات أو شهورا كحالي قبل عام ١٩٤٥ . لم أتعمد التخلي عن الاحتياطات الأساسية الضرورية تحسبا لاحتمال أن أصبح لاجئا، والتي تعلم الناس من أمثالي - بغض النظر عما إذا كانوا من اليهود أو الحمر - اتباعها في مواجهة الأخطار المفاجئة للحياة الاقتصادية والسياسية في فترة ما بين الحربين: جواز سفر جاهز، ما يكفي من المال لشراء تذكرة السفر إلى بلد اللجوء المختار عندما تدعو الحاجة فورا، أسلوب حياتي يسمح بالرحيل السريع ودون إبطاء، فكرة تقريبية عن الأغراض والأمتعة التي يتوجب اصطحابها إذا ما اضطر المرء

للفرار. في الواقع، حين اضطررت للسفر بعيد زواجي من مارلين، في خضم أزمة الصواريخ الكوبية (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٢)، تصرفت تبعا لهذه الإجراءات الاحترازية. إذ قمت بعمل بعض الترتيبات المالية الضرورية، وحددت موعدا مؤقتا للالتقاء بمارلين في بيونيس ايرس، حيث سأصل هناك في بحر أسبوع أو اثنين، في حالة تفاقم الأمور بصورة حادة، وتركت لها ما يكفي من المال لتغطية أجرة السفر بالطائرة. لكن بالرغم من أن أزمة الصواريخ الكوبية كانت مسألة حياة أو موت بالنسبة للعالم برمته كما بدا واضحا، إلا أنني لم أتوقع اندلاع حرب عالمية نووية بالفعل. ولو توقعت ذلك لكان من المنطقي أن آخذ مارلين معي على الفور، كي نبتعد عن خط النار المباشر على أقل تقدير. وإذا ما ساءت الأمور أكثر، فإن أمريكا الجنوبية تظل أقل المناطق احتمالا للتحول إلى ساحة حرب. وجدت نفسي قبل ذلك أتصرف تبعا لافتراض أن الخطر الداهم الذي يتهدد العالم ليس مصدره المطامح العدوانية للاتحاد السوفيتي بالسيطرة على العالم (كان أضعف من أن يطمح بذلك)، ولكنه الخطر الكامن في دخول السياسيين والجنرالات العسكريين في لعبة بولينغ بالأسلحة النووية. صحيح أنهم يعلمون تمام العلم بأنها ستكون بمثابة انتحار جماعي لنا ـ لكن الأمور قد تخرج فجأة عن نطاق السيطرة. في الحقيقة، نعرف الآن بأن ذلك بالضبط هو الدرس الذي استخلصه كينيدي وخروشوف (وكلاهما لم يكن راغبا بالحرب) من أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢ . باختصار، وفيما يتعلق بي شخصيا، لم تنته الحرب الباردة بعد عام ١٩٦٠، لكنها أصبحت أقل احتمالا وخطرا بصورة دراماتيكية.

لا يمكن لكل من يبدأ الحياة الزوجية تجاهل أمر التخطيط على المدى البعيد، حتى لو أراد. لقد أجبرت على التفكير بالمشكلة منذ سنتين، إذ كان لي طفل على وشك الولادة كنت أنجبته من علاقة سابقة (جوشوا، شقيق ولدي من أبيهما)، لكن رفض والدته ترك زوجها هو الذي حال بينه وبين العيش معي. بحلول منتصف الستينات أنجبت من مارلين اندي وجوليا، وامتلكت لأول مرة سيارة صغيرة كنت أستخدمها لنقلهما إلى كوخ ابتعته لقضاء العطلات في شمال ويلز، وأصبحت للمرة الأولى أيضا مالكا لبيت واسع الأرجاء (في ذلك الجزء من كالفام الذي لم تسكن الطبقة الراقية بعد كل أنحائه). كان المنزل مقسوما إلى قسمين، اشتريته أنا ومارلين بالاشتراك مع الان ستيليتو وزوجته الشاعرة روث فينلايت.

سأل بائع الصحف في الحي زوجتي مارلين: "هل ربح ورقة يانصيب؟"، لأنه لم يكن يفهم في تلك الأيام التي كان فيها الدوام في الوظائف كاملا، كيف لا يذهب رجل محترم لا يشكو من أي مرض إلى العمل في الصباح ويعود منه في المساء مثل غيره من الرجال. ومع أن الان كان مدمنا على العمل كحال معظم الكتاب، إلا أن تخمين بائع الصحف لم يكن في غير محله تماما: فقد كتب "ليلة السبت وصبيحة الأحد"، و"وحدة عداء المسافات الطويلة"، اللذين أصبحا بفضل مزاياهما وجدارتهما، إضافة إلى التوسع الهائل في مرحلة التعليم الثانوي، اثنين من الأعمال الكلاسيكية المعاصرة، وخصصا للامتحانين التمهيدي والمتقدم لدخول الجامعات البريطانية، كما شاع كل منها على أوسع نطاق في المدارس الثانوية. كان بمقدور الان أن يعيش اعتمادا على بيع كتبه، وتجنب روتين الكتابة في الصحف. أما أنا، وبالرغم من أنني كنت أكتب في البيت، إلا أن حياتي كانت مطابقة للنمط السائد، حيث أذهب للعمل في بيركبيك وأعود من هناك في وقت متأخر من النهار. من ناحية أخرى، بقيت شاذا نوعا ما عن المألوف، إذ لم أظهر حماسة كبيرة للاهتمام بالحديقة، ولم أكن أمضي صباح كل أحد في غسيل سيارتنا، كما كان يفعل الكهربائيون وعمال المواصلات من ذوي الأصول الكاريبية الذي كانوا يقطنون الشارع القصير المؤدي إلى شارع واندزورث خارج باب منزلنا.

بدا واضحا أنني كنت أسير قدما على درب الحياة الأكاديمية المحترمة لأستاذ جامعي من الطبقة الوسطى. في هذه المرحلة، وفيما عدا الرحلات التي قمت بها، لم يعد يحدث الكثير في حياتي لأضيفه إلى السيرة الذاتية، وذلك باستثناء الأفكار التي تملأ رأسي ورؤوس الآخرين. وهذا أمر يصدق أيضا على العديد من السير الذاتية، كما وأن أجيالا من الكتاب الذين تناولوا حياة المفكرين والعلماء عرفوا هذه الحقيقة المريرة. فبرغم كل المنجزات التي حققها تشارلز داروين مثلا، إلا أنه حالما عاد من رحلة "البيغل" وتزوج، لم يعد هناك الكثير مما يقال عن الأحداث المادية المهمة طيلة الأربعين سنة الأخيرة من حياته، أكثر من أنه "أمضى وقته في كنت كسيد ريفي نبيل" [1]، متفكرا في الأسباب الكامنة وراء اعتلال صحته. إن حياة الأكاديمي الذي يتمتع

1 - Chambers Biographical Dictionary (1974 edn), art.: Darwin.

بالمكانة والاحترام ليست متخمة بالأحداث المهنية الدرامية، أو أن هذه الأحداث الدرامية، كما هو الأمر بالنسبة لحياة السياسيين القابعين في السلطة، لا تهم سوى المرتبطين بهم ارتباطا مباشرا. مرة أخرى أقول إنه بالرغم من العديد من الأحداث الدرامية في حياتي العائلية، خصوصا حين يواجه الأبوان أولادهما المراهقين، إلا أن "الطرف الثالث"، أي قراء السيرة الذاتية يكونون في العادة أقل تأثرا بدراما الحياة داخل عائلات الآخرين مقارنة بتلك التي تحدث في حياتهم هم. السيناريو مألوف وشائع. وهكذا، لم تشكل السنوات القليلة التي سبقت وتلت عام ١٩٦٠ حدا فاصلا في حياتي الشخصية فقط، بل في صيغة وشكل هذه السيرة الذاتية.

لكن الحياة الخاصة هي جزء لا يتجزأ من الظروف التاريخية الأوسع، التي تمثل أقواها وأشدها تأثيرا في تحسن المصائر والأحوال والأوضاع العالمية بشكل غير متوقع. لقد فاجئ كل ذلك أفراد جيلي، خصوصا الاشتراكيين الذين لم يكونوا على استعداد للترحيب بمقدم حقبة من النجاح الرأسمالي المشهود. وبحلول أوائل الستينات، غدا من الصعب عدم ملاحظة هذه النجاح. لا أستطيع القول إننا أدركنا الحقبة باعتبارها تشابه ما دعوته في كتابي "عصر النهايات القصوى" بـ"العصر الذهبي". لأن ذلك لم يصبح أمرا ممكنا إلا بعد نهايتها عام ١٩٧٣ . فالمؤرخون، كغيرهم، يتفوقون في الحكمة واكتشاف التسميات بعد الحدث. لكن في أوائل الستينات، أصبح من الواضح لأفراد جيلي في بريطانيا، أي أولئك الناس العاديين الذين خرجوا من الحرب وهم في العقد الثالث من العمر، بأننا نعيش في ظروف أفضل بكثير من توقعاتنا في الثلاثينات. وإذا كنا ننتمي إلى الشريحة الاجتماعية التي ينتظر رجالها أن تكون لديهم "مهنة" لا مجرد "وظيفة" يذهبون إليها (في ذلك الوقت، لم يكن هذا يمثل لعبة تمارسها النساء على نطاق واسع)، فقد اكتشفنا بأننا نبلي بلاء حسنا، وأحيانا ممتازا، مقارنة بحال آبائنا، خصوصا إذا نجحنا في امتحانات أكثر عددا من امتحاناتهم. لكن ذلك لا ينطبق على فئتين اجتماعيتين من جيلنا: أولئك الذين بلغت حياتهم المهنية ذروتها خلال الحرب، ولذلك فهم ينظرون إلى الماضي بحنين جارف من الموقع المنخفض نسبيا الذي احتلته حياتهم المدنية في فترة ما بعد الحرب، وأفراد الشريحة الاجتماعية العليا الرسمية، الذين تمتع آباؤهم، كمجموعة، بقدر من الثروة، أو المزايا، أو السلطة، أو

التميز المهني، يعادل ما انتظر أبناؤهم أن يرثوه أو يحققوه. في الواقع، ربما رأوا أنفسهم مثل المتسابقين الذين لا يحالفهم النصر، إن اقتحموا ذات الميادين التي حقق فيها آباؤهم نجاحات استثنائية ـ السياسة، العلم، المهن القديمة، أو سواها. من ذا الذي لم يشعر بالأسف تجاه الابن الذي هيمن ظل والده السياسي على حياته كلها (وينستون وراندولف تشرشل أبلغ مثال على ذلك)، أو إزاء أبناء العلماء الذين فازوا بجائزة نوبل؟ لقد عرفت شخصيا بعضهم، مثل أي أكاديمي متخرج من كامبريدج.

لكن بالنسبة لمعظمنا، كانت الحياة في فترة ما بعد الحرب تشبه مصعدا يرتقي بنا إلى ذرى لم نكن نتوقعها، ودون أن نبذل جهدا خارقا لبلوغها. وحتى أولئك الذين أعاقت الحرب الباردة تقدمهم المهني على نحو غير عادي (مثلي أنا)، استطاعوا المضي قدما في حياتهم. بالطبع كان ذلك يعود ـ جزئيا ـ إلى "حظي" التاريخي السعيد الذي جعلني أدخل المهنة الأكاديمية في زمن كانت فيه محدودة الحجم، ورفيعة المكانة، وجزيلة الأجر تبعا للمعايير التي وضعها المصلحون من الأحرار، والفابيين، وأتباع جيريمي بينثام، للخدمة المدنية في الحقبتين الفيكتورية والادواردية. فعلى الرغم من أن أساتذة الجامعات في بريطانيا ليسوا تابعين للدولة، وذلك على العكس من حالهم في الدول الأوروبية الأخرى، إلا أنهم ظلوا تحت جناح الحكومة، التي وفرت التمويل للخطط الخمسية للجامعات، وإن بقيت هذه مستقلة عنها. وطالما بقيت المهنة محدودة الحجم، وظلت أيديولوجيا السوق الحر في وضع حرج، كان راتب المحاضر الجامعي الناجح، مثل مكانته المحترمة، يبقيه في المعدل الوسطي في مستوى يعادل الإداري الناجح: أي لا يتجاوز ثراؤه أحلام الجشع، بل يكفيه للعيش حياة محترمة تماثل حياة الطبقة الوسطى. الأسعار ما تزال معتدلة، على الأقل بالنسبة لأولئك الذين امتلكوا أفكارا تقدمية وأرادوا إرسال أبنائهم إلى المدارس الحكومية، ولم يروا حتى ذلك الوقت سببا يدعوهم لعدم القيام بذلك. وبصورة نسبية، أفادت دولة الرعاية الاجتماعية الطبقة الوسطى أكثر من الطبقة العاملة. كانت تلك هي الأيام التي رفض فيها أشخاص مثلي الاستفادة من الضمان الصحي، لأسباب تتعلق غالبا بالمبدأ ـ ولا تتصل بالتجربة العملية المريرة مع "خدمة الصحة الوطنية". أسعار البيوت ظلت في متناول الناس العاديين حتى بداية السبعينات حين ارتفعت بسرعة الصاروخ، والارتفاع في

قيمتها منحنا مكاسب إضافية. لكن قبل أن يحدث ذلك، كان بالإمكان شراء منزل وامتلاكه في هامستيد بأقل من عشرين ألف جنيه، أو شراؤه بسبعة آلاف جنيه إذا حققت صفقة البيت القديم بعض الأرباح. لا شك بأن من كان متزوجا من الأساتذة ولديه أطفال صغار قد شهد بعض السنوات الصعبة، كافح خلالها للحصول على دخل إضافي. لكن بالنسبة لأستاذ جامعي ليس لديه أطفال في البداية (مثلي)، ووصل إلى نصف سلم الترقي الوظيفي في الجامعة، وتزوج ثانية وهو في العقد الخامس، فإنه لم يصادف مشاكل حقيقية في إعالة أسرته. لا أتذكر في الواقع أن رصيدي المصرفي نفذ ولو لمرة واحدة. وحتى لو صادفت أحيانا بعض المشكلات المالية إلا أنني تخلصت منها في نهاية المطاف عن طريق زيادة دخلي من مبيعات الكتب وغيرها من الأنشطة الأدبية الأخرى، وإن لم يشكل ذلك آنئذ (حوالي عام ١٩٦٠) سوى إضافات هامشية جدا إلى المدخول.

يمكن لأفراد جيلي الذين وصلوا إلى سن البلوغ قبل الحرب، أن يقارنوا حياتهم بعدها مع حياة الآباء، أو مع توقعاتهم الشخصية قبلها. لم يكن من السهل عليهم أن يروا، خصوصا عند مواجهة القواعد الثابتة لتربية الأطفال ورعاية الأسرة، أن أوضاعهم في "مجتمع الوفرة" الجديد في الغرب تختلف في النوعية كما الدرجة عن حالها في الماضي. فبرغم كل شيء، لم تتغير الأعباء المنزلية الدائمة تغيرا جوهريا، لكنها غدت أسهل وأيسر نتيجة الاختراعات التكنولوجية الحديثة. إذ حالما يتم الزواج، ويكسب الزوجان رزقهما، وينجبان الأبناء ويقومان برعايتهم، إضافة إلى الاعتناء بالمنزل والحديقة، يصبح الغسيل والتنظيف والجلي - كعهدها أبدا - أعباء منزلية تملأ الوقت وتشغل الفكر. وحدهم الشبان القادرون على الحركة والمتحررون من أعباء الزواج، استطاعوا إدراك/ والاستفادة من كافة الاحتمالات المتاحة في مجتمع تمكن للمرة الأولى من إعطائهم ما يكفي من المال لشراء ما يرغبون، وما يكفي من الوقت لفعل ما يشتهون، كما جعلهم مستقلين عن الأسرة بطرائق أخرى. "الشباب" هو اسم المقوِّم السري الذي استطاع تثوير المجتمع الاستهلاكي والثقافة الغربية. توضح ذلك بصورة دراماتيكية في انتشار موسيقى "الروك اند رول"، التي تعتمد حصريا على زبائن في سن المراهقة، أو في بداية العشرينات من العمر، أو أولئك الذين تحولوا إلى هذه

الموسيقى وهم في تلك السن. لقد ارتفعت مبيعات الاسطوانات في الولايات المتحدة من ٢٢٧ مليون دولار عام ١٩٥٥، وهي السنة التي شهدت ولادة موسيقى "الروك"، إلى أكثر من ملياري دولار عام ١٩٧٣، مثلت فيها موسيقى "الروك" وغيرها من الأنواع المشابهة نسبة تراوحت بين ٧٥-٨٠٪.

أنا لا أنتمي بالتأكيد إلى جيل موسيقى "الروك". لكن أسعفني الحظ بما يكفي لأعيش عصرها وأشهد مولد ذلك الجيل في بريطانيا. إذ إن هناك نمطا من موسيقى "الجاز" في هذه البلاد شكل جسرا واصلا بين الأنواع القديمة من موسيقى الشباب الشعبية (البوب)، وبين "ثورة الروك". فبدءا من عام ١٩٥٥، حين انتهت زمالتي في كلية كينغ، وعدت لأقيم بصورة دائمة في لندن، حدث أنني وجدت نفسي متورطا - كناقد محترف - في أمور "الجاز". ونظرا لاضطراري لدفع أجرة البيت في لندن الآن، بعد أن سكنت مجانا في كامبريدج، فكرت بطريقة أكسب فيها بعض المال الإضافي لزيادة دخلي. في تلك الآونة، بدأت المؤسسة الثقافية اللندنية، وقد أذهلها تحدي ما كان يدعى بـ"شباب الغضب" الذين ظهروا في الخمسينات، تفكر بأن من المستحسن الاهتمام بموسيقى "الجاز"، بعد أن أظهروا حماستهم لها وتعلقهم بها. "الأوبزرفر" على سبيل المثال لا الحصر، وظفت كنغسلي اميس، كناقد متخصص في موسيقى "الجاز". كان اميس يجتاز مرحلة الشباب اليساري إلى طور الكهولة المحافظة، لكن ما يزال بعيدا تماما عن لعب دور الرجعي المعادي للنادي/ الحانة الذي تبناه فيما بعد. منذ أوائل الثلاثينات، شعرت دوما بدونية تجاه خبراء "الجاز" المتخصصين من ذوي المعرفة الواسعة، وعرفت تماما أنني أفتقد المؤهلات الضرورية لأكون واحدا منهم، لكن بدا لي أن معلوماتي حول الموضوع تعادل على الأقل معلومات اميس، وإن كنت أتفوق عليه بخبرتي الطويلة. لذلك اقترحت على نورمان مكنزي، وهو رفيق قديم من أيام "مدرسة لندن للاقتصاد"، أن المجلة التي كان يعمل بها آنئذ، "نيوستيتمن اند نيشن" (New Statesman and Nation)، بحاجة هي أيضا إلى ناقد متخصص بموسيقى "الجاز". كانت المجلة تعيش أيام مجدها برئاسة محررها العظيم كينغزلي مارتين، الذي لم يكن يعرف ولا يهتم بـ"الجاز"، لكنه اقتنع بضرورة مسايرة هذه "الموضة" الثقافية الجديدة، عبر عمود شهري على الأقل. قال إن علي عند الكتابة في المجلة أن أضع نصب عيني

قارئها النمطي النموذجي، المتمثل في الرجل (الذكر) العامل في الخدمة المدنية، الذي بلغ العقد الخامس من العمر. ثم حولني إلى جانيت آدم سميث، مديرة القسم الثقافي، ذات الشخصية المثيرة للإعجاب حقا، التي كانت تعرف كل شيء تقريبا عن الأدب وتسلق الجبال، والكثير من المعلومات عن بقية الفنون الأخرى، لكن تجهل كل شيء عن "الجاز". ولأنني أردت الحفاظ على شخصيتي الأستاذ الجامعي والناقد الموسيقي منفصلتين، كتبت مقالاتي خلال السنوات العشر التالية أو نحوها تحت اسم مستعار هو فرانسيس نيوتن، نسبة إلى فرانكي نيوتن، أحد عازفي "الجاز" الشيوعيين القلائل كما كان يشاع.

"الجاز" ليس مجرد "نوع معين من الموسيقى"، بل هو "ملمح مدهش من ملامح المجتمع الذي نعيش فيه" [1]، بدون ذكر الجزء المتعلق بالصناعة الترفيهية. علاوة على ذلك، لا يوجد نسبيا سوى قلة من قراء المجلة الذين يرجح أن يذهبوا لحضور حفلات "الجاز"، أو أن يشتروا اسطوانات عازفيها المشهورين، رغم أنني اكتشفت، لسعادتي الغامرة، أن النصف الثاني من الخمسينات كان عصرا ذهبيا جديدا للموسيقى، حين بدأ نجومها الأمريكيون يأتون إلى بريطانيا بعد أن منعوا من دخولها لمدة عشرين عاما بسبب نزاع نقابي. لذلك لم أكتب كناقد فني يراجع الحفلات والأسطوانات والكتب، بل كمؤرخ وصحفي. أكثر من ذلك، سرعان ما وجدت نفسي على اتصال (عن طريق ابن عمي دينيس) مع "مكغيبون اند كي"، وهي دار نشر صغيرة لكن بارزة ثقافيا، كان يمولها مليونير متقلب المزاج ومؤيد لحزب العمال، هو هوارد صمويل. كانت الدار قد نشرت كتبا لقائد فرقة الجاز الوحيدة - على الأرجح - في بريطانيا، همفري ليتلتون، وللمستكشف الاجتماعي لمدينة لندن في الخمسينات، الكاتب الصعب والمنعزل والمسكون بالأفكار المزعجة، كولين مكينيس، الخبير في/ والمرشد إلى لندن السوداء الجديدة، وبدايات ثقافة المراهقين المتشربة بالموسيقى. أرادت الدار مني تأليف كتاب حول "الجاز". ظهر الكتاب الذي حمل عنوان "مشهد الجاز" عام ١٩٥٩، في نفس السنة الذي نشرت فيها كتابي الأول عن التاريخ، وحاز على قبول النقاد والقراء لكنه لم يغل الكثير من المال [2]. شجعني ذلك على استكشاف المشهد بطريقة أكثر منهجية. ولم يكن الأمر صعبا، لأن عددا من محبي موسيقى "الجاز" في أوائل الثلاثينات قد

---

1 - Francis Newton, The Jazz Scene (London, 1959), Introduction, p. 1.

٢- نشر في الولايات المتحدة عام ١٩٦٠ بواسطة دار نشر يسارية صغيرة، وأعيد نشره في طبعة معدلة بواسطة دار "بنغوين" عام ١٩٦١، ثم ترجم إلى الفرنسية من أجل سلسلة حررها فيرنان بروديل، وإلى الإيطالية، والتشيكية.

دخلوا عالم تجارة الموسيقى كوكلاء أو مروجين، ومنهم ابن عمي دينيس الذي كان يرسخ نفسه كرائد من رواد منتجي الاسطوانات في بريطانيا في ميدان موسيقى "الجاز" المحلية، وموسيقى الشعوب. في الحقيقة، ارتفعت أسهمه وحظوظه مع أولئك الفنانين الذين سجل أغنياتهم، مثل لوني دونيغان، الذي اكتسحت إحدى أغانيه السوق في ربيع عام ١٩٥٦ . لحسن الحظ، كنت في ذلك الوقت غير متزوج، كما أن الدروس المسائية في الجامعة لم تكن تبدأ قبل السادسة، الأمر الذي جعلني قادرا على مواكبة إيقاع حياة الساهرين الذين يشكلون غالبية المشهد الترفيهي في المدينة. كذلك كنت أسكن في بلومزبري، على بعد عشر دقائق من مسارح الويست اند. وهكذا وجدت نفسي ألعب دون صعوبة تذكر دوري المعهود، دور "المراقب المشارك".

لم يكن عشاق موسيقى "الجاز" من المراهقين على الإطلاق. لكن الصور الوصفية التي قدمتها لمحبي "الجاز"، والصور الفوتوغرافية في الطبعة الأولى من كتابي "مشهد الجاز"، تظهر بكل وضوح أن جمهور هذه الموسيقى يتكون في الجوهر من الأطفال كبار السن نوعا ما. فتوجهاتهم الفنية كانت جزءا لا يتجزأ من ثقافة الشباب التي غدت آنئذ واضحة للعيان بما يكفي ليراها كل من يطوف منا على تخومها الخارجية لأي سبب كان، ويعترف بوجودها. لكن لم يقدر على التقاط موجتها سوى شخص مثل كولين مكينيس، الذي جمعته ألفة خاصة ورابطة شخصية مع تمرد المراهقين ونزعتهم الاستقلالية. وبغض النظر عن الاسترخاء والانفلات المميزين للتقاليد الجنسية الأنثوية اللصيقة بالموسيقيين والمغنين، إلا أنها لم تتزاوج بعد مع الثقافة المضادة. ذلك لن يحدث، على الأقل في بريطانيا، إلا مع بداية الستينات.

كثير من الملامح الرامزة إلى ثقافة الشباب المضادة في الستينات سوف تتم استعارتها وتبنيها من مشهد "الجاز" القديم - أبرزها تعاطي المخدرات، وظهور أنماط الحياة التي وصفتها ذات مرة باعتبار أنها تمثل "مجتمعا محليا عائما ومترحلا من الموسيقيين السود]والبيض[، يعيشون على جزر صغيرة مستقلة ومكتفية ذاتيا من المغنين والفنانين وغيرهم من أهل الليل والسهر"، أما أمكنتها فهي تلك التي يتخلص فيها "أهل النهار والعمل" من الكوابح والنواهي بعد حلول الظلام. لم تمثل هذه بالضرورة الثقافة المضادة بالمعنى الذي اتخذته لاحقا، لأن موسيقيي "الجاز" تساهلوا

إلى درجة لا حدود لها تقريبا تجاه أي تنويع على السلوك الإنساني، لكنهم لم يظهروا ذلك في العلن. أما أقرب الأشياء إلى الثقافة المضادة في مشهد "الجاز" فيمكن العثور عليها على أطرافه وتخومه، وبين معجبيه الطفيليين أو الخارجيين، إضافة إلى عشيقات وخليلات الموسيقيين اللاتي كان باستطاعتهن جني بضع مئات من الجنيهات في الشارع ـ وهو مبلغ جيد في الخمسينات ـ لقضاء عطلة سريعة في حانة "موروكو"، وسط الرافضين عن وعي وقصد لأعراف الطبقة الوسطى التقليدية، أو بين البرجوازيين الكهول الذي يؤكدون على مكانتهم من خلال جلسات الشراب الماجنة في نادي موريبل بيلشر في السوهو. لا يعني ذلك أن جمهور موريبل، المؤلف في غالبيته الساحقة من ذوي الميول الجنسية المثلية، كان مقتصرا على محبي "الجاز"، رغم أن أحد النقاد المعجبين بكتابي "مشهد الجاز" قد أخذني إلى تلك الحانة الرديئة، لالتقي هناك بكولين مكينيس (الذي يمتدح "الجاز" لكن لا يفهمه)، وجورج ميللي (الذي يغنيه ويفهمه). كان ميللي جزءا من حاشية مشهد "الجاز" البريطاني المكون من اللاجئين من الطبقة الوسطى المحترمة، أو من الأشخاص الذين جمعوا موسيقاهم مع أنشطتهم في عالم الكلمة والصورة. كان معروفا في أوساط جماهير المعجبين باعتباره مغنيا يحاكي مغني "البلوز"، ويقلد عروض مسرح المنوعات، مثلما اشتهر والي فوكيز كعازف على الكلارينيت. ذاع صيت الاثنين نتيجة إبداعهما المشترك لسلسة من الصور المتحركة التي سخرت بلطف من أقطاب عالم وسائل الإعلام الذي لم يكن محددا ومعروفا بعد.

التغير الثالث الذي يمكن تمييزه بسهولة أكبر بعد عام ١٩٥٦هو التغير في المزاج السياسي أو الأيديولوجي. وبإمكاني الآن اكتشاف حقيقة أن العامل الجديد الذي أحدثه هو نهاية عصر الإمبراطوريات، لكنه لم يتضح في بريطانيا حتى بداية الستينات.

ظلت الحرب الباردة مستمرة، لكن التزام الرأي العام، خارج الأوساط الحكومية الغربية، بمناهضة الشيوعية عاطفيا ووجدانيا، بدأ بالتدهور والاضمحلال. ومهما تعرضت الحرب الباردة للإدانة، إلا أنه لم يعد من المتوقع أن تعبر القوى الكبرى في أوروبا جدار برلين، الذي ثبت الحدود الفاصلة (بدءا من عام ١٩٦٠) بين الشرق والغرب. بقينا نعيش في ظل السحابة السوداء للكارثة النووية، التي اقتربت من العالم خلال أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢ . في عام ١٩٦٣، قدم ستانلي

كوبريك نسخة عنها في فيلمه الشهير "دكتور سترانغيلوف" - لكن الرواية كانت تمثل لإثارة الضحك بغض النظر عن سوداويتها. إلا أن الحملة الجديدة لنزع الأسلحة النووية (البريطانية، من جانب واحد) عام ١٩٥٩، التي جسدت عموما أكبر عملية لحشد وتعبئة قوى اليسار في بريطانيا، لم يكن يقصد منها، ولا كان بمقدورها، التأثير في سباق التسلح النووي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، بالرغم من أن العديد من البريطانيين قد تأثروا فعلا بفكرة تجسيد أسوة أخلاقية حسنة للعالم. لكنها تمحورت حول الابتعاد عن الحرب الباردة، أو بشكل أدق، حول جعل بريطانيا تتعود على حقيقية أنها لم تعد قوة عظمى، ولا إمبراطورية عالمية (الحجة على أن القدرة النووية البريطانية ضرورية لردع أي هجوم سوفييتي لم يكن لها معنى، خصوصا ونحن نعلم الآن أن القنبلة النووية قد صنعت بالأساس بواسطة الحكومات البريطانية للحفاظ على المكانة والاستقلالية عن الولايات المتحدة لا لتخويف موسكو).

لكن عند النظر إلى الماضي، يتضح أن ما صاغ على نحو متزايد سياسة اليسار في حقبة ما بعد عام ١٩٥٦، كان نتاجا جانبيا لنهاية الاستعمار، وتدفق الهجرة الجماعية (إلى بريطانيا بالتحديد) من الأجزاء الكاريبية من الإمبراطورية. أما في فرنسا فلم تكن لأزمة الجمهورية الرابعة علاقة وثيقة بالحرب الباردة، بل ارتبطت كلها بحرب التحرير الوطنية التي خاضها الجزائريون. ما زلت أذكر الاجتماع الحاشد الذي عقد عام ١٩٥٨ في "بيت الصداقة"، للاحتجاج على الانقلاب العسكري، وألقى فيه الصحفي (المستقل) المتحمس بول جونسون، وكان حينذاك كاثوليكيا يساريا، خطبة أدان فيها الجنرال ديغول بوصفه الديكتاتور الفاشي القادم. كانت الصدمة التي سببها على الأغلب افتضاح ممارسات التعذيب التي يستخدمها الفرنسيون في الجزائر، هي التي حولت لجنة العفو الدولية (١٩٦١) إلى هيئة دولية غربية لا تقود حملاتها ضد انتهاكات حقوق الإنسان في المعسكر الاشتراكي وحده.

مع بروز حركات حقوق الإنسان الأمريكية، وتدفق المهاجرين الملونين إلى بريطانيا، غدت العنصرية بالنسبة لليسار موضوعا أكثر محورية من ذي قبل. من خلال "الجاز"، وجدت نفسي مرتبطا مع حملة مبكرة لمناهضة التمييز العنصري في بريطانيا بعد ما سمي بأحداث الشغب العنصرية في نوتنغ هيل (في الواقع حدثت في نوتنغ ديل) عام

١٩٥٨، دعيت بـ"حملة النجوم للصداقة بين الأعراق"، التي لم تكن حركة سياسية فعلا (رغم أن كولين مكينيس طاف في المنطقة، وهي منطقة "بريدية" مفضلة لديه، ووضع نشراتها في صناديق البريد)، بقدر ما كانت نموذجا للعملية الإعلامية الحديثة التي أخفقت، مثلها مثل غيرها، بعد بضعة أشهر من النجاح والشهرة والذيوع إلى حد ما. تمكنت الحملة فعلا من حشد "النجوم"، وغالبيتهم من نجوم "الجاز" - حيث ضمت معظم الأسماء البريطانية الكبيرة (جوني دانكورث وكليو لين، همفري ليتلتون وكريس باربر)، إضافة إلى بعض نجوم الموسيقى الشعبية (البوب) - لكن قوتها كمنت في الشخصيات النافذة التي استطاعت نشر تجاربها وأخبارها في الصحف والتلفزيون، وابتكار أفكار تستحق اهتمام الرأي العام، مثل حفلة عيد الميلاد التي ضمت أطفالا من مختلف الأعراق والإثنيات وبث على الهواء عام ,١٩٥٨ خلال الفترة التي نشطت فيها الحملة، حصلت على مساعدة لا تقدر بثمن من كلوديا جونز، العضوة الناشطة في الحزب الشيوعي الأمريكي، التي تمتعت بقدرات كبيرة وشخصية تثير الإعجاب إلى حد استثنائي. ولدت كلوديا في جزر الهند الغربية، ثم طردت من الولايات المتحدة بعد أن حرمت من حقوق المواطنة خلال الحملة الشعواء ضد الشيوعيين، وبذلت قصارى جهدها، بنجاح متفاوت، لإدخال شيء من كفاءة الحزب التنظيمية، والبنية السياسية إلى تجمع المهاجرين من دول البحر الكاريبي في غرب لندن، للحصول على دعم كاف لمساعيها من الحزب الشيوعي البريطاني. من المؤسف أن تتعرض كلوديا للنسيان والإهمال والتجاهل دون وجه حق، ومع ذلك فقد ظلت مصدر إلهام لا ينضب لكرنفال نوتنغ هيل، الذي غدا تقليدا سنويا، وإن غابت دلالته السياسية.

لم يصبح الحماس والتعاطف مع العالم الثالث مصدر إلهام لليسار إلا في الستينات، الأمر الذي أضعف - عرضا - هيمنة الأيديولوجيين المتحمسين للحرب الباردة على الليبراليين والديمقراطيين الاجتماعيين في الغرب. لكن مع نهاية الخمسينات، وصلت الثورة الكوبية إلى السلطة، وكانت على وشك أن تضيف صورة ذهنية جديدة إلى "الإيقونات" التقليدية الرامزة للثورة العالمية، وأن تحول الولايات إلى "غوليات" المارد في مواجهة "دافيد"، الشاب الملتحي المتحدي. في عام ١٩٦١، كانت ردة الفعل على محاولة الغزو الأمريكي لكوبا في خليج الخنازير مباشرة وفورية - مثلما كانت ردة

الفعل على الاجتياح السوفييتي للمجر مباشرة وفورية ـ واتسعت لتتجاوز بكثير نطاق الأحزاب، والموقعين على رسائل الاحتجاج، والمعترضين المحتجين. في صبيحة اليوم الذي وصل فيه الخبر، اتصل بي كين تينان وصاح بحماس: "يجب أن نفعل شيئا! وبأسرع وقت ممكن. كيف ندين ونهاجم ما حصل؟". ورغم أن تينان يساري أصيل (دافعنا أنا ومارلين دوما عن إخلاصه وصدقه السياسي ضد أولئك الذين اتهموه بالتكلف والتصنع والرياء)، لكنه بدا أبعد ما يكون عن حالته المعتادة كعضو في "جيش المسرح المدافع عن الخير"، ولو كان كذلك لعرف ما يمكن فعله. حين أنشأنا اللجنة المعهودة، وجمعنا المطلوبين لتوقيع رسائل الاحتجاج، ونظمنا مسيرة في "الهايد بارك" (لا أستطيع مهما حاولت أن أتذكر من الذي خطب فينا)، لاحظت، كما أذكر، وقد أدهشتني المفاجأة السارة، كم اختلفت تلك المسيرة عن مظاهرات اليسار النمطية، على الأقل من حيث المظهر. لقد حشدت الدعوة للدفاع عن فيدل كاسترو (من خلال تينان، أو على الأرجح عبر رجل تينان، الممثل والوكيل الفني والناشط اليساري كليف غوردون) جمهرة مدهشة من المسرحيين الشباب، ذكورا وإناثا، إضافة إلى الشابات من وكالات وبيوت الأزياء. كانت أبدع مناسبة سياسية من حيث المظهر تخطر على البال، وأكثر المشاهد سحرا، كما كانت حدثا سعيدا لأننا علمنا آنئذ باندحار الغزو الأمريكي.

وهكذا، وبدون مقدمات تقريبا، وجدت نفسي ـ وكذلك العالم ـ أنزلق إلى حالة مزاجية جديدة مع نهاية الخمسينات وبداية الستينات. حتى من الناحية السياسية، برغم أنني لم أقرر بعد عام ١٩٥٦ ترك الحزب الشيوعي ولا تعرضت للطرد من قبله ـ لم أعد أشعر بأنني معزول كحال أعضاء الحزب في الماضي. كما لم تعد شارات الحزب أمرا مهما بالنسبة للمؤيدين للحملات السياسية الجديدة ـ المناهضة للأسلحة النووية، والاستعمار، والتفرقة العنصرية وغيرها. حين أسس بعض المؤرخين الشيوعيين مجلة تاريخية جديدة ("الماضي والحاضر") عام ١٩٥٢، أي في أسوأ فترة يمكن تخيلها في الحرب الباردة، تعمدنا في خطتنا المستقبلية للمجلة ألا نجعلها ماركسية حصرا، بل أن تكون منبرا مشتركا لـ"الجبهة الشعبية" للمؤرخين، وألا يحكم عليها من خلال الشارة المميزة في "عروة" الكاتب الأيديولوجية، بل تبعا لمحتوى ومضمون مقالته. أردنا من صميم قلوبنا توسيع قاعدة هيئة التحرير، التي كان من الطبيعي أن تقع تحت هيمنة

أعضاء الحزب في البداية، نظرا لأن قلة قليلة فقط من المؤرخين الراديكاليين، المحليين عموما، الذين تمتعوا بقاعدة أكاديمية آمنة (مثل ايه. هـ. ام. دونز، المؤرخ القديم من كامبريدج)، امتلكوا ما يكفي من الشجاعة للجلوس على نفس الطاولة مع البلاشفة. مؤرخ الفن البارز رودولف ويتكوير، حُذِّر فعلا من مغبة قبول دعوتنا، ومضت عشر سنوات أخرى قبل أن يصبح موسيز فينلي، ضحية المكارثية في الولايات المتحدة الذي رحبت به كامبريدج، على استعداد للكتابة في مجلتنا. حرصنا أيضا على توسيع نطاق ومدى التنوع في الكتاب المساهمين في المجلة - أخفقنا لعدة سنوات في المهمة الأولى، لكن سرعان ما أبلينا بلاء أفضل في الثانية، وذلك نظرا لسمعتنا الممتازة بين الأكاديميين الشباب. حققنا النجاح عام ١٩٥٨ . فقد عرضت علينا مجموعة من المؤرخين غير الماركسيين الذين برزوا لاحقا الانضمام إلينا بشكل جماعي بشرط أن نسقط العبارة الإيديولوجية المثيرة للشبهة، "مجلة التاريخ العلمي"، من أعلى الصفحة الأولى. كان على رأس المجموعة لورنس ستون الذي كان على وشك الذهاب إلى برنستون، والسير جون اليوت (أصبح أستاذا "ملكيا" في اكسفورد) الذي تعاطف مع أهدافنا لكن وجد أن من المستحيل الانضمام رسميا إلى المؤسسة الحمراء السابقة. مثل ذلك ثمنا زهيدا ندفعه. لم يسألونا عن معتقداتنا السياسية - في الواقع لم يعد من السهل العثور في هيئة التحرير على شيوعيين متزمتين - ولم نسألهم عن آرائهم، كما لم تظهر أية مشكلة أيديولوجية في هيئة تحرير المجلة على الإطلاق منذ ذلك الحين. وحتى معهد الأبحاث التاريخية لان موقفه في نهاية المطاف بعد أن رفض بعناد دخول أعداد المجلة إلى مكتبته.

وهكذا، أصبحت حياتي الشخصية بمعنى من المعاني "طبيعية". وغدا العالم الذي أعيش فيه - أو بدا على الأقل - مكانا أكثر أمانا وديمومة، وذلك برغم الخطابات البلاغية المتشدد التي تشير إلى العكس. الملاحظة الأولى لا يمكن إنكارها، حتى وإن احتاجت حياتي المهنية الأكاديمية إلى بعض الوقت كي تتطور. لن أحصل على كرسي الأستاذية، أو العلامات المعتادة للاعتراف الرسمي (درجات الشرف من المرتبة الأولى) حتى السبعينات، أي بعد أن تجاوزت الخمسين. عند تذكر الماضي، أرى أن ذلك كان من حسن الطالع، إذ لا شيء أسوا للمهنة من بلوغ القمة مبكرا، ثم مواجهة المسيرة

الطويلة على السهل المنبسط، أو حتى أسوأ من ذلك، قطع المسافة الطويلة بين إنجاز الحاضر والعمل الذي صنع الشهرة في الماضي. ولأنني بدأت متأخرا بالضبط، وتعرضت للإعاقة والعراقيل لسنوات عديدة، ظلت أمامي أهداف أفضل لأتطلع إلى تحقيقها في عمر لا يأمل فيه الكثيرون غيري إلا بتأجيل مرحلة الانحطاط والتدهور.

فيما يتعلق بالعالم، عرفنا جيدا أن استقراره أمر ظاهري وحسب، رغم وضوح قفزته الاستثنائية نحو الأمام على الصعيدين الاقتصادي والتقاني. ومع ذلك، لم يكن ذلك وهما بالنسبة لنا، نحن الذين أسعدنا الحظ في العيش وسط وغرب أوروبا. ربما لم ندرك تماما كم كنا محظوظين، لكننا عشنا على الأرض السعيدة المباركة: أرض يعيش سكانها دون حروب، ودون خوف من احتمال حدوث أي اضطراب اجتماعي، ويستمتع معظمهم بحياة الرخاء والثراء، ويملكون سلسلة واسعة من الخيارات المتاحة في العمل والمتعة، وقدرا من الضمان الاجتماعي يتجاوز ما حققه فعلا كل أفراد جيل الآباء - ما عدا الأثرياء منهم - وأحلام الفقراء. كانت منطقتنا أفضل مكان في العالم ليعيش فيه المرء.

سرعان ما سأكتشف أن ذلك لا ينطبق على البلاد الأخرى من العالم، ولا يرضي سكان الأرض المباركة، كما ستظهر بسرعة سنوات عقد الستينات.

-١٤-
تحت "خوذة الفارس"

في عام ١٩٦١ ، وبعد وقت قصير من المشاركة مع برتراند رسل، وحوالي ١٢٠٠٠ شخص في تظاهرة الاحتجاج الشهيرة على الأسلحة النووية في ساحة الطرف الأغر (من حسن الحظ أن الشرطة لم تعتقلني آنئذ) ، قال لي صديقي وأخي في "الرسل" ، روبين غاندي، بأنني أبدو مكتئبا وقلقا قليلا ، وأن قضاء بضعة أيام في شمال ويلز سيكون مفيدا لي. كان يملك هناك كوخا صغيرا وبدائيا تقريبا ، يقع بجوار كنيسة عتيقة، حيث اعتاد أن يفكر بمعضلات المنطق الرياضي خلال النزهات على الدروب بين التلال والمرتفعات الصخرية. في تلك الأيام، وقبل الدمار الذي حاق بالشبكة المدهشة من السكك الحديدية الريفية الصغيرة في بريطانيا ، كان ما يزال بالمستطاع السفر بدعة ويسر بين صفوف الأشجار الوارفة وعبر الأراضي الواقعة في قلب ويلز، ومن ثم استخدام "قطار الشاطئ" للوصول إلى الساحل، والدخول إلى مقاطعة ميرونيث، آخر المناطق في الجزر البريطانية التي ما زال سكانها يصوتون لصالح منع بيع وتناول المشروبات الكحولية علنا أيام الأحد. هناك، قدم روبين لاستقبالي على دراجته النارية، مرتديا ملابسه الجلدية السوداء المعتادة، وأقلني معه موفرا علي مسيرة مجهدة تمتد عدة أميال عبر سلسلة تلال الشاطئ والسهل الساحلي المنبسط. في الماضي، كان السهل جزءا من البحر قبل تجفيف مياهه بواسطة جدار بحري شيده المستر مادوكس، الذي سمي ميناء بورت مادوك باسمه. نال المشروع إعجاب الكثير من الزوار التقدميين، من بينهم الشاعر شيللي. قبل ذلك، كان بمقدور السفن الإبحار وصولا إلى سفوح الجبال، باستخدام مثلث "الفارس" المثير الذي لا تخطئه العين كنقطة علام. الاسم والمكان يذكران بخوذة قروسطية. أما الموقع الذي يترك فيه الطريق سهل ترايث ليبدأ

برفق تسلق الوادي المرتفع، فكان يشكل حدود "مملكة كلوف"، حيث أمضينا أنا ومارلين والأطفال معظم أيام العطلات والإجازات خلال ربع القرن التالي.

كان كلوف ولیامز ـ الیس، حاکم، أو بالأحرى، صانع هذه المملكة، رجلا طويل القامة، لطيف المعشر، حصيفا وصريحا، يرتدي على الدوام سترة من "التويد"، وبنطالا قصيرا، وجوارب صفراء اللون (الوحيد الذي يلبس هذا الزي في زياراته إلى اثينايوم)، بلغ آنذاك أواخر العقد الثامن من العمر. أما أفضل طريقة لتقديمه إلى جيل يعتبر بريطانيا التي أتى منها غريبة غرابة روسيا تولستوي عنه، فهي الإشارة إلى أنه حين تزوج خلال الحرب العالمية الأولى، سأله زملاؤه الضباط عن الهدية التي يريدها، أجاب بأنه يرغب ببناء نموذج مصغر لقلعة قروسطية تطل على البحر. شيدت القلعة. أما الدخول إليها فيتم عبر بوابة حديدية مصبوغة باللون الأخضر المفضل لدى كلوف، الذي يغطي كافة الأشغال الحديدية والخشبية في مملكته. تواجه البوابة مدخل بيته ("بلاس برونداناو")، وهو عبارة عن مبنى عتيق صغير المساحة، تحيط به حديقة مدهشة تطل على مشهد أخاذ لقمة سنودون، تؤطره من كل جانب الجرار والأقواس المميزة لأعمال كلوف المعمارية. وانطلاقا من البوابة، يمكن المسير لمسافة مائتي ياردة عبر طريق يرتقي برفق وتحفه الأشجار من كل جانب (إحدى هوايات كلوف العديدة تتمثل في غرس الأشجار). أغضبه كثيرا عرض قدم له لبيع الطريق المشجر المؤدي إلى منزل شارك في تحويله إلى مدرسة عمومية، اشتراها وجاهد للحفاظ عليها. ولربما مثل ذلك مساهمته الرئيسة في المشروع. أغرم طفلانا باللعب في البرج، وتسلق السلم الذي تشرف نهايته على منظر البحر، ومساحات من الأراضي السبخية الرطبة، التي يرى الناظر خلفها ـ على بعد بضعة أميال ـ جبلي مويلوين الأكبر والأصغر (سماهما باسم ابنه الذي لم يرجع من الحرب). استخدم المكان ذات مرة لتصوير فيلم عن الصيد، أترع كيان كلوف بسعادة غامرة. لكن الفيلم في الحقيقية لم يكن من الأفلام الرومانسية الساذجة التي أغرم بها، بل فيلما هزليا شارك فيه عدد من النجوم. علاوة على ذلك، لم تأت الشركة المنتجة إلى ميريونيث لأن جزءا صغيرا منها يمكن بسهولة أن تجعله شبيها بالصين، وهو أمر صعب بالنسبة لأية بقعة أخرى في بريطانيا العظمى، بل لأن كادر العاملين في الفيلم يستطيعون الإقامة في بورت ميريون، أشهر إبداعات كلوف

وأعظم ما بناه من نماذج معمارية. والميناء عبارة عن مدينة مصغرة شيدت مبانيها بأسلوب عصر الباروك، تبدو للناظر وكأنها تقع على شاطئ الريفيرا الإيطالية التي حاكت كل تفاصيلها وألوانها، حيث تظهر فجأة من بين الصخور المغطاة بالأعشاب البحرية عبر امتداد من المياه الرمادية الضحلة المؤدية إلى خليج كارديغان. استطاع كلوف تمويل توسعتها المستمرة من خلال تحويل جزء منها إلى فندق وقرية سياحية وجد فيهما الفنانون البوهيميون العاملون في السينما والمسرح جاذبية لا تقاوم (الألعاب النارية هي التسلية التي حلت محل ملاعب الغولف). في نهاية المطاف، ربما مع شيء من التردد والإحجام، دفع تكاليف التوسيع من المال الذي أنفقه الزوار والسياح الذين يمضون نهارهم فيهما (الدخول مجاني بالنسبة لأصدقاء الأسرة). لا يوجد شيء حقيقي في بورت ميريون - رغم أنه غص بالتماثيل الأصلية والزخارف المعمارية التي أنقذها كلوف من الدمار - لكن كل جزء من المكان يمثل حلما من أحلام اليقظة، دون أن يغيب احتمال كوابيس المنام. فيما بعد، اختير الموقع لتصوير سلسلة تلفزيونية بريطانية بعنوان "السجين"، نالت إعجاب المشاهدين. تدور الأحداث حول رجل من قفقاسيا سقط ضحية بيئة أخاذة حين وجد أنه لا يستطيع النجاة من سحرها وخطرها في آن معا. تماما مثلما حدث لمنتجي المسلسل الذي توقف بعد تصوير سبع عشرة حلقة منه، ما زالت تعرض من فترة لأخرى نتيجة إلحاح العديد من المعجبين والمتحمسين.

بطريقة ما، أصبح كلوف، الفخور بمهنته كمهندس معماري، ضحية أيضا لبيئة خلقها ولم يتمكن من النجاة من إسارها. وباعتباره أصغر أبناء عائلة من ملاك الأراضي، توجب عليه العمل لكسب الرزق، ناسب فن العمارة ميوله ورغباته وشغف به مذ كان طفلا. لكنه لم يتلق في حياته تدريبا أكاديميا اللهم فيما عدا ذلك الفصل الدراسي في كامبريدج، في حين عوض ما افتقده من المؤهلات المهنية الرسمية بواسطة جذوره الريفية، وحماسته، وثقافته، إضافة إلى ذلك النوع من الصلات والعلاقات التي يستطيع إقامتها بكل سهولة في حفلات نهاية الأسبوع شاب وسيم ساحر من عائلة محترمة خلال الحقبة الادواردية في بريطانيا، التي كانت حقبته رغم كل شيء. الأصدقاء، أو أصدقاء الأصدقاء، منحوه الفرصة لبناء الاصطبلات، ثم الأكواخ في المزرعة، ثم أجنحة السكن في البيوت الريفية، والمدارس العمومية، وحتى المبنى الضخم

المكتمل "لانغويد هول" على ضفاف برينكوشير من نهر واي، الذي بقي مستخدما كفندق يستقبل الزوار (معظم مبانيه متواضعة في مساحتها في الواقع). لكن عمارة بورت ميريون وضعته في خانة "المهندسين المعماريين غير الجادين"، وذلك تبعا للمعايير المهنية المتزمتة التي تطورت كثيرا في حقبة لاكوربوسييه ومايز فان در روه. ولم ينل الاعتراف الرسمي بانتمائه إلى طبقة الفرسان ليحصل على لقب "سير" إلا حين بلغ السابعة والثمانين.

كل ذلك يعتبر بمثابة سوء فهم وجهل مطبق بالرجل. فبالنسبة له، ليس للمباني معنى حقيقي دون أن تحفها الأشجار، أو الأسوار والجدران، أو المناظر المشهدية، أو الدروب الساحرة المؤدية إلى باحات المزارع، أو الأكواخ، أو بحيرات المياه. وما أراد خلقه أو تشكيله لم يكن المباني الصماء، بل عوالم صغيرة يعيش فيها الناس ويعملون في وحدة متكاملة من المباني، والمناظر (البرية والمدجنة)، والمشاهد، والرموز، والنصب التذكارية، كما ينبغي أن تنال إعجاب الزوار والناظرين بوصفها وحدة عضوية متناسقة ومتناغمة. ونظرا لأن بورت ميريون ليس مكانا يمارس فيها الناس أعمالهم المعتادة، بل هو متنزه للمتعة، أو بصورة جدية أكثر، حلم طوباوي مؤقت، لم يكن يجسد ما يدور بخلده. إذ إن مثاله الأعلى ليس لوتينز، بل الفارس هيدلونغ، السيد، والمبدع المتحمس، والدليل المرشد لـ"العزبة" الويلزية البرية في رواية توماس لوف بيكوك "هيدلونغ هول" (تعتبر قراءة الروايات، أو بالأحرى المقاطع الحوارية التي كتبها بيكوك، صديق الشاعر الشهير شيللي، وأدخلت التسلية في نفوس المعجبين بويلز، من الأشياء المطلوبة في مملكة كلوف). أما جوهر هذه "العزبة الريفية" فيجب أن يتجسد في التوليفة المتميزة التي تجمع بين الجمال الطبيعي البري، والفقر المدقع، ولامبالاة السكان بالجمال الفني البصري، وهي شروط تثير الاستغراب إذا ما طبقت على سكان على تلك الدرجة من التفتح والتأثر بالكلمة واللحن مثل أهالي ويلز. ومع أنه فكر أن من المهم تزيين وزخرفة أنواع بيئاته المتعدد بالرموز البنائية والأشغال الحديدية المناسبة، وجذب الانتباه إلى احتمالاتها الرومانسية الكامنة، إلا أنه لا يفترض بها أن تكون "جميلة"، بل أن تكون ذاتها، وفوق كل شيء أن تبقى ذاتها. أما جهوده الدؤوبة للحفاظ على المنظر الريفي في مواجهة "أخطبوط" التطور العشوائي فتعود إلى العشرينات. وفي

سبيل الحفاظ على البيئة كما هي، قام في فترة ما بين الحربين بشراء التلال العارية، والجبال العالية، والأرضي السبخية، التي شكلت جميعا مملكته الشهيرة. لحسن الحظ، ولأنه لم يكن واسع الثراء، لم تكن للأراضي التي ابتاعها قيمة سوقية حقيقية آنئذ، إذ إن "عشرة جنيهات يكسبها المرء في لندن تمكنه من شراء عدة هكتارات من التلال والهضاب" (١).

في الحقيقة، وبالرغم من أن مملكته ضمت العديد من الأشياء المدهشة، إلا أنها لم تكن "جميلة" بالمدلول التقليدي للكلمة. كيف يمكن ذلك؟ المملكة في معظمها مكونة من الأراضي الصخرية المقفرة التي دمرت مرتين، وظلت على فقرها دائما، ثم تعرضت للإهمال نتيجة تدهور الأحوال الاقتصادية للمزارع المجدبة على التلال، والانهيار النهائي لمقالع أحجار الاردواز الضخمة، التي زودت قطاع البناء والمهتمين بتطوير المزارع الريفية في بريطانيا الفيكتورية بالمادة الضرورية لتشييد سقوف المباني، بعد أن انتشلت لفترة مؤقتة المناطق الجبلية المجدبة من فقرها وحسنت مورد الرزق الذي لا يكاد يكفي سكانها للبقاء. كانت المنطقة عبارة عن مشهد من الخرائب التي خلفها انقضاء فترة الازدهار الاقتصادي. وكان من الممكن تسلق الطريق الصاعد من المحاجر المهجورة في بليناو فيستينيوغ، للوصول إلى المشهد القمري للمقلع المهجور ومساكن العمال القديمة قرب كومورثين، ثم الانحدار نزولا مرة أخرى على طول السكة الحديدية القديمة المؤدية إلى كرويسور، القرية التي سكنت أحد أكواخها لبضع سنين. المنطقة شابهت أيضا منظر خرائب ما بعد انتهاء فترة الازدهار الزراعي، حيث وصف أحد كبار شعراء المنطقة ما حل بها من نوائب الدهر في قصيدة شهيرة بعنوان "تلال الريف الويلزي":

المداخن الباردة التحفت بالطحالب العفنة
ونما القرّاص عبر شقوق الأبواب
البيوت خاوية على عروشها في نانت - ير - ايرا
وثقوب السقوف خرّقتها أشعة الشمس
بينما ترجع الحقول صدى المستنقعات الصامتة المجدبة

1 - Richard Haslam in Country Life, 21 July 1983, p. 131.

حتى بحلول الستينات، لم تكن السياحة قد انتشرت في المنطقة فعليا، فبالرغم من أن قمة سنودون تهيمن على المنظر، إلا أن المواقع الجميلة (ومراكز تسلق الجبال) كانت تبعد مسافة عدة أميال عنها.

انحصر معظم عمل كلوف، كحاكم لمملكته، في تحويل الخرائب على منحدرات التلال غير المأهولة إلى أماكن صالحة للسكن. كوخنا الأول كان واحدا من أربعة تعصف بها الرياح، شيدت في واد جبلي جرفت تربته، ويقع خارج قرية المحاجر كرويسور. أما الساكن الوحيد آنئذ فكان صديقتنا العزيزة نيللي جونز، التي كانت تربي ثلاثة أطفال من ثلاثة آباء، إضافة إلى كلبها، وتقوم بدور "الناطور" لبعض الزوار الإنكليز المغرمين، مثلها تقريبا، باللهو والصخب (كانت قرية كرويسور الصغيرة على وشك أن تفقد متجرها الوحيد الذي يضم أيضا مكتبا فرعيا للبريد، أما مدرستها الصغيرة فلم ينقذها إلا المعركة المستمرة التي خاضتها ضد السلطات - بمساعدة سياسة كلوف القاضية بتأجير الأكواخ الخالية إلى الأمهات العازبات أو اللاتي تخلى عنهن الأزواج). الكوخ الثاني الذي سكناه عبارة عن مبنى مهدم يعود إلى القرن السادس عشر، كان ذات مرة جزءا من مجمع من المباني التي شكلت مقرا لأسرة أنويل، ثم هجرته بعد أن ساءت أحوالها الاقتصادية بعد القرن الثامن عشر. حول كلوف المجمع إلى مساكن صالحة لإقامة أولئك القادمين من لندن، الذين لا تهمهم وسائل الراحة بقدر اهتمامهم بالمحيط الرومانسي. وتبعا لأسلوبه النمطي المعتاد، ترك فجوة في الحائط البارز المشيد من الحجارة بارتفاع ثلاثة أقدام، لتخرج منه شجرة ضخمة نمت خلال قرون من الإهمال لتصل إلى ارتفاع هائل بحيث اضطررنا للإصرار في عقد الإيجار على شرط يوجب على المالك تعويضنا في حالة هبوب عاصفة تقتلع الشجرة لتلقي بها على الكوخ وتدمر معظمه. لا أظن أن أي مبنى سكني في "عزبة" كلوف لم يقم هو بتشييده، أو تجديده، أو تحويله إلى مكان صالح لسكنى البشر. لكن السكان كانوا ينتمون إلى نوعين مختلفين اختلافا كليا، ونادرا ما اشترك أحدهما بأية صفة مع الآخر: أولئك الذين قدموا من خارج المنطقة، وسكان ويلز الأصليون.

الوافدون من المناطق الأخرى مثلوا شبكة متداخلة من المثقفين البريطانيين المنتمين إلى الطبقة الوسطى، إضافة إلى جماعة مشتتة من البوهيميين المرتبطين بهم. معظمهم

اتصل بصورة مباشرة أو غير مباشرة بآل وليامز ـ اليس، في حين أتت غالبية الروابط من خلال كامبريدج، التي كانت جامعة كلوف، ودرس فيها أيضا ابنه الراحل كيتو، حيث أصبح أصدقاؤه من كلية كينغ جزءا لا يتجزأ من مشهد المنطقة وذلك مع تكرار زيارتهم لها بانتظام (كان أحدهم صهره). روبين غاندي أتى إلى الوادي عبر نفس الطريق. كان كل واحد من أوائل المستوطنين يميل إلى اجتذاب أساتذته، وأترابه، ومدرسيه أو طلابه، الذين قدموا بدورهم وشاهدوا المنطقة وأثارت إعجابهم: آل هوبزبوم، أتوا واحدا تلو الآخر (مع طفلين)، تبعهم شقيق مارلين، والتر شوارتز مع زوجته وأطفالهما الخمسة، ثم المؤرخان أي. بي. ودوروثي تومبسون، من منحدرات جبل مويلوينز، ومختلف أبناء عائلة بينيت، الذين كان والداهم أستاذين للغة الإنكليزية ودعامتين أساسيتين من دعائم المجتمع الأكاديمي في كامبريدج. هنالك مجموعة من الأسماء المهمة في كامبريدج ارتبطت من قبل بكلوف بطريقة أو بأخرى: الفيلسوف برتراند رسل، الذي سكن شبه جزيرة بورت ميريون؛ العالم الفيزيائي باتريك بلاكيت الفائز بجائزة نوبل، أقام عند تقاعده في كوخ مخصص لقضاء العطلات قرب بروندانو، غير بعيد عن منزل ابنته في كرويسور؛ جوزيف نيدهام، المؤرخ الكبير للعلم الصيني، أمضى عطلاته المتكررة في بورت ميريون بصحبة واحدة من صديقتيه الاثنتين ـ في حين بقيت زوجته مقيمة في منزلها في كامبريدج كما هو مفترض؛ جوزيف مادوكس، الذي شغل لسنين عديدة منصب رئيس تحرير مجلة "نيتشر" ("الطبيعة")، سحرته الإقامة في أحد أكواخ كلوف في ترايث؛ أستاذي المؤرخ الاقتصادي مونيا بوستان، وزوجته الليدي سينثيا (كيبل)، كان لهما منزل في ضواحي فيستنيوغ، استخدم من قبل كمدرسة. إن الحديث عن وجود "مجموعة بلومزبري الويلزية" ـ العبارة أتت من روبرت كراوشي وليامز، وهو ساكن محلي آسر الشخصية، وفيلسوف حزين، تمكن من إقناع رسل بالقدوم إلى المنطقة ـ أمر مبالغ فيه قليلا. لكن ثمة حياة اجتماعية مكثفة ازدهرت في واقع الأمر بين الناطقين بالإنكليزية في شبه جزيرة بورت ميريون، ووادي كرويسور، وفيستنيوغ. أما أشد الأصوات تميزا في العطلات والإجازات في شمال ويلز فكانت أصوات الضيوف الذين ينفضون مياه المطر عن جزماتهم المبللة والمقاومة للماء في الردهات استعدادا لإحدى جلسات التسلية تحت واحد من السقوف المائلة للأكواخ

الريفية. ونظرا لأن العديد منهم كانوا من الكتاب والأدباء والعلماء الذين يعيشون من نتاج الفكر، فقد شاعت دعابة في الوادي تضمنت حقيقة شعرية على الأقل، تقول إن المرء لا بد أن يسمع هناك عندما تهدأ الريح في الليل صوت آلة كاتبة يأتي من أحد الأكواخ.

مع أن العلم وكامبريدج كانا يسيران جنبا إلى جنب، إلا أنني أظن أن زوجة كلوف، الكاتبة امابيل وليامز ـ كلوف، هي التي شعرت برضا كبير نتيجة تجمع العقول المفكرة في هذه المناطق المحلية النائية عن المدن. تنتمي امابيل إلى أسرة ستراتشي المثقفة ذات الأصول الهندية، وكانت معظم صلاتها (مع اكسفورد وكامبريدج) سياسية. فوالدها الصحفي سنت لو ستراتشي، تمتع بثقل سياسي معتبر، وأخوها جون تبع الراديكاليين في حزب العمال الذين وضعوا أملهم (آنئذ) في زير النساء المتأنق، السير ("توم") موسلي، إلى أن غدا زعيم الفاشية البريطانية، ثم أصبح من أشهر مفكري الحزب الشيوعي في الثلاثينات. لكنه انصرف عن الشيوعية عام ١٩٤٠، وأصبح وزيرا بارزا، وإن لم يصادف حظا من النجاح، في حكومة حزب العمال عام ١٩٤٥ .
أما امابيل فقد انضمت إلى الحزب الشيوعي بصورة غير رسمية، وبقيت تشعر بالحنين إلى تلك الأيام التي كان فيها الحزب عبارة عن فريق "شبه تآمري" من الإخوان والأخوات المستعدين للمعركة. رحبت بي كأحد الباقين من تلك الأيام الخوالي، وكشخص يمكن أن تثرثر معه عن الرفاق القدامى، لكنه مؤهل بشكل رئيس ليحاورها حول المواضيع الفكرية. ومن أجل هذا الغرض كانت تأتي إلى كوخنا، محملة بالذكريات، تقود دراجتها النارية بالحرص والتمهل المميزين للعجائز. ونظرا لأن طريق كرويسور لا يستخدمه سوى السكان المحليين، مع قلة قليلة من الوافدين، فقد اعتاد الناس أن يفسحوا لها الطريق كلما دعت الضرورة. كانت امابيل أكثر ولعا وتحمسا من زوجها بأهل الفكر والثقافة. في مرحلة الطفولة حلمت بأن تصبح عالمة، لكن ذلك لم يكن شائعا بين الفتيات في أسرة من نوع أسرتها. في الواقع، لم يرسلها أهلها إلى المدرسة أبدا، لكنها أصبحت كاتبة، واشتهرت في نهاية المطاف في أدب الأطفال، لكن صنفت مساهمتها المهمة ضمن كتابات وفكر زوجها، مثلما جرت العادة بين بنات جيلها. لم تكن امابيل من النوع المأساوي ـ فقد استمتعت في الحقيقة بحلاوة الحياة

وتحرر المرأة، بما في ذلك (كما قد يبدو) المقاربة المنفلتة من قيود الإخلاص والوفاء للحياة الزوجية، لكن لو لم تفتقد القدرة على التعبير عن مشاعر طبقتها الاجتماعية، لربما أظهرت شيئا من المرارة. كان من الممكن أن تصبح عالمة خبيرة ومحترفة، وحرصت على أن تصبح واحدة من بناتها على الأقل عالمة بالأحياء البحرية. أغرمت بالسيدة العجوز، وإن تجنبت أحيانا اللجوء إلى تصرفات مضادة لحملاتها الاستكشافية بحثا عن التنوير الفكري. تحدثنا كثيرا، لا سيما في أيامها الأخيرة، حين كانت بعد وفاة كلوف تنتظر الزوار . لم تكن تشتكي، لكنها لم تخف رغبتها بنهاية تضع حدا لبقائها وحيدة، ممددة على سرير المرض، يعتصرها الألم خلف الجدران الحجرية الصماء في المنزل الرطب العتيق. لقد عاشت بما يكفي. لكن حتى التضامن السياسي معها لم يقدر أبدا على دفعها إلى كشف كيفية العثور على مدخل السرداب الواقع في مكان ما تحت مملكة كلوف، حيث حفظت كنوز المتحف البريطاني خلال الحرب العالمية الثانية. فكونك شيوعيا لا يعني أن تفشي أسرار دولتك (الرأسمالية).

بغض النظر عن الأقلية التي أتت لممارسة رياضة تسلق الجبال، ما هي الأسباب التي دفعتنا نحن الغرباء للقدوم إلى الجبال الويلزية؟ لم تكن تكمن بالتأكيد في البحث عن الراحة. ففي أكواخنا الويلزية قبلنا العيش طوعا تحت ذلك النوع من الظروف التي أعلنا إدانتنا للرأسمالية بسبب فرضها على كادحيها المستَغلين. لم يكن أي منا ليحلم بقبول هذه المعايير لحياته اليومية في لندن أو كامبريدج، حتى تبعا لمستوى معيشة الطبقة الوسطى المتقشفة في الخمسينات، ولا حتى صهري والتر شوارتز، مع كل حماسته التي لا تحدها حدود لمشقات الحياة الفطرية باعتبارها مؤشرا بيئيا على الحياة السليمة بالقرب من الطبيعة. برغم كل ذلك، فإن الأشخاص الوحيدين الذين يمكن الاعتماد عليهم لمشاركتنا في تحمل مشقات الحياة وعجائبها المدهشة، هم الأصدقاء المقربون القادرون على مقاومة العوارض الجوية والطقس المتقلب، مثل دوروثي ويدريرن. ولضمان التخلص من الرطوبة خلال قضاء ليلتنا الأولى هناك، كان من الواجب علينا حشر كافة الأدثرة والملاءات داخل أكياس بلاستيكية كبيرة ومحكمة الإغلاق في كل مرة نغادر فيها بارك. وتطلب الأمر يومين أو ثلاثة بعيد الوصول لتجفيف المنزل بما يكفي للإقامة فيه، وحتى في تلك الحال، كان من المستحيل تقريبا

الشعور بالدفء بعيدا عن الزوايا المنعزلة، رغم سخانات الكيروسين - وهي معدات أساسية لا غنى عنها، وإن كانت لا تفيد كثيرا بالنسبة للحمامات خارج الكوخ - ومدافئ الحطب، حيث يمكن مشاهدة المثقفين المدينيين، وهم يرتدون الأزياء المحلية التي يبدون فيها كالمتسولين، يقطعون الأخشاب الضرورية لها تحت رذاذ المطر خارج أبوابهم السوداء. لربما شكلت حياة المشقة المادية المجردة في ويلز جزءا من جاذبية المنطقة وإغرائها: جعلتنا نشعر بأننا أقرب إلى الطبيعة، أو على الأقل إلى ذلك الصراع المستمر ضد قوى الطقس والجيولوجيا، الذي يعطي هذا الإحساس بالرضا. أوضح ذكرياتي عن شمال ويلز هي تلك المواجهات الطوعية: كيف كنا نأخذ طفلينا الصغيرين عبر الدروب الحجرية المغطاة بالثلج إلى المأوى، ونقدم لهما الشوكولا الساخنة داخل كهف على حافة الجبل، وكيف كنا نعود من نزهاتنا الطويلة على الأقدام مع روبين تحت المطر المدرار، ونمشي متعثرين على طول الدرب الذي حفرته قطعان الخراف على منحدرات التلال (إذ استطاع خروف تسلق التلة فلم يعجز عنها مؤرخ في منتصف العمر؟!)، وفوق كل شيء، المسير، والتوازن، عند تسلق التلال الصخرية لنكافئ بالمنظر المألوف لكن المفاجئ دوما للبحيرات الباردة المخبأة خلفها.

لكن كل ذلك يشكل متعا للزوار وحدهم. بينما اجتذب الجزء الذي سكناه من شمال ويلز أيضا مجموعة غريبة من المستوطنين المقيمين أو شبه المقيمين من الخارج: كتاب مستقلون، بوهيميون نزحوا من موطنهم في سوهو، باحثون عن الخلاص الروحي اعتمادا على مداخيل مالية منخفضة أو غير منتظمة، مفكرون ومثقفون فوضويون وغريبو الأطوار. أما وجود برتراند رسل، الزعيم الروحي العجوز لحملة مناهضة الأسلحة النووية، في مملكة كلوف، فقد اجتذب إلى المنطقة عددا من المشاركين في الحملة؛ وذلك دون ذكر أفراد أسرته التي اختل أداؤها الوظيفي. لكن رالف شونمان، الناشط الأمريكي الشاب الذي تمتع بذلك التأثير المشهود في الفيلسوف العجوز آنئذ، لم يصبح جزءا من المشهد المحلي، إذ كان منهمكا في ذلك الوقت في مهمة أخرى، دفعته إلى التنقل من مكان لآخر سعيا وراء إنقاذ العالم حسب ادعائه، زاعما أنه يتحدث باسم رسل. أما بالنسبة لبات بوتل، سكرتير لجنة النشطاء المائة (والذي شارك في إطلاق سراح الجاسوس السوفييتي جورج بليك من سجن بريكستون)، فقد استقر بعد التقاعد من

هذه المعركة في قرية كرويسور، حيث أغراه بالقدوم زميله الثوري والناشط في حركة مناهضة الأسلحة النووية، الرسام توم كينسي (أصبح فيما بعد الفوضوي الوحيد المعروف عنه براعته في فن صيد الثعالب، لكنه مارس الرياضة في المنطقة سيرا على الأقدام لا على صهوات الخيل كما جرت العادة). بعد أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢، نظم كينسي مظاهرة في بورت ميريون تعبيرا عن الشكر لبرتراند رسل لإنقاذه السلام العالمي - لأن إعلان خروشوف الرسمي بانتهاء الأزمة جاء عبر برقية بعثها إلى رسل (ردا على أخرى زعم كينسي أنه كتب مسودتها).

عاش هذا المجتمع من الوافدين جنبا إلى جنب أهالي ويلز المحليين، لكنه كان منفصلا عنهم، ربما نتيجة الخلفية الطبقية، وأسلوب الحياة، وتنامي المشاعر الانعزالية لدى الويلزيين. وبغض النظر عن الجنس، لم يقم سوى قلة قليلة من العلاقات الاجتماعية الوثيقة عبر "الخط العرقي" الفاصل بينهما، كما غابت عن المكان علاقات حسن الجوار وروح القرية إلى حد جعل انتقالنا إلى مقر إقامتنا الحالية في وسط ويلز الناطق بالإنكليزية (في منطقة على نفس القدر من البعد والعزلة، وإن كان مجتمعها أكثر اعتمادا على الزراعة من مناطق شمال ويلز)، حدثا يفرج عنا، ولاسيما بالنسبة لمارلين الاجتماعية العفوية بطبعها، وذلك بعد ازدياد حدة التوتر في كرويسور.

على العكس من الطبقة العليا المحلية من الويلزيين بالهوى والإقامة، والإنكليز باللغة واللسان، مثل آل وليامز - اليس، بدأ المستوطنون الدائمون الذين وفدوا من مناطق أخرى بتعلم اللغة الويلزية وذلك منذ أوائل السبعينات، لكن ليس بهدف التواصل والاتصال، بل من أجل توكيد الاختلاف والتمايز عن تنامي المشاعر القومية الواضحة في المنطقة. في الستينات، كان جميع السكان المحليين، فيما عدا كبار السن والمنعزلين في المناطق النائية، يتكلمون اللغتين الويلزية والإنكليزية، فمعرفة الإنكليزية اعتبرت أمرا جوهريا بالنسبة لأي ويلزي حتى في القرى النائية والمنعزلة، حيث وجد من الضروري له مشاهدة التلفزيون، والتعامل من الوافدين من خارج حيه المحلي، بما في ذلك نسبة تصل إلى ثمانين بالمائة من السكان الذين لا يعرفون الويلزية. شكل ذلك في واقع الأمر مشكلة أساسية للمناطق التي يتحدث سكانها الويلزية فقط، مثل منطقتنا، وقاعدة انطلاق للمشاعر القومية التي تزداد تطرفا باطراد. وحتى التمثل اللغوي

الكامل لبضع عشرات من الأجانب لم يكن يعني شيئا بالمقارنة مع تيار اللغة الإنكليزية الجارف، لغة الحضارة الحديثة التي يتعذر مقاومتها.

بالنسبة لمعظم سكان الجبال، كانت اللغة الويلزية تشبه سفينة نوح، التي يمكن أن تنجيهم، كمجتمع محلي، من الغرق في الطوفان. لم يكونوا راغبين بهداية الآخرين وكسبهم إلى صفهم أو التواصل معهم: كانوا ينظرون بدونية ازدرائية حتى إلى القادمين من جنوب ويلز بسبب "لغتهم المدرسية". وعلى العكس من قوم نوح، لم يتوقعوا نهاية قريبة للطوفان. فتحولوا إلى الداخل لأنهم شعروا بأنفسهم محاصرين في إسار أشد الأوضاع مدعاة لليأس، وضع الأقلية المحاصرة اليائسة دوما وأبدا. لكن كان ثمة حل وجده بعضهم هناك: سياسة التوطين! بمعنى آخر، فرض اللغة والأعراف والتقاليد الويلزية بشكل إجباري بواسطة نظام حكم سياسي وطني. في ذات الوقت، يمكن ثني "الغزاة" عن القدوم عن طريق حرق بيوتهم "الثانية". بعض من زعم المعرفة بما يجري، أشار إلى أن الناشطين المتطرفين قد أتوا من مملكة كلوف، رغم أنها لم تكن تشكل مركز انطلاق عمليات حرق الأكواخ. لقد ميز الناس بين المصطافين الذين عرفوهم، وبين "الإنكليز" عموما. وبالرغم من استحالة الحفاظ على السر في المجتمعات الريفية، وذلك على العكس من المدن الكبرى، لم تتمكن الشرطة من حل غموض أية قضية من قضايا الإرهاب المتعلقة بحرق الأكواخ.

في بعض النواحي، اجتثت جذور السكان المحليين في مملكة كلوف على وجه الخصوص، وفي جبال شمال ويلز عموما، وذلك مع انتقال الزوار الإنكليز الموسميين، أو المهاجرين المستقرين، إلى المزارع والأكواخ التي هجروها. ومثلما يحدث للمنزل الذي تشيد دعاماته وأركانه على أرض غائرة، كذلك كانت القواعد المؤسسة لمجتمعهم المحلي تتصدع وتنهار؛ وعلى العكس حتى من مثل هذا البيت، لم يكن بالمستطاع تدعيم وجودهم وتقويته وتصليده. فعزلتهم في الزمن الغابر هي التي حافظت على لحمة المجتمع، إضافة إلى عوامل أخرى تمثلت في الشعر، والتزمت الطهراني (البيوريتاني)، والفقر المتأصل عموما في المجتمع الفلاحي. كل ذلك أصبح في خبر كان. الكنائس الصغيرة خاوية على عروشها (لا أتذكر لقاء أي قسيس خلال سنوات إقامتنا في كرويسور، فيما عدا القس [الانغليكاني] آر. اس. توماس الذي أتى خصيصا لدفن

جارنا وزميله الشاعر]الذي كتب بالإنكليزية [توماس بلاكبيرن، في مقبرة على تلة منحدرة لا يمكن أن ينسى منظر سنودون منها). أما الامتناع عن تناول الكحول كليا، الذي توجب أن يكون بمثابة المعيار المحدد للبروتستانتية التطهرية (البيوريتانية) بالنسبة لسكان يبدون مثل هذه الاهتمام النشط بممارسة الجنس خارج إطار الزواج الشرعي (وهو أمر غير مباح رسميا)، فكان في طور التراجع والانحسار. كما أن مركز الثقافة الجديدة للقومية الويلزية المتشددة لم يعد الكنسية بل الحانة. ولم يتبق من الماضي سوى التزام الصمت والتساهل إزاء الأطفال غير الشرعيين، حتى أولئك الذين تعذر إخفاء حقيقتهم بالزعم أنهم من أقرباء الأمهات، أو من الاخوة الذين ظهروا لهن فجأة. لقد هجر السكان قراهم على منحدرات التلال من أجل العيش في المشاريع السكنية التي شيدت في السهول وجهزت بيوتها بأنظمة التدفئة المركزية. وحتى المال أصبح عاملا إضافيا يلعب دوره في تقسيم المجتمعات المحلية في ويلز، في حين لم تكن الثروة في الماضي تمثل عنصرا حاسما في تقسيم المجتمع المحلي الناطق باللغة الويلزية، نظرا لأن الأغنياء والأقوياء والنافذين حقا يصبحون من "الإنكليز"، أي من الغرباء عنه.

التراتبية في المكانة الاجتماعية كانت تعتمد على التميز الروحي أو الفكري - يحتل قمتها القس (=الخطيب)، والشاعر، والعالم. بمعنى آخر، يمكن لمن هب ودب أن يتمتع بهذه المكانة: ساعي بريد يمتلك موهبة ارتجال الشعر الويلزي بقافيته وبحوره المعقده، أو موظف في مقلع للحجارة، مثل جامع الكتب والمخطوطات القديمة، العلامة الكبير بوب اوين، فخر قرية كرويسور، الذي تشكل مكتبته الآن جزءا من مكتبة ويلز الوطنية في البريستويث (ابنه وزوجته وأطفاله كانوا، وظلوا، من أصدقائنا المقربين في القرية). أما المكانة الذكورية المقبولة والمعترف بها محليا (وإن كانت أقل اتصالا بالثقافة والفكر) فهي التي تسبغ على التميز في رياضة "صيد السمك" التي تمارس على نطاق واسع. وحتى يومنا هذا، حين يريد صديق ويلزي أن يقدم لنا على العشاء سمكة سلمون ويسأل بائع السمك المتجول، الذي يأتي مرة في الأسبوع، عن السعر، يكون الجواب الطبيعي هو: "هل تشتري أم تبيع؟". لا ينبغي لقصائد ار. اس. توماس أن تضللنا وتدفعنا إلى الظن بأن معظم مزارعي التلال في شمال ويلز هم من الأميين

الذين يفتقدون المعرفة والثقافة. فقد قرأ هؤلاء العديد من الكتب، ومارسوا الكثير من التفكير تحت تلك السقوف الخفيضة التي صممها الأسلاف لكي تتيح الحد الأقصى من مجال الرؤية لمعاينة الغرباء القادمين، والحد الأقصى من الحماية ضد المطر والعواصف في آن معا. فسر لنا جارنا ادغار من قرية كرويسور سبب قيام المزارعين المحليين بشكل منتظم بجمع قطعان الخراف التي تنطلق حرة في الجبال قبل جز صوفها، بالقول إنه يرجع إلى ضرورة الحفاظ على البيئة، لذلك فهم لا يختلفون - في المعرفة والوعي - عن حارس المحمية الطبيعية الذي تلقى العلم في الجامعة.

لا أستطيع التأكيد على أن مملكة كلوف تجسد نمطا نموذجيا سائدا لجبال ويلز، لكن بمقدوري القول إنها جسدت مكانا افتقد الاستقرار، وغابت عنه السعادة، وأتخمته التوترات الحادة الكامنة تحت السطح. توترات وجدت التعبير عنها في تنامي مشاعر الاستياء، وأحيانا الحقد، ضد الإنكليز، وفي الإحجام عن إقامة العلاقات الشخصية، وهو أمر يتعلق طبعا بالبالغين لا بالأطفال [1]. هنالك أيضا علامة أخرى ذات دلالة على الانحرافات والعلل الاجتماعية. فحين قدم إلى الوادي أتباع المرشد الروحي الهندي شري باغوان (أطلق عليهم السكان المحليون بسم "أصحاب الزي البرتقالي") في أوائل الثمانينات، نجحوا في "هداية" وضم بعض السكان الويلزيين الأصليين إلى صفوفهم (وهو أمر مفاجئ)، إضافة إلى بعض إنكليز "الشتات" من البوهيميين (وهذا لا يفاجئ كثيرا). ولم يقتصر السبب - كما بدا واضحا - على أن طريقهم إلى الخلاص يشجع على التحرر الجنسي. كانت كرويسور مكانا رائعا لقضاء العطلات والإجازات العائلية، لكنها لم تكن واديا سعيدا.

بحلول الوقت الذي تقاعدت فيه من بيركبيك عام ١٩٨٢، كنا قد أمضينا فترة محددة من كل سنة في مملكة كلوف طيلة عقدين من الزمن تقريبا. ونظرا لأن العيش في شمال ويلز لم يكن يفسده الروتين الدائم للحياة اليومية والمهنية، فإن الذكريات المرتبطة بالمكان - حتى الخلافات العائلية - تبرز بصورة واضحة وجلية على نحو خاص:

١- أخبرني ابني اندي لأول مرة وأنا أكتب هذا الفصل، أنه كان بصحبة ثلاثة صبيان ويلزيين، في السبعينات على ما أعتقد، حين قال له صديقه بعد مغادرة الاثنين الآخرين، وهو يعتذر: "لقد طلبا مني أن أضربك، لكنني لا أريد، فهل تتظاهر بأنني فعلت ذلك عندما يرجعان؟". ومع ذلك فقد بهتت الصداقة بينهما حين لم تعد والدة الصبي ترحب باندي في المزرعة.

الأنباء المروعة عن الاجتياح الروسي لبراغ عام ١٩٦٨؛ وصول البرقية التي نعت خالتي ميمي (كانت البرقيات ما تزال مستخدمة) إلى الكوخ الذي لا يوجد هاتف فيه؛ باب السيارة الذي اقتلعته العاصفة حين خرجنا لحضور حفلة رأس السنة الجديدة التي أقامها ادوارد تومبسون، وسرنا في درب تنيره المشاعل؛ نزهتنا مع دوروثي ويدربيرن في يوم عيد ميلاد مشمس؛ البئر القديمة التي ظلت تزودنا بالماء حتى في سنة القحط ١٩٧٦ , وفيما عدا المناظر الطبيعية البديعة، لم تكن الحياة مثالية هناك: فالعيش الشاق من دون وسائل الراحة، كحياة الكشافة، لم تعد مغرية كعهدها في الماضي (لم تعجب مارلين أبدا). كما أن تنامي المشاعر القومية قد أفسد العلاقة مع الويلزيين. لكن، لو لم أكن الآن على وشك قضاء أربعة أشهر في السنة في نيويورك، لكنا بقينا على الأرجح في وادي كرويسور حتى آخر العمر.

إلا أن الأمور تغيرت بعد وفاة كلوف عام ١٩٧٨، وامابيل عام ١٩٨٢ . فحفيد كلوف، الذي استلم إدارة "العزبة" بعد موت جديه (نظرا لانشغال والدية بإدارة مصنع للخزف وتسويق إنتاجه)، كان من القوميين الويلزيين المتحمسين، ولم يظهر أي اهتمام بمجموعتهما الأثرية، كما احتل البيوت التي يجب أن تردد صدى اللغة الويلزية لعائلاتها. باختصار، توقف عن تجديد عقود الإيجار للوافدين الغرباء. أما السبب الرسمي فهو أن هذه العقود لن تمنح إلا إلى المقيمين بصورة دائمة. سمح لنا بالبقاء سنة بعد أخرى إلى أن نعثر على مالك ويلزي يقبل تأجيرنا منزله، أو حتى تتمكن "العزبة" من جمع المال الكافي لجعل الأماكن في بارك فارم مؤهلة لاستضافة أي شخص فيما عدا المصطاف الرومانسي. بقينا على تلك الحال مدة عام أو اثنين، ونحن نبحث عن مكان مناسب في ويلز (لكن ليس في شمال ويلز). على أية حال، كان أصدقاؤنا يغادرون أكواخهم، وبحلول الوقت الذي بلغت فيه العقد الثامن، لم يعد تسلق "خوذة الفارس" متعة تجتذبني إليها. وجدنا منزلا مناسبا في مكان ألطف من ناحيتي المناظر الطبيعية والمناخ السياسي (في منطقة بويز، حيث أمكنني من تلالها أن أرى "كادر ادريس" في الأيام التي يصحو فيها الجو).

مازالت ابنتي تزور الوادي من حين لآخر. لكننا لم نذهب، لا أنا ولا مارلين، إلى هناك منذ أن انتقلنا عام ١٩٩١ . لا أملك الشجاعة الكافية لرؤية المكان مجددا. لكنني لا أستطيع نسيانه.

-١٥-
الستينات

في أوائل أيار/ مــايو ١٩٦٨ وجــدت نفــسي في باريس، حــيث نظمت إحــدى المؤسـسـات الفـرعـيـة التـابعـة لليـونسكو مؤتمرا ضـخـمـا حول "مـاركس والفكر العلمي المعـاصر" بمناسبـة مرور مـائة وخمسين سنة على مولده. وعلى شاكلة معظم التـجمعـات المشـابهة، كـان المؤتمر مناسبة لتقديم رحلة مجانية إلى عـدد من الأكـاديميين لزيارة مركـز سيـاحي شهير ومقصـود؛ ومثل معظم المؤتمرات حول ماركس، خصوصا تلك التي تسهم فيها عصبة من البيروقـراطيين الأيديولوجيين السوفييت بأوراق بحث ومحاضرات مملة لا تهم أحدا، شجع المؤتمر المشـاركين على مغادرة القـاعات المغلقة وتنسم الهـواء الطلق في الشـوارع. لكن في الثـامن، والتـاسع، والعـاشـر من أيـار/مـايو، كـانت شـوارع باريس تغص بالطلبة المتظاهرين، خصـوصـا تلك الواقـعـة في المنطقتين الخـامـسـة والسـادسـة. وبمحض الصدفة، تزامنت ذكرى الاحتفال بميلاد ماركس مع ذروة التمرد الطلابي الضخم في المديـنة. في خـلال يـوم أو اثنين، تجـاوزت الثـورة حـدود تمرد الطلبـة، لتـتـحـول إلى إضراب عـمـالي شل البـلاد بأسرها، ومن ثم إلى أزمـة سـيـاسـيـة كـبـرى عـصـفت بنظام الجنرال ديغول [١]. وفي خلال بضعة أشهر، أصبحت "أحداث مايو" تعتبر البؤرة المركزية لاندلاع الثورة الطـلابيـة الشـاملة الـتي اختـرقت الحدود السـيـاسيـة والأيديولوجـيـة على امتـداد قـارتين اثنتين، بدءا ببيركلي، مرورا بمدينة المكسيك في الغرب، وانتـهـاء بوارسو وبلغراد وبراغ في الشرق.

عنـدمـا أكـتـب في هذه اللحظة، أنـظر إلى مـشـاهـد تلك الأيام البـاريـسـيـة في

١ - بالنسبة لحكمي المعاصر على أحداث أيار/مايو ، انظر :

May 1968', written later that year in E. J. Hobsbawm, Revolutionaries (London, 1999, and earlier edition),' chapter 24.

"البوم" صور عام ١٩٦٨، نشر في كتاب صدر بعد ثلاثين سنة [١]. أما أشدها تأثيرا فقد التقطت في اليوم الأخير لمؤتمر ماركس (لا أزال أذكر لذعة الغاز المسيل للدموع في حلقي بعد حرق الحي اللاتيني)، في حين أن أكثر الذكريات بقاء وديمومة في الذهن قد سجلتها صورة بدون تاريخ بعدسة هنري كارتييه - بريسون، تظهر مسيرة طلابية احتجاجية حاشدة ـ جمع غفير من الطلاب (الذكور في غالبيتهم الساحقة)، بدون ربطات عنق، يلوحون بقبضاتهم الغاضبة، وقد قصوا شعورهم حسب الزي الدارج بين شباب الطبقة البرجوازية المحترمة، وذلك قبل انتشار موضة الشعور الطويلة للهيبيين، ويكاد حشد الوجوه الشابة يخفي وجوه الرجال البالغين التي تلوح هنا وهناك. لكن وجوه هؤلاء هي التي أتذكرها بوضوح، لأنها تمثل في آن معا الانسجام والتنافر بين الجيل اليساري القديم ـ مثل وجهي أنا ـ والجيل الشاب الجديد. أتذكر الصديق والرفيق القديم البرت ("ماريوس") سوبول، أستاذ التاريخ في جامعة السوربون، وهو يسير بوقاره ومهابته، منتصب القامة، مكتئب الوجه، مرتديا البدلة الداكنة وربطة العنق المميزتين للأكاديميين النبلاء، جنبا إلى جنب شبان في عمر أولاده، وهم يهتفون بشعارات يعارضها بشدة بوصفه عضوا ملتزما في الحزب الشيوعي الفرنسي. لكن كيف لرجل يعيش تراث الثورة والجمهورية ألا "ينزل إلى الشارع" في مثل هذه المناسبة؟ أتذكر أيضا كيف أخبرني جان برونتو (العضو البارز في الحزب الشيوعي آنذاك)، الذي قاد العصيان المسلح ضد الألمان في الحي اللاتيني في باريس عام ١٩٤٤، عن مدى تأثره بمنظر المتاريس والحواجز التي أقيمت، عفويا، في نفس الركن الذي انتصبت فيه متاريس تمرد عام ١٩٤٤ من شارع غي- لوساك، ولا بد أنها نصبت هناك أيضا خلال ثورتي ١٨٣٠ و ١٨٤٨، وكوميونة باريس سنة ١٨٧١ . وإذا كانت نبالة المحتد تفرض نفسها ففي حكم المؤكد أن يفعل التراث الثوري الشيء ذاته.

في الحقيقة، لم يصدمني حدث آنذاك مثل اللقاء الذي دعينا إليه (أنا وعدد من الماركسيين المشاركين في ندوة اليونسكو)، من قبل "معهد ثوريز"، أو إحدى المؤسسات الأكاديمية المرتبطة بالحزب الشيوعي (فأنا لا أذكر بالضبط)، وذلك لمناقشة

1- MAGNUM PHOTO: 1968 Magnum throughout the World, texts by Eric Hobsbawm and Marc Weitzmann (Paris, 1998).

النقاط التي ينبغي عندها تقديم التفسيرات والتأويلات الماركسية، في ذات الوقت الذي تغص فيه الشوارع بالطلبة المتظاهرين! لم يكن أحد يدرك على ما يبدو حجم ما يحدث خارج القاعات المغلقة. وحين أشرت إلى ذلك في الاجتماع تسببت بنوع من الحيرة والارتباك خيم على الحضور لبضع دقائق. قلت متسائلا: أليس لدينا ما نقول حول ما يجري في نفس الشوارع التي مررنا بها في الطريق إلى هذا اللقاء؟ أليس بإمكاننا أن نعلن دعمنا وتأييدنا على أقل تقدير؟ لكن للأسف، لا أستطيع مهما حاولت بعد مضي أربعة وثلاثين عاما أن أتذكر هل استطاع الذين شاركوني نفس المشاعر أن يحرجوا المجتمعين ويدفعوهم إلى التصريح بمثل هذا الإعلان؟ لا يبدو ذلك أمرا مرجحا.

ضمت المجموعة الضخمة من صور أحداث عام ١٩٦٨ أيضا صورة أخرى تسجل جزءا على الأقل من مشاعري آنئذ (من نافل القول إنها التقطت بعدسة هنري كارتييه-بريسون، ذلك العبقري الموهوب في اقتناص اللحظات التاريخية العابرة وتثبيتها بواسطة الكاميرا). الصورة تظهر رجلا متقدما في العمر من الطبقة الوسطى على ما يبدو، يقف ويداه معقودتان خلف ظهره، ينظر متأملا إلى جدار باريسي مغطى بالملصقات، وإلى باب خشبي خشن السطح - يفضي إلى فناء أو بناء. أما الطبقة العلوية من الملصقات فقد نزع نصفها عن الجدار، ليتبدى خلفها جزء من الجدار، و"أفيشات" شبه مرئية لفيلم سينمائي. تراكمت على الباب مجموعة من الملصقات السياسية - ملصق للحزب الشيوعي فوق نص مكتوب حول قوة الطلبة، ثم صفحة شبه ممزقة لمنشور يدعو إلى النضال في سبيل إقامة مجتمع ديمقراطي يمهد السبيل إلى الاشتراكية، بينما كتبت على القمة جملة من ثلاث كلمات بأحرف كبيرة بواسطة علبة رش الطلاء (السلاح الأساسي للثوريين في أحداث عام ١٩٦٨). تقول الجملة: "لا يجب أن يوقف النشوة شيء" (ترجمها محرر الكتاب بدافع الخجل "ليفعل كل منا ما يشتهي"). لا يمكن أن نحزر ما استخلصه المواطن العجوز في صورة مارتييه - بريسون من جدران باريس، التي كانت الضحية الرئيسية للثورة الطلابية والشاهد العلني عليها. كانت ردة فعلي مفعمة بالشكوك. فكما يعرف كل مؤرخ، يمكن تمييز الثورة من خلال الطوفانات الهادرة من الكلمات التي تولدها: كلمات ملفوظة، لكن في

المجتمعات المثقفة يكتب كم هائل من الكلمات من قبل الرجال والنساء الذين لا يعبرون عما في داخلهم بواسطة الكتابة في الأحوال العادية. وتبعا لهذا المعيار، يعتبر ما حدث في مايو من عام ١٩٦٨ شيئا يشبه الثورة الطلابية ـ لكن كلماتها تسجل وتظهر نوعا غريبا منها، مثلما يمكن لأي شخص أن يعرف حالما يشاهد جدران باريس في تلك الآونة.

الحقيقة أن الملصقات والشعارات والكتابات المتميزة في عام ١٩٦٨، لم تكن سياسية بالمعنى التقليدي للسياسي، اللهم فيما عدا الإدانات المتكررة للحزب الشيوعي من قبل مختلف الجماعات والفصائل اليسارية المقاتلة، التي تحدرت بشكل ثابت تقريبا من أيديولوجية المنشقين اللينينيين. ومع ذلك، ندرت الإشارات إلى الأسماء العظيمة لتلك الأيديولوجية ـ ماركس، لينين، ماو، وحتى تشي غيفارا ـ على جدران باريس! [1]. لكنها سوف تظهر فيما بعد على الشارات والقمصان، كأيقونات رامزة إلى قلب وإسقاط الأنظمة. الطلاب الثائرون ذكروا المنظرين بالفوضوية الباكونينية (نسبة إلى الفوضوي ميخائيل باكونين [1814-1876] الذي شارك في ثورات عام ١٨٤٨) التي غابت عن الذاكرة سنين طويلة، لكنهم كانوا أقرب إلى "الوضعاويين" الذين توقعوا قيام "ثورة في الحياة اليومية المعاشة" من خلال تغيير العلاقات الشخصية. ولولا ذلك (إضافة إلى ألمعيتهم في ابتكار الشعارات البارزة التي لا تنسى) لأصبحوا ممثلين لحركة ناقصة وبدائية، رغم أن أحدا لم يسمع بهم حتى ذلك الحين خارج نطاق الدائرة الضيقة للرسامين اليساريين (بالتأكيد لم أسمع أنا بهم). من ناحية أخرى، لم تكن شعارات عام ١٩٦٨ مجرد تعبيرات عن الثقافة المضادة المهمشة، بالرغم من الاهتمام الواضح بترويع البرجوازيين. لقد أراد الثائرون إسقاط المجتمع وليس مجرد تجنبه وتجاوزه.

بالنسبة لليساريين الذين بلغوا منتصف العمر، مثلي، كانت أحداث مايو ١٩٦٨، بل عقد الستينات برمته، محل ترحيب كبير وحيرة مربكة في أن معا. إذ بدا أننا نستخدم نفس المفردات، لكننا لم نكن نتكلم ذات اللغة. علاوة على أن الآباء منا،

١ – لم ألاحظ ذلك بصورة واعية آنئذ ، لكن ايف باجي أعد السجل الكامل للشعارات والكتابات على جدران السوربون ، ثم جمعها وحفظها موظفو خمس جامعات في ذلك الوقت . انظر :

No Copyright. Sorbonne 1968: Grafitti (Editions verticals, 1998), p. 11.

الذين كان لهم أبناء من الشباب الناشطين المقاتلين، لم يختبروا ما حدث بنفس طريقتهم، رغم مشاركتنا في نفس الأحداث. فالعشرون عاما التي مرت منذ انتهاء الحرب علمت أولئك الذين عاشوا منا في دول الديمقراطية الرأسمالية أن الثورة الاجتماعية لم تكن على "الأجندة" السياسية لهذه الدول. وعلى أية حال، حين يتجاوز المرء الخمسين، فإنه لا يتوقع اندلاع الثورة بعد كل مظاهرة جماهيرية، مهما كانت مؤثرة ومثيرة (من هنا المفاجأة التي أصابتنا عرضا - وأصابت الجميع - نتيجة الفاعلية السياسية غير المتجانسة للحركات الطلابية عام ١٩٦٨، التي أسقطت برغم كل شيء رئيس الولايات المتحدة، وبعد فترة كافية لحفظ ماء الوجه، رئيس فرنسا). إضافة إلى أن الثورة بالنسبة لنا، نحن الذين تربوا على تاريخ ما حدث في أعوام ١٧٦٦، و١٧٨٩، و١٩١٧، والذين عاشوا عمرا كافيا ليشهدوا التغييرات الجارية منذ عام ١٩٣٣، لا بد أن تمتلك هدفا سياسيا، حتى وإن تجسدت كتجربة عاطفية/ وجدانية مكثفة إلى أبعد الحدود. لقد أراد الثوار دوما قلب وإسقاط الأنظمة السياسية القديمة، محلية كانت أم أجنبية، بهدف استبدالها بأنظمة سياسية جديدة، تؤسس بعد ذلك أو تضع القواعد الثابتة لإقامة مجتمع جديد وأفضل حالا. لكن مهما كانت الأسباب التي دفعت معظم هؤلاء الشباب إلى الخروج للشوارع، فإنها لا تتصل بذلك الهدف. المراقبون من غير المتعاطفين مع الطلبة الثائرين، مثل ريموند آرون (الذي رأى نفسه يلعب دور دي توكفيل الذي علق على أحداث باريس عام ١٨٤٨)، توصلوا إلى نتيجة مفادها أنهم يفتقدون الهدف تماما: أحداث عام ١٩٦٨ يتوجب فهمها باعتبارها مسرحا جماعيا في الهواء الطلق (=الشارع)، أو "دراما نفسية"، أو "هذاء شفاهيا محموما"، لأنها كانت مجرد "تحرر هائل للمشاعر المكبوتة" [1]. أما المتعاطفون، مثل عالم الاجتماع آلان تورين، مؤلف واحد من أبكر الكتب التي تناولت تلك الأسابيع الاستثنائية وأكثرها تنويرا وتثقيفا حتى الآن، فقد اعتقدوا أن أبسط أهداف الطلبة الثائرين تمثل في الحفاظ على الأيديولوجيات الطوباوية التي تعود إلى ما قبل عام

١- وردت في :

H. Stuart Hughes, Sophisticated Rebels (Cambridge, MA and London 1988), p. 6.

١٨٤٨ [١]. لكن لا يستطيع أحد بالفعل أن يجد بالفعل طوباوية صارخة في الشعارات المتخمة بالتناقضات، مثل: "المنع ممنوع"، التي قاربت على الأرجح تخوم التعبير عن مشاعر الطلبة الثائرين: تجاه الحكومة، أو المدرسين، أو الأهل، أو الجامعة. في الحقيقة، لم يهتم هؤلاء كثيرا على ما يبدو بخلق مثال اجتماعي، شيوعي أو سواه، باعتباره نموذجا متميزا عن المثال الفرداني، للتخلص من كل شيء يدعي الحق والسلطة بمنع الإنسان من فعل ما تريده أناه وغرائزه اللاشعورية. ومع ذلك، فكلما وجدوا شارات عامة يعلقونها على صدورهم، فهي شارات اليسار الثوري، ولو تمثل السبب في أنهم ارتبطوا تاريخيا بالمعارضة.

ردة الفعل الطبيعية لليساريين من كبار السن جسدتها العبارة التالية: "هؤلاء [الطلاب] لم يتعلموا بعد كيفية تحقيق أهدافهم السياسية". لهذا السبب، كما أفترض، كتب آلان تورين المتعاطف بكل جوارحه مع ثوار عام ١٩٦٨، في معرض إشارته إلى عنوان كتابي "الثوار البدائيون" الذي نشر بالفرنسية في باريس آنذاك [٢]، كتب في الصفحة الأولى لنسختي من كتابه: "ها هم الثوار البدائيون للثورة الجديدة". لأن الغرض الحقيقي من كتابي هو إنصاف الصراعات الاجتماعية من الناحية التاريخية ـ اللصوصية، النزاعات الطائفية، أعمال الشغب في المدن خلال الحقبة ما قبل الصناعية ـ التي جرى إغفالها أو حتى صرف النظر عنها لمجرد أنها حاولت التعامل بجدية مع المشكلات التي واجهت الفقراء في مجتمع رأسمالي لم يكن مجهزا تاريخيا بالمعدات والوسائل الكافية، أو كانت تجهيزاته ومعداته عتيقة الطراز عفا عليها الزمن. لكن ماذا لو أن "البدائيين الجدد" لم يسعوا وراء غاياتنا ذاتها على الإطلاق، بل طلبا لأخرى مختلفة تماما؟ ولأن كتابي (المتوفر بالإنكليزية منذ عام ١٩٥٩) قد وقف بوضوح وحماس في صف المظلومين دائما وأبدا، فقد منحني مصداقية أكبر في "شارع اليسار الجديد" (الناطق بالإنكليزية)، مقارنة بتلك التي تمتعت بها عادة بين أعضاء الحزب. ومع ذلك فقد دهشت وارتبكت قليلا حين أخبرني زميل من جامعة كاليفورنيا في بيركلي، مركز تفجر الحركة الطلابية في الولايات المتحدة، بأن مزيدا من المتمردين

١- انظر:

Alain Touraine, Le Mouvement de Mai ou le Communisme Utopique (Paris, 1968).

2 - Eric J. Hobsbawm, Les Primitifs de la Revolte dans l'Europe Moderne (Paris, 1966).

الشباب المثقفين هناك يقرؤون كتبي بحماسة كبيرة نظرا "لأنهم يربطون أنفسهم وحركتهم" مع ثواري.

بعد أن درّست في الولايات المتحدة خلال ذروة الحملة المناهضة لحرب فيتنام عام ١٩٦٧، وشهت أحداث باريس عام ١٩٦٨، كتبت مقالا ملتبسا حول "الثورة والجنس" عام ١٩٦٩، أشرت فيه إلى أنه إذا كان ثمة علاقة بين الاثنين، فهي علاقة سلبية: إذ استطاع الحكام تهدئة وتغييب الأرقاء والفقراء من خلال تشجيع الحرية الجنسية بينهم، ولربما أضيف المخدرات أيضا، متذكرا كتاب الدوس هكسلي "العالم الجديد الجسور".

وباعتباري مؤرخا فقد عرفت أن كافة الثورات تتميز بملمح ليبرتاري يعطي الحرية للجميع، لكن "الثورة الثقافية ذاتها والانشقاق الثقافي بحد ذاته هما من الأعراض والعلامات لا من القوى الثورية". و"كلما برزت مثل هذه الأمور" - كما هو واضح في الولايات المتحدة - "كلما زادت ثقتنا بأن الأمور لا تحدث" [١]. لكن ماذا لو أن "الأشياء المهمة" لن تتجسد في إسقاط الرأسمالية، أو حتى بعض الأنظمة السياسية القمعية أو الفاسدة، وإنما بالتحديد في تدمير الأنماط التقليدية للعلاقات بين الناس والسلوك الشخصي ضمن المجتمع القائم؟ ماذا لو كنا مخطئين في رؤية الثائرين والمتمردين في الستينات باعتبارهم يمثلون طورا آخر لليسار أو تنويعا جديدا عليه؟ في هذه الحالة، لم تكن حركتهم الثورية محاولة خرقاء للقيام بأحد أنواع الثورة، بل مصادقة فاعلة على نمط آخر: الثورة التي تلغي السياسات التقليدية، وفي نهاية المطاف سياسة اليسار التقليدي، بواسطة شعار "الشخصي هو سياسي". عندما أنظر إلى الوراء بعد نيف وثلاثين سنة، تسهل علي رؤية أنني أسأت فهم الأهمية التاريخية لعقد الستينات.

تمثل أحد الأسباب الكامنة وراء ذلك في أنني غرقت حتى الأذنين منذ عام ١٩٥٥ في عالم موسيقيي "الجاز" الصغير و"الليلي" في معظمه. بدا لي العالم الذي عشت فيه في النصف الثاني من الخمسينات مشبعا بالروح التي ستهيمن في الستينات. كان ذلك خطأ. فالستينات مختلفة تمام الاختلاف. وإذا ما ظهرت علامة ترمز إلى الآتي في

١- هذه المقالة هي الفصل ٢٢ من كتابي :

Revolutionaries: Contemporary Essays (London, 1973, and various editions since).

الستينات فهي موسيقى "الروك"، التي بدأت سيطرتها على العالم في النصف الثاني من الخمسينات، وشكلت فورا فجوة عميقة يصعب تجسيرها بين جيلي ما قبل وما بعد عام ١٩٥٥ .

لم يتمكن "عالم الجاز"، مع استثناءات نادرة، من فهم "عالم الروك". وكانت ردة فعله بنفس القدر من الازدراء الذي رد فيها تقليديا على موسيقى "ميكي ماوس" والفرق الموسيقية التجارية القديمة. بل ربما نظر إليه بدونية أكبر، نظرا لأن الذين عزفوا أكثر الألحان إثارة للملل كانوا من الفنانين المحترفين البارعين على أقل تقدير. بالمقابل، قتلت موسيقى "الروك" موسيقى "الجاز" بصورة كاملة تقريبا بخلال بضع سنين. أما فجوة الأجيال بين أولئك الذين اعتبروا أعضاء فرقة "رولينغ ستونز" بمثابة آلهة الفن، وبين أولئك الذي رؤوا فيهم مجرد محاكاة تكرارية لمطربي أغاني "البلوز" السود، فقد كان من المستحيل تجسيرها عمليا، حتى وإن اتفق الطرفان من حين لآخر على تقدير بعض المواهب الفنية (كنت معجبا بفرقة "البيتلز"، ومعترفا بجزء من عبقرية بوب ديلان، الذي امتلك إمكانيات الشاعر الكبير، وإن كان على درجة من الكسل، أو الاستغراق في الذات، منعته من الاحتفاظ بالوحي الملهم لأكثر من بيتين شعريين أو ثلاثة في كل قصيدة). وبغض النظر عن المظاهر، بقي أفراد جيلي غرباء عن عقد الستينات.

كل ذلك صحيح برغم حقيقة أن لغة، وثقافة، وأسلوب حياة أجيال "الروك" الجديدة أصبحت مسيسة لبضع سنين في الستينات. فقد كانت تتحدث بلهجات عُرفت بأنها مستمدة من اللغة القديمة لليسار الثوري، مع أنها لم تكن بالطبع تتصل بشيوعية موسكو المتزمتة، التي شوه سمعتها سجل الحقبة الستالينية والاعتدال السياسي للأحزاب الشيوعية في آن معا. وكل من قرأ أفضل كتاب ظهر في بريطانيا عن عقد الستينات، "وعد الحلم"، لصديقتي وطالبتي السابقة، شيلا روبوتام، سوف يدرك (لبضع سنين) أن من المحال تقريبا بالنسبة لأي فرد من جيلها (ولدت عام ١٩٤٣) أن يميز فعلا بين الشخصي والسياسي. إنه "اليساري اليكس كورنر" (أتذكره، ببشرته الداكنة، وطبعه الهادئ، في بيزووتر) الذي ألهم "القطيعة الحاسمة مع الجنسانية النابضة لفرق موسيقى البلوز" [١]. فرقة "رولينغ ستونز" مثلا، كتب مؤسسها، مايك جاغر، قصيدة "رجل الشارع المقاتل" بعد تظاهرة التضامن الدراماتيكية مع فيتنام عام

1- Sheila Rowbotham, Promise of a Dream (London, 2000), pp. 118, 203-4, 208.

١٩٦٨، ونشرها في جريدة طارق علي، الباكستاني التروتسكي المتحمس، "القزم الأسود" (The Black Dwarf). "باريس، لندن، روما، برلين! سوف نقاتل. سوف ننتصر". لا يعني ذلك أن الخط الفاصل قد امحى نهائيا. فقد اقترح أحد الأشخاص الذي سيصبح فيما بعد أستاذا للاقتصاد في كامبريدج أن على الرجال الاشتراكيين من أصحاب المبادئ أن يحتجوا علنا على انتشار نوادي التعري في سوهو، من خلال التعري خارجها! (العاملون في "مجلة اليسار الجديد" أخبروه بأنه "بيوريتاني متزمت و"دقة قديمة" في موقفه من الاشتراكية!). وكما تقول شيلا روبوتام، عبر اليساريون الذين "ارتدوا 'لباس الكفاح' الداكن الكئيب.. الذي ازداد اهتراء باطراد.."عن استهجانهم لوجود ناشطة مخلصة مثلهم أتت لاحتلال قاعات المحاضرات في مدرسة لندن للاقتصاد "في بزة خضراء سروالها 'شارلستون' حسب الموضة (ابتعتها في إحدى فورات الشراء التي أتحمس لها عادة في شهر أيلول/سبتمبر من كل عام)" [1]. معظم ذلك فات على اليساريين من الجيل القديم، حتى وإن كان الراديكاليون البريطانيون الشباب على الأرجح - ربما بفضل أبناء جيلي من المؤرخين الحمر - متشربين بالتاريخ، خصوصا تاريخ الطبقة العاملة أكثر من أي تاريخ آخر. عرفنا معظم الناشطين الرئيسيين باعتبارهم من المحتجين الزملاء، أو التلاميذ، أو الأصدقاء. لم أكلف نفسي عناء قراءة "القزم الأسود"، رغم أن المسؤولين عنها طلبوا مني كتابة مقال فيها وفعلت ذلك طبعا. وجرى حشد أشخاص مثلي بواسطة الشباب من أجل معارضة بعض الأمور مثل تعيين أساتذة للحلقات الدراسية حول فيتنام - ترشحت ضد هنري كابوت لودج، "الأخ الكبير" الأمريكي في سايغون سابقا، والذي اعتبر اختياره للحلقة الدراسية لاتحاد اكسفورد التي نظمها طارق علي عام ١٩٦٥، خطأ فادحا. لحسن الحظ، لم أواجه في كليتي تجربة احتلال الطلاب لقاعات التدريس، وهي تجربة محرجة تجرح المشاعر، وتعتبر مصدر توتر كبير للعلاقات المتبادلة بين الأجيال، رغم أنني دعيت للتحدث أمام جمهور من "قوات الاحتلال الطلابية" في "كامبريدج اولد سكولز" من قبل أحد زعمائها، كان بالصدفة ابنا لأحد أصدقائي. أعتقد بأن ما خيبت آمالها هي إشارتي إلى أنه حتى تاريخ الحقب الذي يضيع في ضباب الماضي، مثل تاريخ القرن التاسع عشر، يمكن أن يكون "وثيق الصلة" (العبارة الطنانة آنئذ).

1- Ibid., p. 203.

لم ندرك تماما المدى الذي وصل إليه حتى اليسار الذي لا يرقى الشك إلى تطرفه (الثوريون المسلحون والإرهابيون الجدد الذين خرجوا من ركام ثورة الستينات) في تأثره العميق بـ"الثقافة المضادة"، بل لم نعلم بأنه في الحقيقة جزء منها. الـ"ويذرمن" (إحدى الجماعات المتطرفة التي تتبنى أسلوب العنف في الولايات المتحدة) أخذت اسمها من أغنية لبوب ديلان. "الجيش الأحمر"، المعروف باسم عصابة بادر- ماينهوف، عاش في ظل النسخة الألمانية من الثقافة المضادة للامنتمين بالاختيار وبالسلوك.

لم تفهم الشريحة العمرية التي أنتمي إليها أن الأجيال الطلابية في الغرب اعتقدت خلال الستينات، كما فعلنا نحن ذات مرة وإن بطريقة أقل سهولة بكثير في تحديد "السياسة"، بأنها تعيش في حقبة ستشهد تبدل كل شيء، لأن كل شيء حولها قد تعرض للتغيير بواسطة الثورة. لم نكن نحن (أو المتشائمون فطريا من الكهول الحمر مثلي على أقل تقدير)، الذين نحمل ندوب خيبة استمرت طيلة نصف حياتنا تقريبا، قادرين على مشاركة جيل الشباب في تفاؤله "الكوني"، وقد شعر بأنه "علق في دوامة ذلك الاضطراب العظيم الذي أفرزته الثورة العالمية" [1] (أحد نواتجه الفرعية تمثل في "السياحة الثورية العالمية"، حيث سترى المفكرين والمثقفين الطليان، والفرنسيين، والبريطانيين اليساريين يجتمعون في نفس الوقت في بوليفيا عام ١٩٦٧ عند مقتل غيفارا، ولحضور محاكمة ريغيز ديبراي).

حوصرنا جميعا بالطبع في إسار هذه الصراعات العالمية الكبرى. في الحقيقة، أعاد العالم الثالث إلى الأول الأمل بالثورة في الستينات. أما مصدرا الإلهام العظيمان على الصعيد الدولي فهما كوبا وفيتنام. إذ جسدتا انتصارا كبيرا لا للثورة وحدها، بل لدافيد ضد غوليات، للضعيف ضد القوي. أصبحت "حرب العصابات" (العبارة التي جسدت الشعار الرامز للمرحلة) المثال الجوهري ومفتاح التغيير في العالم. ثوار فيدل كاسترو، الذين تميزوا بفتوتهم، وشعورهم الطويلة، ولحاهم الكثة، وبلاغتهم الخطابية، باعتبارهم الوريثين الشرعيين لثورات عام ١٨٤٨ (فكرْ بالصورة الشهيرة لغيفارا!)، قدموا بوصفهم رموزا عالمية لعصر جديد من الرومانسية السياسية. من الصعب تذكّر، أو حتى إدراك، الأصداء العالمية لما جرى في يناير/كانون الثاني

1- Ibid., p. 196.

١٩٥٩ في تلك الجزيرة الصغيرة الضائعة في أمريكا اللاتينية، والحدث لم يكن غير مألوف في تاريخها. أما الفيتناميون، بأجسادهم المهزولة العجفاء، فقد أنزلوا هزيمة ماحقة بالقوة التدميرية الساحقة للولايات المتحدة في ممرات الأدغال وحقول الأرز. ومنذ اللحظة التي أرسل فيها الرئيس الأمريكي ليندون جونسون قواته إلى فيتنام (على نطاق واسع) عام ١٩٦٥، لم يكن لدى أحد أدنى شك حول من ستكون له الغلبة، حتى بالنسبة للكهول غير الطوباويين من أمثالي. إن عظمة وبطولة ومأساة النضال الفيتنامي هي التي عبأت وحشدت وحركت قوى اليسار (الناطق بالإنكليزية) أكثر من أي شيء آخر في الستينات، وهي التي ربطت جيليه وكافة طوائفه وشيعه المتنازعة في العادة. التقيت بعدد من أترابي وتلاميذي في ساحة غروزفينور (في لندن) وهم يتظاهرون جنبا إلى جنب أمام السفارة الأمريكية ـ شاركنا في إحدى المسيرات أنا وزوجتي والطفلان الصغيران، هاتفين من أعماقنا "هو.. هو.. هوشي منه"، مثلنا مثل الآخرين. كنت معروفا بتشككي بحرب العصابات على طريقة غيفارا، التي ثبتت على أية حال نتائجها الكارثية (انظر الفصل ٢١)، لكن يظل اسم فيتنام محفورا كالوشم في قلوبنا. وحتى عند نهاية القرن، مازالت عواطفنا متأججة نحوها، وتوضحت بشكل ملموس في هانوي، حين شاهدت وزوجتي جماعة من الرجال المهزولين الذين شيبتهم السنون، يرتدون البزات الرسمية المزينة بنياشين الانتصارات في المعارك الصعبة التي خاضوها، يشقون طريقهم تحت الأشجار لزيارة منزل هوشي منه. لقد قاتلوا من أجلنا، وباسمنا، ونيابة عنا.

فيما عدا المشاركة في الحملات المؤيدة لفيتنام، لم يكن لي أية صلة محددة بها خلال الحرب، ولم أقم بزيارتها إلا بعد ربع قرن من تحقيق النصر، وحتى تلك الزيارة كانت لتمضية الإجازة هناك. من ناحية أخرى، وعلى شاكلة العديد من اليساريين الذين ألهمتهم الثورة الكوبية، زرت كوبا عدة مرات في السبعينات، ولهذا رأيت ـ بالصدفة ـ عينة كبيرة ومتكررة من اليسار العالمي. أما أول رحلة قمت بها إلى هناك فكانت في عام ١٩٦٠، لحضور فترة شهر العسل التي تمر بها الثورة الفتية. وجدت نفسي جنبا إلى جنب مع صديقين ـ من المتخصصين في الاقتصاد ـ جسدا تلك الظاهرة النادرة، أي اليسار الماركسي الأمريكي القديم الذي لا يرتبط بالحزب الشيوعي ولا بمناوئيه: بول

سويزي، بقامته الطويلة، ولهجته (اليانكية) البطيئة المميزة لولاية نيو انغلاند، وبول باران. ونظرا لأن مجلتهما الصغيرة المحاصرة "منثلي ريفيو" (Monthly Review) ("المجلة الشهرية")، قد ظلت ترفع الراية الحمراء في الولايات المتحدة حتى خلال الحرب الباردة، فقد لقيا الترحيب من قبل كاسترو ورجال العصابات السابقين في سييرا مايسترا. أما صلتي بهما فقد أتت من خلال كارلوس رفائيل رودريغيز، زعيم الحزب الشيوعي المرعب الذي تمتع بموهبة استثنائية في التكيف مع المستجدات السياسية، وأثمر إصراره على القضية المشتركة مع كاسترو حين كان يقود ثواره هناك نتائج طيبة بعد النصر. ظلت هافانا تعتبر "جنة الرقص الحر"، بالنسبة للسياح الغربيين المغرمين بالموسيقى والرقص، تشع منها "الرومبا"، ويهيمن عليها التسامح الثقافي، وبدت الجزيرة خصبة بما يكفي لإقناع النظام الثوري بأن مستقبله سيكون سهلا وواعدا. اتفقنا على أن كوبا لن تجد صعوبة في إطعام سكانها البالغ عددهم عشرة ملايين، فلديها ما يكفي من "الرم"، والسيجار، وتلك المقاهي الصغيرة المدهشة في زوايا الشوارع ـ التي اختفت مع تعثر وإخفاق الاقتصاد الكوبي. بعد ثمانية عشر شهرا من النصر، كان شهر العسل بين الشعب والحكومة الثورية ما يزال محسوسا وملموسا. انتقلنا من مكان لآخر، وزرنا معظم أنحاء الجزيرة مترعين برؤى ضبابية من التفاؤل والأمل، بعد أن راوغنا أولئك الراديكاليين الأمريكيين الشباب الذين تسلحوا بكاميراتهم السينمائية.

زيارتي الثانية تمت في عام ١٩٦٢ عن طريق براغ وشانون وغاندر، بصحبة وفد يساري بريطاني مكون من العناصر المعتادة: نائب عمالي يساري؛ عدد من المطالبين بنزع أسلحة الدمار الشامل (البريطانية) من جانب واحد؛ زعيم نقابي متشدد ومتمسك بخط الحزب، دون أن يفتقد الاهتمام بالأماكن الأجنبية النائية؛ "متآمر" راديكالي غريب الأطوار؛ كوادر الحزب الشيوعي وغيرهم. شاب أفريقي يتحدث بلهجة سريعة انضم إلى الوفد بطريقة ما، زاعما أنه يمثل منظمة غير معروفة تدعى "حركة الشبيبة" في منطقة مجهولة من غرب أفريقيا، كان أول تصرف له عند الوصول إلى براغ هو محاولة الاتصال بوزارة الخارجية أملا في العثور على مصدر لتمويل الثورة في العالم الثالث من خلاله. رفض الكوبيون التعامل معه، في حين رأيته يمثل ذلك النتاج الجانبي الغريب لتلك الحقبة: رجل أسود مفعم بالثقة يستغل جهل البيض التقدميين، أو ردود

الفعل الانعكاسية المعادية للإمبريالية لديهم. كان أحد الجنود الناجحين، أو "المحتالين" في الحرب الباردة. غدا اليسار حسن الاطلاع على مثل هؤلاء، بل سمح لهم أحيانا باستغلاله - في بريطانيا مثلا، كان مايكل اكس، بشخصيته المليئة بالتناقضات، والذي وقف في منتصف الطريق بين البداية السيئة لأفاق في غرب لندن، والنهاية الكئيبة على سقالة في ترينيداد، وعلى صفحات رواية ف. س. نايبول الفظة، منظرا شائعا ومألوفا في حفلات لندن. وفي حكم المؤكد أن هذه النماذج من المتشردين والأفاقين والمنبوذين القادمين من مختلف أصقاع الإمبراطورية المتفسخة، كانوا أقل تأثيرا من الناشطين السود في الولايات المتحدة، الذين سرعان ما تطلعوا إلى كوبا لمد يد العون لهم، لكن كمن وراء الأفاقين الذين افتقدوا القدرة على الإقناع - كذاك الشاب الأفريقي - مأساة الأجانب البيض الذين اجتثت جذورهم، وهو أمر لم أقدره آنذاك حق قدره. أما بالنسبة للوفد ذاته، فكل ما أذكره عنه هو أنني وجدت نفسي أترجم لتشي غيفارا، الذي استقبلنا (نيابة عن كاسترو) على مائدة غداء في مبنى فندق هيلتون السابق (بدا غيفارا في الحقيقة في مثل وسامته في الصورة الشهيرة. وإن لم يقل شيئا يستحق الاهتمام). لكن بفضل المعلومات الثمينة لدى ارجيليز ليون، خبير شؤون الطوائف والمجتمعات السرية الأفريقية الكوبية، ومدير معهد الإثنولوجيا والفلكلور الذي أسسه النظام الجديد للتو، تمكنت من الاستماع لبعض المقطوعات الموسيقية المدهشة في حانات السود في هافانا.

زيارتي الثالثة كانت لحضور مؤتمر هافانا الثقافي، وهو تجمع احتفالي نابض بالحياة إلى حد ما، اعتبر بمثابة "الفصل الأخير في قصة فيدل كاسترو مع الأنتلجنسيا الأوروبية". انعقد المؤتمر في كانون الثاني/ يناير من عام ١٨٦٨، حين كانت العلاقات تشهد فترة من البرود بين كاسترو وموسكو، ولذلك تجاهل عمدا دعوة الشخصيات الثقافية من الكتلة السوفييتية، أو من مفكري الأحزاب الشيوعية الأرثوذكسية (فيما عدا الحزب الشيوعي الإيطالي، حيث مازالت الشيوعية والثقافة المحلية تسيران جنبا إلى جنب). وبدلا من ذلك، أحضر إلى هافانا مجموعة مؤثرة جدا من المستقلين، والمنشقين، والهراطقة اليساريين من مختلف الأطياف السياسية، بمن فيهم معظم أفراد الجيل القديم من المجموعات السياسية المنشقة والطليعية في باريس. أما الإسهام الذي

لا ينسى لهؤلاء في المؤتمر فكان "الحدث" السياسي ـ الفني الشهير، حين هاجم السرياليون القدامي ـ جسديا ـ الرسام المكسيكي سكيروس الذي ارتبط ذات مرة بالمؤامرات التي خططت لاغتيال تروتسكي، وذلك عند افتتاح أحد المعارض الفنية، رغم عدم توضح ما إذا كانت الدوافع وراء تلك الحادثة مؤسسة على الخلافات الفنية أو السياسية. لكن الأمر الغريب في غزو الماضي القادم من الحي اللاتيني هو مدى وهن العلاقة المشتركة مع الثورة الطلابية التي كانت على وشك الانفجار في شوارع باريس، أو مدى الفشل في توقعها. ومع ذلك، كان المؤتمر مناسبة مثيرة لي، بالرغم من كآبتها إلى حد ما نظرا للمأزق الواضح الذي سقط فيه الاقتصاد الكوبي، حيث منحني الفرصة للتعرف إلى هانس ماغنوس انزنبرغر الشهير في مرحلته الكوبية، إضافة إلى زوجته الفاتنة ماشا، الروح الضائعة التي ستنتهي حياتها نهاية مأساوية في لندن، وضحية الليالي السود في الحقبة الستالينية. فوالدها هو الكسندر فادييف، الأمين العام لاتحاد الكتاب السوفييت خلال سنوات الرعب، والبيروقراطي العامل في الدولة الذي تولى مهمة التحكم بحياة وموت أصدقائه، الذي أقدم على الانتحار عام ١٩٥٥ .

لا أعرف ما الذي استنتجه كاسترو من هذا التيار الدافق الغريب من الأوروبيين. كان أكثر إحساسا بالراحة كما يفترض مع جياغياكومو فيلترنيللي، الذي طرد مؤخرا من بوليفيا إضافة إلى البيرو، والذي كان يقول للكوبيين "بلغة إسبانية لا يفهمها سوى الطليان!"، إن "مهمته كناشر أوروبي وصلت إلى نهايتها، وإنه يرى نفسه الآن كمقاتل ضد الإمبريالية بشكل كلي" [1]. من حسن الحظ أن دار النشر التي أسسها عام ١٩٥٥، وتميزت، مثله، بالسياسة والأدب، وكانت أول من نشر رواية بوريس باسترناك "الدكتور جيفاكو"، ورواية لامبيدوسا "الفهد"، لا تزال مزدهرة حتى الآن. لا أتذكر هل قابلته في تلك المناسبة، رغم أنني عرفت هذا الشاب الملياردير معرفة سطحية منذ أوائل الخمسينات حين كان ناشطا متحمسا في الحزب الشيوعي ومُمولا لأنشطته الثقافية. أتذكر حديثا وجيزا معه في مكتبه في ميلانو خلال أزمة الشيوعية العالمية المرهقة للأعصاب بين عامي ١٩٥٦-١٩٥٧، دار حول الوجهة التي يمكن، أو يجب على الحركة الشيوعية اتخاذها، وذلك وسط سيل من الاتصالات الهاتفية التي رتب من

1- Carlo Feltrinelli, Senior Service (Milan, 1999), p. 314.

خلالها قضاء عطلة نهاية الأسبوع مع فتاة في إحدى القلاع على ساحل الأدرياتيك. لا بد أن اللقاء تم في الوقت الذي كان فيه على وشك ترك الحزب. ولسوف يأخذه انشقاقه عن الحزب إلى العالم السري للكفاح الثوري المسلح. حين كان مراهقا، قاتل مع الأنصار الشيوعيين في سبيل الثورة، ضد الفاشية، وضد عائلته كلها، وضد كل ما تمثله الطبقة البرجوازية الفاحشة الثراء في ميلانو. روح تشي غيفارا أحيت هذه الذكريات لديه، وسرعان ما انضم إلى العالم السري بعد عام ١٩٦١ـ أو بالأحرى دخل فيه إلى العمق الذي يصل إليه شاب ثري، وبارز اجتماعيا، ويشكل موضوعا مثيرا تتناقل أخباره عناوين الصحافة العالمية ـ قبل أن يلقى حتفه عام ١٩٧٢ في ظروف غامضة حين كان يحاول تفجير برج أسلاك كهربائية ذات توتر عال في سيغريغات، إحدى المناطق المنعزلة في ضواحي ميلانو.

لا أدري هل عرف كاسترو أولئك المثقفين الشباب الفرنسيين ـ الكنديين الذين فشلوا، رغم شخصياتهم الساحرة، بإقناعي بأن خطتهم لتحويل غابات كيبيك إلى سيرا مايسترا جديدة سوف تعزز تقدم مسيرة الثورة العالمية. وأشك بوجود من أصغى إليهم في كوبا. حاولت مرارا الاتصال بأكثرهم ذكاء وثقافة ودماثة بعد سنتين حين كنت في مونتريال. لم يرد أحد على الهاتف. لقد وصل انقطاع صلتي بروح العصر إلى حد أنه لم يخطر ببالي إلا لاحقا، بأن ذلك الشاب لا بد وأن يكون واحدا من الإرهابيين المنتمين إلى "جبهة تحرير كيبيك" الوطنية المتطرفة، التي اختطفت مفوض التجارة البريطاني واغتالت أحد وزراء كيبيك، أو ربما كان أحد الذين منحوا مخرجا آمنا إلى كوبا مقابل الإفراج عن الديبلوماسي البريطاني المختطف. لكن كانت تلك الفترة هي التي شهدت قيام حتى المتطرفين من أنصار القومية العرقية ـ اللغوية، مثل أعضاء منظمة إيتا الباسكية في أوائل عهدها، بتقديم أنفسهم بزي الثورة العالمية.

II

في أواخر الستينات، شعر الشباب لوهلة، أو على الأقل أبناء الطبقات الوسطى القديمة، وقوى الجماهير الجديدة الصاعدة آنذاك إلى مصاف الطبقة الوسطى بعد انتشار التعليم الجامعي الجماهيري، بأنهم يعيشون الثورة، بغض النظر عما إذا تم ذلك عبر

المخرج الشخصي الخاص من عالم السلطة، أو الأهل، أو الماضي، أو من خلال التراكم المستمر الذي بلغ حد النشوة المثيرة للفعل السياسي أو الذي يبدو سياسيا، أو عن طريق الإشارات والإيماءات التي حلت محل الفعل. واتضح أن المزاج السائد في أوساط الشباب السياسي خلال "تلك الفترة المحمومة من عام ١٩٦٨"، كان مزاجا ثوريا، إلا أنه لم يكن مفهوما بالنسبة لليساريين المتقدمين في العمر من أبناء جيلي، ولم يقتصر السبب على أن الوضع لم يكن ثوريا بأي معنى من المعاني الواقعية. دعوني أستشهد بشيلا روبوتام، التي وصفت المشهد بقدرة مدهشة على إدراك ما يحدث:

ابتعدت المشاعر الشخصية عن الواجهة. علاقاتي الجنسية اقتنصتها بين اللقاءات والاجتماعات، وبطريقة ما لم تترافق معها الأحاسيس الوجدانية المعتادة، كأنما الألفة الحميمية قد اكتسبت صفة نوعية عشوائية تقريبا. وأصبحت طاقة التجمع الخارجي مكثفة وشديدة إلى حد بدت فيه حدود العلاقة الحميمية، والنشوة الداخلية، قد سفحت في الشوارع.. ولهذا لمحت عملية الإبادة الفريدة والغريبة للشخصي في خضم الأحداث الدرامية مثل الثورة.. عند استعادة الماضي تبدو الثورات بيوريتانية متشددة، لكن ذلك ليس ما يختبره المرء عند اندلاعها.. حين حوصرنا في شرك هذا الاضطراب العظيم للثورة العالمية، شعرنا وكأن أحدا يحملنا إلى حافة العالم المعروف[1].

لكن حالما أفرغت السحب الكثيفة من الخطابات المتطرفة والتوقعات والآمال الكونية حمولتها كل يوم، ظهر التمايز بين الانتشاء والسياسة، بين القوة الحقيقية والقوة المجازية، بين الصوت والفعل، وغدا مرئيا من جديد. لم تسقط أريحا بأصوات أبواق يشوع المجلجلة. توجب على الشباب المسيسين التفكير بالفعل الإجرائي الواقعي الذي يتطلبه احتلالها. ونظرا لأن جيلي الكهول والشباب من الثوريين قد تحدثا بنفس اللغة (بإحدى اللهجات الماركسية على الأغلب)، أصبح من الممكن مرة أخرى وجود شكل من أشكال التواصل بينهما، سيما وأن الجماعات الناشطة خرجت على الاعتقاد الغامض بالوحي التلقائي، وعادت في كثير من الأحوال إلى تراث المنظمات الطليعية المنضبطة. لكن في الحقيقة، هنالك فجوة واسعة فصلت بين اليساريين الكهول والشباب. لم تكن الثورة موجودة على "أجندة" بلادنا. وبالنسبة للثوريين من أبناء

1- Rowbotham, op. cit., p. 196.

جيلي، بقيت المشكلة المركزية متمثلة في ما يجب على الأحزاب الماركسية فعله، وما هي وظيفتها الحقيقية، في الدول غير الثورية، وفي كل مكان آخر. وحيثما كانت عمليات العصيان المسلح أو حروب العصابات الناجحة موضوعة بشكل واقعي على "الأجندة"، كنا - أو على الأقل كنت أنا - ما نزال نؤيدها وندعمها.

الغريزة القديمة التي تدفع المرء إلى نصرة الثوار المتمردين ورجال حروب العصابات، الذين يتكلمون بلغة اليسار، مهما كانت حمقاء وخرقاء، بقيت عنيدة ثابتة لا تموت بسهولة. صحيح أنني في الثمانينات، وفي مواجهة ظاهرة منظمة "الدرب المضيء" البوليفية التي خاضت حرب عصابات طويلة ضد الحكومة - اعتمادا على أيديولوجية شاذة حتى بالنسبة للمتطرفين المهووسين من أتباع الماركسية - اللينينية، كما تقر - اعترفت لنفسي صراحة أن تلك هي الحركة اليسارية التي لم أتمنى لها النجاح (لحسن الحظ، تمكن الشيوعيون الفيتناميون من وضع حد لميادين القتل التي أقامها بول بوت في كمبوديا)، إلا أن تعاطفي مع الثورة والثوار ظل على أشده، ولربما لم يكن أكثر من مجرد نسخة من تعاطف المثقفين والمفكرين منذ أبد الدهر مع الفقراء والمظلومين، نسخة طبق الأصل عن الشعور الذي يمنع المرء من الوشاية بأولئك الذين تسوقهم الدولة ورجال الأمن إلى المعتقل. لربما يأتي ذلك بشكل طبيعي إلى مؤلف "الثوار البدائيون"، وعصابات الصعاليك و"قطاع الطرق"، الذي يجد صعوبة في كبح إعجابه بالمناضلين الشرفاء المحاصرين حتى وإن خسروا المعركة، وحتى لو كانوا على خطأ واضح لا لبس فيه. في الولايات المتحدة، كنت أتعاطف مع "الفهود السود". أعجبت بشجاعتهم واحترامهم لذاتهم. وتأثرت بالبساطة اللينينية التي ضمتها منشوراتهم، وإن توضح لي أنهم لا يمتلكون أدنى فرصة لتحقيق أهدافهم.

لكن لم أشعر بأي تعاطف مع معظم التنظيمات الثورية المتمردة، أو بالأحرى مع جماعات العمل المسلح الصغيرة التي خرجت في أوروبا من بين ركام الثورة الطلابية الكبرى عام ١٩٦٨. كانت هنالك فسحة للاختلاف المنطقي مع أعدادها المقابلة في أمريكا اللاتينية التي يختلف وضعها السياسي اختلافا جذريا (انظر الفصل ٢١)، لكن نشطاءها في أوروبا كانوا إما حمقى أو أفرزت حركتهم نتائج عكسية. أما العمليات الوحيدة من هذا النوع، التي قد تملك شيئا من الجدوى السياسية العملية،

فهي تلك التي قام بها القوميون الانفصاليون: في كيبيك، والباسك، وإيرلندا، رغم معارضتي الشديدة لمشروعهم السياسي. الماركسيون ليسوا من القوميين الانفصاليين[1]، وعلى أية حال، فقد ولدت في هذه الفترة واحدة من الحركتين الانفصاليتين (اللتين تعتبران من أكثر الحركات الانفصالية من هذا النوع بقاء واستمرار)، ألا وهي الجيش الجمهوري المؤقت، الذي لم يزعم أبدا انتماءه إلى اليسار، بل على العكس، فقد انشق عن الجيش الجمهوري الايرلندي القديم ("الرسمي") الذي تحول إلى اليسار.

وهكذا، لم أشعر بأي تعاطف مع هؤلاء الثوريين الجدد، ولا كنت على صلة بهم، ولو كان السبب في ذلك راجعا إلى العمر وحده. لا يعني ذلك أن هناك العديد من مثل هذه المنظمات. في بريطانيا مثلا، لم تظهر أية منظمة من هذا النوع، فيما عدا الجماعة الفوضوية وغير المؤثرة التي لم تعمر طويلا، "لواء الغضب". أما في المانيا الغربية، فلم يتجاوز عدد الأشخاص المتورطين في العمل المسلح بضع عشرات على أكثر تقدير، معتمدين على الأرجح على حوالي ألف وخمسمائة متعاطف، إضافة إلى حفنة أخرى من الأفراد الذين تحولوا من العمل المحلي في بلادهم إلى العمل على المسرح الدولي، تضامنا مع بعض الجماعات الثورية المناهضة للإمبريالية في العالم، خصوصا الفلسطينية منها. كان عالما لم أعرفه، إلا عن طريق واحد أو آخر من المؤرخين الشباب الراديكاليين في المانيا الغربية، الذين كانوا على صلة ببعض تنظيماته في تلك الفترة. لم تكن لي أية صلة بـ"الألوية الحمراء" وأشباهها في إيطاليا، التي تعتبر من أكثر الجماعات المسلحة في أوروبا ترويعا، باستثناء منظمة ايتا الباسكية. لا أظن أن عدد الأعضاء الناشطين في هذه الجماعات تجاوز المائة أو المائتين. ولأسباب لم أفهمها أبدا، لم تظهر أية جماعة ثورية مسلحة تنتمي إلى اليسار من خرائب عام ١٩٦٨ في فرنسا، رغم بروز جماعة إرهابية صغيرة لكن مؤثرة وفاعلة تماما نشطت لعدة سنوات في بلجيكا. من ناحية أخرى، لو كنت على اتصال بهذه الجماعات، لما طلبت منها أن تفعل ما فعلته، ولما سألتني رأيي، حتى وإن حسبت أنني أقف في صفها على الصعيد السياسي.

1- New Left Review, 1977.

إلى أين أدى كل ذلك؟ في السياسة، لم يؤد إلى شيء. ونظرا لأن الثورة لم تكن محتملة ولا مرجحة، كان على الثوريين الأوروبيين الذين انطلقوا من أحداث عام ١٩٦٨، أن ينضموا إلى التيار السياسي الرئيسي لليسار، باستثناء المفكرين والمثقفين اللامعين جدا، كما كانت حال العديد منهم، الذين هربوا من السياسة الحقيقية إلى البيئة الأكاديمية، حيث يمكن للأفكار الثورية البقاء من دون الكثير من الممارسة السياسية. على الصعيد السياسي، أبلى جيل عام ١٩٦٨ بلاء حسنا، خصوصا حين نضيف أفراده الذين جندوا في الوظائف الحكومية، واللجان المختصة في مختلف الميادين، علاوة على أولئك الذين عملوا كمستشارين في مكاتب السياسيين الخاصة. ويبدو أن العديد منهم قد استلموا مناصب سياسية رفيعة: رئيس الوزراء الفرنسي مثلا، ليونيل جوسبان هو تروتسكي سابق، ووزير الخارجية الألماني، يوشكا فيشر، ناشط سابق شارك في المظاهرات وقاتل في شوارع المانيا، وحتى حكومة حزب "العمال الجديد" برئاسة توني بلير، تضم بين أعضائها الأقل شأنا أكثر من واحد من مثيري الشغب والقلاقل القدامى. في إيطاليا وحدها، حيث احتفظ اليسار المتطرف بحضور مستقل ونافذ، لم يتمكن التيار اليساري الرئيسي من تجديد شبابه من خلال راديكاليي عام ١٩٦٨ . هل يعتبر ذلك نوعا من التحول الحتمي للثائرين القدامى من الراديكالية إلى الاعتدال في كل جيل مثقف ظهر منذ عام ١٨٤٨؟

إن ما غير وجه العالم الغربي حقا هو الثورة الثقافية التي ظهرت في الستينات. ولربما يثبت أن عام ١٩٦٨ يظل أقل شأنا من حيث كونه نقطة تحول تاريخية في مسار القرن العشرين مقارنة بسنة ١٩٦٥، التي لم تحظ بأية أهمية سياسية، لكنها السنة التي تجاوز فيها إنتاج "البنطلونات" النسائية إنتاج "التنانير" لأول مرة في تاريخ صناعة الملابس الفرنسية، إضافة إلى أنها شهدت بداية الانخفاض الحاد في عدد المتدربين الذين يتم تأهيلهم لشغل المناصب الكهنوتية لدى الكنيسة الكاثوليكية. لقد أكدت لطلابي في مادة تاريخ الحركات العمالية أن إضراب عمال الموانئ الضخم عام ١٨٨٩، الذي يحتل مكانة بارزة في كل كتب التدريس، ربما يكون أقل أهمية من التبني الصامت لجماهير العمال الصناعيين في بريطانيا، في وقت ما بين عامي ١٨٨٠ و ١٩٠٥ لشكل من أشكال القبعات كشارة مميزة ترمز إلى الانتماء لطبقتهم. ولربما

يمكن تقديم الحجة على أن المؤشر المهم على تاريخ النصف الثاني من القرن العشرين ليس الأيديولوجيا، ولا تظاهرات الطلاب واحتلالهم للجامعات، بل هو انتشار سراويل "الجينز" الزرقاء على أوسع نطاق.

لكن للأسف لم أكن جزءا من ذلك التاريخ. لأن سروال "الجينز" ساد وانتشر وانتصر، مثله مثل موسيقى "الروك"، باعتباره شارة/علامة تدل على الشباب. فبحلول ذلك الوقت لم أعد شابا. لم أشعر بتعاطف كبير مع المعادل المعاصر لنموذج بيتر بان (في مسرحية جيمس ماثيو باري الشهيرة)، الذي أراد أن يبقى مراهقا أبد الدهر، ولا رأيت في تأدية دور المراهقين على المسرح أية مصداقية. لذلك قررت، كقضية مبدأ تقريبا، ألا أرتدي هذا اللباس، ولم أفعل ذلك أبدا. كل هذا أعاق دوري كمؤرخ لسنوات عقد الستينات: لقد بقيت خارجها. أما ما كتبته عنها فهو ما يمكن لكاتب سيرة ذاتية أن يقوله، دون أن يرتدي بنطلون "جينز" في حياته.

-١٦-

مراقب سياسي

حين أنظر إلى الماضي، تفاجئني ضآلة النشاط السياسي المباشر الذي مارسته في حياتي بعد عام ١٩٥٦، بعد أن نأخذ بالاعتبار سمعتي كماركسي ملتزم. لم أصبح شخصية معروفة في الحركة المطالبة بنزع الأسلحة النووية، ولم أخطب في حشود ضخمة تجمعت في الهايد بارك مثل ادوارد تومبسون. ولم أتصدر المسيرات الجماهيرية مثل بيير بورديو في باريس. ولم أنقذ من السجن محرر تركي نشر واحدة من مقالاتي بأن أعرض الوقوف أمام المحكمة معه، مثلما فعل نعوم تشومسكي عام ٢٠٠٢ . صحيح أن "شهرتي" لا تقارن بنجومية هؤلاء الأصدقاء، لكن حتى على مستوى أقل شهرة، كان أمامي الكثير لأفعله. لم أشارك بأي نشاط فاعل بعد عام ١٩٦٨، ولم أتدخل في الصراع السياسي المرير داخل الحزب الشيوعي، بين المتشددين السوفييت والشيوعيين الأوروبيين، وهو الصراع الذي قضى في نهاية المطاف على الحزب عام ١٩٩١، رغم وضوح موقفي. إلا أن نشاطي السياسي ضم في الجوهر تأليف الكتب وكتابة المقالات، خصوصا تلك التي بعثتها لواحد من أكثر المحررين أصالة، بول باركر، ونشرت في مجلته "نيو سوسيتي" ("المجتمع الجديد") (New Society)، وذلك باعتباري مؤرخا، أو صحافيا تاريخي التوجه، وماركسيا، مما أعطى كتاباتي بعدا سياسيا، مثلما أعطى لحقل تخصصي، تاريخ الطبقة العاملة. وحتى معظم كتاباتي السياسية في الستينات والسبعينات لم تكن مرتبطة بالأحداث الراهنة إلا بصورة غير مباشرة.

وهكذا، لم أكن مستعدا استعدادا حقيقيا للحظة التي وجدت فيها نفسي، للمرة الأولى والوحيدة في حياتي، ألعب دورا على مسرح السياسة الوطنية البريطانية. ولمدة عشر سنوات تقريبا منذ أواخر السبعينات، شاركت مشاركة فاعلة في الجدل العام

المتعلق بمستقبل حزب العمال (بعد بداية ما تبين فيما بعد أنه ثمانية عشر عاما متواصلة من حكم المحافظين)، وبطبيعة "التاتشرية" الجديدة. وأعيد نشر معظم إسهاماتي في كتابين من الكتب السياسية.

نما كل ذلك من مجرد بذرة غرستها دون قصد في أيلول/سبتمبر عام ١٩٧٨ على صفحات مجلة "النظرية والمناقشة"، مجلة الحزب الشيوعي ("الماركسية اليوم"). المطبوعة ستلعب دورا هاما في الجدل السياسي في الثمانينات بإدارة رئيس تحريرها الجديد آنئذ، الرجل الذكي الصريح، المولع برياضة الركض ومشاهدة سباقات السيارات، وصاحب المشاريع السياسية ـ الفكرية، والأستاذ الجامعي السابق، صديقي مارتن جاك. فقد نشرتْ محاضرة قدمتُها ضمن سلسلة "محاضرات تكريم ماركس" السنوية بعنوان: "هل توقف التقدم العمالي؟". لم يكن المقصود منها أن تكون بمثابة تدخل سياسي، بل كانت عملية مسح يقوم بها مؤرخ ماركسي لما حدث للطبقة العمالية البريطانية خلال القرن الماضي. قدمت الحجة على أن نهوض الطبقة العاملة البريطانية في النصف الأول من القرن العشرين، الذي كان أمرا لا يمكن مقاومته على ما يبدو رغم أنه لم يستمر، قد توقف. ولم يعد ينتظر منها بالضرورة إدراك المصير التاريخي الذي جرى التنبؤ به لها، حتى وإن تمثل السبب في مجرد تغير الاقتصاد الحديث، الأمر الذي أضعف وقسم البروليتاريا الصناعية نسبيا. ولو كان لمحاضرتي مغزى سياسي، فقد غدا معارضا لزعامة حزب العمال برئاسة هارولد ولسون، الذي تولى رئاسة الحكومة بين عامي ١٩٦٤ - ١٩٧٠، ومرة أخرى بين عامي ١٩٧٤ - ١٩٧٦، وترأس حركة الإحياء العمالية لفترة وجيزة عام ١٩٦٦، ولم يكن يدرك ذلك. ومع هذا، بلغت مقالة "هل توقف التقدم العمالي؟" حد التحذير العام من واقع أن الحركة كانت تتجه في السبعينات لمواجهة مشكلة خطيرة.

جرى انتقاء جزء من المحاضرة بشكل فوري ليكون محل انتقاد مزعج من قبل كين غيل، عضو المجلس العام في مؤتمر نقابات العمال، وأحد أهم الزعماء النقابيين في الحزب الشيوعي، خصوصا تعليقاتي حول الإفراط في الاهتمام بالمصالح الضيقة في الحركة العمالية الصناعية. فقد أكدت على أن نضال نقابات العمال، الذي توضح في السبعينات، كان في الجوهر من أجل المصالح الاقتصادية الضيقة لأعضائها، وأنها

حتى حين تكون تحت قيادة اليسار، فإن ذلك لا يؤكد بالضرورة استعادة مسيرة التقدم للطبقة العاملة. بل على العكس، "يبدو لي أننا نرى الآن انقساما متناميا للعمال إلى فصائل وجماعات، يسعى كل منها وراء مصلحته الاقتصادية الخاصة دون أي اعتبار للبقية". وأخذا بعين الاعتبار الاقتصاد المختلط الجديد، لم تعتمد كل جماعة على الخسائر المحتملة التي سببتها الإضرابات لأرباب العمل، بل الإزعاج التي قد تسببه للناس، وذلك من أجل الضغط على الحكومة لتسوية الخلافات. وحسب طبيعة الأشياء، فإن ذلك لا يفاقم الاحتكاكات المحتملة بين جماعات العمال، بل يخاطر بإضعاف ثبات واستقرار الحركة العمالية ككل. لم يتمكن أحد من العيش في بريطانيا التي شلتها الإضرابات في السبعينات، ووصلت ذروتها في خريف وشتاء ١٩٧٨- ١٩٧٩، دون أن يدرك أسلوب المواجهة الذي اتبعته النقبات، والتوترات بينها وبين الحكومات. لكنني كنت بعيدا عن المشهد السياسي لليسار العمالي الصناعي بحيث فوجئت حين وجدت أن محاضرتي أدت إلى جدل خلافي مكثف ومشحون سياسيا في "الماركسية اليوم" طيلة السنة التالية. ودون قصد محدد مني، لامست عددا من الأعصاب المكشوفة المؤلمة. أما حقيقة أن الحكومة العمالية الضعيفة والمكافحة من أجل البقاء قد تعرضت لهزيمة شاملة في الانتخابات العامة أمام المحافظين بزعامة المحاربة الطبقية مارغريت تاتشر، فقد جعلت القدرة على احتمال الألم أقل بكثير. بحلول الوقت الذي ظهر فيه آخر انتقاد لمقالتي في "الماركسية اليوم"، بدأت حقبة تاتشر. وعندما أضيف الجدل المحتدم بعد الانتخابات إلى ذاك الذي بدأ قبلها، ونشر كل ذلك عام ١٩٨١ في كتاب صدر بالمشاركة بين "الماركسية اليوم" و"فيرسو اديشنز" [1]، انقسم حزب العمال نفسه بانفصال ما دعي آنذاك بالديمقراطيين الاجتماعيين، أما من ظل في الحزب فقد كان يصارع من أجل البقاء.

عند تذكر أحداث الماضي، يبدو من الأصعب فهم أوهام تحالف اليسار المختلط التي دمرت حزب العمال تقريبا بين عامي ١٩٧٨-١٩٨١، مقارنة بأوهام زعماء النقابات العمالية حول السلطة التي أضعفته في أواخر الستينات. ومنذ الإضراب

1 - Martin Jacques and Francis Mulhern (eds), The Forward March of Labour Halted? (London, 1981); Eric Hobsbawm, Politics for a Rational Left (London, 1989).

الكبير عام ١٩٢٦، حرصت الطبقة الحاكمة البريطانية على عدم المواجهة المباشرة مع النقابات (حيث يعتبر حوالي سبعين بالمائة من البريطانيين أنفسهم من العمال). أما العصر الذهبي للاقتصاد في فترة ما بعد عام ١٩٤٥ فقد خفف من حدة المشاعر المعادية للحركة النقابية والمتأصلة في الصناعيين. إذ إن عشرين سنة من التنازلات لمطالب النقابات لم تضع أية ضغوط على الأرباح. لكن في السبعينات بدأ القلق يراود السياسيين والاقتصاديين على حد سواء، إلا أن سنوات العقد مثلت حقبة انتصار لزعماء النقابات العمالية، الذين أحبطوا خطط الحكومة العمالية للحد من قوتهم، وهزموا مرتين حكومة المحافظين بواسطة إضرابات عمال المناجم. وحتى أولئك الزعماء النقابيون الذين أدركوا بأن من الواجب وضع بعض القيود على الصفقات المعقودة في السوق الحر والخارجة عن نطاق السيطرة، وجدوا أنفسهم يفاوضون الحكومات (حول سياسة الأجور) من موقف القوة المؤثرة.

وكما حدث فعلا، شهدت سنوات مجد الحركة النقابية في السبعينات انتصار النقابات العمالية اليسارية أيضا. فبالرغم من أن الحزب الشيوعي كان حزبا صغيرا، وفي طور الاضمحلال، ومقسما سياسيا بين المتشددين المؤيدين لموسكو و"الشيوعيين الأوروبيين"، ومنهكا بهجوم الناشطين التروتسكيين الشباب على اليسار، إلا أنه لعب دورا أكبر على المسرح النقابي الوطني في السبعينات، مقارنة بدوره السابق، وذلك تحت قيادة المنظم الصناعي المتمكن روبرت راملسون (كانت زوجته الساحرة ماريان، وهي عاملة نسيج في يوركشير، مؤرخة هاوية ومؤيدة ناشطة لـ"جماعة المؤرخين"). لم يكن الحزب الشيوعي مجرد جزء من المجابهة في السبعينات. وبمباركة شخصيتين قريبتين من الآباء الروحيين الوطنيين في نقابات العمال، هوغ سكانلون (نقابة المهندسين)، وجاك جونز (عمال النقل) الذي حارب سابقا مع الألوية الدولية، استطاع اليسار في مؤتمر نقابات العمال، الخاضع في غالبيته لتوجيه وتنظيم راملسون وكين غيل، تنسيق المعركة التي خاضتها النقابات ضد محاولات الحكومتين اللتين شكلهما ولسون لقصقصة أجنحتها. علاوة على ذلك، حدث التغير (المأمول منذ مدة طويلة) في توازن نقابة عمال المناجم الضخمة في الستينات. فقد بدلت يوركشير موقفها وتحولت نحو اليسار، الأمر الذي وضع في دائرة الشهرة صنيعة الحزب الشيوعي (آنذاك)،

الشاب ارثر سكارغيل. وجنبا إلى جنب المعاقل الحصينة دائما والخاضعة لقيادة الحزب في ويلز واسكتلندا، امتلك اليسار الآن عددا أكبر من الأصوات مقارنة بالمعاقل المعتدلة والموثوقة في شمال شرق إنكلترا. السنوات الخمس عشرة التي مرت بعد عام ١٩٧٠ مثلت حقبة إضرابات عمال المناجم الكبرى، التي حققت انتصارين لافتين عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٤، لكنها منيت بهزيمة كارثية عامي ١٩٨٥-١٩٨٦، بفضل تصميم السيدة تاتشر على تدمير النقابة، ونتيجة أوهام وأضاليل الزعيم الوطني للنقابة آنذاك، ارثر سكارغيل. وبمحض الصدفة، تزامنت محاضرتي في خريف عام ١٩٧٨ مع لحظة التوتر في العلاقات بين النقابات وحزب العمال.

وهم قوة نقابات العمال بقيادة زعمائها ونشطائها اليساريين، أدى إلى وهم مضلل أكثر خداعا تجسد في احتلال اليسار الاشتراكي لحزب العمال، وبالتالي الحكومات العمالية المستقبلية. فالتحالف المختلط داخل حزب العمال بين اليساريين والثوريين الذين انضموا إليه حينذاك ("لاختراقه وتدميره")، وقف باطراد خلف مشروع السيطرة على الحزب تحت راية الوزير الراديكالي الأسبق توني بن. وعلى العكس من روح المجابهة القتالية التي سادت الميدان الصناعي، وتمتعت بدعم مؤثر من أعضاء النقابات، بعد أن وصل عددهم إلى ذروته في ذلك الوقت، عكس المقاتلون السياسيون في سبيل القضية تدهورا في الاهتمام بالسياسة لدى العمال، وعزوفا عنها، وامتناعا عن التصويت، وعدم الرغبة بالانضمام إلى عضوية الحزب. وفي الحقيقة اعتمدت استراتيجيتهم على قدرة مجموعات صغيرة من النشطاء المتحمسين وسط أغلبية من الأعضاء غير الناشطين، لاقتناص فروع حزب العمال، وفرض مزيد من القيادات والسياسات الراديكالية على الحزب، مدعومين بعملية "التصويت النسبي" (تبعا لعدد الذين يمثلهم المندوب) الحاسمة سياسيا من جانب النقابات الخاضعة لهيمنة اليسار في مؤتمرات الحزب. كانت تلك استراتيجية عملية كليا. وفي الواقع، فقد كادت تصادف النجاح، إذ كمن الوهم في الاعتقاد بأن حزب العمال حين يقع تحت سيطرة أقلية مختلطة من اليساريين الإقليميين، سوف يبقى موحدا إلى حد ما، ويكتسب قوة انتخابية، ويمتلك سياسة قادرة على الوقوف في وجه هجوم المحاربين الطبقيين بقيادة السيدة تاتشر، الذين فشلوا منهجيا في فهم قوتهم.

أدى هذا الوهم إلى الكارثة. فالعديد من المقترعين التقليديين ـ أي حوالي ثلث الناخبين الفعليين الذين يصنفون أنفسهم في خانة الطبقة العاملة ـ كانوا على أية حال يتخلون عن العمال ويصوتون لصالح المحافظين. انقسم الحزب، واستطاع التحالف بين الحزب الديمقراطي الاجتماعي الجديد وحزب الأحرار الاقتراب فعلا لبضعة أعوام من كسب عدد أكبر من الأصوات مقارنة بحزب العمال. وبعد سنتين ونصف السنة من انتصار المحافظين بزعامة تاتشر، خسر العمال واحدا آخر من الانتخابات (الخمسة)، ولم يعد يملك الأغلبية في أية فئة من فئات الطبقة العاملة، حتى شريحة العمال غير المهرة والعاطلين عن العمل. حدث ذلك حين خسرت حكومة المحافظين نفسها أصواتا أخرى منذ انتخابات عام ١٩٧٩ . وكما كتبت آنذاك،"إن انتصار تاتشر هو نتاج جانبي لهزيمة العمال". وما فاقم من سوء الوضع هو ما دعوته وقتها "بالرفض المطلق لدى بعض فئات اليسار لمواجهة الحقائق المرة وجها لوجه"[1].

باختصار، كان مستقبل حزب العمال، وربما وجوده ذاته، على المحك، وذلك في السنوات التي أعقبت انتصار المحافظين بزعامة تاتشر عام ١٩٧٩ . الديمقراطيون الاجتماعيون الجدد قبلوا الهزيمة، واستهدفوا استبدال التحالف مع العمال بتحالف آخر مع الأحرار، وربما الاندماج معهم في نهاية المطاف. أتذكر إحدى المناسبات (حفلة عشاء في منزل اماريتا سن وزوجته ايفا كولورني في كنت) التي أتى إليها أحد الجيران متأخرا يقدم اعتذاره ويعلمنا بالخبر. لقد اجتمع بيل روجرز لتوه مع بقية ما دعي آنذاك بـ"عصابة الأربعة" (روي جينكينز، ديفيد اوين، شيرلي وليامز، الذين دخلوا جميعا مجلس اللوردات في نهاية المطاف)، لوضع مسودة إعلان تأسيس ما أصبح يعرف لاحقا (بعد بضعة أسابيع) بالحزب الديمقراطي الاجتماعي. حيث انضم إليه عدد كبير من أفراد الطبقات الوسطى والمهنية من أعضاء حزب العمال (لسوف يعود بعضهم إلى الحزب حين يتوقف عن متابعة خط سيره الانتحاري الواضح للعيان). من ناحية أخرى، تخلى عن الحزب أيضا النشطاء اليساريون، والعديد من المثقفين الاشتراكيين، مثل صديقي القديم رالف ميليباند (سيصبح ابناه شخصيتين هامتين في مكتبي رئيس

1- 'Labour's Lost Millions', written after the 1983 British general Election, in Hobsbawm, Politics for Rational Left, p. 63.

الوزراء توني بلير، والمستشار غوردون براون)، إلى أن تحين اللحظة التي تمت استعادته فيها، وأصبح مستعدا ليكون "حزبا اشتراكيا حقا" مهما عنت العبارة. أغضبت بعض الأصدقاء عند تأكيدي على أنهم لا يحاولون جديا إنزال الهزيمة بتاتشر. ومهما فكروا "فإنهم يتصرفون على أساس أن أية حكومة عمالية كتلك التي عرفنا نماذج لها من وقت لآخر منذ عام ١٩٤٥، ليست غير مرضية فقط، بل هي أسوأ من عدم وجود حكومة عمالية.. أي أسوأ من البديل الوحيد المعروض: حكومة السيدة تاتشر" [1]. أما السؤال المطروح فكان: هل يمكن إنقاذ حزب العمال؟

تم إنقاذه في النهاية، لكن فقط في مؤتمره الذي انعقد عام ١٩٨١، حين ترشح توني بن لرئاسة الحزب وهزم بصعوبة أمام دينيس هيلي. ولم يصبح مستقبل الحزب مضمونا إلا بعد الانتخابات الكارثية عام ١٩٨٣، حين خلف نيل كينوك مايكل فوت، الذي انتخب زعيما للحزب عام ١٩٨٠ (كمرشح عن اليسار ضد هيلي أيضا). عشية انتخاب كينوك، تحدثت معه في لقاء جانبي في تلك المناسبة التي نظمتها "الماركسية اليوم"، أو "الجمعية الفابية" (لا أتذكر أيهما). حرص على الحضور، والتوقيع على نسخة من كتابي ("مع آيات الشكر")، كذلك حضر (إذا كنت مصيبا) ديفيد بلنكيت وروبين كوك، اللذان أصبحا من دعائم الحكومة العمالية منذ عام ١٩٩٧. ومهما كانت القيود التي تحد من قدرته، كان نيل كينوك، الذي دعمت ترشيحه بقوة، هو الزعيم الذي أنقذ حزب العمال من النزعة الإقليمية. وبعد عام ١٩٨٥، حين ضمن طرد "التوجه التروتسكي المقاتل" من الحزب، أصبح مستقبله مضمونا.

تلك هي المناسبة الوحيدة التي جمعتني بنيل كينوك، وذلك باستثناء المقابلة التي أجريتها معه لمجلة "الماركسية اليوم" بعد وقت قصير، حيث عدت مكتئبا إلى حد ما ويائسا من إمكانية نجاحه في احتلال منصب رئيس الوزراء في المستقبل ومن هنا أتت العادة السخيفة لدى بعض الصحفيين السياسيين في ربط اسمي معه خلال السنة أو السنتين التاليتين ("المرشد الروحي لكينوك"). ومع ذلك هناك سبب سياسي وجيه يجعل اسم مفكر ماركسي لاينتمي إلى حزب العمال، عند الفترة الوجيزة التي خاضها الحزب من أجل بقائه، مفيدا بالنسبة لأولئك الذين أرادوا إنقاذه. كنت من بين القلة

1- Ibid., p. 65.

القليلة الذي توقعوا أن يواجه حزب العمال مشكلة خطيرة، الأمر الذي زودني بشيء من المكانة في الجدل الخلافي المحتدم. كنت أيضا من بين عدد قليل من المثقفين الاشتراكيين المعروفين الذين أعلنوا عن شكوكهم على الملأ بمشروع الاستيلاء على الحزب وقدمت الحجج المعارضة لمؤيديه بكل حماس وببعض التأثير (كما آمل)(*). لكن في تلك الأوقات الصعبة، كان من المفيد بالنسبة لمعارضي النزعة الإقليمية تحديدا أن يتمكنوا من ذكر واستدعاء الدعم من شخص معروف لدى معظم الناشطين في الحزب - على الأقل لدى أولئك الذين يقرؤون الكتب والدوريات - ويتمتع بسجل طويل لا يقبل الجدل، ويتبنى مواقف في أقصى اليسار، باعتباره ماركسيا. لأن التغيرات الدستورية التي حدثت في عامي ١٩٨٠و١٩٨١، أعطت اليساريين الإقليميين ما بدا أنه أغلبية راسخة داخل الحزب، وبالتالي وضعت عمليا مصيره في أيديهم. لقد اعتمد مستقبل الحزب بشكل جوهري على فصل ما يكفي من الناشطين العماليين اليساريين عن الإقليميين من أجل موازنة تلك الأغلبية، على الأقل في اللحظات الحاسمة.

توجب على القالب الضروري للقيام بذلك أن يصنع من قبل اليسار، وحتى عام ١٩٨٣، كان المرشح الرئيسي البديل لزعامة حزب العمال هو دينيس هيلي، وزير الدفاع والخزانة السابق، الذي جسد كل ما يكرهه اليسار، ولم يحاول هو إخفاء ازدرائه لمعظم اليساريين، كما تمتع بسمعة راسخة (لها ما يبررها) بوصفه سياسيا ودودا ومرحا. لقد انتقل حزب العمال تحت قيادة توني بلير مسافة كبيرة إلى يمين موقفه التقليدي، بحيث يتضاءل الخلاف الأيديولوجي بيني وبين هيلي حين نلتقي اليوم، كعجوزين ينظران إلى الماضي السعيد، وذلك بالمقارنة مع خلافنا الحاد حين التقينا أول مرة في الحزب الشيوعي ونحن على مقاعد الدراسة. لكن بمعايير السبعينات، كان يقف على يمين حزب العمال. في حياته الشخصية، كان - وما يزال - رجلا ساحرا، على درجة رفيعة من الذكاء والثقافة، كما نجح في تأليف مذكرات يمكن قراءتها والاستمتاع بها ككتاب (وهو أمر نادر الحدوث في مذكرات السياسيين البريطانيين). كل ذلك يكمن خلف ملامحه المتجهمة وحاجبيه الكثين اللذين أصبحا علامة فارقة تميزه. لكن احترام شخصيته العامة أسهل من مبادلتها الحب. كان بمقدوره بالتأكيد أن يصبح سياسيا

* لربما أكون أول من أدخل التعبير في الجدل الانتخابي .

أفضل بكثير من كافة المرشحين الآخرين، رغم أن الإقليميين كانوا سيبذلون ما بوسعهم لتدميره. تميزت الحالة السائدة آنئذ بأن زعيما يمتلك مؤهلات اليساري هو القادر فقط على إخراج الحزب من أزمته.

مايكل فوت، الذي هزمه، لم يكن مصمما ليصبح زعيما حزبيا، ولا رئيسا محتملا للوزراء، وما كان ينبغي انتخابه إلى منصب القيادة. كان ـ وما يزال ـ شخصية مدهشة، يهز رأسه الأشيب من فرط الانفعال والحماس. اعتدنا أنا وهو الالتقاء طيلة سنوات عديدة عند موقف حافلة هامبستيد، لنصعد إليها سويا، أنا إلى الجامعة، وهو إلى مجلس العموم، أو مكتب مجلة "تريبيون". كان رجلا عجوزا، محدودبا، في مشيته عرج خفيف، لكنه يبدو حسن الهيئة بملابسه "السبور" التي اعتاد ارتداءها على الدوام. كما أغرم بالمشي ـ فهو من جيل المثقفين البريطانيين الذين أدمنوا النزهات الطويلة سيرا على الأقدام ـ وركوب حافلات النقل العام في حركاته وتنقلاته، ولم يبد رغبة كبيرة في استخدام السيارة الرسمية حين أصبح وزيرا لفترة وجيزة في السبعينات.

كان ـ وما يزال ـ سياسيا عماليا مقتدرا وقادرا على اجتذاب محبة الآخرين، علاوة على إعجابهم باستقامته الأخلاقية الواضحة، ومواهبه الفذة، وثقافته الأدبية الواسعة. فهو خطيب مفوه ينتمي إلى النمط السائد في حقبة الاجتماعات واللقاءات الحاشدة والمناسبات الكبيرة في مجلس العموم، وذلك قبل انتشار التلفزيون: حقبة الخطابة المدعمة بنظرات العيون المتوهجة، والإيماءات والإشارات المعبرة، وطريقة الإلقاء المؤثرة التي تصل حتى الصف الأخير من مقاعد الحضور. كان صحفيا بارعا يمتلك أسلوبا نثريا رشيقا، تفوق به في إدانة الظلم والرجعية. كما كان قارئا نهما وكاتبا متميزا في أسلوبه السهل الممتنع. لم يتعب أبدا من امتداح من نالوا إعجابه أكثر من سواهم: جوناثان سويفت، ووليام هازليت. ولربما حد انفعاله الحماسي، وعدم رغبته بجرح مشاعر أحد من مقدرته النقدية. أما كتابه الذي ترجم فيه حياة انيورين بيفان (١٨٩٧-١٩٦٠)، الزعيم العظيم لليسار في حزب العمال، الذي ورث مقعده البرلماني في وديان جنوب ويلز، وسلمه في الوقت المناسب إلى نيل كينوك، فقد غالى في إضفاء المظهر المثالي على بيفان. في حين افتقرت مراجعاته العديدة للكتب، بما فيها كتبي، إلى الروح النقدية الكافية. لا أستطيع أن أتذكر أحدا كرهه فعلا.

انتمى فوت، حتى بنظر معاصريه وأترابه وزملائه، إلى جيل قديم، ربما يعود إلى ما قبل عام ١٩١٤! فهو أول رجل في الطبقة الوسطى الريفية القديمة والمعارضة، يتخلى عن ولائها التقليدي لحزب العمال في سبيل قضية العمال. لم يكن مصمما ليتربع على السلطة بل ليجلس في المعارضة، فهو "منبر الشعب"، الذي دافع عنه ضد وقاحة حكامه. وظل طيلة حياته المهنية تقريبا في حزب العمال ناطقا باسم اليسار ضد القيادة، رغم أن بإمكانها دوما الاعتماد على ولائه وإخلاصه للحركة ـ لا سيما في عام ١٩٦٤، حين شكل اليسار أول حكومة عمالية برئاسة هارولد ولسون بأغلبية ضئيلة مكونة من ثلاثة أصوات. لم يكن رجل تنظيم وإدارة، بل افتقد لسوء الحظ المواهب الضرورية للخداع والمساومات والتنازلات البارعة التي تعطي لـ"السياسي" سمعة سيئة، وأنانية مفرطة، ومطامح شخصية شكلت جميعا دوافع قوية حركت العديد من أقوى السياسيين وأشدهم مراسا. لقد كانت السنوات الثلاث التي بقي فيها زعيما بمثابة كارثة كبرى.

أما توني بن فكان رجلا صادقا نزيها أوصل الحزب إلى حافة الخراب، ولم يكن يفتقد لا الأنانية ولا الطموح. فقد أمضى برغم كل شيء وقتا طويلا، وأهدر طاقة عظيمة في الصراع من أجل الحق بالتخلي عن لقبه النبيل الموروث، ليكسب الحق بتقليص اسمه والدخول في معترك السياسة الحقة في مجلس العموم. كان في بعض النواحي شخصية مناسبة إلى حد بعيد لما أراده بوضوح أكثر من أي شيء آخر، أي زعيما للحزب، ورئيسا للوزراء حين يأزف الوقت. كان وسيما، وبليغا، وشابا، وقوي البنية ـ فالسياسة لعبة مضنية مثل الركبي أو الشطرنج. كان وما يزال واحدا من الوجوه والأصوات القليلة التي اعترف بها الرأي العام بشكل فوري تقريبا. حتى سيماء الحماسة لأداء الواجب، مثل صبي من الكشافة ينتظر الفرصة المناسبة لتأدية الخدمة للآخرين، والغليون المميز، شكلا مصدر قوة ونفع له. ورغم افتقاره للسيرة السياسية العظيمة في الماضي، إلا أنه تحرك نحو اليسار في السبعينات. ولو أراد لتمكن بالتأكيد من جمع شمل حزب العمال وتوفير الدعم اللازم حتى انتهاء الأوقات الصعبة التي مرت عليه. بدا أنه سوف يفوز بزعامة الحزب عاجلا أو آجلا، وعلى شاكلة الكثيرين، اعتقدت بأنه على الأرجح أفضل من يصلح للقيادة ـ إلى أن تخلى عنها.

أجريت مقابلة طويلة معه لمجلة "الماركسية اليوم" في شهر أكتوبر من عام ١٩٨٠، وتأثرت، بل شعرت بالطمأنينة، نتيجة إصراره على أن حزب العمال - برأيه - يجب أن يبقى "كنيسة واسعة الطيف".

لكن بعد بضعة شهور بدا واضحا بشكل لا لبس فيه أن بن غير مناسب بتاتا للوظيفة. فقد راهن بكل ما يملك على الإقليميين المتعصبين. ففي كانون الثاني/يناير من عام ١٩٨١، عقد مؤتمر خاص للحزب سلم مقاديره عمليا إلى اليسار. التفاصيل لا تهم، لكن وضح الآن أن لا شيء بقادر على منع بن من أن يصبح زعيما لحزب العمال في وقت قريب جدا سوى حمقه السياسي. عند هذه النقطة، فإن أي شخص لا يملك سوى الحد الأدنى من المنطق السياسي، حين يعرف مدى عمق الانقسام في الحزب، سوف يلعب بورقة الكرم والمصالحة والوحدة. لكن بدلا من ذلك أصدر بن نداء احتفاليا مبتهجا يدعو اليسار المنصور لتسلم مقاليد الأمور وإظهار قوته بانتخابه هو (ضد هيلي). لا أحد يعرف هل كان سيمنع انشقاق الديمقراطيين الاجتماعيين في المستقبل لو تبنى مقاربة تصالحية أكبر. لكن ارتباط بن كليا مع المتطرفين اليساريين أوضح لكل من لم يرغب بتقليص حجم وتأثير حزب العمال إلى مجرد "كنيسة" اشتراكية مهمشة، أن مستقبله يتطلب إنزال الهزيمة ببن. تحقق ذلك. وتراجع بن نفسه إلى موقع شرفي كمدافع في المقاعد الخلفية عن الدستور، والديمقراطية، والحريات المدنية، وكمروج للاشتراكية. لكن مهنته كسياسي خطير شارفت على نهايتها.

II

كانت تدخلاتي في الجدل السياسي القائم تتم بشكل كلي تقريبا من خلال "الماركسية اليوم". ولربما لا يتوقع المرء لهذه المجلة الشهرية المتواضعة أن تصبح خلال الثمانينات، بالرغم من ارتباطها بالحزب الشيوعي، مطبوعة مهمة ومقروءة في عالم السياسة ووسائل الإعلام - ليس في أوساط اليسار فقط. إذ إن بعضا من أبرز السياسيين المحافظين - ادوارد هيث، مايكل هيزلتاين، كريستوفر باكلن - كتبوا فيها وأجروا لقاءات معها. أحد السياسيين العماليين الشباب من غير المتعاطفين مع اليسار (انتخب إلى البرلمان عام ١٩٨٣)، زعم بأنه قارئ مواظب للمجلة، وسمح بإجراء لقاء معها: أما اسمه فهو توني بلير. معظم الأسماء اللامعة التي ستغدو عما قريب

شخصيات رئيسية بارزة في حكومة حزب العمال في المستقبل كانت لهم كلمة فيها: غوردون براون، روبن كوك، ديفيد بلنكيت، مايكل ميتشر. تعرضت المجلة لهجوم قاس من قبل المتشددين في الحزب الشيوعي، الذي كان على وشك الانهيار بسبب تفاقم الصراعات الداخلية وتداعي الأنظمة الشيوعية، لكن أعضاء قيادته السياسية، المؤيدين بشدة لربيع براغ والنمط الإيطالي للشيوعية، زودوا المجلة بدعم سياسي (ومالي طبعا) بكل ما لديهم من قوة (اختفت المجلة في نهاية عام ١٩٩١، مع حل الحزب وسقوط الاتحاد السوفييتي). وفي فترة الأزمة التي عصفت بحزب العمال، أتت الأفكار المتعلقة بمستقبله من مجلة شيوعية. وكان نجاحها يعود في معظمه إلى التوليفة التي جمعت بين العقل السياسي المنفتح والحس الصحفي المهني لدى مارتن جاك، وليس إلى مجرد قرارها بفتح صفحاتها أمام كتاب بعيدين جدا عن خط الحزب، وأرثوذكسية الاشتراكيين القدامى. لكننا استفدنا أيضا من التشوش الكامل الذي أصاب العالم السياسي ـ الفكري التقليدي في بريطانيا خلال الحقبة التاتشرية. وهذا ما أثر بصورة واضحة على قطاعات يسار الوسط، لكن حتى المحافظين كانوا يكتشفون مناطق جديدة مجهولة. ما الذي يمكن، أو يجب، فعله في الحقبة الجديدة؟ كيف، بل أين، يمكن مناقشتها. وفرت "الماركسية اليوم" مساحة مناسبة يمكن فيها التفكير بهذه الأسئلة خارج الأطر التقليدية الراسخة، وفوق كل شيء لأنها أصرت بإلحاح على أنه بوصول السيدة تاتشر إلى الحكم، أو بدء "العرض السينمائي العظيم لليمين"، حسب تعبير المنظر الثقافي ستيوارت هول في مقالة له عام ١٩٧٩ (التي نحت فيها مصطلح "التاتشرية")، فقد سقطت كل الرهانات. كانت اللعبة جديدة، و"الماركسية اليوم" أكدت ذلك قبل الجميع.

تتوضح الأمور تماما عند استعادة أحداث الماضي. كانت حقبة تاتشر أقرب شيء في القرن العشرين إلى الثورة السياسية، والاجتماعية، والثقافية ـ لكن ليس نحو الأفضل. ونظرا لأن الحكومة قد تسلحت بأكبر سلطة مركزية وغير مقيدة يمكن لحكومة أن تتمتع بها في أي نظام ديمقراطي انتخابي، فقد شرعت بتدمير كل شيء في بريطانيا يقف في طريق الحلف غير المقدس بين المشاريع الخاصة التي تحقق أعلى الأرباح دون حدود، وبين توكيد الذات الوطنية. بكلمة أخرى، التوليفة التي تجمع بين الجشع والشوفينية. لم يكن الدافع المحرك للحقبة متمثلا فقط في الإيمان المبرر بأن الاقتصاد البريطاني بحاجة لدفعة قوية، بل في الشعور الطبقي، أو ما دعوته "فوضوية الشريحة

الدنيا من الطبقة الوسطى". وكانت موجهة مباشرة ضد الطبقات التقليدية الحاكمة، وأسلوبها في الحكم (بما فيها الملكة من الناحية العملية)، والمؤسسات الرسمية الراسخة في البلاد، والحركة العمالية. وفي مسار هذا المسعى الناجح عموما، محت معظم القيم البريطانية التقليدية وجعلت بريطانيا بلدا مختلفا لا يمكن تمييزه. لقد شعر معظم أفراد جيلي على الأرجح بأنهم مثل ذاك الصديق الأمريكي الذي قرر الإقامة في إنكلترا في القرن الجديد بعد أن تقاعد من عمله الأكاديمي في ماساتشوستس، وسئل هل اشتاق إلى الولايات المتحدة، فأجاب:" لا كما أفتقد بريطانيا التي عرفتها حين قدمت إليها أول مرة". ذلك هو السبب العميق وراء الاختلاف الكبير مع تاتشر، بل حتى الكره العميق الواسع النطاق لها، الذي شعر به المفكرون والمثقفون في بريطانيا، إضافة إلى المعارضة المتنامية في أوساط غالبية أفراد الطبقة الوسطى من المتعلمين في الجامعات، التي جسدها رفض جامعة اكسفورد الدراماتيكي المثير منحها درجة الدكتوراه الفخرية. لا يعني كل ذلك إعاقة تقدم المسيرة الأيديولوجية للاعتقاد "التاتشري" بأن السبيل الوحيد لإدارة الشؤون العامة والخاصة للبلاد إنما يتم من خلال رجال الأعمال والتوقعات التجارية باستخدام الأساليب التجارية. أما ما جعل انتصار الحقبة التاتشرية أمرا أكثر مرارة فهو أنها لم تعتمد بعد عام ١٩٧٩ على أي تحول واسع النطاق في الرأي العام في البلاد، لكن اتكأت بشكل أساسي وليس حصريا، على الانقسام العميق في صفوف معارضيها. لم تكن هناك موجة عارمة من التصويت لصالح تاتشر في الثمانينات مثل تلك التي أيدت رونالد ريغان في الولايات المتحدة. وبقي أنصارها على الدوام أقلية بين الناخبين. أما دعواتي المتكررة لعقد نوع من الاتفاق الانتخابي يجمع العمال وتحالف الأحرار والديمقراطيين الاجتماعيين، أو على الأقل، إقامة تحالف "انتخابي تكتيكي"(*) ومنظم بين الناخبين المعارضين للمحافظين، فقد رفضت "طبعا" من قبل الطرفين، رغم أن الناخبين في نهاية المطاف كانوا أكثر منطقية من الأحزاب

* "الحركة النقابية ، بكل القيود التي تعيقها ، ليست قادرة أبدا على تجاهل الجماهير ، لأنها تنظم الملايين منهم في كل الأوقات ، كما أن عليها حشدهم في معظمها . لكن سيطرة اليسار على حزب العمال ممكنة على المدى القصير دون الرجوع إلى الجماهير . إذ يمكن تحقيقها ـ نظريا ـ بشكل كلي بواسطة بضع عشرات الألوف من الاشتراكيين والأعضاء العماليين اليساريين الملتزمين عبر اللقاءات والاجتماعات ، ووضع مسودات القرارات ، والتصويت في الانتخابات . أما الوهم الذي سيطر في أوائل الثمانينات فتمثل في أن 'التنظيم' يمكن أن يحل محل السياسة" . وردت في :
Martin Jacques & Francis Malhern (eds), The Forward March of Labour Halted? (London, 1981), p. 173.

وصوتوا بشكل تكتيكي وبأعداد كبيرة، وأعطوا نتائج ملموسة. أما الأمر الذي جعل الوضع محبطا إلى تلك الدرجة، فهو افتقاد العمال وتحالف الأحرار والديمقراطيين الاجتماعيين لبديل يقدمانه. وبقيت التاتشرية الاستراتيجية الوحيدة المتوفرة. في النهاية، كان كل ما يمكننا الاعتماد عليه هو الانتظار لأنها ستفقد في نهاية المطاف شعبيتها بحيث تخسر في مواجهة أية معارضة، وهذا في الحقيقة ما حصل ـ لكن بعد ثمانية عشر عاما. حذرنا من أن معظم جوانب الثورة التاتشرية قد يستحيل إلغاؤها. وكنا على صواب في هذا أيضا.

كان من السهل ـ على الورق ـ تحليل الوضع بشكل واقعي، ونبذ "صرخات واتهامات الخيانة ضد أولئك الذين أصروا على النظر إلى العالم كما هو" [1]. أما في الممارسة العملية، فقد كان ذلك أمرا صعبا، نظرا لأن العديد من الذين كتبت ضدهم كانوا من الرفاق (أو على الأقل من الرفاق القدامى) والأصدقاء. وباستثنائي أنا شخصيا، إضافة إلى ستيوارت هول، لم تتمكن "الماركسية اليوم" من الاعتماد على الدعم الثابت لأي مفكر معروف من الجيل القديم والأصيل (جيل ما بعد عام ١٩٥٦) لليسار الجديد. فمعظم المفكرين الاشتراكيين والماركسيين خارج بيئة "الماركسية الجديدة" كانوا من المعادين لها، بمن فيهم تلك الشخصيات الرفيعة مثل ريموند ليامز، ورالف ميليباند، وأبرز كتاب "مجلة اليسار الجديد". تعرضتُ للشجب والإدانة في اجتماعات النقابات العمالية، وهذا أمر لم يكن مفاجئا، حيث عنى خط "الماركسية اليوم" بالنسبة للعديد منهم خيانة الآمال والسياسات التقليدية للاشتراكيين، ناهيك عن خيانة الثورة البروليتارية التي ما زال التروتسكيون يتطلعون إليها. بل قد تبدو غير مخلصة حتى للطبقة العاملة المنظمة، التي تعرضت لضربات شديدة القوة من قبل سلطة الدولة من خلال حرب الأجور التي شنتها الحكومة، خصوصا الإضراب الوطني الكبير الذي قام به عمال مناجم الفحم بين عامي ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥، الذي حشد القوة الكاملة للمتعاطفين وجدانيا مع اليسار (وغيره)، إضافة إلى تعاطفي أنا أيضا، مع أنه كان من الواضح أن أوهام القيادة المتطرفة للنقابات، التي اعتمدت على الخطابية المنمقة للقتال والكفاح، ورفض النقابيين التقليدي للتشتت والانسحاب في خضم المعركة، كانت تؤدي

1- 'Out of the Wilderness' (October 1987), Politics for Rational Left, p. 207.

بالنقابات ومجتمعات المناجم المحلية إلى كارثة مؤكدة. وحتى نحن لم نكن محصنين ضد القوة المجردة لخداع الذات وخطابية الحركة. لم تتمكن "الماركسية اليوم"، التي قامت بعملية مسح للحطام الذي خلفه الإضراب بقدر من الواقعية، لم تتمكن من دفع نفسها للاعتراف بحجم الهزيمة [1].

هذا هو في الحقيقة المأزق العام الذي سقط في حبائله الاشتراكيون في بريطانيا منذ منتصف السبعينات. كانت الأمور تتفكك وتنهار أمام أعين دعاة الإصلاح المعتدلين من الديمقراطيين الاجتماعيين، علاوة على الشيوعيين وغيرهم من الثوريين التقدميين. بالنسبة لنا، ماركسيين وغير ماركسيين، ثوريين ومصلحين، اعتقدنا في التحليل الأخير أن الرأسمالية غير قادرة على إنتاج شروط الحياة اللائقة بالبشر. فهي ليست عادلة ولا ممكنة على المدى البعيد. ولسوف يتمكن النظام الاقتصادي الاشتراكي البديل، أو على الأقل نسخته الرائدة المتمثلة في مجتمع مكرس للعدالة الاجتماعية والرعاية الاجتماعية الشاملة، من الحلول محله، إن لم يكن الآن ففي وقت ما من المستقبل؛ وحركة التاريخ تقرب ذلك الاحتمال بصورة واضحة، عبر الدولة أو الفعل العام، من جماهير الطبقات العاملة الأجيرة، المعادية للإمبريالية ضمنيا وظاهريا. ولم يكن ذلك ممكنا في أي وقت على الأرجح منه في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة، حين كانت حتى الأحزاب الأوروبية المحافظة حريصة على إعلان مناهضتها للإمبريالية والاستعمار، كما امتدح السياسيون ورجال الدولة في الولايات المتحدة التخطيط العام المنظم. لم تعد هذه المزاعم والافتراضات تبدو مقنعة في السبعينات. وفي الثمانينات، لم يعد بالإمكان إنكار اندحار اليسار التقليدي على الصعيدين السياسي والفكري. حيث هيمنت على أدبياته تنويعات مختلفة على موضوع "ما هو اليسار؟"، أسهمت فيها بقلمي. ومن المفارقة أن المشكلة كانت أكثر إلحاحا في الدول غير الشيوعية. ففي كافة الأنظمة الشيوعية، ألغى انهيار "الاشتراكية الموجودة حقا"، أو الاشتراكية الرسمية الوحيدة التي تلطخت سمعتها على أوسع نطاق، أي نوع آخر من المشهد السياسي. علاوة على ذلك، كان من المنطقي بالنسبة للناس هناك وضع آمالهم، وحتى آمالهم الطوباوية أحيانا، في رأسمالية غربية

1- Marxism Today, April 1985, pp. 21-36 and cover.

مجهولة، أكثر ازدهارا وكفاءة على ما يبدو من أنظمتهم المنهارة المتفسخة. لكن في الغرب والجنوب فقط ظلت قضية مناهضة الرأسمالية قضية مقنعة، خصوصا ضد نمط الانفتاح الاقتصادي المغالي في تبني سياسات عدم التدخل، وهو المبدأ الذي تفضله الشركات متعددة الجنسية، مدعومة من الحكومات والمنظرين واللاهوتيين الاقتصاديين.

تمكنت "الماركسية اليوم" من رؤية أن رفض الإقرار بحقيقة تغير الأمور بشكل دراماتيكي ("ليحجم الجبناء ويسخر الخونة، لسوف نبقي الراية الحمراء خفاقة إلى الأبد هنا")، مهما كان مغريا عاطفيا ووجدانيا، لم يعد ممكنا على الإطلاق. ولهذا السبب اختفى في الواقع اليسار العمالي التقليدي (الذي ظل على الدوام حاضرا وفاعلا ومهما في تاريخ الحزب رغم أنه لم يحسم أمره إلا فيما ندر) عن المسرح السياسي بعد عام ١٩٨٣، ولم يعد له وجود. من ناحية أخرى، لم نستطع أن نقبل، ولا أن نتصور (إلى أن أصبح توني بلير زعيما لحزب العمال عام ١٩٩٤) بديل "العمال الجديد"، الذي قبل بالنتائج المنطقية والعملية للتاتشرية، وتخلى عمدا عن كل ما من شأنه أن يذكر المقترعين من الطبقة الوسطى الحاسمة في أهميتها بالعمال، ونقاباتهم، وصناعات القطاع العام، والعدالة الاجتماعية، والمساواة، ناهيك عن الاشتراكية. أردنا حزبا عماليا أدخلت عليه الإصلاحات، لا حزبا عماليا بلبوس التاتشرية. إن خسارة الحزب بفارق بسيط لانتخابات عام ١٩٩٢ أنهت هذا الاحتمال. ولست أنا الوحيد في تذكر ليلة الاقتراع بوصفها تجسد أكثر اللحظات حزنا وأشدها مدعاة لليأس طيلة تجربتي السياسية.

دفعنا خارج حلبة السياسة "الحقيقية" منطقُ السياسة الانتخابية التي يدركها كل السياسيين الذين يتركز برنامجهم على إعادة انتخابهم باستمرار، إضافة إلى منطق الحكومة بعد عام ١٩٩٧ . بعض المتطرفين في "الماركسية اليوم" ذهبوا إلى حيث كانت السلطة والقوة. وحين أحيا مارتن جاك المجلة مرة أخرى، بعد ثمانية عشر شهرا من عودة العمال إلى السلطة، وذلك عبر سبر حقبة توني بلير الجديدة في عدد واحد، نظر أحدهم بدونية إلينا - أنا وستيوارت هول على وجه الخصوص - من ذرى ١٠ داوننغ ستريت، كأشخاص يعاينون المجتمع من قاعات المنتديات والمحاضرات والحلقات الدراسية، كأنهم "مراقبون من الخارج يفتقدون أي إحساس بالمسؤولية والانتماء"، وذلك

على العكس من "المثقفين القادرين على جمع الرؤية النقدية والسياسية العملية". باختصار، وبغض النظر عما إذا كنت أكاديميا أم لا، "لم يعد النقد كافيا" [1]. فقد أزف وقت السياسيين الواقعيين وتقنوقراط الحكومة. وعلى الطرفين الاشتغال داخل إطار اقتصاد السوق، والتكيف مع متطلباته.

كل ذلك صحيح. لكن النقطة التي ركزنا عليها (وركزت عليها أنا بالتأكيد) كانت، وما تزال، تشير إلى أنه إذا لم يعد النقد كافيا، فإنه أمر جوهري آنئذ أكثر من أي وقت آخر. لم ننتقد حزب "العمال الجديد" لأنه قبل وقائع وحقائق العيش في المجتمع الرأسمالي، بل لأنه قبل الكثير من الافتراضات والمزاعم والمظاهر الأيديولوجية للاهوت اقتصاد السوق الحر السائد. وليس أقلها الافتراض الذي يدمر أسس كل الحركات السياسية الهادفة إلى تحسين وضع الناس، ومعها مبرر وجود الحكومات العمالية ذاتها، أي أن التعامل الكفء مع شؤون المجتمع لا يمكن أن يتم إلا من خلال السعي وراء المصلحة الشخصية، وذلك من خلال التصرف بأسلوب رجال الأعمال. في الحقيقة، كان انتقاد الليبرالية الجديدة أشد إلحاحا وضرورة، نظرا لأنها لم تعجب فقط رجال الأعمال والحكومات التي أرادت إزاحة شكوكهم التقليدية بحزب العمال، واحتاجت إلى ذريعة تبريرية لاجتذاب "المقترعين المتقلبي الهوى والمزاج" من الطبقة الوسطى، لكن لأن الليبرالية الجديدة قد ادعت امتلاك سلطة "علم" ارتبط باطراد مع مصالح الرأسمالية العالمية (= الاقتصاد)، كما كرسته لمدة ربع قرن تقريبا أعلى سلطة له، أي جائزة نوبل للاقتصاد. وتوجب الانتظار حتى نهاية القرن، حين قدمت الجائزة أخيرا إلى أماريتا سِن، ثم إلى جوزيف ستيغليتز، الناقد الصريح لـ"إجماع واشنطن"، كي تخرج من إسار الأرثوذكسية الاقتصادية المهيمنة، وتقدم إلى اقتصاديين معروفين بأنهم خارج دائرتها؛ كما توجب الانتظار حتى يعبر المرشحون لجائزة نوبل في العلوم الطبيعية عن عدم رضاهم عن الانحياز الأيديولوجي المستمر لما قصد به أن يكون تميزا علميا متفوقا. ولربما يكون إفلاس الأفكار الحدسية الكبرى لنهايات القرن، قد حدث بين عامي ١٩٩٧-٢٠٠١، حين انهارت أخيرا سلطة الأصوليين المتعصبين لاقتصاد السوق. لقد جرى توقع وإعلان نهاية هيمنة الليبرالية الجديدة على العالم منذ أمد بعيد - فعلت ذلك بنفسي أكثر من مرة. فقد سببت أضرارا أكثر مما ينبغي.

1- Geoff Mulgan in Marxism Today, November-December 1998 (Special Issue), pp. 15-16.

III

في ذات الوقت، كانت الاشتراكية السوفييتية في طور الاحتضار.

فعلى العكس من نهاية الحرب الباردة، والانهيار الداخلي للإمبراطورية السوفييتية، فإن نهاية الاتحاد السوفييتي حدثت بالحركة البطيئة نسبيا، وذلك خلال الفترة الممتدة بين وصول غورباتشوف إلى السلطة عام ١٩٨٥، وإعلان وفاته الرسمية أواخر عام ,١٩٩١ مر الاتحاد السوفييتي بلحظات درامية احتلت عناوين الأخبار العالمية (يلتسين على دبابة في موسكو يقاوم المحاولة الانقلابية في آب/ أغسطس ١٩٩١). لكن الفعل الأساسي حدث في حلكة دهاليز السلطة السوفييتية، مثل القرار الحاسم الذي اتخذ عام ١٩٨٩ ولم يعلن، بالتخلي عن آخر الخطط الخمسية (١٩٨٦-١٩٩٢) وهي بعد في منتصفها. وبمحض المصادفة، كنت أشتغل على الاقتصاد السوفييتي في "معهد أبحاث التنمية والاقتصاد العالمي" التابع للأمم المتحدة في العاصمة الفنلندية هلسنكي، المدينة الجميلة التي تعتبر مرصدا دقيقا ومتقدما لمراقبة ما يجري في الاتحاد السوفييتي، حيث لا تبعد عن أراضيه سوى بضع ساعات بالسيارة وبضع دقائق بالطائرة. اعتدت أن أقضي في هلسنكي أشهر الصيف من تلك السنوات التي شهدت نهاية الاتحاد السوفييتي، وزودني موقعي في المدينة برؤية متبصرة أدركت بها فداحة العمى الكارثي الذي أصاب الاقتصاديين الغربيين الذين مروا من هناك، وهم يتنقلون بسهولة وخفة بين المطار والفنادق العالمية بسيارات "الليموزين" الفارهة، ويستعدون لإصلاح حال الاقتصاد الروسي عبر عمليات التحول إلى اقتصاد السوق الحر المنفلت من كل القيود، متأكدين من أنهم يمتلكون الحقيقة النهائية مثل أي لاهوتي متزمت.

بحلول الثمانينات، ماتت الفكرة القائلة إن اشتراكية الاتحاد السوفييتي أو الدول التي تدور في فلكه، هي تلك التي فكر بها كل من استمدوا إلهامهم من ثورة أكتوبر. لكن مازال من الممكن الدفاع عنه باعتباره قوة ضرورية لموازنة القوة العظمى الأخرى، إضافة إلى الإيمان الأخلاقي/ المعنوي الراسخ بأنه النصير الرئيس لتحرر الشعوب المضطهدة، خصوصا في جنوب أفريقيا. إذ دعم نظام موسكو كفاح "المؤتمر الوطني الأفريقي"، وقدم له المال والسلاح لعقود طويلة حين لم تكن تلوح في الأفق أية إمكانية

لنجاحه، أو أي احتمال باستفادة الاتحاد السوفييتي من انتصاره. إن الإخلاص لقضية التحرر من الاستعمار كان على الأرجح آخر الآثار المتبقية من روح الثورة العالمية. وفي الحقيقة، إن ما أبقاني محصنا ضد اللجوء إلى الماوية، على الرغم من خطابها العالمي البلاغي خلال فترة الانشقاق الصيني ـ السوفييتي، هو أن كلتا الشيوعية الصينية والأيديولوجية الماوية بدت لي في الجوهر وطنية/محلية، إن لم تكن قومية، وهو انطباع لم تضعف حدته زيارتي التي امتدت لبضعة أسابيع لهذا البلد المؤثر عام ١٩٨٥ . فعلى العكس من الاتحاد السوفييتي، الذي ما كان ليدعم حركة على مثل هذا البعد من الثورة الاشتراكية كحركة "يونيتا" في أنغولا، كانت الصين الماوية، التي روجت لمهمتها باعتبارها مركز الكفاح المسلح في العالم، تدعم فعلا حركات التحرر التي تخوض حروب العصابات بطريقة انتقائية جدا، وفي كافة الأحوال تقريبا على أساس العداء للاتحاد السوفييتي والفيتناميين.

لم يعد لدينا (أو على الأقل لم يعد لدي أنا شخصيا) أي أمل يلوح في الأفق. يتذكر صديقي جورج ايسلر كيف تساءلت، بعد زيارة إلى كوبا في الستينات، عن المدة الطويلة التي ستنقضي قبل أن تصبح هافانا مشابهة لصوفيا. الغزو السوفييتي لتشيكوسلوفاكيا (وأنا أتذكره بكل وضوح كما يتذكر غيري اغتيال جون كينيدي)، جعل حتى زيارة براغ مرة أخرى أمرا غير وارد على الإطلاق. لكن هل يريد من هو مثلي الرحيل عن الغرب واللجوء إلى بلد متحرر نسبيا مثل هنغاريا؟ الجواب: لا، حتى وإن كانت، بالنسبة لعجوز من وسط أوروبا، أكثر حيوية بمراحل ـ فكريا وثقافيا ـ وأقل ضيقا ومحلية في أفق التفكير، من جارتها المزدهرة المتألقة، النمسا.

ما الذي توقعه الشيوعيون القدامى واليسار عموما من الاتحاد السوفييتي في الثمانينات أكثر من أن يكون قوة موازية للولايات المتحدة، يدخل مجرد وجودها الرعب في قلوب الأغنياء والحكام في العالم بحيث تجبرهم على توجيه بعض الاهتمام بحاجات الفقراء؟ لا شيء! لكن شعرنا بإحساس غريب من الارتياح، بل حتى بومضة من الأمل، حين استلم غورباتشوف السلطة عام ١٩٨٥ . فبالرغم من كل شيء، بدا أنه يمثل النوع الذي نتبناه من الاشتراكية ـ في الحقيقة، وتبعا للحكم على البيانات المبكرة، فقد كان قريبا من الشيوعية التي يمثلها الطليان، أو "الشيوعية ذات الوجه الإنساني" لربيع

براغ، التي حسبنا أنها انقرضت هناك أو كادت. من الغريب أن إعجابنا لم يتضاءل كثيرا نتيجة المأساة المصاحبة لفشله الدرامي - الذريع والكلي - داخل الاتحاد السوفييتي. فقد أصبح مسؤولا، أكثر من أي رجل آخر، عن دماره النهائي. لكن يمكننا القول إنه كان أيضا مسؤولا لوحده عن إنهاء كابوس الحرب النووية الكونية الذي دام نصف قرن من الزمان، إضافة إلى القرار بتحرر دول أوروبا الشرقية الدائرة في فلك الاتحاد السوفييتي من قبضته. غورباتشوف هو الذي حطم في واقع الأمر جدار برلين. وعلى شاكلة الكثيرين في الغرب، سوف أظل أتذكر فضله وأوافق على ما فعله على الصعيدين الأخلاقي والمعنوي. وإذا ما بقيت صورة عالقة في ذهني من الثمانينات، فهي صورة وجهه الذي ظهر على العديد من شاشات التلفزيونات في أحد شوارع نيويورك، حيث توقفت واستمتعت لخطابه في الأمم المتحدة، ومشاعر التعجب والارتياح تملأ كياني.

سرعان ما سيتضح إخفاقه الذريع داخل الاتحاد السوفييتي؛ ولربما يكون هو وزملاؤه الإصلاحيون على قدر من التهور، ولو قد يفضل المرء القول إنهم لم يكونوا على قدر من العلم والاطلاع بما يكفي لمعرفة طبيعة العالم الذي يحكمونه، والتأكد مما يفعلونه. لربما لم يكن أحد يعلم ذلك، وأن أفضل شيء للاتحاد السوفييتي وشعوبه هو الاستمرار في التراجع البطيء مع الأمل بتحسن الأوضاع تدرجيا تحت حكم إصلاحي أقل طموحا وأكثر واقعية. وهكذا، وكما كتبت من هلسنكي تعليقا على الانقلاب الفاشل عام ١٩٩١، الذي أنهى حقبة غورباتشوف: "لقد اختار سياسية الانفتاح (الغلاسنوست) لكي يفرض سياسة إعادة البناء (البيروسترويكا). كان يجب أن يتم ذلك بالعكس. ولم يملك الاقتصاديون الماركسيون ولا الغربيون تجربة أو خبرة أو نظرية يمكن أن تقدم يد العون" [1]. ومثل دبابة ضخمة متعثرة تتقدم نحو الهاوية، انجرف الاتحاد السوفييتي وقد فقد دفة التوجيه نحو حالة التفكك [2]، ثم انهار في نهاية المطاف. أما الخاسرون على المدين القريب والمتوسط، فليسوا شعوب الاتحاد السوفييتي السابق فقط، بل كافة فقراء العالم. كتبت عام ١٩٩٠ أقول:

1- Leader in Marxism Today, September 1991, p. 3.

2- Eric Hobsbawm, The Age of Extremes (UK paperback edition), pp. 481, 484.

"لقد توقفت الرأسمالية والأغنياء، مؤقتا، عن الشعور بالخوف"

فلم يتكبد الأغنياء، خصوصا في دول مثل دولنا التي تفاخر بغياب العدالة والمساواة، مشقة الاهتمام بأحد باستثناء أنفسهم؟ ما هي العقوبات السياسية الضرورية كي يخافوا من السماح بتآكل أنظمة الرعاية الاجتماعية، وضمور نظام الحماية المقدم إلى من هم بأمس الحاجة إليه؟

بعد عشر سنوات من نهاية الاتحاد السوفييتي، يبدو أن الخوف قد عاد. فلربما اكتشف الأغنياء والحكومات التي أقنعوها بأنهم قوة لا غنى عنها، أن الفقراء يطالبون بالتنازلات ولا يقبلون التعامل معهم بازدراء. لكن بفضل ضعف نسيج الديمقراطية الاجتماعية، وتفكك الاتحاد السوفييتي، وانهيار الشيوعية، يأتي الخطر هذه الأيام من أعداء المنطق والعقل: الأصوليون المتدينون، والمتعصبون الإثنيون ـ القبليون، والمصابون برهاب الخوف من الأجانب، إضافة إلى ورثة الفاشية، أو الأحزاب التي تلقت من الفاشية وحيها الملهم، وانضمت إلى الحكومات الممسكة بزمام السلطة في الهند، وإسرائيل، وإيطاليا. إنها واحدة من مفارقات التاريخ العديدة، فبعد نصف قرن من الحرب الباردة المناهضة للشيوعية، أصبح الأعداء الوحيدون لحكومة واشنطن، الذين قتلوا مواطنيها على الأرض الأمريكية، هم المتطرفون اليمينيون والأصوليون الإسلاميون الجهاديون الذين مدهم "العالم الحر" ذات مرة بالمال والسلاح لمحاربة الاتحاد السوفييتي. ولسوف يندم العالم على فعلته، حين واجه الخيار الذي وضعته روزا لكسمبرغ بين الاشتراكية أو البربرية، وقرر أن يعادي الاشتراكية.

-١٧-

في مجتمع المؤرخين

ما الذي حدث لكتابة التاريخ في حياتي؟ يمكن للقراء الذين لا يهتمون بهذا الموضوع التخصصي إلى حد ما تخطي هذا الفصل وحذفه، رغم أنه لسوء الحظ ليس أكاديميا كما قد يبدو للوهلة الأولى. ليس هنالك مهرب من الماضي، أي من أولئك الذين سجلوه، وفسروه، وحاججوا حوله وأعادوا بناءه. حياتنا اليومية، والأوضاع التي نعيشها، والحكومات التي نخضع لها، محاطة ومتشربة بنتاجات المهنة التي أحترمها. وكل ما يدخل إلى الكتب المدرسية، وأحاديث وخطب السياسيين حول الماضي، والمادة التي يستخدمها كتاب القصة، ومخرجو وكتاب البرامج التلفزيونية، وأفلام الفيديو، يأتي في نهاية المطاف من المؤرخين. علاوة على ذلك، فإن معظم المؤرخين، بمن فيهم كافة المتفوقين في التأريخ، يعرفون بأنهم في استقصاء الماضي، حتى الماضي البعيد، يعبرون أيضا عن/ ويفكرون بآراء تتعلق وتدور حول الحاضر وهمومه واهتماماته. إن فهم التاريخ مهم للخبراء المتخصصين كأهميته للمواطنين العاديين، وفي هذا السياق تعتبر بريطانيا محظوظة في امتلاكها تراثا حاضرا وقويا من الكتابات الجادة التي يسهل الوصول إليها والتي ألفها خبراء لعامة الناس: آدم سميث، ادوارد غيبون، تشارلز داروين، مانيارد كينز. ولا ينبغي على المؤرخين الكتابة للمؤرخين الآخرين وحسب.

لم يتم في جيلي تدريس ما دعاه مارك بلوك "مهنة المؤرخ" بأية طريقة منهجية ونظامية في بريطانيا. "التقطنا" المهنة بأفضل طريقة متيسرة، اعتمادا على الأساتذة الذين درسونا حين كنا طلابا في الجامعة. خلال دراستي في كامبريدج، لم يكن هناك سوى مدرس واحد حرصت على حضور محاضراته بانتظام، جنبا إلى جنب معظم طلاب

التاريخ الراديكاليين اللامعين آنذاك [١]، مع أنها كانت تبدأ في التاسعة صباحا. م. م "مونيا" بوستان، أستاذ التاريخ المدهش، الذي انضم حديثا إلى كامبريدج من مدرسة لندن للاقتصاد، رجل أحمر الشعر، يبدو وكأنه قرد يمتلئ نشاطا وحيوية، أو أحد مخلوقات النياندرتال التي لم تنقرض، لكن ذلك لم يكن يعيق جاذبيته المؤثرة في النساء. كان يحاضر بلهجة روسية ثقيلة حول التاريخ الاقتصادي، الفرع الوحيد لمادة التاريخ في برنامج جامعة كامبريدج الذي اتصل باهتمامات الماركسيين حينذاك. لكن محاضرات بوستان، بمسحة الإحيائية الفكرية التي تميزها، قد اجتذبت حتى بعض المستمعين من أمثال آرثر م. شليسنغر الذي لم يكن يخجل من "افتقاده للبراعة (والاهتمام) في التاريخ الاقتصادي"، ناهيك عن عدم اهتمامه بالماركسية أصلا. كل محاضرة من محاضراته - مسرحيات درامية فكرية - بلاغية تفسر فيها أولا أطروحة تاريخية، ثم يتم تفكيكها كليا، وفي نهاية المطاف تستبدل بنسخة خاصة ببوستان - كانت بمثابة إجازة من عزلة فترة ما بين الحربين في بريطانيا، التي قدمت عنها كلية التاريخ في كامبريدج مثالا نموذجيا مكتفيا بذاته على نحو خاص. في عام ١٩٣٦، طلب منا مدرس آخر قراءة كتاب "حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي" (الصادر حديثا بالفرنسية)، الذي لم يكن معروفا حتى في فرنسا، وذلك لدعوة مارك بلوك الشهير ليحاضر في كامبريدج، بعد أن قدمه لنا (وله ما يبرر ذلك) كأعظم مؤرخ متخصص بالقرون الوسطى مازال على قيد الحياة (للأسف، لا أتذكر شيئا عن محاضرته، سوى أنه رجل قصير وبدين). وبالرغم من أن بوستان كان مناهضا متحمسا ضد الشيوعية، إلا أنه الوحيد في كامبريدج الذي عرف ماركس، وفيبر، وسومبارت وبقية المفكرين العظام من شرق ووسط أوروبا، وأخذ أعمالهم على محمل الجد بما يكفي لتفسيرها وانتقادها. ومع ذلك فقد عرف أنه يجتذب الماركسيين الشباب، ورحب بهم كحلفاء في المعركة ضد النزعة التاريخية المحافظة [٢]، رغم أنه شجب إيمانهم بالبولشفية الروسية. خلال الحرب الباردة، حين كنت أعتمد على تنويهه بي كمشرف

١- بالنسبة للمادة التي اعتمدت عليها الفقرات التالية، انظر أيضا:

Eric Hobsbawm, '75 Years of the Economic History Society: Some Reflections' in Pat Hudson (ed), Living Economic and Social History: Essays to Mark the 75th Anniversary of the Economic History Society (Glasgow, 2000), pp. 136-40.

٢- المعلومات مستقاة من البروفسور زفي رازي، كاتب سيرة حياة بوستان، الذي أدين إليه (إضافة إلى ايزيا برلين وتشيمن ابرامسكي، بالمعطيات المتعلقة بالمرحلة المبكرة من حياته.

على رسالة الدكتوراه، لعب بوستان دورا مساعدا في إبعادي عن أية وظيفة من خلال الإشارة لكل من يعنيه الأمر بأنني شيوعي. لا أستطيع القول بالضبط إنه كان أستاذي، أو أستاذ أحد بالفعل ـ لم يشكل مدرسة ولا تبعه مريدون ـ لكن كان بمثابة الجسر الذي عبرته إلى عالم التاريخ الأرحب. كان من المفاجئ أن يعثر المرء على شخص مثله يحتل منصبا رفيعا في تدريس التاريخ في بريطانيا، أو في أي مكان آخر في فترة ما بين الحربين ـ فقد تمتع بشخصية مؤثرة، وساحرة، وعبثية.

لأن مونيا بوستان، الذي لا يرجح من يراه أن يكون مؤرخا، عاش خياليا ورومانسيا طيلة عمره. فبدون دليل برهاني لا يمكن أن تصدق كلمة مما يقول. وإذا لم يعرف الجواب عن سؤال ما ـ يتعلق بالعصور الوسطى أو حكايا الحب التي يعيشها طلابه ـ فإنه يخترع واحدا. ونظرا لكونه أجنبيا على ما يبدو واضحا في بريطانيا في فترة ما بين الحربين، وتركز أعلى طموح لديه في أن يصبح بريطانيا، فقد كان مدى الخيال أمامه واسعا رحبا. علاوة على ذلك اعتاد الكذب بدون أي إحساس بالخجل. بعد سنوات عديدة عندما حان موعد تقاعده من التدريس في كامبريدج، أخبر الجامعة بأن عمره يقل بسنة واحدة عن سنه المبين في الوثائق، زاعما أن سجل تولده الذي كان ذات مرة في روسيا وأصبح الآن في رومانيا، لم يعد له وجود. ومثلما جرت العادة، لم يقنع الجامعة. وكالعادة أيضا، هز الناس رؤوسهم، وابتسموا، وقالوا: "هذا هو مونيا؟".

يتمثل أعظم ثمرات خياله الرحب في خلق هوية جديدة له في بريطانيا، التي وصل إليها من روسيا السوفييتية عن طريق رومانيا عام ١٩٢١ . ماضيه المبكر لا يختلف كثيرا عما يتوقعه المرء لشاب يهودي من الطبقة الوسطى ولد على حدود روسيا القيصرية الجنوبية الغربية. درس في جامعة أوديسة إلى أن قامت الثورة، التي رحب بها، وانضم إلى جماعة راديكالية ماركسية ـ صهيونية، انقسمت بين أولئك الذين أرادوا الذهاب إلى فلسطين لإقامة مجتمع اشتراكي على الفور، وأولئك الذين رغبوا بتنظيم الثورة العالمية أولا. كان مونيا ينتمي إلى أصحاب النزعة الثانية. وحين تمأسست السلطة السوفييتية المرتابة بالصهيونية، وترسخت بقوة في أوكرانيا بعد الحرب الأهلية، وجد نفسه في السجن لبضعة أشهر كما زعم، ثم أطلق سراحه (جعله

ذلك خلال الحرب العالمية الثانية شخصا غير مرغوب به من قبل السلطات السوفييتية كممثل لوزارة الرعاية الاقتصادية البريطانية). ثم قدم إلى إنكلترا حيث درس إلى جانب عمله، ثم بدأ حياته المهنية في مدرسة لندن للاقتصاد كمؤرخ متخصص بالأراضي الزراعية في القرون الوسطى. لم يحاول التستر على خلفيته كثيرا بل سمح للعالم بالاختيار بين تشكيلة متنوعة من قصص المغامرات في القارة لا يتعلق معظمها باليهودية، رغم أنه لم يخدع برواياته يهوديا واحدا ممن قابلهم (ولم تنطل إلا على قلة قليلة من غير اليهود في فترة ما بين الحربين في إنكلترا). ومع ذلك فقد نجح، بسبب ألمعيته وسحر شخصيته العبثية، وتصميم المهاجر لديه، إضافة إلى مساعدة مدرسته وزوجته الأولى، المؤرخة المتخصصة باقتصاد القرون الوسطى الين بارو (١٨٨٩ـ ١٩٤٠)، في تسلق ذرى بيئته الجديدة، منهيا حياته باسم السير مايكل بوستان، زوج الليدي سينثيا كيبل، شقيقة ايرل البمارل. وحقق في ذلك نجاحا أكبر من ل. ب. (سير لويس) ناميير، المهاجر الآخر من شرق أوروبا، والمفكر اللامع المتخصص بكتابة التاريخ (هيستوريغرافيا). كان ناميير أهلا للثقة، وجديرا بالتصديق، ويهوديا واعيا بهويته، لكنه فشل في الحصول على كرسي التدريس في جامعة اكسفورد التي أولع بها، وإن نجح في الحصول على لقب النبالة.

من الفوارق الواضحة بين الرجلين أن أحدهما جسد شخصية عالمية أدلت بدلوها على الساحة الدولية، في حين أن اهتمامات الآخر التاريخية الرئيسية كانت انعزالية. في واحد من أوائل اللقاءات بيننا، سألني فيرناند بروديل: "أعلم بوجود مؤرخ ذائع الصيت يدعى ناميير ومدرسته في إنكلترا. هل يمكن أن تخبرني شيئا عنه؟". ما كان لواحد مثله ولا أي مؤرخ اقتصادي آخر أن يطرح نفس السؤال عن بوستان، ولو انحصر السبب في أنه بدءا من ١٩٣٤، ترأس تحرير مجلة معروفة عالميا في هذا المجال ألا وهي "مجلة التاريخ الاقتصادي". إضافة إلى أنه حين لم يهتم سوى حفنة من المتخصصين خارج إنكلترا بمحاولة ناميير (كما ظُن حينذاك) لتثوير المقاربة إلى الموضوع الغريب المتمثل في التاريخ البرلماني الإنكليزي في القرن الثامن عشر، فإن كافة المؤرخين الاقتصاديين في العالم الأكاديمي المؤثر اعترفوا بأهمية موضوعات بوستان حول التاريخ الزراعي القروسطي، وانشغلوا بها، واستعدوا للانخراط في جدل

حولها يخترق حدود الدول والإيديولوجيات ـ بدءا بهارفارد وانتهاء بطوكيو. وعلى العكس من البحث في السياسة الوطنية للماضي، كان للتاريخ الاقتصادي في تلك الأيام عالم مقبول من الخطاب والجدل، بل حتى إطار مقبول يحكم من خلاله على أهمية الأسئلة المطروحة، مهما بلغ حجم الخلاف على الأجوبة.

بطريقة ما، يرمز التغاير بين بوستان وناميير إلى الصراع الرئيسي الذي يقسم مهنة التاريخ، والنزعة الرئيسية لتطورها في الفترة الممتدة بين تسعينات القرن التاسع عشر وسبعينات القرن العشرين. كان ذلك الصراع عبارة عن معركة بين الافتراض التقليدي القائل بأن "التاريخ هو سياسة الماضي"، إما ضمن الدول ـ الأمم أو في علاقاتها مع بعضها البعض، وبين تاريخ البنى والتغيرات في المجتمعات والثقافات، بين التاريخ باعتباره وصفيا والتاريخ باعتباره تحليليا وتركيبيا، بين أولئك الذين ظنوا أن من المستحيل التعميم فيما يتعلق بالشؤون الإنسانية في الماضي وبين أولئك الذين حسبوا ذلك أمرا جوهريا. بدأت المعركة في ألمانيا في تسعينات القرن التاسع عشر، لكن حين كنت طالبا، ظهر أبرز أبطال التمرد، بغض النظر عن الماركسيين، في فرنسا: مارك بلوك، ولوسيان فيبفر، من خلال مجلتهما "حوليات". ومن المفارقة أن حقل تخصص كل من بلوك وبوستان (تاريخ القرون الوسطى)، الذي قد يتوقع المرء أن يجتذب المحافظين، شجع فعلا التفكير الأصيل بالماضي. وحتى أكثر المؤرخين تقليدية وجد من المستحيل تقطيع الحياة القروسطية إلى شرائح منظمة وقابلة للفصل ـ سياسية، أو اقتصادية، أو دينية، أو غيرها. فهي تتطلب عقد مقارنات وإعادة تفكير بالافتراضات المعاصرة، تخترق ـ عرضا ـ حدود الدول والأمم والثقافات الحديثة. وعلى شاكلة التاريخ القديم، ولربما لأسباب مشابهة، يعتبر تاريخ القرون الوسطى موضوعا اجتذب بعضا من أفضل العقول التاريخية وأكثرها معرفة وعلما خلال حياتي، رغم أن عدد الماركسيين اللامعين الذين اجتذبهم كان أقل مقارنة بالتاريخ القديم. من ناحية أخرى، مثل التاريخ الوسيط حقلا ضم عددا كبيرا من الشخصيات، مثل رئيسي في كلية بيركبيك، الراحل ار. ار. دارلنغتون، الذي تجسد حلم حياته في تقديم طبعة شاملة تؤرخ للقرن الثاني عشر حسب التسلسل الزمني للأحداث، والذي ظهر عليه الرعب الحقيقي حين اقترحت، أنا المحاضر الشاب، أن تنظيم حلقة دراسية من قبل

انثروبولوجي اجتماعي من جنوب أفريقيا ارتبط آنذاك بالكلية، قد يهم طلاب ورقته البحثية الخاصة حول إنكلترا الأنغلو ـ سكسونية. أي أرشيف كان يشتغل عليه؟

داخل هذه المعركة بين التاريخ القديم والحديث، وجد الماركسيون الشباب الذين كانوا مثلي في بداية حياتهم المهنية كمؤرخين، وجدوا أنفسهم مدفوعين بقوة للانضمام إلى ما كان آنئذ مجالا محدودا يقاس بعدد ممارسيه وبنتاجهم. التوسع الهائل للجامعات قديمها وحديثها، والنهوض السريع في "الأدب"، لم ينطلقا بالزخم الكامل قبل عقد الستينات. وحتى في دول مثل بريطانيا وفرنسا، أو في الميادين الأكاديمية الواسعة من التاريخ الاقتصادي في العالم، عرف الجميع بعضهم بعضا. ولحسن الحظ فإن المؤتمر الدولي الأول للعلوم التاريخية بعد الحرب العالمية الثانية قد انعقد في باريس عام ١٩٥٠ . أما قبل الحرب فقد حظيت المؤسسة التاريخية بمكانة نافذة ـ لأن الفاشية دعمتها بإجبار أفضل علمائها الاجتماعيين على الهجرة. استطاع المبتكرون ـ المجددون في أفضل الحالات تأسيس موطئ قدم لهم على منطقة محددة واسعة هي "التاريخ الاقتصادي والاجتماعي"، كما كانت الحال في فرنسا وبريطانيا. لكن الحرب شوشت وخربت البنى القديمة التي سيطر عليها الثائرون والمتمردون لفترة وجيزة. أما المؤتمر الذي نظمه صاحب الـ"حوليات"، تشارلز مورازي، الذي سيحل محله في المجلة ـ بعد وقت قصير لكن بطريقة مهذبة ـ فيرناند بروديل، فقد خطط له تبعا للآراء المهرطقة، بواسطة الفرنسيين، مع بعض المدخلات من الطليان والبلاد المنخفضة واسكندنافيا، إضافة إلى بعض الأنغلو ـ ساكسون الذين افتقدوا السمات المميزة: بوستان ذاته، عالم الإحصاء التاريخي الأسترالي كولين كلارك، ومؤرخ ماركسي قديم. الألمان غابوا بالطبع عمليا، وإن لم يعرف في ذلك الوقت مدى تورط المؤرخين الألمان البارزين في النظام النازي. حضر حشد من المؤرخين من الولايات المتحدة ـ ومتى لم يتواجد الأمريكيون في باريس؟! ـ لكن وضح أنهم لم يستشاروا في التخطيط للمؤتمر. وبغض النظر عن أحد التقارير حول التاريخ القديم، ومقالة بحثية (لمؤرخ من تكساس) ألقيت في اللحظة الأخيرة وتناولت تاريخ العالم باعتباره آخر ما توصل إليه مبحث التاريخ ، ظل المؤرخون الأمريكان خارج الأقسام الرئيسية التي جرى التخطيط لها. غاب عن المؤتمر الاتحاد السوفييتي وكل الدول التابعة له، باستثناء بولندا. لكن مؤرخيه حضروا بكامل

قـوتهم في المؤتمر التـالي الذي انعقـد في رومـا عـام ١٩٥٥ بعد مـوت سـتـالين. كـانت الأوقـات صـعبـة ومتـوترة في تلك الشـهـور التي أعـقبت اندلاع الحرب الكورية مباشرة، حين قال رئيس اللجنة الدولية (الفرنسي) والكآبة تملؤه: "سوف يزود المؤتمر المتخصصين بكتـابة التـاريخ في المستـقبل بسجلٍ مهم عن ذهنيـة المؤرخين بعد أزمـة الحـرب العـالميـة الثانيـة.. بينما هم ينتظرون الثالثة" [١].

الابتكار الجـديد الذي وجدت نفـسي مـشـاركـا فـيـه بشكل مـبـاشـر هو القـسم الذي أنشئ حول التاريخ الاجتماعي، وهو على الأرجح الأول من نوعه في أي مؤتمر تاريخي. في الحـقـيـقـة، لم يكن يعـرف الكثـيـر عنه آنذاك (فـيـمـا يتـعلق بالقرنين التـاسع عـشـر والعـشرين على أية حال)، ولا كـان واضـحـا في أذهان المخططين للمـؤتمر مـا يتـضـمنه التعبير. وتـبين أنه أكثر من مجرد الدراسة الضيـقـة الأفق إلى حد ما التي تناولت العمل والعمال والمنظمات الاشتراكية وادعت الحق بـالاسم (أي معهد امستردام الدولي للتاريخ الاجتـمـاعي، الذي يمتلك مـخطوطات ماركس وانجلز). كـمـا توضـح أيضـا أن اهتـمـامـه يجب أن ينصب علـى العـمـال، والطبـقـات الاجـتـمـاعـيـة، والحركـات الاجـتـمـاعـيـة، وعلى العـلاقـات بين الظواهر الاقـتـصـاديـة والاجـتـمـاعـيـة، نـاهـيك عن التـأثـيـرات المتـبـادلة بين الحـقـائق والـوقـائع التـاريخـيـة وبين الظواهر السـيـاسـيـة والقـانونيـة والدينيـة.." [٢]. ولدهشتي ـ نظرا لأنني لم أكد أنشر مقالتي الأولى في مجلة متخصصة ـ وجدت نفسي وقـد ترشـحت باعـتـبـاري الرئيسي الرسمي لجلسـة (التـاريخ) "المعـاصـر"، ألقي خـلالهـا تقرير بحثي رائع لعـالم مـاركسي مـعـاق حـول بولندا بين القـرنين الخامس عـشر والسـادس عـشـر. أعـتـقـد أن بوسـتـان قد اقـتـرح اسـمي لاسـتـحـالة أن يفـعل ذلك أحد سـواه. حـضـر الجلسـة التي تـرأسـتـهـا مـجـمـوعـة غـريبـة وشـاذة من المؤرخين غير المعـروفين، الذين سـرعـان مـا سـيـقـتـربون من مـركـز العـالم التـاريخي. كـان هنـاك جي. فـيـسنز فـايفـز، وكـان زائرا وحـيـدا من برشلونـة فـرانكو، أتى باحـثـا عـن الصـلات الفـكرية، ولسـوف يصـبح مـصـدر إلهام كـبـير لمؤرخي بلاده. وهناك أيضا بول ليـولوت، سكرتير الـ"حوليـات"، الذي اعـتـبـر نفـسـه مـتـحـدثـا بـاسم مـارك بلـوك، وفـيـرنـانـد بـروديـل، وأنـا، وكـنـت عـلـى وشـك أن أؤسـس

1 - IX Congres International des Sciences Historiques: Paris 28 Aout-3 Septembre 1950, vol. II, ACTES (Paris, 1951), p. v.

2- Professor Van Dillen of Amesterdam, in ibid., p. 142.

(بالمشاركة) "الماضي والحاضر". حضر كالعادة أيضا الباحثون الفرنسيون اللامعون بأطروحاتهم الواسعة لكن غير المكتملة، مثل بيير فيلار وجين موفريه، ولذلك لم يدمجوا بعد في النظام التعليمي الجامعي، ولكنهم سينضمون إلى المؤسسة الجديدة المنافسة لبروديل في السوربون (مدرسة الدراسات العليا والعلوم الاجتماعية). كان هناك أيضا الماركسيون ونقادهم. وباختصار بدأ وجه التاريخ (أو علم كتابة التاريخ) في الخمسينات والستينات يظهر للعيان.

النقطة الحاسمة الجديرة بالذكر هي أنه بالرغم من الخلافات الأيديولوجية الواضحة واستقطاب الحرب الباردة، كان أتباع مختلف مدارس تحديث التاريخ يسيرون في نفس الطريق ويقاتلون نفس الخصوم والأداء ـ وهم عارفون بذلك. كانوا في الجوهر ضد "الوضعية"، أي الاعتقاد بأنك إن حصلت على "الحقائق" بالشكل الصحيح، فإن النتائج سوف تهتم بنفسها، وضد انحياز المؤرخين التقليدي لصالح الملوك، والوزراء، والمعارك، والمعاهدات، أي صناع القرار السياسي والعسكري على أعلى مستوى. بكلمات أخرى، أرادوا ميدانا للتاريخ أوسع أفقا أو أكثر ديمقراطية إضافة لتطوره المنهجي. كما حبذوا التاريخ المخصب بالعلوم الاجتماعية (بما في ذلك الأنثروبولوجيا الاجتماعية على وجه الخصوص)، الأمر الذي يفسر قيام "الحوليات " بتوسيع مدى اهتمامها وتجاوز التاريخ الاقتصادي والاجتماعي ليشمل الاقتصادات، والمجتمعات، والحضارات. وحين بدأ جيل ما بعد الحرب من المحدثين، بعد خمسة عشر عاما من نهاية هتلر، بترك أثره على التاريخ الألماني، اختار في ألمانيا الغربية راية "علم الاجتماع التاريخي".

مثلما ألمحت سابقا، لم يكن رواد التحديث التاريخي، برغم اتحادهم ضد المحافظين التاريخيين، يتصفون بالتجانس الأيديولوجي أو السياسي. لم يكن مصدر إلهام الفرنسيين منهم ماركسيا، فيما عدا كتابة تاريخ الثورة الفرنسية، الذي رسا بأمان في ميناء السوربون فانقطعت صلته بمدرسة "الحوليات" (أخبرني بروديل آسفا ذات مرة أن المشكلة في التاريخ الفرنسي خلال فترة حياته تمثلت في أن شخصيتيه الرئيسيتين من السوربون، هو وايرنست لابروس، لم تنسجما معا). من ناحية أخرى، برز الماركسيون في بريطانيا بشكل غير عادي، وغدت مجلة "الماضي والحاضر"، التي انبثقت من نقاشات وحوارات مجموعة المؤرخين في الحزب الشيوعي، الوسيلة الرئيسية لدعاة التحديث.

المتمردون الألمان من جيل ما بعد الحرب درسوا على الأغلب في بريطانيا والولايات المتحدة، ونزعوا إلى التأثر بماكس فيبر بدلا من كارل ماركس، وذلك في مقابل ماركسية مجموعة مؤرخي الحزب الشيوعي البريطاني التي ترعرعت داخل البلاد. لكننا نعتبر أنفسنا بمثابة حلفاء. وأقرت مجلة "الماضي والحاضر" في أول صفحة من عددها الأول بأن "الحوليات"هي مصدر إلهامها. لأن جاك ليفون ("قارئ لأعمالي منذ البداية، ومعجب، وصديق") [1]، قد قارن "الماضي والحاضر" بمجلته "الحوليات"، في حين أن أبرز ممثلي الجيل الجديد من المؤرخين الألمان قد اعتبروا على ما يبدو "التأثير المدهش لجيل المؤرخين الماركسيين"، العامل الرئيس وراء "التأثير العالمي لعلم كتابة التاريخ الإنكليزي منذ عقد الستينات" [2].

في هذه المرحلة، ظل التاريخ في الولايات المتحدة (باعتباره متميزا عن العلوم الاجتماعية الأمريكية) يلعب دورا ثانويا نسبيا على الصعيد الدولي. وفي الحقيقة، لم يكن هناك سوى القليل من الصلة الفعلية بينه وبين التاريخ في العالم القديم، فيما عدا الميادين التي تثير الاهتمام التقليدي لدى الأمريكيين المتأوربين، مثل الثورة الفرنسية، وتلك التي حملها الألمان المنفيون من أوروبا معهم بعد عام ١٩٣٣ . لكن المتأوربين كانوا أقلية ومحل شك الأغلبية الساحقة من المؤرخين ذوي الرؤية الأحادية، الذين شكل تاريخ الولايات المتحدة موضوع اهتمامهم، وهو موضوع لم يكن يحمل الكثير من العوامل المشتركة مع ما يفعله المؤرخون في أمكنة أخرى من العالم، نظرا للطريقة التي قاربه فيها معظمهم. الرق وحده كان موضوعا أثار اهتماما عالميا، لكن الجيل الشاب من المؤرخين المشتغلين على هذا الموضوع، الذين سيتركون أثرا خارج الولايات المتحدة، كانوا حالة غير نمطية بالنسبة للمهنة في الخمسينات والستينات. ضم هؤلاء عدة شبان من أعضاء الحزب الشيوعي الأمريكي في فترة ما بعد الحرب - هيرب غوتمان، والشاب اللامع جين غينوفيز، والسكرتير الوطني السابق لعصبة الشبيبة الشيوعية والفائز بجائزة نوبل فيما بعد، الصريح المخلص إلى الأبد، بول فوغيل.

من الغريب أن ذلك يصدق حتى على موضوع عالمي واضح مثل التاريخ

1- Jacques Le Goff in Past & Present 100, August 1983, p. 15.

2- Hans-Ulrich Wehler, Historisches Denken am Ende des 20. Jahrhunderts: 1945-2000 (Gottengen, 2001), pp. 29-30.

الاقتصادي، الأمر الذي يفسر السبب وراء إدارته باعتباره ملكية إنكليزية ـ فرنسية مشتركة بين بروديل وبوستان، وذلك حين تأسست جمعية عالمية في هذا الميدان. الابتكارات التاريخية الأمريكية ـ التاريخ الاقتصادي بلغة رجال الأعمال (تاريخ المقاولات) في الخمسينات، "التاريخ السيكولوجي" (التفسير الفرويدي للشخصيات التاريخية)، و"التاريخ الأسطوري" الأكثر درامية (التاريخ كنظام اقتصادي استعادي ومتخيل في كثير من الأحوال) في الستينات ـ وجدت صعوبة في عبور الأطلسي إلى أوروبا. وعلينا انتظار عام ١٩٧٥، حين انعقد المؤتمر العالمي للعلوم التاريخية في الولايات المتحدة (الذي يعقد مرة كل خمس سنوات) على أسس دبلوماسية كما هو مفترض، لموازنة دورة موسكو عام ١٩٧٠ .

على وجه العموم، ظل المؤرخون التقليديون خلال الثلاثين سنة التالية للحرب العالمية الثانية، يخوضون معركة دفاعية في حرب خاسرة ضد تقدم الحداثيين في معظم الدول الغربية التي ازدهر فيها التاريخ بحرية. ولربما كان بمقدورهم الدفاع عن أنفسهم بشكل أكثر فاعلية لو لم تنسحب حامية المعقل المركزي للعلم التاريخي التقليدي (= ألمانيا) من المعركة من خلال ارتباطها بالاشتراكية القومية (لا يمكن مقارنة وضع المؤرخين في الدول الشيوعية مع الغرب، لكن كما حدث، فإن الماركسية التي التزموا بها رسميا وأحيانا فعليا قد تناسبت مع الحداثيين أكثر من التاريخ التقليدي، القومي في غالبيته، في بلادهم). في عام ١٩٧٠ نظم لقاء ساده جو من التفاؤل إن لم نقل مشاعر البهجة بالنصر، بواسطة المجلة الأمريكية "دايدالوس" لسبر وضع التاريخ. وباستثناء الناطقين باسم التاريخ السياسي والعسكري الذين اتخذوا موقف الدفاع، هيمن على التجمع الحداثيون ـ البريطانيون، والفرنسيون، والأمريكان ممن هم دون سن الأربعين[1]. وبحلول ذلك الوقت تم العثور على راية مشتركة لجبهة المجددين الشعبية البعيدة كل البعد عن التجانس: "التاريخ الاجتماعي". وتناسبت الراية مع عملية التسييس الراديكالية للجماهير الطلابية التي توسعت بصورة دراماتيكية في

1-Daedalus: Journal of the American Academy of Arts and Sciences (Winter 1971), 'Historical Studies Today'.
المساهمون الفرنسيون (وكلهم مرتبطون بإمبراطورية بروديل)، هم جاك لي غوف، فرانسوا فوريه، بيير جوبير. أما البريطانيون (ارتبط اثنان منهم بمجلة "الماضي والحاضر") فهم لورنس ستون، موزيز فينلي، ايريك هوبزبوم. الأمريكيون كانوا مرتبطين بجامعة برنستون، منهم روبرت دارنتون، والمتخصص الوحيد بمنطقة لاغربية، بنجامين شوارتز، من جامعة هارفارد .

الستينات. كان التعبير مبهما، وأحيانا مضللا، لكن كما كتبت حينذاك، ملاحظا "الازدهار المشهود لوضع هذا الحقل التخصصي" : "إنه لأمر جيد أن تكون مؤرخا اجتماعيا في هذه اللحظة من الزمن. فحتى أولئك الذين لم يحاولوا أبدا دعوة أنفسهم بهذا الاسم سوف لن يرغبوا بالتنصل منه والتنازل عن حقهم فيه"[1].

هنالك بعض الأسباب الداعية للشعور بالرضى، ليس أقلها أن الحرب الباردة، وهو أمر مفاجئ إلى حد ما، لم تتدخل بصورة جوهرية في التطورات التي شهدها التأريخ. وفي الحقيقة، فإن ما يدهش هو ضآلة المساحة التي اخترقتها من عالم كتابة التاريخ، فيما عدا تلك الأمور المتعلقة بتاريخ روسيا والاتحاد السوفييتي كما هو واضح. فكتاب "الرأسمالية والمؤرخون" الذي نشر في الأربعينات تحت رعاية فريدريك فون هايك، قدم الحجة على أن المؤرخين الذين أكدوا على التأثيرات السلبية للثورة الصناعية على الفقراء، كانوا منحازين بصورة نظامية ضد فوائد ومزايا نظام المشروع التجاري الحر. مما أدى لاحتدام جدل عنيف وحيوي أدخل التسلية على نفوس الطلاب، دعي بـ"جدل مستوى المعيشة"، وذلك حين رد اليسار على الأطروحة (كنت أنا متحدثا باسم المؤرخين الشيوعيين)، لكن لا يمكن القول إن هذا النقاش، الذي استمر على فترات متقطعة منذ ذلك الحين، كان يمارس لاحقا على خطوط إيديولوجية. فالموضوعات المتفجرة، مثل روسيا، خصوصا في القرن العشرين، وتاريخ الشيوعية، كانت تمثل بالطبع ميادين لمعارك إيديولوجية، رغم أن الجدل كان أحادي الجانب، نظرا لأن الأرثوذكسيات المفروضة في الإمبراطورية السوفييتية أعاقت مؤرخيها وتفسيراتهم التأويلية في آن معا. وإذا كان المرء مؤرخا سوفييتيا جادا، فإن أفضل شيء يفعله هو الالتزام بتاريخ الشرق القديم والعصور الوسطى، رغم انه من المثير رؤية كيف سارع المجددون الحداثيون لتناول المواضيع التي أيقنوا بأنها صحيحة (ضمن حدود المسموح به) في كل مرة يبدو أن النافذة قد فتحت قليلا ـ كما حدث عام ١٩٥٦، وفي بداية الستينات. أصبحت أنا نفسي مؤرخا لتاريخ القرن التاسع عشر بشكل أساسي، لأنني سرعان ما اكتشفت (في مسار مشروع مجهض لمجموعة من مؤرخي الحزب الشيوعي لكتابة تاريخ الحركة العمالية البريطانية) أن من المستحيل على المرء كتابة أي شيء

---

1 - Ibid., p. 24.

حدث بعد عام ١٩١٧ دون أن يتعرض للإدانة على الأرجح باعتباره مهرطقا سياسيا، نظرا لقوة الحزب الرسمي والآراء السوفييتية حول تاريخ القرن العشرين. كنت مستعدا للكتابة حول القرن بصفتي كاتبا سياسيا أو عاما، ولكن ليس بوصفي مؤرخا محترفا. انتهى تاريخي عند سيراييفو في حزيران /يونيو من عام ١٩١٤ .

من حسن الحظ أنني امتنعت عن كتابة تاريخ القرن العشرين إلى أن شارف على الانتهاء، لكن ذلك سار ضد مزاج حركة كتابة التاريخ التي كانت تبتعد عن الماضي السحيق وتتجه نحو الحاضر. وبالنسبة للفترة اللاحقة لعام ١٩٤٥، انتهى التاريخ "الحقيقي"، على أبعد تقدير، في عام ١٩١٤، ليرتد الماضي القريب بعده إلى تأريخ الأحداث حسب تسلسلها الزمني، أو إلى الصحافة، أو إلى شروح وتعقيبات المعاصرين للأحداث. وفي الحقيقة، لا يمكن ببساطة كتابة التاريخ في بريطانيا وفق معايير المؤرخين التقليديين، نظرا لأن المحفوظات الأرشيفية بقيت مغلقة لعدة عقود. وفي معظم الدول، لم يتم تمثل حتى تاريخ القرن التاسع عشر بشكل كامل من قبل أقسام التاريخ الأكاديمية، باستثناء المؤرخين الاقتصاديين. إذ إن جدل كتابة التاريخ العظيم لم يكن يدور حوله، رغم أن الراديكالية السياسية، في صيغة الحماسة الجديدة لتاريخ الحركة العمالية على الأقل، قد بدأت الآن تجلب الانتباه إلى حقبة جرى تجاهلها بشكل خطير من قبل المؤرخين في عدد من الدول. وحتى في بريطانيا، كان السياسيون، والصحفيون الجادون، والأقرباء، وكتاب المقالات، هم الذين كتبوا تراجم حياة الشخصيات الهامة في بريطانيا الفيكتورية، وليس المؤرخون المحترفون، وذلك حتى بداية عقد الستينات. ولكن ضاقت الهوة الفاصلة بين الماضي والحاضر، ربما لأن العديد من المؤرخين المحترفين قد شاركوا فعلا في الحرب العالمية الثانية.

في نفس الوقت، ظل التاريخ الأكاديمي بالمعنى الغربي محصورا على العموم في العالمين الأول والثاني، إضافة إلى اليابان. وبصورة عامة، لم يكن موجودا خارج هذه المناطق، كما لم يزدهر أو يستمر على طول الخطوط التقليدية، باستثناء ما قامت به أقليات من الماركسيين، وما حدث في بعض الأرجاء المتفرقة المتأثرة بالحداثة الفرنسية (كبعض مناطق أمريكا اللاتينية). علاوة على ذلك، كان معظم التاريخ الأكاديمي أوروبي التمركز في أغلبيته الساحقة، أو ـ باللغة المفضلة في الولايات المتحدة ـ انحصر

اهتمامه بـ"الحضارة الغربية". لم يدخل تاريخ العالم جامعة كامبريدج إلا بوصفه "توسعا لتاريخ أوروبا". وفيما عدا استثناءات نادرة، مثل تشارلز بوكر، لم ينشغل المؤرخون بالشؤون اللاأوروبية، بل هم الجغرافيون، والأنثروبولوجيون، واللغويون المتخصصون، إضافة إلى العاملين في الإدارة الاستعمارية طبعا. ولم يهتم بالتاريخ اللاأوروبي في الفترة السابقة على الحرب سوى قلة من المؤرخين، باستثناء الماركسيين (نتيجة عدائهم للاستعمار) والمؤرخين غير الأوروبيين مثل المؤرخين اليابانيين، الذين كانوا متأثرين تأثرا شديدا بالماركسية أيضا. في كامبريدج، تواجدت سلسلة من المؤرخين الذين دعوا على التوالي إلى اجتماع ما سمي بـ "مجموعة البلاد المستعمرة" التابعة لطلاب الحزب الشيوعي (أتت الأغلبية الساحقة من أعضائها من جنوب آسيا): الكندي إي. هـ. نورمان، الذي أصبح فيما بعد ديبلوماسيا ومؤرخا رائدا لليابان الحديثة قبل أن يقدم على الانتحار عام ١٩٧٥ نتيجة ضغط الحملات المعادية للشيوعية في الولايات المتحدة؛ تبعه صديق قديم لي اسمه في. جي (فيكتور) كيرفان، وهو رجل لطيف وساحر وشمولي العلم، يتمتع بمعرفة واسعة عن كل القارات، كما كتب حول الشاعر هوارس وترجم الشعر الأوردي؛ ثم الكندي هاري فيرنز، الذي تخصص في تاريخ وشؤون الأرجنتين، قبل أن يصبح محافظا مغاليا في سنواته الأخيرة؛ ثم جاك كالاهار، المؤلف اللامع الأصيل، والمولع بتدمير الذات، الذي لم يكن ينهض من فراشه قبل منتصف النهار (شغل في فترة لاحقة كرسي تدريس التاريخ الاستعماري في اكسفورد وكامبريدج كلتيهما). أما اهتمامي بالتاريخ اللاأوروبي فقد أخذته أيضا من ارتباطي بتلك المجموعة.

التاريخ اللاغربي نال ما يستحق من احترام مع زوال الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة، والنهوض المتزامن للولايات المتحدة كقوة عالمية. أما تاريخ العالم كتاريخ كوني (لأوروبا وغيرها) فقد ظهر في الستينات، مع التقدم الواضح للعولمة. ولم يحظ المؤرخون من العالم الثالث، خصوصا تلك المجموعة اللامعة من المؤرخين الهنود الذين أفرزتهم المدارس المحلية للجدل الماركسي، باعتراف عالمي إلا في التسعينات. إن مصالح الإمبراطورية العالمية، إضافة إلى الموارد الاستثنائية المتاحة للجامعات الأمريكية، جعلت الولايات المتحدة مركز التاريخ العالمي الجديد اللاحق لحقبة المركزانية

الأوروبية، وغيرت ـ عرضا ـ كتب التاريخ المدرسية والمجلات المتخصصة بالتاريخ فيها. كيف يمكن للمنظور التاريخي البقاء على حاله؟ لقد أحدث فيدل كاسترو تطورا منظوميا في الدراسات البريطانية المتعلقة بأمريكا اللاتينية في البدايات المبكرة من الستينات. وفي الحقيقة، فهمنا آنئذ أن التطور تأثر بالاقتراحات المقدمة من واشنطن خلال رئاسة جون كيندي بأن من المناسب تعزيز وتكملة الخبراء المتخصصين بهذه المنطقة، الذين لا يتمتعون بالثقة محليا، بأوروبيين يتمتعون بقبول أكبر (وإذا كان الأمر كذلك، فقد أخفق المشروع في إحداث التأثير المطلوب. إذ اجتذب تاريخ أمريكا اللاتينية الشباب الراديكاليين بشكل ساحق). لكن تواريخ أوروبا، والولايات المتحدة، وبقية مناطق العالم، بقيت منفصلة عن بعضها البعض ـ تعايشت في العلن لكن نادرا ما تلامست. للأسف، بقي التاريخ بشكل رئيسي سلسلة من الأسواق البارزة المنفصلة للكتاب والقراء على حد سواء. ولم يحاول سوى حفنة من مؤرخي جيلي دمجها في تاريخ عالمي شمولي. ويعود جزء من السبب إلى إخفاق التاريخ الذريع والكلي تقريبا (لأسباب مؤسسية ولغوية على الأغلب) في تحرير نفسه من إطار الدولة ـ الأمة. وعند النظر إلى الوراء، يبدو أن هذه الإقليمية كانت تمثل نقطة الضعف الرئيسية للموضوع خلال الفترة الزمنية التي عشت فيها.

ومع ذلك بدا من المنطقي في عام ١٩٧٠ تقريبا الافتراض أن المنادين بتحديث كتابة التاريخ قد ربحوا الحرب التي بدأت في تسعينات القرن التاسع عشر. فشبكة السكك الحديدية الرئيسية التي ستسير عليها قطارات كتابة التاريخ قد تم بناؤها. لا يعني ذلك أن المجددين الحداثيين، على الأقل خارج دائرة الأعداء الفرنسيين "لتاريخ الأحداث"، قد اقترحوا بالضرورة هيمنة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، أو حتى الحط من منزلة التاريخ السياسي، ناهيك عن تاريخ الأفكار والثقافة. فالحداثيون أبعد ما يكونون عن الاختزال. ورغم اعتقادهم بأن التاريخ يجب أن يفسر ويشرح ويعمم، فهم يعرفون بأنه لا يشبه العلوم الطبيعية. لكنهم آمنوا بأن للتاريخ مشروعا شاملا، بغض النظر عما إذا كان "التاريخ الكوني" أو "الكلي" لبروديل، الذي يدمج إسهامات كافة العلوم الإنسانية، أو (بالاستشهاد بتعريفي الخاص)، ما يدور التاريخ حوله بأوسع المعاني: "كيف ولماذا انتقل المخلوق الإنساني من العصر الحجري إلى العصر

النووي"[١]. لكن بخلال بضع سنين تغير المشهد كليا. وكما اشتكى بروديل نفسه من "الحوليات" التي توقف عن إدارتها في السبعينات، انتهى الإحساس بالأولويات، أي بالتمييز بين المهم والتافه، الذي كان أمرا جوهريا بالنسبة للمشروع القديم. مثلما اشتكى العاملون القدامى في مجلة "الماضي والحاضر" من "مجلة ورشة عمل التاريخ" الجديدة لرافائيل صمويل (آخر ما تحدر من مجموعة مؤرخي الحزب الشيوعي القديمة)، من أنها اكتشفت كافة أنواع زوايا الماضي المثيرة للمتحمسين، لكنها لم تظهر أية إشارة على الرغبة بطرح الأسئلة عنها. لم يتم حتى ذلك الحين تحدي مفهوم التاريخ باعتباره استكشافا لماض يمكن استعادته بشكل موضوعي. فذلك لم يحدث إلا مع موضة "ما بعد الحداثة"، وهو تعبير لم يكن معروفا في بريطانيا فعليا قبل ثمانينات القرن العشرين، ولحسن الحظ لم يقم إلا بغزوات هامشية لميدان الكتابة التاريخية الجادة مع بداية القرن الجديد. لكن في وقت ما من أوائل السبعينات حدث تحول في حركة المد، فأولئك الذين حسبوا أنهم انتصروا في كافة المعارك منذ الثلاثينات، وجدوا أن الأمور قد انقلبت عليهم. "البنية" تتراجع و"الثقافة" تتقدم. ولربما تتمثل أفضل طريقة في تلخيص التغير في القول إن المؤرخين الشباب بعد عام ١٩٤٥ وجدوا مصدر إلهامهم في كتاب بروديل "البحر المتوسط"(١٩٤٩)، في حين وجده المؤرخون الشباب بعد عام ١٩٦٨ في كتاب الأنثروبولوجي اللامع، كليفورد غيرتز، "مسرحية عويصة: ملاحظات حول صراع الديكة في بالي" (١٩٧٣)[٢].

كان ثمة تحول من النماذج التاريخية أو "الأسئلة الكبرى"، انتقال من "الأسلوب التحليلي إلى الوصفي" [٣]، من البنية الاقتصادية والاجتماعية إلى الثقافة، من استعادة الحقيقة إلى استرجاع الشعور، من التلسكوب إلى المجهر ـ كما في النص القصير المؤثر حول رؤية العالم على لسان طحّان غريب الأطوار (في منطقة فريولي)

١- بالنسبة لبروديل ، انظر :

His obituary in Annals, 1986 n. I;

بالنسبة لمحاضرتي الافتتاحية ، انظر :

Eric Hobsbawm, On History (London, 1997), p. 64.

2- In Clifford Geertz, The Interpretation of Culture (New York, 1973).

3- Lawrence Stone, 'The Revival of Narrative', Past & Present 85, November 1979, pp. 9, 21.

في القرن السادس عشر، كتبه المؤرخ الإيطالي الشاب كارلو جينزبيرغ [١]. لربما كان ثمة عامل أيضا وراء ذلك الارتياب الفكري الغريب بعقلانية العلوم الطبيعية، الذي سيصبح أسلوبا دارجا زادت هيمنته مع اقتراب القرن من نهايته. لكن ذلك لا يعني رؤية حالة شاملة من الارتداد من التاريخ البنيوي إلى التاريخ السردي بين الأكاديميين، أو إلى الطراز العتيق من التاريخ السياسي.

على أية حال، فإن المؤرخين الذين عرفتهم من الأجيال الشابة خلال السنوات الثلاثين الماضية لم يحققوا حتى ذلك الحين أي إنجاز مهم في حقل التاريخ السردي غير التحليلي يمكن مقارنته بالكتاب المعرفي الممتاز الذي مثل انتصارا كبيرا للاتجاه التقليدي في هذا النوع من التاريخ ونال اعتراف الجميع بعظمته، ألا وهو "الحروب الصليبية" (١٩٥١ـ ١٩٥٤) لستيفن رونسيمان. لكن المدى المجرد الذي وصل إليه إخفاء الأمور المهمة الواضحة، أو تجاوزها بصمت، خلال نصف القرن التالي لعام ١٩٤٥، قد خلف مساحة واسعة لملء الفجوات بشكل مباشر اعتمادا على المحفوظات والأرشيفات، أو على "تاريخ الأحداث". وعلى المرء أن يفكر فقط بـ"جبل" المحفوظات السوفييتية المخبأ، والذي ظهر على الملأ في التسعينات، وفيه تاريخ الحرب الباردة، أو الصمت الرسمي الطويل، أو الخرافات الشائعة حول فرنسا حين رزحت تحت نير الاحتلال الألماني، أو حول إقامة دولة إسرائيل والسنوات المبكرة بعد تأسيسها.

وبالرغم من أن مجددي كتابة التاريخ، الذين خاضوا معركة ناجحة ضد التقليديين القدماء حتى أواخر عقد الستينات، كانوا يشكلون تحالفا ضم الماركسيين، إلا أن التحدي الذي واجه تفوقهم وسيادتهم لم يأت من اليمين الأيديولوجي. وإذا كان جيلي من المؤرخين الماركسيين الذي تشكل في الفترة الممتدة بين عامي ١٩٣٣ـ ١٩٥٦، لم يكن له خلفاء حقيقيون، فإن السبب لا يكمن في أن مروجي الحرب الباردة قد احتلوا الساحة في المعاهد والمدارس وكليات التاريخ (العكس هو الصواب على الأرجح)، بل لأن الأجيال اليسارية في حقبة ما بعد الستينات أرادت شيئا آخر. لكن مرة أخرى، لم يكن ذلك ردة فعل محددة ضد الماركسية. في فرنسا مثلا، وصلت الهيمنة الفعلية لتاريخ بروديل ومجلة "الحوليات" إلى نهايتها بعد عام ١٩٦٨، وتدهور تأثير المجلة على الصعيد الدولي تدهورا حادا.

1-Carlo Ginzburg, Il formaggio ed vermin [The Cheese and the worms] (Turin, 1976).

لقد ردد التغير في التاريخ ـ أو بعضه على أقل تقدير ـ أصداء الثورة الثقافية الاستثنائية في أواخر الستينات، التي شكلت الجامعات مراكز اندلاعها، خصوصا في كليات الآداب والعلوم الإنسانية. لم يكن التحدي فكريا بقدر ما كان تغيرا في الحالة المزاجية السائدة. في بريطانيا، كانت حركة "ورشة عمل التاريخ" أوضح تعبير عن "اليسار التاريخي" الجديد في حقبة ما بعد عام ١٩٦٨ . ولم يكن هدفها اكتشاف أو تفسير أو حتى كشف التاريخ، بقدر ما كان متمثلا في الإلهام، والتقمص العاطفي، والدقرطة. كما عكست أيضا النمو المشهود والمفاجئ لاهتمام الرأي العام الجماهيري بالماضي، الأمر الذي أعطى التاريخ بروزا وشهرة في الكتب المطبوعة والأفلام السينمائية. كانت لقاءات "ورشة عمل التاريخ"، التي جمعت معا الهواة والمحترفين، والمفكرين والمثقفين والعمال، وأعدادا ضخمة من الشبان "بسراويل الجينز"، ومعهم "أكياس النوم" في العراء، تشابه الدروس الدينية، خصوصا حين يتحدث فيها نجوم بارزون، مثل المؤرخ الويلزي الرائع، غوين الف وليامز، وهو رجل داكن البشرة امتاز ببلاغته الخطابية. لقد انبثق أول مؤتمر لتحرير المرأة في بريطانيا (الذي حضرته زوجتي مارلين برفقة زوجات أصدقائنا من جماعة "اليسار الجديد") من "ورشة عمل التاريخ" في نهاية الستينات، أما "مانيفستو" شيلا روبوتام التاريخي عن النسوية الذي تبع ذلك، فقد دعي على نحو مميز "البيان المخبأ عن التاريخ". لم يكن التاريخ بالنسبة لهؤلاء طريقة لتفسير العالم، ولكن وسيلة لاكتشاف الذات الجمعية، أو في أفضل الحالات، أداة لنيل الاعتراف الجماعي.

كانت خطورة هذا الموقف، وما تزال، متمثلة في أنه يضعف شمولية عالم الخطاب الجدلي الذي يشكل جوهر التاريخ باعتباره انضباطا معرفيا وفكريا، ("العلم/المعرفة" (Wissenschaft) بالمعنى الألماني والمعنى الإنكليزي الأضيق)[1]. كما يقوض العوامل المشتركة بين المحافظين التقليديين والمجددين الحداثيين، أي الاعتقاد بأن استقصاءات المؤرخين، بواسطة قواعد المنطق والدليل البرهاني المقبولة عموما، قادرة على التمييز بين الحقيقة والخيال، بين ما يمكن وما لا يمكن تأسيسه وترسيخه، بين الحالة الواقعية

١- انظر الفصل ٢١ من كتابي "حول التاريخ" (On History) ، الذي نشر أصلا كمقالة بعنوان :
The Historian Between the Quest for the Universal and the Quest for Identity'.

وبين ما نريد لها أن تكون. لكن ذلك أصبح خطرا باطراد. فالضغوط السياسية التي مورست على التاريخ، من قبل الدول والأنظمة الجديدة والقديمة، والجماعات ذات الهوية المشتركة، والقوى التي اختبأت طويلا تحت قمة جبل الجليد للحرب الباردة، كانت آنذاك أقوى تأثيرا من أي وقت مر في حياتي، كما أن مجتمع وسائل الإعلام الحديث أعطى الماضي أهمية بارزة وإمكانية تسويقية غير مسبوقة. اليوم يتعرض التاريخ ـ أكثر من أي وقت آخر ـ للتنقيح والتعديل، أو يخترعه أولئك الذين لا يريدون الماضي الحقيقي، بل الماضي الذي يناسب أغراضهم فقط. اليوم هو عصر الميثولوجيا التاريخية العظيم. والدفاع عن التاريخ من قبل المؤرخين المحترفين يعتبر أمرا أكثر إلحاحا في السياسة مقارنة بأي وقت مضى. فالتاريخ بحاجة إلينا.

أمامنا أيضا الكثير لنفعله. ففي حين يتم التعامل مع الشؤون الإنسانية الفعلية عبر معايير التكنوقراط الذين يحلون المشكلات بشكل رئيسي، وهي معايير غير ذات صلة تقريبا، أصبح التاريخ يحتل مكانة مركزية أكثر في فهمنا للعالم مقارنة بأي فترة سابقة. وفي خضم الحجج المتعلقة بالوجود الموضوعي للماضي، أصبح التغير التاريخي مكونا محوريا للعلوم الطبيعية، بدءا بعلم نشأة الكون وانتهاء بالداروينية التي أعيد إحياؤها من جديد. وفي الحقيقة، ومن خلال البيولوجيا الجزيئية والارتقائية، تغير تاريخ علم المستحثات وعلم الآثار القديمة الإنسانيين. إذ أعيد إدخاله ضمن إطار الارتقاء العالمي، بل الكوني. لقد عمل الحمض النووي الخلوي (د. ن. أ) على تثويره. ولهذا، نحن نعلم الآن مدى غرابة واستثنائية المخلوق الإنساني كأحد الأنواع الحيوانية. لقد غادرنا أفريقيا قبل مائة ألف عام. وكل ما يوصف عادة بأنه "تاريخ" منذ اختراع الزراعة ونشوء المدن، لا يكاد يبلغ أربعمائة جيل أو عشرة آلاف سنة، وهي فترة تعادل طرفة عين في الزمن الجيولوجي. ونظرا للتسارع الدرامي في تقدم السيطرة البشرية على الطبيعة في هذه الفترة الزمنية الوجيزة، خصوصا خلال العشرة أو العشرين جيلا الماضية، يمكن رؤية التاريخ برمته حتى الآن باعتباره شيئا يشبه تفجر أنواعنا الحيوانية، نوعا من النجم العظيم البيولوجي ـ الاجتماعي، يسير نحو مستقبل مجهول. دعونا نأمل ألا يكون كارثيا. في هذه الأثناء، نحن نمتلك لأول مرة إطارا كافيا لتاريخ عالمي حقيقي، تاريخ يستعاد إلى مكانه المركزي المناسب، لا داخل العلوم الإنسانية أو

الطبيعية، ولا ينفصل عنهما، لكنه مكون جوهري في كل منهما. أتمنى لو كنت شابا بما يكفي لأشارك في كتابته.

ومع كل ذلك، إنه لأمر جيد أن أكون مؤرخا حتى في جيلي. فهي مهنة ممتعة برغم كل شيء. في واحد من الأحاديث التي تبادلناها حول التطور الفكري لصديقي الراحل بيير بورديو، قال لي ذات مرة:

"أرى الحياة الفكرية شيئا أقرب إلى حياة الفنان من روتين العمل الأكاديمي.. ومن بين كافة أشكال العمل الفكري، تبقى مهنة السوسيولوجي بدون شك الممارسة الوحيدة التي أعطتني السعادة، بكل ما في الكلمة من معنى.." [١].

أوافق من كل قلبي على استبدال السوسيولوجي بـ "بالمؤرخ".

1- Pierre Bourdieu, Choses Dites (Paris, 1987), p. 38.

-١٨-
في القريـة الكونية

كيف يمكن لمؤلف سيرة ذاتية، ظل أكاديميا وكاتبا ومؤلفا طيلة عمره، أن يكتب عن حياته المهنية؟ الكتابة تتم بشكل جوهري في العزلة على شاشات الكمبيوتر أو الصفحات البيضاء. وحين ينخرط الكتاب في أي عمل آخر، فإنهم يراكمون المادة الضرورية للكتابة. وهذا يصدق حتى على النشاط الأدبي لرجال (أو نساء) الفعل والحركة، مثل يوليوس قيصر. هنالك الكثير مما يمكن قوله عن فتح بلاد الغال، ومثلما يعرف تلاميذ المرحلة الثانوية، وصف قيصر الفتح وصفا جيدا، لكن لا يوجد الكثير مما يمكن قوله عن عملية كتابة "حروب بلاد الغال"، فيما عدا ـ كما هو مفترض ـ الإشارة إلى أن قيصر العظيم قد أملى الكتاب على كاتب من عبيده خلال الفترات الفاصلة بين أدائه لأعمال أخرى أكثر أهمية.

مرة أخرى نقول، يمضي الأكاديميون معظم أوقات عملهم في روتين التدريس، والبحث، واللقاءات، والامتحانات. وكلها أنشطة تفتقد روح المغامرة وتفتقر إلى المفاجآت المثيرة، تبعا لمعايير حياة الأشخاص الأكثر شهرة وإثارة. فهم يمضون معظم أوقات الفراغ في صحبة غيرهم من الأكاديميين، وهؤلاء نوع من الناس ليس في صحبتهم كجماعة ما يثير، مهما استمتع المرء برفقتهم كأفراد. قبل نصف قرن، يمكن أن نقدم الحجة المقنعة على أن اجتماعات المؤرخين، مثل تلك اللقاءات تعقدها جمعياتهم كل سنة، تعتبر أقل تميزا من اجتماع المدراء التنفيذيين في إحدى شركات التأمين، مقارنة باجتماعات أساتذة الجامعة الآخرين. لكن نظرا لأن جيل عام ١٩٦٨ قد دخل المؤسسة الأكاديمية، فلربما تكون الحال قد تغيرت.

أما بالنسبة للطلاب، فهم يصبحون أكثر إمتاعا، لكل من يحب أن يكون مدرسا،

حين يجتمعون، لكن ذلك يعود إلى فتوتهم بكل ما يصاحبها من حماسة، وعاطفة، وأمل، وجهل، وغرارة، وليس إلى التوقعات الكثيرة التي تراود من يواجه حشودهم. أعترف بأن ذلك لا ينطبق بشكل صارم على المؤسستين اللتين أمضيت فيهما معظم حياتي المهنية كمدرس: كلية بيركبيك في جامعة لندن، وكلية الخريجين في المدرسة الجديدة للأبحاث الاجتماعية (أصبح اسمها الآن جامعة المدرسة الجديدة [New School University]) في نيويورك. وكان لكل منهما، بوصفها جزءا شاذا نوعا ما عن المؤسسة الأكاديمية، هيئات طلابية فريدة. بقيت كلية بيركبيك، التي خلفت معهد لندن الميكانيكي عام ١٨٢٥، كلية مسائية، تدرس أولئك الذين يكسبون رزقهم في النهار. أحد الأسباب التي دفعتني لقضاء حياتي المهنية (في بريطانيا) برمتها فيها، هو المتعة التي شعرت بها في تدريس رجال ونساء لهم دوافع استثنائية، وكانوا أكبر عمرا وأكثر نضجا من الطلاب المتخرجين من المدارس الثانوية. فقد شكلوا لأساتذتهم كل أسبوع اختبارا صعبا ومثيرا للمهنة: كيف يمكن المحافظة على اهتمام جماعة من الناس في ما يقال لهم بين الساعة الثامنة والتاسعة مساء، مع العلم بأنهم أتوا إلى الكلية بعد انتهاء يوم العمل المضني، وأكلوا على عجل وجبة طعامهم في "الكافتيريا"، وتلقوا محاضرة مبكرة أو اثنتين، قبل القيام برحلة العودة إلى المنزل التي ربما تستغرق ساعة من الزمن بعد انتهاء محاضرتي. بيركبيك كانت كلية جيدة، تعلم كيفية التواصل مع الآخرين.

الخصوصية المميزة لكلية المتخرجين هي التوليفة التي تجمع بين الهرطقة والنزعة الدولية. فقد تأسست "المدرسة الجديدة للأبحاث الاجتماعية" بعد الحرب العظمى بواسطة مصلحين تربويين وأيديولوجيين من الراديكاليين السياسيين الذين ثاروا ضد ما اعتبروه طغيان واستبداد الامتحانات. ووجدت أساتذة مؤهلين من الدرجة الأولى، وهؤلاء لا تعاني مدينة نيويورك من نقص منهم، لتدريس كل ما يريده الطلاب، بدءا بالفلسفة الكلاسيكية وانتهاء باليوغا. أسست "كلية المتخرجين" عام ١٩٣٣ لتوفير التعليم المناسب للاجئين الأكاديميين الهاربين من ألمانيا النازية، ثم من تبعهم من بقية دول أوروبا المحتلة. وهي أول معهد أكاديمي يعطي محاضرات عن "الجاز"، وفي حكم المؤكد تقريبا أنها أول من نظمت حلقات دراسية حول البنيوية (بواسطة كلود ليفي

شتراوس ورومان جاكوبسون)، خلال الحرب العالمية الثانية. كما اجتذبت سمعتها، بوصفها كلية ابتداعية مهرطقة وخارجة على المألوف طلابا غير عاديين من الولايات المتحدة، بل حتى طلاب أكثر إثارة للاهتمام وأشد اقتدارا من الدول الغربية ودول أمريكا اللاتينية. في الثمانينات طورت علاقة جيدة مع الدول التي كانت على وشك التخلص من أنظمتها الشيوعية. وانضم البولونيون، والروس، والبلغار، والصينيون إلى البرازيليين، والأسبان والأتراك في صفوف كليتنا. في إحدى المرات أحصيت عشرين جنسية في الفصل الذي أدرسه. ونظرا لأنهم يعرفون عن بلادهم والمجالات المحددة أكثر مني، فقد تعلمت منهم بقدر ما تعلموا مني. وفي حكم المؤكد تقريبا أنه لا يوجد في أي مكان آخر مجموعة من الطلاب على هذا القدر من التنوع والتحفيز.

التواصل جوهر التدريس والكتابة كليهما. ومن حسن حظ الكاتب أن يحب المهنتين، لأن ذلك ينقذه من الجزيرة الصحراوية التي نقيم فيها عادة، ثم نكتب رسائل منها لمتلقين مجهولين في أماكن مجهولة نرسلها عبر المحيطات في زجاجات على شكل كتب. لكن الكاتب ـ المدرس يتحدث مباشرة إلى قراء محتملين. إلقاء المحاضرات ظل على الأرجح الصيغة الرئيسية للتدريس في جيلي الأكاديمي، والمحاضرون يتصلون بالقاعة التي تغص بالطلاب مثلما يتصل الممثلون بالوجوه المزدحمة أمامهم في المسرح، باستثناء أن أضواء مسرحهم لا تنطفئ. نحن وهم مؤدون، وليس هناك مثل إلقاء المحاضرات ليخبرنا متى نفقد انتباه الحضور. لكن مهمة المحاضر أصعب، لأنه يتوقع من الحضور أن يأخذوا معهم حملا من المعلومات والأفكار المحددة يتوجب عليهم تذكرها وهضمها، وليس مجرد الرضى العاطفي/الوجداني الذي تتيحه المناسبة. وحتى المحاضر الجيد لا يوصل إلا ما يشع من أي مؤد آخر له حضور مسرحي، أي الشخصية، والحالة المزاجية، والصورة الذهنية، والعقلية الفاعلة ـ وبقليل من الحظ قد يستطيع إطلاق شرارة مماثلة في مخيلة بعض الجالسين أمامه. من خلال المناقشات في قاعة التدريس نتبين ما إذا أوصلنا فعلا ما أردناه. وهذا هو أحد الأسباب الذي جعلتني طيلة حياتي المهنية كأستاذ جامعي، أفضل الدروس العامة على الخاصة. وفي الحقيقة، فإن كتبي التي تناولت المواضيع التاريخية العامة قد انطلقت إما من المحاضرات التي ألقيتها على الطلاب، أو اختبرت خلال تلك المحاضرات، حين تناولت أصولا أكثر تخصصا.

يأتي الرضى على عمل المدرس من العلاقات مع الأفراد، لكن هذه لا تشكل إلا جزءا بسيطا من العلاقات مع مجموعة كبيرة من الرجال والنساء الذين يحملون دفاتر الملاحظات في قاعات المحاضرات، علاوة على الكومة الهائلة من أوراق الامتحانات التي تملأ وقت الأستاذ الجامعي في مسيرة حياته المهنية. وحتى هذه هي جزء من روتين لا يتغير. عند رؤية حلقة البحث الدراسية من الداخل تبدو أمرا لا ينسى، لكن بالنسبة للمراقب الخارجي - وفي ذهني تلك التي حاضرت فيها في معهد الأبحاث التاريخية في لندن خلال السبعينات والثمانينات - لا تبدو أكثر من تجمع لعشرين شخصا عند الأصيل، تحيط بهم الكتب، ويجلسون على طاولة يناقشون ورقة يقرؤها أحدهم أو أحد الزائرين، ثم يسيرون مسافة مائتي متر إلى حانة قريبة لتناول قدح أو اثنين. من وجهة نظر سينمائية ليس في ذلك كله ما يثير.

بالنسبة لكاتب السيرة الذاتية، تمتد سنواته الأكاديمية في الذاكرة إلى الوراء كأنها عربات قطارات الشحن التي تمتد إلى ما لا نهاية حين يراها الناظر من تلة مرتفعة وهي تحمل الحاويات مخترقة السهول الأمريكية. وعند استعادة أحداث الماضي، يبدو تتابع العربات أقل إثارة للاهتمام من الأراضي التي تعبرها بمناظرها ومشاهدها المتبدلة. في حالتي الخاصة عبرت العربات مدنا وجامعات في قارات ثلاث (أو أربع إذا اعتبرنا أمريكا قارتين)، رغم أنني قبل التقاعد لم أدرس إلا خلال زيارات وجيزة نسبيا، فيما عدا فصل دراسي دام نصف عام، كنت فيه أستاذا زائرا في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (١٩٦٧)، ونصف سنة أخرى قضيتها في التدريس والبحث العلمي في أمريكا اللاتينية (١٩٧٦) (رافقتني العائلة في المرتين). لكن حياة التنقل مع وجود أطفال صغار ليست مثالية بالنسبة للأكاديميين، ثم يجعلها التحاقهم بالمدارس أمرا مستحيلا. لم أختبر أبدا معاداة السلطات الأمريكية للشيوعية من خلال القبول بوظيفة دائمة في الولايات المتحدة. وإذا ما أغرتني إحدى الجامعات العظيمة في أمريكا الشمالية بالتدريس فيها، فإن "فيتو" مارلين يحول بيني وبين قبول العرض: فالحياة الأكاديمية في البلدات الصغيرة لا تناسبها. مكان واحد فقط كسر مقاومتها: غيتي سنتر (في سانتا مونيكا)، أقرب بيئة إلى فردوس المثقفين والباحثين، حيث أمضينا بعض الوقت من عام ١٩٨٩ . لكن يصعب اعتبار لوس انجلوس مكانا ريفيا بعيدا عن

الحياة الحديثة. أنا أيضا مللت العيش في البلدات الجامعية نتيجة تجربتي الوجيزة في فصل الصيف في ستانفورد، التي كانت، ومازالت، جامعة ممتازة، وواحدة من أفضل جامعات العالم، لكنها جزء لا يتجزأ من بلدة بالو آلتو، ومجتمعها المحلي الذي يملأ بالضجر والسأم كل من يعيش فيه. لم أتمكن لعدة سنوات قادمة من إجبار نفسي على معاودة زيارة هذا المكان النائي بشوارعه المقفرة، حين تتبادل "السيارات" زيارة أصحاب بعضها بعضا في المنازل الجميلة.

الترتيب المثالي بالنسبة لنا كان إقامة قاعدة مدينية ثابتة ننطلق منها برحلات أكاديمية متنوعة إلى الخارج، وهو أمر جعلته ثورة النقل الجوي أمرا يسيرا بدءا من الستينات. وهكذا أوصلتنا رحلاتنا إلى مختلف أصقاع العالم، من فنلندا إلى نابولي، ومن كندا إلى البيرو، ومن اليابان إلى البرازيل. وأضاف عصرنا مهنة البروفسور المتجول إلى المهنة الأخرى التي تغرم بتذكر متعة، وارتباك، وعبثية حياة التنقل في الأماكن المختلفة، لكنها تبقى جوهريا نفسها، أي مهنة المراسل الأجنبي. لقد ساعدني الحظ على التدريس والعيش خلال معظم حياتي المهنية في - أو قرب - مركز مدينتين ثقافيتين رئيسيتين في عالم أواخر القرن العشرين: على مرمى حجر من المتحف البريطاني في إحداها، وفي مكتب في قرية غرينتش فوق برادلي، عنوان "الجاز" في مانهاتن، في الأخرى (للأسف هدم برادلي عام ١٩٩٦، ولم تعد نيويورك كما كانت بالنسبة لي).

لكن المهن الحياتية وقطارات الشحن على حد سواء لا تسير عبر الأراضي والبلاد بمعدل سرعة ثابت بشكل مطلق. لقد أخرت الحرب الساخنة بدء حياتي المهنية، وأبطأتها الحرب الباردة إلى حد كبير. وظلت مستمرة في حالة من الركود ردحا من الزمن، لكن بحلول منتصف الستينات، حين بدأت عروض العمل الأخرى تأتي من بريطانيا ومن خارجها، اعتبر ذلك أمرا شاذا شائنا على نطاق واسع [1]. ومع هذا لم أبدأ إصدار الكتب إلا في العقد الخامس من العمر، ولم أتمكن فعلا من أن أسمي نفسي "بروفسورا" في بريطانيا إلا وأنا في منتصف العقد السادس، وتلك مرحلة من العمر يصل فيها (الأساتذة) المحترفون إلى أبعد ما يتوقعون - ويتوقع لهم العالم - في

---

1 - Noel Annan, Our Age (London, 1990), p. 267 n.

مـهنتـهم. في تلك المرحلة، كـان الوعـد بالنسـبـة لمعظمنـا يكمن في الماضي، وكـذلك الإنجازات التي تحققت فيه. من الناحية المهنـية، تُرك "الأكاديميـون" في مثل هذا الوضع ليواجهوا عـمرا من الأيام القادمة تترى دون نهاية، وجميـعهـا ليست أفضل حالا من اليوم، بغض النظر عن مراسم التكريم ـ حيث تسبغ فيـها ألقاب الشرف المهنيـة وحتى العـامة ـ التي تشير بدلالاتها (على الأقل في العلوم والدراسات الإنسانية/الثقافيـة) إلى أن مستقبل المكرم لن يضيف شيئا إلى ماضيه، سوى تقدمه في العمر. أنقذتني الحرب العالميـة والحرب البـاردة من تلك النهـاية. وبتحـول غيـر متـوقع في المصاير والحظوظ، عملت كلتاهما على تمديد فترة الشباب والوعد المأمول حتى سن الكهولة. في ذات الوقت أعطى الزواج (الثاني) والأولاد بداية جديدة لحياتي الخاصة.

في الحقيـقة، الحرب وحدها هي التي أخرت حياتي المهنيـة ـ لكن ذلك حدث على الأرجح لمعظم الرجـال من أفـراد جـيلي (في بريطانيـا، أدت الحرب بالفـعل إلى زيادة الفرص المتاحة أمام الخريجات من النسـاء). أما الحرب البـاردة فقد سدت منافذ العثور على عـمل في الخمسينات وأبعدت عقود الناشرين عن كتبي، لكن "في الشـارع" (حسب العبـارة التي شاعت في نهاية القرن)، أي بين المؤرخين العـاملين في المهنة، كانت سمعتي قوية منذ البداية، وخصوصا في العالم غير الرسمي للمؤرخين الشباب. وكنت على ما بدا واضحا "نجما" يلمع في محيط المؤرخين الماركسيين الأكثر ضيقا.

الاعتداد بالنفس والغرور الفكري سببا نوعا من القلق حول ما إذا كانت سمعتي نتيجة التعاطف مع اليسار فقط، أو أنها تعتمد على ندرة الماركسيين النسبيـة لشغل الموقع الذي احتفظ به حتى التاريخ التقليدي (منذ الحرب العالمية الثانيـة) لهذه النسخة من "المعـارضـة" المعتـرف بهـا. لا يعني ذلك أبدا أنني كـرهت آنئذ، أو أكره الآن، أن أعرف بالاسم الذي حملته حتى اليوم كالوشم على الجبين: "هوبزبوم المؤرخ الماركسي". المؤرخون الشباب بحاجة لمن يجلب انتباههم إلى التفسير المادي للتاريخ، وهو أمر ربما تزداد الحاجة إليه اليوم، حيث ينبذه حتى الأكاديميون اليساريون، مثلما تعرض من قبل للإدانة باعتباره دعاية تروج للاستبداد. فبرغم كل شيء، كنت أحاول طيلة أكثر من نصف قرن أن أقنع الناس بأن التاريخ الماركسي يشمل جوانب أكثر مما فكروا بها حتى الآن، وإذا ساعد على ذلك ارتباط اسم أحد المؤرخين معه فإن الوضع سيكون أفضل. ما

أقلق زهوي وغروري هو الخوف من أن تكون سمعتي منحصرة ضمن "غيتو" محدد، كحال تلك الشخصيات البارزة داخل "الغيتو" الثقافي الآخر الذي تميز في القرن العشرين، ألا وهو ذاك الذي يضم الطائفة الكاثوليكية في بريطانيا، والتي وجدت من الصعب بل من المستحيل الفرار منه. المثال المعبر عن ذلك يجسده جي. كي. تشيسترتون (١٨٧٤-١٩٣٦، الكاتب والروائي والشاعر الإنكليزي) الذي أخفيت أبعاد نبوغه عن غير الكاثوليك من خلال ارتباطه الوثيق ذاته بالكنيسة (لا يحلم أي كاتب بريطاني بالتفكير به مثل ايتالو كالفينو الذي قال مرة إن أحد مطامحه أن يصبح "تشسترتون الشيوعيين"). لم يكن همي الحصول على المديح الودي والمشجع من النقاد، فاختبار النجاح هو الحصول عليه من أولئك الحياديين والمعاديين.

بدءا من عام ١٩٦٠ تقريبا أصبح من الواضح باطراد أن سمعتي تنطلق خارج أسوار "الغيتو". كتابي الأول "ثوار بدائيون" (١٩٥٩)، لقي استقبالا حسنا في الولايات المتحدة، من المؤرخين وعلماء الاجتماع على حد سواء. وبخلال بضع سنين ترجم إلى الألمانية، والفرنسية، والإيطالية. كتابي الثاني "عصر الثورة ١٧٨٩ - ١٨٤٨" (١٩٦٢)، استهدف الرأي العام الأوسع وحقق نجاحا لافتا. كما أثر على أقل تقدير في وكيل أدبي وناشر راسخ في السوق، هو ديفيد هيغام، بما يكفي لأن يسألني إذا كنت راغبا بالانضمام إلى مؤسسته، ويدعوني من حين لآخر إلى الغداء على مائدته الملاصقة للنافذة في مطعم "ايتوال" في شارع تشارلوت. وعندما كنت أكتب هذه الصفحات كان المطعم (بنفس قائمة الطعام) والمائدة ما يزالان على حالهما، لكن تحت إشراف نصير آخر للوكلاء والكتاب والمؤلفين، السيدة إلينا، التي حازت على شهرة واسعة باعتبارها المالكة الأم للمطاعم التي يرتادها الأدباء منذ أن كانت في السوهو. وما زلت حتى الآن تحت جناح خليفة هيغام في الشركة التي ظلت تحمل اسمه، صديقي بروس هنتر. قد يتحرك التاريخ بسرعة الصاروخ، لكن يبقى شيء من الاستمرارية. ونظرا لأن "عصر الثورة" جزء من سلسلة عالمية من الإنتاج المشترك برعاية جورج ويدنفيلد، فإنه سيترجم بسرعة على أية حال، بغض النظر عن مزاياه وجدارته. ومع ذلك، فإن الترجمات السبع والطبعات الأجنبية التي ظهرت في الستينات كانت مفيدة، واستقبل الكتاب استقبالا حسنا في كل مكان. اكتشفت لاحقا أن الترجمة الإسبانية

السيئة التي ظهرت عام ١٩٦٤ قد نالت ترحيب الحركة المناهضة لحكم فرانكو والمتنامية بسرعة في الجامعات الإسبانية، نظرا لأنها كانت متوفرة بشكل قانوني، وذلك على العكس من معظم المنشورات الماركسية.

نشرت العديد من الأعمال في الستينات: مجموعة من المقالات المبكرة عن تاريخ الحركة العمالية ("الكادحون"، ١٩٦٤)؛ نص حول التاريخ الاقتصادي البريطاني منذ القرن التاسع عشر ("الصناعة والإمبراطورية"، ١٩٦٨)؛ دراسة وجيزة حول أسطورة وحقيقة نماذج "روبن هود" في العالم، كتبتها في ويلز في الفترة التي أنهى فيها الروس ربيع براغ ("قطاع الطرق"، ١٩٦٩)؛ بحث علمي مطول ومفصل كتبته في نفس السنة بالاشتراك مع صديقي جورج رودي حول انتفاضة العمال الزراعيين الإنكليز عام ١٨٣٠ ("الكابتن سوينغ"، ١٩٦٩). وبحلول عام ١٩٧١، حين نلت في نهاية المطاف اللقب المهني الرسمي من جامعة لندن، كنت قد دخلت المؤسسة الأكاديمية (على الأقل في الولايات المتحدة) وحصلت على درجات الشرف التكريمية (على الأقل من السويد).

وهكذا، أصبحت بحلول السبعينات شخصية محترمة ومعترفا به، أكاديميا إن لم يكن سياسيا. وعزز ذلك العقد هذا الموقع. أما عضويتي في الحزب الشيوعي البريطاني فقد اعتبرت آنئذ أكثر قليلا من خصوصية مميزة لمؤرخ مشهور، ينتمي إلى طراز جديد من الأكاديميين. أمريكا وحدها رفضت أن تنسى عقيدة هوبزبوم "الهدامة"، وبقيت حتى إلغاء "قانون سميث" في أواخر الثمانينات ممنوعا من الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة، وتطلب الأمر الحصول على "وثيقة" تسمح لي بتجاوز هذا المنع كلما ذهبت إلى هناك، وكان ذلك يحدث كل سنة تقريبا. كنت مؤسسا وعضوا نشطا في هيئة تحرير واحدة من أشهر المجلات التاريخية الصادرة بالإنكليزية، وعضوا في مجالس ولجان العديد من الجمعيات الثقافية التاريخية. في حين شغلت أوقات البروفسور الجديد حلقات البحث، والدروس والمحاضرات في لندن، وطلاب الدكتوراه، من بريطانيا والعالم. بينما استمرت وتضاعفت الدعوات لإلقاء المحاضرات وعقد اللقاءات في دول العالم الأخرى. في سنتي الأخيرة في بيركبيك، كنت في نفس الوقت مرتبطا بمؤسسات تعليمية في لندن، وباريس (كوليج دو فرانس، وكلية الدراسات

العليا والعلوم الاجتماعية)، والولايات المتحدة ("بروفسور حر" في جامعة كورنيل).
كان الأمر ممتعا، وإن يكن عبثيا قليلا، نظرا لأن هذه القفزة في خطواتي المهنية كانت شيئا لم أتطلع إليه ولم أتوقعه. وبطريقة ما، أمضيت في السبعينات وقتا رائعا، وإن كان سورياليا من حين لآخر، في المكسيك، وكولومبيا، والإكوادور، والبيرو (مع العائلة)، وفي اليابان (بدونها). لا تجد زوجة كل أكاديمي نفسها تسافر مسافة ثلاثين ميلا مع أطفالها الصغار في حافلة مليئة "بالفراخ" في أرياف البيرو كي تنضم إلى درس تعليم الموسيقى مع أطفال عالم أنثروبولوجي بريطاني، في حين يتفحص زوجها ببطء (لأن المباني على ارتفاع أربعة آلاف متر!) سجلات "المزارع" التي أممت مؤخرا، ثم يذهب إلى دار المحفوظات الزراعية المؤسسة حديثا.

لربما يفسر ذلك السبب الذي جعلني أصدر عددا أقل من الكتب الأكاديمية في هذا العقد (رغم نشر العديد من المقالات العلمية المتخصصة) ـ وإن صدر لي عام ١٩٧٤ كتاب "عصر رأس المال"، الذي جعلني أدرك، دون قصد، أنني منخرط في مشروع طموح لكتابة تاريخ عام للقرن التاسع عشر. وفي الواقع، فإن معظم العمل المكثف الذي أنجزته في ذلك العقد وتجسد في التخطيط لمؤلف تاريخي على نفس القدر من الطموح، ومن ثم كتابته، وهو "تاريخ الماركسية" الذي صدر عن دار نشر إيطالية في تورين بين عامي ١٩٧٨ ـ ١٩٨٢، لم يصل إلى القراء إلا بالإيطالية، نظرا لأن الاهتمام بهذا الموضوع قد تقلص بسرعة مع نهاية السبعينات. لكن في الثمانينات تسارعت وتيرة إنتاجي مرة أخرى، ويعود معظم الفضل في ذلك إلى الظروف المدهشة المتوفرة في نيويورك ولوس أنجلوس. نشرت مجموعة جديدة من الدراسات حول تاريخ الحركة العمالية ("عوالم الحركة العمالية" في مجلة "العمال" الأمريكية) عام ١٩٨٤، والجزء الثالث من تاريخ القرن التاسع عشر عام ١٩٨٧ ("عصر الإمبراطورية ١٨٧٥ـ ١٩١٧)؛ وكتابين ارتكز موضوعهما على المحاضرات التي دعيت لإلقائها: "الأمم والقومية منذ ثمانينات القرن الثامن عشر" (ما هو الموضوع الآخر الذي يمكن أن أحاضر فيه في بلفاست عام ١٩٨٥؟)، و"أصداء المارسليز: مائتا عام على الثورة الفرنسية" (كلاهما في عام ١٩٩٠). كنت أيضا محررا مشاركا ومساهما في مؤلف اعتمد على مؤتمر مجلة "الماضي والحاضر" الذي نظمته قبل بضع سنين، والذي أثبت تأثيره غير

العادي: "ابتكار التراث" (١٩٨٣). كانت صورتي العامة مع دخولي العقد الثامن هي صورة مؤرخ محترف عجوز وغريب الأطوار، حدث وأصر على أنه ماركسي، لكنه استمر في تقديم إنتاجه بشكل كامل.

في الحقيقة، كان تاريخ القرن العشرين الذي كتبته في الظروف السعيدة في "المدرسة الجديدة للأبحاث الاجتماعية" (حيث كنت أدرس لمدة ستة أشهر من كل سنة منذ عام ١٩٨٤)، "عصر النهايات القصوى ١٩١٤ ـ ١٩٩١" (١٩٩٤)، من أنجح الكتب التي ألفتها، على صعيد المبيعات واستحسان النقاد في آن معا. إذ لقي قبولا حسنا عبر كل درجات الطيف الأيديولوجي في العالم قاطبة ـ باستثناء فرنسا ـ كما نال جوائز تقديرية في كندا وتايوان، وترجم في السنة الثانية من صدوره إلى العبرية والعربية والصينية والكرواتية والصربية والألبانية والمقدونية. وبحلول العام الثاني من القرن الجديد صدر ـ أو كان على وشك أن يصدر ـ بسبع وثلاثين لغة.

ومع ذلك، وفي ميدان متشرب بالسياسة مثل كتابة التاريخ، فإن فصل أحدهما عن الآخر يعتبر أمرا غير واقعي. وصحيح أنني عارضت حصاري في "غيتو" الماركسية، إلا أن شهرتي كمؤرخ (ومبيعات كتبي في الستينات والسبعينات) قد أفادت من سمعتي كماركسي. ومن المفارقة أن كتبي لم تنشر في عالم "الماركسية الموجودة فعلا" باستثناء هنغاريا وسلوفينيا. فاللاهوتيون المحليون لم يعرفوا ماذا يفعلون بمؤرخ لا يمكن نشر أعماله باعتباره كافرا بالعقيدة، ولا باعتباره ماركسيا مؤمنا، نظرا لأن "التفسير الماركسي" الوحيد الذي يقرون به هو التفسير الأرثوذكسي المعترف به رسميا.

في الغرب، وحتى في ما سمي آنئذ بالعالم الثالث، كانت الستينات فترة مناسبة لنوع التاريخ الذي أكتبه، أو بدقة أكبر، لتحالف المؤرخين المجدين الذين سأناقش مصائرهم في الفصل الأخير. لنفكر مثلا بكتاب "التاريخ الاقتصادي لبريطانيا" (ثلاثة أجزاء) الذي أوكلت دار "بنغوين" للنشر ـ بناء على نصيحة جاك (السير جون فيما بعد) بلومب ـ مهمة تأليفه إلى ثلاثة مؤرخين: أنا، و ام. ام. بوستان، وكريستوفر هيل. لقد أصبح الماركسيون، الذين غادروا "الغيتو" (باستثناء من أراد منهم البقاء)، جزءا من التيار التاريخي الرئيسي في تلك الفترة. وفي نفس الوقت، انبثق تيار يساري سياسي ـ فكري في جامعات ومدارس أوروبا والولايات المتحدة، سعى وراء

أشخاص يملكون أوراق اعتماد راديكالية. لهذا السبب لقي كتاب أي. بي. تومبسون المدهش "تكوين الطبقة العاملة الإنكليزية" نجاحا كبيرا في منتصف الستينات، ورفع مؤلفه، عن جدارة واستحقاق لكن ذلك فاجأ الجميع، إلى مصاف الشهرة العالمية بين عشية وضحاها. اشتكى المدرسون القدامى آنئذ من أن طلابهم لا يقرؤون سوى هذا الكتاب في الواقع. لم أكن أملك نبوغ تومبسون ولا شخصيته الكارزمية، ولم تتفوق كتبي على كتبه في المبيعات، لكنني كتبت أيضا حول نفس المواضيع وبعواطف جياشة، الأمر الذي اجتذب الطلاب الراديكاليين الشباب من القراء.

لا يوجد مكان ترتبط به المعرفة والعلم ارتباطا وثيقا بالسياسة مثل ما سمي بالعالم الثالث، حيث لم تكن الماركسية بالطبع، كونها معادية للإمبريالية والاستعمار، مجرد توصيف ينطبق على أقلية أكاديمية صغيرة، بل كانت الأيديولوجيا السائدة بين المثقفين الشباب. ولربما تمثل البرازيل نموذجا معبرا عن ذلك. فحتى خلال حكم النظام العسكري (١٩٦٤ ـ ١٩٨٥)، الذي أخرج من الحياة العامة فعلا كل من عرف عنه ارتباطه باليسار إن لم يسجن أو يجبر على الهجرة، استشير أشخاص مثلي حول الهيئة التدريسية للجامعات المؤسسة حديثا. وفي الحقيقة، تلقيت دعوة لإلقاء محاضرة عام ١٩٧٥ في مؤتمر انعقد حول موضوع مبهم بعنوان "التاريخ والمجتمع"، في الجامعة الحديثة التي استشرت حولها، وكان اتحاد الطلبة فيها ـ وهذا أمر لا يفاجئ المراقب كثيرا ـ معاديا بحماس للنظام الحاكم. لم يكن ذلك صدفة. فالصحافة التي كرست حيزا كبيرا للمناسبة الأكاديمية "الإقليمية"، خرجت عن المألوف بالتوكيد على "تركيبتي الماركسية" (رغم أن إحدى الصحف، "استادو دي ساو باولو"، وصفتني بـ "الايرلندي المولد"). وفي الحقيقة، وكما أخبرني الصحفيون الأصدقاء، بدأ النظام منذ منتصف السبعينات يرخي قبضته قليلا، وكان المؤتمر برمته جزءا من عملية اختبار لمدى استعداده لتحمل مزيد من التحرر. وأي اختبار أشد تأثيرا من إعلان دعوة مؤرخ ماركسي معروف، يرجح أن يستقبل الطلاب أفكاره غير الأكاديمية بالهتاف والتصفيق ـ كما حدث فعلا ـ [1] مع توفير دعاية واسعة للمناسبة؟ يعتبر ذلك مثالا واضحا على التوليفة البرازيلية التي تثير الإعجاب وتجمع بين الشجاعة (المدنية) والذكاء، ورفض

١- كتبت "استادو" و"تايمز" المحلية حول "المدرج المزدحم بالحضور . . لتختتم [المحاضرة] بعاصفة طويلة من التصفيق الحماسي" (استادو دي ساو باولو ، ٢٨/ ٥/ ١٩٧٥) .

القبول بالديكتاتورية، وعدم التوقف عن الضغط عليها وتجاوز قدرتها على الاحتمال. صحيح أن جنرالات البرازيل لم يكونوا من الجلادين القتلة كغيرهم من حكام أمريكا اللاتينية، لكن أيدي النظام كانت ملطخة بالدماء، ومخاطر التعرض للسجن والتعذيب كانت حقيقية. وكما حدث آنئذ، أصابت المعارضة في حساباتها: لقد كان النظام على استعداد للتراجع والتخلي عن السلطة.

ربما لم يكن من المفاجئ أن أستفيد لا حقا ـ ككاتب ـ من مساهمتي الصغيرة واللاواعية في النضال ضد الديكتاتورية العسكرية البرازيلية. ومن الحقيقة الغريبة، التي لم يلاحظها كثير من الليبراليين الغربيين، والمتجسدة في أن ما دعته الولايات المتحدة بـ"العالم الحر" قد مر بين عام ١٩٦٠ ومنتصف الثمانينات في أسوأ مراحل انتشار الحكومات اللاديمقراطية منذ سقوط الفاشية، وذلك بصيغة الأنظمة العسكرية. وكان المثقفون، لا سيما الطلاب منهم، يعارضونها معارضة شديدة، رغم أن الرعب قد أجبرهم على الصمت أحيانا، بغض النظر عما إذا كانوا في اليونان، أو أسبانيا، أو تركيا، إضافة إلى معظم دول أمريكا اللاتينية، وكوريا الجنوبية. إن إتاحة الفرصة للناس لقراءة أدبيات المعارضة جسدت الخطوة الأولى الواضحة في النضال من أجل الدقرطة السياسية، حالما تسمح هذه الأنظمة ولو بهامش محدود من الحرية. ونظرا لكون الجامعات هي الأماكن التي تعلم فيها أفراد النخبة غير التجارية في هذه البلدان (خارج الولايات المتحدة، ما زال انتشار وسيادة كليات إدارة الأعمال من الأمور المستقبلية)، فقد اطلعت نسبة مرتفعة من أولئك الذين قدر لهم الدخول في معترك السياسة، والخدمة المدنية، والمؤسسة الأكاديمية، والصحافة وغيرها من رسائل الإعلام، على نتاج الأسماء التي تمثل الفكر الاجتماعي والتاريخي اليساري. ولأن عدد من تمتعوا بهذه السمعة كان قليلا، فقد اشتهرت أسماؤنا في الأوساط المثقفة، رغم تواضع الانتشار الفعلي لكتاباتنا ـ قانونيا أو انتحالا. ومن الطبيعي أن يتنامى انتشار مؤلفاتنا مع انتشار الديمقراطية، لكن لم يبلغ حجم ما بلغه في البرازيل، حيث فاقت مبيعات الطبعة الأولى من كتابي حول تاريخ القرن العشرين مبيعاته في أي بلد آخر لوحده؛ مع أن هذا يرجع إلى المساعدة التي قدمها ناشر استثنائي إلى حد بعيد هو لويس شوارتز.

بهذه الطريقة، ربما تستطيع الحياة المهنية لأحد الكتاب خلال وبعد نهوض، وتعثر، وسقوط الحكومات اليمينية المتطرفة في الغرب، أن تلقي الضوء على التاريخ الفكري الأوسع لـ "العالم الحر" في النصف الثاني من القرن العشرين، أي على نهوض الأجيال الجديدة من النخبة المتعلمة منذ الستينات، التي تربت على روح الثورة والتمرد، حتى حين "اختارتهم" (حسب العبارة الشائعة آنئذ)، "المؤسسة" أو اختاروا الانضمام إليها. وليس في ذلك مغالاة في تقدير أهمية قراءة نتاج هؤلاء المؤلفين. بعضهم لم يكونوا سوى رموزاً "لموضة" سياسية أو أيديولوجية زائلة. فعلى سبيل المثال، كانت كتابات الفيلسوف السياسي هيربرت ماركوزه (١٨٩٨-١٩٧٩) تعرض في كافة المكتبات الجامعية في العالم الغربي خلال سنوات الثورات الطلابية في أواخر الستينات ـ على أقل تقدير شاهدتها بنفسي في مدن الساحلين الشرقي والغربي في الولايات المتحدة، وفي باريس، وستوكهولم، والمكسيك، وبيونس ايرس (ماركوزه نفسه بدا وكأنه مدرب لرياضة التزلج على الجليد، لا ذلك الفيلسوف المؤثر، حين قابلته في بيت أحد الأصدقاء في كامبريدج بولاية ماساتشوستس في تلك الفترة). لكن بخلال سنوات قليلة عادت كتاباته إلى عالم ما تحت الأرض، حيث بحث فيه الطامحون بتلهف عن مواضيع لأطروحاتهم للحصول على شهادة الدكتوراه.

السؤال المتعلق بما إذا كان الكتاب والمؤلفون الذين أصبحوا رموزا سياسية في بلد من البلدان قد أدركوا ما يحدث لأسمائهم، يظل سؤالا غير ذي صلة بموضوعنا. هنالك بلاد لم أكن أعرف أن لي فيها قراء حتى اكتشفت الأمر بنفسي، مثلما حدث عندما زرت كوريا الجنوبية عام ١٩٨٧ واكتشفت أن خمسة من كتبي قد ترجمت وطبعت محليا (دون إذن قانوني). ولولا أحد الأصدقاء الإيرانيين في "المدرسة الجديدة" (نيو سكول)، لما عرفت أن علي أكبر مهديان (الذي لم أسمع به من قبل) قد ترجم ونشر "عصر الثورة" في طهران في ربيع عام ١٩٩٥، بعد إضافة كلمة "أوروبا" إلى "١٧٨٩ـ ١٨٤٨"، "ربما للحصول على إذن بنشره". في البرازيل، وبدرجة أقل في الأرجنتين، وهما من الدول التي عرفتها ولي فيها أصدقاء، كانت لدي فكرة صحيحة عن الكيفية التي أصبحت فيها هذه الأسماء مألوفة، رغم أنني لم أعرف حجم القراء إلا في فترة لاحقة.

أوصل كل ذلك كاتب السيرة الذاتية الماركسي إلى فضاء التقانة والثقافة، أي انتشار آلات النسخ الذي صاحب التوسع الهائل للتعليم العالي في الغرب منذ الستينات. مما أعطى الجماهير الجديدة من المدرسين والطلاب القدرة على الوصول ـ المجاني ـ إلى النصوص الأكاديمية الباهظة التكلفة والتي كانت لولا ذلك خارج مدى حدود ميزانيتهم المالية المتواضعة والمصادر القليلة في مكتباتهم.

إن دار النشر التي أصدرت كتبي بالإسبانية، "غونزالو بونتون اوف كريتيكا" في بيونس ايرس، هي التي استشفت وجود سوق واسعة للطبعات الخاصة المحلية من أعمالي، إضافة إلى أنني اكتشفت بنفسي حجم قرائي من الشباب، أو على الأقل أولئك الذين لديهم ردة فعل إيجابية على اسمي، وذلك في زيارة قمت بها إلى المدينة لترويجها. في مقابل ذلك، شكل الغياب المنهجي لمثل هذه الوسائل في العالم الشيوعي عائقا حد من انتشار أدبه المنشق، فيما عدا بذل الجهود المضنية لطبعه ونسخه على أوراق "الكربون" أو حفظه في الصدور عن ظهر قلب.

لا شك بأن هناك مؤلفين ـ وأنا لست من ضمنهم كما هو واضح ـ قد يقتفون أثر الأبعاد الفكرية لانحطاط وانهيار الشيوعية وما استتبع ذلك من عواقب، من خلال حظوظ أعمالهم ومصايرها. من الواضح أن من الصعوبة بمكان القيام بذلك لسببين اثنين: أولا، قبل سقوط هذه الأنظمة كان الأدب المنشق/أو المخالف أو حتى المهرطق، لا يسمح به رسميا إلا فيما ندر. وليس ثمة طريقة لقياس تأثير الكتابات التي لم تكن متوفرة على شكل مؤلفات مطبوعة متاحة لمعظم القراء، رغم أن ذلك لا يعني أن تلك الكتابات لم تصبح معروفة بوسائل أخرى. ومنذ نهاية الشيوعية، اعتمد نشر وطبع الكتابات المتعلقة بالتاريخ والسياسة على إعانات المتبرعين المحسنين مثل جورج سوروس الذي يستحق الإعجاب. الأمر الذي لا يقدم للمؤلف معلومات صحيحة عن قارئه المحتمل أو الفعلي. وبفضل سوروس، الذي تمكنت مؤسساته وتبرعاته ـ لوحدها ـ من الحفاظ على الأنشطة الفكرية والعلمية في الاتحاد السوفييتي السابق وباقي دول أوروبا الشرقية، في مواجهة النيران الكاسحة لما يسمى بـ"السوق الحر"، نشر كتابان من كتبي على الأقل، "عصر النهايات القصوى" و"الأمم والقومية"، باللغات الأوروبية الشرقية، حيث قد لا يغطي عدد القراء الضئيل التكاليف الضخمة للترجمة والنشر.

علاوة على ذلك، كان أحدهما ("الأمم والقومية") عبارة عن نقد لنفس القومية الإثنية ـ اللغوية التي اعتمدت عليها الدول الصغيرة التي خلفت الأنظمة الشيوعية في وجودها. لذلك كان من غير المرجح إلى حد بعيد وجود طلب محتمل على هذه المواضيع النقدية في مكتبات تيرانا، وبريشتينا، وسكوبي. لكن كيف لي أن أعرف والعالم ما زال يعيش في ظل برج بابل؟

مع ذلك، تمكنت من التغلب على مشكلة برج بابل بشكل فاق الكثير من الزملاء الناطقين بالإنكليزية، على الأقل لأن حياتي المهنية لم تكن تعتمد على التجوال فقط بل على التعددية اللغوية. بالطبع، يحتاج المؤرخون إلى معرفة اللغات الأجنبية أكثر من العلماء والمفكرين الآخرين، فيما عدا اللسانيين وطلاب الأدب المقارن، نظرا لصعوبة دراسة التاريخ بشكل جدي وكلي (باستثناء التاريخ المحلي) بواسطة لغة واحدة، حتى ضمن حدود معظم الدول. وبفضل مزايا التربية والتنشئة بلغتين اثنتين، وموهبة التقاط اللغة عبر المحادثة لا التعليم الرسمي، وتجربة الأسلاف اليهود في التنقل من مكان إلى مكان بين الغرباء، تمكنت من إلقاء دروسي، وبدرجة أكثر تواضعا، كتبت مؤلفاتي وتحدثت في لقاءاتي الإذاعية والتلفزيونية، بلغات متنوعة، وإن لم أكن متمكنا منها جميعا. الأمر الذي أضفى على حياتي المهنية مسحة عالمية، ناهيك عن الحضور الأكثر تميزا في الدول التي يعتمد صحفيوها في الإذاعة والتلفزيون على كلمات معدودة في لغتهم العامة، يلفظونها عبر الميكروفونات الممدودة، أو حتى في محاضرة عامة أو حديث تلفزيوني. وعلى مر السنين اعتاد الموظفون الإداريون في جامعة بيركبيك سماع الزوار الأجانب بلهجاتهم المتعددة يسألون عن غرفة البرفسور هوبزبوم، وأصوات الطلاب من غير الأنغلو ـ ساكسون يتحلقون حول طاولتي في "الكافيتريا"، إضافة إلى الباحثين من البيرو، والمكسيك، والأرغواي، وبنغلادش، والشرق الأوسط (وهم يتأقلمون تدريجيا مع الحياة اللندنية). لم يكن جميع هؤلاء الطلاب من الأكاديميين فعلا. فخلال الأربعين سنة الماضية، أصبحت الإنكليزية لغة الاتصال العالمية، في حين تدهور حال الفرنسية، اللغة العالمية الأخرى، بسرعة كبيرة، بحيث فقد الكثير من أمثالي وظيفتهم السابقة كمترجمين ووسطاء بين المفكرين والمثقفين. لكن هذا الدور بقي مهما في أوروبا، على الأقل خلال حياة جيل المفكرين

الفرنسيين العظام الذين لم يعرفوا سوى لغة واحدة (أحد الاستثناءات النادرة يمثلها ريمون ارون المفكر اللامع والحزين) والذين لم يتمكنوا من التحدث بالإنكليزية أو فهمها. عملت مترجما للمؤرخ العظيم ارنست لابروس في المؤتمرات التي عقدتها "جمعية التاريخ الاقتصادي" في وقت مبكر بعد الحرب (حذرني بشدة من النبيذ الأبيض لأنه لا يستحق، برأيه، أن يشربه فرنسي يحترم نفسه!). على سبيل المثال، ما كان بمقدوري توطيد أواصر أي نوع من العلاقة مع فيرناند بروديل لولا معرفتي بالفرنسية. وحتى في منتصف الستينات، حين وصل الجيل التالي (الذي كان أكثر معرفة باللغات الأخرى) إلى سن النضج، كان أبعد ما يكون عن التمكن من اللغات الأجنبية، كما سيثبت ذلك أبرز مؤرخي فرنسا ايمانويل لو روي، لو تذكر زيارته الأولى إلى لندن. العلماء والباحثون من أوروبا الشرقية اعتمدوا ذات مرة على الفرنسية؛ في التسعينات، لم يجد تلاميذهم صعوبة تذكر في كتابة امتحاناتهم بالإنكليزية في "المدرسة الجديدة". ومع ذلك يتوجب على القرية الكونية التي يعيش فيها الأكاديميون الاستمرار في الاعتماد على التعددية اللغوية، كما يؤكد أي مفكر غربي - إن وجد نفسه يسير على غير هدى في شوارع نانجينغ، أو ناغويا، أو سيؤول - أي حين يجد نفسه أصم، أخرس، وجاهلا. إذ ينبغي على كل من يذهب إلى هناك أن يتكلم لغتين اثنتين على أقل تقدير.

مع ذلك فإن القرية الكونية حقيقة واقعة، ونظرا لأن الحدود الزمانية والمكانية قد ألغيت عمليا، فإن المهنة الأكاديمية تعيش فيها، بعد أن أصبحت مرة أخرى تشبه حالها في العصور الوسطى في أوروبا، أي في تنقل وترحال دائمين، أو"محمولة جوا" كحالها الآن. أعتقد بأنني أعيش فيها منذ أربعين سنة. عند هذه النقطة يبهت الخط الفاصل بين الحياة المهنية والحياة الخاصة، أو يختفي كليا. في الذاكرة، تختلط حفلات العشاء المقامة لبعض الزوار في مواسم الهجرة الأكاديمية (بعد نهاية الفصول الدراسية) مع حفلات أعياد الميلاد حيث ينضم إلى العائلة الأصدقاء، المحليون أو الأجانب، الذين تحرروا مؤقتا من تنقلاتهم الموسمية أو كانوا معادين لها: فرانسيس ولاريسا هاسكل، أرنالدو موميليانو، يولاندا سونابيند. لا يعني ذلك أن الأساتذة الجامعيين ليس لهم أصدقاء سوى غيرهم من الأكاديميين، رغم أن طبيعة الأشياء تحتم أن يكون أغلب

الأصدقاء منهم. وفي الحقيقة فإن أحد الأسباب التي دفعتنا أنا ومارلين إلى اختيار العيش في الأوساط المدينية هو عدم وجود مجتمع محلي جامعي في لندن أو نيويورك على درجة من الاتساع تكفيه للهيمنة على الحياة الاجتماعية هناك. من ناحية أخرى، تعتبر القرية الكونية مكانا متخما بالمواجهات واللقاءات، وذلك بغض النظر عما إذا عاش المرء حياته فيها بين الأكاديميين، أو العاملين في وسائل الإعلام، أو رجال الأعمال. فلكل فرد من سكانها جذور وديمومة ـ إما "هنا" (لندن، كامبريدج، مانهاتن) أو في مكان آخر. في كثير من الأحوال، وهذا أمر جديد، تكون لديه جذور متعددة، أو على الأقل ارتباطات متعددة، محلية أو مهنية ـ على سبيل المثال حتمت تنقلاتي الموسمية بين لندن ومانهاتن انفصالي عن مارلين، حيث باعدت بيننا قارات ومحيطات، ولم نكن نلتقي إلا في عطلات نهاية الأسبوع.

القرية الكونية هي مجموعة من نقاط الاجتماع واللقاء لهذه الكائنات المتحركة باستمرار عبر العالم المعاصر: لقاءات متوقعة، كما في المؤتمرات والمنتديات، أو اتفاقية وغير متوقعة، كما في العمل أو الإجازة. إن سؤال "ماذا تفعل هنا؟" هو الذي قاطع حياتي في سنتياغو، وسيؤول، وميسور. لكن كل ذلك لا يمثل سوى نوع واحد من أنواع اللقاءات في القرية الكونية، أبعادها الزوال، والعزلة، واللقاءات الطارئة المفاجئة في مكاتب تأجير السيارات، والحانات، وغرف الفنادق، والـ"سي.ان. ان". وحتى الدوائر الرفيعة التنظيم لما يمكن أن يسمى بالسياحة التجارية أو المهنية ـ المنتديات والمؤتمرات الأكاديمية في الأماكن الجميلة ـ مثل فيلا سيربيلوني على بحيرة كومو، أو فوندا زيوني في البندقية، وأماكن الاجتماعات المترفة لرجال الأعمال قرب الشواطئ وملاعب الغولف ـ لا تمثل المركز الحقيقي للقرية الكونية. إذ تشكلت فعلا في الشبكة المحلية للاتصالات البشرية التي جمعت معا العائلات المحلية والمترحلة والأجنبية، والعائلات التي وصلت حديثا، والتي غادرت. وباختصار، فهي تشتغل من خلال الدوائر العالمية لكرم الضيافة المحلية. لأن ذلك هو النمط الأساسي لحياة معظم الأكاديميين المتزوجين وغيرهم من المحترفين المقيمين. الرجال والنساء الذين دخلوا منازلنا لم يكونوا من "العائلة"، لكننا ألفناهم كأنهم من أفرادها، بغض النظر عما إذا أتوا من نيودلهي، أو فلورنسا، وبغض النظر عما إذا زارونا في هلسنكي أم مانهاتن. كانوا

جزءا من عالمنا اليومي الصغير. على الأرجح، سمعت عنهم، وهم سمعوا عنا، حتى وإن تعرفنا عليهم عبر صديق مشترك لأول مرة، ولن تكون الأخيرة عموما. كان لدينا نفس المرجعيات وتشاركنا في ذات الأخبار والأحاديث. ولربما وصلنا معهم من مكان آخر، لنؤسس قاعدة لإقامة جديدة، دائمة أو شبه دائمة، في بيئة جديدة، كما حدث في سنواتي المبكرة في "المدرسة الجديدة" في الثمانينات. عشنا بينهم وعاشوا بيننا، كما يعيش الجيران في نفس الحي.

بالنسبة لي، كانت حياة ممتعة ومريحة إلى حد استثنائي، تنوعت بالرحلات والأسفار (التي صاحبتني فيها مارلين على نحو متزايد)، علاوة على العمل، والاكتشاف، والإجازة، والجدة، والصداقات القديمة. وحدها معرفة أن الناس الذين يعيشون في فقر مدقع، ويواجهون الكوارث والموت باستمرار، يمكنهم أن يضحكوا، أو على الأقل أن يطلقوا النكات والدعابات المضحكة، هي التي زودتني بالشجاعة لأن أقول: كانت حياتي مليئة بالمتعة والمرح. لم تكن حياة مهنية مترعة بالأفعال الدرامية، ومكابدة المشقة، ومواجهة الخطر والخوف (ما عدا ما يصيب الفكر من أحوال). وعلى شاكلة غيري من أفراد الأقلية الصغيرة المتميزة التي أنتمي إليها، أدهشني "التناقض الواضح بين تجربة حياة المرء الشخصية.. وبين حقائق ووقائع القرن العشرين.. الأحداث المروعة التي مرت على البشرية" [١]. وبحسب معايير النجاح المهني، لم تكن حياتي غير مرضية. لقد أعطتني سعادة خاصة أكثر مما توقعت.

هل كانت هي الحياة التي حلمت بها عندما كنت شابا في مقتبل العمر؟ لربما أكون أحمق أو أبله لو ندمت على أنها اتخذت هذا السبيل، لكن في مكان ما من داخلي يربض شبح صغير ما ينفك يهمس في أذني: "لا يجب على المرء أن يشعر بالراحة في عالم كعالمنا". ومثلما قال ذلك الرجل حين قرأت له في شبابي: "النقطة المهمة هي أن تغيره".

١- خوليو كارو باروبا ، وردت في :

E. J. Hobsbawm, The Age of Extreme (London, 1995), p. I.

-١٩-
المارسليز

ذهبت إلى فرنسا كل سنة تقريبا منذ عام ١٩٣٣، فيما عدا سنوات الحرب العالمية الثانية. أصبح البلد جزءا من حياتي طيلة ما يقارب السبعين عاما، وربما لفترة أطول في الحقيقة، نظرا لأن والدتي بدأت منذ سن مبكرة تعليم أطفالها اللغة الفرنسية من رواية دوماس "الفرسان الثلاثة" الضخمة والصعبة التي لم نتمكن من إنهاء قراءتها أبدا. أرسلت أمي مع أختيها حين كن في سن المراهقة لتعلم الفرنسية في بلجيكا. وفي الواقع، أنتمي أنا إلى آخر جيل أوروبي كانت اللغة الفرنسية بالنسبة له اللغة العالمية الثانية بعد لغته الأم. وحتى في حياة طويلة مليئة بالأسفار كحياتي، فقد زرت باريس أكثر من أية مدينة أجنبية أخرى: وكانت باريس بالنسبة لنا جميعا (وظلت) جوهر تجربتنا في فرنسا. أول مرة زرت فيها المدينة كانت خلال توقف على الطريق من برلين إلى إنكلترا في عام ١٩٣٣ . سافرت مع عمي، الذي كان عليه إجراء بعض الترتيبات النهائية في برلين، وقضاء بعض الأعمال في باريس، لأنها تمثل انعطافا على الطريق المباشر إلى لندن. أعتقد أن عمله فيها كان مرتبطا بالأفلام السينمائية، لأن آخر نشاطاته في باريس قد اعتمدت على شبكة مكثفة من العلاقات داخل الوسط السينمائي الفرنسي، وعلى خبرته المستمدة من فترة عمله في "يونيفرسال"، التي عززها معارفه من التقنيين السينمائيين المهاجرين الذين عرفهم في برلين.

ومثلما هو متوقع للصبيان من عائلات كعائلتنا أن يذهبوا إلى باريس عاجلا أو آجلا، ذهبت إليها وشعرت بالإثارة لكني لم أشعر بالمفاجأة. وفي الحقيقة فإن الإثارة لم تكن نتيجة وجودي في باريس فقط، بل لأنني تخطيت حدود السيطرة النازية بصحبة شاب شيوعي أنيق من الطبقة الوسطى اسمه هيرش على ما أعتقد، وكان ذاهبا إلى

باريس أيضا لأسباب مجهولة، حيث تعرفت عليه في دهليز القطار وعلمني أول جملة فرنسية محكية وبذيئة (merde alors). حجز لنا عمي في فندق مونبسيير في شارع ريشليو بين الكوميدي فرانسيز وبيبليوتيك ناسيونال، الذي لم أكن أسمع بوجوده آنئذ؛ مبنى عرفني على النمط الأساسي لليساريين الفرنسيين في الثلاثينات، حيث لم يتغير على ما يبدو منذ الأيام المبكرة للجمهورية الثالثة (في زيارات العمل اللاحقة التي قام بها عمي إلى باريس، أقام في مؤسسات أقل رسوخا ـ خلال معظم حقبة الثقة والتفاؤل التي مر بها، مثل فندق جورج الخامس). في تلك الأمسية، أو ربما في التالية، أخذني في نزهة على طول الشوارع العريضة التي تصطف المقاهي على جانبيها، والممتدة من ريبوبليك في الشرق إلى مادلين في الغرب، التي كانت ما تزال تمثل مكان التنزه الرئيسي في باريس، كعهدها منذ أيام هوسمان، حيث تقف العاهرات، ويقع حي المواخير حول بوليفار سيباستبول (أحد هذه المواخير اعتبر من الأماكن الأثرية التاريخية وتمت المحافظة عليه أمام زحف التطور العمراني الجديد). لكنني لم أدخل أي منها إلا بعد بضع سنين، حين "فقدت عذريتي" في إحدى الليالي بصحبة هنغاري شيوعي داخل أحد البيوت (لا أستطيع أن أتذكر العنوان) مع مجموعة من السيدات العاريات، وفي سرير تحيطه المرايا من كل جانب. الهنغاري هو جيورجي أدام، واستحثني بشدة على زيارة هنغاريا، حيث السيدات المتزوجات من الطبقة الوسطى اللاتي يقضين الصيف على شواطئ البلاطون في انتظار شبان مثلنا كما أكد لي. سجن فيما بعد في أيام حملة التطهير التي قام بها ستالين، لكنه بقي ماركسيا ملتزما. أما المرأة المتزوجة الوحيدة التي اختبرت معها صحة مزاعمه عن بحيرة البلاطون بعد العديد من السنين، فكانت زوجتي! التي أمضيت معها إجازة قصيرة هناك في بيت الضيافة التابع للأكاديمية الهنغارية للعلوم، وهي مؤسسة مثيرة وساحرة على النموذج العائلي حيث يحتفظ الضيوف في بيتها بزجاجات النبيذ من وجبة طعام إلى أخرى.

في اليوم التالي ذهبت بمفردي إلى "اللوفر" القريب، الذي كان ما يزال محاطا "بقالب كاتو" الزفاف الضخم لتمثال "غانبيتا"، الذي لم ينج من "المحرقة" التي طالت التماثيل (الجمهورية على الأغلب) خلال الاحتلال الألماني ومنذ الحرب. تأثرت بحجم لوحة "فينوس دو ميلو"، وكان للوحة "انتصار ساموثريس" تأثير أشد في نفسي، كما

توقفت طبعا أمام "الموناليزا"، لكنها لم تتكلم لغتي. لوحة أخرى فعلت ذلك، هي "أوليمبيا" لادوار مانيه. ولربما كان من الطبيعي لصبي عذري في الخامسة عشرة أن يتسمر بتأثير النظرة الباردة لتلك المرأة البالغة العارية الرزينة التي تفاخر بما يحيط بها من بذخ ، والتي تبدو لوهلة غير مهتمة بالمتعة الحسية. ومع ذلك، فإن ما جعل لقائي الأول مع هذه التحفة الفنية خالدا في الذاكرة لم يكن المتعة الحسية ـ فاللوفر متخم باللوحات العارية المثيرة ـ بل الإحساس بأن هذا الرسام المدهش لم يكن مهتما بالعاطفة العابرة بل بـ"الحقيقية" الدائمة؛ وبلغة الأجيال اللاحقة من المراهقين بـ"قول الحقيقة كما هي". "أوليمبيا" هي ما أذكره من زيارتي الأولى إلى باريس. ولو كنت بحاجة لمن يهديني إلى اعتناق دين فرنسا ، لكان مانيه هو "الداعية" المناسب.

كنت بحاجة للمعلومات أكثر من الهداية. وخلال السنوات التالية أتت هذه المعلومات، نظرا لضرورة النجاح في الامتحانات باللغة الفرنسية للمرة الأولى، من الكتب والمدرسين ومدراء المدارس، بمن فيهم مفكر فرنسي يحضر أطروحة الدكتوراه، زعم طبعا أنه مطلع على آخر مستجدات الثقافة الفرنسية. كما أكد لي بأن هنالك ثلاثة كتاب معاصرين جادين فقط، هم اندريه جيد، وجين جيونو، وجين جيرودو. لا أعرف لمَ فضل هذه المجموعة المختارة ولم يضم إلى جِيد مثلا سيلين ومارلو. قرأت كل أعمالهم، ووجدت جيد مملا، وأعترف بأنني لا زلت أراه كذلك. وكنت قد عرفت من قبل جين جيونو عبر صحيفة "Vossische Zeitung" في برلين التي نشرت على حلقات ترجمة لواحدة من قصائده حول الحياة الفلاحية في المقاطعة العليا. تأثرت تأثرا عميقا بقصيدته حول الشمس، والعاطفة، والوحشية الريفية، إلى درجة أنني بعد عدة سنين حين كنت أتجول على ساحل المتوسط قمت بزيارة "مانسك" في جبال الألب حيث عاش، لأقدم ولائي واحترامي إليه ـ لم يكن موجودا آنئذ ـ وغطست لفترة وجيزة في المياه الثلجية لنهر "ديورانس"، الذي شهد الحوادث الدرامية التي مر بها في حياته. وجدت هناك إحدى المعجبات التي حجت إلى كعبته، بعد أن سحرتها ـ مثلي ـ بلاغته (كانت شابة عادية الجمال من أصول بولندية) وتبادلنا الملاحظات والتعليقات حول أعماله طيلة الليل. لا زلت أملك الطبعات الرخيصة من رواياته حتى الآن، لكني لم أملك ما يكفي من الشجاعة لقراءتها مرة أخرى منذ ذلك الحين.

من ناحية أخرى، مازلت حتى اليوم أعود من وقت لآخر لقراءة أعمال جين جيرودو وأعجب بأسلوبه الرشيق. وكان جيرودو معروفا آنئذ للقراء الفرنسيين بشكل رئيسي ككاتب مسرحي ناجح يتميز بنزعاته الفكرية. أما مسرحياته فقد أداها الممثل ـ المدير العظيم لويس جوفيه. مسرحيته "حرب طروادة لن تحدث"، التي أظهرت قناعة سوداوية بأن اندلاع حرب أخرى أمر محتوم ولا يمكن تفاديه، بقيت من النصوص الرئيسية لطلاب المؤسسة التعليمية الفرنسية في الثلاثينات. أعجبت بالمناجاة الداخلية التي اتخذت شكل روايات، خصوصا عرض الألعاب النارية المدهشة في "سيغفريد وعامل البناء" التي كتبها بعد الحرب العالمية الأولى بوقت قصير، وكرسها لإظهار التعارض التام بين ما تعنيه فرنسا للفرنسيين وألمانيا للألمان، والتكامل بين الحضارتين في آن معا. ولربما يفسر ذلك سبب اختفاء المؤلف عن الحياة الثقافية الفرنسية بعد التحرير، إضافة لاتهامه بممالأة الفيشيين أو التعاون مع النازيين. كنت معجبا باللغتين والثقافتين كعاشق علق في شرك رغبتين متنافستين، وكذلك تأثرت بقدرة جيرودو على أن يكون فرنسيا من أعماقه بالهوى والفكر ومحبا لألمانيا في ذات الوقت، خصوصا حين يسخر منهما معا.

لم أكن بحاجة إلى معلوماته عن الألمان، لكن من خلاله عرفت للمرة الأولى فرنسا التي تفوق صديقي المؤرخ ريتشارد كوب في الكتابة عنها أكثر من أي شخص آخر: فرنسا الجمهورية الثالثة التي تجذر فيها جيرودو. إذ إن فرنسا التي عرفتها من خلال رواياته، لم تكن فرنسا المثقفين والمفكرين اللامعين، الواثقين من تفوقهم مثل الإنكليز في بريطانيا ـ رغم أنه مفكر جيد باعتباره نتاجا لـ"مدرسة باريس المتفوقة". إنها فرنسا اليعاقبة التي اكتشفتها بنفسي بعد وقت قصير وأصبحت هي فرنسا التي عرفتها في الثلاثينات، من خلال الناطق باسمها: جمهورية مجلة "كنار انشينيه".

المجلة المؤلفة من أربع صفحات رمادية ـ أو ست في المناسبات الاستثنائية ـ كانت تغص بالتعليقات، والدعابات، والرسوم الكاريكاتيرية، ولم تكن تمولها أية جهة كما لم تقبل رعاية أحد ولا نشر أية دعاية إعلانية. وصفت نفسها بأنها "مجلة انتقادية تصدر كل أربعاء". كان يشتريها نصف مليون شخص من رواد "كافيه دو سبور" و "كافيه دو كوميرس" من دنكرك إلى بيربينيان. ولربما مثلت التعبير الوطني الوحيد عن الجمهورية

الثالثة. وفي الحقيقة، فإن لغتها، وتقاليدها، ومرجعيتها، وافتراضاتها، كانت نخبوية إلى درجة أنها لم تكن مفهومة بالنسبة لكل من لم يولد ويترعرع داخلها. ومنذ أيام الجنرال ديغول، الذي سخرت منه أسبوعيا عبر "نشرة البلاط" التي كتبت بالأسلوب الكلاسيكي لمذكرات دوق سان سيمون عن لويس الرابع عشر، اجتذبت خريجي الجامعات والجماعات السياسية أكثر من قرائها الأصليين من الاشتراكيين المعتدلين، والاشتراكيين الراديكاليين، أو حتى الشيوعيين من مقترعي قرية كلوشرميرل(*) (المجتمع النمطي للجمهورية الثالثة، الذي لم يعد بالإمكان تمييزه في بلد سيلغي الهواتف العمومية في الأرياف بسبب انتشار الهواتف المحمولة). أما المبدأ الرئيسي الذي اعتنقته وشكل القاعدة الراسخة لإيمانها فهو أن الجمهورية ليس لها أعداء من اليسار، في حين اتصلت المبادئ الأخرى بالإيمان بالحرية، والمساواة، والأخوة، والعقل، ومعاداة الأكليروسية، وبغض الحرب والتسلط العسكرتاري، إضافة إلى فضائل ومحاسن النبيذ الجيد. كانت متشككة تماما بالحكومات، ومال قراؤها في الثلاثينات إلى الظن بعدم وجود أوهام لديهم حول الأغنياء، الذين يستغلونهم ويفسدون الحكومة، التي ترهقهم بالضرائب، ومعظم السياسيين والصحفيين الذين يحاولون "حشو أدمغتنا". أكدت المجلة على قناعتها، رغم أنها ـ مثل قرائها ـ لم تحاول مثلا إدانة النظام. وكما أشار مارسيل باغنول في ملهاته الشهيرة آنئذ، "الياقوت الأصفر"، حيث يعرف مدير مدرسة مثالي أن المهنة والثروة لا يمكن الحصول عليهما بفضائل الجمهورية ـ ولا حتى باعتراف الدولة بالجدارة التعليمية، ممثلة بوسام "السعفة الأكاديمية" الذي تشوق للحصول عليه (**)، فإن الفساد لا يصلح ليكون هدفا للحملة عليه، بل للسخرية منه ونزع الوهم عنه.

لم يكن هناك من هو أبعد عن عالم "كنار" من مدرّستي، مدام كروسان، التي كانت تعلمني أساليب وطرائق فرنسا الأخرى، والتي أقمت في شقتها في "بوردو

---

* السياسة في هذه البلدة في مقاطعة بورغندي، التي خلدتها رواية لغابرييل شيفالييه صدرت في فترة ما بين الحربين وحملت اسمها، تركزت على المواقع المقترحة للحمامات العامة ـ وهي ملمح من الملامح المميزة للحياة في حقبة الجمهورية الثالثة ـ التي شكلت نقطة جدال بين اليمين واليسار!

** كانت ملهاة "العقيق الأحمر" في ذهني، وجعلت من الصعب علي رفع رأسي عاليا، حين كرمتني الحكومة الفرنسية بعد سنوات عديدة بوسام "السعفة الأكاديمية".

فيرساي" خلال صيف عام ١٩٣٤ . كنت في منحة من مجلس مقاطعة لندن خلال فترة الاستعداد لدخول كامبريدج. كانت مدام كروسان، وهي سيدة رمادية الشعر من أصل نورماندي، تعزف على الهارب، وتقرأ مجلة عتيقة ومحافظة هي "مجلة العالمين"، ولم توافق على قراءتي لبروست (من بين العديد من الأمور الأخرى التي لم تحظ بموافقتها)، حين أحضرت أعماله إلى "صالونها" من قسم الإعارة في مكتبة غيلمار في شارع راسبيل الذي زرته بانتظام بقدر زياراتي المتكررة لقبة مونبارناس (ما زالت مكتبة غليمار في ذات الموقع حتى اليوم). ففي رأيها أن بروست كتب بلغة فرنسية سيئة. من ناحية أخرى، علمتني القواعد الصارمة لآداب المائدة الفرنسية - مثل أن لا نضع اللحم والخضار بصورة عشوائية في نفس الطبق، بل يجب أكلهما بشكل منفصل، وأن أكل السمك بحاجة إلى النبيذ ("سمك بدون نبيذ سم قاتل"). كانت حياتها الاجتماعية مقيدة ورسمية. وبالرغم من طبخها المدهش، إلا أنني أخشى أن أقول إن كلا منا خيب أمل الآخر، ففرنسا التي تعرفها ليست فرنسا التي أحبها وأعرفها.

المثقفون الشباب من جيلي أسعدهم الحظ بالتعرف إلى فرنسا في الثلاثينات (المدى الذي وفرته للشابات من ذلك الجيل كان أشد ضيقا بكثير). إلا أن المؤرخين لم يتحمسوا لفرنسا التي وطأتها قدماي للمرة الأولى في ربيع عام ١٩٣٣، وأمضيت فيها معظم عطلاتي الصيفية منذ ذلك الحين وحتى اندلاع الحرب العالمية الثانية. على الصعيد السياسي، كانت الجمهورية الثالثة في طور الاحتضار. وعلى الصعيد الثقافي، عاشت فرنسا على رأس المال الذي راكمته منذ ما قبل الحرب العظمى، والذي لم يضف إليه الفرنسيون كثيرا بعد عام ١٩١٨ . معظم الأسماء العظيمة في "مدرسة باريس" (Ecole de paris) خلال فترة ما بين الحربين، بغض النظر عما إذا كان أصحابها من الفرنسيين أو المهاجرين، هي لفنانين بلغوا سن النضج ورسخوا سمعتهم قبل عام ١٩١٤. وكما أشار ايه. جي. ليبلنغ، الكاتب الأمريكي المتخصص بشؤون الملاكمة، ونيو اورليانز، والسياسة، وفن الأكل، فإن الأطباق الفرنسية الشهيرة، مثلها مثل مومسات باريس، قد ولّى عصرها الذهبي.

ومع ذلك لم تكن تبدو لنا على هذا النحو. فبرغم كل شيء، ما زال ماتيس وبيكاسو في قمة نشاطهما، كما أن ابن رينوار، نابغة السينما الفرنسية، كان ينتج

رائعة سينمائية كل سنتين. ما رأيناه لم يكن بلدا في طور الانحطاط، بغض النظر عن اقترابه من شفا الحدث المخزي والبائس المتمثل في الحرب العالمية الثانية، والذي وجد الفرنسيون صعوبة في التأقلم معه حتى بعد مرور نصف قرن من الزمان، بل فرنسا التي انطبعت صورتها في ذهن العالم المثقف الغربي منذ عصر التنوير في القرن الثامن عشر باعتبارها مركز الحضارة والحياة الرغيدة. الدعابة الشهيرة التي تقول بأن الأمريكيين الأخيار حين يموتون يذهبون إلى باريس ـ التي ظهرت مطبوعة للمرة الأولى في الموجز الوافي المميز للفكر الثقافي الفرنسي، "دليل باريس" عام ١٨٦٧ـ ما زالت تحمل قدرتها الكاملة على الإقناع؛ وفي الحقيقة، سيظل الأمريكيون (من شمال ووسط وجنوب القارة) يحتفظون بإيمانهم بباريس كفردوس النعيم مدة أطول من كل الأجانب الآخرين. وحتى ألمانيا النازية لم تستطع تحرير نفسها من هذا الاعتقاد الراسخ. وذكريات سنوات الحرب التي يحتفظ بها الألمان المثقفون والمدنيون والعسكريون عن فرنسا المحتلة، مهما اقتنعوا بدونية النسيج المعنوي/ الأخلاقي للمهزوم، توحي بأن الفاتحين / المنتصرين ما زالوا يعتبرون أنفسهم مثل الرومان بين الإغريق. لقد قبل الأجانب المغرمون بفرنسا وثقافتها اعتقاد الفرنسيين الذي ظل واضحا وراسخا بأن بلدهم هو في الواقع مركز الحضارة العالمية، "المملكة الوسطى" للفكر (مثل الصين التي تمثل الثقافة الأخرى الوحيدة التي تؤمن بتفوقها الأكيد الذي لا يقبل التشكيك).

ما الذي جعلنا ننظر بمثل هذا التقدير والإعجاب إلى فرنسا؟ ما الذي جعلنا نظن أن باريس ما تزال بمعنى من المعاني "عاصمة القرن العشرين"، مثلما كانت عاصمة للقرن التاسع عشر كما هو واضح؟ فيما عدا الرسم والنحت، والتراث الاستثنائي للرواية الفرنسية، لم يكن ثمة شيء في الثقافة الفرنسية الرفيعة والحياة الفكرية يبدو أنه "الأفضل في العالم" بصورة "واضحة". ولم تشعر آداب اللغات الأوروبية الرائدة الأخرى بدونية تجاه الفرنسية. وحتى المتحمسين من المغرمين بالثقافة الفرنسية لم يجادلوا لصالح تفوق رابليه أو راسين على شكسبير أو غوتيه، أو دانتي أو بوشكين. أما الموسيقى الفرنسية، مهما كانت أصيلة، فتعتبر من الدرجة الثانية مقارنة بموسيقى النمساويين. في حين بدت الفلسفة الفرنسية في مرتبة أدنى من الألمانية (بالنسبة للشباب القادمين من وسط أوروبا)، كما افتقر العلم الفرنسي المعاصر إلى الإنجازات

الرفيعة المستوى التي حققتها بريطانيا وألمانيا في حقبة ما قبل عام ١٩٣٣، بينما "علقت" التقانة الفرنسية على ما يبدو بحقبة برج ايفل، والمترو (الفن الجديد). أما بالنسبة لوسائل الراحة الحديثة، وبغض النظر عن "التواليت الإفرنجي" الذي لم يكن معروفا حتى حينه في التقانة الأنكلو - ساكسونية، ففي حكم المؤكد أن حالة دورات المياه الفرنسية لم تكن هي التي اجتذبت الشبان الأمريكيين والبريطانيين إلى ذلك النوع من الفنادق التي كانت أسعار الإقامة فيها في متناولهم.

من ناحية أخرى، كان تفوق الثقافة الفرنسية يعتبر قضية مسلما بها. فمنذ أيام فولتير، ظل العقل الفرنسي نموجا يحتذى للعالم الغربي. كما لم يشكك أحد بأن الأزياء (النسائية) ومستحضرات التجميل الفرنسية، وأصناف النبيذ والطعام، هي الأفضل عالميا. في حين اعتبرت العلاقات الجنسية في فرنسا هي الأحدث والأكثر تطورا، كما أن الذوق والأسلوب الفرنسيين كانا من الأمور التي مال أفراد جيلي إلى الإذعان لها. وحتى ذلك قد اعتمد على العادة الراسخة والمتمثلة في تحويل التفوق في بعض المجالات إلى تفوق عام يفترض أنه متأصل في ذلك البلد. لقد عرفنا أن هنالك الكثير من الميادين التي لا يتفوق فيها الفرنسيون. لكن إعجابنا بفرنسا لم يتأثر بحقيقة لم يخطئ في ملاحظتها الشباب والفتيات من أبناء جيلي القادمين من أمريكا الشمالية ومن وسط وشمال أوروبا، والمتمثلة في عدم وجود شيء تقوله طريقة الحياة الفرنسية في فترة ما بين الحربين عن الأنشطة التي تمارس في الهواء الطلق. إذ لم يكن فيها الكثير من التواصل مع الطبيعة. كما لم تكن تبدي اهتماما كبيرا بالنزهات سيرا على الأقدام، بشكل إفرادي أو في جماعات، أو تسلق الجبال، أو التزلج على الثلج، أو ممارسة أو حتى مشاهدة الألعاب الجماعية، ولا حتى كرة القدم. في الثلاثينات، بدا أن الاهتمام "الأيديولوجي" بالهواء الطلق كان مقتصرا على المحافظين، بدءا بالكاثوليك، وانتهاء بالرجعيين. وفي مقابل ذلك، لم تكن الرياضة الوحيدة التي تثير حماس الفرنسيين على المستوى الجماهيري، سباق فرنسا للدراجات، تثير الاهتمام خارج فرنسا فيما عدا بعض الدول المجاورة (*).

* لكن قبل بضع سنوات من نهضة رياضة التنس عند الأمريكان والأستراليين في الثلاثينات، لعبت فرنسا دورا بارزا على مسرح التنس العالمي، من خلال "الفرسان الأربعة": كوشيه، لاكوست، برونون، بوروترا، إضافة إلى واحدة من أبرز وأندر الرياضيات في زمنها، سوزان لينغلين.

من ناحية أخرى، كان لفرنسا مصدر قوة رئيسي. فقد بدت أنها تقدم حضارتها لكل أجنبي راغب بها. كانت لنا لنشارك فيها، ونحن قبلناها، ولم يقتصر السبب على أن موسوليني وهتلر قد شوها سمعة الثقافتين الإيطالية والألمانية - ما كان أفراد جيلي يحلمون أبدا بقضاء إجازاتهم في فينيسيا أو روما الفاشية - بل لأن الثقافة البريطانية كانت مغالية في عزلتها، في حين بدا أن الثقافة الأمريكية تنتمي لمجتمع آخر مختلف تماما. لقد تمكنت الثورة الفرنسية، التي تعتبر نقطة انطلاق التاريخ العالمي الحديث لكل شخص على الكرة الأرضية تلقى تعليما غربيا، من دقرطة أكثر ثقافات البلاط العظيمة شهرة ومكانة واقتصارا على النخبة، وفتح بوابات الدولة الشوفينية السيئة السمعة، أمام كافة الذين قبلوا مبادئ الحرية، والمساواة، والأخوة، واللغة الفرنسية، بشكل كلي لا يتجزأ. في القرن التاسع عشر، لم تصبح فرنسا الدولة الرئيسية التي تمتص المهاجرين في أوروبا فحسب، ولكن أيضا - خصوصا بين ثورتي ١٨٣٠و ١٨٤٨- الملجأ الذي يرحب بالمنشقين السياسيين والثقافيين من كافة دول أوروبا. كانت باريس مركز الثقافة العالمية، الموقع الذي كان وسيكون. في أي مكان آخر يمكن أن تقوم "ايكول دو باري" في بدايات القرن العشرين، حيث عاش الفنانون الأسبان، والبلغار، والألمان، والهولنديون، والطليان، والروس، جنبا إلى جنب مع القادمين من أمريكا اللاتينية، والنرويج، والفرنسيين بالطبع؛ ليس ثمة بلد آخر ستعتمد فيه "المقاومة" خلال سنوات الحرب على المهاجرين المقيمين - اللاجئون الأسبان من الجمهوريين، مع خليط من البولنديين، والطليان، والهاربين من أوروبا الوسطى، والأرمن، ويهود "العمال المهاجرين" التابعين للحزب الشيوعي. ذكرياتي الخاصة عن باريس قبل الذهاب إلى كامبريدج تتصل بالأمريكيين في معارض الرسم في الضفة اليسرى، والسرياليين الألمان في غرف تحت أسطح المنازل، وموائد "دوم كافييه" في مونبارناس التي تعج بعباقرة الفن المعدمين القادمين من روسيا ووسط أوروبا في انتظار اعتراف العالم بموهبتهم. أما ذكرياتي بعد أن غادرت إلى كامبريدج والتحقت بالحزب الشيوعي فتتصل باللقاء مع مناهضي الفاشية من وسط أوروبا في "مقهى البلقان" في شارع هارب، وبالمؤتمرات الدولية التي حشد جيمس كلوغمان من أجلها الموالين الشباب في كامبريدج وغصت باللاجئين الطليان، والألمان، وأخيرا الأسبان، والمضطهدين اليوغسلاف، والمجريين، وخليط من الثوريين الآسيويين.

لم يكتف هتلر بتحويل فرنسا إلى مركز عالمي أكثر من أي وقت سبق، بل جعلها -

بين عامي ١٩٣٣- ١٩٣٩- آخر الملاجئ الرئيسية للحضارة الأوروبية، والمركز الوحيد الباقي لليسار الأوروبي بعد زحف الفاشية. ورغم أن فرنسا لم ترحب بالمهاجرين وطالبي اللجوء، ولم تكن متعودة على الهجرات الجماعية (على العكس من بريطانيا قبل مؤتمر ميونيخ)، إلا أنها لم تبذل جهدا منهجيا منظما لمنعهم من دخولها. هنالك أماكن أخرى للجوء - مثل دول البينيلوكس الصغيرة (بلجيكا، هولندا، لوكسمبرغ)، وتشيكوسلوفاكيا (حتى مؤتمر ميونيخ)، وسويسرا المترددة، والدانمرك، حيث ذهب بريخت، بل حتى إيطاليا بالنسبة للاجئين لليهود من غير السياسيين إلى أن أدخل موسوليني نظام التمييز العنصري/ العرقي عام ١٩٣٨ (لكن ليس روسيا ستالين بدءا من حقبة الإرهاب الكبير). كانت كل هذه الأماكن مجرد ملاذ للمضطهدين. أما فرنسا فهي أمر مختلف. فحتى في الأوقات التي لم تكن عصيبة، يفضل المنفيون الذهاب إليها طوعا. وبدا، وما يزال يبدو، من الطبيعي أن يقام "المعرض الدولي لعام ١٩٣٧" في باريس، وكان بمثابة المناسبة الكبرى الأخيرة قبل الانزلاق إلى جهنم، حين أرادت كل أوروبا المنقسمة أن تستعرض نفسها. وأي مكان آخر يصلح لذلك؟ في حكم المؤكد تقريبا أنني لست الوحيد الذي يتذكر المعرض باعتباره دوليا وفرنسيا في آن معا: لا بسبب لوحة بيكاسو "غيرنيكا"، والجناحين الضخمين لألمانيا والاتحاد السوفييتي اللذين كانا "يحملقان" في بعضهما البعض، ولكن أيضا بسبب العرض المدهش والمتلألئ للفن الفرنسي، أجمل ما رأيت من فن في حياتي.

وهكذا، أصبحت فرنسا لوهلة تجسد الأمل، لا مجرد ملاذ للحضارة. في عام ١٩٣٤، اجتمعت القدرات الغريزية المحلية للسياسة الجمهورية الشعبية (المتحدة في الدفاع عن الجمهورية، دون وجود أعداء على اليسار) مع الإحساس الواقعي غير العادي للمتحمسين لفرنسا من ممثلي الكومنترن من وسط أوروبا، مع الحزب الشيوعي الفرنسي، لابتكار أفضل استراتيجية ممكنة للقتال ضد زحف الفاشية الذي بدا آنئذ أن من المتعذر مقاومته، والتي تجسدت في "الجبهة الشعبية" [1]. فازت الجبهة الشعبية

١- انظر سيرة هذه الشخصية البارزة التي كتبتها اني كريغيل واس . كورتوا :

Eugen Fried: Le Grand Secret du PCF (Paris, 1997).

خضعت الأدوار النسبية التي لعبتها باريس وموسكو في تشكيل الجبهة الشعبية لمناقشات مستفيضة ، لكن يبدو واضحا الآن أن ابتكارها الحقيقي ، متمثلا في استعداد الشيوعيين لتوسيع ما سمي بـ"الجبهة المتحدة" لتشمل إضافة إلى الاشتراكيين الآخرين الليبراليين من غير الاشتراكيين ، ثم كافة المناهضين للفاشية مهما عارضوا الشيوعية ، قد بدأ في فرنسا .

بالانتخابات التي جرت في إسبانيا في فبراير/شباط من عام ١٩٣٦ , وفي أيار/مايو، فازت بالانتخابات في فرنسا. وأوصلت إلى سدة الحكم أول حكومة في التاريخ الفرنسي يرأسها اشتراكي - لم يستطع الشيوعيون إقناع أنفسهم فعلا بدخول الحكومة - إضافة إلى ظهور أمل استثنائي وتلقائي أمام الطبقة العاملة أترعها بسعادة عارمة، فاندلعت موجة من الإضرابات والاعتصامات، تجلت في احتلال المصانع في حزيران/يونيو ١٩٣٦ , وصلتُ باريس في نهاية هذه الاحتفالات الاستثنائية والمشهورة بالنصر، لكن ما زال أمامي بضعة أسابيع لأشهد احتفالات الرابع عشر من تموز/يوليو التي لم تغب عن البال. أسعدني الحظ لأراها بأفضل طريقة ممكنة: التجول في باريس على شاحنة مع فريق إخباري من الحزب الاشتراكي الفرنسي، لتصوير المناسبة العظيمة (على فيلم خام باعه له عمي بدون شك).

بالنسبة للشبان الثوريين من جيلي، كانت المظاهرات الجماهيرية الحاشدة تعادل القداديس البابوية بالنسبة للكاثوليك الورعين. لكن في عام ١٩٣٦، شكلت ذكرى الاستيلاء على الباستيل، إلى الشرق من ساحة الجمهورية، أكثر من مجرد مظاهرات جماهيرية حاشدة لليسار الفرنسي (لم يهتم أحد في تلك السنة بالعرض العسكري والاحتفالات الحكومية الرسمية الأخرى خلال العطلة الرسمية في الجزء البرجوازي من المدينة). جماهير الشعب في باريس خرجت كلها إلى الشوارع في مسيرة حاشدة - أو بالأحرى لتتجول وسط الزحام - أو لتشاهد وتحيي المشاركين في المسيرة، كما تحيي الأسرة العروسين وهما يغادران بعد انتهاء مراسم الزفاف. الأعلام الحمراء، والرايات ثلاثية الألوان، والزعماء، والفرق التي تمثل العمال الذين خرجوا منتصرين من إضرابات شركة "رينو"، والعاملات المضربات في محلات "برانتان" و"لافاييت"، و"البريطانيون المتحررون" يسيرون تحت لافتات شعاراتهم، والأعلام الخضراء "لنجمة شمال أفريقيا" مرت جميعها أمام الجماهير المحتشدة على الأرصفة، والنوافذ المكتظة بالناس، وأصحاب المقاهي الكرماء مع الندل والزبائن يلوحون بأيديهم، وعاهرات المواخير المتحمسات اللاتي بدون أكثر كرما وسخاء وقد تجمعن معا وصفقن ولوحن بأيديهن.

كان ذلك واحدا من الأيام النادرة التي هام فيها عقلي حرا طليقا في الآفاق. كنت أشعر وأختبر فقط. في تلك الليلة شهدنا الألعاب النارية فوق المدينة من تلة مونمارتر،

وبعد أن تركت جماعتي، عدت ماشيا بتمهل عبر شوارع باريس وكأنني محلق فوق السحاب، لأقف وأشرب وأرقص في العديد من الحفلات المقامة في زوايا الشوارع. ولم أصل إلى فندقي إلا مع مطلع الفجر.

في الحقيقة، صممت حكومة الجبهة الشعبية تقريبا للشباب، فقد أدخلت (من خلال قانون جديد لوكيل وزارة "الرياضة"، ليو لاغرانج) أول عطلة رسمية مدفوعة الأجر، وحددت أسعارا رخيصة لوسائل المواصلات الحديدية. وبقيمة المبلغ الوحيد من المال الذي سأربحه في حياتي - من اليانصيب الوطني، (١٦٥ فرنكا أو حوالي ٢ - ٣ جنيهات إسترلينية بسعر الصرف لعام ١٩٣٦)، تمكنت من القيام برحلة إلى البيرينيه ولانغويدوك لمدة أسبوعين، لأنضم لأول المستفيدين من قرار لوي لاغرانج على القطار الليلي من "غار دورسيه" إلى لوشون. وبنهاية تلك الرحلة سأجري الاتصال المباشر - الأول والوحيد - مع الحرب الأهلية الإسبانية التي لم يمض على اندلاعها سوى بضعة أسابيع والتي سأتناولها بالتفصيل في الفصل العشرين من هذا الكتاب. كما عرفتني (من خلال شاب تشيكي التقيته في القطار) على "تكتيك" التنقل مجانا بالسيارات (الأوتوستوب) وكان ممارسة غير معروفة للناس في أوروبا باستثناء قلة من الشباب المترحلين في وسط أوروبا . ولذلك كانت سهلة جدا بالنسبة لي، خصوصا بعد أن اكتشفت إمكانية منع أصحاب السيارات (من الطبقة الوسطى الفرنسية) من التعبير عن كرههم الشديد لليون بلوم (رئيس الوزراء الاشتراكي ١٩٣٦- ١٩٣٧) والشيوعيين من خلال الاستفسار في الوقت المناسب عن رأيهم بنابليون - وهو موضوع يدفعهم للحديث مسافة مائتي كيلومتر. ومنذ ذلك الحين، توسعت معرفتي بفرنسا كل سنة من خلال الرحلات الطويلة بالقطارات (الرخيصة الأجرة) و"الأوتوستوب".

بحلول الوقت الذي اندلعت فيه الحرب العالمية الثانية، حسبت أنني عرفت باريس معرفة جيدة، مثلي مثل الكثيرين من أفراد جيلي؛ بل أكثر من لندن من بعض النواحي. كنت على الأرجح أشعر بارتياح أكبر في الساحة الممتدة بين مونبارناس، والبانثيون، وسان ميشيل، وعلى امتداد بوليفار راسبيل وشارع رينس، مقارنة بأي جزء كبير من وسط لندن. تمكنت من التحدث بالفرنسية بطلاقة تكفي لتجاوز مرحلة تهنئة الفرنسيين بكل لطف وأدب للأجنبي القادر على التحدث بلغتهم. عرفت، أو

حسبت أنني عرفت، عن السياسة الفرنسية بمقدار يعادل ما عرفته عن السياسة البريطانية. حيث كنت على اطلاع على ما يفترض أن يكون من "الأمور الداخلية" للفرق المسرحية (جوفيه، دولين، بتوف)، ورأيت لوحة رينوار "قانون اللعبة" حين عرضت لأول مرة، ودخنت سجائر "غولواز" واضعا السيجارة في زاوية الفم مثل جان غابان، وابتعت أعمال سان جوست وخطب روبسبيير. في الحقيقة، عرفنا وفهمنا أقل بكثير مما حسبنا، لكن نظرا لافتقاد معظمنا إلى الاهتمام الأكاديمي أو المهني أو الأسري في الشؤون الفرنسية، شعرنا بأن باريس هي الوطن. كنا مرتاحين في فرنسا ومع فرنسا.

لكن كان هناك أمر غريب فيما يتعلق بالعلاقة مع فرنسا. فالشعب، أعني الفرنسيين الأصليين وليس المهاجرين أو الأجانب المقيمين بصورة دائمة إلى حد ما، كان غائبا عنها من الناحية العملية. وبالنسبة لمعظم الأجانب في الثلاثينات، كان حضور الفرنسيين الفعلي ينحصر في مجالات الخدمات أو المساعدة في إنتاج أفلام بلدهم السينمائية. ولم تصبح باريس ـ بالنسبة لي ـ مدينة لي فيها أصدقاء من الفرنسيين الأصليين، وأمضيت فيها أوقاتي مع الفرنسيين إلا في الخمسينات، إضافة إلى المجتمع المحلي المعتاد المؤلف من الأجانب الزائرين أو المهاجرين.

كان الفرنسيون ـ وما زالوا في الحقيقة ـ شعب "نظامي" مدهش، يشبه مجتمعهم مسرحا يحدد الأدوار والإجراءات بكل وضوح. لا أستطيع أن أفكر ببلد آخر يقوم فيه زير نساء وفيلسوف في منتصف العمر بالركوع على ركبتيه وتقديم وردة لسيدة. وفيما عدا الحالات التي تستدعي الالتزام الرسمي بالألفة الحميمية، ما زال الفرنسي يميل إلى توقيع بريده اليومي بالتعابير المنمقة بكل عناية لإظهار الاهتمام والاحترام (مسيو، أرجو أن تتلطف بقبول أصدق مشاعري القلبية المخلصة!). أما القبول في الأكاديمية الفرنسية، أو "الكوليج دو فرانس"، الذي ما زال يتطلب الإعلان الرسمي عن الترشيح، متبوعا بزيارات المرشح الرسمية الطقسية للتأكد من أصوات كافة المقترعين، فهو يبالغ في التشبث بالمراسم مقارنة بأي بلد آخر؛ إنه لشرف عظيم والتزام اجتماعي معترف به بالنسبة لأولئك الذين أسهموا في رفع سوية مؤهلات الأكاديمي الناجح ـ العقلية والفكرية ـ أن يحضروا المناسبة حين يدعون للإعجاب بسيفه الشعائري. وحتى الحالة

غير الرسمية لا تفتقر إلى الالتزامات. فحين يكون المثقفون على اليسار، يعتقدون بأن مكانتهم تلزمهم بالتحدث إلى بعضهم البعض باستخدام مفردات بيلفيل. ومع ذلك، كان من الصعب، وربما ما يزال صعبا، الدخول إلى حياة الأكاديميين بدون شكل من أشكال التقديم. في فرنسا وحدها يضطر المرء، حين يقوم بزيارة منزل المؤرخ العظيم ارنست لابروس ـ كنا نعرف بعضنا معرفة جيدة منذ مؤتمر التاريخ الاقتصادي في بريطانيا ـ أن يبقى منتظرا في الردهة لمدة عشر دقائق (طبقا للقانون) قبل أن يؤذن له بالدخول إلى مكتبه ليحييه بود قائلا: عزيزي، زميلي العزيز. فأستاذ السوربون وأمين عام مجلس الوزراء في حكومة ليون بلوم يعرف تماما ما هي حقوقه. أما جان بول سارتر فهو بحكم المنصب "المفكر الفرنسي العظيم" الذي يبدو أنه يفتقد هذا الإحساس بالمكانة والاعتبار بين الناس.

المساواة ذاتها منظمة رسميا. عرفت أنني قبلت باعتباري مفكرا حين بدأ زملائي الفرنسيون الأصغر سنا ينادونني أوتوماتيكيا بدون ألقاب (tu)، مثلما يخاطب المرء الزملاء الخريجين من "ايكول نورمال سوبريور"، أو غيرها من المؤسسات التعليمية النخبوية (الشيوعيون فعلوا ذلك أوتوماتيكيا بالطبع، مهما كانت مكانتهم أو بلدهم، فيما عدا أولئك القادمين من جمهورية ألمانيا الديمقراطية، لكن معظم المؤرخين الفرنسيين من الشيوعيين القدامى قد خرجوا من الحزب في الفترة التي بدأت فيها بالتعرف إليهم). لا يعني ذلك وجود علاقة حميمة على المستوى الشخصي. ونظرا لأنني لم أتمكن من فصل الألفة الحميمية عن العلاقات الشخصية، فقد تعثرت هذه الأخيرة مع فيرناند بروديل إلى الأبد، بعد أن اقترح الرجل الجليل رسميا، وهو أكبر مني عمرا ومقاما وشهرة، أن نخاطب بعضنا البعض مع حفظ الألقاب. أصبح الحديث معه صعبا جدا ـ مثل كتابة رواية من دون الحرف "e"، كما فعل جورج بيرك ـ بدون استعمال ضمير المخاطب أنت أو أنتم. لم أستطع ببساطة إقناع نفسي بالتعامل معه كصديق عادي بدون رسميات، بل نظرت إليه دوما باعتباره راعيا كريما يتعطف علي بصداقته، وهو الدور الذي تعلمت أن أعجب به وأحبه حين يلعبه (ولعبه هو إلى حد الكمال).

في بلد كهذا، مهما بلغت سهولة الدخول إلى الحيز الجغرافي، فإن الدخول إلى الحيز الإنساني كان أمرا صعبا بدون معارف وصلات شخصية أو إشارات اعتراف

ضمني تشبه تلك الرموز الشيفرية الضرورية لزيارة الأصدقاء الباريسيين داخل مباني الشقق السكنية (لم يعد "البواب" التقليدي في هذه الأيام يراقب الداخلين والخارجين بعد حلول الظلام وفي عطلات نهاية الأسبوع). كانت الرموز الشيفرية التي فتحت لي باب الدخول تتمثل في الحزب الشيوعي والارتباط بإحدى جماعات المؤرخين الفرنسيين. انفتحت الأبواب أمامي من خلال انعقاد مؤتمر باريس الدولي للعلوم التاريخية عام ١٩٥٠. في هذا المؤتمر، الذي قدمت وصفا لجلساته في الفصل السابع عشر، قابلت ذلك النوع من الناس الذين سيشكل منهم بروديل، صاحب المشاريع الأكاديمية العظيمة، مع رئيس أركانه المدهش، كليمنس هيلر، المؤسسة المضادة للسوربون، أي "القسم السادس" من "المدرسة التطبيقية للدراسات العليا" (Ecole Pratigue des Hautes Etudes)، التي تمارس نشاطها اليوم تحت اسم "المدرسة العليا للعلوم الاجتماعية" داخل المبنى المغطى بألواح الزجاج الأسود لـ"بيت العلوم الإنسانية" (Maison des Sciences de l'Homme)، الذي استطاع بروديل وهيلر تشييده في موقع مبنى سجن سابق، مقابل فندق "لوتيتيا" المريح، حيث كان رجال "الجستابو" يعذبون السجناء قبل فترة وجيزة. أما أعظم إبداعات "البيت" باعتباره مؤسسة رسمية، فلم تقتصر على ذلك، إذ حاول بشكل منهجي، بفضل بروديل، وهيلر على وجه الخصوص، أن يجمع الفرنسيين والأجانب معا، لكن فوق كل ذلك، إقراره بأهمية الأحاديث الشخصية البعيدة عن الرسميات.

من الطبيعي أن يساعد ذلك في تسهيل إقامة علاقات شخصية مع مجموعة المؤرخين المحيطين ببروديل و"الحوليات"، باستثناء الزعيم نفسه الذي سأتعرف عليه في منتصف الخمسينات. لكن هؤلاء لم يصبحوا بعد من الأسماء الكبيرة، أو حتى المهمة، التي تملك رصيدا من الأعمال العظيمة. بمعنى من المعاني، تقدمت حياتنا المهنية معا، وكذلك علاقاتنا الاجتماعية - على الأقل حتى التحول الغريب إلى الحرب الباردة المناهضة للشيوعية (بعد انهيارها) التي شنها المثقفون والمفكرون الفرنسيون في التسعينات. لكن الصداقة مع الأكاديميين لم تتطور تماما حتى الستينات، وصلاتي الوثيقة مع "البيت"، و"المدرسة" (التي درست فيها لاحقا لمدة شهر كل سنة)، و"كوليج دي فرانس"، لم تبدأ إلا في السبعينات. والسبب الرئيسي في ذلك يعود إلى شخصية كليمنس هيلر الرائعة.

كان كليمنس، وهو رجل ضخم الجثة، بطيء الحركة، يبدو عليه الذهول والتشتت، ويكره الحديث على الهاتف لمدة تتجاوز الخمسين ثانية، ميالا إلى السقوط في مزيج متشابك من اللغات، ويمكن اعتباره واحدا من أكثر رعاة الفكر والفن والثقافة أصالة في أوروبا ما بعد الحرب. الاستعارة التشبيهية المأخوذة من المسرح تناسب المقام هنا. فهو ابن هوغو هيلر، بائع الكتب النمساوي (من فيينا) وصاحب المشاريع الثقافية الذي اجتذب حظه التعس سخرية كارل كراوس. بدأ حياته المهنية كتلميذ في مدرسة ماكس راينهارت للمسرح، قبل أن يذهب إلى الولايات المتحدة بعد احتلال هتلر للنمسا. عاد ضابطا أمريكيا لينظم حلقات سالزبورغ الدراسية الشهيرة، ثم أقصي عنها نتيجة الحملة المعادية للشيوعية في الولايات المتحدة، ليقيم في باريس. وهناك أقام مع بروديل شراكتهما الغريبة الناجحة، التي أدخل في عمقها الثقافة العالمية للوافدين من وسط أوروبا، وحاسة تستكشف الشخصيات والأفكار المهمة والواعدة فكريا، وشبكة عالمية قادرة على اجتذاب التمويل من المؤسسة الأمريكية لمشاريعه الأكاديمية. الأمر الذي أدى إلى اتهامه بالعمالة لصالح المخابرات المركزية، لكن لحسن الحظ لم تثبت إدانته. شكلت الموسيقى والفكر العواطف الملهمة الهادية لهذا الرجل الذي يتمتع بقدر كبير من الدفء والكرم. وأعتبر صداقته واحدة من المكافآت التي قدمتها لي سنوات العمر الطويل.

مع أن صداقاتي التي كونتها في الخمسينات أتت من المؤتمر التاريخي، إلا أنها تحققت بوساطة سياسة المفكرين والمثقفين. لكنها لم تتوطد فعلا من خلال الحزب الشيوعي، رغم أن معظم الأشخاص الذين قابلتهم كانوا في ذلك الوقت أعضاء في الحزب. لقد تمتع الحزب الشيوعي الفرنسي، وهو منظمة يديرها على ما يبدو قادة سياسيون من الدرجة الثانية، بقدرة استثنائية على الاستئساد على المفكرين والمثقفين، ومن ثم معاداتهم، بعد أن استطاع سجله المشرف في المقاومة أن يجتذبهم بأعداد كبيرة، وهو أمر أدهش منا أولئك الذين اعتادوا على الأساليب الأكثر هدوءا للحزبين الشيوعيين البريطاني والإيطالي؛ لكن مع ذلك، وكما أشار الصديق انتونين ليهم، اتبع الحزب، كونه حزبا جماهيريا حقيقيا في فترة ما بين الحربين، الستالينية (مثله مثل الحزب الشيوعي التشيكي) بدلا من "البلشفة" المفروضة عليه من الخارج. وحين اتخذ

موقف من يتعرض للهجوم بعد عام ١٩٤٧، تراجع إلى عالم ثقافي وسياسي خاص، ليتحصن ضد إغراءات العالم الخارجي بطريقة ذكرتني بالأقليات الكاثوليكية في حقبة "الفاتيكان الأولى" في بريطانيا. (نظرا لأن المثقفين الشيوعيين الفرنسيين قد نشأوا في بلد كاثوليكي، فقد كانوا مدركين تماما للتشابه البنيوي بين الحزب والكنيسة). كانت تسيطر عليه مشاعر الشك البروليتارية بالمثقفين. وحين بحثت مجموعة المؤرخين الشيوعيين البريطانيين عن العون من مثيلتها في فرنسا، لم تجد أية مساعدة من الحزب الشيوعي الفرنسي. فقد أراد الحزب في فترة ما قبل الحرب مقاتلين لا أكاديميين. ولهذا، لم يحضر المؤتمر التاريخي لعام ١٩٥٠، رغم اجتذابه للشباب الماركسيين، عدد من الذين سيصبحون لاحقا من أبرز المؤرخين، وسيتحولون في نهاية المطاف إلى معاداة الشيوعية بعد أن كانوا ناشطين متعصبين في الحزب الشيوعي في شبابهم آنئذ - فرانسوا فوريه، اني كريغيل، الان بيزانسون، لي روي لادوري. ولم أتعرف على هؤلاء إلا بعد سقوط الشيوعية.

في الحقيقة، حين أنظر إلى الماضي، يبدو لي واضحا الآن أن القاعدة المؤسسة لشبكة الأصدقاء لم تكن الشيوعية بقدر ما كانت التجربة المشتركة مع المقاومة والتماهي فيها.

طيلة هذا العقد، كانت قاعدتي الباريسية عبارة عن شقة للطبقة العاملة في بوليفار كيللرمان، يملكها هنري ريمون وزوجته الفاتنة هيلين، إلى أن انفرط عقد زواجهما بصورة مأساوية. مع آل ريمون أمضيت معظم إجازاتي، ومعظم أوقات الفراغ. وظل الزوجان لعدة سنوات بعد انهيار زواجي الأول أقرب الناس إلي. وحين يغادران باريس أسافر معهما في سيارتهما الصغيرة إلى أي مكان نتفق عليه - وادي اللوار، إيطاليا، أو غيرهما. وحين يكونان في المدينة أصحبهما أنى ذهبا، لنراقب معا المارة ونحن جالسين في المقاهي، في انتظار/ أو قضاء النهار مع معارفنا من الأنتلجنسيا الفرنسية: لوسيان غولدمان، رولان بارتيز، ادغار موران. وحين يغيبان، أبقى هناك بمفردي، مستخدما الشقة كجزيرة خاصة منعزلة. لقد عوضت هيلين بحيويتها المتألقة عن تقشف أثاثها (ضمت الشقة لوحة مدهشة اضطر الزوجان لبيعها فيما بعد حين مرا بأزمة مالية). وعلى شاكلة صداقة هنري مع الروائي الليبرتاري روجيه فيلان،

والفيلسوف وعالم الاجتماع الماركسي هنري ليفيبفر، كانت الشقة شاهدا أثريا على المقاومة الفرنسية، التي انضم إليها وهو شاب صغير (من أجل التعرف إلى ليفيبفر أحضرتني إلى شقة آل ريمون شابة، شاركت أيضا في المقاومة، التقيت بها في المؤتمر).

كان هنري أصغر مني ببضع سنين، أتى كما يقول من عائلة فلاحية في اورليان، ونشر شعره وشعر أصدقائه في ديوان أو كتيب صغير وضعت رسومه هيلين، كما طلب مني أيضا كتابة فقرة عن الجاز فيه، وفي نفس الوقت كان يعمل في مصلحة السكك الحديدية التابعة للدولة. اتبع خطى ليفيبفر في دراسة علم الاجتماع وطرائق الحياة المميزة لأهل المدن، ودرس في نهاية المطاف في "الفنون الجميلة"، وبالتالي ساير إلى حد ما شقيقه الأكبر اندريه، الأكاديمي الحقيقي وصاحب الأطروحات الهامة، الذي سيغدو خبيرا عالميا متخصصا في الطوائف والفرق الإسلامية ودعامة من دعامات الاستشراق الفرنسي. أما هيلين فكانت أكثر عالمية في توجهاتها، ونموذجا للمرأة الباريسية، فبعد أن أمضت سنوات الحرب مع عائلتها في البرازيل، بذلت جهدها لتصبح رسامة. بصراحة، لم تتفوق في الرسم أبدا، لكن برغم امتناع معظم الناس عن قول ذلك إلى امرأة شابة وفاتنة وجذابة مثلها، إلا أنني أظن بأنها على قدر من الذكاء بحيث كانت تعرف حدودها، وتعاني نتيجة لذلك. في ذات الوقت، كانت تكسب رزقها من عملها في القنصلية البرازيلية. والدها البولندي، الذي كانت علاقتها متوترة معه، كان يعمل بالتجارة، وشقيقها يعمل في مجال الأزياء، أو على الأقل كان صديقا لواحدة من أولى العارضات اليابانيات الجميلات التي مهدت السبيل لانتشار الجاذبية الجنسية المتعددة الثقافات. ولربما يساعد ذلك على تفسير كيف تمكنت من ارتداء أزياء "بالمان" في وقت لم يتم فيه بعد ترخيص بيع الأزياء المبتكرة في كافة المتاجر المتعددة الأقسام. وعلى شاكلة هنري، كانت شيوعية، في خلية الجناح البروليتاري الثالث عشر، لكنها بدأت تتصل بعصابة شتيرن الإرهابية في فلسطين، أو على الأقل بالجناح اليساري المتطرف فيها. واحتفظت بعلاقة معها للعمل المباشر. وخلال إرهاب "منظمة الجيش السرية" في فترة الحرب الجزائرية، زارتني في لندن حين كانت تشتري ساعات توقيت لصالح ما دعته بحملة التفجيرات اليسارية المناهضة للمنظمة. سألتها من أين ستحصل عليها؟ أجابت "من هارودز بالطبع". وأي مكان آخر سيبيعها؟

مع أن بعض الأشخاص في شبكة آل ريمون سيصبحون معروفين في حقول تخصصهم، إلا أنها نشطت في الجوهر على السفوح الدنيا للأنتلجنسيا اليسارية الباريسية، رغم أن هيلين زعمت ـ صادقة أحيانا ـ معرفتها بكل الفضائح التي تحدث على الذرى العليا ، مثل الشائعات التي تدور حول الجوائز الأدبية، ومن هم على وشك السقوط من زعامة الحزب الشيوعي. أفراد الشبكة يقرؤون "لوموند"، وأحيانا "لومانتيه"، لكن بالنسبة لمعظم الذين عرفناهم (وميزنا بين الحقيقة وبين الشائعات التي تدور حولهم)، لم يكن من المرجح احتمال أن يطلب منهم التوقيع على بيانات المثقفين المتعلقة بالقضايا العامة، التي وسمت الفترة السابقة على بدء "مفكري وسائل الإعلام" البارزين كتابة أعمدتهم بشكل منتظم في الصحف والمجلات. كانت تمثل بيئة ما قبل عام ١٩٦٨، التي بدأت في عقدي الخمسينات والستينات تنهار تدريجيا مع تشظي اليسار وانقسامه حول ستالين والجزائر، حيث كان الحرس القديم في الحزب الشيوعي يعتبر أي اقتراح بالتغيير أمرا غير مناسب وغير متجانس، خصوصا من قبل المثقفين. مال أصدقائي الشيوعيون إلى الانتقال من الحزب إلى تجمع أصغر حجما هو حزب الوحدة الاشتراكي (PSU)، وحين ثبت أنه لم يكن قادرا على الاستمرار والبقاء، توجهوا نحو الأبحاث العلمية والأكاديمية، أو الكتابة، أو الانضمام إلى الحزب الاشتراكي القديم لمن أراد منهم البقاء في معترك السياسة ـ ونظرا لأنني لم أعرف آنئذ الشيوعيين السابقين الذين سيتحولون مباشرة إلى معادين متحمسين للشيوعية، أو لم أقابلهم إلا بشكل عرضي، فإنني لم أكن قادرا على اقتفاء أثر حركتهم السياسية.

انهيار زواج آل ريمون حتم تغيير زياراتي إلى باريس. على أية حال، تحولت حياتي بدءا من عام ١٩٦١ نتيجة ارتباطي بمارلين. لكن ومهما بلغ حجم وديمومة ولعي بهواياتي، كالجاز مثلا، فإن باريس لا يمكن أن تظل كما هي بالنسبة لرجل في منتصف العمر تزوج، ثم أنجب أطفالا فيما بعد. على أية حال، كان لمارلين أصدقاء في باريس، كما تعرفت على أصدقاء آخرين، من غير الذين عرفناهم من قبل، أو بدأنا منذ ذلك الحين بالتعرف عليهم معا. علاوة على ذلك، توطدت أواصر الصداقة الوثيقة منذ عام ١٩٥٧ بيني وبين زوجين آخرين في باريس ظلا صديقين لنا حتى اليوم: ريتشارد واليز مارينستراس. فقد قررنا أنا وآل ريمون السفر إلى بلدة ساحلية صغيرة في شبه جزيرة

غارغانو الإيطالية ـ ذلك "المهماز" الذي يبرز من "الجزمة" الإيطالية ويدخل البحر الأدرياتيكي ـ بعد أن قرأنا رواية دارت أحداثها هناك ("السلطة") ونشرت مؤخرا لكاتب كان شيوعيا هو روجر فيلان، الذي عرفه هنري منذ أيام المقاومة. وهناك على الشاطئ تعرفنا على آل مارينستراس. كان هو طويل القامة، عريض الصدر، أشقر الشعر، وكانت هي ضئيلة الجسم، نحيلة، سمراء البشرة، والاثنان على وشك الذهاب إلى تونس للتدريس في مدارسها الثانوية، التي كانت مستقلة آنذاك لكنها ظلت مرتبطة تعليميا بنظام المدارس الفرنسي. لم يكن المثقفون الفرنسيون في أي وقت مضى أكثر انخراطا في شؤون شمال أفريقيا منهم في الخمسينات، حين فازت كل من تونس والمغرب باستقلالها، وكان الجزائريون يقاتلون في سبيل حريتهم. وهكذا كان لدينا الكثير من المواضيع لمناقشتها. وعلى أية حال، ومنذ أوائل القرن التاسع عشر، شكلت دول المغرب مصدر إلهام رئيسيا للرسامين والكتاب الفرنسيين، كما لعبت دور المحفز الفكري للشباب من خريجي معاهد التأهيل التربوي الذين ذهبوا إلى هناك كمدرسين، أي كأكاديميين في المستقبل: من بينهم فيرنان بروديل من المؤرخين، وبيير بورديو من علماء الاجتماع، وذلك على سبيل المثال لا الحصر. أما الاهتمام الأكاديمي لآل مارينستراس فلم يكن متركزا على منطقة البحر المتوسط، أو الاستشراق، بل على الأنغلو ـ ساكسون، الأمر الذي وفر رابطة أخرى تجمعنا. وسيصبح ريتشارد سلطة مرجعية فرنسية رئيسية حول شكسبير، في حين ستذيع شهرة اليز كمؤرخة متخصصة بشؤون الولايات المتحدة.

أتى الاثنان من عائلتين يهوديتين في بولندا، وساعدهما الحظ في النجاة حين أقاما في المنطقة غير المحتلة من فرنسا. انضم ريتشارد إلى المقاومة المسلحة في التلال الجنوبية الشرقية وهو في عمر السادسة عشرة. وهي تجربة كان يتذكرها باعتبارها الفترة الوحيدة في حياته التي لم يهتم فيها أحد، أو حتى يسأل، عما إذا كان يهوديا. بعد سنوات عديدة، تأثر تأثرا عميقا حين دعي لإلقاء خطاب في حفلة عشاء وادي الرون بمناسبة الذكرى الخمسين لتفجر حركة المقاومة الفرنسية، باعتباره المثقف الوحيد من بين الناجين الرفاق الذين بلغوا سن الشيخوخة الآن. وبالرغم من أن آل مارينستراس كانوا يساريين بالطبع، إلا أن الماركسية لم تجذبهم، وكذلك الحال مع الصهيونية، فقد

افتخروا بأنهم من يهود الشتات العلمانيين، المتحررين. وكان موقفهم، أو أصبح على نحو مطرد، يمثل الأقلية من بين اليهود الفرنسيين الذين أصبحوا يشكلون، بفضل الهجرات الجماعية الكبيرة من دول شمال أفريقيا الفرنسية سابقا، أكبر جالية يهودية في أوروبا، وأكبر جالية يهودية في أي دولة من دول العالم القديم منذ سقوط الاتحاد السوفييتي.

هنالك سبب ثالث، أكثر اتصالا بالشؤون الأكاديمية، وراء تغير علاقتي مع باريس في الستينات. إذ بدأ يتضح التقارب بين ما كان المؤرخون الفرنسيون يعملونه في "الحوليات"، وبين ما كنا نشتغل عليه في "الماضي والحاضر". فمنذ عام ١٩٦١ أو نحوه، جذبتني بصورة متزايدة الحياة الأكاديمية في باريس، وخصوصا الإمبراطورية الأكاديمية الجديدة التي أنشأها فيرنان بروديل. وفي الحقيقة، التحقت بها في السبعينات بشكل رسمي، كمدير للأبحاث، لعدة شهور من السنة في "مدرسة الدراسات العليا والعلوم الاجتماعية" الجديدة. وباختصار، ضبطت الارتباطات الأكاديمية إيقاع زياراتي، أو زياراتنا، إلى باريس منذ عام ١٩٦٠ .

بطريقة ما، حدثت هذه التغيرات معا. فعند أول زيارة لي إلى باريس بعد الزواج من مارلين، التي كانت معرفتها قليلة بالحياة الأكاديمية، دعانا آل بروديل بعد أن سحرتهم بشخصيتها، إلى الغداء في شقتهم، وفاز فيرنان بشعورها الودي الدائم من خلال التأكيد لها بأن المؤرخ الناجح لا بد أن يكون في الجوهر زوجا صالحا. في مثل هذه المناسبات، لا يقسم أبرز شخصيات الحياة الثقافية الفرنسية على قول الحقيقة، لكن نظرا لمعرفتهم بكيفية إبداء رأيهم بشكل يتواءم مع المناسبة بأسلوب يوحي بالإخلاص والصدق دون تعطف أو مجاملة، فإن ذلك يجعل الجميع يشعرون بالرضى والارتياح - وبالمقابل، استضافت مارلين في لندن ايمانويل لي روي وزوجته، حين أقاما معنا بعد أن دعوته إلى المشاركة في حلقة دراسية تعقد هناك، كما استقبلت بعد سنوات عديدة الفيلسوف لويس التوسير، خلال أحد أطوار الهوس الجنوني الذي كان يصيبه، وقبل فترة وجيزة من قيامه بقتل زوجته في واحدة من نوبات الاكتئاب اللاحقة. ومثلما هي الحال في أسر غيرنا من الأكاديميين، لم تكن العلاقات الشخصية والمهنية منفصلة بصورة واضحة.

على العكس من فرنسا في حقبة الجمهورية الثالثة، وحتى الرابعة، لم أشعر بالارتياح في فرنسا ديغول وخلفائه، أو حتى في فرنسا متيران، التي طورت نوعا جديدا من الرطانة البلاغية العامة، حيث يطلق السياسيون على بلدهم اسم "فرنسا الحضرية"، ويتحدثون عن "فرنسا الريفية"، ويظهرون طاقتهم من خلال الريادة والتقدم والتحسن في"كل الاتجاهات"، حيث أصبحت باريس برمتها "غيتو" برجوازيا ضخما تسكنه الطبقة العليا (الأكبر في أوروبا)، تغلق فيها الحانات في أركان الشوارع في عطل نهاية الأسبوع لأن المسنين لم يعد بمقدورهم العيش فيها، رغم أنهم يعملون هناك في أيام الأسبوع. وفيما عدا الثغرة الضخمة في المركز التي خلفتها هجرة الأسواق، بقيت المدينة على حالها إلى أن أتى الرئيس متيران وملأها وأحاطها بديناصوراته المعمارية (كان الجنرال ديغول، وقد عرف أن مكانه في التاريخ مضمون، يزدري محاولة الحفاظ على ذكراه من خلال النصب التذكارية المعمارية). ظلت باريس مدينة مدهشة للسياح كعهدها أبدا، لكن يصعب على المؤرخ التعود على حقيقة أن اليسار لم يعد قادرا سوى على انتخاب مستشار في بلدية باريس، إلا إذا وصل فساد الإدارات البلدية اليمينية مؤقتا إلى حد الفضيحة. من ناحية أخرى، لا يستطيع أحد ممن يعيش في بريطانيا أن يمتنع عن تقدير مزايا التحديث في فرنسا ما بعد الحرب، التي أضافت إلى جودة وتنوع أسواق الأطعمة والطهي الفرنسي بخصائصهما الثابتة، نظاما متفوقا للنقل في المدن والضواحي.

تعلمت، مترددا في البداية، أن اقدر عظمة الجنرال وأعجب بأسلوبه. كما تعلمت، بتردد أكبر، أن أحترم متيران. لم يكن بمقدور أي منهما أن يبرز ويزدهر في حقبة الجمهورية الثالثة. فكلاهما أتى من بيئة تعتبر في الجمهورية الثالثة "رجعية" (وهذا صحيح). كان ديغول رجل اليمين، لكن الجمهورية بالنسبة له - بما فيها اليسار - جزء جوهري من "فكرة فرنسا الموحدة" التي أعاد خلقها بعد الحرب. وهو أول سياسي فرنسي منذ عام ١٧٩٣، يؤمن بوجود متسع في فرنسا للملكية والثورة. وفي الحقيقة، لم يكن يستاء كثيرا عند مقارنته بلويس الرابع عشر، الذي كان يخاطب خدمه مثلما خاطب ديغول الكاتب الذي حرر مذكراته، حين سمح له بالاطلاع على الفترة "غير الديغولية" نوعا ما، والممتدة بين عامي ١٩٤٠-١٩٤٤ . قال الرجل العظيم (الذي لا

بد أن يكون قد بحث في الملفات والوثائق المتصلة بتلك الحقبة): "اعتبر أنك كنت في أحد سجوني". فضمائر المفرد والجمع هي ديغولية(*).

كثرت الانتقادات التي تناولت غموض وتعقيدات حياة متيران المهنية بعد وفاته. إنما لا يمكن إنكار أنها اتجهت نحو اليسار بشكل مطرد ومستمر: من اليمين المتطرف في فترة ما قبل الحرب، مرورا بحكومة فيشي والمقاومة، وانتهاء بالتقدم السياسي الذي حوله إلى باني الحزب الاشتراكي ورئيسه بعد إعادة تشكيله، حيث رجع إلى اقتناص السيطرة على اليسار، لا من خلال عزل الشيوعيين بالطريقة المعتادة التي سادت في الحرب الباردة، بل بوصوله إلى السلطة بالتحالف معهم. في الجمهوريتين الثالثة والرابعة، كان السياسيون يتنقلون في جهات متعاكسة. فقد انتمى هو وديغول إلى حقبة ـ لا بل كان كل منهما مهندسا لحقبة ـ توقفت فيها السياسة الفرنسية عن أن تكون في الجوهر معركة حول الثورة الكبرى التي فصلت ذكراها اليسار عن اليمين، رغم أن كلا من الرجلين قد عرف في قرارة نفسه أن الثورة أمر جوهري بالنسبة لفرنسا التي حكمها، مثلما هو الدستور الأمريكي بالنسبة للولايات المتحدة. وبذلك كان أكثر واقعية من إيديولوجيي الليبرالية المعتدلة، والمعادين للشيوعية ومجتمع السوق، الذين شكلوا على الدوام أقلية غير نمطية في فرنسا، وهيمنوا على الأساليب والطرائق الفكرية والثقافية الباريسية في أواخر الثمانينات وأوائل التسعينات.

ومع ذلك، إذا لم أشعر بالارتياح في فرنسا الديغولية والميترانية فقد تمكنت من فهم استمراريتها مع فرنسا التي أعرفها، فرنسا الماضي، الثلاثية الألوان. وبطريقة ما، لم تمت بعد فرنسا "كنار انشينيه". وفي الحقيقة، أعاد الفساد المتنامي في أواخر الحقبتين الديغولية والمتيرانية إحياء حظوظ هذه المطبوعة.

ولم أشعر بالراحة أيضا مع المزاج الفكري الثقافي السائد آنئذ. ومثل كل اليساريين في العالم، أثارتني ثورة عام ١٩٦٨، لكن بقيت متشككا. صحيح أنني كنت على اتصال وثيق بالمؤرخين الفرنسيين الذين شكلوا النواة المنضبطة للعلوم الاجتماعية الفرنسية حتى السبعينات وقدموا الكثيرين من أعضاء طبقة "المثقفين" الباريسيين التي تحدث عنها هامون وروثمان [1]، ولكن بطريقة ما فقدت الصلة مع

* ذكر لي الحادثة الناشر نفسه .

1- Herve Hamon and Patrick Rotman, Le Intellocrates: Expedition en Haute Intelligentsia (Paris, 1981), p. 330.

العديد من تيارات الثقافة والنقاشات التنظيرية الفرنسية بعد الستينات، وبالرغم من أن أي معجب بكوينو وبيريك لا يمكن إلا أن يتعاطف مع التراث الفكري الفرنسي المتمثل في التلاعب باللغة، وذلك مع انتقال المفكرين الفرنسيين باطراد إلى فضاء "ما بعد الحداثة"، إلا أنني وجدتهم لا يثيرون الاهتمام، ولا يمكن فهمهم، ولا نفع لهم على أية حال بالنسبة للمؤرخين. وحتى تورياتهم اللفظية فشلت في إحداث أي تأثير يذكر.

بعد الاندفاعة الوجيزة عام ١٩٦٨، شهد اليسار الفرنسي في السبعينات والثمانينات تراجعا واضحا. لم يكن رأيي بالحزب الشيوعي الفرنسي إيجابيا كثيرا منذ عام ١٩٤٥، واعتبرت منذ زمن طويل رئاسة جورج مارشيه له بمثابة كارثة، وسأجانب الحقيقة إذا لم أعترف بأن انحداره من قمة الحزب الجماهيري العظيم الممثل للطبقة العاملة الفرنسية إلى مجرد حزب صغير لا يحظى إلا بأقل من ٤٪ من الأصوات، قد سبب لشيوعي قديم الكثير من الألم، وأن ما بقي تحت اسم "الماركسية" في فرنسا، لم يعد له أي تأثير. من ناحية أخرى، وخصوصا في الثمانينات والتسعينات، بدأ العديد من أعضاء "طبقة المثقفين" الذين كانوا من اليساريين سابقا وأصبحوا الآن من المعادين المتعصبين والحاقدين على الشيوعية، بتقييد وتوتير علاقاتي مع بعضهم الآخر. وبالرغم من أننا نتبادل الاحترام وحتى الحب أحيانا، إلا أن بعض من تعاملت معهم في باريس، مفكرين أو علماء اجتماع، لم يشعروا بالارتياح - سياسيا - بصحبتي، وبادلتهم نفس الشعور. ونظرا لأنني بقيت كما كنت منذ عام ١٩٥٦، ماركسيا "مهرطقا" ومعروفا، لم تنشر أعماله أبدا في الاتحاد السوفيتي، فإن بعض من كانوا ستالينيين أو حتى ماويين في شبابهم أكثر مني، أعلنوا استياءهم مما اعتبروه رفضا عنيدا لاتخاذ نفس الطريق. ووجدت نفسي بالمقابل مشمئزا من خطاب الحرب الباردة وليبرالية السوق الحر، الذي انزلق إليه بعض من أقدر وأشهر اليساريين في الثمانينات، مقارنة بالعودة الصريحة والمباشرة لرجل مثل لي روي لادوري (الذي يظل مؤرخا كبيرا بكافة المعايير) إلى تبني النزعة المحافظة التقليدية لأسلافه النورمانديين. ومن المفارقة، أنه مع تدهور أحوال الأحزاب الشيوعية، وانتهاء الحرب الباردة، وانهيار الاتحاد السوفييتي وإمبراطوريته، أصبحت نبرة العداء الحاد للشيوعية والماركسية أكثر مرارة وعنفا، إن لم نقل أشد هستيرية. فرانسوا فوريه الراحل، وهو

مؤرخ وخبير في الشؤون العامة يتمتع بذكاء لماح وتأثير كبير، بذل ما بوسعه لتحويل الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية إلى هجوم فكري عليها. بعد بضع سنين قدم كتابه "اختفاء الوهم" تاريخ القرن العشرين باعتباره عملية للتحرر من الحلم الخطير للشيوعية. لم يكن من المفاجئ أن أنتقد آراءه [1]. وبوصفي الآن مؤرخا ماركسيا مشهورا، وجدت نفسي لوهلة بطلا يمثل اليسار الفرنسي المحاصر والمطوق.

زاد ذلك من تعقيد علاقاتي مع المفكرين الفرنسيين، خصوصا منذ أن ظهر كتابي "عصر النهايات القصوى" قبل قليل من كتاب فوريه بمحض الصدفة. ومع أنه حظي بالقبول على أساس جدارته ومزاياه، وتلقاه بكل هدوء حتى النقاد المحافظون في الدول الأخرى، إلا أنه اعتبر في فرنسا أساسا - على الأقل من قبل قسم نافذ من أعضاء "طبقة المثقفين" - هجوما أيديولوجيا سياسيا موجها ضد الليبراليين المناهضين للشيوعية. وبالرغم من أنه نوقش (بنسخته الإنكليزية الأصلية) في المجلات الثقافية والفكرية، إلا أنه لم يترجم، على أساس الزعم بأنه من المكلف جدا ترجمته مقارنة بالطلب المحدود عليه في السوق. الحجة غير قابلة للتصديق، نظرا لأن مبيعات الكتاب كانت جيدة في كل لغة أوروبية ترجم إليها. وفي الحقيقة، كان ذلك هو المشهد الثقافي الفرنسي المستغرق في شؤون الذات بشكل غريب في تلك السنوات، وظلت الفرنسية لعدة سنين اللغة الوحيدة بين لغات دول الاتحاد الأوروبي، بل بين اللغات الثقافية العالمية (بما فيها الصينية والعربية) التي لم ينشر فيها الكتاب. في نهاية المطاف نشر في فرنسا عام ١٩٩٩، بفضل مبادرة ناشر بلجيكي، ودعم فاعل من قبل واحدة من المطبوعات اليسارية القليلة التي لم تتراجع عن موقفها، "لوموند ديبلوماتيك". لربما تغير المزاج الأيديولوجي منذ أن استلم ليونيل جوسبان رئاسة الحكومة عام ١٩٩٧، حيث مارس ضغوطا أقل على ضمير اليسار الفرنسي مقارنة بميتران المحتضر. حاز الكتاب على قبول النقاد، في حين التزم نقاد أوائل التسعينات الصمت إزاءه أو خبأوا معاول الهدم. أما مبيعاته فكانت مرضية، على الأقل لفترة وجيزة، وتلقيت بسببه سيلا من الرسائل الشخصية من قراء مجهولين موزعين في مختلف أنحاء فرنسا، فاق

١- بالنسبة للثورة الفرنسية، انظر كتابي:

Echoes of the Marseillaise:Two Centuries Look Back on the French Revolution (Rutgers, 1990), and 'Histoire et Illusion, in Le Debat 89, March-April 1996, pp. 128-38.

عددها عدد الرسائل المتصلة بكل الترجمات الأخرى لهذا الكتاب. كما مكن مغرما قديما بفرنسا، بدأت قصة غرامه بتراث اليسار الفرنسي منذ أن ركب شاحنة محملة بكاميرا إخبارية في ذكرى تحرير الباستيل عام ١٩٣٦، بتتويجها بعد ثلاث وستين سنة بتجربة رامزة أخرى في الوقت المناسب في المدرج الكبير في السوربون، التي كانت ذات مرة الجامعة الوحيدة في باريس وأصبحت الآن أما لعائلة كبيرة، حيث اكتظ بالباريسيين الذين دعوا للاستماع إلى نقاش حول كتابي الذي نشر حديثا. قلة من الحاضرين الذين أتوا بأعداد كبيرة ملأت المدرج الكبير، قد قرؤوا أيا من كتبي، نظرا لأن الناشرين الذين رفضوها قد زعموا بأنها لن تصادف حظا كبيرا من النجاح في السوق الفرنسية. أما السبب الذي دفعهم للحضور فكان حقيقة أن شخصا ـ وكان هذا بالمصادفة هو أنا ـ قد تحدث بصراحة، وبروح انتقادية، وبنزعة شكوكية، لكن دون ندم أو أسف، ودون أن يتنازل عن فخره بأولئك الذين وقفوا على اليسار حيث لم تعد تهم الفوارق القديمة التي تميز الحزب عن التعصب الأرثوذكسي. أحب أن أعتقد بأن حضوري في هذه المناسبة كان أمام يسار ثقافي باريسي عاود ظهوره ـ ولو لفترة وجيزة ـ بعد أن عانى من فترة من الحصار.

كان ذلك حدثا مناسبا لإنهاء هذا الفصل الذي تناول قصة دامت فصولها مدى الحياة. ففرنسا تبقى لأفراد جيلي شيئا خاصا. بإمكاني التعاطف مع إحساس الفرنسيين بالخسارة والفقد نتيجة هزيمة لغة فولتير أمام لغة بنجامين فرانكلين التي حققت نصرا عالميا. ولم يقتصر الأمر على التغير اللغوي بل الثقافي أيضا، فهو علامة تؤشر لنهاية ثقافات الأقليات، حيث النخب وحدها بحاجة للاتصال مع العالم، ولا يهم كثيرا أن العبارات الاصطلاحية التي نشأت فيها لم تعد محكية ومنتشرة في العالم، أو حتى ـ كحال اللغات الكلاسيكية الميتة ـ لم يعد أحد يستعملها على الإطلاق. أستطيع الآن أن أتفهم تراجع الثقافة الفرنسية التي كانت مهيمنة ذات مرة إلى داخل الغيتو الغربي، الذي لم يخفف من عزلته قليلا إلا شعبية الأيديولوجيين الفرنسيين "ما بعد الحداثيين" بين خريجي الجامعات الأمريكية، الذين لا يفهمونهم دوما. لا يعني ما أشرت إليه أن باريس ترغب بكل ذلك، بل إنها لم تستطع أن تعود نفسها على حالة لم تعد فيها بقية دول العالم تتطلع إلى باريس وتتبع قيادتها. إنه لمصير صعب أن تتراجع

الثقافة الفرنسية من العالمية إلى الإقليمية بخلال جيلين اثنين. والأصعب اكتشاف أن ذلك لا يهم معظم دول العالم كثيرا. لكنه أمر مهم بالنسبة لأفراد جيلي من الأوروبيين، والأمريكيين اللاتين، والشرق أوسطيين. كما يجب أن يمثل شاغلا مهما للأجيال الشابة. لربما تكون المعركة العنيدة التي تخوضها فرنسا دفاعا عن الدور العالمي للغتها وثقافتها محكوم عليها بالفشل، لكنها أيضا ضرورية، ولم يكتب القدر على كل لغة وكل خصوصية قومية وثقافية الإخفاق أمام التجانس المفروض بالقوة من قبل العولمة على الثقافة الإنسانية التعددية في جوهرها.

-٢٠-

من فرانكو إلى بيرلسكوني

لا يفتقر الروائيون الطموحون إلى الموضوع أبدا. وحين لا يجدون ضالتهم في العالم يلجؤون إلى العائلة والسيرة الذاتية. المؤرخون المحترفون الطموحون - من جهتهم - لا يمتلكون دليلا متأصلا فيهم يهديهم إلى ذلك الجزء من الماضي الذي يريدون استكشافه وسبره، وبالتالي إلى القاعدة التي سوف تتأسس عليها شهرتهم في معظم الحالات - العصر التيودوري، الثورة الإنكليزية، إسبانيا في القرن السابع عشر وهلم جرا. في العادة يحصلون على الموضوع في الجامعة، ويضعون له عنوانا للحصول على شهادة الدكتوراه (أو، في أيامي، حين لا يعجب العنوان جامعة اكسفورد، يكتفون بأطروحة المنحة الجامعية)، ثم يلتزمون في معظم الحالات بمجال تخصصهم أو "عصرهم" بعد ذلك. لقد أعاقت الحرب محاولاتي لاتباع هذا السبيل. وحدث أن كتابي الأول، كمؤرخ، "الثوار البدائيون" تناول مجالا لم أفكر به من قبل، بل كان مجالا لم يفكر به أحد على الإطلاق[1]. إذ اعتمد الكتاب في الجوهر على رحلاتي المتكررة في الخمسينات إلى إسبانيا وإيطاليا ، وهما بلدان ارتبطت بهما حياتي وحظوظ كتاباتي منذ ذلك الحين.

على العكس من إيطاليا (ما الذي يفعله مناهض للفاشية هناك؟) شكلت إسبانيا، التي بدأت رحلاتي إليها عام ١٩٥١، جزءا من حياتي لفترة طويلة - حتى قبل اندلاع الحرب الأهلية التي جعلتها جزءا من حياة كل فرد من أفراد جيلي. وعلى الرغم من كل شيء، ظلت بعد عام ١٩٤٥ بلدا غريبا بالنسبة للأوروبيين. ففي أذهان معظمنا، بقيت تنتمي إلى عالم غريب تطغى فيه صور الثورة، والحرب، والهزيمة في

1 - Primitive Rebels: Studies in Archaic Forms of Social Movement in the Nineteenth and Twentieth Centuries (Manchester University Press, 1959).

السهول والمناظر الجرداء، على صور الأشياء العجيبة الدخيلة ـ الفلامنغو، والصنجات، ومصارعة الثيران، وكارمن، ودون خوسيه، وايسكاميلو ـ وتلك "الإسبانية" الأصيلة ـ دون كيشوت، الشرف، الفخر، الصمت. أقام عمي هناك وعرف كثيرا من الأصدقاء بحكم عمله مع "يونيفرسال فيلمز". وملأت آثار زيارته أركان بيتنا: سيف مصارع الثيران الملطخ بالدم الجاف، كتاب عن مصارعة الثيران، صورة موقعة من زعيم عجوز كاتالوني من المطالبين بالاستقلال الذاتي على وجهه ملامح عسكرية وغيرها. وبعد التمرد في جزر الآزور عام ١٩٣٤، أرسل له أحد الأصدقاء نسخا من الجرائد الإسبانية، وأعتقد أن فيها صورا درامية للملكيين. وبعد ذلك، في صيف عام ١٩٣٦، خلال الأسابيع التالية لانتفاضة الجنرالات، رأيت كل ذلك بنفسي لفترة وجيزة، بفضل توليفة غريبة جمعت عدة ظروف تاريخية معا.

كنت آنئذ أقيم في باريس لمدة ثلاثة أشهر قبل التحاقي بكامبريدج، بعد أن حصلت على منحة من مجلس مقاطعة لندن لتحسين لغتي الفرنسية. في أحد الأيام الأخيرة من شهر تموز/يوليو اكتشفت ـ وقد أسعدتني المفاجأة ـ أنني ابتعت ورقة يانصيب رابحة. لم يكن المبلغ كبيرا ـ أتذكر بأنه بلغ ١٦٥ فرنكا أو حوالي ٣ جنيهات إسترلينية. لحسن الحظ، فقد أقرت حكومة الجبهة الشعبية المشكلة حديثا في فرنسا، قبل وقت قصير من تبنيها أحد أندر قراراتها المبتكرة والدائمة، نظام "العطلة مع دفع التكاليف"، قرارا آخر بتخفيض أجرة التنقل بالقطارات لتمكين السكان من الاستمتاع بعطلاتهم، وذلك بفضل وكيل وزارة الرياضة. وهكذا، استخدمت ما كسبته من اليانصيب لشراء تذكرة بالقطار من محطة اورسيه ـ ما زال أمامها نصف قرن قبل تحويلها إلى متحف للفن الفرنسي في القرن التاسع عشر ـ إلى البيرينيه لقضاء عطلة لمدة أسبوعين، أقضيهما في التنزه، والإقامة في بيوت الشباب، والتخييم. في منتصف هذه الرحلة الخلوية المدهشة، تعرفت على وسيلة أكثر سرعة من وسائل التنقل الرخيص من خلال واحد من أولئك الشباب المغرمين بالتجوال من وسط أوروبا، الذي كان في تلك الأيام رائدا من رواد التنقل عن طريق "الأوتوستوب" على هذا الجانب من المحيط الأطلسي. وهكذا وجدت نفسي أنتقل من الجانب الأطلسي إلى الجانب المتوسطي من البيرينيه، لأقيم في بيت للشباب قرب الحدود الإسبانية على مشارف بلدة بويغسردا.

المناسبة كانت شديدة الإغراء. ذهبت إلى الحدود، وأعادني من هناك شاب من الميليشيا التي تحرسها. لم أكن أملك الوثائق الضرورية. سرت مسافة ميل أو نحوه إلى المعبر الآخر، حيث سمح لي بالعبور دون مشاكل، وأمضيت اليوم أتجول في البلدة، التي كانت آنئذ كوميونة ثورية مستقلة، يسيطر عليها الفوضويون، الذين كانوا خليطا من أعضاء "حزب عمال الوحدة الماركسي" (لم أتمكن من رؤية أية علامة تدل على الشيوعيين أو الاشتراكيين الذين اندمجوا آنئذ في حزب واحد هو "الحزب الاشتراكي الوحدوي لكاتالونيا"). لا أتذكر بالضبط كيف تواصلت مع السكان المحليين، الذين كانوا بالطبع يهتمون بأي غريب يطرق بابهم فجأة، إلا أن المكان يشكل ركنا تمتزج فيه إسبانيا وفرنسا، والكاتلونية تقترب على أية حال بنفس المقدار من اللغتين. لا أتذكر مواجهة أية مشكلة. أما أكثر الصور ديمومة في الذهن لذلك اليوم الذي لا يغيب عن الذاكرة فهي لبضع شاحنات متوقفة في الساحة الرئيسية. وكلما شعر شخص برغبة في الذهاب إلى الحرب ركب إحداها، وحين تمتلئ بما يكفي من المتطوعين، كما قيل لي، تتجه إلى الجبهة. وكما كتبت حول هذه التجربة بعد سنوات عديدة:

عبارة "هذا رائع، لكنه ليس حربا" (بالفرنسية) ينبغي أن تبتكر خصيصا لوصف هذه الحالة. كان الأمر رائعا، لكن التأثير الرئيسي لهذه التجربة في نفسي هو أنه تطلب مني عشرين سنة قبل أن أكون مستعدا لرؤية الفوضوية الإسبانية باعتبارها لا شيء سوى مسرحية هزلية - تراجيدية [1].

في الحقيقة، لم تكن بلدة بويغسردا تعطي انطباعا بأنها مجتمع محلي مجهز للحرب، ولا أتذكرها كمكان مليء بالمسلحين بلباس الميليشيات، على طريقة الثورات اللاحقة (كما لم توجد أية علامة في المقاطعات الإسبانية عام ١٩٣٦ تشير مثلا إلى شابات يرتدين الزي العسكري). بدت البلدة مليئة بالأحاديث والجدالات السياسية، حيث يقف الأهالي في جماعات أو يجلسون إلى موائد المقاهي وبأيديهم جرائدهم.

لسوء الحظ انتهى اليوم بصورة سيئة. فالشاب "الفوضوي" الذي كان يحرس الحدود وأعادني من حيث أتيت حين حاولت عبور الحدود أول مرة، انتهت مأموريته ذلك المساء، ورآني آكل وأتحدث في الساحة، ونقل الأمر فورا إلى رئيسه. استجوبني رجل عابس الوجه، بلطف لكن بصرامة، يرتدي لباسا شبيها بالبزة العسكرية. أنا

1- E. J. Hobsbawm, Revolutionaries: Contemporary Essays (London, 1973), 'Reflection on Anarchism', p. 84.

متأكد من أنه لم يعرف سبب وجودي هناك ـ وهو أمر لم أعرفه أنا أيضا ـ لكن من الواضح أن سلطة العمال قضية لا ينبغي التعامل معها باستهتار، حتى وإن كان الشاب الإنكليزي الذي عبر الحدود، ليس فقط بطريقة غير مشروعة، بل في تحد صريح لقرار يمنعه من الدخول، لم يظهر أية إشارة على رغبته بتشكيل خطر يهدد الثورة. لا يمكن لأحد أن يشعر بالارتياح حين يتعرض لاحتمال القتل على يد هواة أسعدهم حمل السلاح وهم يبحثون عن العناصر المضادة للثورة. أعترف بأنني كنت متوتر الأعصاب في ساعة متأخرة من تلك الأمسية، حين أمروني بالمسير وحيدا على الدرب المظلم لأعود إلى الحدود الفرنسية، وبندقية أحد أفراد الميليشيا المسلحين مصوبة إلى ظهري. وهكذا، انتهت صلتي العابرة بالحرب الأهلية الإسبانية بطردي من الجمهورية الإسبانية.

ما الذي كنت أفعله في ذلك اليوم في بلدة بويغسردا؟ هنا يرفع المؤرخ يديه في مواجهة كاتب السيرة الذاتية. لم يقتصر الأمر على مجرد أن ذكرياتي عن ذلك اليوم قد أفسدها بالتأكيد تقريبا أكثر من ستين عاما من إعادة الصياغة الذهنية، ولكن حتى غرضي في ذلك اليوم بالذات (إذا كانت تلك الكلمة صحيحة) من عبور الحدود لا يمكن أن يكون واضحا. ما الذي كنت سأفعله لو لم تقطع إقامتي هناك بهذا الشكل المفاجئ؟ وباعتبار الذكريات المشتركة عن الحرب الأهلية الإسبانية، لا بد أنني فكرت بالالتحاق بقوات الجمهورية في الحرب ضد الفاشية، مثلما فعل عدة شبان إنكليز خلال الأسابيع الأولى من الحرب. وفي حكم المؤكد تقريبا أنه لم يكن في ذهني شيء من هذا القبيل، حيث أردت الذهاب لإلقاء نظرة على الثورة وكيف تبدو، وذلك بالرغم من التماهي الحماسي، وشعوري، مثل أفراد جيلي اليساريين، بالتعاطف الفوري مع حكومة الجبهة الشعبية الإسبانية التي تخوض القتال. هل خطر على بالي كل هذا في ذلك اليوم؟ لا أستطيع الإجابة، أو لربما أردت، إذا استطعت إعادة بناء مشاعري، أن ألوذ بالتعديل الخامس للدستور الأمريكي، لأنه في ضوء تأسيس "الألوية الدولية"(*) لاحقا، فإن أية إجابة لا بد أن تفقد مصداقيتها. فإذا لم أفكر بذلك، فلم لم أفكر؟ وإن

* الوحدات الأولى من المتطوعين الدوليين جندتها ونظمتها ـ رسميا ـ جماعة "الحرية والعدالة" الإيطالية في نهاية شهر آب/أغسطس ؛ أما ألوية الكومنترن الدولية فقد نظمت في وقت لاحق . معظم الوحدات الأجنبية الأصلية تألفت من أجانب كانوا في برشلونة لحضور "اولمبياد الشعب" في اللحظة التي بدأ فيها تمرد الجنرالات وثورتهم . أما جون كورنفورد (انظر الفصل ٨) ، الذي لا بد قد وصل إلى برشلونة في الوقت الذي عبرت فيه الحدود الإسبانية ، فقد قرر الالتحاق بالألوية "دون سابق تفكير" بعد حوالي أسبوع . انظر :
Peter Stansky and William Abraham, Journey to the Frontier, London, 1966, p. 328).

فكرت، فلماذا لم أشارك؟ وبافتراض وجود مصادر أخرى غير ذاكرتي الشخصية، ما هي النتيجة التي يستخلصها مؤرخ آخر، أقل انحيازا مني، من الوضع الغريب للشاب ايريك هوبزبوم في الثورة الإسبانية؟ تلك هي مشكلات كتابة التاريخ في صيغة السيرة الحياتية، أو ربما المشاكل الأوسع لفهم الطبيعة البشرية. على كل حال، يظهر اليوم الذي قضيته في بلدة بويغسردا حمق تدريبات وممارسات "ماذا لو" في التاريخ الذي يحمل الآن الرطانة المعنونة بـ"الوقائع المضادة". ليس ثمة طريقة تمكننا من الاختيار بين الفرضيات التي تنأى عن الحصر حول مدى تأثر أو عدم تأثر حياتي اللاحقة، لو لم يرفض ذلك الشاب الفوضوي من حرس الحدود دخولي في المرة الأولى التي حاولت فيها عبورها. كما يظهر أيضا بأن لا شيء يخدم المؤرخ أفضل من إبقاء عينيه وأذنيه مفتوحة، خصوصا إذا أسعفه الحظ وتواجد في المكان المناسب في الزمن المناسب. لقد زودتني البلدة بمعرفتي الأولى، وانسحاري الدائم بتلك الأرض التي استولدت "الثوار البدائيون"، أي الحركة الفوضوية الإسبانية. في الخمسينات، وجدت نفسي ألاحقها "في الميدان"، ملهمي في ذلك على الأغلب عمل جيرالد برينان الرائع "المتاهة الإسبانية"، الذي لا بد أنني قرأته بعد وقت قصير من ظهور طبعته الثانية عام ١٩٥٠, لم أعد أستطيع أن أتذكر هل قرأته قبل، أو بعد (وهذا هو المرجح) معرفتي الحقيقية بإسبانيا، التي خلفت "الانطباع العميق والدائم الذي تتركه على كل من يعرفها" [١]. وعلى أقل تقدير، لعبت زيارتان من زياراتي إلى إسبانيا دورا جوهريا في استكشاف التراث الفوضوي: في عام ١٩٥٦، حين وجدت طريقي إلى كازاس فيهاس، القرية التي حاولت ذات يوم (في عام ١٩٣٣) تفجير الثورة العالمية؛ وفي عام ١٩٦٠، حين اقتفيت بتأثر عميق، آثار فرانسيسكو ساباتي [٢]، أحد رجال العصابات الفوضويين الذي سقط مؤخرا.

لم أعد متأكدا من سبب قراري بزيارة إسبانيا في عطلة عيد الفصح من عام ١٩٥١. فقد كانت بلادا أجهل لغتها، باستثناء نصوص شعارات وأغنيات وأناشيد

1- Gerald Brenan, The Spanish Labyrinth: an Account of the Social and Political background of the Spanish Civil war (Cambridge, 1943), Preface.

الطبعة الأولى التي نشرت خلال الحرب العالمية الثانية لم تجتذب (لأسباب واضحة) الكثير من الاهتمام .

٢- تطرقت إلى النتائج في الفصل الخامس من "ثوار بدائيون" ، والفصل الثامن من "قطاع الطرق" (١٩٦٨) .

الحرب الأهلية والمفردات الأيديولوجية التي كانت عالمية على أية حال. وكما حدث لاحقا مع اللغة الإيطالية، توجب علي التقاطها عبر المحادثة، مع الرجوع من حين لآخر إلى قاموس الجيب ـ كان الأمر أسهل في إيطاليا حيث كان حديثي يدور في معظمه بالإيطالية الفصحى المثقفة، منه في إسبانيا حيث كان معظم من حادثتهم من غير المثقفين (وحين يكونون من المثقفين كنا نستخدم الفرنسية). بطريقة أو بأخرى، سوف أتمكن بسرعة كبيرة من التكلم ببعض الطلاقة ـ وإن لم تكن صحيحة نحويا ـ باللغتين، بدءا من وصولي إلى برشلونة حيث سهرت في مقهى "تويفو" (قهوة واستعراض راقص، بخمس بيزيتات) مع جاري البناء الذي وصل للتو من مرسيا بحثا عن عمل، والذي علمني المرادفات الإسبانية لـ"جميلة، وبشعة، وسمينة، ونحيلة، وشقراء، وسمراء"، وغيرها من الألفاظ ذات الصلة، من خلال الإشارة إلى الفنانات (المتوسطات الجمال) على المسرح الصغير.

ملاحظاتي المعاصرة المتعلقة بالفترة [١] تشير إلى أنني تأثرت بأخبار حملة المقاطعة الضخمة والناجحة لحافلات الترام بسبب ارتفاع تعرفة الركوب في برشلونة في البدايات البكرة من شهر آذار/مارس، التي تبعها إضراب عام، والذي كتبت عنه عند عودتي. حسبت، مغاليا في التوقع، أن الإضراب "يكسر قشرة السلبية وحالة الترقب والانتظار اللتين تعتبران (في غياب المنظمات الفاعلة غير الرسمية) من أكبر مصادر قوة فرانكو اليوم.." [٢]. كان ذلك تقييما مبالغا في التفاؤل، رغم أن التصدعات الأولى في النظام ظهرت في النصف الثاني من ذلك العقد. أما المنفيون المعادون لفرانكو الذين سأتعرف إليهم فلم يكونوا من خلفيات جمهورية فحسب، مثل المؤرخ (الذي شغل في نهاية المطاف رئيس دائرة الثقافة الإسبانية في مرحلة ما بعد فرانكو) نيكولاس سانشير البورنوز، بل أبناء من عائلات كونت المؤسسة الفرانكوية. أحدهم، الصديق العزيز فيسنت غيرباو ليون، ذهب مباشرة من وظيفة يشغلها في وزارة الخارجية إلى أحد سجون فرانكو. شاركني فيما بعد السكن في شقتي في بلومزبري، قبل أن يساعد في تأسيس دار نشر ("رويدو ايبريكو") في باريس، التي ستغدو

١- كل هذه شكلت القواعد المؤسسة لروايتي الحالية عن زيارتي الأولى .

2 - Franco in Retreat', New Statesman and Nation, 14 April 1951, p. 415.'

هذه المقالة التي كتبتها عند عودتي كانت بعنوان "بعض المقتطفات من مفكرة إنكليزي في برشلونة" .

عناوين كتبها المهربة، بما في ذلك كتاب هوغ توماس الرائد حول الحرب الأهلية، ذات تأثير نافذ داخل إسبانيا في الستينات، خصوصا في أوساط الحركة المتنامية بسرعة للمنشقين الشباب. وهو الذي عرفني لاحقا على الفوضويين.

في كل الأحوال، عرفت للمرة الأولى برشلونة التي كانت تغص عام ١٩٥١ "بفرق الشرطة المسلحة بالبنادق والمدافع الرشاشة، التي تبرز كالأشواك كلما سرت مائة متر في وسط المدينة، وأمام بوابات المصانع"، وتحرس أطراف القصر الجمهوري، والتي كانت رمزا نمطيا لمشهد شوارع المدن في إسبانيا فرانكو، مثل قلاع الحكام المهيمنة على الشعب الجائع. بعد قضاء بضعة أيام في برشلونة، استخدمت القطارات وطريقة "الأوتوستوب" على طول الساحل لزيارة فالنسيا، وبعدها مرسيا، ومدريد، وغوادا لاهارا، وسرقوصة، ومن ثم العودة إلى برشلونة.

كانت إسبانيا في أوائل الخمسينات فقيرة وجائعة، وربما أشد جوعا من حالها في أي وقت يتذكره البشر. وبدا أن الناس يعيشون على البطاطا والقرنبيط والبرتقال. سألت نفسي وأنا أنظر إلى تلك الكاتدرائية الذهبية الرائعة بين بقايا آثار الإمبراطورية الرومانية: "هل عانت تاراغونا من مثل هذا الوضع في كل تاريخها؟". لم يكن لإسبانيا إذاعة عامة. فالأخبار تصل من برشلونة إلى باقي أنحاء إسبانيا عن طريق الإشاعات، والرحالة (أمثالي)، والبائعين المتجولين، وسائقي الشاحنات، والمستمعين لمحطات الراديو الأجنبية من حين لآخر. لم يكن هناك سوى تلميحات غامضة في الصحافة. على الصعيد الفكري، بدت البلد مخنوقة، بعد هجرة معظم مفكريها ("ليس هناك سوى قلة قليلة من الأعمال الإسبانية في المكتبات الجادة" - الترجمات وحتى الأعمال الكلاسيكية الإسبانية، تصدر على الأغلب في دول أمريكا اللاتينية).

كانت إسبانيا بلادا تعيسة. مرة بعد مرة، في المقاهي، على ظهور الشاحنات، في القطارات المريعة البطيئة - لكن الرخيصة - التي تتوقف عند كافة المحطات، تسمع الناس يقولون: "هذه أسوأ بلاد في العالم"، أو "الناس في هذه البلاد هم أفقر الناس على ظهر الأرض". قالت لي ربة أسرة تتاجر بالسلع الرخيصة في مدريد، قدمت لي المساعدة والرعاية: "كل شيء في هذه البلاد قد وصل إلى حالة مزرية منذ أيام بريمودي ريفيرا [١٩٢٣ - ١٩٣٠]". لم تنس إسبانيا الحرب الأهلية، والمهزومون، رغم ضعفهم

ويأسهم، لم يغيروا رأيهم حولها. ومع ذلك، مرة تلو أخرى، حين يثار الموضوع، يقول أحدهم: "الحرب الأهلية ـ لا شيء أسوأ منها، الأب ضد ابنه، والأخ ضد أخيه". كان نظام حكم فرانكو في أوائل الخمسينات نظاما بقي على قيد الحياة اعتمادا على حجة توماس هوبز التي تقول بأن أي نظام سياسي فاعل أفضل من الفوضى. تمكن النظام من البقاء، بالرغم من ظلمه وافتقاره الواسع للشعبية ـ خصوصا في الأجزاء الشرقية من البلاد التي زرتها ـ لا بسبب قوته وجاهزيته للإرهاب، بل لأن الناس لم يرغبوا بحرب أهلية أخرى. ولربما لم يتمكن فرانكو من البقاء لو قرر الأمريكيون والبريطانيون في نهاية الحرب العالمية الثانية التخلص منه، وسمحوا لوحدات المقاومة المسلحة، المؤلفة في غالبيتها من الجمهوريين الاسبان، أن تغزو البلاد من جنوب فرنسا. لكنهم لم يرغبوا بذلك.

فوق كل شيء، كانت إسبانيا معزولة. وظل نظامها الملطخ بالدماء مسيجا داخل شرنقة معاداة الحداثة، والكاثوليكية التقليدية، والحكم المطلق المكتفي ذاتيا. ولم تبدأ بعد عملية التصنيع الاستثنائية في البلاد، التي غيرت ملامحها، بل بدلت مظهر الأسبان الجسدي خلال الثلاثين أو الأربعين سنة التالية. وأي مكان آخر في أوروبا، باستثناء البرتغال المغلقة على نفسها على شاكلة إسبانيا، يمكن أن يجد المرء فيه مدينة مثل مرسيا التي لا يمكن تمييزها عن أية بلدة ريفية في إمبراطورية هابسبرغ قبل عام ١٩١٤: عشرات المربيات بزيهن الأسود والأبيض يراقبن أطفالهن على طول المتنزه المحاذي لضفة النهر، تحت أنظار الجنود في الثكنات المجاورة؛ نساء من الطبقة الوسطى مع وصيفاتهن، فلاحون وتجار الخنازير يعقدون الصفقات في مقاهي السوق؟ لم يكن عدد السياح يتجاوز المئات، لا عشرات الملايين. الشواطئ المتوسطية كانت خالية. وحين أتذكر شاطئ الأندلس في أوائل الخمسينات، فإن ما يخطر على ذهني الطريق المغبر، والحار، والمقفر، بين الصخور والبحر، مع منظر لعدد هائل من النسور تملأ السماء وتنقض لانتزاع أحشاء جيفة لبغل أو حمار. ولربما كان لغياب أكبر عوامل تحطيم الروح المعنوية، أي السياح الأغنياء في أراضي الفقراء، هو الذي سمح للإسبان بالحفاظ على اعتزازهم التقليدي بأنفسهم. لم يدهشني شيء في تلك الأيام مثل إصرار الفقراء ـ رجالا ونساء ـ على العلاقات التبادلية: إذ لا يقبلون "سيجارة" دون أن يقدموا

واحدة بالمقابل، أو يرفضون زجاجة "براندي" من إنكليزي يبدو واضحا أنه أفضل حالا منهم، لعدم وجود بديل لديهم يماثلها، لكنهم يقبلون فنجانا من القهوة، لأن بمقدورهم تقديم ما يقابله. لم يكن السياح الأجانب يشكلون المصادر الرئيسية لدخل الأهالي الفقراء، ولا حتى حين وصلوا ـ كما حدث عام ١٩٥٢ـ إلى اشبيلية، مثلما فعلت أنا مع بعض الأصدقاء من الطلاب، على متن يخت بريطاني رسا في البلدة، مقابل حانات تريانا التي لم تكن الطبقات العليا ترتادها بعد.

ونظرا لأن إسبانيا بدت، ورجح أن تظل، مجمدة في قالب تاريخها، كانت أرضا خطرة إلى حد غير عادي بالنسبة للمراقبين والمحللين الأجانب. فالحضور الطاغي لماض لم يتبدل على ما يبدو ـ بما في ذلك الماضي القريب ـ أخفى القوى ـ الداخلية والخارجية ـ التي كانت على وشك تغيير البلاد بطريقة دراماتيكية ويتعذر عكسها بحيث لا يوجد شبيه لها في كل أوروبا خلال العقود القليلة التالية. حاولت فهم تاريخها، ولكن بغض النظر عن الإقرار بأن الفرانكوية لن تبقى، لم أجد أي دليل واضح يثبت وجهتها. وحتى بعد وقت متأخر، وجدت نفسي في عام ١٩٦٦ أكتب: "فشلت الرأسمالية فشلا ذريعا في تلك البلاد وكذلك الثورة الاجتماعية، على الرغم من اندلاعها الوشيك والانفجارات التي تحدث بين الحين والآخر". لم يكن واضحا لي بعد كم أصبحت هذه الجملة آنئذ تنطوي على المفارقة التاريخية. هل أعطتني الصلات الوثيقة مع المعارضة المناهضة لفرانكو أو المثقفين الأسبان في الخمسينات إحساسا أعظم بالوقائع؟ أشك في ذلك. لأن حزب المعارضة الفاعل الوحيد، الحزب الشيوعي، كان آنئذ ما يزال يقاوم المعلومات التي تخرج من البلاد بواسطة كوادره غير الشرعية، التي تشير إلى عدم وجود احتمال بقلب النظام بشكل مفاجئ. إذ لم يتمكن الفوضويون، الذين شكلوا ذات مرة قوة مؤثرة في الحركة العمالية الإسبانية، من الخروج من الحرب الأهلية كقوة خطيرة. لكن حين أنظر إلى الوراء، تدهشني قلة صلاتي مع المثقفين والسياسيين الاسبان في الخمسينات، أو قبل الستينات، مع الجيل الجديد من الطلاب والطلاب السابقين الشباب الذين قدموا إلى لندن، بعد أن سمعوا عني كيساري، أو كانوا قراء لكتبي، التي بدأت تصدر بواسطة ناشرين لا أعرفهم، وبترجمات رديئة في بعض الأحيان بدءا من عام ١٩٦٤ ـ وهو عارض يدل على ضعف وبطء وكسل النظام في مواجهة انشقاق ثقافي

وسياسي هائل بين الشباب المتعلمين. لقد مثلت الستينات في إسبانيا اللحظة الأولى من عدة لحظات تاريخية ثبتت فيها فائدة ضعف وتدهور الأنظمة الاستبدادية لمؤلف هذه السيرة.

II

اكتشافي لإيطاليا عام ١٩٥٢ اختلف عن اكتشافي لإسبانيا من كل النواحي تقريبا. أحد الأسباب يتمثل في أن إيطاليا لم تكن بلادا جائعة ولا راكدة. وحتى مع التجول بتكلفة زهيدة ـ في الخمسينات كنت أخصص ميزانية لا تتجاوز جنيها واحدا في اليوم لكل شيء ـ فإنني لم أكن أتوقع أن أجد ـ كما في إسبانيا ـ رحالة من الطبقة الوسطى بملابس مرقعة. وبالرغم من أن أيام المعجزة الاقتصادية لم تغير حياة المواطن الإيطالي العادي ـ حتى في الشمال ـ إلا في الستينات، إلا أن العلائم المبكرة للدينامية والنشاط كانت بادية للعيان: محطات حديثة وملونة على الطرقات لا تقتصر على بيع الوقود، آلات قهوة "اسبرسو" المتقدمة تقنيا التي كانت على وشك أن تجتاح العالم، جماهير راكبي الدراجات في الفترة التي مهدت السبيل لتفجر ثورة السيارات الرخيصة الثمن. لا يعني ذلك أن إيطاليا كانت تسير برمتها على درب "الحداثة" الغربية، خصوصا في الجنوب والجزر المنعزلة. وفي الحقيقة، إذا كان لكتاب "ثوار بدائيون" أصل واحد، فقد انبثق من مأدبة عشاء في منزل البروفسور امبروجيو دونيني في روما عام ١٩٥٢، أو بالأحرى من حديث تبادلناه بعد العشاء، لأن إيمان آل دونيني بالمساواة يدفعهم لتناول وجبات الطعام مع الأسرة، والخدم، والضيوف على مائدة واحدة. أخبرني مضيفي "عن المشردين في توسكانيا والطائفيين في جنوب إيطاليا"[1]، فقد كان عضوا في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإيطالي ـ ستاليني متشدد ـ وخبيرا متخصصا في تاريخ الأديان. أومأ برأسه موافقا على أن أتباع "مسيح" ريفي توسكاني قتل عام ١٨٧٨ قد احتشدوا مرة أخرى في القرن الجديد وفجروا انتفاضة في عام ١٩٤٨ بعد محاولة اغتيال زعيم الحزب الشيوعي الإيطالي باليرمو تولياتي! أخبرني أيضا عن المشكلات التي تواجه زعامة الحزب نتيجة إصرار عدة فروع ريفية (الفترة الممتدة بين

1 - E. J. Hobsbawm, Primitive Rebels (1959 edn), Preface, p.v.

عـامي ١٩٤٩ ـ ١٩٥٠ شـهـدت عـمليـات تحـول راديكاليـة كـبـرى في الجنوب) على انتخاب أعضاء من جماعة "قدوم المسيح في اليوم السابع"، أو من الطوائف المشابهة كـأمناء عـامين لفـروع الحـزب، الذين لا يعـتـبـرون عـادة ككوادر مناسـبـة لأي حـزب ماركسي. من هم هؤلاء الذين أدخلوا طريقة التفكير التي كانت سائدة عادة في القرون الوسطى إلى الحركات السياسية التي ظهرت في أواسط القرن العشرين؟ من هم الذين تعاملوا مع حقبة لينين وستالين وكأنها أيضا حقبة مارتن لوثر؟ ما الذي كان يدور في أذهانهم؟ كيف كانوا، في تميزهم عن الحركات السياسية التي استمدت القوة من دعمهم ومساندتهم، يرون العالم؟ لمَ لمْ يتركز عليهم الاهتمام فيما عدا ما أبداه نحوهم بعض المفكرين الطليان من اهتمام، مثل المفكر الاستثنائي انطونيو غرامشي؟ كانت إيطاليا تغص بآثارهم على ما بدا آنئذ. كنت مسحورا ومتأثرا، فحاولت اكتشافهم عبر السفر على طول الدروب الداخلية فيما وراء شاطئ المتوسط لبضع سنوات قادمة. ولحسن الحظ، كان بعض الأنثروبولوجيين يطورون اهتماما بمشاكل مشابهة واجهتهم في بحثهم واستقصائهم للحركات المناهضة للاستعمار في أفريقيا.

أتذكر زيارتي الأولى لصقلية في عام ١٩٥٣، حيث أخذني ميشيل سالا تحت رعايته، وكان سالا محافظ ونائب منطقة بيانا ديغلي البانيسي، وهي معقل للحمر منذ عام ١٨٩٣، حين كان السيد النبيل الدكتور نيكولا بارباتو يبشر بتعاليم الاشتراكية من على صخرة في الممر الجبلي النائي إلى بورتيلا ديلا جينيسيرا، التي ما تزال معروفة باسم صخرة بارباتو (في أيام الشباب، سمع ميشيل سالا، المولود في إحدى البلدات المجاورة، الكلمات الطيبة للمبشر من فمه مباشرة) [1]. في الصحو أو المطر، في الحرب أو السلم، في عهد الفاشية أو الديمقراطية، ما زال بعض سكان بيانا ينظمون المسيرات في الأول من أيار في ذلك المكان. المناسبة التي ذبح فيها قاطع الطريق جوليانو المشاركين في اجتماع الأول من أيار عام ١٩٤٧ أعاد بناءها بنجاح باهر فيلم فرانسيسكو روسي الرائع "سالفاتور جوليانو". بعد فترة وجيزة، أوكل الحزب

١- لمعرفة المزيد عن سيرة حياة هذا الرجل الذي ظل مقاتلا وناشطا طيلة حياته (١٩٠٠-١٩٧٣)، وكان "على الدوام واحدا من أقدر زعماء "اتحاد باليرمو" الشيوعيين"، انظر مقالة "ميشيل سالا" في:
Franco Andreucci and Tommaso Detti (eds), Il movimento operaio italiano: dizionario biografico, vol. 4 (Rome, 1978).

إلى سالا مسؤولية هذه البقعة المعقدة من صقلية. كان يتمتع بإحساس الصقليين بالواقعية. في فترة شبابه، ضم إليه، من بين آخرين، جوسيبي بيرتي، وهو قائد شيوعي بارز في حقبة الكومنترن، وكان آنئذ طالبا في باليرمو. وكان بمقدوره الاعتماد على مقابلة المجندين المتمكنين للدعاية الحمراء في وضع مزاجي مريح، نظرا لأنه اختار بعناية ولأسباب استراتيجية المكتب الاشتراكي في شقة تقابل مخرج أحد المواخير. جمع ذلك مع تجربة سياسية واقعية في بروكلين، حيث أمضى عشرين سنة من الهجرة السياسية، وتعلم من الإنكليزية ما يكفي ليريني جماهير عمال البناء الذين ملأ بهم ضواحي البلدة ("الكثير من الرجال بحاجة للعمل")، حين كنا نتجول في سيارته الرسمية، ونحيي المواطنين على اليمين والشمال ("في هذه البلدة أعرف من أحييه!").

أخذوني لزيارة المقبرة، أو بالأحرى "مدينة الموتى" التي يرقد فيها آل ماترانغا، وشيرو، وبارباتو، ولوياكانو، وغيرهم من العائلات الألبانية المسيحية التي هاجرت إلى جنوب إيطاليا وصقلية في القرنين الخامس والسادس عشر. كل شواهد القبور، القديمة والجديدة، كانت تحمل صورة الراحلين من سكانها. الموت حاضر دوما في بيانا، يحترمه الجميع ولا يغيب عن بالهم.

رأيت المنظر الذي يعتبر من الأمور المسلم بها هناك: نسوة صامتات ملتحفات بالسواد يجلسن في الشارع لكن أدرن ظهورهن إلى المارة. كنا نسير على أحد جوانب الساحة - في حين كان المعادون للشيوعية ورجال المافيا يسيرون على الجانب الآخر - حين أوقفني سالا لبرهة. حذرني قائلا: "لا تخبر أحدا بأنك إنكليزي. فهناك أشخاص هنا لا يحبون أن يروك معي. قلت لهم بأنك من بولونيا". كان ذلك منطقيا بما فيه الكفاية: فحتى في صقلية يعرف الناس بأن بولونيا معقل للحمر، ولهذا كان من الطبيعي أن يزور شيوعي رفيقا له. لكن هناك خللا واحدا في هذا التفسير المنطقي. فقد كنا نتحدث معا طيلة اليوم بالإنكليزية وبصوت مسموع. إلا أن سالا، الذي يعرف قومه حق المعرفة، صرف النظر عن هذه المشكلة: "كيف يعرف هؤلاء اللغة التي يتحدث بها أهالي بولونيا؟!". في الواقع، وقبل أكثر من تسعين سنة، أي بعيد توحيد إيطاليا، كان ذلك صحيحا. ففي عام ١٨٦٥، ظن السكان أن أول مدراء المدارس الذين أرسلتهم المملكة الجديدة لتعليم أطفال صقلية لغة دانتي، هم من الإنكليز. وفي هذا السياق، لم يحدث

تغيير جوهري في المناطق الداخلية من صقلية حتى وصل البث التلفزيوني. لكن حتى الأجزاء الأقل تخلفا في إيطاليا ما زال فيها شيء من العالم الثالث. فبالنسبة للغالبية العظمى من سكانها ـ حتى أولئك الذين يعرفون أكثر من لغة واحدة ـ تتألف الإيطالية من لغتين اثنتين: اللغة المحكية اليومية واللغة الرسمية الفصحى التي ما زالت تستخدم أساليب عصر الباروك، وتكتب بها الصحف والكتب والخطب الرسمية. وبقيت أثرا تاريخيا عن الماضي حتى في احترامها للمفكرين والمثقفين واعتمادها عليهم. لا أستطيع أن أفكر ببلد أوروبي آخر يُقبل فيه مفكر معروف مثل برونو ترنتين، ابن العائلة المهاجرة والمثقفة والمناهضة للفاشية، كزعيم لنقابة عمالية صناعية كبرى، ثم كرئيس لمنظمة وطنية لنقابات العمال.

معرفتي لإيطاليا كانت مختلفة من ناحية أخرى. فبعد عام ١٩٤٥، أصبحت السياحة من أجل الفن والمتعة ممكنة من جديد، في بلد قطع صلته على نحو صاخب وسافر مع ماضيه الفاشي. كنت محظوظا لوجود أفضل دليلين سياحيين يمكن للمرء أن يجدهما: فرنسيس هسكل الذي تولى مهمة التخطيط لجولاتي، واينزو كريا، الذي تمتع بمعرفة موسوعية عن كافة الفنون، وكشف أشهر كنوز إيطاليا لجميع أصدقائه بنفس الحماس. علاوة على ذلك، نادرا ما ذهبت إلى إيطاليا بمفردي، أو لم أقابل أصدقاء من الطليان حين أصل هناك. وبعد زواجي من مارلين، أضيف إلى هؤلاء أصدقاؤها الذين عاشوا في روما عدة سنوات قبل أن نلتقي. كما تمتعتُ بميزة هائلة ساعدتني على التعرف على الناس وفتحت لي كل أبواب اليسار الإيطالي: بيير سرافا. هذا الرجل النحيل المهذب الأشيب، والذي كان يتجنب الثرثرة والهذر، ويكتب قليلا، عاش في شقة رائعة في كامبردج (كلية ترنيتي) مقابل شقة موريس دوب، حيث عملا معا على إصدار نسخة هامة من أعمال عالم الاقتصاد دافيد ريكاردو، وعرفه الوسط الأكاديمي بوصفه مفكرا يتمتع بحس نقدي رهيب. كانت بيئته الطبيعة تقع دوما خلف الكواليس، وبالرغم من تحفظه فيما يتعلق بآرائه السياسية، مثل كل الأمور الأخرى، فقد كان من المعروف أنه صديق مقرب من أنطونيو غرامشي، إذ مثل صلة الوصل الرئيسية بين الزعيم الشيوعي السجين والعالم الخارجي من عام ١٩٢٦ وحتى وفاة غرامشي عام ١٩٣٧ . كان بمثابة الأداة التي حفظت كتابات غرامشي في السجن بعد

موته، بمساعدة صديق آخر يتمتع بالنفوذ في الميدان المصرفي. لكن الحقيقة التي لا يعرفها أحد هي أن مخطوطات غرامشي المدهشة ما كانت لتكتب أصلا، لأن سرافا (الذي أتى من عائلة ثرية في تورين) فتح على الفور حسابا غير مقيد للسجين بعد اعتقاله في إحدى مكتبات ميلانو. كما كان سرافا صديقا موثوقا للزعيم الحالي للحزب الشيوعي، تولياتي، منذ أيام دراستهما في الجامعة. وقيل بأنه فكر بالعودة إلى إيطاليا بعد الحرب، لكنه تخلى عن الفكرة بعد نتائج انتخابات عام ١٩٤٨، التي كانت كارثية بالنسبة للتحالف الاشتراكي الشيوعي.

ونظرا لمعرفته بكل اللاعبين الرئيسيين على المسرح المعادي للفاشية (برغم كل شيء، كانت تورين عاصمة الليبراليين والشيوعيين المناهضين للفاشية) استطعت من خلال اسمه أن أنال القبول الفوري من جانب مفكري ومثقفي الحزب. في تلك الأيام، كان أي شيوعي أجنبي يعتبر بصورة أوتوماتيكية عضوا في الجماعة، "رفيقا" يخاطب بشكل حميم ومن ودون ألقاب. وفي الحقيقة، كان أول من اتصلت بهم من معارف سرافا في روما، ديليو كانتيموري، أبرز المؤرخين الماركسيين آنذاك، والمتخصص بالهراطقة في القرن السادس عشر. كان كانتيموري رجلا بطيء الحركة، ضخم الجثة، لا يجارى بذكائه وظرفه، ويبدو أكبر من عمره الحقيقي. دعاني فورا للإقامة معه ومع زوجته ايما، المتخصصة في ترجمة ماركس، في شقتهما في تراستيفر. ومن هناك، اتصلت بمساعدته مع المثقفين والمفكرين المناهضين للفاشية في روما، الذين كانوا في أغلبيتهم الساحقة آنذاك من الشيوعيين أو المتعاطفين مع الحزب. وبطريقة أو بأخرى، فإن كل ما عرفته عن إيطاليا ـ فيما عدا مناظرها ومشاهدها وتاريخ الفن ـ أتى إلي من خلال الشيوعيين الطليان أو أولئك الذين ما زالوا قريبين منهم في البدايات المبكرة من الخمسينات. وكنت محظوظا لأن أصدقائي من المثقفين اليساريين، وخصوصا المؤرخين، جمعوا التطبيق مع النظرية، وكانوا أيضا مراقبين ومحللين صحفيين.

ومع ذلك، فإن كل من يسافر عبر الأماكن الريفية النائية في إيطاليا في الخمسينات، يجد الناس على استعداد تام لطرح الأسئلة على الأجانب والإجابة عن تساؤلاتهم. فما زالت إيطاليا برغم كل شيء بلدا يتواصل سكانه شفاهة ووجها لوجه. وفي أمكنة مثل سبيزانو البانيز (كالابريا)، ما زال من الضروري قراءة الصحف القليلة

التي تصل إلى هناك بصوت مسموع للأميين في المقاهي وللحرفيين في الورشات، وفي فرع الحزب الشيوعي. ولم يصل الهاتف إلى سان جيوفاني في فيوري، موطن المنظر القروسطي العظيم، ابوت جواليم إلا في عام ١٩٥٥ . فالغرباء - من الطليان أو الأجانب - هم الذين يحملون الأخبار، حتى إلى أولئك الذين يعرفون بأن عصرا جديدا سيأتي حتما، شاؤوا أم أبوا. لقد سمعت أكثر من مرة من يقول في صقلية عام ١٩٥٥: "الأمور تتغير. فتقاليدنا وعاداتنا تتحول لتشابه تلك الموجودة في الشمال. على سبيل المثال، النساء يخرجن من البيوت. ونتوقع في نهاية المطاف أن نصبح مثل أهل الشمال".

في ذلك الوقت، بدا الحزب الشيوعي الإيطالي يمثل المدخل الرئيسي لهذا العصر الجديد. فقد بلغ عدد أعضائه حوالي المليونين - أي ربع عدد المقترعين على المستوى الوطني تقريبا - واستمر في الارتفاع مع كل انتخابات جديدة إلى أن وصل إلى ذروته في أواخر السبعينات، ليعادل تقريبا نسبة ٣٤٪ وهي النسبة التي يملكها الحزب الديمقراطي المسيحي الذي اعتاد تشكيل الحكومة على الدوام (يزعم المتحمسون للحزب الشيوعي أن نسبة الأصوات المؤيدة له تتجاوز ذلك). من الناحية الاجتماعية، يمثل الحزب الشيوعي عينة تخترق كافة شرائح المجتمع الإيطالي، إضافة لكونه حزبا طبقيا، خصوصا في معاقله الضخمة في شمال ووسط إيطاليا: اميليا - رومانيا، توسكانيا، امبريا - وهي مناطق الثقافة، والازدهار، والدينامية التقانية والتجارية، والإدارة النزيهة. صحيح أن الشيوعية الإيطالية لا تمثل كل إيطاليا، لكنها عامل محوري مدهش في تمدينها. إلا أن أتباعها، كحال المستقلين الرافضين للوضع القائم في بريطانيا، كانوا، وما يزالون، يمثلون الأقلية.

ومع ذلك، كانت الشيوعية حركة ضخمة وعميقة الجذور. وكان الشيوعيون أكثر من مجرد مجموعة من الإشارات (/) على البطاقات الانتخابية، أو الكوادر التي تجدد عضويتها كل عام. أما الشكل الذي تتمظهر فيه قوتهم وتأثيرهم، كطريقة لتنظيم الدعم المالي لجريدة الحزب اليومية "ليونيتا" (التي لا تقرؤها الغالبية العظمى من الشيوعيين أكثر مما يقرأ معظم الطليان صحيفة يومية أخرى)، فكان يشبه هرما من المهرجانات الشعبية المنتظمة، تنتشر قاعدته في كل قرية أو ضاحية، وتتمثل ذروته في

"العيد الوطني لليونيتا" في إحدى المدن الرئيسية. بدأت صلتي بالسياسة الإيطالية حين أطلق علي وصف "موفد أخوي"، وتوجب علي إلقاء خطاب في واحدة من هذه المناسبات عام ١٩٥٣ في قرية قرب نهر البو. كان المهرجان بالأساس عبارة عن نزهة جماعية عائلية لصرف المال من أجل القضية، وقضاء وقت ممتع مع الزوجات، والأطفال، والأصدقاء، والزعماء الموثوقين. في المناسبة الأولى التي أقيمت في نابولي، قيل إن سكان تلك المدينة الكبرى، بعد أن أدركوا أن الزوار القادمين إليهم ليسوا سياحا عاديين يجب أن تقتنص نقودهم، بل هم "رفاق" وأشخاص مثلهم، قد التزموا بمناشدة زعمائهم وامتنعوا لمدة أربع وعشرين ساعة عن مزاولة أعمالهم العادية. كان المهرجان بالطبع اجتماعا سياسيا حاشدا أيضا، لأن الخطب السياسية - قبل ظهور التلفزيون - التي يلقيها زائر شهير، بمزاياها المتناسبة مع طولها، وتقنيتها المعتمدة على مسارح الهواء الطلق، كانت أعظم أنواع التسلية العامة للمؤمنين والملتزمين بالقضايا السياسية والاجتماعية. ونظرا لأن الشيوعيين كانوا أيضا الفئة الوحيدة من غير الطبقة الوسطى الإيطالية التي يكرس أفرادها جهدهم لتطوير الذات، والقراءة والتثقيف، فقد اعتمد الناشرون التقدميون على هذه المناسبات، خصوصا العيد "الوطني"، التي مثلت جزءا رئيسيا من مبيعاتهم السنوية من الموسوعات المتعددة الأجزاء، وكتب التاريخ وغيرها مما يطلبه القراء بشكل دائم. ولذلك اختار جيوليو ايناودي (الناشر الذي يصدر كتبي)، بكل ما يملكه من حس تجاري غير عادي بالسوق الوطنية، أن يطلق "تاريخ الماركسية" بعدة أجزاء (شاركت في تحريره مع مؤرخين آخرين) في الفترة التي بلغ فيها الحزب الشيوعي ذروة انتشاره بزعامة أنريكو بيرلينغوير، عام ١٩٧٨ . لسوء الحظ، ومثلما حدث للحزب الشيوعي الإيطالي، كان الاهتمام الشعبي بالماركسية على وشك أن يتضاءل، رغم أن الجزء الأول من "تاريخ الماركسية" ما زال يباع بشكل جيد. وكان الوحيد الذي ترجم إلى الإنكليزية. لكن المناسبة كانت اجتماعا خطابيا لا ينسى في المدرج الرحب المشرف على البحر الأزرق، إضافة إلى الموائد المتخمة بالطعام في ظل السرادق الضخم حيث جلست العائلات والأصدقاء والزعماء الشيوعيون الذين أترعت الآمال الكبار نفوسهم (باستثناء بيرلنغوير الهادئ الصامت) يتبادلون التحيات والأحاديث الودية والدعابات في ردهة الفندق.

أسعدني الحظ بأن ترشدني في إيطاليا جماعة مؤثرة ومدهشة من الشيوعيين المعروفين من فترة ما قبل الحرب والشيوعيين الذين شاركوا في المقاومة. السياسيون المحترفون من بين أولئك الذين عرفتهم كانوا يميلون إلى الحفاظ على موقفهم كمفكرين ومثقفين وكتاب ـ جيورجيو نابولتيانو، برونو ترنتين، جيورجيو اميندولا الضخم، واميليو سيريني القصير اللحيم الذي تمتع بمعرفة موسوعية، وأتى من واحدة من أقدم العائلات اليهودية في روما، وسجنه الألمان خلال الحرب (في روما)، وكتب بأصالة مماثلة عن تاريخ المناظر الريفية الإيطالية وحقبة ما قبل التاريخ في ليغوريا. كما أن الأكاديميين منهم نزعوا أيضا للعمل كسياسيين، وكان عدد منهم في اللجنة المركزية. ريناتو زانغيري مثلا، وهو مؤرخ اقتصادي، نجح نجاحا باهرا كرئيس لبلدية بولونيا، المدينة المدهشة التي جمعت بين الحداثة والحفاظ على معالمها القروسطية، والتي تعتبر أعظم حواضر "الحمر" في إيطاليا؛ جيوليانو بروكاتشي، وروساريو فيلاري (من أعز أصدقائنا هو وزوجته انا روزا)، كانا نائبين في البرلمان الإيطالي.

وجدت نفسي منذ البدء منسجما بشكل استثنائي مع الشيوعيين الطليان، ولربما يكمن السبب في أن معظمهم من المثقفين، ولكن أيضا لأنهم من النوع اللطيف الودود. إذ لن تجد في كل مكان زعيما وطنيا يقوم بزيارة كامبريدج بدون ضجة، كما فعل جيورجيو نابوليتانو، لمجرد مصافحة بييرو سرافا، المحتضر الذي يكافح يائسا من خرف الشيخوخة؛ أو أن يقطع وزير الداخلية عمله بضع ساعات ليشارك في الاحتفال بعيد ميلادي الثمانين في جنوا. في خلال بضع سنين من وصولي لأول مرة، وجدت نفسي منجذبا إلى ظل مؤسسة الحزب الشيوعي الإيطالي باعتباره الراعي الرسمي لمؤتمر دراسات غرامشي في كانون الثاني/يناير من عام ١٩٥٨، وكنت الشخص الوحيد المشارك من بريطانيا. شكل المؤتمر مناسبة هامة لأن حراس الأيديولوجية الأرثوذكسية في موسكو اعترفوا للمرة الأولى رسميا بالمنظرين الشيوعيين الطليان. وكان أيضا المناسبة الوحيدة التي قابلت فيها زعيم الحزب، بالميرو تولياتي. وفي المقابل، أولعت بالشيوعية الإيطالية، ووجدت مرشدها الروحي الراحل غرامشي محفزا بشكل مدهش، وبعد عام ١٩٥٦ رحبت ـ مثل غيري ـ بموقفها السياسي. وعلى العكس من بريطانيا، ما زال الانضمام إلى الحزب الشيوعي بعد عام ١٩٥٦ أمرا ذا قيمة ويستحق العناء.

لمَ كان من السهل التكيف والاستمرار مع الطليان؟ على العكس من الفرنسيين أو الإنكليز، يعتبر الطليان شعبا ساحرا، يحب الإطراء، ويشجعه اهتمام الأجانب بشؤونه، خصوصا حين يكون هؤلاء على شاكلته كما يبدو، أو - كما هي الحال معي - حين تكون معرفتهم باللغة الإيطالية ضعيفة وبالبلد سطحية. ويعود جزء من السبب في ذلك - برأيي - إلى تاريخ طويل من الانتماء لبلد تعامل معه العالم الخارجي كمكان ساحر لكنه يفتقد الجدية تماما، بلد توحد منذ عام ١٨٦٠ لكن أداءه ظل متواضعا في السلم والحرب. أعتقد بأن ذلك قد أدى إلى شعور متأصل بالهامشية والإقليمية. لقد روض الطليان أنفسهم على الاعتقاد بأن الفعل التاريخي الحقيقي، ومراكز الحضارة ومرجعيات الفكر تقبع في مكان آخر. ومنذ القرن السابع عشر، لم يتطلع أحد مثلا إلى إيطاليا بحثا عن نماذج للمنجزات الثقافية والفكرية، باستثناء الموسيقى؛ ومنذ القرن التاسع عشر طال ذلك زمن الأوبرا أيضا. ورغم أن الفاشية عززت بمعنى من المعاني إحساسا بالهوية الوطنية، إلا أنها حاولت وفشلت في علاج الشعور الإيطالي بالدونية السياسية والعسكرية، ولم تفعل شيئا بالتأكيد لنزع الإقليمية عن الثقافة الإيطالية.
وبدا أن أمام إيطاليا في مرحلة ما بعد الفاشية الكثير لتفعله من أجل اللحاق بالركب على الصعيد الثقافي، وبطريقة أو بأخرى، كان المكان الذي يجب أن تتطلع إليه في هذا السياق يقع خارجها. فترجمات الكتاب الأجانب ما زالت تحتل موقعا بارزا في سوق الكتاب الإيطالي مقارنة بأي بلد آخر في حجمها. وكان أي اعتراف أجنبي بالمنجزات الإيطالية محل ترحيب كبير. لقد عرف جيوليو ايناودي تماما ما كان يفعله حتى في وقت متأخر كعام ١٩٧٩، حين نشر نسخة جيراتانا النقدية الممتازة عن "مذكرات السجن" لغرامشي، ليس في روما بل في باريس، مثلما أطلق الكتاب الضخم المؤلف من عدة أجزاء "تاريخ إيطاليا" في اوكسفورد. فما زال استحسان وموافقة باريس، ومكانة واعتبار اوكسفورد بمثابة السبيل المناسب لتسويق مثل هذه الكتب في إيطاليا. كانت الثقافة الإيطالية بعد القرن الثامن عشر إقليمية في غالبيتها العظمى بالطبع، كما يتضح من قراءات وكتابات غرامشي. وحتى في أفضل الحالات، وبغض النظر عن الرياضيات، والأوبرا، والاهتمام العابر بالمستقبلية (التي نشأت في إيطاليا حوالي عام ١٩٩٠)، لم ينتبه أحد في الخارج لما أنتجته إيطاليا.

لربما تمثلت أهم المنجزات غير المتوقعة وأشدها تأثيرا للجمهورية الإيطالية التي ولدت من رحم المقاومة ضد الفاشية في تغيير كل ذلك، وبهذا أظهرت ما كان واضحا على الدوام لأي مراقب خارجي نزيه، أي أن الطليان لم يفقدوا أيا من المواهب الفكرية، والفنية، والتجارية التي أنتجت مثل تلك الإنجازات المدهشة التي أعجب بها العالم بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر. وبطريقة ما اتبعت الثقافتان الفرنسية والإيطالية بعد الحرب سبلا متعاكسة الاتجاهات. ففي حين خسرت فرنسا بعد عام ١٩٤٥ هيمنتها الثقافية التي اعتبرتها لزمن طويل قضية مسلما بها، وتراجعت نحو ما كان في الواقع "غيتو فرانكوفوني"، فإن مكانة واعتبار الفن، والعلم، والصناعة، والأزياء، وأسلوب الحياة الإيطالي كانا في ارتفاع، مع انتقال صورة إيطاليا من الحواف والأطراف والهوامش إلى مركز الثقافة الغربية. وحتى المواهب النابغة التي ازدهرت/أو لقيت تسامحا من الفاشية ـ مثل الشخصيات البارزة في السينما الإيطالية: روسيليني، وفيسكونتي، ودي سيكا، التي كانت تعمل حتى قبل سقوط موسوليني ـ قد تحررت بواسطة المقاومة. في الخمسينات، كان من الأمور التي لا تصدق أن تتطلع صناعة الأزياء العالمية الراقية إلى ميلانو وفلورنسا بدلا من باريس.

لكن، وباستثناء الميادين العابرة لحدود الأمم من العلوم الرياضية والطبيعية، وجد الفكر الإيطالي صعوبة في التخلص من إقليمية الماضي؛ ولا يقتصر السبب على المقاومة العنيدة التي أبداها نظام الجامعات الإيطالي، بالتوليفة المتأصلة في عمقه التي تجمع بين سيطرة البيروقراطيين والسياسيين الوطنيين وبين مناورات "باروناته" بنظام الوصاية القوي الذي يتبنونه. ومن هنا أتت الأهمية الاستثنائية في الحياة الفكرية الإيطالية خلال العقود الثلاثة أو الأربعة الأولى بعد الحرب لدور النشر التجارية مثل لاتيرزا، و ايناودي، و فيلترنييلي. وفي الحقيقة، وكما حدث في جمهورية ألمانيا الفيدرالية بعد الحرب، حلت هذه الدور محل الجامعات القديمة التي لم يعاد بناؤها، باعتبارها مصادر التأثير والإلهام الفكرية والثقافية، أو إن أردنا استخدام اللغة الدارجة بعد عام ١٩٨٩، كانت لسان حال "المجتمع المدني".

"أمير" هؤلاء المهندسين الثقافيين لإيطاليا ما بعد الفاشية كان ايناودي (١٩١٢ـ ١٩٩٩)، صديقي وناشر كتبي، وابن أبرز الاقتصاديين المنادين بالسوق الحر في

إيطاليا وأول رئيس لها فيما بعد، الذي أسس دار النشر الخاصة به عام ١٩٣٣ (وهو في عمر الحادية والعشرين) وأدارها لمدة خمسين عاما. ومن المفارقة أنه لم يكن شخصية فكرية، لكنه ترأس فريقا من المستشارين جمع الذكاء الاستثنائي، والمعرفة المتبصرة، والفطنة والموهبة، والثقافة الكوزموبوليتانية، والإبداع الأدبي. وحدت كل أعضائه مناهضة الفاشية والمقاومة الفاعلة ـ إما في التراث الشيوعي أو الاشتراكي الليبرالي لـ"العدالة والحرية" (Giustizia e Liberta) ـ ضمن البيئة الفكرية المستقلة والصارمة لتورينو، وأوجدوا ما كان في حكم المؤكد تقريبا أفضل دار نشر في العالم خلال الخمسة عشر عاما التالية على نهاية الحرب العالمية الثانية.

تم اختيار كلمة "أمير" عمدا، لأنه بالرغم من تعاطفه مع الشيوعيين، إلا أن أسلوب جيوليو، وشكله المتناسق الجميل في المدينة أو الريف، يذكران بالملوك، أو على الأقل بالإقطاعيين. وحتى حين كان ضيفا في غرفة الجلوس في هامبستيد، أو كان يرتدي ثوب السباحة على أحد شواطئ هافانا، كانت دماثة وسيماء النبلاء الطليان تشعان منه. الروح الإقطاعية تمتد لتشمل مقاربته لديونه في التجارة، بما فيها تلك التي تعود للكتاب الذين ينشر إنتاجهم، الأمر الذي أدى به إلى الإفلاس في نهاية المطاف (من ناحية أخرى، كان هؤلاء الكتاب يتلقون زجاجات نبيذ "بارولو" كهدايا من كروم ايناودي. وكان النبيذ قويا ومعتقا إلى درجة أن العاملين في مخازنه يوصون بفتح الزجاجة قبل ثماني ساعات على الأقل من شربها!). ومثل الملك المستبد، رأى مملكته امتدادا لذاته، وفي النهاية كان رفضه للإصغاء لنصيحة مستشاريه الماليين، أو حتى التفكير بمرحلة ما بعد جيوليو في المستقبل، هو الذي حطمه. تلك هي المكانة التي احتلتها الشركة التي أنقذها من الإفلاس أكثر من مرة، باعتبارها ثروة وطنية، الجهد المشترك للمؤسسة الإيطالية المناهضة للفاشية، بتنسيق من المصرفي الكبير رفائيلي ماتيولي (الذي أخفى في عام ١٩٣٧ مخطوطات غرامشي بعد وفاته في خزنة البنك إلى أن أصبح بالإمكان نقلها بواسطة بيير سرافا إلى الفروع الخارجية للحزب الشيوعي الإيطالي).

في الثمانينات فقد السيطرة على مؤسسته، وفي عام ١٩٩١، تم بيع "جيوليو ايناودي اديتوري" إلى إمبراطورية سيلفيو بيرلسكوني الإعلامية. لا أستطيع أن أتذكر

متى رأيت جيوليو آخر مرة. ربما خلال حفلة عيد ميلادي الثمانين التي نظمتها على شرفي مدينة جنوا، وكان عجوزا، حزينا، محدودبا، يعيش في إيطاليا اختلفت اختلافا كبيرا عن تلك التي عرفها في أيام مجده. ومثل ذات مرة، وهو وايتالو كالفينو، جزءا من حرس الشرف أمام تابوت تولياتي، الذي أقر بمكانته وتعاطفه السياسي من خلال منحه دار النشر التي يملكها ايناودي حقوق نشر أعمال انطونيو غرامشي نفسه. وللأسف، فما كان ذات مرة حزب تولياتي الشيوعي أصبح الآن في حالة مزرية من التدهور والانحطاط.

جمعت إيطاليا في الفترة الممتدة بين عام ١٩٥٢- ١٩٧٧ التغيير الدراماتيكي الاجتماعي والثقافي مع السياسة الجامدة. وبحلول نهاية الحرب الباردة، كان سكان البلد الفقير تقليديا يملكون نسبة من السيارات (لكل مواطن) تفوق مثيلاتها في أية دولة أخرى في العالم. لقد شرعت بلاد البابا تحديد النسل والطلاق، وتحمست للقرار الأول، لكنها لم تتحمس للثاني كثيرا. أصبحت إيطاليا بلدا مختلفا، لكن بدءا من المواجهة بين الشرق والغرب عام ١٩٤٧، كان من الواضح أن الولايات المتحدة لن تسمح للشيوعيين تحت أي ظرف من الظروف بالوصول إلى السلطة في إيطاليا، أو حتى للانضمام إلى الوزارة. وبقي ذلك بمثابة المبدأ الأساسي لواشنطن، ويمكن للمرء أن يسميه "تغييب الشيوعيين"، طالما وجد الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي الإيطالي. لكن بدا من الواضح أيضا عدم إمكانية إلغاء الحزب الشيوعي الجماهيري لا بواسطة القمع البوليسي ولا بالأساليب والألاعيب الدستورية، رغم أن الثورة الريفية الكبرى في الجنوب الإيطالي، التي جذبت تبعاتها الجانبية اهتمامي إلى "الثوار البدائيون"، قد بهتت ظلالها بحلول منتصف الخمسينات. وقبل الديمقراطيون المسيحيون الواقعيون بهذه الحقيقة، فسمحوا بمساحة لتواجد الحزب الشيوعي في مناطقهم، وفي الثقافة، وفي الإعلام. وبرغم كل شيء، فقد أسسوا الجمهورية بالتعاون مع الشيوعيين. وفي داخل إيطاليا، لم تكن الحرب الباردة لعبة يفوز فيها طرف بالنقاط التي يخسرها الآخر.

لذلك، بدأت إيطاليا التي أتيت إليها تستقر بالنسبة للمستقبل المنظور، باعتبارها، مثل اليابان تقريبا، ديمقراطية فاسدة سياسيا على نحو مشهود ومعتمدة على الولايات المتحدة، تحت حكم حزب واحد هو الحزب الديمقراطي المسيحي، الذي

احتفظ بالسلطة الدائمة اعتمادا على الفيتو الأمريكي. عندما وصلت إلى إيطاليا أول مرة، لاحظت أن المافيا في صقلية خلال فترة ما بعد الحرب ما زالت فعليا غير موثقة ولا موصوفة، في حين أن عصابة كامورا في نابولي، التي تتمتع بقوة أكبر اليوم، بدت على وشك الانقراض آنئذ [١]. وكلاهما من نتاج النظام السياسي للحرب الباردة. في العقود التي تلت عام ١٩٥٠، أصبحت الجمهورية الإيطالية مؤسسة غريبة، ومعقدة، وعبثية في معظم الأحيان، بل خطرة أحيانا، تبتعد باطراد عن الواقع الفعلي لحياة سكانها. والدعابة التي تشير إلى أن إيطاليا بلد قادر على البقاء بدون دولة، وبالتالي تثبت صوابية باكونين مقابل ماركس، ليست صحيحة تماما، لأن الطليان يمضون وقتهم وهم يتجنبون ما كان على الورق دولة قوية وتدخلية وشمولية. كان الطليان، وتوجب عليهم أن يكونوا، ماهرين في هذه اللعبة، نظرا لأن التحول الهائل في القوة، والسلطة، والموارد، والاستخدام، نحو نظام رعاية وحماية وطني، جعل من الضروري باطراد العثور على طرائق لتوزيع دماء جسد السياسة عبر ملايين الأوعية الشعرية لتجاوز شرايينه المسدودة. لقد أصبح الشعار الإيطالي الوطني هو: "رتب النتيجة" ـ من خلال العلاقات لا عبر الرشوة وحدها.

في مكان ما بين المجتمع المدني المزدهر الذي يزداد ثقة بالنفس وبين الأنشطة النخبوية للدولة، المخبأة خلف طبقات من الصمت والتشوش، يقبع ميدان "القوة". ليس له دستور ولا بنية رسمية. فهو مزيج معقد ـ عديم الرأس- من مراكز القوى توجب عليها التوصل إلى تفاهم مع بعضها البعض على الصعيد المحلي أو الوطني: الخاص، والعام، والقانوني، والسري، والرسمي، وغير الرسمي. الكل يعرف على سبيل المثال أن "المحامي" ـ جياني أغنيلي، رب العائلة التي تملك شركة "فيات" والكثير من الشركات غيرها ـ كان مركز قوة وطنيا، تماما مثلما عرف هو - في نفس الوقت الذي لم تفشل أية حكومة في التوصل إلى تفاهم معه - بأن عليه بدوره أن يتعامل مع كل من يمسك الخيوط في روما. جزء من ميدان القوة هذا كان سريا وتحت الأرض، لا يكاد يظهر إلا في فترات الأزمات مثل السبعينات والثمانينات. في تلك الفترات، تعود السياسة

١- "الأغلبية الساحقة من الكتابات المعرفية والجادة حول المافيا ظهرت بين عامي ١٨٩٠ و ١٩١٠، ومما يدعو إلى الأسف ندرة الكتابات التحليلية المعاصرة حول الموضوع"، "ثوار بدائيون"، ص٣١.

الإيطالية إلى المزاج الأوبرالي أو البورجي (نسبة إلى بورجيا)، وسط حجج لا نهاية لها لا تتعلق كثيرا بمن اغتال أصحاب "الجثث الممتازة"(*) أو أين مكان الجثث الشهيرة، بل بمن هم وراء القتلة، وكيف ارتبطوا بالمحافل الماسونية السرية والنافذة، والمشروع الغامض لمنع الحزب الشيوعي من دخول حلقة السلطة السياسية، حتى لو احتاج الأمر إلى قيام انقلاب عسكري.

انهار هذا النظام في التسعينات. فقد حرمت نهاية الحرب الباردة النظام السياسي الإيطالي من مبرره الذرائعي الوحيد، كما أن الثورة الحقيقية للرأي العام ضد الجشع السافر لرئيس الوزراء الاشتراكي وحزبه قد كسرت ظهره. كافة أحزاب إيطاليا ما بعد الحرب خرجت من انتخابات عام ١٩٩٤ فيما عدا الحزب الشيوعي، الذي أنقذته سمعته النزيهة نسبيا والتي يستحقها، إضافة إلى الفاشيين الجدد الذين كانوا على الدوام في المعارضة. وللأسف أثبتت التسعينات في إيطاليا، وفي كثير من البلاد الأخرى، أن تدمير النظام القديم ممكن، لكن ذلك لا ينتج بالضرورة الظروف المناسبة لإيجاد نظام أفضل.

III

ما الذي يقوله كاتب السيرة الذاتية عن بلد ظل جزءا من حياته وحياة زوجته طيلة نصف قرن من الزمان؟ بعض من أقرب الناس إلينا كانوا - وما يزالون - من الطليان، ونحن نتحدث الإيطالية في المنزل حين لا نرغب بأن يفهم الأطفال ما نقول. إيطاليا كانت كريمة معنا، منحتنا الصداقة، وسعدنا مع الأصحاب في أماكنها الجميلة، واكتشفنا قدرتها التي لا تحدها حدود على الابتكار الإبداعي الخلاق، ماضيا وحاضرا، علاوة على تلك اللحظات النادرة من الرضى والصفاء والقناعة بأننا نعيش حياة لا يتوقع متعتها من تجاوزوا مرحلة الشباب. لقد زودتني بالمادة الضرورية لأعمالي كمؤرخ، وكان القراء فيها على قدر كبير من الكرم والسخاء معي ككاتب.

لكن نظرا لإيماني بأن عملي كمؤرخ قد ساعدني على فهم البلد، إلا أن من الواجب أن أسأل نفسي لماذا أجد إيطاليا السنيور بيرلسكوني عام ٢٠٠٢ تختلف عن تلك

* اسم فيلم فرانسيسكو روسي (١٩٧٦)، المأخوذ عن رواية الكاتب الصقلي الشهير ليوناردو سياسكيا.

التي توقعتها قبل خمسين عاما. إلى أي مدى فشلت في رؤية الوجهة التي كانت تسير فيها إيطاليا بسبب عيب أو تحيز أو نقص في قدرتي على ملاحظة التفاصيل المهمة؟ أو نتيجة الانعطافات التي لم تكن مرئية بعد على الطريق؟ هل وسعت دقرطة المجتمع الاستهلاكي الهوة الفاصلة بين الأقلية من المتعلمين والمثقفين الذين يحتفظ بصحبتهم المؤرخون الكهول، وبين عامة الناس الذين يقرؤون حفنة من الجرائد وينفقون القليل على شراء الكتب (بالنسبة لعدد السكان)، حيث تحتل إيطاليا آخر دول الاتحاد الأوروبي في هذا المجال (فيما عدا اثنتين من أفقر دول الاتحاد)؟ هل شكلت سرعة التحول الاقتصادي، وبالتالي الاجتماعي والثقافي، عاملا تغلب على الحكمة والتبصر واستشفاف العواقب في إيطاليا، مثلما حدث في غيرها من الدول؟

في حكم المؤكد أن أقلية قليلة فقط هي التي قرأت بشكل صائب الإشارات الدلالية في تلك الفترة الانقلابية من الخوف والتوتر في السبعينات، حين وصل الحزب الشيوعي الإيطالي إلى الذروة من حيث الدعم الانتخابي الجماهيري على المستوى الوطني والتأييد الذي ناله في المدن الكبرى. لم نكن نرى ذلك التحول الدراماتيكي الصناعي الذي أضعف بصورة حاسمة التأثير السياسي للحزب الشيوعي الإيطالي في قلب إيطاليا الاقتصادي، الشمال: وما كان لأحد أن يتوقع - مثلا- إقامة معرض الكتاب السنوي في مبنى تجميع سيارات "فيات" في تورينو! لم يدرك الحزب أنه قد خسر بعد عام ١٩٦٨ مصدر قوته السياسية الرئيسية، أي هيمنته "المقبولة" على اليسار الإيطالي، وسيطرته في واقع الأمر على كل قوى المعارضة باستثناء بقايا الفاشية. الكتيب الفوري الذي أصدرته آنئذ مع جيورجيو نابوليتانو، الذي كان عضوا في أمانة سر الحزب الشيوعي الإيطالي، لم يظهر أية إشارة دالة على أنه كتب في عقد بلغ ذروته في اختطاف وقتل رئيس الوزراء الإيطالي الدو مورو على يد الألوية الحمراء، أكثر الحركات الإرهابية اليسارية ترويعا في أوروبا [1]. والأسوأ من كل ذلك ربما، أن الحزب، مثله مثل حركات الطبقة العمالية في البلاد الأخرى، كان يفقد الصلة بجماهيره الشيوعية، بعد أن كان بالنسبة لها حزب المقاومة، والتحرير، والأمل الاجتماعي، والدفاع عن الفقراء. في بداية السبعينات أخبرني بعض الأصدقاء من

1- Giorgio Napolitano and Eric Hobsbawm, Intervista sul PCI (Bari, 1975).

تورينو: "لم نعد نشكل حركة؛ نحن نتحول إلى 'حزب من أحزاب الرأي'، مثل الآخرين". كيف يمكن للمرء التحدث في السياسة إلى الصحفيين الشباب بذهنهم الحاد ومعرفتهم بأهمية وسائل الإعلام الذين يتصلون هاتفيا من صحيفة الحزب "ليونيتا" (التي تكافح الآن من أجل البقاء) بنفس الطريقة التي خاطب فيها جيل الصحفيين من الأنصار وفترة التحرير؟ لقد وجد الحزب عند تجديد كوادره أنه غيّر شخصيتهم وطبيعتهم. ومع تدهوره وانحطاطه البطيء، وتخليه عن الكثير من تراثه العظيم المرتبط باسمه، استعد لشق طريقه عبر التسعينات في الظلال المبهمة لشعاراته الجديدة المرتجلة و"النباتية" - شجرة الزيتون والسنديان.

في خلال خمس سنين من وفاة بيرلنغوير، سقط جدار برلين، وقام الحزب الشيوعي الإيطالي، بعد التخلي عن رموزه وتقاليده، بإعادة بناء وتسمية نفسه بـ"اليسار الديمقراطي" (الاسم المبهم المعتاد لانكفاء أحزاب موسكو الشيوعية القديمة)، في مواجهة معارضة داخلية مريرة، وانفصال "حزب الشيوعية الجديدة".

وهكذا تبين لنا على المدى الطويل أن الاستمتاع بإيطاليا أهون من فهمها. ومن المفارقة أن ذلك كان أكثر سهولة في حقبة أزمة الجمهورية. ومن منظوري الخاص، كانت إيطاليا في الثمانينات عبارة عن سلسلة متتابعة من المناسبات العامة والمناقشات الأكاديمية التي جرت في أماكن لم تقلل ألفتها من جمالها، وعن أيام قضيتها في أغلب الأحيان مع أصدقاء في أو حول روساريو ومزرعة أنا روزا فيلاري في توسكانيا. كانت بلادا لا تصدق، حيث يتمدد المرء بصحبة الأصدقاء بعد الغداء، على سطيحة (تراس) تشرف على فال دورسيا مستمعا لصوت ماريا كالاس وهي تغني "كاستا ديفا" من مسجل يصدح من الغرفة العلوية.

في هذه الأثناء، كانت إيطاليا الثمانينات بمجملها تتبنى في الحياة العامة فكرة "إثبات صحة الأطروحة عبر البرهنة على فساد نقيضها" (أو العكس)، وتمر في حقبة من السياسة المعتدلة للأخوة الماركسيين الذين تلطخت أيديهم بالدماء. وفي حين أن رجال كراكسي اشتروا "المفكرين التقدميين" السابقين، أمضى الوزراء الاشتراكيون المترفون لياليهم في المراقص مع نجمات السينما، ودفعت فواتيرهم إداراتها المتلهفة لاجتذاب حاشيتهم، وتلقي المعونات الحكومية الضخمة بعد أن تلاشت الزلازل الهائلة

في الهواء الرقيق. أما الشؤون المالية للفاتيكان فكانت في حالة من الفوضى والتشوش بسبب مضاربات المصرفيين المتصلين بالمافيا (وجد أحدهم مشنوقا تحت جسر بلاكفريارز في لندن. ونجح بروفسور من نابولي في بناء إمبراطورية أكاديمية لنفسه في أحد قصور البلدية، اعتمادا على قوة وأصالة أبحاثه، وحكم زملائه البارزين الذين أخفقوا في ملاحظة أن أحد كتبه كان عبارة عن ترجمة حرفية منقولة من أطروحة الدكتوراه لأحد الطلبة الألمان!).

أوضح ذكرياتي عن تلك السنوات تجسدها رحلة ليلية وجيزة إلى روما، حين دعاني التلفزيون الإيطالي للمشاركة في برنامج حول مئوية ماركس، بعنوان "أمسية مع كارل ماركس".

كانت المناسبة سوريالية، رغم أنني لسوء الحظ لم أشاهد البرنامج على الشاشة الصغيرة أبدا، وبالتالي فاتني العرض "العالمي" الذي أدته المغنية الطليعية الكلاسيكية الشهيرة كاثي بيربيريان، حيث أقيم داخل استديوهات التلفزيون الإيطالي الضخمة نصب تمثال عملاق من الورق المعجن لرأس كارل ماركس (كانت قمته متحركة). وكان مقدم البرامج، وهو ممثل كوميدي معروف، يسحب بين الحين والآخر بطاقات كبيرة كتب عليها "صراع الطبقات"، "المادية الجدلية" وغيرها. في بعض الأحيان بدا المشهد وكأنه بيت ريفي روسي في عزبة في بلاد تشيخوف، حيث كنت أجلس على شرفته مع الراحل لوشيو كوليتي، وهو شيوعي أكاديمي لامع سابق، يفترض أن أفسر معه "نظرية قيمة العمل" خلال مدة لا تزيد عن خمس دقائق، حين تخرج من "رأس" كارل ماركس. دعم كوليتي في وقت لاحق سيلفيو بيرلسكوني، لكن حتى هو لم يكن يعرف أو حتى يتخيل ما سيحدث في عام ١٩٨٣ .

لم أعرف ماذا حصل في بقية تلك "الأمسية مع كارل ماركس"، لأنني تركت الاستديو لأقبض أتعابي، التي دفعتها لي - نقدا - موظفة شابة من التلفزيون الإيطالي التابع للحكومة، قبل أن تقدم لي النصيحة التالية: "لا يفترض بك أن تأخذ مثل هذا المبلغ خارج البلاد. ومن الأفضل لك أن تخفيه بين قمصانك داخل حقيبة السفر. ولن يجده أحد".

أتذكر التسعينات والسرور يترع كياني. فقد حقق "عصر النهايات القصوى"

نجاحا لافتا في إيطاليا. واستطاع الطليان طرد أكثر الأنظمة السياسية فسادا في أوروبا، كما تمكنوا من تدمير أحزاب جمهورية الحرب الباردة بصورة تامة. كنا في إيطاليا خلال انتخابات عام ١٩٩٤، التي قلصت عدد الذين خاضوها تحت اسم الديمقراطيين المسيحيين والاشتراكيين إلى اثنين وثلاثين وخمسة عشر مقعدا على التوالي، في مجلس النواب المؤلف من ستمائة وثلاثين مقعدا، وهو نصر أفسده الانتصار - مهما كان مهزوزا - الذي حققه الائتلاف اليميني بزعامة بيرلسكوني. ومع ذلك، فإن خيبة الأمل التي أصيب بها المعجبون القدامى بإيطاليا سببها فشل ما كان يعرف ذات مرة بالحزب الشيوعي الإيطالي. فعندما وصل في نهاية المطاف إلى موقع يؤهله لأخذ موقعه على رأس حكومة ديمقراطية تقدمية، أثبت أنه لم يكن على مستوى المهمة. وفي حين وصلت إلى السلطة حكومات يسارية في بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، دخلت إيطاليا الألفية الجديدة وهي تستعد لقبول أول حكومة يمينية مطلقة منذ سقوط الفاشية.

بالنسبة لمعظم الإيطاليين، تابعت الحياة سيرها المعتاد. وكانت مرضية لهم أكثر من أية حقبة أخرى خلال نصف قرن من التحسن والتقدم الذي شهده تاريخهم. ومع هذا، هل يمكن لأحد أن يحزر ذلك من أعظم كتاب (برأيي) ألفه إيطالي في فترة حياتي كلها، ألا وهو "المدن المخفية" لإيتالو كالفينو؟ (ما أزال أتذكره، قبل وقت قصير من موته المفاجئ، وهو جالس على سطيحة منزله الخضراء المطلة على كامبيو مارزيو في روما، بذكائه اللماح ومعرفته الواسعة، وعلى وجهه الأسمر تلك الابتسامة الباهتة المتشككة). كان الكتاب يدور حول حكايات رويت إلى قبلاي خان، إمبراطور الصين، عن مدن حقيقية أو خيالية (أو كلا الأمرين معا)، زارها ماركو بولو في رحلاته. أما المدينة الرئيسية فهي ايرين، التي لا يمكن رؤيتها إلا من الخارج. لكن كيف تبدو للناظر من داخلها؟ لا يهم، "ايرين مدينة نائية. وحالما تقترب منها تتغير ولا تعود كما كانت". الكتاب يتناول أيضا المدن الموعودة لكن غير المكتشفة التي يضم أسماءها أطلس في حوزة قبلاي خان: مثل يوتوبيا، مدينة الشمس. لكننا لا ندري كيف نصل أو ندخل تلك المدن. في نهاية المطاف، سأل الإمبراطور: وماذا عن مدن الكوابيس التي نعرف أسماءها؟

"بولو: ليس ثمة جحيم ينتظر البشر (في الآخرة)؛ وإن وجد فهو هنا (في الدنيا)، إنه جهنم حياتنا اليومية، التي صنعها العيش المشترك. هنالك طريقتان لاحتمالها. الأولى يجدها الكثيرون سهلة: أقبل الجحيم وكن جزءا منه، حتى لا ترى وجوده. والثانية خطرة وتحتاج انتباها متواصلا وتعلما مستمرا: أن تبحث وأنت في سعير جهنم عن الفردوس، وتتعلم كيف تميزها، وتجعلها تدوم، وتعطيها فسحة للوجود".

ليست تلك هي الروح التي رأى عبرها أفراد جيلي، بمن فيهم كالفينو، إيطاليا التي حررت نفسها للتو من الفاشية.

-٢١-

العالم الثالث

I

في عام ١٩٦٢ تمكنت من إقناع مؤسسة روكفلر بالحصول على منحة سفر إلى أمريكا الجنوبية، وذلك لاستقصاء المادة التي يعتمد عليها موضوع أحدث كتاب لي، "الثوار البدائيون"، في قارة ينتظر له فيها، كما هو متوقع، أن يلعب دورا أكثر بروزا في التاريخ المعاصر مقارنة بحاله في أوروبا منتصف القرن العشرين. في تلك الأيام كانت المؤسسات العلمية ما تزال ترسل موفديها جوا بالدرجة الأولى، على متن طائرات أمست أسماء شركاتها شاهدا تاريخيا على ماض غابر ـ "بان أمريكان"، "بان اير دو برازيل"، "بان اغرا"، تي دبليو ايه"، رغم أن كل خطوط الطيران الوطنية مازالت باقية حتى الآن على ما يبدو (باستثناء شركة طيران البيرو). جلت لمدة ثلاثة أشهر تقريبا بين عامي ١٩٦٢ـ ١٩٦٣ في مختلف أرجاء أمريكا اللاتينية (البرازيل، الأرجنتين، تشيلي، بيرو، بوليفيا) بهذا المستوى المترف الذي لا يتناسب أبدا مع باحث يستقصي ثورات الفلاحين. تلك كانت الأولى من بين عدة زيارات قمت بها للقارة في السنوات اللاحقة شملت كافة بلدانها فيما عدا غويانا وفنزويلا. ولربما تعتبر أطول فترة متواصلة قضيتها في حياتي خارج المملكة المتحدة منذ عام ١٩٣٣، هي تلك الستة أشهر التي أمضيتها مع الأسرة، مدرسا، وباحثا، وكاتبا، في المنطقة الممتدة ما بين المكسيك والبيرو عام ١٩٧١ . إنها القارة التي يعيش فيها العديد من أصدقائي وتلامذتي، والتي ارتبطت بها على مدى أربعين عاما، وكانت على الدوام ـ ولا أدري لماذا ـ طيبة ودودة معي بشكل ملحوظ. إنها الجزء الوحيد من العالم الذي لم يدهشني فيه لقاء رؤساء سلف عهدهم، ورؤساء ما زالوا في سدة الحكم، وغيرهم ممن سيستلمون زمام

السلطة في المستقبل. وفي الحقيقة، كان أول رئيس قابلته هو رئيس بوليفيا الحكيم فيكتور باز ايستنسورو، الذي أراني من شرفته المطلة على إحدى ساحات لاباز عمود الإنارة الذي شنق عليه سلفه غولبيرتو فيلارول على يد جمهرة من الهنود الثائرين عام ١٩٤٦.

بعد انتصار فيدل كاسترو، وهزيمة الولايات المتحدة حين حاولت إسقاط نظامه في خليج الخنازير عام ١٩٦١، فتن كل المثقفين في أوروبا والولايات المتحدة بسحر أمريكا اللاتينية، القارة التي تغلي بحمم براكين الثورات الاجتماعية. وبالرغم من أن ذلك قد جذبني إليها، إلا أن السبب الرئيس بالنسبة لي كان عمليا، أو بصورة أدق، كان لغويا. إذ لا بد أن يتمكن المؤرخون الذين يتعاملون مع أنشطة الناس العاديين من التواصل معهم شفاهيا، وكانت أمريكا اللاتينية هي المنطقة الوحيدة من ما كان يسمى بالعالم الثالث التي يتكلم سكانها لغة أستطيع فهمها. لأنني لم أكن مهتما بالمنطقة الجغرافية، بل بثمانين بالمائة من الرجال والنساء والأطفال المجهولين الذين يعيشون (نظريا) خارج المنطقة المأهولة حتى الثلث الأخير من القرن العشرين بالسكان من ذوي البشرة البيضاء.

خلال النصف الأول من حياتي، لم يعرف هؤلاء الثمانون بالمائة شيئا عن العالم (فيما عدا بضعة آلاف منهم)، ولم يعرف العالم ـ عمليا ـ شيئا عنهم. لا شيء يؤثر في شخص في مثل عمري من ذلك الاكتشاف الاستثنائي لـ"العالم الأول" من قبل شعوب العالم الثالث بدءا من عام ١٩٧٠، أو ـ نظرا لأن مثل هذه التعابير تنتمي لحقبة الحرب الباردة ـ احتمال أن يغير فقراء العالم حياتهم نحو الأفضل عبر الانتقال إلى الدول الغنية. بالطبع، وفيما عدا بعض الاستثناءات النادرة، مثل الولايات المتحدة منذ الستينات، لم نكن نرغب بأن يأتوا إلينا، حتى عندما نحتاجهم. فالعالم المؤيد بإخلاص لحرية الحركة الكونية لكافة عوامل الإنتاج المربحة هو أيضا عالم يكرس جهده لوقف أحد أشكال العولمة الذي يرغبه الفقراء دون شك، أي العثور على عمل بأجر أفضل في الدول الغنية. لقد تآلفنا مع بربرية القرن العشرين إلى حد أننا لم نعد نميز بين اللاجئين وبين المهاجرين الأفغان والكرد الذين ينقلهم المهربون والمقاولون في توابيت على شكل سفن، تماما مثل اليهود الطليان والروس الذين اكتشفوا لتوهم في ثمانينات القرن التاسع عشر بأن عليهم ألا يعيشوا ويموتوا في مسقط رأسهم.

لم يكن الأمريكان كذلك خلال الأربعين سنة الأولى من عمري. فاللغة ـ لا اللغة "القومية" بل اللهجات التي يتحدث بها الأميون فعلا، والتي تصبح غير مفهومة على بعد خمسين كيلومترا ـ قد عزلت الناس عن بعضهم البعض. إذ فصلتهم الأمية، بل أكثر من ذلك، أبعدهم غياب الإذاعة والتلفزيون، عما نعتبره "أخبارا"، رغم أن هذا لم يحرمهم من معرفة واحد أو اثنين من أحداث العالم الرئيسية. حتى في السبعينات، سألني فلاح مكسيكي حين أخبرته عن البلد الذي أتيت منه: "وأين تقع إنكلترا؟!" (السؤال الأول الذي يطرح على الغرباء في كافة المجتمعات التي تعيش من خلال التواصل الشفاهي، هو على الدوام: "من أين أتيتم؟"). الشرح الذي قدمته لم يكن كافيا. إذ لم يخطر على باله المحيط الأطلسي قط. في نهاية المطاف أوصلني إلى منطقة سمع بها: "هل هي قرب روسيا". قلت، ليست بعيدة كثيرا. وهذا ما أرضاه.

بالمقابل، كان السمر قلة نادرة في البلاد التي يقطنها العرق الأبيض، باستثناء الأمريكيين الأفارقة في الولايات المتحدة. أما الهجرة من أمريكا اللاتينية فكانت محدودة قبل عام ١٩٦٠ إلى درجة أن الولايات المتحدة كانت تحصي القادمين من أمريكا الجنوبية والوسطى معا، دون تمييز بين دول المنشأ. وذلك بغض النظر عن المستوطنين الأوروبيين البيض المقيمين بين تجمعات كبيرة من السكان المحليين، مثل الفرنسيين في الجزائر (وجلهم من أصول إسبانية)، والمستوطنين اليهود في فلسطين. لم يكن من المرجح أن يقابل البيض العاديون في مسيرة حياتهم مشهد الشارع المتعدد الأعراق مثلما هو الحال في المدن الغربية الكبرى هذه الأيام. وفيما عدا قلة لا تمثل النمط السائد، فإن عددا محدودا جدا من البيض غير المقيمين في الخارج قد عرفوا أشخاصا من أعراق وألوان مختلفة (كما أن عددا أقل منهم أقاموا صداقات معهم). وكان هؤلاء ينتمون قبل الستينات إلى مجموعتين رئيسيتين: المسيحيون (بمن فيهم طائفة "الكويكرز") والشيوعيون. وكلتا المجموعتين تلتزم، بطرائق مختلفة، بكره عام للعنصرية يعتمد على مبدأي التحرر والمساواة، وكلتاها، خصوصا الماركسيون، تنطلق من أرضية مناهضة الاستعمار واحتمال ثورة الشعوب الشرقية، وتعطي اهتماما خاصا لتاريخ البشر من غير البيض. وهذا ما دفعني للانضمام إلى "مجموعة طلاب المستعمرات" في الحزب، واستكشاف شمال أفريقيا، ثم أمريكا اللاتينية في نهاية

المطاف. كان أصدقاؤنا من سكان المستعمرات، ومعظمهم من جنوب آسيا، بمثابة نوافذنا الأولى على هذه العوالم.

لم أدرك إلا في وقت لاحق مدى بعدهم عن تمثيل مجتمعاتهم. فأولئك الذين دخلوا كامبريدج، واكسفورد، ومدرسة لندن للاقتصاد كانوا عبارة عن نخبة النخبة من سكان المستعمرات "المحليين"، كما توضح ذلك بسرعة بعد التحرر من الاستعمار. وبدوا أفضل حالا ـ من الناحية المادية ـ منا إلى حد ما. فعلى سبيل المثال، كانت عائلاتهم صديقة لآل نهرو، مثل ب. ن. هالسكار من مدرسة لندن للاقتصاد، الذي أصبح أقوى شخصية في الهند المستقلة حين زرته في نيودلهي عام ١٩٦٨ . أما الرجل الذي قدم لاستقبال طائرتي على مدرج المطار فهو صديقي القديم من كلية "كينغ" موهان كومارامانغلام، الذي ظل شيوعيا حتى فترة قريبة، ثم أصبح مسؤولا عن الطيران الهندي، فواحدا من أكثر الوزراء قربا من السيدة انديرا غاندي، قبل أن يلقى حتفه في حادث مأساوي حين تحطمت طائرته في عام ١٩٧١ . أما شقيقته الصغرى، بارفاتي، التي زارت موهان في كامبريدج، فقد تزوجت من السكرتير العام للحزب الشيوعي ودخلت البرلمان. وهناك شقيق آخر، درس مثل أقاربه في كلية "ايتون" (لكنه لم يكن شيوعيا)، ثم استلم رئاسة أركان الجيش الهندي. كان آل كومارامانغلام، وكذلك آل ساراباي (وإن بطريقة مختلفة) في أحمد آباد، من ذلك النوع من العائلات المخلصة للديانة اليانية والملتزمة بها التزاما صارما، حيث يمتنع أتباعها عن قتل أو إيذاء أي مخلوق مهما كان حقيرا. هؤلاء عرفتهم من خلال مانوراما، صديقتي المقربة منذ أيام زوجتي الأولى في مدرسة لندن للاقتصاد، والتي بنى منزلها لي كوربوسييه. كانوا ينتمون إلى العائلات التجارية البارزة والمؤيدة لحزب المؤتمر في ولاية كوجارات، والتي نشطت في مختلف المجالات، بدءا بالمنسوجات وانتهاء بالتقانة المتقدمة. مثلت الثقافة أوضح الأنشطة العامة التي مارسها هؤلاء، لكن أحد آل ساراباي كان مسؤولا عن البرنامج النووي الهندي. بالنسبة للجيل الأول من حقبة الاستقلال، كانت شؤون الهند ـ العامة والخاصة، والحكومة والمعارضة ـ تدار من قبل مؤسسة استثنائية "متأنكلزة"، عصرانية التفكير، تضم حوالي مائة ألف شخص ينتمون إلى عائلات رفيعة المستوى الثقافي والتعليمي (أي ثرية في الغالب)، خدمت الحكم البريطاني أيام

الاستعمار، إضافة إلى تلك التي أسست الحركة في سبيل الحرية. تبدت غرابة وشذوذ هذه التوليفة في حفلة عيد الميلاد التي أقيمت في منزل رينو تشاكرافارتي الوسيم، الذي كان آنئذ عضوا شيوعيا في البرلمان ـ لم يكن الحزب الشيوعي قد انشق بعد ـ والشخصية المؤثرة والنافذة في كلكتا. بعد شرائح لحم الخنزير والديك الرومي، التي قدمها ابن عم رينو، سكرتير نادي كلكتا (الذي لم يتخل كما بدا واضحا عن لائحة الطعام الذي كان يقدمه حين لم يكن يسمح لأي هندي بدخول المبنى إلا إذا كان خادما)، أتى "البرياني"، ثم كعكة عيد الميلاد التي قدمها النادي أيضا، إضافة إلى بذار الكوثل لمضغها. كان هؤلاء "مؤنكلزين" حتى في اللغة التي يتحدثون بها في البيت، ويقرؤونها ويكتبونها بسهولة أكبر، وكان لدي انطباع بأن البنغاليين وحدهم، وربما بعض العائلات المسلمة التقليدية التي يقرأ شبابها الراديكاليون الشعر التقدمي بالأوردية (التي أعجب بها اثنان من أصدقائي ورفاقي القدامى، فيكتور كيرنان ورالف رسل)، عاشوا حياتهم الفكرية ضمن إطار اللغة المحلية.

هذا القدر من المعلومات فقط - وهو ليس كبيرا- هو كل ما يمكن للمرء أن يعرفه حول أي مجتمع من خلال الصداقة الشخصية. ولربما يكون الأصدقاء متجذرين في عمقه إلى حد يمنعهم من تمييز خصوصياته. وفي جميع الأحوال، تعتبر الطبقة الاجتماعية عازلا كبيرا يفصل بين الخبرات والتجارب، مثلها مثل البعد المكاني، والثقافة، واللغة. حين حمل الحزب صديقي ورفيقي العزيز من كلية "كينغ"، الراحل اندراجيت ("سوني") غوتبا، (الذي أصبح فيما بعد سكرتيرا عاما للحزب الشيوعي، ووزيرا للداخلية لفترة وجيزة) مسؤولية زعامة نقابة عمال الترام في كلكتا، ثم نقابة عمال الجوت في البنغال (الغربية)، توجب عليه التعرف على الطبقة العمالية في المدينة كأي أجنبي عنها. وما أدين به لمثل هذه الصداقات، اعتمادا على مبادئ مناهضة العنصرية لدى الطلاب الشيوعيين، هو فصل الشعور بالمساواة عن الوعي بلون البشرة أو الشعر، والمظهر الخارجي، والثقافة. إن القرية الكونية للتجارة، والعلم، والتقانة، والجامعات، في القرن الحادي والعشرين، متعددة الألوان والأعراق إلى درجة أن ذلك لم يعد يعتبر مشكلة، رغم شكوكي بأنها ما زالت على حالها. فقبل عام ١٩٦٠ أو نحو ذلك، تعزز الإحساس بالتفوق العرقي لدي الغربيين البيض نتيجة ثقل

القوة الغربية والمنجزات التي تحققت في كافة الميادين، فيما عدا بعض الفنون، والتفوق العضلي- الجسماني للأعراق والأجناس التي اعتبرت على نطاق واسع دونية، وبالتالي غدت هدفا للسخط، والاستياء، والقمع، والإفراط في التعويض عن النقص من الناحية السيكولوجية، خصوصا من قبل الرجال البيض. يهود إسرائيل مثلا، لم يخفوا احتقارهم لـ"العرب"، لاسيما قبل عام ١٩٨٧، حين لم تكن الانتفاضة قد كسرت بعد حاجز القبول السلبي باحتلال إسرائيل لأراضي الفلسطينيين. وكانت تجربة غريبة لكن مفيدة أن أعامل كواحد منهم خلال زيارتي إلى الضفة الغربية عام ١٩٨٤، وهي المرة الوحيدة التي وجدت نفسي فيها أعيش تحت هيمنة قوة عسكرية أجنبية.

من أعظم مزايا الشيوعية، خصوصا حين تتعزز بالصداقة الشخصية، أنها تجعل المرء لا يتعامل مع رفيقه إلا بوصفه ندا مساويا له، ساعدت على ذلك الثقة الواضحة بالنفس لدى الصفوة المتميزة الآتية من نخب "سكان المستعمرات" الملونين، التي استطاع أفرادها دخول الجامعات البريطانية في فترة ما قبل الحرب. ومثلما تستشعر الخيل الخوف في خيالها، كذلك يستشعر البشر في أقرانهم محاولة معاملتهم بدونية. لقد استطاعت الطبقات الحاكمة والمحتلون الأجانب على الدوام استغلال هذا التوقع بالشعور بالتفوق. لكن أصدقائي القادمين من "المستعمرات" في فترة ما قبل الحرب لم يتوقعوا أن يعاملوا بدونية.

ومع ذلك، وإلى أن حصلت من الجامعة على منحة للسفر إلى شمال أفريقيا (الفرنسية) في عام ١٩٣٨، لم أكن قد زرت أية دولة من "العالم الثالث" (لم يكن معروفا بهذا الاسم) مذ أن غادرت مصر وأنا طفل رضيع. تجولت في تونس والمنطقة الوسطى والشرقية من الجزائر من البحر إلى الصحراء، لكنني لم أصل إلى غرب الجزائر والمغرب، وبقيت متشككا طيلة العمر بالإحصائيات الريفية في مثل هذه الأماكن التي يقدمها مسؤول الإدارة الفرنسية (دون الاعتماد على مصدر مستقل آخر)، المستعد دوما للحديث مع أي زائر متعلم ("حين تطلب مني الحكومة إحصائيات تتعلق بعدد رؤوس الماشية، أقوم باستقصاءات سريعة وغير رسمية لأن القطعان ستختفي بين التلال. بعد ذلك أعود إلى الإحصاءات السابقة، وأضع رقما تقريبا يبدو معقولا"). كما أنني أكن مشاعر الاحترام لسكان الجبال ومنطقة القبائل، ولذكاء ودراية ومعرفة

المغاربة الفرنسيين والمتخصصين بالشؤون الإسلامية، حتى وإن كان معظمهم، مثل الأنثروبولوجيين الأفارقة البريطانيين في تلك الأيام، قد خدموا الإمبراطورية التي تحتل بلادهم. قابلت مصالي الحاج، زعيم الحزب الشيوعي الجزائري الصغير، الذي نفي إلى الصحراء عام ١٩٣٩ ثم قتل، رغم أنه لم يكن آنذاك أحد أهم الثائرين على الحكم الفرنسي. أتساءل في بعض الأحيان هل كنت سأصبح مؤرخا أفضل لو عدت بعد الحرب إلى البحث في موضوع "المشكلة الجزائرية في شمال أفريقيا الفرنسية" الذي أحضرته معي من رحلاتي. الأشخاص الذين أعجب بهم ـ المؤرخ العظيم بروديل، وصديقي بيير بورديو، والراحل ارنست غيلنر ـ تلقوا إلهامهم من عملهم في المغرب العربي، وأستطيع فهم السبب وراء ذلك. لكن لو فعلت مثلهم لما أثار عملي انتباه الكثيرين. وباستثناء مناطق جنوب الصحراء الكبرى في أفريقيا ـ وهذا أمر غريب حقا ـ أدت نهاية الإمبراطوريات إلى ظهور جيل يعاني من فقدان الذاكرة فيما يتعلق بتاريخه. علاوة على ذلك، لسوف تعمل حرب الجزائر الدموية في الخمسينات، والسجل المرير المخيب للآمال للجزائر المستقلة منذ ذلك الحين، إلى تهميش هذا المجال. ولاحظت بشكل عابر أنه في حين يمكن تحديد مستقبل تونس تحت حكم رئيسها المقبل الحبيب بورقيبة منذ عام ١٩٣٨، إلا أن من المستحيل اكتشاف أية علامة في الجزائر خلال تلك السنة يمكن أن تقود أحدا لتوقع، أو حتى تخيل، القوة التي ستحرر البلاد في نهاية المطاف، أي جبهة التحرير الوطني.

II

أدت ثورة فيدل كاسترو عام ١٩٥٩ إلى ظهور موجة مفاجئة من الاهتمام بكل ما يتعلق بأمريكا اللاتينية، المنطقة المحاصرة بالشائعات والتي لا يعرف عنها سوى القليل من المعلومات خارج الأمريكيتين آنذاك. ومع بعض الاستثناءات النادرة، فإن الأوروبيين المقيمين هناك، فيما عدا لاجئي الحرب الأهلية الإسبانية، والقادمين من أمريكا الشمالية، عاشوا في عوالمهم الخاصة على شاكلة أقربائي في تشيلي الذين رفضوا الاختلاط والزواج مع غيرهم، والذين ما يزالون يعتبرون أنفسهم وافدين إنكليز أو لاجئين أوروبيين على أقل تقدير (اعتقد بأن أبناء عمومتي الخمسة كلهم قد أمضوا

الحرب العالمية الثانية وهم يخدمون وطنهم بالزي العسكري البريطاني). ومنذ أن تحررت القارة من الاستعمار، افتقدت المعلومات الذكية والموثقة التي وفرتها الإدارات الاستعمارية التي عملت على فهم البلاد لكي تحكمها بكفاءة وفاعلية. أما جاليات رجال الأعمال الوافدين، كما تظهر السجلات، فقد كانت عديمة النفع تقريبا كمصادر للمعلومات المتعلقة بالبلاد التي عملت فيها، رغم أن البريطانيين أسسوا في وقتهم نوادي كرة القدم التي وجدت فيها الحركة الوطنية في أمريكا الجنوبية التعبير المكثف عنها.

كانت أمريكا اللاتينية آنئذ أبعد مناطق الكرة الأرضية عن العالم القديم مقارنة بأية بقعة أخرى - رغم أن ذلك لا ينطبق بالطبع على القوة الإمبريالية في الشمال، التي تشرف على الدول المستقلة الدائرة في فلكها. لقد خبرت دول القارة الحربين العالميتين باعتبار كل منهما حدثا أدى إلى الازدهار الاقتصادي. ومرت عبر كوارث القرن دون أن تعاني سوى من حرب دولية واحدة على أراضيها (الحرب التي اشتعلت بين عامي ١٩٣٢- ١٩٣٥ بين بوليفيا والباراغوي)، رغم تفجر العديد من الأحداث الدموية المحلية للأسف. ونظرا لأنها قارة تؤمن بدين واحد فقد نجت حتى الآن من الوباء العالمي للقومية اللغوية، والاثنية، والطائفية.

لم يكن من السهل التعامل مع أمريكا اللاتينية بصورة جدية. فحين ذهبت إلى هناك للمرة الأولى عام ١٩٦٢، كانت القارة تعيش في واحدة من حقبها الدورية من التوسع الاقتصادي والثقة بالذات، التي عبرت عنها اللجنة الاقتصادية لأمريكا اللاتينية التابعة للأمم المتحدة، وهي منظمة تضم العقول المفكرة في كافة دولها ويقع مقرها في سنتياغو ويرأسها أحد المصرفيين الأرجنتينيين، والتي كانت تضع التوصيات المتعلقة بسياسة تخطيط التصنيع والنمو الاقتصادي الخاضعين لرعاية الدولة، أو ملكيتها المباشرة في أغلب الحالات من خلال البدائل المستوردة. وعلى ما يبدو نجحت الخطة، على الأقل بالنسبة لبلد عملاق مصاب بالتضخم مثل البرازيل. في ذلك الوقت قام جو سيلينو كوبيتشيك، الرئيس التشيكي الأصل، بإطلاق عملية فتح مناطق البرازيل الداخلية الشاسعة عبر بناء عاصمة جديدة فيها، مصممة خصيصا على الأغلب بواسطة أبرز مهندسي البلاد، أوسكار نيميير، وهو عضو معروف في الحزب الشيوعي القوي لكن المحظور، والذي أخبرني بأنه صممها وانجلز في ذهنه.

كانت دول القارة الرئيسية تمر أيضا في مرحلة الحكومات المدنية الدستورية التي تشهدها بها بين الحين والآخر، والتي ستنتهي بعد وقت قصير. لكن الزعماء التقليديين من النمط القديم كانوا على وشك الزوال ـ على الأقل خارج منطقة الكاريبي. في حين سيشكل قادتها مجموعة من الضباط المغمورين وغير المتميزين في معظم الأحوال. في تلك الأيام، كانت الباراغواي، تحت الحكم "المؤيد" للجنرال ستروسنر، الدولة الوحيدة الخاضعة للديكتاتورية العسكرية في أمريكا اللاتينية. نظام ستروسنر معروف بفظاعته وقسوته على الشعب، وإن أحسن وفادة النازيين الهاربين إلى ذلك البلد المتميز بطبيعته الساحرة، والذي يعيش معظم سكانه على التهريب. تعتبر رواية غراهام غرين المؤثرة "القنصل الفخري" بمثابة مقدمة ممتازة للتعرف على البلد، ولربما أميل أنا شخصيا إلى الباراغواي كونها الدولة الوحيدة التي تعترف رسميا بإحدى اللغات الهندية، وحين زرتها بعد عدة سنوات اكتشفت أن اسمي مألوفا لدى مجلة "ريفستا باراغوايا دي سوسيولوجيا" التي تصدر هناك، باعتباري مؤلف "الثوار البدائيون". ومن ذا الذي يمكن أن يقاوم الشهرة في الباراغواي؟

لا يمكن لمن يكتشف أمريكا الجنوبية أن يقاوم سحرها، ناهيك عما إذا كان أول اتصال له بها قد تم عبر البرازيليين. لكن الأمر الذي يتضح فورا حول دولها ليس انعدام المساواة المذهل على الصعيد الاقتصادي، الذي لم يتوقف عن التفاقم منذ ذلك الحين، بل الهوة الهائلة التي تفصل بين الطبقة الحاكمة والطبقة المثقفة التي يتصل بهما الأكاديميون الزائرون من ناحية، والناس العاديون من ناحية أخرى. فقد كان المثقفون، الذين ينتمون في غالبيتهم إلى العائلات الموسرة أو "الكريمة" (ذات الأصول البيضاء في أكثريتها الساحقة)، يتمتعون بالدراية والخبرة الواسعة بشؤون العالم، والذين سافروا إلى مختلف البلاد وتمكنوا من اللغة الإنكليزية، بل ما زال بعضهم يتحدث الفرنسية. كما هو الحال غالبا في دول العالم الثالث (الذي يرفض الأرجنتينيون بشدة الانتماء إليه)، يشكل هؤلاء أصغر طبقة اجتماعية على امتداد القارة، نظرا لأن أمريكا اللاتينية تمثل في أذهانهم حقيقة واقعية مستمرة، وذلك على العكس من مفهوم "أوروبا" المصطنع في أذهان سكان القارة العجوز. فإذا كانوا من السياسيين، فإنهم سيمضون فترة من حياتهم كمنفيين في بلد آخر من أمريكا اللاتينية، أو

سيقومون برحلة إلى كوبا كاسترو؛ وإن كانوا أكاديميين، فسيقضون فترة كأعضاء في إحدى المؤسسات المتعددة الجنسيات في سنتياغو، أو ريو دي جانيرو، أو المكسيك. ونظرا لقلة عددهم فهم يعرفون بعضهم بعضا أو يطلعون على أحوال بعضهم البعض. على هذا النحو، أمكن لزائر مثلي، منذ البداية عام ١٩٦٢ حيث تعددت رحلاتي، أن يجد موقعه بين أشخاص غير معروفين في أوروبا، لكن تبين أنهم شخصيات مفتاحية على الصعيدين الثقافي ـ الفكري والعام. لكن حقيقة تنقل هؤلاء في عالم ألف باريس، ونيويورك، وخمس أو ست عواصم في أمريكا اللاتينية، فصلتهم عن العالم الذي يعيش فيه معظم السكان السمر والأكثر انعزالا في أمريكا اللاتينية.

وخارج "المخروط الجنوبي" المتمدن (الأرجنتين، الارغواي، تشيلي)، كان هؤلاء السكان يتدفقون كالسيل من الأرياف إلى أحزمة الفقر المحيطة بالمدن التي تتفجر بكثافتها السكانية، جالبين معهم طرائقهم وأساليبهم القروية. سان باولو، على سبيل المثال، تضاعف حجمها بخلال عشر سنوات قبل وصولي إليها. توضع الوافدون من الأرياف على تلال المدينة واستولوا على المناطق الخالية ليبنوا عليها أكواخهم وملاجئهم، التي أصبحت بيوتا في نهاية المطاف، تماما مثلما كان يحدث في القرى عبر المساعدة المتبادلة بين الجيران والأقارب. في أسواق الأرصفة في سان باولو، تحت ناطحات السحاب الحديثة، تبتاع جماهير الوافدين من أرياف المناطق الشمالية الشرقية المتخلفة القمصان وبنطلونات "الجينز" بالتقسيط، إضافة إلى دواوين الشعر الغنائي الرخيصة التي تمجد عصابات اللصوص وقطاع الطرق في مناطقهم. لازلت أملك النسخ التي اشتريتها آنئذ. في ليما، عاصمة البيرو، كانت هناك محطات إذاعية تبث باللغة الهندية ـ في ساعات الصباح الباكر حيث البيض ما يزالون في أسرتهم ـ إلى المهاجرين الهنود القادمين من الجبال، والذين زاد عددهم الآن ليشكلوا سوقا رائجة على الرغم من فقرهم المدقع. أخذني الكاتب الكبير المتخصص بالفلكلور والتراث الهندي، خوسيه ماريا ارغويداس، إلى أحد المسارح الموسيقية هناك، حيث يأتي سكان الجبال صباح كل يوم أحد ليستمعوا إلى الأغنيات والدعابات الشائعة في مناطقهم. في عام ١٩٦٢، بدا لي من المستحيل أن أشرف ـ بعد ثلاثين عاما ـ على رسالة الدكتوراه لابن واحد منهم في "نيوسكول" بمدينة نيويورك. كانت تجربة استثنائية وغريبة أن أعيش مع أول

جيل في التاريخ المكتوب يصبح فيه فتى فقير مع زوجته الأمية من قرية تتحدث اللغة الهندية في جبال الأنديز، سائقا نقابيا في مستشفى من خلال التقاط مهارات قيادة الشاحنات وبالتالي فتح المجال الواسع للعالم الحديث أمام أطفاله. ما زلت أحتفظ برسالته الطويلة التي كتبها عمدا بخط اليد وباللغة الإسبانية الأدبية (القشتالية). وبالرغم من أن حياته صعبة تبعا لمعاييرنا، إلا أنه كان يعتبر في القمة بالنسبة لجماهير الكادحين من الفقراء، والعمال المياومين، وباعة الأرصفة.

السكان الذين قدموا إلى المدينة يمكن رؤيتهم بكل وضوح في الشوارع على أقل تقدير. أما سكان الأرياف الذين بقوا في قراهم فقد كانوا معزولين بصورة مضاعفة بالبعد الجغرافي والاجتماعي عن الطبقات الوسطى، التي انتمى إليها العديد من الثوريين، بمن فيهم شي غيفارا. وحتى هؤلاء الذين ركزوا اهتمامهم على الاتصال الوثيق بهم، وجدوا في اختلاف أساليب الحياة، ناهيك عن معايير المعيشة المتوقعة، عقبة كأداء تحول دون التواصل معهم. وليس هناك سوى قلة قليلة من غير المختصين قد عاشوا فعلا بين الفلاحين، رغم أن العديد من الأشخاص كانت لهم صلات جيدة مع سكان الأرياف، بمن فيهم الباحثون الحاضرون دوما وأبدا ـ كالعادة ـ والذين ينتمون إلى مختلف المنظمات الدولية التابعة للأمم المتحدة.

أبعد الجميع عن معرفة أحوال سكان الأرياف في أمريكا اللاتينية هم أولئك الأجانب الذين استقوا معلوماتهم من اليسار الثقافي المحلي أو الصحافة العالمية. إذ نزع المصدر الأول ـ غالبا ـ إلى خلط الغليان السياسي والآمال "الكاستروية" بالمعلومات الصحيحة، في حين اعتمد الآخر على ما يرد إلى مكاتب كبار المراسلين في العاصمة. ولذلك، حين ذهبت لأول مرة إلى أمريكا الجنوبية، كانت القصة "الفلاحية" الرئيسية، إن كان ثمة واحدة، تدور حول "عصبة الفلاحين" في البرازيل، وهي حركة تأسست عام ١٩٥٥ بقيادة فرنسيسكو جولياو، المحامي والسياسي القادم من الشمال الشرقي، الذي جذب انتباه الصحفيين الأمريكيين في الولايات المتحدة بسبب ما أظهره من تأييد لكاسترو وماو تسي تونغ (قابلته بعد عشر سنين حين أصبح لاجئا حزبيا ومشوشا وهاربا من النظام العسكري البرازيلي، يعيش تحت حماية المنظر الإيديولوجي القادم من وسط أوروبا، إيفان ايليتش، في المكسيك). وبعد بضع ساعات من لقاء مسؤولي

المنظمة في مقرها في ريو أواخر عام ١٩٦٢، تبين لي أن الحركة ليس لها سوى حضور ضئيل على المستوى الوطني، وأنها تجاوزت مرحلة الذروة كما بدا واضحا. من ناحية أخرى، لم تكن الثورتان الفلاحيتان (أو الريفيتان) في أمريكا الجنوبية، اللتان لا يمكن لأي مراقب مفتوح العينين أن يخفق في اكتشافهما خلال بضعة أيام من الوصول إلى هناك ـ موثقتين بصورة فعلية، وفي الحقيقة لم تكونا معروفتين في العالم الخارجي في نهاية عام ١٩٦٢: إحداهما الحركات الفلاحية الكبرى في مناطق البيرو الجبلية والحدودية، والأخرى " حالة انعدام النظام، والحرب الأهلية، والفوضى المحلية" التي سقطت فيها كولومبيا منذ تفجر ما كان سيعتبر في الواقع ثورة اجتماعية محتملة نتيجة الغليان الشعبي العفوي والعنيف الذي أطلق شرارته عام ١٩٤٨ اغتيال المدافع الشهير عن حقوق الجماهير، جورج اليزر غايتان.

ومع ذلك لم تكن هذه الأحداث بعيدة كليا عن أنظار العالم الخارجي على الدوام. فحركة احتلال الأراضي من قبل الفلاحين بلغت ذروتها في كوزكو، حيث يمكن للسياح الذين لم يقرؤوا حتى الصحف المحلية، أن يشاهدوا بأم أعينهم حين يسيرون في الأمسيات الباردة قرب آثار الأنكا في المناطق الجبلية الطوابير الصامتة الممتدة إلى ما لانهاية من الرجال والنساء الهنود خارج مكاتب اتحاد الفلاحين. أما النموذج الأكثر دراماتيكية للثورة الناجحة (في وديان لا كونفنسيون) فيجسده ما حدث في منطقة ماتشو بيكتشو الرائعة التي يعرفها كل السياح الذين يزورون أمريكا الجنوبية حتى في ذلك الحين. وبمجرد رحلة بالقطار لمسافة بضع عشرات الكيلومترات من موقع آثار الأنكا العظيمة إلى نهاية خط السكة الحديدية، ثم بضع ساعات بالشاحنة، يصل المرء إلى عاصمة المقاطعة، كويلا مامبا. كنت من أوائل من وصفها من بين الكتاب الأجانب. فبالنسبة للمؤرخ الذي يحتفظ بعينيه مفتوحتين، خصوصا المؤرخ الاجتماعي، تعتبر حتى هذه الانطباعات الأولية والعابرة تقريبا بمثابة كشف إلهامي مفاجئ، مثل رؤية غرفة الكنوز في متحف الذهب في بوغوتا بالنسبة لابني البالغ ثمانية أعوام حين أخذته إلى هناك بعد عدة سنوات. كيف يمكن للمرء ألا يكتشف هذا الكوكب المجهول لكن المألوف تاريخيا؟ تمت هدايتي بعد أسبوع أو اثنين، بين الأكشاك التي لا تنتهي في أسواق الأرصفة الضخمة في بوليفيا، حيث تجلس فلاحات ايمارا بقبعاتهن المزركشة.

وحين لم أتمكن من الذهاب إلى بوتوسي، أمضيت عيد الميلاد في بار أحد فنادق لاباز مع رجل آخر وحيد مثلي (مؤقتا)، وكان خبيرا فرنسيا من الأمم المتحدة تخصص في التنمية الريفية. شربنا سويا وانفرد هو بحديث طويل لا نهاية له وبحماسة منقطعة النظير، بأسلوب كل من أمضى فترة من الزمن في قرى التيبلانو الباردة وعاد ليفرغ ما في جعبته من تجارب أمام المستمع الوحيد المتوفر والمستعد للإصغاء. كانت سهرة فكرية /ثقافية "كحولية"، رغم أنها افتقدت روح العطلات المرحة.

ليلة رأس السنة الجديدة (١٩٦٣) أمضيتها بعد عيد الميلاد ذاك في بوغوتا. وعلى ما يبدو، لم يكن أحد خارج أمريكا اللاتينية يعلم بوجود دولة اسمها كولومبيا. كان ذلك اكتشافي العظيم الثاني ـ فقد كانت على الورق نموذجا للديمقراطية الدستورية التي تضم حزبين ممثلين فيها، ومنيعة بشكل كامل تقريبا في وجه الانقلابات العسكرية والديكتاتورية من الناحية العملية، لكن بعد عام ١٩٤٨، أصبحت ميدان القتل في أمريكا الجنوبية. إذ بلغت معدلات الجريمة في تلك الفترة مستوى خطيرا تجاوز الخمسين لكل مائة ألف نسمة، وحتى ذلك المعدل بهت مقارنة بحماسة الكولومبيين للقتل عند نهاية القرن العشرين[1]. قصاصات الورق الأسمر التي جمعتها من الصحف المحلية آنئذ ما زالت أمامي الآن وأنا أكتب هذه السطور. فهي التي عرفتني على تعبير "الإبادة الجماعية"، الذي يستخدمه الصحفيون الكولومبيون لوصف المجازر الصغيرة التي تستهدف المزارعين وركاب الحافلات ـ ستة عشر قتيلا هنا، وثمانية عشر هناك وأربعة وعشرون في مكان آخر. من هم القتلة والضحايا؟ "صرح ناطق باسم وزارة الدفاع... بأنه ليس ثمة معلومات واضحة يمكن الحصول عليها حول المتورطين بهذه الجرائم، لأن المقاطعات في تلك المنطقة واقعة في أتون "الحرب المستعرة" بين أنصار الجماعتين السياسيتين التقليديتين، أي الحزبين الليبرالي والمحافظ، اللذين ينتمي إلى أحدهما ـ كما يعرف قراء غارسيا مركيز ـ كل من يولد في كولومبيا تبعا للعائلة والولاء المحلي. موجة الحرب الأهلية التي بدأت عام ١٩٤٨ (وانتهت رسميا منذ أمد بعيد) حصدت أرواح حوالي تسعة عشر ألفا في تلك "السنة الهادئة". لقد مثلت

1- Andres Villaveces, 'A Comparative Statistical Note on Homicide Rates in Colombia' in Charles Bergquist, Ricardo Penaranda and Gonzalo Sanchez G. (eds), Violence in Colombia 1990-2000: Waging War and Negotiating Peace (Wilmington, Delaware, 2001), pp. 275-80.

كولومبيا، وما زالت تمثل، الدليل الذي يثبت أن عملية الإصلاح التدريجي ضمن إطار الديمقراطية الليبرالية، ليست البديل الوحيد، ولا حتى المعقول، للثورات الاجتماعية والسياسية، بما فيها تلك التي أخفقت أو أجهضت. اكتشفت بلدا أدى فيه الفشل في تفجير الثورة الاجتماعية إلى اندلاع حوادث العنف بشكل متواصل وشمولي اخترق جوهر الحياة العامة.

لم يتضح بصورة دقيقة سبب تفجر الحرب الأهلية في كولومبيا، رغم أن الحظ ساعدني في الوصول إلى هناك عندما ظهرت أول دراسة رئيسية حولها. وأنا أدين لواحد ممن أجرى هذه الدراسة، صديقي العالم الاجتماعي اورلاندو فالس بوردا، بمعرفتي الأولية عن مشكلات كولومبيا[1]. ولربما ركزت جل اهتمامي آنئذ على حقيقة أن أكبر الباحثين في موضوع الحرب الأهلية كان أسقفا (مونسنيورا) كاثوليكيا، وأن بعض الأبحاث الرائدة حول نتائجها قد أصدرها كاهن شاب وسيم من إحدى طوائف البلاد، "حارق قلوب العذارى" في الدولة الأوليغاركية كما قيل، الأب كاميلو توريس. ولم يكن من قبيل الصدفة أن يعقد بعد بضع سنوات مؤتمر أساقفة أمريكا اللاتينية الذي أطلق فكرة "لاهوت التحرير" الراديكالية اجتماعيا، في مدينة مدلين الكولومبية الواقعة على التلال، التي كانت شهرتها ما تزال تقتصر على صناعة النسيج وليس المخدرات. كانت لي عدة لقاءات مع كاميلو، وأخذت حججه على محمل الجد (كما تبين ملاحظاتي التي كتبتها حينذاك)، لكنه ما يزال بعيدا جدا عن الراديكالية الاجتماعية، التي دفعته بعد ثلاث سنوات إلى الانضمام إلى رجال حرب العصابات التابعين لجيش التحرير الوطني، الذي ما يزال يمارس نشاطه حتى الآن.

في خضم الحرب الأهلية، شكل الحزب الشيوعي مناطق "الدفاع الذاتي المسلح"، أو "جمهوريات مستقلة"، كملاجئ تحمي الفلاحين الذين أرادوا (أو اضطروا إلى) الابتعاد عن طريق الحزب المحافظ، أو عن عصابات القتل الليبرالية. في نهاية المطاف أصبحت هذه الملاجئ قواعد لحركة رجال العصابات المرعبة "القوات المسلحة للثورة الكولومبية". أما أشهر المناطق المحررة على هذا النمط، فكانت على مرمى حجر من

1- Monsignor G. Guzman, Orlando Fals Borda and E. Umana Luna, La Violencia en Colombia 2 vols (Bogota, 1962, 1964).

بوغوتا، لكن نظرا للطبيعة الجبلية لكولومبيا، تعتبر المسافة طويلة وصعبة ولا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الأحصنة والبغال. فيوتا، وهي مقاطعة مشهورة بمزارع البن، صادرها الفلاحون خلال حقبة الإصلاح الزراعي في الثلاثينات، وانسحب منها ملاك الأراضي، لم تكن بحاجة للقتال على الإطلاق. وحتى الجنود تفادوا الاقتراب منها، بينما تدار كافة شؤونها تحت أنظار أحد الكوادر السياسية التي أرسلها الحزب إلى هناك، وكان هذا عاملا سابقا في أحد مصانع البيرة، تمكن من بيع محصولها من البن في السوق العالمية عبر التجار العاديين. أما جبال سومباز، وهي منطقة حدودية مخصصة للرجال والنساء الأحرار، فكانت تحت حكم زعيم ريفي محلي، وهو واحد من القلة الموهوبة من الفلاحين الذين نجوا من المصير الذي حدده الشاعر توماس غراي في مرثاته الشهيرة، " ميلتون الصامت المغمور.. كروميل الذي لا يتحمل ذنب الدماء التي سالت في وطنه"، لأن خوان ديلا كروز فاريلا كان أبعد ما يكون عن الصمت أو الاستكانة المسالمة. وفي مسار حياته المتنوعة كزعيم لسومباز، برز كليبرالي، وأحد أتباع جورج اليزر غايتان، وشيوعي، ورئيس لحركة الإصلاح الزراعي والليبرالية الثورية التي أسسها، لكنه ظل متمسكا بقوة بموقفه المؤيد للجماهير الشعبية. اكتشف مواهبه واحد من أولئك المدرسين الذين يحققون إنجازات مدهشة في القرى، والذين يعتبرون من العوامل الفاعلة التي أدت إلى تحرير وانعتاق معظم البشر في القرنين التاسع عشر والعشرين، ليصبح قارئا نهما ومفكرا عمليا. حصل على تعليمه السياسي من رواية فيكتور هوغو "البؤساء" التي كان يحملها معه أينما ذهب، حيث علّم المقاطع التي اعتبرها معارضة له على نحو خاص أو للوضع السياسي في تلك المرحلة. أما صديقتي روسيو لوندونيو، التي كتبت سيرة حياته خلال فترة إجراء أبحاثها العلمية في كلية بيركبيك، فقد ورثت نسخته من الكتاب مع بقية أوراقه. وتبين أنه عرف الماركسية في فترة متأخرة عن طريق كتابات رجل دين إنكليزي (نسيه الناس الآن) كان متحمسا للاتحاد السوفييتي، الراحل هيوليت جونسون، كاهن كانتربيري (يخلط الأجانب حتما بينه وبين الأسقف)، التي اعتمد فيها على الشيوعيين الكولومبيين، بعد أن اجتذبه إيمانهم بثورة الإصلاح الزراعي. لقد حاز فاريلا على القبول منذ مدة طويلة كشخصية تتمتع بالقوة والنفوذ، حيث ظلت منطقته على الدوام خارج سلطة القوات الحكومية،

ومثلها في الكونغرس. بقيت سومباز مستقلة عن العاصمة حتى بعد وفاته، حيث نظمت خيالته المسلحة عرضا عسكريا تكريما له، وذلك تبعا لروسيو التي حضرت جنازته. كما ستجرى أولى المفاوضات للتوصل إلى هدنة بين الحكومة الكولومبية والقوات المسلحة للثورة الكولومبية في المناطق الداخلية لمقاطعته.

حين وصلت إلى كولومبيا للمرة الأولى، لم تكن "القوات المسلحة للثورة الكولومبية" (التي ستصبح أكثر حركات حرب العصابات ترويعا وإرهابا في أمريكا اللاتينية وأطولها بقاء) قد تأسست بعد، رغم أن زعيمها العسكري منذ زمن طويل، بيدرو أنطونيو مارين ("مانويل مارولاندا")، ذا الأصول الريفية أيضا، كان ناشطا في الجبال القريبة من معقل ثورة الإصلاح الزراعي الشيوعية والدفاع الذاتي في توليما الجنوبية [1]. ولم تولد الحركة إلا حين قامت الحكومة الكولومبية، التي جربت الأساليب التقنية الجديدة المضادة لحرب العصابات التي ابتدعها الخبراء العسكريون الأمريكيون ضد الشيوعيين، بطرد المقاتلين من معقلهم في ماركويتاليا. بعد عدة سنوات (في منتصف الثمانينات)، سوف أمضي بضعة أيام في مركز انطلاق نشاط رجال حرب العصابات الشيوعيين في بلدة تشابارال المشهورة بزراعة البن، في منزل صديقي بيير غيلهوديس، المتزوج من امرأة ريفية تنتمي إلى المنطقة. "القوات المسلحة للثورة الكولومبية"، التي تعاظمت قوتها، كانت ما تزال في الجبال فوق البلدة، التي أصبح من السهل الوصول إليها الآن بالسيارة من بوغوتا، واتصلت بالعالم الخارجي وازدهرت بما يكفي لتبيع مجلة "فوغ" في أكشاك الصحف في الساحة الرئيسية. ما زالت الدروب التي حفرتها البغال والبشر تؤدي إلى الجبال عبر المنحدرات الشاهقة. العزلة والهدوء يخيمان على المشهد، وليس من المفاجئ أن يشكل التحفظ والتكتم القاعدة الذهبية. كان المزارعون في تشابارال على وشك اكتشاف الإمكانيات الكبيرة لزراعة الخشخاش، لكنهم لم يبدؤوا بذلك بعد حسب ظني.

كانت كولومبيا، كما كتبت بعد عودتي، تختبر "أعظم تعبئة للفلاحين المسلحين (من رجال حرب العصابات، أو قطاع الطرق، أو المجموعات التي تتولى مهمة الدفاع

1- Eduardo Pizarro Leongomez, La FARC (1949-1966): De la Autodefensa a la Combinacion de Todas las Formas de Lucha (Bogota, 1991), p. 57.

الذاتي) في التاريخ المعاصر لنصف الكرة الغربي، وذلك باستثناء بعض الفترات التي شهدتها الثورة المكسيكية" [1]. ومن الغريب أن هذه الحقيقة لم يلاحظها ـ أو قلل من شأنها ـ اليسار المتطرف المعاصر داخل وخارج أمريكا الجنوبية (كل المحاولات للقيام بثورات حرب العصابات على نموذج غيفارا قد فشلت فشلا ذريعا) على أساس ظاهري مزعوم يربطها بالحزب الشيوعي المتزمت، لكن السبب يعود في الواقع إلى أن أولئك الذين ألهمتهم الثورة الكوبية ما فهموا، ولا أرادوا فهم، ما الذي يدفع فعلا فلاحي أمريكا اللاتينية لحمل السلاح.

III

لم يكن من الصعب أن أصبح خبيرا بشؤون أمريكا اللاتينية في البدايات المبكرة من الستينات. فقد أثار انتصار فيدل كاسترو اهتماما هائلا بالمنطقة، التي كان من النادر أن تغطي أخبارها الصحافة أو تدرسها الجامعات خارج الولايات المتحدة. لم أكن أنوي أن أركز اهتماما خاصا على المنطقة، رغم أنني وجدت نفسي أحاضر وأكتب عنها في الستينات وأوائل السبعينات في مجلة "نيويورك ريفيو أوف بوكس" وغيرها، مضيفا ملاحق حول الحركة الفلاحية البيروفية والحرب الأهلية الكولومبية إلى الطبعة الاسبانية (الأولى) من "الثوار البدائيون". وفي عام ١٩٧١، أمضيت إجازة "عائلية" وأنا أجري دراسة بحثية أكثر جدية حول الفلاحين في المكسيك والبيرو. تابعت الذهاب إلى هناك عدة مرات في كل عقد، على الأخص إلى البيرو، والمكسيك، وكولومبيا، علاوة على تشيلي، قبل وخلال فترة حكم الليندي وبعد نهاية حقبة بينوشيه. وبالطبع لم أحاول حتى مقاومة المناظر الدرامية والملونة والساحرة في الأجزاء الأخرى الأكثر فتنة في القارة، حتى وإن شملت أشد المناطق البيئية قسوة وعداء للبشر في الكرة الأرضية ـ النجود الواسعة العالية قرب قمم جبال الانديز فوق تخوم الأراضي الصالحة للزراعة، المناطق شبه الصحراوية التي تنتشر فيها نباتات الصبار في شمال المكسيك، وأسوأ المدن الضخمة من حيث صلاحيتها لسكنى البشر في العالم، مثل مدينة المكسيك وسان باولو. على مر السنين، اكتسبت صداقة العديد من الأشخاص مثل آل غاسباريان في

1- E. J. Hobsbawm, Rebeldes Primitivos (Barcelona, 1968), p. 226.

البرازيل، وبابلو ما سيرا في البيرو، وكارلوس فوينتس في المكسيك، إضافة إلى الطلاب والزملاء الذين أصبحوا أصدقاء. باختصار، تحول اهتمامي بشكل دائم إلى أمريكا اللاتينية.

ومع ذلك، لم أحاول أبدا أن أصبح أو أرى نفسي متخصصا في شؤون أمريكا اللاتينية. وعلى شاكلة العالم البيولوجي داروين، لم يكن الكشف المفاجئ عن أمريكا اللاتينية بالنسبة لي كمؤرخ إقليميا بل عاما. فقد كانت مختبرا للتحول التاريخي، يختلف في أغلب الأحيان عن المتوقع، قارة صممت لتقويض الحقائق التقليدية، منطقة يحدث فيها الارتقاء التاريخي بسرعة الصاروخ، ويمكن ملاحظته فعلا ضمن فسحة (نصف) حياة أي شخص: من قطع أشجار الغابات للزراعة والرعي إلى تدمير المجتمعات الريفية، ومن ارتفاع وهبوط محاصيل التصدير إلى أسواق العالم إلى تفجر المدن الضخمة مثل سان باولو، حيث يمكن للمرء أن يجد خليطا من السكان المهاجرين يتفوق في تعدديته حتى على نيويورك: يابانيون (وآخرون من اوكيناوا)، نيجيريون، سوريون، محللون نفسيون أرجنتينيون، مطاعم كتب عليها بفخر: "مشاوي تقليدية من شمال كوريا". كانت مكانا بلغ ضعف حجم مدينة المكسيك في عشر سنين، وحول منظر الشارع في كوزكو من ذلك الذي هيمن عليه الهنود بأزيائهم التقليدية إلى مواطنين يرتدون الملابس الحديثة.

لقد غيرت منظوري إلى تاريخ بقية العالم بشكل يتعذر اجتنابه، حتى لو اقتصر السبب على تلاشي الحدود الفاصلة بين العالمين "المتقدم" و"الثالث"، وبين الحاضر والماضي التاريخي. ومثلما هي الحال في رواية غارسيا مركيز "مائة عام من العزلة"، حيث كل من يعرف كولومبيا يقر بوجود الخيالي/السحري والحقيقي/ الواقعي جنبا إلى جنب، فهي تدفع المرء إلى عقلنة ما هو غير قابل للتصديق عند الوهلة الأولى، وتوفر ما لا يمكن للتأملات "المناقضة للواقعي" أن توفره، أي سلسلة حقيقية من النتائج البديلة للأوضاع والحالات التاريخية: الزعماء اليمينيون الذين أصبحوا مصدر إلهام للحركات العمالية (الأرجنتين، البرازيل)، المنظرون الأيديولوجيون الفاشيون الذين انضموا إلى نقابة عمال المناجم اليسارية لصنع ثورة أعطت الأرض للفلاحين (بوليفيا)، الدولة الوحيدة على ظهر الأرض التي ألغت جيشها فعليا (كوستاريكا)، دولة الحزب

الواحد المشهورة بالفساد والتي يجند فيها الحزب الدستوري للثورة معظم أعضائه بشكل منهجي من بين أشد طلاب الجامعات ثورية (المكسيك). أمريكا اللاتينية هي المنطقة التي يمكن فيها للجيل الأول من المهاجرين من العالم الثالث أن يصلوا إلى سدة الرئاسة، وحيث العرب أكثر نجاحا من اليهود.

ما جعل هذه القارة الغريبة أسهل منالا وأكثر جاذبية بالنسبة للأوروبيين هو ذلك الجو المفاجئ من الألفة (مثل نبات الفريز البري الذي يمكن العثور عليه على الطريق خلف ماتشو بيكتشو). ولم يقتصر الأمر على أن أي شخص في مثل عمري عرف منطقة البحر المتوسط يمكن أن يميز السكان القاطنين في الأراضي القائمة اللانهائية حول مصب "رفر بليت" باعتبارهم من الطليان الذين عاشوا لمدة جيلين أو ثلاثة على لحم العجل، وعرف من أوروبا القيم الذكورية السائدة بين سكان أمريكا الجنوبية المتحدرين من أصول أوروبية من شرف، وعار، وشجاعة، ووفاء للأصدقاء، إضافة إلى المجتمعات الأوليغاركية. (لم يتم التخلي عن التمايز الاجتماعي الأساسي، الذي صيغ بكل وضوح في رواية غراهام غرين "رجلنا في هافانا"، حتى اندلاع المعارك - على الأقل في عدد من دول أمريكا اللاتينية - بين النخب الثورية الشابة والحكومات العسكرية في السبعينات، أي التمايز بين الطبقة الدنيا والطبقة العليا). بالنسبة للأوروبيين، كانت هذه الملامح والجوانب المميزة للقارة النائية والبعيدة عن تجربتنا متأصلة في/وممتزجة مع المؤسسات المألوفة للمؤرخين، مثل الكنيسة الكاثوليكية، أو النظام الاستعماري الإسباني، أو أيديولوجيات القرن التاسع عشر مثل الاشتراكية الطوباوية و"دين الإنسانية" كما بشر به اوغست كونت. وهذا يؤكد نوعا ما، بل حتى يسرح، خصوصية تحولهم إلى أمريكيين لاتينيين، إضافة إلى ما يشتركون به من عوامل مع أجزاء العالم الأخرى. كانت أمريكا اللاتينية حلما للمؤرخين العاملين في ميدان التاريخ المقارن.

حين اكتشفت القارة للمرة الأولى، كانت على وشك الدخول في أحلك مراحل تاريخها في القرن العشرين، حقبة الديكتاتورية العسكرية، ودولة الإرهاب والتعذيب. في السبعينات، سيطر النظام الديكتاتوري القمعي على أمريكا اللاتينية أكثر من هيمنته على أي مكان آخر من "العالم الحر" منذ احتلال هتلر لأوروبا. فقد استولى

الجنرالات على السلطة في البرازيل عام ١٩٦٤، وفي منتصف السبعينات حكم العسكر كافة دول أمريكا الجنوبية، باستثناء تلك المطلة على البحر الكاريبي. وابتعدت جمهوريات أمريكا الوسطى عن الديمقراطية نتيجة مؤامرات المخابرات المركزية الأمريكية والتهديد الأمريكي بالتدخل أو التدخل الفعلي منذ الخمسينات. وتركز شتات اللاجئين السياسيين من دول أمريكا اللاتينية في بضع دول في نصف العالم الغربي وفرت الملاذ لهم (المكسيك، وتشيلي حتى عام ١٩٧٣)، وتفرقوا عبر أمريكا الشمالية وأوروبا: البرازيليون إلى فرنسا وبريطانيا؛ والأرجنتينيون إلى إسبانيا؛ والتشيليون في كل مكان (بالرغم من أن العديد من مثقفي أمريكا اللاتينية استمروا في زيارة كوبا، إلا أن قلة قليلة منهم اختارتها فعلا كمنفى). في الجوهر، كانت "حقبة الغوريلات" (حسب التعبير الأرجنتيني) نتاج مواجهة ثلاثية الأبعاد. فالسلطات الأوليغاركية المحلية لم تعرف ماذا تفعل بالطبقات الدنيا التي تزداد حشدا وتعبئة باطراد في المدن والأرياف، والسياسيين والراديكاليين الشعبيين الذين نجحوا نجاحا واضحا في اجتذاب أفرادها. في حين ظن اليساريون الشباب من الطبقة الوسطى، الذين ألهمهم مثال فيدل كاسترو، أن القارة قد انضمت للثورة التي تفجرها حروب العصابات المسلحة. كما أن خوف واشنطن الاستحواذي من الشيوعية، الذي أكدته الثورة الكوبية، قد تكثف وتفاقم بسبب النكسات التي أصابت الولايات المتحدة في السبعينات: الهزيمة في فيتنام، أزمات النفط، الثورات الأفريقية التي تحولت باتجاه الاتحاد السوفييتي.

وجدت نفسي منخرطا في هذه القضايا باعتباري زائرا ماركسيا بين الحين والآخر للقارة، ومتعاطفا مع ثوارها - فبرغم كل شيء، وعلى العكس من أوروبا، كانت الثورة ضرورة واحتمالا ممكنا - لكني انتقدت يسارها المتطرف. لقد وجدت نفسي، وأنا أنتقد بشدة أحلام حرب العصابات التي تلهمها الثورة الكوبية بين عامي ١٩٦٠- ١٩٦٧[1]، أدافع عن أفضل ثاني خيار، ضد انتقاد الثورات الطلابية. وكما كتبت في ذلك الوقت:

1- E, J. Hobsbawm, 'Guerrillas in Latin America' in J. Saville and R. Miliband (eds), The Socialist Register, 1970, pp. 51-63; E. J. Hobsbawm 'Guerrillas' in Colin Harding and Christopher Roper (eds), Latin American Review of Books I (London, 1973), pp. 79-88.

تاريخ أمريكا اللاتينية متخم بالبدائل لليسار الثوري الاجتماعي بكل ما يملكه من أصالة وشعبية، والذي نادرا ما امتلك القوة الكافية لتحديد شكل التاريخ في بلاده. إن تاريخ اليسار في أمريكا اللاتينية، فيما عدا استثناءات نادرة.. هو الاختيار بين النقاء الطائفي غير الفاعل و بذل أقصى الجهد تحت ظروف غير ملائمة للانضمام إلى الزعماء الشعبيين أو العسكريين، أو البرجوازيين الوطنيين، أو سواهم. وهو أيضا، في أغلب الحالات، تاريخ اليسار النادم على فشله في التفاهم مع مثل هذه الحكومات والحركات قبل أن تستبدل بما هو أسوأ.

كنت أفكر بزمرة العسكريين الإصلاحيين بزعامة الجنرال فيلاسكو الفارادو في البيرو (١٩٦٩ـ ١٩٧٦) الذي أعلن قيام "الثورة البيروفية" التي تعاطفت معها وارتبت منها في آن [1]. فقد أممت المزارع الضخمة في البلاد، وكان النظام أول نظام حكم يعترف بسكان جبال الانديز من ذوي الأصول الهندية، الذين تدفقوا منها إلى المدن والسواحل، باعتبارهم مواطنين بيروفيين. في حين فشل الجميع في القيام بهذه الخطوة في ذلك البلد الفقير والبائس الذي يثير الشفقة، بمن فيهم الفلاحون أنفسهم الذين حفرت حركتهم الجماعية لاحتلال الأراضي الزراعية (١٩٥٨ـ ١٩٦٣) قبر السلطة الأوليغاركية لملاك الأراضي. لكنهم لم يعرفوا كيف يدفنونهم. ولجأ الجنرالات إلى الفعل لأن الجميع لم يرغبوا/ أو يقدروا على التصرف (أجد لزاما علي القول إنهم فشلوا هم أيضا، رغم أن خلفاءهم كانوا أشد سوءا).

لم تكن تلك ملاحظة تحظى بالشعبية، داخل أو خارج أمريكا اللاتينية، في وقت ما زال فيه حيا حلم غيفارا الانتحاري بتفجير الثورة بواسطة عمل مجموعات صغيرة في المناطق والأدغال المدارية. ولربما يفسر ذلك السبب الذي جعل محاضرتي أمام طلاب جامعة سان ماركوس في ليما ـ "ليما المرعبة" كما يصفها الشاعر ـ لا تنال القبول أبدا. لأن الماوية، في واحدة أو أخرى من صيغها العديدة، كانت أيديولوجية أبناء وبنات الطبقة الوسطى الجديدة من المهاجرين من الجبال (ذوي الأصول الهندية ـ الإسبانية)، على الأقل حتى تخرجهم. وعقيدتهم الماوية، مثل الخدمة العسكرية بالنسبة للفلاحين،

١- انظر مقالتيَ :

What's New in Peru' and 'Peru: The Peculiar "Revolution"' in New York Review of Books, 22 May 1970' and 16 December 1971.

والسنة الفاصلة بين المدرسة الثانوية والجامعة بالنسبة للطلاب الأوروبيين، تمثل المَرحلة الاجتماعية الحاسمة في حياتهم.

لكن هل كان ثمة أمل في تشيلي، البلد الذي يملك أقوى حزب شيوعي، والذي تجمعني به صلات شخصية وسياسية؟ في الحقيقة، كان لعمي بيرك (ايك أو دون ايسيدرو)، وهو خبير في التعدين مقيم في تشيلي منذ الحرب العالمية الأولى، ومؤسس - مع زوجته - أكبر فرع للعائلة يحمل اسم هوبزبوم، صلات جمعته مع الجمهورية الاشتراكية التشيلية (التي لم تعمر طويلا) عام ١٩٣٢، بزعامة الكولونيل مارمادوك غروف. وبعد ذلك، ومن خلال كلاوديو فاليز، المقيم آنئذ في تشاتهام هاوس في لندن، الذي قدم لي معظم المعلومات الأصلية عن القارة، اجتمعت بسيدة ذكية وجميلة عرفتها على كامبريدج، هي زوجة الاشتراكي التشيلي الشهير، هورتنسيا اللندي. عند زيارتي الأولى إلى سنتياغو دعيت إلى الغداء في منزل اللندي، وتوصلت إلى نتيجة مفادها أن زوجها الذي يفتقد التألق، سلفادور، هو الأقل تأثيرا بين الزوجين. لكن تبين لي فيما بعد أن تلك النتيجة تقلل من قدر ومكانة وديمقراطية الرجل الشجاع والجدير بالاحترام الذي مات وهو يدافع عن مركزه وسلطته. بعض الناس يتذكرون أين كانوا حين اغتيل الرئيس كيندي - أنا أتذكر حين فوجئت بسماع الأخبار من الراديو عن مقتل الرئيس الليندي - كنت أحضر مؤتمرا دوليا حول تاريخ الحركة العمالية في قاعة مطلة على لينز والدانوب. آخر مرة زرت فيها تشيلي كانت في عام ١٩٧١، خلال رحلة جانبية من البيرو لأكتب مشاهداتي حول السنة الأولى من عمر أول حكومة اشتراكية تنتخب ديمقراطيا، الأمر الذي فاجأ الجميع، بمن فيهم الليندي نفسه [١]. لكن، وبالرغم من رغبتي الحماسية في نجاحها، لم أتمكن من إخفاء حقيقة أن الأمور لا تسير في صالحها. وبغض النظر عن تعاطفي معها حددت احتمال نجاحها بنسبة واحد إلى اثنين. لم أقم بزيارة تشيلي مرة أخرى حتى عام ١٩٩٨، حين شاركت تينشا الليندي وغيرها من الأصدقاء والرفاق مشاهدة تلفزيون سنتياغو خلال اللحظة المدهشة التي أعلن فيها القضاة الإنكليز حكمهم ضد الديكتاتور التشيلي السابق الجنرال بينوشيه، الأمر الذي آذن بافتتاح عهد تاريخي جديد. لم أشارك أقربائي التشيليين هذه الفرحة، حيث كانوا - على الأقل أولئك الذين استمروا في الإقامة في سنتياغو - من مؤيدي نظامه.

1- E. J. Hobsbawm, 'Chile: Year one' in New York Review of Books, 23 September 1971.

غدا الجدل حول اليسار في أمريكا اللاتينية أكاديميا في السبعينات، وذلك مع انتصار حكومات الإرهاب والتعذيب، بل غالى في ملامحه الأكاديمية في الثمانينات مع حقبة الحرب الأهلية المدعومة من الولايات المتحدة في أمريكا الوسطى، وتراجع حكم العسكر في أمريكا الجنوبية، ثم افتقد الواقعية تماما مع تدهور أحوال الأحزاب الشيوعية ونهاية الاتحاد السوفييتي. ولربما تمثل حركة "الدرب المضيء" المحاولة المهمة الوحيدة لاستخدام أسلوب حرب العصابات المسلحة القديم في تفجير الثورة. والحركة من بنات أفكار محاضر ماوي متطرف في جامعة اياكوتشو، الذي لم يكن قد التجأ إلى السلاح بعد حين زرت تلك المدينة في أواخر السبعينات. فهي تظهر ما فشل الحالمون الكوبيون فشلا ذريعا في إظهاره في الستينات، أي الإمكانية المتاحة أمام السياسة المسلحة الجادة في الأرياف البيروفية، لكنها تبين أيضا ـ على الأقل بالنسبة للبعض منا ـ أنها قضية لا يمكن أن تنجح. في الحقيقة، قمعت من قبل الجيش بالأسلوب الوحشي المعتاد، بمساعدة أولئك الفلاحين الذين عاداهم السينديريستا (أتباع حركة الدرب المضيء).

لكن أكثر حركات حرب العصابات الريفية ترويعا وديمومة وصمودا هي "القوات المسلحة للثورة الكولومبية"، التي ازدهرت ونمت، رغم أن عليها في ذلك البلد المضرج بالدماء ألا تقاتل القوات الحكومية فقط بل العصابات المسلحة لتجارة المخدرات وقادة "القوات شبه العسكرية" الهمجية أيضا. الرئيس بيليساريو بيتانكور (١٩٨٢ـ ١٩٨٦)، وهو مفكر محافظ متحضر اجتماعي النزعة ولا يخضع لنفوذ الولايات المتحدة (على الأقل من الانطباع الذي خلفه الحديث الذي دار بيننا)، ابتدأ سياسة التفاوض مع رجال حرب العصابات لإحلال السلام، التي استمرت حتى الآن بين فترة وأخرى. كانت نواياه حسنة، ونجح في تهدئة واحدة من حركات حرب العصابات، المسماة "م ١٩"، التي يفضلها المثقفون. (في فترة من الفترات، كان كل حزب في بوغوتا يضم على الأرجح واحدا أو اثنين من المهنيين الشباب الذين أمضوا موسما في التلال مع إحدى هذه الحركات). في الحقيقة، كانت "القوات المسلحة للثورة الكولومبية" نفسها مستعدة لممارسة اللعبة الدستورية من خلال تأسيس "الاتحاد الوطني" الذي قصد منه العمل كذاك الحزب الانتخابي لليسار الذي لم يتمكن قط من البروز في الفضاء

الفاصل بين الليبراليين والمحافظين. لم تحقق "القوات" نجاحا يذكر في المدن الكبرى، وبعد أن قام حوالي ألفين وخمسمائة من كوادرها العاملين كرؤساء بلديات، ومستشارين، وناشطين، بالتخلي عن أسلحتهم، ثم تعرضوا للقتل في الأرياف، أحجمت عن مبادلة البندقية بصندوق الاقتراع. استضفت أحد نشطائها المقاتلين وهو ذاهب إلى/أو عائد من أحد المؤتمرات الدولية، في مقصف كلية بيركبيك، بعيدا عن تخوم مزارع الموز، والمعارك بين "القوات" ورجال حرب العصابات الماويين، والقوات المحلية شبه العسكرية في اورابا قرب قناة بنما، حيث يمارس سياسته القانونية. وبعد فترة سألت الأصدقاء عن أخباره، فقالوا إنه مات.

IV

ما الذي حدث لأمريكا اللاتينية منذ أن نزلت في أحد مطاراتها لأول مرة منذ حوالي أربعين عاما؟ الثورة المنتظرة، والضرورية في العديد من دولها، لم تحدث، بل كبتتها العسكرتاريا المحلية والولايات المتحدة الأمريكية، دون أن ننسى حالة الضعف الداخلي، والانقسام، والعجز. ولن تحدث الآن. كما لم تتمكن أية تجربة من التجارب السياسية التي راقبتها عن قرب أو بعد منذ الثورة الكوبية أن تحدث أي اختلاف دائم وظاهر في الأوضاع.

لكن هناك تجربتين فقط بدا وكأنهما قادرتان على ذلك، إلا أن كلا منهما حديثة العهد إلى درجة يعتبر من المبكر الحكم عليها. الأولى، التي يجب أن تدخل الدفء إلى صميم قلوب كل الشيوعيين القدامى، يمثلها حزب العمال في البرازيل، الذي شهد تقدما كبيرا على المستوى الوطني منذ تأسيسه عام ١٩٨٠. زعيم الحزب ومرشحه للرئاسة "لولا" (لويس ايناسيو داسيلفا) هو على الأرجح العامل الصناعي الوحيد الذي يرأس أي حزب عمالي في العالم. ويعتبر الحزب نموذجا حديثا للأحزاب والحركات العمالية الكلاسيكية بكل ما يميزها من نزعة اشتراكية وجماهيرية، تماما كما انبثقت في أوروبا قبل عام ١٩١٤. ولا أزال أحمل شعاره في "حمالة" مفاتيحي ليذكرني بتعاطفي القديم والراهن، ويسترجع أيامي الخوالي مع الحزب ومع "لولا"، والذكريات المؤثرة والمثيرة، وقصص أنشطة الحزب على مستوى القاعدة الشعبية في مصانع

السيارات في سان باولو، والمناطق الداخلية النائية. وكتعبير عن الإعجاب بالتحمس للثقافة والتعليم والديمقراطية الذي أبدته مدينة الحزب، بورتو اليغري (ريوغراندي ديل سول)، المزدهرة، المناهضة للعولمة، نظم مجلسها برئاسة المحافظ جلسة حوار في الهواء الطلق للمواطنين مع مؤرخ بريطاني زائر في ساحتها الرئيسية، وسط ضوضاء عربات ترام البلدية النظيفة والمنظمة.

الحدث الآخر الأكثر درامية كان نهاية احتكار الحزب الثوري الدستوري للحكم مدة سبعين سنة في المكسيك عام ٢٠٠٠. لكن للأسف فإن المرء يشكك باحتمال أن يؤدي ذلك إلى وجود بديل سياسي أفضل مقارنة بما أحدثته ثورة المقترعين الطليان واليابانيين في أوائل التسعينات ضد الأنظمة الجامدة للحرب الباردة في كلا البلدين.

وهكذا، ظلت السياسات المتبعة في أمريكا اللاتينية كما كانت عليه منذ أمد طويل، والأمر نفسه ينطبق على الحياة الثقافية (باستثناء انتشار ثورة التعليم العالي العالمية التي شاركت فيها دولها). على صعيد المشهد الاقتصادي العالمي، لم تلعب أمريكا اللاتينية سوى دور ضئيل، وذلك على الرغم من عدم تأثرها بالأزمات الكبرى التي عصفت بالاقتصاد العالمي خلال العشرين سنة الماضية. من الناحية السياسية، ظلت على نفس البعد عن الرب والقرب من الولايات المتحدة كعهدها أبدا، وبالتالي أقل ميلا من أية منطقة أخرى في العالم إلى الاعتقاد بأن الإعجاب بالولايات المتحدة نابع من "أنها تقدم للعالم الكثير من الخدمات المفيدة" [1]. لقد حاول الصحفيون والأكاديميون طيلة نصف قرن أن يعزوا التحولات العلمانية في القارة إلى الاتجاهات السياسية المؤقتة، لكن المنطقة ظلت على ما كانت عليه في معظم مراحل القرن العشرين، متخمة بالدساتير والقضاة، لكن غير مستقرة في ممارستها السياسية. على الصعيد التاريخي، وجدت حكوماتها الوطنية، وما زالت تجد، أنه من الصعب السيطرة على ما يحدث في أراضيها، وحاول حكامها تجنب منطق الديمقراطية الانتخابية بين سكانها، الذين لا يمكن ضمان أن يصوتوا بالطريقة التي يريدها أفراد النخبة، وذلك من خلال تشكيلة متنوعة من الأساليب، بدءا بالتحكم بهم من خلال الشخصيات المحلية

1- International Herald Tribune and Pew Center Poll of 'opinion leaders', International Herald Tribune, 20 December 2001, p. 6.

النافذة، مرورا بالمحسوبية والفساد والإفساد العام، وديماغوجية "آباء الشعب" بين الحين والآخر، وانتهاء بالحكم العسكري. كافة هذه الأساليب ما زالت متاحة حتى الآن.

ومع ذلك، لاحظت خلال الأربعين سنة الفائتة، مجتمعا يشهد تحولا كليا. لقد تضاعف عدد سكان أمريكا اللاتينية ثلاث مرات. وفقدت القارة ذات المجتمع الزراعي في الجوهر والمساحات الخالية على الأغلب معظم مزارعيها الذين نزحوا إلى المدن الضخمة، أو هاجروا من أمريكا الوسطى إلى الولايات المتحدة، بأعداد لا يمكن مقارنتها إلا بهجرات الايرلنديين والسكندنافيين في القرن التاسع عشر، بل إن بعضهم عبر المحيط، مثل الإكوادوريين الذين يعملون في المناطق الزراعية الأندلسية. كما حلت التحويلات المالية من المهاجرين محل الآمال الكبار بالتحديث، في حين ألغى رخص أسعار السفر بالطائرة والاتصال بالهاتف المركزة الإقليمية. أنماط العيش التي لاحظتها في التسعينات لم يكن أحد يتخيلها في الستينات: سائق تاكسي في نيويورك يعيش نصف حياته في الولايات المتحدة والنصف الآخر في الإكوادور، حيث تدير زوجته مطبعة محلية؛ شاحنات محملة بالمهاجرين المكسيكيين (الشرعيين وغير الشرعيين) تعود بهم من كاليفورنيا أو تكساس لقضاء العطلة في جاليسكو أو أوكساكا؛ لوس أنجلوس تتحول إلى مدينة للسياسيين وزعماء النقابات المهاجرين من أمريكا الوسطى. معظم سكان أمريكا اللاتينية هم من الفقراء، وكانوا في عام ٢٠٠١ أشد فقرا ـ نسبيا ـ من حالهم في أوائل الستينات، حتى وإن تجاهلنا الخراب الذي خلفته الأزمات الاقتصادية خلال العشرين سنة الماضية، إذ لم يقتصر الأمر على تفاقم حالة عدم المساواة في هذه البلاد فقط، بل تراجعت وساء حالها مقارنة بباقي أجزاء العالم. ولربما يحتل الاقتصاد البرازيلي المرتبة الثامنة على مستوى العالم من حيث حجم الناتج القومي الإجمالي، والمكسيك المرتبة السادسة عشر، لكن بالنسبة لدخل الفرد تحتل الدولتان المرتبتين الثانية والخمسين والستين على التوالي. وفيما يتعلق بغياب العدالة الاجتماعية تحتل البرازيل قمة اللائحة. ومع كل ذلك، إذا طلبت من فقراء أمريكا اللاتينية أن يقارنوا حياتهم في بدء الألفية الجديدة بحياة آبائهم، ناهيك عن أجدادهم، فسيقولون على الأرجح: إنها أفضل حالا (باستثناء سكان بعض المناطق القليلة فقط). لكن في بعض البلدان قد يقولون أيضا: إن الحياة أصبحت أكثر خطرا ولا يمكن التنبؤ بما تخبئه الأيام.

ليس المهم أن أتفق أو لا أتفق معهم. فهم برغم كل شيء سكان أمريكا اللاتينية التي ذهبت قبل أربعين عاما لأبحث عنها، وأكتشفها، القارة التي كتب عنها بابلو نيرودا تلك القصيدة المدهشة، قصيدة القصائد، حيث يحمل أحد مقاطعها عنوان: "مرتفعات ماتشوبيكتشو"، ثم تنتهي باستحضار البناة المجهولين لمدينة الأنكا الخضراء الميتة، ليقول الشاعر على لسانها الميت:

خوان الحجار ابن ويراكوتشا،
خوان واهب الطعام ابن النجم الأخضر،
خوان الحافي، حفيد الفيروز.

قيل لي قبل أن أغادر إلى بريطانيا: "إذا أردت أن تفهم أمريكا الجنوبية عليك الذهاب إلى ماتشوبيكتشو وقراءة القصيدة هناك". لم أقابل الشاعر العظيم آنئذ. كان رجلا ممتلئ الجسم لم يحب الجبال كما أحب البحر، حيث ما يزال منزله المدهش مطلا عليه. وحين زار لندن لم يكن لديه سوى رغبة واحدة: أن يبحر في سفينة عند غرينتش. مات نيرودا محطم الفؤاد بعد بضعة أيام من الانقلاب الذي أطاح بسلفادور الليندي. قرأت قصيدته في ماتشوبيكتشو عام ١٩٦٢، فوق إحدى التلال الشاهقة عند المغيب، (من كتاب مطبوع في الأرجنتين اشتريته من مكتبة تشيلية). ولا أعلم إن كانت قد ساعدتني ـ كمؤرخ ـ على فهم أمريكا اللاتينية، لكنني أعلم ما يريد الشاعر قوله، وأعرف الرجال والنساء السمر الذين يمضغون أوراق الكوكا، ويكابدون شظف العيش وقلة الأوكسجين في جبال الانديز، حيث من الأصعب على البشر العيش كبشر مقارنة بأي مكان آخر بين القطبين. حين أفكر بأمريكا اللاتينية، يخطر على بالي هؤلاء، وأقول في نفسي: لا يجب على الشاعر فقط أن يوفيهم حقهم، بل هي مهمة المؤرخ أيضا.

-٢٢-

من روزفلت إلى بوش

I

إذا كان لكل المثقفين من أبناء جيلي وطنان اثنان، وطنهم الأم وفرنسا، فإن كل سكان العالم الغربي، وفي نهاية المطاف كافة سكان المدن في العالم، عاشوا في القرن العشرين - ذهنيا - في وطنين، وطنهم الأصلي والولايات المتحدة. بعد الحرب العالمية الأولى، لم يعد هناك متعلم في الكرة الأرضية يجهل كلمات مثل "هوليود" و"كوكا كولا"؛ كما أن قلة قليلة من الأميين لم يجربوا منتجاتها بطريقة ما. لم تعد أمريكا بحاجة لأن تكتشف: فهي جزء من وجودنا ذاته.

ومع ذلك، فإن معظم ما يعرفه الناس عن أمريكا ليس البلد ذاته، بل مجموعة من الصور الذهنية التي أنتجتها فنونها بالأساس، وحتى بعد الحرب العالمية الثانية، فإن قلة قليلة من الناس خارج الولايات المتحدة قد سافرت إليها فعلا، إلا إذا كانوا من المهاجرين. وبدءا من العشرينات وحتى السبعينات، جعلت حكومة الولايات المتحدة الهجرة أمرا في غاية الصعوبة. أنا شخصيا، لم أضع قدمي على شواطئها حتى عام ١٩٦٠ . كنا نقابل الأمريكيين الشماليين في مكان آخر (غير الولايات المتحدة)، وأعتقد أن اتصالي الحقيقي الأول مع "الطبقة الوسطى المحافظة في أمريكا" (وهو تعبير لم يشتهر بعد) كان حين عقد أعضاء نوادي الروتاري مؤتمرهم الدولي في فيينا عام ١٩٢٨، وباعتباري صبيا متمكنا من اللغتين، جندت للعمل فيه كمترجم. لا أتذكر شيئا عن المؤتمر، باستثناء بهو الفندق الذي ضم مجموعات من الرجال الذين يرتدون قمصانا زاهية الألوان لم يعتد عليها سكان فيينا. أعتقد بأنهم كانوا أطباء من مكان ما من الغرب الأوسط (أرسلوا إلي لاحقا بعض الطوابع البريدية لأضمها إلى

مجموعتي). حيرني الهدف الدقيق من نادي الروتاري، وشعاره الرسمي "الخدمة" بدا لي خاليا من المضمون.

وجدت من الصعب إعادة بناء صورة الولايات المتحدة التي شكلها صبي ناطق بالإنكليزية في القارة قبل الثلاثينات. وكان من الغريب بالنسبة لي ـ وعمي يعمل فعلا مع شركة هوليودية ـ ألا تأتي هذه الصورة من أفلام هوليود. فأفلام "الكابوي" لتوم ماكس التي شاهدناها لم يكن لها تأثير يذكر، نظرا لأنه حتى الأطفال قد بدا لهم واضحا أنها لا تشابه الحياة في أمريكا (وهذا يظهر أننا لم نعرف إلا القليل عن الولايات المتحدة). فالأفلام الهوليودية المنتجة في أمريكا لم يقصد منها أن تدور حول أمريكا، بل حول أماكن خيالية في أحلام مشاهدي السينما. وإذا أتت معرفتنا بالولايات المتحدة من مكان ما، فقد أتت من التقانة والموسيقى: الأولى كفكرة، والثانية كتجربة. لأننا سمعنا بالتقانة بطريق غير مباشر، فمن غير المرجح أن يرى معظمنا خط التجميع في المصانع، لكن عرفنا بأن سيارات فورد تصنع بهذا الأسلوب.

من ناحية أخرى، وصلتنا الفنون بشكل مباشر. فقد كانت أمي وخالاتي يرقصن "الشيمي" (رقصة أمريكية من رقصات الجاز) و"الفوكستروت"، وكنا نستمع للموسيقى الأمريكية المميزة حتى حين تقدمها الفرق والمطربون الإنكليز. وعن طريق الراديو والغراموفون تعرفنا إلى جيروم كيرن وغيرشوين. وكان "الجاز"، كما شاع فهمه آنئذ، (بعد أن جمع الموسيقى الإيقاعية مع السكسفون بدون الأقواس الوترية)، قد اعتبر في العشرينات موسيقى الطبقة الوسطى المدينية التي تسليها في أوقات الراحة. كان "الجاز" يعني أمريكا، ونظرا لما ترمز إليه الولايات المتحدة، كان يعني الحداثة، وشعر النساء القصير، وعصر الآلة. حتى كادر "مدرسة الفنون التطبيقية" (bauhaus) وقف أمام الكاميرا مع آلة السكسافون. وهكذا حين أتيت إلى إنكلترا، وأغرمت بالجاز، عن طريق ابن عمي دينيس، انفتحت أمامي الأبواب لا على تجربة جمالية جديدة وحسب، بل على عالم جديد. وعلى شاكلة اليستار كوك، أحد من سبقوني في تحرير "غرانتا"، الذي كان يبدأ حياته المهنية آنئذ كمعلق على الولايات المتحدة في حلقاته الإذاعية "أسمع أمريكا تغني"، اكتشفت أمريكا أيضا عبر الأذن.

كان "الجاز" وسيلة جيدة ـ مثلها مثل غيرها ـ للتعرف على الولايات المتحدة، لأن

موسيقاه ودلالتها الاجتماعية (وهي عبارة تعود بامتياز إلى الثلاثينيات) كانتا تسيران - في بريطانيا على الأقل - جنبا إلى جنب. فأن تكون من عشاق الجاز لم يكن يدل فقط - ولأسباب واضحة - على أنك مناهض للعنصرية ومؤيد للزنوج (تلك حقبة سبقت رغبتهم بإطلاق اسم السود أو الأمريكيين الأفارقة عليهم)، بل يعني أيضا اقتناص كافة المعلومات حول الولايات المتحدة حتى وإن لم تتصل إلا بعلاقة واهية بالجاز: وما يتعلق من معلومات بالجاز لم يكن قليلا أبدا. وهكذا جمع محبو الجاز حقائق تفصيلية وآسرة لا تنتهي عن الولايات المتحدة، بدءا بأسماء المدن والأنهار والسكك الحديدية (ميلووكي، ميسوري، اتشيسون، توبيكا، سانتافي)، وانتهاء بأسماء رجال العصابات وأعضاء مجلس الشيوخ في الثلاثينات. يمكن للمرء أن يشتهر بمجرد "معرفة الحقائق" عن الولايات المتحدة الأمريكية. دينيس بورغان مثلا، وهو اسكتلندي من غلاسكو مدمن على الكحول ومعروف بعدم جديته في العمل، درس السياسة في كامبريدج، وتخصص في شؤون فرنسا والولايات المتحدة، لكنه اشتهر في الإذاعة - وكان أول مدرس جامعي يعمل في الإعلام في أوروبا - لا بوصفه مؤرخا ومراقبا عارفا بشؤون فرنسا، لكن باعتباره قادرا على معرفة أسماء عواصم الولايات الأمريكية وعنوان كل أغنية من أغاني ايرفينغ برلين.

كانت صورة أمريكا على قدر من القوة والشمولية إلى حد يسهل الافتراض بأنها بالكاد تغيرت طيلة "القرن الأمريكي" كما نسميه الآن. لكن بالنسبة لأولئك الذين أصبحوا واعين بها في الثلاثينات، خصوصا إذا كانوا من اليساريين، فقد تغيرت تغيرا كبيرا، لسبب واحد يتمثل في أن الحسد لم يكن يهيمن عليها. فقد بدأنا التفكير بأمريكا في اللحظة التي لم يكن فيها الاقتصاد الأمريكي يمثل نموذجا منتصرا للثروة والإنتاج بالنسبة لبقية العالم. وفي سنوات الكساد الكبير لم نعد نرى عالم "غاتسبي"، بل عالم "عناقيد الغضب"؛ في العشرينات وأوائل الثلاثينات كانت أمريكا عنوانا لمطاردة الثروة والربح، وغياب العدالة، والقسوة، والقمع الوحشي، والتجرد من المبادئ الأخلاقية. لكن الولايات المتحدة في عهد فرانكلين روزفلت لم تتمكن فقط من التنصل من هذه السمعة، بل حولتها جهة اليسار بشكل حاد. وأصبحت بوضوح حكومة الفقراء والنقابات. علاوة على ذلك، كان روزفلت هدفا للكره والإدانة الشديدة من

جانب الشركات الأمريكية الكبرى، أي من قبل نفس الذين يمثلون أكثر من غيرهم شرور الرأسمالية بالنسبة لنا. صحيح أن الشيوعية الدولية العالقة في شرك مرحلتها المتعصبة المتزمتة، أخذت وقتها لتمييز ما كان جليا للجميع وأدانت "البرنامج الجديد"، لكن بحلول عام ١٩٣٥عادت حتى هي إلى رشدها وغيرت رأيها. باختصار، كان من الممكن في الثلاثينيات تأييد الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي معا، ومعظم الشباب الشيوعيين فعلوا ذلك، مثلهم مثل عدد كبير من الاشتراكيين والليبراليين. لم يكن فرانكلين روزفلت الرفيق ستالين بالتأكيد، ولكن إن كنا أمريكان فلسوف نصوت له بحماس حقيقي وأصيل. لا أستطيع أن أفكر بأي سياسي "برجوازي" في أي مكان آخر شعرنا نحوه بمثل هذه الطريقة. وخلال أكثر من ستين سنة منذ أن عرفت آرثر شليسنغر الابن في كامبريدج، لم نتفق على الأرجح حول أية قضية سياسية فيما عدا تلك. لقد شاركته، وما زلت، في هذا الإعجاب بفرانكلين روزفلت.

مع أن عبور الأطلسي من كامبريدج كان أمرا شائعا، لكن لم تسنح لي فرصة القيام بذلك قبل الحرب ـ وبدا أن الحرب الباردة بعد عام ١٩٤٥ قد جعلت الأمر مستحيلا، لأن الولايات المتحدة لم ترغب بوجود الشيوعيين على أراضيها، ولاسيما الأجانب بكل تأكيد. وكعضو في الحزب الشيوعي، حرمت بشكل آلي من الحصول على تأشيرة دخول، إلا بإذن خاص لم يكن من المرجح الحصول عليه إلا بتلبية شرط لا مفر منه لاستقبالي ـ ولو بشكل مؤقت، في مجتمع الحرية: الاعتراف والتنصل من الخطأ علنا، رغم أنني لا أعتقد بأن إدانة الشيوعيين الآخرين كان أمرا إلزاميا بالنسبة للأجانب. لم تكن تلك تلك مجرد شكليات ـ أذكر حديثا طويلا مع جو لوسي، المخرج السينمائي وضحية الحملة المناهضة للشيوعية في هوليود، الذي جمعتني به صداقة وثيقة ـ لم تنج من هذا الحديث ـ على أساس الشغف المشترك ببيلي هوليداي. ظل لعدة سنوات يكافح في مختلف أرجاء أوروبا ويخرج أفلاما تحت اسم مستعار. في النهاية، حقق اختراقا في الستينات. وبدأ الناس يقرون بموهبته إضافة إلى نجاح أفلامه في شباك التذاكر. لكن السؤال الشائن ("هل أنت الآن، أو كنت في أي وقت مضى.. ؟") وقف عقبة في طريقه. نصحه الأصدقاء ومنتجو الأفلام بأنه لن يكون ثمة ضرر في الإجابة. سألني هل يجيب؟ وكان سؤالا اعتبرت معناه أنه على وشك إجابته. لم أكن

لألومه، إنما كان من المبالغة في الصدق، أو بالنفاق، إن أعطيته الجواب الذي أراده. وليس من الأمور السهلة بالنسبة للرجل أن يفكر بما إذا كانت الفرصة لتحقيق النبوغ العظيم تستحق التضحية باعتداده بنفسه واحترامه لذاته. وما زلت أشعر بالتبريح الكامن وراء سؤاله. علاوة على ذلك، تضاعفت الأسباب الداعية للذهاب إلى هناك، حتى وإن اقتصرت على أن المجتمع الأكاديمي الأمريكي كان أسرع في الاعتراف بالهرطقة من البريطانيين المحافظين.

في ذلك الوقت سنحت الفرصة لزيارة البلد الذي عرفته حتى ذلك الحين كحقيقة مفترضة إذا جاز التعبير. وفي واحد من أوائل المؤتمرات الدولية حول علم الاجتماع (الذي انعقد في امستردام عام ١٩٥٦، أو على الأرجح في ستريسا عام ١٩٥٩) تعرفت إلى العالم الاقتصادي بول باران، وهو لاجئ من ألمانيا في الثلاثينات، زعم أنه الشيوعي الصريح الوحيد الذي يتولى منصبا أكاديميا في الولايات المتحدة[1]. ولا بد أن الأمور سارت على خير ما يرام بيني وبين هذا الرجل الضخم، العاطفي، بمشيته المتثاقلة وعينيه الوادعتين، لأنه دعاني للإقامة معه والتدريس في جامعة ستانفورد عام ١٩٦٠. وخططنا معا لكتابة ورقة بحث تهاجم كتاب والت روستو الذي صدر مؤخرا بعنوان "مراحل النمو الاقتصادي"، وهو "مانفستو معاد للشيوعية" يفتقد الموضوعية، شاع الحديث عنه آنئذ. وقمنا بذلك لاحقا في كوخ على ضفاف بحيرة تاهو (على الحدود بين كاليفورنيا ونيفادا) [2].

في هذه المناسبة بالذات تم تجاوز مشكلة تأشيرة الدخول ببراعة، وذلك بفضل افتقار القنصلية الأمريكية في لندن إلى التجربة البيروقراطية. إذ لم يطرح علي أحد السؤال المعهود. لكن مشكلة وضعي كزائر إلى الولايات المتحدة لم تحل بشكل دائم حتى عام ١٩٦٧، حين تلقيت دعوة لشغل مقعد أستاذ زائر في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا. ولحسن الحظ كان المعهد معتادا على طلبات تأشيرات الدخول لمن لديهم

١- كان ذلك قريبا بما يكفي إلى الحقيقة، لكنه ليس صحيحا بشكل حرفي. وأنا متأكد تماما من أن بعض المدرسين في كلية الخريجين التابعة "للمدرسة الجديدة للأبحاث الاجتماعية" في نيويورك (حيث سأدرس فيما بعد) استمروا في الدعاية لمبادئهم الماركسية.

2 - P. A. Baran and E. J. Hobsbawm, 'The Stages of Economic Growth' in KYKLOS, vol. XIV, 1961, Fasc. 2, pp. 234-42.

خلفية يشتبه بها مكتب التحقيقات الفيدرالي أو وكالة المخابرات المركزية، ومدركا للعمليات السياسية في واشنطن. كما أن المكانة التي يتمتع بها المعهد ورئيسه، علاوة على المعرفة بأنه يقدم خدمة جوهرية للدولة، تعطيانه ما يكفي من النفوذ والقوة للإصرار على السماح له بالحكم على ما إذا كان الأجانب يستحقون أو لا يستحقون الدعوة. وهكذا دفعت سياسة القوة والسلطة المعهد إلى حشد كل مصادره للحصول على تأشيرة دخول إلى أكاديمي شيوعي بريطاني ليس مهما لولا ذلك. حصلت على الإعفاء من منعي من دخول الولايات المتحدة، رغم أن ذلك تم بشرط إعلام السيدة الودودة الحازمة التي "ترعى" الأجانب في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا كلما أردت مغادرة منطقة بوسطن. سألتها: "تعنين أنه ليس بإمكاني قضاء ليلة في نيويورك بدون موافقتك؟". اعترفت بسخف الوضع ولم تلح على ذلك. وهكذا لم يتدخل أحد بحرية حركتي في الولايات المتحدة.

لم أدرك إلا في وقت متأخر جدا مدى الصعوبة التي واجهتها السلطات الأمريكية في مشكلة تأشيرة الدخول. وعلى شاكلة كل البيروقراطيين، كانت ردة فعل المسؤولين الأولى هي الصمت والتملص والمراوغة. لكن في مسار سلسلة من المحادثات التلفونية المحمومة التي ازدادت حدة باستمرار اكتشفت بعض الأمور التي تجعل حالتي تتطلب هذا القدر من الدقة والحذر. سأل كفيلي في إحدى هذه المكالمات: "هل تمانع إن سألتك سؤالا أؤكد لك فيه أنه لن يؤثر في دعوتنا لك؟ هل أنت، أو هل كنت في أي وقت رئيسا للحزب الشيوعي البريطاني؟". كان ذلك بمثابة مدخل نمطي استخباراتي، يجمع بين الكسل (لأن أسماء كافة زعماء الحزب تسهل معرفتها) وبين الارتباك والتشوش. فمنذ عام ١٩٣٩، لم أشغل ـ بقدر ما أذكر ـ أي منصب سياسي في الحزب، ولا حتى على مستوى الفروع. ولا بد أن أحدا ما لم يتمكن من تمييز التنظيم الوحيد الذي ترأسته، داخل أو خارج الحزب، ألا وهو "مجموعة المؤرخين" التابعين للحزب الشيوعي (انظر الفصل ١٢)، عن رئاسة الحزب الشيوعي. على أية حال، كسب معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا المعركة ضد سلطات الهجرة. وحصلت على الإذن بالدخول.

منذ تلك اللحظة انتهت مشاكلي تقريبا. إذ حالما توجد سابقة يعرف البيروقراطيين ما يفعلون: نفس الحالة كما في آخر مرة. ومنذ ذلك الحين كنت أسافر إلى الولايات

المتحدة دون مواجهة مشاكل فعلية، رغم أنني دعيت في البداية للقاء المسؤول عن السماح بدخول الممنوعين من دخول الولايات المتحدة في القنصلية مرة أو اثنتين، حيث كان ينظر إلى ملفي ويقول دون اهتمام: "أرى أنك زرت كوبا مجددا"، وذلك لإثبات أن عيني العم سام مفتوحتان وتراقباني، ثم يرتب أمر حصولي على تأشيرة الدخول. لم يكن بمقدوري بالطبع دخول أمريكا دون تأشيرة، حتى في حالة وصولي إلى أحد مطاراتها عابرا (ترانزيت)، لكن كانت طلباتي في نهاية المطاف تحظى بالموافقة بصورة روتينية وبخلال بضعة أيام، وذلك إلى أن ألغي الرفض المسبق للشيوعيين ولم يعد الزوار البريطانيون بحاجة لتأشيرات دخول.

II

وهكذا، تحولت الولايات المتحدة عام ١٩٦٠ من الواقع الافتراضي إلى بلد حقيقي. كيف؟ هنا، على الأقل في البداية، أثبتت هوية "الجاز" التي أملكها أنها أكثر فائدة من صلاتي الماركسية أو الأكاديمية. ففي الحقيقة، كان الأمريكان الماركسيون من جيلي معزولين غالبا عن العالم الذي يعيشون فيه عام ١٩٦٠ ، كما أن المؤرخين الأكاديميين الأمريكيين الذين عرفتهم لم يكونوا يعرفون الكثير عنه أصلا. في نيويورك، كنت أستطيع مناقشة مشكلات تراكم رأس المال والانتقال من النظام الإقطاعي إلى الرأسمالية مع أصدقائي في مجلة "العلم والمجتمع"، وهي أقدم مجلة ناطقة بالإنكليزية ومتخصصة بالماركسية الفكرية (كتبت لها العديد من المقالات)، لكنهم لم يخبروني عن نيويورك شيئا يتجاوز المعلومات التي يقدمها أي يهودي من الطبقة الوسطى يعيش في منهاتن إلى زائر من الفضاء الخارجي: أين يمكنه العثور على الألبان والأجبان والكتب الرخيصة (لم تكن قد انحصرت بعد في مكتبة ستراند في برودواي والشارع الثاني عشر)، ونبات الكرفس المقوي الذي ابتكره الدكتور براون، والبسطرما التي تختلف في الولايات المتحدة عما يسميه الإنكليز بلحم العجل المملح.

حصلت على معظم المعلومات عن الساحل الغربي بواسطة بول باران، لأنه كان يعرف (أظن عبر عشيقته آنئذ، وهي سيدة من كاليفورنيا يابانية الأصل) المفكرين والمثقفين المشاركين في مؤتمر هاري بريدجز الدولي لنقابة عمال الموانئ والمخازن، وهو

مؤسسة يدعمها اليسار وتضم كل عمال موانئ المحيط الهادي من بورتلاند إلى سان دييغو، وكل ما يمكن أن ينضم إليها في هاواي. ولسعادتي الغامرة تعرفت إلى بريدجز نفسه، وهو بطل نقابي (طويل هزيل معقوف الأنف) استطاع فرض مبدأ استخدام العمال عن طريق النقابة حصرا وتبعا لشروط كاليفورنيا على كافة أرباب العمل في مناطق ساحل المحيط الهادئ. ولم يكن هؤلاء من الحملان الوديعة بطبعهم، لكنه نجح في مسعاه عن طريق تنظيم إضرابين عامين، وتوظيف ما يتمتع به من إحساس راسخ بالقوة، وما يملكه من قدرة استراتيجية في المساومة. قاوم بريدجز عدة محاولات جريتها الحكومة الأمريكية لإبعاده عن البلاد بوصفه أجنبيا يمارس أنشطة هدامة. كان آنئذ يشرف على مضض على عملية "القتل الرحيم" لعمال موانئ الباسيفيك، أي التفاوض لاستبدال القوة العاملة البشرية بتكنولوجيا الحاويات والشاحنات، مقابل رواتب تقاعدية كبيرة ومستمرة مدى الحياة لأعضاء النقابة الذين ألغيت وظائفهم. مازالت النقابة قوية، ولم تخفت معتقدات بريدجز الثورية، التي كان يعبر عنها بلهجة أسترالية مميزة لم تقدم سوى تنازلات معدودة لسنوات نصف عمره التي قضاها زعيما نقابيا أمريكيا. كان ما يزال يحلم بإضراب عام لعمال أرصفة الموانئ في العالم يجبر النظام الرأسمالي على الركوع على ركبتيه، لأن المحيطات العظيمة لا تعتبر في نظر سكان الموانئ حواجز فاصلة بل جسور واصلة. لا يعني ذلك أنه خصص وقته للبحارة، حيث اعتبرهم جميعا "متسكعين متبطلين"، لأنهم يفتقدون قوة البقاء والتشتت التي تملكها النقابة، مثل عمال الموانئ الذين تجمعهم معا العائلات والمجتمعات المحلية النظامية. ولا كان كأسترالي صالح، يحب الإنكليز. فحين كان بحارا في شبابه، صاحب ابنة عامل في ميناء لندن كما أخبرني، وهذا ما جعله يشعر بازدراء أبدي بقبولهم بدونيتهم الاجتماعية التي فرضها عليهم عمال بريطانيا.

ونظرا لأننا كنا في عام ١٩٦٠، ناقشنا معا الانتخابات الرئاسية. كان جيمي هوفا، الزعيم العمالي المعروف ورئيس نقابة سائقي الشاحنات الذي استهدفه بوبي كيندي ومكتب التحقيقات الفيدرالية، يفكر بإعطاء أصوات النقابة إلى نيكسون بدلا من كنيدي. وكان كسب رضى سائقي الشاحنات أمرا جوهريا بالنسبة للعمل ورأس المال كليهما في كاليفورنيا، لكن سمعة هوفا كانت سيئة (سجن بين عامي ١٩٦٧-١٩٧١

بتهمة التزوير). أما بريدجز، الذي لم يكن يشعر بالولاء لأي من "الحزبين البرجوازيين"، فقد رأى ذلك بمثابة خيار براغماتي محض. سألته: أليس هوفا في قبضة العصابات؟ رد بريدجز بصرامة متجهمة انطلاقا من تجربته: "لربما عمل مع العصابات، لكنه رجل جريئ ولم يبع أبدا أعضاء نقابته، على حد علمي. وما يختلسه يأتي من الزعماء لا من العمال". لم يتهم أحد بريدجز أبدا بأنه أثرى أو باع أعضاء نقابته. توفي بعد وقت قصير من لقائنا، حين لم تعد سان فرنسيسكو مدينة بريدجز وسام سبيد. أتذكره بكل الإعجاب والتقدير والانفعال. لكن كانت لنقابته علاقة أكيدة مع عصابات الجريمة المنظمة. ففي عصر أحد الأيام قدم لي مسؤول التنظيم في "المؤتمر الدولي لنقابة عمال الموانئ والمخازن"؛ بعد أن انتقل إلى المجال الأكاديمي، ما يمكن أن يصل إلى حلقة بحث دراسية حول تفاوض المنظمة مع المافيا التي اضطرت لتنسيق أنشطتها معها، نظرا لسيطرة العصابات على النقابات في مدن ساحل الأطلسي وخليج المكسيك، وذلك بالرغم من "نظافة أيدي" نقابات موانئ ساحل المحيط الهادي. وبدا أن التعامل مع المافيا قد اعتمد على افتراضين أساسيين ومعرفة بحدود النقابات. الأول، الاحترام المتبادل، يمكن اعتباره قضية مسلما بها. فكلا الطرفين يعمل في الموانئ الساحلية التي لم تكن ملاعب للأطفال. وهو يعرف القواعد التي كان من أهمها عدم الوشاية. ولا يتوجب على الرجال الجسورين الذين يواجهون بعضهم بعضا تبادل الثقة، لكن بإمكانهم التحاور معا. الثاني، عدم القبول بأية منة أو فضل مهما كان صغيرا أو رمزيا من المافيا، لأن ذلك يمكن أن يفسر آليا باعتباره اتكالا عليها. ولذلك، كان هناك على الدوام رفض مهذب لكن صارم للاقتراحات الداعية إلى اجتماع النقابتين لتقرير المسائل ذات الاهتمام المشترك في موقع مقبول مثل لاس فيغاس.

من ناحية أخرى، أعطت المعرفة بالحدود المقيدة للمافيا المنظمة البارزة سياسيا، مثل النقابة الحمراء، إمكانية إظهار ما اعتبرته المافيا قوة تستحق الاحترام الجدي. صحيح أن منظمة المؤتمر الدولي لنقابة عمال الموانئ والمخازن لم تكن تمتلك أية قوة، إلا أن بإمكان المرء الافتراض بأن أعضاء مجلسي النواب والشيوخ من هاواي تعاملوا مع آرائها بمنتهى الجدية. فقد كانت لها استراتيجيات، وآفاق سياسية على المستوى الوطني، ومفكرين ملتزمين يتمتعون بالمعرفة والدراية، كما عرفت كيف تؤثر في "الكابيتول هيل" (مبنى الكونغرس). وبحسب خبرة المنظمة، كان منظور المافيا

الاقتصادي قصير الأمد، وآفاقها السياسية محلية المجال. قال لي المسؤول عن التنظيم: "لا يستطيعون سوى الوصول إلى مكاتب أعضاء المجالس التشريعية ورؤساء البلديات، أخذناهم إلى الكونغرس في واشنطن ذات مرة. تمكنوا من رؤية رجالنا هناك، وإلقاء التحية على النواب والشيوخ من كافة المناطق، وسألناهم عما إذا كانوا يريدون مقابلة جيمي روزفلت (ابن فرانكلين روزفلت). كل ذلك أثر فيهم. وبعدها أصبحت المفاوضات أكثر سهولة". ساعدت هذه المعلومات على دفعي إلى عدم تصديق نزوع الأمريكيين العاديين ومنظمي الحملات السياسية إلى المبالغة في تضخيم قوة ونفوذ المافيا، أو حتى ثروتها، رغم أن صافي ثروة العائلة في المافيا، التي تعتبر متواضعة بحسب المعايير المالية في نيويورك، لم تسجل أو توثق إلا في بداية السبعينات، أي في العقد الذي نال فيه الأمريكيون من أصل إيطالي نصيبهم من الاهتمام والاحترام، ومارست أمريكا قصة غرامها (عن طريق هوليود) مع العرابين [1]. كما عرفتني بشكل واقعي على السياسة الأمريكية.

ما مدى التغيير الذي أحدثه كل ذلك في نظرتي إلى الولايات المتحدة؟ على شاكلة كل الذين يراقبون أمريكا عبر المحيط الأطلسي، سحرني أعضاء العصابات. ولحسن الحظ، توفر في الخمسينات للمرة الأولى كم ضخم من المعلومات المتعلقة بتطور الجريمة المنظمة في الولايات المتحدة، أثارت الانتباه إلى التفاعل بين العصابات والعمال (لم يتم التشديد على هذه العلاقة في صورة اليساريين الشباب لتاريخ الحركة العمالية الأمريكية). على أية حال، زودتني دراساتي للمافيا الصقلية باهتمام احترافي في الجانب الأمريكي من عملياتها. ولذلك كنت مطلعا بما يكفي عليها لأكتب بحثا وجيزا حول "الاقتصاد السياسي لأفراد العصابات" باعتباره فرعا من اقتصاد السوق، وهو بحث مر دون أن يفهمه أو ينتبه إليه أحد على الإطلاق، ولربما يعود جزء من السبب (على سبيل الدعابة) إلى أنني أرسلته إلى أقدم مجلة، بل مجلة غير مقروءة تعود إلى ما قبل التاريخ، هي "كورترلي ريفيو" المحافظة، التي نشرته دون تذمر [2]. وبحلول

١- انظر :

F. Ianni and E. Reuss-Ianni, A Family Business: Kinship and Social Control in Organized Crime (New York, 1972).

2 - E. J. Hobsbawm, 'The Economics of the Gangster' in The Quarterly Review, No. 604, April 1955, pp. 243-56.

الوقت الذي وصلت فيه الولايات المتحدة، كنت لذلك على علم تام بمثل هذه المواضيع (لكن، ولأسباب واضحة، لم يصل مدى اطلاعي إلى درجة تشمل معرفة مشاريع عائلة كنيدي الوشيكة لاستخدام صلاتها مع العصابات لقتل فيدل كاسترو). ومع ذلك، وبطريقة ما، بقيت مشاركا تلاميذ المدارس الابتدائية أو أخلاقيات هوليود بوجهة النظر الأساسية القائلة إن الأخيار يتصرفون كأخيار صالحين، وبالتالي فهم أفضل/أو لا علاقة لهم بالأشرار، حتى وإن اضطروا للتعايش معهم. وحتى بعد أن عشت ردحا طويلا من الزمن في عالم مليء بالنواقص والمعايب، ما زلت أفضل الاعتقاد بذلك. في الجزر البريطانية التي تطبق القانون وتخضع لهيمنة الدولة في الخمسينات، كان ذلك يبدو لا مجرد طموح، بل نوع من الحقيقة الواقعة. لكن الولايات المتحدة لم تكن ملتزمة بالقانون، رغم أن عدد المحامين فيها يفوق عددهم في العالم أجمع، كما لم تكن مجتمعا يعترف بدور الدولة، رغم أنني فوجئت حين اكتشفت أنها أشد تمسكا بالبيروقراطية على كافة الصعد.

ما دعاني إلى أمريكا هو السياسة إضافة إلى أساتذة الجامعات، لكن الجاز هو الذي جعلني أشعر مرة أخرى أنني أفهم بعض وقائع هذه البلاد الغريبة الاستثنائية. وما كان بمقدوري اختيار لحظة أفضل من الستينات لزيارة الولايات المتحدة كمغرم بالجاز. وما كان من الممكن - لا قبل ذلك ولا بعده - التمتع بكل الفرق الموسيقية وهي تقدم حفلاتها على المسرح مباشرة، بدءا بتلك الباقية من العشرينات مرورا بتلك التي تضم العازفين الشهيرين اورنيت كولمان ودون لتشيري بألحانهما الفوضوية الجهيرة التي كان بالمستطاع سماعها من أمثال هؤلاء الرواد الطليعيين في الضواحي الشرقية لقرية غرينتش (حي سكني في منهاتن). وفي الحقيقة، وعلى الرغم من أسلوب الحياة الانتحاري لأهل الجاز، كان العديد من الأسماء التي تربى عليها جيلي ما تزال منتجة، وذلك فيما عدا بعض الاستثناءات الشهيرة. علاوة على ذلك، لم نكن قادرين على منع أنفسنا، ونحن نستمع إلى الألحان الأصيلة الفريدة للمؤلف والعازف الشهير ثيلونيوس مونك، والمقطوعات الاستثنائية لمايلز ديفيز، من ملاحظة أن النصف الثاني من عقد الخمسينات كان يمثل العصر الذهبي للجاز، والمحطة الأخيرة له كما تبين فيما بعد. كل من عاش تلك الليالي في نيويورك وسان فرنسيسكو كان في منتهى السعادة، حتى ولو كان الوقت متأخرا على مؤرخ في العقد الخامس كي يتمتع بها إلى الحد الأقصى.

لا يعني ذلك أن من الممكن فصل الجاز عن سياسة اليسار، رغم أنه كان بالنسبة للمجتمع الأكاديمي في الستينات يشبه الشذوذ الجنسي: ذوق شخصي خاص لدى بعض المدرسين الجامعيين، لكنه ليس جزءا من نشاطهم الأكاديمي. ولهذا السبب مثلت نيويورك على الأرجح (التي كانت أقل محافظة مقارنة بغرين باي في ولاية ويسكونسن مثلا) أفضل مكان لإقناع شخص مثلي بان من الممكن فهم، وربما حب، تلك البلاد الاستثنائية. كانت منهاتن ـ كلها ـ تزدري حملة مطاردة الشيوعيين، ونظرا لكونها مدينة المهاجرين اليهود ومركزا ثقافيا وفكريا للنشر، والمسرح، والموسيقى الشعبية، وتسجيل الاسطوانات، فقد كان من القضايا المسلم بها أن يعتنق بعض سكانها الماركسية الثورية ـ ماضيا أو حاضرا ـ ولم يكن في المدينة الكبرى من يهتم حقا بالطبيعة الدقيقة لالتزامك السياسي سوى مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI)، لأنه في الوقت الذي وصلت إليها كان حتى أصحاب المليارات من الديمقراطيين على الأرجح. من الغريب أن الجاز لم يكن يروق كثيرا للماركسيين الأمريكيين، الذين اتجه ذوقهم الغريزي على ما يبدو إلى الموسيقى الكلاسيكية والأغاني الشعبية السياسية (لا أزال أذكر الأمسية الكارثية حين أخذت بول باران لسماع عازف الجاز الشهير مايلز ديفيز في "بلاك هوك" في سان فرنسيسكو).

معظم الذين عرفتهم من أهل الجاز كانوا من الرجال، مع بعض الاستثناءات النادرة التي جسدتها تلك المرأة الصغيرة العاملة في مجال العروض الفنية، والتي كرست حياتها لدعم مسيرة الحياة المهنية لعازف البيانو المدهش ايرول غارنر، والتي حاولت إسداء خدمة كبيرة لي عبر استضافتي مع غارنر في برنامج "جوني كارسون شو"، مفترضة أن ذلك سيساعد في الدعاية لكتابي الذي صدر مؤخرا عن الجاز (وصل جهلي بوقائع ميدان النشر في الولايات المتحدة في الستينات، الذي يسبق مثيله البريطاني بثلاثين سنة، إلى حد أنني لم أذكر خلال المقابلة التي استمرت أربع دقائق عنوان الكتاب). وكانوا في غالبيتهم لاجئين بطريقة ما من الحياة الأمريكية الذكورية في الخمسينات، عقد "الرجل بالبذة القطنية الرمادية"، باستثناء أعظم متعهدي الحفلات ومكتشفي المواهب في تاريخ الجاز، جون هامون (الابن). لم يطرح عليه أي زائر للمدينة، يراه مثلا خارج "فيليج فانغارد" السؤال الذي طرحته عليه، حين رأيته مع

صديق خارج أحد الأماكن في نورث بيتش بمدينة سان فرنسيسكو: "عذرا، لكن هل السيدان وجوديان؟". بالطبع لم يكن بحاجة لسؤاله من يكون خارج المكان الذي أخذني إليه أول مرة: "سمول باراديس" في حي هارلم. كان جون هامون صورة كاريكاتورية تقريبا لنموذج البروتستانتي الأنكلو ـ ساكسوني المنتمي إلى الطبقة العليا من جماعة "ايفي ليغ وايت" (جمعية ـ رياضية أساسا ـ تضم طلاب بعض جامعات شمال شرق الولايات المتحدة مثل براون وكولومبيا وهارفارد وبرينستون وييل.. ويستخدم التعبير لوصف الأساليب والطرائق المميزة في اللباس والسلوك مثلا لطلاب هذه الجامعات): طويل القامة، قصير الشعر (على طريقة المارينز)، يتحدث بلكنة تجعل المرء يتخيل بأنها اللهجة التي تتحدث بها الشخصيات في روايات اديث وارثون، وعلى وجهه تكشيرة ساخرة على الدوام. وكما هي الحال في الولايات المتحدة غالبا لا تعتبر هذه بمثابة إشارة دالة على روح الدعابة. إذ لم يكن رجلا يتخلى عن الرسميات أو يضحك بدون سبب، أكثر من صهره بيني غودمان، عازف الكلارينيت وقائد فرقة الجاز الذي اشتهر بأنه قادر على "تجميد" أعضائها بنظرة محدقة من عينيه التي تشبه نظرة العظاءة. ظل جون يساريا مقاتلا وعنيدا حتى النهاية، رغم أن مكتب التحقيقات الفيدرالية لم يتمكن من إثبات أنه عضو في الحزب الشيوعي. ولا يمكن بدونه فهم تاريخ الجاز في الولايات المتحدة قبل الحرب العالمية الثانية، ونظرا لكونه قد مارس على الأرجح أهم تأثير في إطلاق "موضة" موسيقى "السوينغ" في الثلاثينات، لا يمكن فهم تاريخ الولايات المتحدة بدونه. سألته وهو على فراش الموت ما الذي يفخر به في حياته أكثر من أي شيء آخر، قال اكتشافه المغنية الشهيرة بيلي هوليداي (١٩١٥ـ١٩٥٩).

بحلول الوقت الذي عرفته فيه، كان قد ابتعد عن مركز المشهد الموسيقي، رغم استحالة اعتبار من سيطلق المغني بوب ديلان إلى عالم الشهرة رجلا من مخلفات الماضي. هنالك شخص آخر من المغرمين السابقين بالجاز في نيويورك أصبح أعز أصدقائي الأمريكيين. إذ لم يكتف بأن يجعل مهمته ـ كصحفي ـ الاتصال بكل الأجيال القديمة والشابة، بل كان يؤديها بعفوية سوريالية طبيعية وبنفس رضية، بحيث جذب انتباه أفرادها جميعا. إنه رالف غليسون، الذي اكتشف لتوه ـ من بين العديد من

الاكتشافات ـ ليني بروس، وجعل من نفسه وكيلا انتخابيا لحملة عازف البوق العظيم ديزي غيليسبي لرئاسة الولايات المتحدة، التي لم يعتبرها أي منهما كدعابة. كان غليسون نيويوركيا من أصل ايرلندي، ترك المدينة ليصبح صحفيا يكتب عمودا عن العروض الفنية والموسيقى الشعبية في "سان فرنسيسكو كرونكل"، وهي صحيفة تفاخر بأنها لا تنتمي إلى وليام راندولف هيرست، وتباهي بصحفيين لا يفاجئهم أي شيء يصادفهم في مدينة ثرية، وهادئة ومهرطقة تعارض بأسلوب دمث ولطيف. كان يعيش في منزل متواضع ومتوضع على الجانب الأعلى من التلة في بيركلي، يزدحم بمجموعات من الأسطوانات، وأشرطة التسجيل، والمشاريع الموسيقية، ومطبوعات بتصاميم وتشكيلات متنوعة، علاوة على الضيوف (الشباب عموما)، وكل ذلك مرتب تبعا لنظام "تشغيل وحماية" صارم وضعته زوجته جيني. كنت أعتبر المكان ملاذا لي من بالو آلتو، حيث اعتدت الذهاب إلى هناك بواسطة أول سيارة أملكها (كايسر ١٩٤٨، اشتريتها بمائة دولار وبعتها عند نهاية فصل الصيف بخمسين دولارا إلى عالم متخصص بالمنطق الرياضي يتمتع بشهرة عالمية).

بالنسبة للموسيقى وللعروض الفنية في الستينات شكلت "منطقة الخليج" في سان فرنسيسكو مكانا بارزا، وسوقا جيدة لكن هامشية. كان الجميع يأتون إلى المنطقة، لكن لم يخرج شيء منها فيما عدا الموجة الأولى الخجولة من موسيقى "ديكسيلاند" (إحدى التنويعات على "الجاز"). المكان من النمط الذي استقر فيه "معلمي" الجاز العظام الذين تقدم بهم العمر، مثل عازف البيانو الشهير ايرل هاينز، في أمان حياة النوادي الهادئة الراسخة. حتى ديوك ايلينغتون قبل إقامته الحفلات في النوادي بدلا من المسارح، وبالتالي أتاح لي الفرصة ـ الأولى منذ عام ١٩٣٣ـ لسماع الفرقة في البيئة التي صممت من أجلها، أي في الحفلات الاجتماعية للسكارى حيث لا يكون المقياس الحقيقي لمدى تأثير الفرقة هو التصفيق، بل الصمت المفاجئ مع توقف الحديث بين المستمعين الجالسين على الطاولات.

كان لسان فرنسيسكو، التي لم تترسخ بعد "كجمهورية للشواذ"، أو المنطقة الخلفية لـ"وادي السيليكون"، صورة ذهنية سائدة على المستوى الوطني، وحضور معترف به على الساحة الأمريكية، بعيدان كل البعد عن الجمال الرومانسي لخليجها.

فقد كانت مدينة ليبرالية، رغم أنها أقل راديكالية على الصعيد السياسي من جارتها بيركلي في الستينات، وفخورة بالمنشقين المقيمين فيها (هاري بريدجيز واحد منهم). وحتى ذلك الوقت، كانت متساهلة مع المخدرات. وتبعا للمعايير السائدة في كاليفورنيا، امتلكت تاريخا حافلا: الحي الصيني الشهير، ذكرى "الصقر المالطي"، سمعتها كأبرز مراكز الأدب الطليعي في الخمسينات، ممثلا في "الوجودية"، التي كانت الموضة السائدة آنذاك إلى حد جعل كين تينان يهنئني على الذهاب إلى هناك. "هناك" هو المنطقة المحيطة ببرودواي، على الشاطئ الشمالي، شيء يشبه حي سان جيرمان الباريسي على ساحل المحيط الهادي، حيث يمكن أن أقابل رالف في "فلور" و"اينريكو"، مقابل "مكتبة سيتي لايتس"، لألقي التحيات، وأقابل بمثلها من شخصيات المدينة حين نسير في الشارع. فعلى العكس من برودواي نيويورك، يتمشى الناس في شوارع برودواي سان فرنسيسكو. وعبر "باي بريدج" هنالك بيركلي. في منتصف الستينات، حولها "أبناء الطبقة الوسطى الأمريكية البيضاء" إلى عنوان لحركة الشباب الهيبيين، الأمر الذي أنتج - بالصدفة - "أول الموسيقيين الأمريكيين، باستثناء عازفي موسيقى 'الكنتري' المحلية، الذين حاولوا ألا يتشبهوا بالسود" (حسبما لاحظ غليسون) [١]. أصبح رالف الناطق الرسمي باسم موسيقى "هيت - اشبري" (منطقة في وسط سان فرنسيسكو اشتهرت في الستينات كمركز لتجمع الهيبيين وأتباع ثقافة المخدرات)، التي تعزفها فرق مثل "جيفرسون ايربلين" و"غريتفول ديد"، رغم عدم انتمائه بالمزاج إلى ثقافة المخدرات. وفي الحقيقة توقف عن تدخين الحشيش، فقد انتمى إلى جيل المثقفين الذين يدخنون الغليون، مثلي في ذلك الوقت. لم تكن صحته جيدة أبدا، وتوفي عام ١٩٧٥ عن عمر يناهز الثامنة والخمسين.

أصبح رالف بمثابة نافذتي المطلة على الولايات المتحدة لثلاثة أسباب. فنظرا لكونه يعيش في عالم الجاز، الموسيقي اللامنتمية/الخارجة على العرف، كان قادرا على استشفاف اهتزازات الأحداث القادمة التي تفوت على الآخرين: تغير لحن الأصوات الآتية من غيتو الزنوج، حركة الشباب البيض الطليعية التي اكتشفت قوة نبضات

١- وردت في :

S. Chapple and R. Garofalo, Rock'n'Roll is Here to Pay: The History and Politics of the Music Industry (Chicago, 1977), p. 251.

موسيقى "البلوز" في مدن السود ، إرهاصات الثورة الطلابية في بيركلي، التي أصبحت معروفة على المستوى القومي بعد عام ١٩٦٤ ، والعالمي عام ١٩٦٨ . تلك أحداث لم يكن بالمستطاع ملاحظتها في مكان آخر في صيف عام ١٩٦٠ . ولم يقترح علي أحد ممن عرفتهم في كليات جامعة بيركلي، ولا في جامعة ستانفورد الشهيرة، المشاركة في المخيم السياسي الذي كان اليساريون في بيركلي ينظمونه ذلك الصيف في عطلات نهاية الأسبوع، ولم يقتصر السبب على جهلهم باهتمامي بمثل هذه الأمور فقط، بل لأنهم لم يسمعوا به أصلا. كان رالف يعرف عنه، من خلال الطلاب الذين يتحدثون إليه، رغم افتقاده الصلات الأكاديمية أو السياسية المميزة. لا يعني ذلك أن رالف كان منخرطا في الحركة الراديكالية المنظمة أو مشاركا في أوساط الحركة اليسارية في منطقة خليج سان فرنسيسكو. كان "جيش التحرير التكافلي" أقرب إلى أسلوبه، وهو حركة غريبة تقوم على أساس مبدأ إثبات صحة المطلوب بإبطال نقيضه أو العكس، الذي اعتنقه المؤمنون بالعصر الألفي السعيد في منطقة خليج سان فرنسيسكو. "والجيش" يتذكره الناس (إن تذكروه) بسبب اختطاف ومن ثم "هداية" ابنة وليام راندولف هيرست (الابن). كان رالف يحيي/ ويستمتع بثوار "حركة بيركلي لحرية التعبير" (١٩٦٤)، ويعجب بالخطب الجماهيرية إضافة إلى الصدق الفوضوي لزعيمهم، طالب قسم الفيزياء العنيف إلى حد ما، ماريو سافيو، والذي أرسله مع زوجته/ شريكته إلى بيركيبك بعد طرده، حيث أمل بأن يجد عملا له. (رحب به جي. دي. بيرنيل في قسم الفيزياء، لكن الحياة الأكاديمية والبحث العلمي لم يناسبانه، وعاد إلى حياته في مقاهي شارع تيليغراف في بيركلي، قريبا من أمجاد انتصاراته السابقة).

السبب الثاني الذي جعل من رالف مدخلا مدهشا للتعرف إلى أمريكا ما بعد الستينات، يتمثل في مقدرته على فهم مطامح وتطلعات الجيل الشاب وثورته الثقافية، نظرا لأنه لاجئ مقيم في أكثر بقاع كاليفورنيا تمسكا بالطوباوية الثقافية. علاوة على ذلك، وبالرغم من أنه الأقل طفولية بين الرجال، لكنه لم يكن من النوع الذي يهرم. فقد كان باستطاعته الاعتماد على مخزون لا ينضب من الحماس (الذي لم أكن أشاركه فيه) حتى لفرق الروك. مرة أخرى، جعله ذلك يتمتع بحساسية مدهشة لتوقع اتجاهات العصر القادم. وهو الذي ساعد أحد أتباعه الشباب على تأسيس مجلة

متخصصة بموسيقى الروك، وهو الذي ابتكر اسمها، "رولينغ ستون"، من اسطوانة مغني البلوز في شيكاغو، مودي واترز، وهو الذي وجد نفسه بعد أن كان لا يفقه شيئا في التجارة، يملك من المال ما لم يتعود عليه، وما يكفي لإرسال الهدايا من الويسكي والسيجار إلى أصدقائه القدامى، وذلك بفضل تلك المجلة، إضافة إلى مقطوعات هجائية صغيرة عن الجاز أسماها "اسطوانات فانتازية".

أخيرا وليس آخرا، وعبر الأسلوب والمزاج، تمكن رالف من جعل بلاده سهلة الفهم (بينما لا يمكن لأحد فهمه هو في أي مكان من العالم خارج الولايات المتحدة)، بالرغم من أن حضارتها تبدو في بعض جوانبها أكثر بعدا وغرابة عن الأوروبيين مقارنة بأية حضارة أخرى فيما عدا اليابانية. كان يمتلك ما يبدو للأجانب التوليفة الأمريكية المميزة التي تجمع بين الحب/ الكره المفاجئ، والنزعة العاطفية في الشعور (لكن ليس في الكلمات). ومع ذلك، بدا منيعا على الأخطار الثلاثة المتأصلة في صلب الحياة الثقافية الأمريكية: الاستغراق في الذات، والميل إلى التفكير بما يعنيه أن يكون المرء أمريكيا، والتبلد الفكري. العبارات الفارغة مثل "القيم الأمريكية" و"الحلم الأمريكي"، لا مكان لها في قاموسه، مثلما لا يمكن العثور عليها بعد في الأحاديث غير الرسمية في الولايات المتحدة. كان يرى الأمريكيين على حقيقتهم ويقبلهم على علاتهم. البلاغة الخطابية المنمقة كانت تنتمي إلى حياتهم في المجال العام فقط وفي النسخ التي نالت الموافقة الرسمية من الحب، ولا أظن أنه اعتبر حتى النزعة الطوباوية كاملة مكتملة بدون عضو فاسد في مجلس مدينة شيكاغو، ومليونير فاسق يبشر بآرائه عن طريق الإذاعة، وبضعة مراكز متحمسة في مناهضتها للانشقاق الثقافي حتى على اليوتوبيا، ومؤسسات كتلك التي رأيتها خارج أحد الكازينوهات الرئيسية في رينو، بولاية نيفادا، يدعى "نادي سييرا": مكتبة تعرض كتبا عن الخيل، وعن الأطعمة المباحة تبعا للشريعة اليهودية. من ناحية أخرى، ونظرا لأنه يعيش في أعظم مدن السهول في العالم، كان يتوقع من الله أن يمتنع عن تدميرصدوم هذه، لأن الرجال العشرة الذين سينقذون العالم سيكونون هناك على الدوام. وكان هو واحد منهم.

كان رالف ينتمي إلى ذلك النتاج الفريد للولايات المتحدة: "فيلق" المراقبين، الصحفيين في غالبتهم، (وأفضلهم على الأرجح من جيل الثلاثينات والخمسينات،

الذي كان أيضا جيل أمجاد الموسيقى والأغنيات الشعبية المحلية)، الذين وصفوا بلادهم بمزيج من الحب والازدراء والسخط. وهو الذي قادني إلى التعرف على أشخاص مثله، وما كنت لأتعرف بطريقة أفضل على شيكاغو، المدينة التي لا يمكن لمن يعشق موسيقى "البلوز" أن يتجاهلها.

وصلت شيكاغو في رحلة بالسيارة من المحيط الهادي إلى الشرق، باعتبار ذلك طقسا تمهيدا لمعرفة الطبيعة الحقيقية للثورة الأمريكية على التقاليد السائدة (كما يقول الوجوديون). اشتركت في نفقات الرحلة مع ثلاثة من طلبة جامعة ستانفورد. وتبعا للمعايير الأوروبية، لم نصادف تنوعا مشهديا كافيا يمتعنا في تلك المساحات الشاسعة من الجبال والسهوب، على الأقل بالنسبة لأولئك الذين لا تغيبهم المخدرات أو المسكرات عن الوعي. وتلك مهمة صعبة حين يتناوب على القيادة أربعة أشخاص على مدار الساعة، بالرغم من أن النعاس غلبني لكن تفاديت في آخر لحظة الاصطدام بعربة قادمة على الطريق السريع المستقيم الذي يمتد إلى ما لا نهاية قرب لارمي، بولاية ويومنغ. شيكاغو نفسها، حين أقمت فيها في شهر آب/أغسطس داخل غرفة صغيرة بدون تكييف في مبنى "جمعية الشبان المسيحيين"، بدت لي أشد الأماكن التي عرفتها حرا. فهي تجسد بصيفها اللاهب وشتائها القارس الرمز المميز للاعتقاد الأمريكي بأن حدود التحمل البشرية قد وجدت لتتغلب عليها التقانة والمال، إذا كان الهدف ـ في هذه الحالة، التجارة والمواصلات ـ يبرر الجهد المبذول. وليس هناك سوى قلة قليلة من المدن التي تتفوق عليها في عدم ملاءمتها ـ بدون مساعدة التكنولوجيا ـ لحياة البشر.

هذا الجهد المبذول لم يكن كافيا لجعل شيكاغو أكثر من مدينة ثانوية. حتى في "الجاز"، الذي انطلق من هناك مستفيدا من ميزة اجتذاب أفضل الموسيقيين والمغنين من دلتا المسيسيبي، فقدت موقعها لصالح نيويورك ("التفاحة الكبيرة")، وفي الجريمة، فقدت تفوقها بعد آل كابون، رغم أن العصابات مازالت قوية التأثير فيها. صحيح أنها بقيت عاصمة موسيقى "البلوز"، لكن على العكس من موسيقى "الروك اند رول" التي ولدت فيها أيضا، ظلت أنغام "البلوز" فيها تنتمي إلى رتابة إيقاع "غيتوات" السود في الأحياء الجنوبية والغربية، التي تشبه التراتيل الكنسية الطويلة والمملة. مازالت موسيقى "البلوز" تمثل فن المهاجرين الفقراء من الجنوب، الذي يبتدع في حانات

الأحياء، وأمام الكنائس، وعلى أسواق الأرصفة. في تلك الأثناء، كانت لديها شخصية بارزة على المستوى القومي، رئيس البلدية ديلي، أعظم وآخر رؤساء المدينة، الذي كان قادرا على ضمان تصويت سكان مقاطعة كوك لصالح أي مرشح ديمقراطي، الأمر الذي أفاد جاك كنيدي وحسم النتيجة لمصلحته. ومازالت المدينة ـ حتى كتابة هذه الصفحات - تدار من قبل ابنه.

ومع ذلك، فإن هذا أعطاها نوعا من الإحساس بأنها تشكل مجتمعا محليا. إذ لا يمكن أن أصدق بأن ستودز تيركل مثلا، الذي نال إعجابي، كان سيبني حياته المهنية في مدينة أخرى. ومن الواضح أن أول المؤلفات المدهشة التي رسخت سمعته على الصعيد العالمي كمسجل لحياة المواطن العادي كان "شارع ديفيجن: أمريكا"[1]، وهو عبارة عن وصف تصويري "بالصوت"، صمم بأسلوب رائع لعرض التاريخ الشفاهي لشيكاغو بسبعين صوتا، أطلق عليه اسم أحد الشوارع في المنطقة الشمالية من المدينة - وكانت منطقة جميلة عام ١٩٦٠- بتكليف من صديقي الناشر اندريه شيفرين، كجزء من سلسلة تناولت "قرى العالم". وأنا شخصيا أفضل هذا العمل على مؤلفاته الموسيقية اللاحقة الأكثر طموحا وشهرة وتعددا في الأصوات: "الأوقات الصعبة: التاريخ الشفهي للكساد الكبير"؛ "عمل"؛ "الحرب الصالحة"؛ والبقية. حين قابلته كان في الثامنة والأربعين، وكعهده دوما، كان يقدم برنامجا إذاعيا في محطة محلية، ويقرأ، ويكتب التعليقات والملاحظات، ويجري المقابلات. أما موهبته الفريدة فتتجسد في طاقته الهائلة على جعل الناس ينسون حقيقة أنهم يتحدثون أمام الميكروفون، وأن الجميع يستمعون لصوتهم فيما عدا ذلك الرجل الضئيل، الذي يتصرف كمهرج، ويرتدي "البابيون"، ويميز بين الأوقات السعيدة والزمان الرديء. لكن حياته المهنية، كممثل ونجم تلفزيوني، تعرضت للدمار بسبب الحملة الشعواء المناهضة للشيوعية في الولايات المتحدة. وبعد فترة قضاها في الترويج لموسيقيي شيكاغو السود، الذين عرفوا ما يعني التحيز والتحامل، وجد عملا في محطة إذاعية محلية، لا تحتاج إلى مبالغ مالية ضخمة، ولذلك كانت سلطتها أقل. ومع ذلك، وبفضل ميثاق الدفاع المتبادل بين أهالي شيكاغو ضد الغرباء (من خارجها) الذين لا هم لهم سوى استقصاء الأخبار ونشر

1- Studs Terkel, Division Street: America (new York, 1967).

الإشاعات، لم يتمكن أحد من اتهامه بالشيوعية حين أصبح شخصية بارزة وشهيرة. فقد كان برغم كل شيء جزءا لا يتجزأ من ذلك المجتمع المحلي الصغير الموجود في كل مدينة كبيرة، والمؤلف من المراسلين، والمعلقين، وكتاب السير الذاتية، وغيرهم من الفلاسفة والمراقبين في حاناتها ونواديها.

هل كانت تلك أفضل طريقة لاكتشاف الولايات المتحدة بالنسبة للأجنبي؟ الرجال والنساء الذين قابلتهم مع/أو من خلال رفائيل غليسون وستودز تيركل لم يكونوا من المواطنين العاديين، بل شخصيات معروفة مثل مغنية التراتيل الجليلة ماهاليا جاكسون، التي تعتبر واحدة من أعظم فناني القرن العشرين، والتي لم تكن تثق إلا بحفنة قليلة من الأفراد وبعدد أقل من البيض (كان ستودز ناطقا صحفيا باسمها). لقد مثل الدين بين الأمريكيين الأفارقة إيمانا عميقا، ومنبرا عموميا، وفنا تنافسيا، وصناعة رابحة. تمكنت ماهاليا، في بيتها البرجوازي الرحيب، بعد أن تحررت من قيود الحاجة المستمرة للظهور بمظهر مختلف أمام الناس، من الموالفة بين حياة الطمأنينة وراحة البال والقرب من يسوع المسيح من جهة، وبين حياة محترفي الفن الناجحين من جهة أخرى. كانوا أشخاصا من أمثال "اللورد باكلي" (عرفته في شهوره الأخيرة)، صاحب الصوت الرخيم الذي اجتمعت فيه سمات مدير حلبة سيرك من العهد الفيكتوري، وأناقة أخر صيحات الموضة الحديثة، وتضلع عالم اللسانيات الخبير من لغة شوارع السود. كانوا أشخاصا من طراز بيل راندل (من كليفلاند) الذي قدم الفيس بريسلي إلى الجمهور في الولايات الشمالية، وتخصص في تحقيق الوثائق المتعلقة بتاريخ الهنود وغيرهم من سكان أمريكا، بينما كانت هوايته تتركز على تاريخ الإذاعة (مازال يحيرني السبب الذي جعل كليفلاند، أي ذلك القطاع اللانهائي من الأرض الممتدة على بحيرة ايري، تلعب مثل هذا الدور المحوري في الترويج لموسيقا "الروك"). يمكنني القول على أقل تقدير إن أمريكا التي عرفتها من خلال هؤلاء لم تكن مملة أبدا.

مؤسسة أمريكا الأكاديمية التي أطّرت تجربتي المهنية في الولايات المتحدة طيلة ما يزيد عن الأربعين عاما، لم تكن مدخلا على نفس القدر من الفائدة والمتعة للتعرف على البلاد، ولو انحصر السبب في مجرد أن حياة أساتذة الجامعات، والقرويين داخل قراهم (الوطنية أو الكونية)، كانت متشابهة في معظم الدول المتقدمة، وكذلك حياة الطلاب.

كان الأكاديميون الأمريكيون قادرين على توطيد العلاقات مع القادمين الجدد بكل سهولة ويسر، نظرا لأن التنقل الجغرافي من مكان لآخر متأصل في صلب البنية المهنية، مثلما هو متجذر في أسلوب الحياة المحلية. وتبقى الولايات المتحدة بلد الرجال والنساء المترحلين الذين يبدلون أماكن إقامتهم، وعملهم، وعلاقاتهم أكثر من أية دولة أخرى. علاوة على ذلك، وفيما عدا بعض الاستثناءات المعروفة، كانت الجامعات عبارة عن مجتمعات محلية مكتفية ذاتيا ومرتبطة بمدن صغيرة ومتوسطة الحجم لا تهتم كثيرا بالأمور الأكاديمية، على الأقل حتى الثلث الأخير من القرن، حين اكتشفت أن ثورة المعلومات قد حولت الجامعات إلى مولدات رئيسية للثروة الاقتصادية والتقدم التقني. كانت مجتمعات محلية تمكن المهاجرين الذين اعتادوا الحياة الجامعية من الاندماج فيها بسهولة، وإن تم ذلك بشكل سطحي، بشرط أن يمتلكوا ما يكفي من المعرفة بالإنكليزية التي أصبحت اللغة الثانية لسكان العالم بعد لغتهم الأم. قال لي عالم هندي متخصص بالفيزياء في كورنيل (وشقيق طالب سابق في كامبريدج): "لو عملت في التدريس في بريطانيا لشعرت على الدوام بأنني أجنبي. أما هنا فلا أشعر بذلك، لأن الجميع أجانب بمعنى من المعاني". المجتمعات المحلية الدائمة، والمؤلفة غالبا من أعضاء مترحلين يقيمون فيها بصورة مؤقتة، استطاعت تطوير أنماط فورية للتعارف الاجتماعي، والاختلاط بين أفرادها، وحسن الجوار، وتبادل العون والمساعدة، لكنها - كمجتمعات محلية - لا تميل إلى تركيز الضوء على ما يحدث خارجها.

حين أستعيد بالذاكرة الزيارات إلى الولايات المتحدة والفترات التي عشتها هناك طيلة أربعين عاما، أجد بأنني عرفت خلال فصل الصيف الأول الذي قضيته فيها قدرا من المعلومات يعادل ما حصلت عليه طيلة العقود التالية. وذلك مع استثناء وحيد: لا يمكن معرفة نيويورك، أو منهاتن، بدون العيش فيهما. لكن لأية مدة؟ فعلت ذلك لمدة أربعة أشهر من كل سنة بين عامي ١٩٨٤-١٩٩٧، وبالرغم من أن مارلين لم تنضم للإقامة معي هناك سوى ثلاث مرات طيلة فصل كامل، إلا أنها كانت كافية لتشعرنا بأننا مواطنون مقيمون ولسنا زوارا عابرين. لقد أمضيت ردحا طويلا من الزمن في أمريكا، أدرّس في جامعاتها، أو أقرأ في مكتباتها المدهشة، أو أكتب، أو استمتع بوقتي، أو أمارس كل هذه الأنشطة معا في غيتي سنتر في سانتا مونيكا، لكن ما

تعلمته عن أمريكا بشكل شخصي حصلت عليه بخلال بضعة أسابيع أو شهور. ولو كنت دي توكفيل، لكان ذلك كافيا. فبرغم كل شيء، كان كتابه "الديمقراطية في أمريكا"، وهو أفضل مؤلف يكتب عن الولايات المتحدة، قد اعتمد على رحلة لم تتجاوز مدتها تسعة أشهر. لكن للأسف لست دي توكفيل، ولا يماثل اهتمامي بالولايات المتحدة اهتمامه.

III

لو ألف دي توكفيل كتابه اليوم لتعرض للهجوم بالتأكيد باعتباره معاديا لأمريكا، نظرا لأنه انتقد معظم ما شاهده في الولايات المتحدة. فمنذ تأسيسها كانت الولايات المتحدة موضوعا يجتذب ويسحر بقية العالم، إلا أنها كانت أيضا هدفا لكثير من المنتقدين والساخطين الذين حاولوا الحط من شأنها وقدرها. لكن منذ بداية الحرب الباردة، أصبح موقف الناس تجاهها يقاس بمعايير الاستحسان أو الاستهجان، ليس فقط بواسطة ذلك النوع من السكان الذين يبحثون عن السلوك "غير الأمريكي" عند إخوانهم من المواطنين، بل على المستوى العالمي أيضا. فقد استبدلت سؤال "ما رأيك بالولايات المتحدة؟" بسؤال "هل أنت مع الولايات المتحدة؟". علاوة على ذلك، لا يوجد بلد آخر في العالم يتوقع أن يطرح مثل هذا السؤال عن نفسه. ونظرا لأن أمريكا، بعد أن كسبت الحرب الباردة ضد الاتحاد السوفييتي، قد قررت بشكل لا يصدق في الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ أن قضية الحرية تمثل مرة أخرى معركة حياة أو موت يجب خوضها ضد عدو شرير آخر، لكنه غير واضح الملامح هذه المرة، فإنك إن علقت بأية ملاحظة تشكيكية حول الولايات المتحدة وسياستها سوف تقابل على الأرجح بالغضب والحنق والازدراء من جديد.

ومع ذلك، كم يبدو هذه الإصرار على الاستحسان والقبول غير ذي صلة أو حتى سخيفا وعبثيا! على الصعيد العالمي، تجسد الولايات المتحدة تبعا لكافة المعايير قصة نجاح كبرى دونا عن دول العالم الأخرى في القرن العشرين. فقد غدا اقتصادها الأضخم في العالم، من ناحيتي التقدم والنمط، وطاقاتها فريدة على استيعاب المنجزات التكنولوجية، وأبحاثها رائدة في مجال العلوم الطبيعية والاجتماعية، حتى فلاسفتها

هيمنوا على الساحة على نحو متزايد، كما أن سيطرتها على الحضارة الاستهلاكية الكونية يستحيل تحديها على ما يبدو. لقد أنهت القرن وهي القوة الكبرى والإمبراطورية العالمية الوحيدة الباقية. إضافة إلى أن "الولايات المتحدة تمثل بطريقة ما أفضل ما في القرن العشرين" (١). وإذا جرى قياس الرأي تبعا للمهاجرين لا المبحوثين، فإن أمريكا تعتبر في حكم المؤكد تقريبا الوجهة المفضلة لمعظم البشر الذين توجب عليهم، أو قرروا، الانتقال إلى بلد آخر غير وطنهم الأم (خصوصا بالنسبة لأولئك الذين يعرفون بعض الإنكليزية). وكواحد من الذين اختاروا العمل في الولايات المتحدة، توضح حالتي الخاصة هذه النقطة. لكن لا بد من الاعتراف بأن عملي فيها، أو ميلي إلى الاستمتاع بمباهج الحياة على أراضيها - خصوصا في نيويورك - لا يتضمنان الرغبة في أن أصبح أمريكيا، رغم أن ذلك ما يزال صعب الفهم على العديد من سكان الولايات المتحدة. كما لم يعودا يعنيان ضمنا بالنسبة لمعظم الناس خيارا أبديا بين بلدهم وبلد آخر، كما كان الحال قبل الحرب العالمية الثانية، أو حتى تفجر ثورة النقل الجوي في الستينات، ناهيك عن ثورة الاتصالات والبريد الإلكتروني في التسعينات. فالعمل في بلدين أو حتى في بلاد متعددة، وحتى الحياة في ثقافتين أو ثقافات متعددة، أصبحا من الأمور الشائعة الآن.

ولا جسد المال عامل الجذب الوحيد. الولايات المتحدة تقدم آمالا واعدة بانفتاح أعظم أمام الموهبة والنبوغ، والطاقة والقدرة، والجدة والابتكار، مقارنة بباقي دول العالم. كما أنها تذكر بالتراث القديم، وإن وصل إلى حالة من الانحطاط والتدهور، للاستقصاء الفكري بكل ما يميزه من حرية ومساواة، كما هي الحال في مكتبة نيويورك العامة، التي مازالت تفتح كنوزها (على العكس من مثيلاتها في دول العالم الأخرى) أمام كل من يدخل أبوابها من الجادة الخامسة أو الشارع الثاني والأربعين. من ناحية أخرى، كانت التكلفة البشرية للنظام بالنسبة لأولئك القابعين خارجه، أو الذين "لم ينجحوا بدخوله" ظاهرة للعيان في نيويورك أيضا، على الأقل حتى يدفعوا خارج المدى المنظور للطبقة الوسطى، أي إلى الشوارع أو إلى "عالم السجون" الرهيب الذي يضم أكبر نسبة من المساجين بالنسبة لعدد السكان في العالم كله. حين ذهبت إلى نيويورك

1-Eric J. Hobsbawm, Intervista sul Nuovo Secolo a Cura di Antonio Polito (Bari, 1999), p. 165.

في المرة الأولى، كانت برودواي ما تزال "مكبا" واسعا لحثالة البشر أو "منطقة السقوط" المكتظة بالحانات والفنادق الرخيصة والفقراء والسكارى والمشردين والمهمشين. لكنهم في الثمانينات توزعوا "بعدالة" أكبر على شوارع منهاتن. ومازلت أسمع اليوم بشكل عابر، خلف أولئك الذين يتحدثون في الشوارع بواسطة هواتفهم المحمولة، مناجاة المنبوذين والمجانين على أرصفة نيويورك، في واحد من أسوأ العقود التي عاشتها المدينة قسوة ووحشية. حثالة البشر المهمشين والمحرومين هم الوجه الآخر للرأسمالية الأمريكية، في بلد يستخدم عالم الإجرام في لغته الدارجة فعل "to waste" ("يضيع/ يبذر") ليشير في دلالته للفعل "يقتل".

لكن، وعلى العكس من الدول الأخرى، فإن الولايات المتحدة، تبعا لأيديولوجيتها القومية، لا توجد وحسب، بل تحقق وتنجز. وليس لها هوية جمعية فيما عدا كونها أفضل وأعظم بلد، يتفوق على كل البلاد، ويجسد نموذجا معترفا به للعالم. وكما قال أحد مدربي كرة القدم: "الفوز ليس مجرد أهم الأشياء، بل هو كل شيء". ذلك أحد الأسباب التي جعلت أمريكا تبدو بلدا "غريبا" جدا بالنسبة للأجانب. لا أزال أتذكر شعوري، حين توقفت لقضاء عطلة وجيزة بصحبة الأسرة في بلدة صغيرة وفقيرة ولا يمكن فهم لغة سكانها، على ساحل البرتغال، في طريق العودة من فصل تدريسي قضيته في نيوانغلند، بأنني أرجع إلى وطني وحضارتي. لا علاقة للجغرافيا بالأمر. إذ لم يراودني مثل هذا الإحساس بتجاوز الهوة الثقافية حين توقفت مرة أخرى بعد بضع سنوات لقضاء عطلة قصيرة مماثلة في البرتغال في طريق العودة من أمريكا الجنوبية هذه المرة. ليس أقل هذه الخصائص الثقافية شعور الولايات المتحدة ذاتها بغرابة شعار "في أمريكا فقط.."، أو على الأقل إحساسها الغريب المتزعزع بالذات. السؤال الذي شغل العديد من مؤرخي الولايات المتحدة فيما يتعلق ببلادهم، أي "ماذا يعني أن تكون أمريكيا؟"، هو سؤال نادرا ما أقلق جيلي من المؤرخين في الدول الأوروبية. لم تكن لا الهوية الوطنية ولا الشخصية تمثل معضلة إشكالية بالنسبة للزائرين البريطانيين (في الستينات على أية حال)، أو حتى أولئك الذين انتموا إلى خلفيات ثقافية معقدة في وسط أوروبا، كما يمكن ملاحظة ذلك خلال النقاشات الأكاديمية المحلية. سألتني مارلين في أعقاب واحد من هذه النقاشات: "ما أزمة الهوية هذه التي يتحدثون

عنها؟". إذ لم تسمع بالتعبير قبل وصولنا إلى كامبريدج بولاية ماساتشوستس عام ١٩٦٧.

الأكاديميون الأجانب الذين اكتشفوا الولايات المتحدة في الستينات كانوا على الأرجح أكثر وعيا بخصوصياتها المتميزة، مقارنة بما لو فعلوا ذلك اليوم، لأن العديد منهم لم يندمج بعد في اللغة الكلية الحضور للمجتمع الاستهلاكي المعولم، الذي يتناسب تماما مع "الأنوية"، بل حتى "الأنانة" المتجذرة في عمق ثقافة الولايات المتحدة. فبغض النظر عن الحالة التي كانت عليها الأمور في زمن دي توكفيل، لم يكن الحماس متجها للمساواة والعدالة، بل للفردانية، أي العداء للسلطة والقوانين (الذي يعتبر فوضوية مشرعنة)، التي أصبحت جوهر نظام القيم في الولايات المتحدة. أما ما بقي من المساواة فهو يتجسد بشكل رئيسي في رفض الإذعان الطوعي للسلطة التراتبية للأقوى والأعلى، الأمر الذي قد يفسر ـ تبعا لمعاييرنا ـ الأساليب الفظة، بل الوحشية، التي تستخدم معها القوة داخل/وبواسطة الولايات المتحدة لتحديد من يأمر ومن يطيع.

بدا أن الأمريكيين كانوا منشغلين بأنفسهم وببلادهم إلى حد لم يصل إليه سكان الدول الراسخة الأخرى. لقد كانت "الحقيقة الأمريكية" ـ ولا زالت ـ الموضوع المهيمن بشكل ساحق على الفنون الإبداعية في الولايات المتحدة. فالحلم بأن تشمل كل جوانبها استحوذ على مبدعيها! لم يقم أحد في أوروبا بتأليف كتاب عن "الرواية الإنكليزية العظيمة"، أو "الرواية الفرنسية العظيمة"، لكن الكتاب في الولايات المتحدة ما يزالون يبذلون جهدهم في مجال "الرواية الأمريكية العظيمة"، حتى وإن لم يعودوا يستخدمون العبارة حرفيا. وفي الواقع، فإن الرجل الذي اقترب أكثر من سواه من تحقيق مثل هذا الهدف لم يكن كاتبا، بل مروجا دعائيا يفتقد العمق الفكري لكن يتمتع بقوة مدهشة في ديمومتها، أقنعني بأهميته في نيويورك الناقد الفني البريطاني ديفيد سيلفستر في السبعينات. أين تجد في مكان آخر سوى أمريكا الأعمال الكاملة لأندي وارهول (١٩٣٠-١٩٨٧)، رائد حركة الفن الشعبي الذي أنتج مجموعة هائلة وطموحة من اللوحات التي تتناول المواضيع العادية والمبتذلة للحياة في الولايات المتحدة، بدءا بعلب الشوربة وزجاجات الكوكا كولا، وانتهاء بمنهجياتها، وأحلامها، وكوابيسها، ومشاهيرها وأبطالها وبطلاتها؟ ليس هناك شبيه لها في تراث الفنون البصرية للعالم

القديم. لكن، وعلى شاكلة المحاولات الأخرى للمبدعين الأمريكيين لاقتناص الصورة الشمولية لبلادهم، لا تمثل رؤية وارهول مسعى ناجحا لتحقيق السعادة، لـ"الحلم الأمريكي" الحاضر أبدا في عبارات السياسة الأمريكية الطنانة والهذيان السيكولوجي.

إلى أي مدى تغيرت الولايات المتحدة خلال سنوات حياتي، أو على الأقل خلال أكثر من أربعين عاما مضت منذ أن وطئت قدماي أرضها؟ نيويورك، كما قيل لنا على الدوام، ليست أمريكا، وحتى أولئك الذين لا يمكن أن يكونوا أمريكيين يمكن أن يعتبروا أنفسهم نيويوركيين (كما قال ادوين). لقد حدث معنا ما يحدث في الواقع لكل من يأتي إلى نفس الشقة السكنية كل عام، ويشاهد المجموعة الضخمة من الأبراج المطلة على ساحة الاتحاد التي تزداد فخامة بالتدريج (بواسطة الطبقة الوسطى بعد طرد سكانها من أصحاب الدخل المحدود)، ليتعرف على نفس بواب العمارة الألباني، ويتفاوض لتنظيف بيته مع ذات الخادمة الإسبانية التي لم تجد طيلة السنوات الاثنتي عشرة سنة التي قضتها في المدينة أية ضرورة لتعلم الإنكليزية. وعلى شاكلة باقي النيويوركيين، كنت ومارلين نقدم المعلومات إلى الزوار من خارج المدينة حول الجديد الذي طرأ عليها منذ أن حطت طائرتهم على أرض مطار كنيدي آخر مرة، والمطاعم الجيدة التي اشتهرت في تلك السنة، رغم أننا (على العكس من أصدقائنا المقيمين بصورة دائمة، مثل آل كوفمان، وكاتزنيلسون، وتيللي، وكريمر) لم نكن نستضيفهم في المنزل إن زاد عددهم على اثنين. ومثل نيويوركي حقيقي، كنت أشعر بالأسف لإغلاق مؤسسة مفضلة، وأتبادل الحديث خلال أوقات الغداء المنتظمة في معهد نيويورك للدراسات الثقافية مع خليط من الكتاب، والناشرين، والفنانين، وأساتذة الجامعات، وموظفي الأمم المتحدة، الذين يشكلون المشهد الثقافي المحلي - لأن أحد العوامل الرئيسة التي تجذبني إلى نيويورك هي عدم سيطرة المؤسسة الأكاديمية على الحياة الفكرية. باختصار، لا يوجد مكان في العالم يماثل "التفاحة الكبيرة". ومع ذلك، فمن المستحيل أن توجد في بلد آخر غير الولايات المتحدة، وحتى سكانها من "الكوزموبوليتانيين" يمكن تمييزهم بوصفهم أمريكان، مثل صديقنا الراحل جون ليندنبوم، العالم المتخصص بمبحث علم الدم في أحد مشافي هارلم، والعاشق الموله بموسيقا "الجاز"، الذي حمل معه، حين أرسل في مهمة إلى بنغلاديش للعمل في مشروع

للأبحاث الطبية، مجموعة من أسطوانات "الجاز" وآلة لصنع "الأيس كريم". هنالك العديد من اليهود في نيويورك، وعلى العكس من المناطق الشاسعة الأخرى، يعرف كثير من سكانها ما يحدث في بقية أرجاء العالم، لكن ما عرفته كنيويوركي لا يتناقض في الجوهر مع المعلومات القليلة التي عرفتها عن مناطق الغرب الأوسط وكاليفورنيا.

من الغريب أن الولايات المتحدة، تبعا لتجربتي، لم تتغير بالقدر الذي شهدته الدول الأخرى التي عرفتها خلال نصف القرن الماضي. وليس ثمة مجال للمقارنة بين العيش في باريس، وبرلين، ولندن، التي عرفتها جميعا خلال فترة الشباب، وبين العيش فيها عام ٢٠٠٢؛ حتى فيينا، التي تعمدت إخفاء التغيرات الاجتماعية والسياسية من خلال تحويل نفسها إلى مدينة ملاهي للماضي المجيد. وحتى خط الأفق في لندن، كما أراه من حيث أقيم على منحدرات "تلة البرلمان" قد تغير (بالكاد يمكن مشاهدة مبنى البرلمان الآن)، في حين لم تعد باريس هي نفسها منذ أن ترك كل من المسيو بومبيدو والمسيو ميتران بصماتهما عليها. ومع ذلك، وفي حين أن نيويورك قد شهدت نفس النوع من التحولات الاجتماعية والاقتصادية كحال المدن الأخرى - فقدان البنية التحتية الصناعية، هيمنة أذواق الطبقة الوسطى، التدفق الجماعي من العالم الثالث - إلا أنها لا تبدو مثلها. وهذا أمر مفاجئ، حين تتغير المدينة كل سنة كما يعرف كل نيويوركي. لقد رأيت بنفسي بداية التجديدات الجوهرية في حياة المدينة، مثل افتتاح متجر كوري للخضار والفواكه، وإغلاق بعض المؤسسات الرئيسية للشريحة الدنيا من الطبقة الوسطى النيويوركية مثل "متجر غيمبل المتعددة الأقسام"، وتحويل "شاطئ برايتون" إلى "روسيا الصغرى". ومع ذلك، فإن نيويورك قد بقيت نيويورك (مقارنة بالتغير الذي أصاب لندن مثلا)، وحتى أفق سماء منهاتن مازال في الجوهر كما كان في الثلاثينات، خصوصا الآن بعد اختفاء المعلم الإضافي الطموح لفترة ما بعد الحرب: برجا مركز التجارة العالمية.

هل هذا الرسوخ الظاهر والثبات الواضح وهم؟ الولايات المتحدة، برغم كل شيء، جزء من عالم البشر، الذي تغير وضعه بشكل أعمق وأسرع منذ عام ١٩٤٥ بصورة لم يشهدها التاريخ المكتوب من قبل. هذه التغيرات بدت هناك أقل دراماتيكية بالنسبة

لنا، لأن نمط المجتمع الاستهلاكي المزدهر والمعتمد على التقانة المتقدمة، والذي لم يصل إلينا في أوروبا الغربية إلا في الخمسينات، لم يكن جديدا في أمريكا. وفي حين عرفت بحلول الستينات أن ثمة فجوة تاريخية قسمت أسلوب حياة وتفكير البريطانيين إلى ما قبل وما بعد الخمسينات، كان العقد بالنسبة للولايات المتحدة،أو على الأقل بدا، مجرد نسخة أكبر وأفضل من ذلك القرن العشرين الذي عرفه سكانه البيض الأكثر حظا وازدهارا طيلة جيلين، بعد أن استعادت الثقة في أعقاب صدمة الكساد الكبير. وبالنسبة للمراقب الخارجي، تابعت الولايات المتحدة مسيرتها على ذات الخطوط السابقة، رغم أن بعض شرائح مواطنيها ـ من خريجي الجامعات على الأغلب ـ قد بدؤوا يفكرون بها بشكل مختلف. ومع زيادة التحديث الذي شهدته دول الاتحاد الأوروبي، أخذت وسائل وأساليب الحياة التي اتصل بها السياح الأوروبيون تبدو أقل "تقدما"، بل حتى بالية نوعا ما. كاليفورنيا مثلا لم تبد لي مختلفة اختلافا جوهريا حين سافرت عبرها بالسيارة في السبعينات، والثمانينات، والتسعينات، عن حالها التي بدت عليها في الستينات، بينا اختلفت إسبانيا وصقلية. أما نيويورك فقد ظلت مدينة "كوزموبوليتانية" من المهاجرين طيلة حياتي؛ في حين لم تصبح لندن كذلك إلا بعد الخمسينات. صحيح أن التفاصيل الصغيرة قد تغيرت في "السجادة" الأمريكية الضخمة، وهي تتغير باستمرار، لكن نمطها الأساسي ظل مستقرا لا يتغير على المدى القصير.

عرفت ـ كمؤرخ ـ أن وراء هذا الاستقرار المتبدل ظاهريا، هناك تغيرات أكبر وأبعد مدى تحدث، ولربما تكون جوهرية، لكنها مخبأة خلف المقاومة المتعمدة للتغيير من قبل المؤسسات والخطوات الإجرائية الأمريكية العامة، وعادات الحياة الأمريكية، إضافة إلى ما دعاه بيير بورديو بتعبير أعم "الطبع السلوكي" للأمريكان أو طريقتهم في الأداء. إن لاهوتي الجمهورية، وأعضاء مؤسسات الولايات المتحدة، وقد أجبروا على ارتداء "سترة المساجين" التي خاطها دستور يعود إلى القرن الثامن عشر، وشد خيوطها المحامون ورجال القانون طيلة قرنين من التأويلات التلمودية، يجدون أنفسهم عام ٢٠٠٢ في حالة من الجمود وفقدان حرية الحركة، لا يمكن مقارنتها بحال نظرائهم في كافة الدول الأخرى تقريبا. لقد أجلت الولايات المتحدة إحداث حتى التغييرات البسيطة

التي لا تتجاوز مثلا انتخاب أمريكي من أصل إيطالي، أو يهودي (ناهيك عن امرأة) لمنصب الرئاسة. كما جعل كل ذلك حكومة الولايات المتحدة منيعة على الشخصيات العظيمة، أو في الحقيقة على أي شخص يتخذ قرارات حاسمة، نظرا لاستحالة اتخاذ القرار الفاعل على المستوى القومي بسرعة، حتى بواسطة رئيس. الولايات المتحدة، على الأقل في حياتها العامة، دولة موجهة ومكيفة ليكون أداؤها متوسط الجودة، لأن عليها القيام بذلك، وكانت غنية وقوية بما يكفي لهذا المستوى من الأداء في القرن العشرين. إنها الدولة الوحيدة التي عرفتها طيلة حياتي السياسية استبدل فيها ثلاثة رؤساء قادرين ومؤهلين (روزفلت، وكنيدي، ونيكسون) بين عشية وضحاها بثلاثة رجال يفتقدون القدرة والكفاءة والأهلية، ولا ينتظر منهم أداء المهمة بنجاح، وذلك دون أن يحدثوا أي فرق ملحوظ في سيرورة تاريخ الولايات المتحدة والعالم. المؤرخون المؤمنون بتفوق السياسة الحصيفة والشخصيات العظيمة يجدون الولايات المتحدة قضية صعبة وشائكة. الأمر الذي خلق آليات ضبابية للحكم الحقيقي في واشنطن، ومما جعل الحالة أكثر إبهاما مصادر التمويل الإشكالية الآتية من الشركات وجماعات الضغط، وعدم قدرة العملية الانتخابية على التمييز بين الواقع الحقيقي للبلاد وسياستها المتبعة التي تزداد خضوعا للقيود باطراد. إذن، ومنذ نهاية الاتحاد السوفييتي، استعدت الولايات المتحدة تماما لتعمل باعتبارها القوة العظمى الوحيدة في العالم. لكن المشكلة تكمن في أن حالتها ليست لها سابقة في التاريخ، وأن نظامها السياسي مكيّف ليناسب مطامح وردود أفعال المقترعين في نيوهامبشر والفلسفة الحمائية الإقليمية، وأنها لا تعرف ماذا تفعل بقوتها، وأن العالم في حكم المؤكد تقريبا أكبر وأشد تعقيدا من أن تهيمن عليه لفترة طويلة أية قوة عظمى بمفردها، مهما بلغت مصادرها العسكرية والاقتصادية. إن جنون العظمة هو الداء المهني للدول المنتصرة على الصعيد العالمي، إلا إذا تحكم بها الخوف. وليس هناك أحد أو شيء يتحكم بالولايات المتحدة اليوم. ولهذا السبب - كما كتبت في نيسان/أبريل ٢٠٠٢- يمكن لقوة الولايات المتحدة الهائلة أن تزعزع استقرار العالم، وهي تفعل ذلك مثلما هو واضح.

مشكلتنا لا تكمن في أننا "تأمركنا". وبالرغم من التأثير الهائل لـ"الأمركة" الثقافية والاقتصادية، إلا أن بقية الدول، حتى في العالم الرأسمالي، ظلت حتى الآن

تقاوم بشكل مدهش اتباع النموذج السياسي والاجتماعي للولايات المتحدة. وهذا يرجع على الأرجح إلى أن أمريكا نموذج - اجتماعي وسياسي للديمقراطية الليبرالية الرأسمالية - أقل لحمة وتماسكا، وبالتالي أقل قابلية للتصدير، اعتمادا على المبادئ الدولية للحرية الفردية، مقارنة بما يوحي به دستورها وأيديولوجيتها الوطنية. والولايات المتحدة التي هي أبعد ما تكون عن أن تمثل نموذجا واضحا تحتذيه بقية دول العالم، برغم قوتها ونفوذها، تبقى منهمكة في عملية خرقاء لا نهائية، تشوهها الأموال الطائلة وعواطف الرأي العام، لجعل المؤسسات، العامة والخاصة، تتكيف مع الحقائق التي لم يتوقعها النص الجامد لدستور ١٧٨٧ . فهو ببساطة لا يلائم النسخ والاجتهاد، ولا يمكن اتخاذه نموذجا، ومعظم الناس راغبون عن ذلك. منذ سن النضج أمضيت في الولايات المتحدة وقتا أطول من أي بلد آخر (باستثناء بريطانيا)، ومع ذلك، فأنا سعيد لأن أولادي لم يتربوا هناك، وأنني أنتمي إلى ثقافة أخرى، وإن كانت هي ثقافتي أيضا.

مشكلتنا على الأرجح تكمن في أن الإمبراطورية الأمريكية لا تعرف ماذا تريد، أو يمكن أن تفعل بقوتها، أو حدودها. فهي تكتفي بالإصرار على أن من ليس معها فهو ضدها. تلك هي ببساطة المشكلة التي تواجه من يعيش في ذروة "القرن الأمريكي". ونظرا لأنني في الخامسة والثمانين من العمر فمن غير المرجح أن أرى حلا لها.

-٢٣-

خاتمة

تنتهي السير الحياتية بموت أصحابها، لكن السير الذاتية ليس لها مثل هذه الخاتمة الطبيعية. ومع ذلك فإن لهذه السيرة الذاتية ميزة الانتهاء في لحظة انقطاع دراماتيكية لا يمكن إنكار أهميتها في تاريخ العالم، وذلك في أعقاب هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ على مركز التجارة العالمية والبنتاغون. وعلى الأرجح، لم يعرف تاريخ العالم من قبل حدثا مفاجئا مثله خبره البشر مباشرة. رأيت المشهد على شاشة التلفزيون في أحد مشافي لندن حيا على الهواء، حيث جسد، بالنسبة لمؤرخ هرم نزاع إلى مبدأ الشك، ولد في نفس السنة التي اندلعت فيها الثورة الروسية، كل ما هو سيئ في القرن العشرين: المذابح، التقانة المتقدمة لكن غير الجديرة بالثقة، التصريح العلني بأن الصراع العالمي يدور مرة أخرى بين الخير والشر مع تحول الحياة الواقعية إلى فيلم هوليودي درامي. اجتاحت البيانات والتصريحات العلنية العالم الغربي بتعابيرها الجوفاء ومضمونها التافه، وذلك مع بحث الكتاب المأجورين عن الكلمات المبتذلة لوصف الحدث الذي ينأى عن الوصف، وعثروا على ضالتهم لسوء الحظ.

عصر وسائل الإعلام والسياسة الأمريكي بصوره التلفزيونية وبياناته الخطابية، أفرز فجوة مضخمة بين فهم الولايات المتحدة وفهم بقية دول العالم لما حدث في ذلك اليوم المروع. فالعالم لم يعتبر ما حدث سوى هجوم إرهابي دراماتيكي أوقع عددا كبيرا من الضحايا وجرح كبرياء وكرامة الولايات المتحدة. وفيما عدا ذلك لم يختلف الوضع عما كان عليه منذ انتهاء الحرب الباردة، ولا يدعو بالتأكيد إلى دق ناقوس الخطر الداهم للقوة العظمى الوحيدة في العالم [١]. لكن واشنطن أعلنت أن الحادي عشر من

١- انظر الموجز الذي كتبته عن الوضع العالمي في "عصر النهايات القصوى" قبل ثمان سنوات ، الفصل ١٩ ، "نحو الألفية الجديدة" ، خصوصا الصفحات ٥٥٨-٥٦٢ .

أيلول/سبتمبر قد غيّر كل شيء، وبإعلانها ذاك غيّرت فعلا كل شيء، حين اعتبرت نفسها ـ عمليا ـ الحامي الأوحد للنظام العالمي، والدولة الوحيدة التي تملك حق تحديد وتعريف التهديدات الموجهة لها. وكل من لا يوافق على ذلك هو عدو محتمل أو فعلي. لم يكن هذا الأمر مفاجئا، نظرا لأن استراتيجيات الإمبراطورية العسكرية الأمريكية على الصعيد العالمي كانت تستعد للأمر منذ أواخر الثمانينات، وفي الحقيقة بواسطة نفس الأشخاص الذين يطبقونها الآن. ومع ذلك، أثبتت أحداث الحادي عشر من أيلول/سبتمبر أننا نعيش في عالم تحكمه دولة واحدة مفرطة في قوتها قررت في نهاية المطاف (بعد انهيار الاتحاد السوفييتي) أنه لا توجد حدود على المدى القصير لقوتها ولا لإرادتها باستخدامها، رغم أن الهدف من استخدامها ـ فيما عدا إظهار واستعراض التفوق ـ غير واضح المعالم. لقد انتهى القرن العشرون، وابتدأ القرن الحادي والعشرون وسط جو ضبابي يسوده الإبهام والغموض.

ليس ثمة مكان أفضل من سرير المستشفى، المركز النموذجي للضحايا الأسيرة، للتفكير بطوفان الكلمات والصور "الأورويلية" (التي تستحضر الرواية الشهيرة "١٩٨٤")، الذي طغى على وسائل الإعلام المطبوعة والمرئية آنئذ. كانت كلها مفبركة لتخفي الحقائق وتخدع وتضلل الناس، بمن فيهم أولئك الذين قاموا بتلفيقها وإنتاجها. تراوح التزييف بين الأكاذيب البسيطة الساذجة، والمراوغة الديناميية التي وظفها الديبلوماسيون، والسياسيون والجنرالات ـ وفي الحقيقة كلنا اليوم ـ لتجاهل الأسئلة العامة التي نكره/أو نخشى الإجابة عنها، بدءا بتلك المتعلقة بالخداع السافر، مثل الادعاء بأن من المتوجب إسقاط نظام صدام حسين (وأعترف بأنه هدف مغر) بسبب التهديد الذي تشكله "أسلحة الدمار الشامل" العراقية، وانتهاء بالذرائع والتبريرات التي يقدمها للسياسة الأمريكية أولئك الذين يفترض أن يعرفوا أكثر، على أساس أنها تخلصت من الستالينية في الماضي. صناع القرار والاستراتيجيات في واشنطن حين يتحدثون اليوم بلغة سياسة القوة المجردة (ليس على المرء سوى الاستماع إليهم في التصريحات غير الرسمية والبيانات الرسمية أحيانا)، فإنهم يشددون على الكذبة

الوقحة المطلقة التي تقدم مؤسسة الإمبراطورية الأمريكية العالمية باعتبارها ردة فعل دفاعية عن الحضارة، على وشك التعرض لاجتياح أهوال بربرية مجهولة تنأى عن الوصف، إلا إذا دمرت "الإرهاب الدولي". لكن، بالطبع، في عالم تبهت فيه الحدود الفاصلة بين "اينرون" (ENRON) وحكومة الولايات المتحدة، فإن تصديق المرء لأكاذيبه، على الأقل في لحظة التفوه بها، تجعلها تبدو أكثر إقناعا للآخرين.

حين كنت ممدا على السرير، محاطا بالصحف وأخبار التلفزيون، توصلت إلى نتيجة مفادها أن عالم سنة ٢٠٠٢ بحاجة للمؤرخين أكثر من أي وقت مضى، خصوصا الذين يتبنون مذهب الشك منهم. إن قراءة كتابات مؤرخ عجوز طاف معظم أرجاء العالم طيلة العمر، قد تساعد الشباب على مواجهة الاحتمالات المظلمة للقرن الحادي والعشرين، لا بالتشاؤمية الضرورية فقط، بل أيضا بنظرة أكثر وضوحا، وإحساس بالذاكرة التاريخية، وقدرة على الابتعاد عن العواطف والمشاعر والأهواء الحماسية الراهنة، والكلمات الطنانة التي تستهدف حث الرأي العام وإقناعه بقبول ما يقال.

الشيخوخة تفيد هنا. فهي بحد ذاتها تجعلني من القلة النادرة من حيث العدد، نظرا لأن إحدى الإحصائيات قد قدرت عدد البشر الذين بلغوا أو تجاوزوا الثمانين عام ١٩٩٨ بحوالي ستة وستين مليونا، أي ما يقارب ١٪ من سكان العالم. وبفضل العمر المديد فقط فإن التاريخ الذي ينتمي إلى الكتب بالنسبة للآخرين، هو جزء من حياة وذاكرة هذه الأقلية الصغيرة. وبالنسبة للقارئ المحتمل الذي يوشك أن يدخل الجامعة، أي ذلك الذي ولد في أوائل أو منتصف الثمانينات، فإن معظم القرن العشرين ينتمي إلى الماضي البعيد الذي لم يبق منه شيء تقريبا في الوعي الفعلي فيما عدا الأفلام "القديمة" التي يشاهدها على شاشات السينما أو عبر أشرطة الفيديو، والصور الذهنية المتفرقة والممزقة عن القرن، التي أصبحت - لسبب أو آخر - جزءا من الأسطورة الجمعية كحال حكايا وأحداث الحرب العالمية الثانية في بريطانيا. معظم القرن لا ينتمي إلى الحياة بل إلى الاستعداد لدخول الامتحانات المدرسية والجامعية. اليوم الشتائي البارد الذي وصل فيه ادولف هتلر إلى السلطة في برلين (وأنا أتذكره بوضوح)، بعيد بمسافة

غير قابلة للقياس بالنسبة للشباب في عمر العشرين. أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢، التي تزوجت خلالها، ليس لها معنى إنساني في حياتهم، ولا في حياة العديد من آبائهم، لأن أولئك الذين يبلغون الأربعين أو أقل قليلا لم يكونوا قد ولدوا بعد حين حدثت. هذه الأشياء ليست جزءا من سلسلة من الأحداث المرتبة زمنيا بحيث تحدد شكل حياتنا الخاصة في المجال العام للعالم، كما كانت بالنسبة لأفراد جيلي، لكنها موضوع للفهم الفكري في أفضل الحالات، وفي أسوأها جزء من مجموعة عشوائية ومختلطة من الأشياء التي حدثت "قبل العصر الذي أعيش فيه".

المؤرخون من جيلي هم المرشدون للفترات الحاسمة في الماضي، والبلاد الأخرى التي تصرفوا فيها بصورة مختلفة، لأننا عشنا هناك. ولربما لا نعرف عن تاريخ الحقبة أكثر من زملائنا الأصغر سنا الذين يكتبون عن تلك الفترة التي عشنا فيها اعتمادا على مصادر لم تكن متوفرة لنا، أو حتى لغيرنا في الواقع الفعلي. فعلى الأقل يمكننا الاعتماد على الذاكرة حين لا تضعفها الشيخوخة. صحيح أنك عندما لا تستعين بالوثائق المكتوبة تخطئ الحقائق حتما، لكن من ناحية أخرى، كنا هناك (في الزمان والمكان)، ونعرف الشعور السائد آنئذ، الأمر الذي يزودنا بمناعة طبيعية ضد المفارقات التاريخية التي قد يقع فيها من لم يكن موجودا في تلك الفترة.

العيش لمدة تزيد عن الثمانين عاما من القرن العشرين كان درسا طبيعيا في تحولات القوة السياسية، والإمبراطوريات، والمؤسسات. فلقد شهدت اختفاء الإمبراطوريات الاستعمارية، ولا سيما أعظمها على الإطلاق: الإمبراطورية البريطانية، التي لم تكن أكبر وأقوى مما كانت عليه في سنين طفولتي، حين سبقت الكل في تبني استراتيجية حفظ النظام في أمكنة مثل كردستان وأفغانستان عبر القصف الجوي. شهدت القوى العالمية الكبرى تتراجع إلى الدرجة الثانية، ونهاية الإمبراطورية الألمانية التي توقعت أن تعمر ألف سنة، والقوة الثورية التي توقعت أن تدوم إلى الأبد. من غير المرجح أن أشهد نهاية "القرن الأمريكي"، لكن أراهن بأن بعض قراء هذا الكتاب سوف يشهدونه.

علاوة على ذلك، فإن أولئك الذين بلغوا من العمر عتيا قد شهدوا العديد من الأنماط والطرائق والأساليب التي سادت ثم بادت. ومنذ نهاية الاتحاد السوفييتي، أصبح من الحكمة التقليدية والحصافة السياسية الاعتقاد بعدم وجود بديل لمجتمع الرأسمالية الفرداني، وغدت الأنظمة السياسية للديمقراطية الليبرالية، التي شاع الإيمان الراسخ بارتباطها الأصيل به، الصيغة المعيارية للحكم في كل مكان من العالم تقريبا. هيمن هذا الاعتقاد على نطاق واسع قبل عام ١٩١٤ أيضا، رغم أنه لم يشهد الانتشار الذي يلاقيه اليوم. لكن بالنسبة لمعظم سنوات القرن العشرين، بدت كل هذه الافتراضات بعيدة الاحتمال وغير قابلة للتصديق والتحقيق. الرأسمالية ذاتها بدت على حافة الهاوية. ومهما بدا الأمر غريبا، افترض المراقبون العقلانيون، خلال الفترة الممتدة بين الثلاثينات والستينات، أن النظام الاقتصادي الخاضع لسيطرة الدولة الذي يتبناه الاتحاد السوفييتي ضمن الخطط الخمسية، بغض النظر عن بدائيته وعدم كفاءته كما اتضح لأكثر زوار الاتحاد السوفييتي تعاطفا وتحمسا له، يمثل البديل العالمي النموذجي لـ"الاقتصاد التنافسي الحر" القائم على المشاريع الفردية الخاصة في العالم الغربي. كانت النظرة إلى "الرأسمالية" آنئذ تشبه النظرة إلى "الشيوعية" اليوم. واعتبر المراقبون الذين يتمتعون بالنزاهة والحصافة أنها ستتفوق عليها. وليس من المفاجئ بالنسبة لي أن أجد نفسي مرة أخرى في جيل يرتاب بالرأسمالية، رغم أنه لم يعد يؤمن بالبديل الذي اخترناه لها.

بالنسبة لكل من هم في مثل عمري، يعتبر العيش طيلة القرن العشرين درسا فريدا بكل ما في الكلمة من معنى في تأثير القوى التاريخية الأصيلة. ففي السنوات الثلاثين التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، تغير العالم وطريقة الحياة فيه بصورة سريعة وجوهرية فاقت أية حقبة أخرى تماثلها في الطول خلال التاريخ البشري كله. وأولئك الذين بلغوا عمري في دول الشمال يمثلون الجيل الأول من البشر الذين عاشوا فعلا كبالغين قبل انطلاق مركبة الإنسانية الجماعية إلى مدارات من الغليان الاجتماعي والثقافي غير المسبوقة والتي يشهدها العالم اليوم. نحن الرعيل الأول الذي عاش عبر

اللحظة التاريخية التي شهدت توقف وعجز كافة القوانين والقواعد والأعراف التي جمعت كل البشر حتى الآن ضمن أسر، ومجتمعات محلية، وجمعيات. وإذا أردت أن تعرف كيف كان الوضع يمكننا إخبارك. أما إن اعتقدت بأنك قادر على العودة إليه فسنقول لك: مستحيل!

II

تنتج سنوات العمر المديد نوعا واحدا من المنظور التاريخي، لكنني آمل بأن تكون حياتي قد ساعدتني على إبراز منظور آخر: البعد والمسافة. إن الفرق الحاسم بين كتابة تاريخ الحرب الباردة - ناهيك عن وصف حقبة مروجي العلاج السحري الشافي من كل العلل والشرور: "الحرب ضد الإرهاب" - وبين كتابة تاريخ حرب السنوات الثلاثين في القرن السابع عشر، هو أننا لم نعد نتوقع أن نأخذ هذا الجانب أو ذاك ككاثوليك أو بروتستانت (باستثناء ما يحدث في بلفاست)، أو حتى أن نأخذ أفكارهم على محمل الجد كما فعلوا. لكن التاريخ بحاجة إلى البعد، ليس فقط عن الأهواء، والعواطف، والإيديولوجيات، والمخاوف من حروبنا الدينية (الراهنة)، ولكن أيضا عن إغواءات "الهوية" الأشد خطرا وخطورة. التاريخ بحاجة إلى الحراك والقدرة على مسح واستكشاف أرض واسعة رحبة، أي إلى المقدرة على تجاوز الجذور. لهذا السبب لا يمكن أن نكون "نباتات" عاجزة عن مغادرة تربتها الأصلية وبيئتها المحلية. إذ لا يمكن لأية بيئة مناسبة أو محيط ملائم لوحدهما أن يستنفدا موضوعنا. لا يمكن لنموذجنا المثالي أن تجسده شجرة سنديان أو شجرة جبارة (Redwood)، مهما كانت جليلة ومهيبة، بل هو الطير المهاجر الذي يشعر بأنه في موطنه حتى وإن عاش في القطب الشمالي أو المنطقة المدارية، بعد أن يقطع نصف الكرة الأرضية. المفارقة التاريخية والإقليمية الضيقة هما الخطيئتان المميتتان للتاريخ، يسببهما معا الجهل المطبق بحال الأشياء في الأماكن الأخرى، ومن النادر أن تغالبه القراءة المحدودة وقوة الخيال. الماضي يبقى بلدا آخر، لا يمكن إلا للرحالة عبور حدوده. والرحالة هم بالتعريف (وبغض النظر عن البدو "الرحل") أشخاص يعيشون خارج مجتمعاتهم المحلية.

لحسن الحظ، ومع تتبع القراء صفحاتي حتى الآن، فقد كنت أنتمي طيلة حياتي إلى الأقليات اللانمطية، ابتداء بالميزة الهائلة لخلفية عشتها في إمبراطورية هابسبرغ القديمة. فمن بين كافة الإمبراطوريات الكبرى المتعددة اللغات والأراضي والأقاليم التي انهارت في مسار القرن العشرين، كان انحطاط وسقوط إمبراطورية فرانز جوزيف (توقع وشهد نهايتها المراقبون العارفون) قد تركا لنا على الأغلب أقوى تسلسل تاريخي - أدبي أو روائي - للأحداث. امتلك المفكرون النمساويون الوقت الكافي للتأمل في موت وتفكك إمبراطوريتهم، في حين انهارت كافة الإمبراطوريات الأخرى فجأة، على الأقل بمقياس الساعة التاريخية، حتى تلك التي عانت من تدهور واضح للعيان في حالتها الصحية مثل الاتحاد السوفييتي. لكن ربما ساعدتهم عوامل التعددية اللغوية، والمذهبية، والثقافية المعروفة والمقبولة، على تبني منظور تاريخي أكثر تعقيدا. فقد عاش رعاياها في ذات الوقت في عوالم اجتماعية متباينة وحقب تاريخية مختلفة. كانت مورافيا عند نهاية القرن التاسع عشر مثلا موئلا لعلم الوراثة (جورج مندل)، و"تفسير الأحلام" (سيغموند فرويد)، وأوبرا "يينوفا" (ليوس ياناتشيك المؤلف الموسيقي الشهير). أتذكر المناسبة التي وجدت نفسي فيها في مدينة المكسيك خلال مؤتمر المائدة المستديرة الدولي حول الحركات الفلاحية في أمريكا اللاتينية، حين أدركت فجأة حقيقة أن أربعة من بين الخبراء الخمسة المشاركين قد ولدوا في فيينا..

لكن حتى فيما وراء ذلك، أجد نفسي في عبارة أي. ام. فورستر حول سي. بي. كافافي (الشاعر اليوناني/المصري الذي كتب بالإنكليزية وولد في الاسكندرية]مسقط رأسي أيضا([، الذي "نظر إلى الكون من زاوية مفتوحة". بالنسبة للمؤرخ، كما المصور الفوتوغرافي، تعتبر تلك طريقة جيدة للنظر إلى الأمور.

كان وضعي على هذا النحو معظم سنوات العمر: نموذج نمطي منذ الولادة في مصر، التي لم يكن لها أي تأثير في حياتي، كأنني شخص آخر. لقد ارتبطت بالعديد من البلدان وشعرت فيها بأنني في وطني، كما رأيت أشياء كثيرة في بلدان أخرى. لكنني كنت فيها جميعا، حتى تلك التي ولدت وأنا أحمل جنسيتها، شخصا لا ينتمي

كليا إلى المكان الذي يجد نفسه فيه (وإن لم يكن بالضرورة غريبا أو لا منتميا): كنت إنكليزيا بين سكان وسط أوروبا، ومهاجرا من القارة في بريطانيا، ويهوديا في كل مكان - حتى، وخصوصا في، إسرائيل - ومعاديا للتخصص في عالم الخبراء المتخصصين، و"كوزموبوليتانيا" متعدد اللغات، ومفكرا كرس عمله السياسي والأكاديمي لغير المفكرين، وخارجا عن سرب الشيوعيين (معظم سنوات حياتي) الذين يشكلون بدورهم أقلية سياسية في البلاد التي عرفتها. كل ذلك عقّد حياتي الشخصية باعتباري كائنا بشريا، لكنه كان بمثابة نقطة قوة ساعدتني في مهنتي كمؤرخ.

سهل كل ذلك علي مقاومة ما دعاه باسكال "أسباب القلب التي لا يعرف العقل عنها شيئا"، أي التماهي الوجداني مع بعض الجماعات العلنية أو المختارة. ونظرا لأن الهوية تحدد إزاء الآخر، فهذا يعني ضمنا عدم التماهي معه، الأمر الذي يفضي إلى الكارثة. لهذا السبب تحديدا لا يعتبر التاريخ المكتوب للجماعة التفضيلية ("تاريخ الهوية") - تاريخ الزنوج للزنوج فقط، التاريخ المثلي للشاذين جنسيا دون غيرهم، التاريخ النسوي للنساء فقط - مرضيا كتاريخ، حتى وإن كان أكثر من مجرد نسخة مشوهة سياسيا عن فرع أيديولوجي لجماعة أوسع تشترك في نفس الهوية. لكن لا توجد جماعة ذات هوية مشتركة، مهما كبرت، تعيش لوحدها في العالم، إذا لا يمكن تغييره ليناسبها على نحو خاص، وينطبق ذلك على الماضي أيضا.

يعتبر كل هذا حاجة ملحة وعاجلة خصوصا في بداية القرن الجديد، وفي أعقاب نهاية القرن العشرين الوجيز. فمع تفكك أنظمة الحكم القديمة، تتلاشى أشكال السياسة القديمة، وتتكاثر الدول الجديدة، وتصبح صناعة تواريخ جديدة تتناسب مع الأنظمة، والدول، والحركات الإثنية، وجماعات الهوية المشتركة الجديدة صناعة عالمية. ومع تزايد نهم البشر للاستمرارية مع الماضي، يعمل مجتمع وسائل الإعلام على إشباعه بابتكار نسخة من التاريخ الطبيعي الرائج، "تراث" ومدن للملاهي بألبسة تنكرية عتيقة الطراز. وحتى في الديمقراطيات التي فقدت فيها السلطات الاستبدادية القدرة على الحكم والتحكم بما يمكن أن يقال عن الماضي والحاضر، فإن القوة المشتركة لجماعات الضغط،

وتهديد عناوين الأخبار الرئيسية، والدعاية السلبية، بل حتى الهستيريا العامة، تفرض حاجزا من الصمت عن طريق المراوغة، والتغييب، والرقابة الذاتية العامة لـ"الصوابية السياسية". وحتى في هذه الأيام (٢٠٠٢)، تحدث صدمة للرأي العام حين يقوم غونتر غراس، الكاتب المناهض للنازية بعناد، والذي يتمتع بشجاعة أخلاقية ومعنوية مشهودة، باختيار مأساة غرق سفينة مليئة باللاجئين الألمان الهاربين من زحف الجيش الأحمر في المراحل الأخيرة من الحرب العالمية الثانية، موضوعا لإحدى رواياته.

III

اختبار حياة المؤرخين يتمثل في قدرتهم على طرح الأسئلة والإجابة عنها، خصوصا تلك التي تبدأ بـ"ماذا لو..؟"، وتتناول أمورا ذات أهمية انفعالية لهم وللعالم، كأنما هم صحفيون يصفون أشياء مضى عهدها ـ ومع ذلك يجب أن لا يقوموا بذلك كأغراب لا منتمين، بل كمشاركين فاعلين ومنخرطين في الحدث. هذه الأسئلة لا تتعلق بالتاريخ "الحقيقي"، الذي لا يدور حول ما نرغب، بل حول ما حدث، وما كان من الممكن أن يحدث بطريقة مختلفة لكن لم يتخذ هذا المنحى. إنها أسئلة حول الحاضر لا الماضي، الأمر الذي يفسر أهميتها بالنسبة لأولئك الذين يعيشون في بداية القرن الجديد، شيبا وشبانا سواء بسواء. الحرب العالمية الأولى لم يتمكن العالم من تفاديها، ولذلك يصبح السؤال المتعلق بإمكانية تجنبها سؤالا أكاديميا. وإذا قلنا إن خسائرها وضحاياها لم تكن تحتمل (كما يوافق معظم الناس)، أو أن أوروبا/ألمانيا التي كانت ستظهر في أعقاب انتصار القيصر ستكون افتراضا أفضل من عالم فيرساي (كما أؤمن)، فإنني لا أقترح بأنها ستكون مختلفة. ومع ذلك، لا بد أن أفشل في الاختبار إذا ما طرح علي نفس السؤال ـ حتى نظريا ـ حول الحرب العالمية الثانية. يمكنني، بجهد جهيد، أن أتخيل الدليل البرهاني على أن إسبانيا ستكون بحالة أفضل لو نجح انقلاب فرانكو عام ١٩٣٦، لتجنب الحرب الأهلية. أنا مستعد للإقرار، آسفا، بأن كومنترن لينين لم يكن فكرة جيدة، ولا مشروع تيودور هيرتزل لإقامة دولة يهودية (هذه المرة لا أجد أية

صعوبة، لأنني لم أكن صهيونيا أبدا طيلة حياتي). كان من الأفضل له لو ظل صحفيا يكتب عمودا في جريدة "نو فري بريس". لكن لو طلبت مني التفكير باحتمال أن هزيمة القومية الاشتراكية لا تستحق سقوط خمسين مليونا من الضحايا علاوة على كل تلك الأهوال التي تنأى عن الحصر للحرب العالمية الثانية، فإنني ببساطة لا أقدر. أتطلع إلى إمبراطورية أمريكية عالمية، لا تملك فرصا كبير للبقاء على المدى البعيد، بخوف أكبر وحماس أقل مقارنة بحالي حين أنظر إلى الماضي وأرى سجل الإمبراطورية البريطانية القديمة، التي أدارتها دولة حماها حجمها المتواضع من جنون العظمة. أية علامات سأحصل عليها في الاختبار؟ إن كانت متدنية جدا، فإن هذا الكتاب لن يقدم للقراء العون الكافي وهم يدخلون القرن الجديد، وأمام معظمهم حياة أطول من عمر المؤلف.

ومع ذلك، دعونا لا نلقي السلاحَ، حتى في الزمان الرديء. فمازلنا بحاجة لإدانة ومكافحة الظلم الاجتماعي. والعالم لن يصبح مكانا أفضل من تلقاء ذاته.

هذا كتاب مذكرات خاص جداً ، لكننا لانعرف هل هي مذكرات المؤلف ؟، أم مذكرات القرن العشرين؟

سيظل القرن العشرين هو الأكثر تأثيراً في حياة البشرية ، فألى جانب الحربين العالميتين ، هناك منجزات حضارية ومتغيرات عاصفة في العلوم والفنون والآداب ، وأختراق للفضاءات البعيدة وأعماق الأرض . وأحلام سعيدة وأخطار طاغية .


ISBN:2-84305-908-X
9 782843 059087